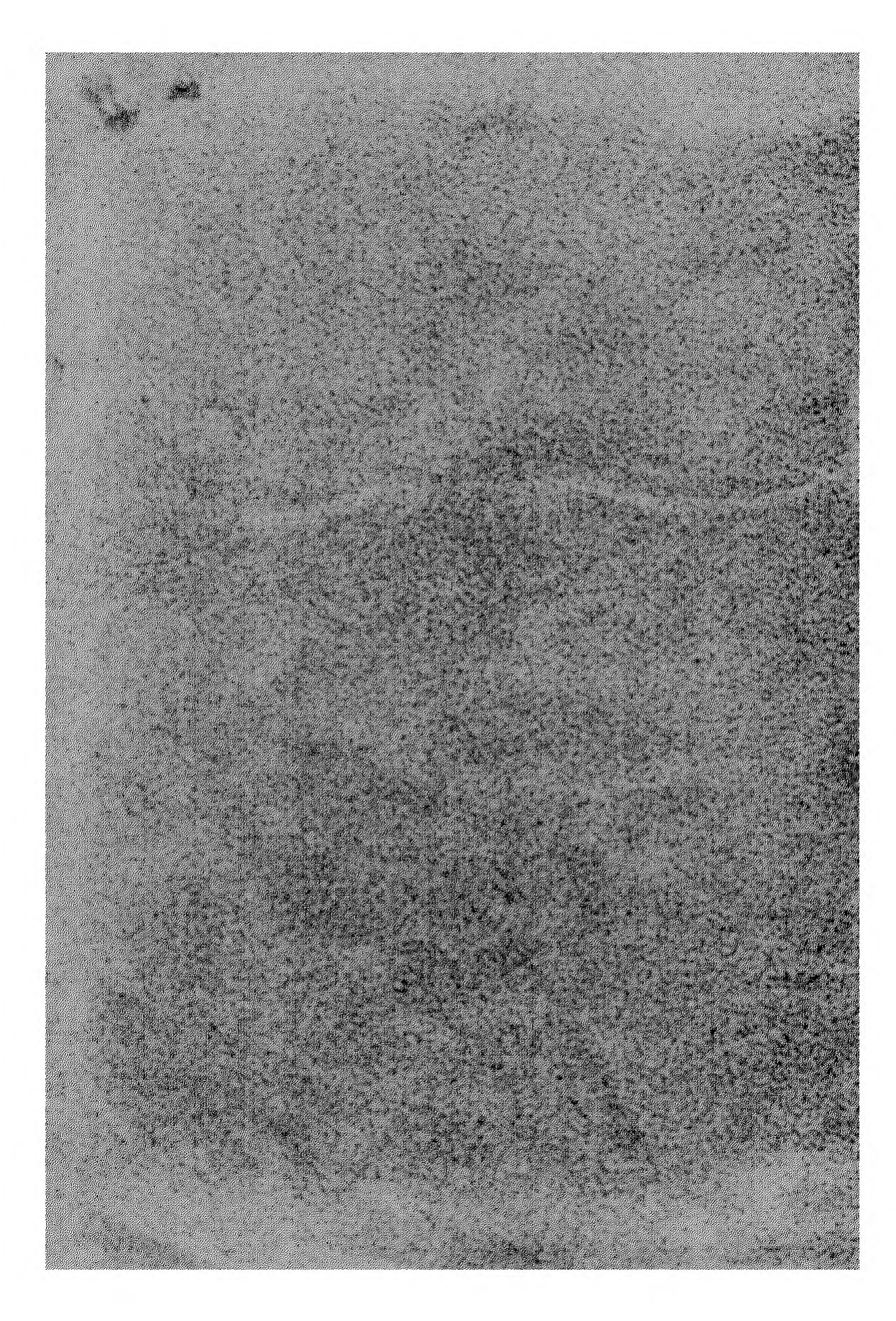

Bibliotheca Alexandrina
0136538





كتاب الهلال

علمتني الحياة

بأقلام

نخبة من الشرق والغرب

أشرف عليه

الدكتور أحمد أمين

سلسلة شهرية
تصدر عن دار الهلال

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »
شركة مساهمة مصرية

رئيس التحرير : طاهر الطناحى

العدد ٣١ ـ المحرم ١٣٧٣ ـ اكتوبر ١٩٥٣

No. 31 — October 1953

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب .

(المبتديان سابقا) القاهرة

المكاتبات

كتاب الهلال ـ بوستة مصر العمومية ـ مصر

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ـ مصر والسودان ٨٥ قرشا صاغا ـ سوريا ولبنان ١٠٧٥ قرشا سوريا أو لبنانيا ـ الحجاز والعراق والأردن ١١٠ قروش صاغ ـ فى الامريكتين ٥ دولارات ـ فى سائر انحاء العالم ١٥٠ قرشا صاغا أو ٣٠/٩ شلنا

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال



أشرف عليه

الدكتور أحمد أمين

ترجمت بعض فصول هذا الكتاب من كتاب :

This I Believe

الذى نشر باشراف كل من :

Edward P. Morgan, Edward R. Murrow



مقدمة

هذا الكتاب موجز لفكرة بسيطة اساسية .. هى ــ على ما يبدو ــ هدف كثير من الناس ، حتى لقد استجاب لها كل من سنحت له الفرصة للاستماع اليها ، او قراءتهـا ، او التفكير فيهـــا . فلم تكد تكتب الصحف عن كتاب « علمتنى الحياة » او تتناوله الاذاعة ، حتى تقدم آلاف الناس ــ منهم مئات من رجال التربية ، وما لا يقل عن ست عشرة وكالة من وكالات النشر ــ تطلب طبع هذه المقالات فى كتاب خاص

ولقد ابتدىء باذاعة موضوعات كتاب « علمتنى الحياة » وكذلك تستمر اذاعة موضوعاته ، والواقع انه يذاع فى الولايات المتحدة الأمريكية على فترات منفصلة يبلغ عددها الفين ومائتى مرة فى الاســـبوع الواحـــد . وتقوم بذلك مائة وست وتســـعون محطة من اقوى محطات الاذاعة ، يصل صوتها الى آذان تسعين مليون نسمة فى تلك البلاد فقط ، بمعدل مرتين فى الاسبوع . وكذلك تذاع ٩٠٠ مرة فى الاسبوع من ١٥٠ محطة فى خارجها ، كما تذاع من محطة صوت أمريكا اسبوعيا مترجمة الى ست لغات ، اضف الى ذلك ان الصحف الامريكية تنشر عن هذا الكتاب ما يقرب من ٨و٥٠٠و٠٠٠ مرة فى الاسبوع ، فتظهر مرة كل اسبوع

فى ٨٥ صحيفة يومية اساسية ، كما أن الرقابة الحكومية تزود به أهم صحف البلاد التى ترتبط معها بعلائق دبلوماسية ، ويبلغ عددها ٩٧ بلدا . والى جانب هذا يستخدم فى مئات من المدارس

لقد اقترحت فكرة كتاب « علمتنى الحياة » فى عام ١٩٤٩ على مائدة غداء ، جمعت اربعة رجال ، كان حديثهم يدور حول ظاهرة خطيرة هى ان أغلب الناس ـ اليوم ـ يستهدف القيم المادية وحدها . . اما القيم الروحية فآخذة فى الانهيار

وتطور الحديث الى التفكير فى اختيار عدد من الرجال والنساء يكلفون بعرض فلسفتهم وخلاصة تجاربهم فى الحياة ، على أن يكون ذلك فى اذاعة تستغرق خمس دقائق ، او فى مقالة اسبوعية لا تزيد على ٦٠٠ كلمة تنشر فى الصحف . واخذ « ادوار مارو » ـ أحد المتحدثين الأربعة ـ على عاتقه مهمة استكتاب عدد كبير من رجال الأعمال ، والمحامين ، والأطباء ، والكتاب ، والمربين ، والرياضيين ، والممثلين ـ رجالا ونساء ومن مختلف الأجناس والألوان والعقائد ـ معروفين وغير معروفين ، يمثلون مختلف نواحى النشاط ، يشترط فيهم النجاح بما يقومون به من أعمال . . بالاضافة الى استقرار يلائم بينهم وبين ظروف حياتهم . ومن مجموع هذه المقالات يتألف كتاب « علمتنى الحياة »

ولنتساءل الآن عن هدف هذا الكتاب،وعن قيمته العملية، وكيف يستطيع أن يحقق أهدافك الخاصة

من الواضح ان أهم ما يشغل بال الانسان هو تسيير دفة حياته . والواقع أن كل فرد مسئول عن تنمية مواهبه ومعارفه وادراكه ، حتى يتمكن من المساهمة فى النشاط الحيوى الدائر حوله بقدر . ولكن فيما عدا دائرة هذا النشاط، تتركز حياة المرء على ما يدين به من معتقدات هى نسيج الشخصية

الانسانية ومكوناتها . وتلك المعتقدات لا ينبغى أن تكون دينية فقط ، أو خاضعة لسلطان الدين فى مجموعها ، رغم أن الاعتقاد فى اله يبدو أنه أحد الأسس التي ينطوى عليها تفكير أغلب الناس . تلك المعتقدات هى قوام الحياة اليومية . وهى التى نستطيع ــ استنادا اليها ــ أن نجيب عن هذا السؤال : كيف أستطيع توجيه جهودى ابتغاء تحقيق حياة كاملة سعيدة تبعث على القناعة والرضى ؟ . .

ان مئات من الناس ، ذوى الخلق الكريم ، بحثوا فى خفايا انفسهم ثم حاولوا أن يصارحوك بحقيقة هذه الخفايا فى الكتاب الذى نقدمه لك اليوم

هناك مئات من الكتب تدور حول حقيقة موقف الانسان فى الحيـــاة ، والتزاماته ، ولمـــاذا يجب أن يعيش ، وكيف يعيش . . وما جاء فى هذه الكتب لا يعدو ان يكون لونا من ألوان التعليم أو النصح أو عرضا لوجهة النظر التى تقول : « عليك أن تفعل هذا أو ذاك »

أما كتاب « علمتنى الحياة » فانه لا يطلب اليك شيئا ، وانمـــا يثير فيك اليقظة ويقـــدم لك المســـاعدة ، فهو مادة للقراءة ، ومادة للتأمل فى نفس الوقت . فاذا لم يوفق هذا الكتاب فى اثارة ذهنك وحملك علي تصوير معتقداتك فقد فشل فى رسالته . أما اذا وفق الى هذا فقد أدى هـــذه الرسالة خير أداء

تصــدير

للدكتور احمد امين

عهدت الى مؤسسة فرانكلين المساهمة للطباعة والنشر ـ وهى مؤسسة ثقافية تضم كبار الناشرين الأمريكيين ـ أن أشرف عـلى ترجمة كتاب (This I believe) وهو كتاب يتبين القارىء أهميته من مطالعته وترجمة مقدمته . فلما قرأت الكتاب رأيت العنوان مضللا ، اذ يفهم منه أنه كتاب يبحث فى الأديان ورأيت أنسب عنوان له : « علمتنى الحياة »

وقد ترددت فى قبول هذا العمل لضعف صحتى أولا ، ولأنى لم أعتد ان أعمل غير ما أختار بنفسي لنفسي.. ولكننى رأيت من العدل والانصاف أن ارجىء البت فى هذا الموضوع الى أن أقرأ الكتاب ، وأتبين قيمته . فلما قرأته أقدمت على العمل غير متردد،لأنى رأيت فيه ايمانا بالله وايمانا بالانسان، ودمقراطية صحيحة ، وتفاؤلا بالحياة .. وكل هذا أحبه ، وأقف حياتى عليه

وكثير من الأمم راعت أن الناحية العلمية ينبغى أن تكون أكثر أهمية من الناحية السياسية .. فأخذت من الأمريكان علمهم ، وترجمت مؤلفاتهم الى لغتها ، اذ أن العلم للجميع ولكل دولة سياستها

وقد عهدت الى المؤسسة ان أضيف الى المقالات الأمريكية مقالات أخرى من رجال العرب مختلفى النوازع كرمز الى الصداقة.. فاستكتبت كثيرا من رجال الفكر والأعمال والمال

والفن ، من رجال ونساء . واحمد الله أن أجابت طلبي نخبة ممتازة ، على رأسها رئيس الجمهورية المصرية اللواء محمد نجيب ، فلهم الشكر اجمعين

ولقد انتدبت لترجمة الكتاب الأستاذ محمد بكير خليل الموظف بالادارة الثقافية بوزارة المعارف والدكتور مختار الوكيل الموظف بالادارة الثقافية بالجامعة العربية ، وقد كان كل منهما يترجم نصيبه ويراجعه الآخر ،ثم يعرضان على ما ترجما لمراجعة الأسلوب العربى

والكتاب يحتوى على نحو مائة مقالة .. كل مقالة فى نحو خمسمائة كلمة ، تسبقها ترجمة لحياة كاتبها

وقد عهدت المؤسسة الى الأستاذ الدكتور جون بادو مدير الجامعة الأمريكية السابق ، باختيار نحو ثلاثين مقالة منها ، ففعل .. فله الشكر . واجاب طلبى من كتاب العرب ، اربعة وعشرون كاتبا وكاتبة ، وكانت فكرة لطيفة يفرح بها الناقد العربى ، لمعرفة الفروق بين كتابة الشرقيين وكتابة الأمريكيين

وقد اغتبطت كثيرا بما كتبه الشرقيون ، لأنه لا يقل قيمة فى نظرى عما كتبه الأمريكيون . وربما لاحظ الناقد فروقا بين المجموعتين ، منها أن الكتابة العربية رصينة بحكم انها كتبت باللغة العربية بادىء ذى بدء .. واما الاخرى فمترجمة الى العربية ، ومهما يكن من قوة المترجم ، فلا بد من ان يكون على المقالات المترجمة ظل ولو قليل من أثر الترجمة . وفرق آخر ، هو اننا نلاحظ على الكتاب الأمريكيين الأيمان بالانسان ، والفرح بالحياة وحب الاستمتاع بها ونلاحظ على الكتاب الشرقيين عدم الايمان بالناس ، وانقباض الصدر ، نتيجة للظلم الذى وقع عليهم من آلاف السنين . وشيء ثالث ، هو أن الروح الامريكية تغلب عليها

روح الدمقراطية الصحيحة ، فتراهم يعهدون بالكتابة الى شاب مغمور بجانب كاتب مشهور ، والى سائق سيارة بجانب رئيس جمهورية ، والى فتاة بجانب رجل ، وهكذا . فنحن أن فعلنا ذلك، فانما نقلدهم فى اتجاهاتهم

وقد اشترطت حين قبلت هذا العمل ، أن تكون لى حرية التصرف فى حذف جمل نابية أو عبارات ترمى الى ناحية سياسية ، فأجبت الى هذا الطلب .. وبحمد الله لم أجد هذا النوع الا فى القليل النادر فحذفته

ومما بعثنى على قبول هذا العمل أن وجدت هذا الكتاب يوافق مزاجى الخاص .. فالكتاب يدعو الى الايمان بالانسان والايمان بالله ، والتفاؤل بالحياة ، كما يدعو الى التمسك بأهداب الفضائل .. وكلها ، والحمد لله ، مما أغتبط به ، وأدعو اليه ، منذ تعلمت أن أمسك القلم . وانى لأرجو أن يساعد هذا الكتاب الشباب الناشيء ، فيؤمن بالانسان وبالله وبالتفاؤل وبالفضيلة .. فذلك عندى من خير ما أصبو اليه

كما ان للكتاب فائدة أخرى ، هى انه يتيح لكثير من القراء الشرقيين أن يفهموا كيف يفكر الأمريكيون ، ويتيح للقراء الأمريكيين ــ بعد ما نرجوه من ترجمة القسم العربى واذاعته فى أمريكا ــ أن يفهموا كيف يفكر العرب .. وفى هذا مكسب كبير ، وخصوصا للعرب ، من حيث انه دعاية لهم ، واعلان عن رقى تفكيرهم ، بعد أن مكثوا عهدا طويلا لا يسمع لقولهم ، ولا يعرف نوع تفكيرهم .. فنشكر للقائمين بهذا العمل أن اتاحوا للعرب هذه الفرصة السعيدة ، وأرجو أن يشفع بأمثاله .. فعندى أن هذا هو نوع الدعايات النافع للعرب ، لا دعايات الجرائد والمجلات السافرة التى لم تبلغ هذا المبلغ فى السمو

والله الموفق

احمد أمين

الجزء الأول

أقلام من الشرق

ارادة الشعوب لن تقهر

للواء أركان حرب محمد نجيب

رئيس جمهورية مصر

الرئيس محمد نجيب ولد بالخرطوم سنة ١٩٠١ .. حصل على دبلوم الدراسات العليا فى القانون والاقتصاد السياسى ، ونال شهادة أركان حرب . اشترك فى معارك فلسطين وجرح ثلاث مرات. وكان قائدا للواء الثانى ، وقائدا للواء الرابع . منح نجمة فؤاد الاول تقديرا لبسالته ، ورقى الى رتبة أميرالاى سنة ١٩٤٨ ثم الى رتبة لواء سنة ١٩٥٠ وقاد الثورة الاخيرة فى ٢٣ يوليه سنة ١٩٥٢. وتولى رياسة الوزارة ثم رياسة جمهورية مصرفى ١٨ يونيه سنة ١٩٥٣

علمتنى الحياة ما لم اتعلمه فى المدرسة ، وليس كالحياة معلم يستفيد منه الانسان الدروس ويستوعب الحقائق والعبر

ومدرسة الحياة مدرسة قائمة بذاتها .. يبدأ الطالب فيها تجاربه فى اللحظة التى ينتهى فيها من مدرسة العلم والتلقين ، ليواجه المدرسة الواقعية . وهى مدرسة كبرى لايكتب النجاح فيها الا للمؤمنين بالمثل العليا والصابرين على بأساء الحياة

لقد علمتنى الحياة انه ليس كالصبر هاد ومرشد لمن تاهوا فى صحراء الحياة ، وفقدوا الامل فى كل شىء ، ورأحت أنفاسهم تضيق فى دنيا الآمال الفسيحة ، ونظراتهم الى الناس تزداد حلكة فوق حلكة .. ولو درى هؤلاء انه ما من

ظلام الا سيعقبه نور ، أو ضيق الا سوف ينتهى بالفرج ، لاعتصموا بالصبر الى ان يصلوا الى شاطىء الأمان ، ولعاشوا فى ظل السكينة والايمان

وعلمتنى الحياة أن الظالمين مهما طغوا فى الارض ومضوا فى طغيانهم لايرعون فى بلادهم الا ولا ذمة ، ولا يخافون الله فيمن ولوا عليهم من عباده ، فان حساب الله أدنى اليهم من حبل الوريد ، لأنه لا يهمل الظالم اذا ظلم وان امهله ليمضى فى هدم ما هدم !

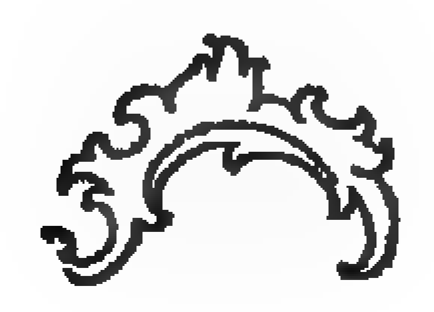
وكان من أروع دروس الحياة ذلك الدرس الذى تعلمه من قدر لهم أن يتعلموه من قادة الامم والشعوب ، وهو أن ارادة الشعوب لن تزيف وان مشيئتها لن تقهر ، وان كلمة الحق دائما هى العليا سواء رضى الكارهون ، أو أصم آذانهم المفسدون ، أو حاول أن يغير مجرى التاريخ من بالتاريخ يستهزئون

وعلمتنى الحياة كذلك أن شريعة النضال لا تعادلها شريعة وان القلة فى جانب الحق لن تهزم أبدا لأن للحق خصائص يستمد منها الضعفاء قوة ، ويتخذ منها المؤمنون عبرة ، وفى صفحات التاريخ من هذه القصص ما يبهر الابصار ، ويحيى فضيلة الاستذكار ، ويجعل من الناقمين على الزمان هداة يبشرون الناس بهديهم ويكشفون الحقائق لمن اضلهم شيطانهم

وعلمتنى الحياة فيما علمتنى ان الايمان بالحق يزيد قلب المؤمن به صلابة فوق صلابة ، ويجعل من حياة الكفاح فى نفسه لذة لا تعادلها لذة ، فنحن عندما ننسى أشخاصنا ونفنى وجودنا فى مصلحة الوطن العليا ، انما نضرب الأمثال أروع الأمثال على أن قضية النضال من أجل التحرر من ربقة الذل والاستعباد الداخلى ، هى القضية التى نستهين فيها بالبذل ، ونقدم من طواعية واختيار حياتنا قربانا على مذبح الوطن

ولعل أروع درس تعلمته ، ويجب أن يتعلمه الناس عنا هو أن مصر لم تكن فى يوم من الايام عقيمة فى الرجال الاحرار الذين يأبون الضيم لبلادهم ولا يقبلون أن تحنى رأسـها لطاغية — مهما كان هذا الطاغية — لأن ايمانها بكرامتها يعادل ايمانهم بحياتها فصبروا وصابروا ، وربطوا ورابطوا ولما ضربوا ضربتهم كان على الله نصرهم لأنه وعد بنصر المؤمنين ومؤازرة المجاهدين وتحقيق آمال الصابرين وهو نعم المولى ونعم المعين

والحياة التى تعلمنا من دروسها أروعها وأقساها ، وفتحت أمامنا آفاقا من العلم والمعرفة ما كان لنا أن نعرفها لو لم نتعمق فى استيعابها عن طريقها ، هى الحياة التى يمضى ركبها ساخرا مستهزئا باولئك الذين تخلفوا عن الدرس وعاشوا فى زوايا الاهمال والجهالة ليومهم وشهواتهم ونزواتهم دون أن يفكروا فى ان وطنـهم فى حاجة الى عقولهم والى وقتهم ، وان الوطن الذى يتخلف عنه بعض بنيه لا يشقى بأمثالهم لانه وطن قوى مؤمن ، وانما الشقوة سـتكون للمتخلفين بعد أن دبت فى أوصال الحياة العامة كل مظاهر القوة والنشاط ونهضت مصر من كبوتها لتمضى الى عالم سعيد فى ظل الحكم الجديد



الحياة تافهة اذا خلت من مثل أعلى

للدكتور عبد الرزاق احمد السنهورى

تخرج الدكتور عبد الرزاق احمد السنهورى فى مدرسة الحقوق بالقاهرة فى سنة ١٩١٧ وكان اول فرقته فى جميع سنى الدراسة الثانوية والعالية ، ثم اوفد فى بعثة الى فرنسا ، حيث حصل على درجة الدكتوراه فى العلوم القانونية ، وعلى درجة الدكتوراه فى العلوم الاقتصادية والسياسية . ورجع الى مصر واشتغل بتدريس القانون المدنى فى كلية الحقوق بجامعة القـاهرة ، وفى عام ١٩٣٦ انتخب عميدا لكلية الحقوق بجامعة القاهرة . ثم قاضيا بالمحاكم المختلطة ، فمستشارا ملكيا ، فوكيلا لوزارة المعارف،فوكيلا لوزارة العدل . ثم اختير وزيرا للمعارف وهو الآن رئيس مجلس الدولة

علمتنى الحياة اننى ما حرصت على بلوغ شىء فبلغته ، الا واكون بعد بلوغه قد زهدته

كنت صبيا صغيرا اعيش فى اسرة مستورة الحال ، تهيأت لها اسباب العيش فى شىء من الطمانينة والدعة ، ولم تتهيأ لها اسباب الثراء .. فتطلعت الى خفض من العيش أوطأ مما كنت فيه . فاراد الله ان ابلغ شيئا من ذلك . واذا بى ازهد ما فى يدى منه . لا ارى البيت الذى اسكنه ــ وكنت اتطلع الى مثله فى مقتبل حياتى ــ الا شيئا عاديا لايشقى ولا يريح . ولا ارى المال الذى احرزته ــ وكنت احسب انه يحقق شيئا من السعادة ــ الا شيئا تافها لايؤخر ولا يقدم . ولا ارى الجاه الذى بلغته ــ وكنت انظر الى مثله فى غيرى فاتوق اليه ــ الا شيئا فارغا لاينقص ولا يزيد ،

فعلمت ان الحياة تافهة ، ما لم يرسم الانسان لنفسه هدفا ساميا يسعى لتحقيقه ، هدفا يعلو عن المادة ، ويبقى على الزمن ، اذا ما حقق شيئا منه طابت نفسه ، وطلب المزيد

□

وعلمتني الحياة ان الناس في درك هاو من الخسة ، وفي درجة عالية من السمو ، ينطوون على الشر والخير ، ويهبطون بقدر ما يرتفعون . عرفت وأنا شاب في العشرين شابا في سني وقامت بيننا أواصر الود والصداقة . ثم تنكر لي الصديق ، وأبدى من أسباب الجفوة ما دل على انحطاط في الخلق ودناءة في الطبع ، ثم ما لبث هذا الصديق ، في ظروف اخرى ، أن صفا معدنه ، وسمت نفسه ، فتقدم في ميدان الجهاد ، وبذل روحه فداء لوطنه ، ومات شهيدا ، فعلمت أن الناس لايخلصون شياطين ، ولا يتمحضون ملائكة ، والعاقل من لبس الناس على حالهم ، لايزهد في الصديق وان بدا شره ، ولا يقطع ما بينه وبين الناس لجرح لايلبث أن يندمل ، ولعارض لايلبث أن يزول

وعلمتني الحياة ان حظوظ الناس تبدو متفاوتة أكثر من حقيقتها ، وهم في الواقع متقاربون في الشقاء والسعادة .. لكل من حظه ما يسعده ومن همه ما يشقيه . عرفت رجلا كثير العيال رقيق الحال ، لايشك من ينظر اليه في انه ضيق بحظه من الدنيا . وهو لايكاد يفيق من هم الا ويعثر في هم . وعلمت بعد ذلك ان الرجل ليس من الشقاء بالقدر الذي توحي به حاله . فهو قد ألف ضيق العيش ، ووطن نفسه عليه ، حتى اذا أصابته نعمة ضئيلة على غفلة من دهره ، كان تقديره لها كبيرا ، وفرحه بها عظيما ، وذاق بها السعادة كما ذاق من قبلها الشقاء

وعلمت من ثقة ان احد ملوك المال فى مصر ــ وهو رجل من اقوى الرجال فى بلده ومن اعرضهم جاها واوسعهم نفوذا ــ وقد عرف بالسيطرة على اقدار الحكومات حتى انه ليسقط حكومة ويقيم أخرى .. هذا الرجل كثيرا ما يخلو الى نفسه ، لينسى سوء حظه وليبتعد بشقائه عن عيون الناس ، بل انه ليتسلل من سريره فى جنح الظلام لينفرد بنفسه ويبكى

وعرفت سيدة كانت تتبرم من ضيق العيش ثم ورثت شقيقا لها ، فأصبحت تتبرم بما أصابته من مال لا تعرف كيف تستغله . فآمنت بعد كل ذلك ان الناس سواسية فى الشقاء والسعادة على خلاف ما يبدو من تفاوتهم فى ذلك وان فى الأرض عدلا بين الناس أكثر مما يظن الناس

□

وعلمتنى الحياة ان نجاحى فيها رهن ايمانى بنفسى وايمان الناس بى .. فقد كانت ثقتى بنفسى تدفعنى الى العمل ، وكانت ثقة الناس بى تجعلنى اطمئن الى نتيجة عملى . وهذا القدر المتوازن من ثقة الانسان بنفسه وثقة الناس به ، لابد منه لنجاحه فى الحياة .. فان زادت ثقته فى نفسه على هذا القدر ، كان ذلك غرورا يضله عن الحقائق . وان جاوز اعتماده على ثقة الناس به هذا القدر ، بحيث اصبح لا يصدر الا عن رأى النـــاس ولا ينزل الا عند هواهم ، كان ذلك ضعفا واضطرابا يورثان انقيادا واستسلاما . وتابعت فى نفسى وفيمن حولى هذا التوازن ، فادركت انه ضرورى فى كثير من الصفات الاخرى . هو ضرورى فى الواقعية والخيال فان زادت الواقعيـة على الحد الواجب ، كان ذلك جمودا وضيقا فى الافق . وان زاد الخيال ، كان ذلك ميوعة واغراقا

فى البعد عن الحقائق . وهو ضرورى فى المادية والروحية ، فان زادت المادية ، كان ذلك بلادة وتنكرا للقيم العليـــا فى الحياة ، وان زادت الروحية ، كان ذلك عجزا عن مواجهة الحياة فى حقائقها المادية . وهو ضرورى فى الاختلاط بالناس والانطواء على النفس ، والا كان الامعان فى الاختلاط بالناس اهدارا للشخصية ، وكان الاغراق فى الانطواء على النفس عزلة ضارة . ومع ذلك لا بد من التسليم بصعوبة أن يجمع الانسان فى نفسه هذا المزاج الموفق من الاعتدال والتوازن ، والأمر الجوهرى هو أن يعرف كيف يستطيع أن يتخفف من الافراط فى صفة أو التفريط فى أخرى

وعلمتنى الحياة ان الغفلة عن المستقبل هى من أهم أسباب الراحة .. وما تعبت لشىء أكثر من تعبى عندما أفكر فى المستقبل . ولعل الموت هو الحقيقة الاولى التى لايتطرق اليها الشك ، وهو المستقبـــل المحتم . ومن نعم الله على الانسان أن جعله قادرا على التغافل عن هذه الحقيقة ، والا ظل قلقا حائرا لايفكر الا فى الموت

وعلمتنى الحياة ان النعمة لا أعرف قيمتها الا عندما تزول

وعلمتنى الحياة أن تتسع أطماعى فلا أعرف أين أقف ، ثم يتعثر بى الحظ فأرضى بالقليل

وعلمتنى الحياة اننى أتعلم منها كل يوم ، ولن أنقطع عن التعلم حتى تنقضى الحياة . ومن يدرى ـ اذا أنا عشت ـ ماذا سأتعلم منها غدا

القوة بالعلم لا بالسيف والمال !

للدكتور شارل مالك

ولد الدكتور شارل مالك ببلدة بيت الرام ((الكورة)) من اعمال لبنان فى عام ١٩٠٦ . وتلقى دراسته الأولية والابتدائية فى المدارس الموجودة بمسقط راسه . واتم دراسته الثانوية بمدرسة الارسالية الأمريكية بطرابلس الشام وانهى دراسته العالية بالجامعة الامريكية ببيروت عام ١٩٢٧ ثم سافر الى امريكا حيث ظفر بدرجة الدكتوراه فى الفلسفة من جامعة هارفارد عام ١٩٣٧ . وهو يشغل الآن منصب سفير لبنان فى الولايات المتحدة الامريكية

علمتنى الحياة :

* ان مشكلة العالم العربى خلقية عقلية روحية قبل ان تكون اجتماعية اقتصادية .. وانها اجتماعية اقتصادية قبل ان تكون سياسية ، وان المتاجرة بالسياسة والتسوس من اسوا بلايانا
* وان لا عيش للعرب بالانكماش والانفصال ، وانه ان حلت وتحل بنا محن فما ذلك الا لاننا كنا منقطعين عن العقل الفعال ، محرومين منه طيلة هذه الحقب
* ان الفعل انما هو بالاشتراك المسئول المتواضع ، لا بالجفاء والقطيعة والاكتفاء الزائف
* اننا فى العالم العربى لا نعرف بالفعل الغرب الحقيقى ــ عبقريته الأخيرة وروحه الايجابية الخلاقة ــ وان التبعة فى ذلك تقع على الغرب بقدر ما تقع علينا

* ان قيما أساسية كثيرة فى تراث الشرق الأدنى يمكن بل يجب اذكاؤها والمحافظة عليها ، وان لاشىء فى هذه القيم يتنافى بالفعل مع أعرق ما فى التراث الغربى المتراكم

* ان لا شىء فى الشرق أشد أثرا وامضى حسا من ضغط الغوغاء ووحيها ، وان قيـــام قائد حقيقى يرفع عامة الشعب اليه ، ولا ينحط مع الزمن اليها يكاد يكون معجزة فوق طاقة البشر

* ان المنافقين لابد فى النهاية مفضوحون ، وان المخادعين مهما طال حبل خداعهم ففى الحقيقة لايخادعون الا أنفسهم

* ان شرط وجودنا أن نسمح لانفسنا بالبحث عن كامل حقيقتنا فى جو طلق حر مسئول ، كيما نعرفها معرفة تامة ونجرؤ على مجابهتها واعلانها ، وانه طالما ان حقيقتنا معروفة لدى غيرنا أكثر منها لدينا .. فوجودنا ناقص مشروط

* انه فى وسعى التام الا أسمح للشهوة والفطرة أن تستبدا بى ، وان الويل للفرد أو للأمة التى لا تعرف مبدأ فوق مبدأ الطبيعة والشهوة

* ان الشهوة والفطرة بالعقل والمعرفة تضبطان ، وبالصداقة والثقة ترفعان وتطهران ، وبفعل المحبة الرفيعة الكائنة تكبحان وتصقلان .. وذلك كله من أجل فرح وخلق يشدان الانسان الى الله

* ان الوجود انما هو بالقوة .. والقوة ليست بالسيف أو بالمال أو بالعدد ، بل بالعلم والمعرفة . وهذان بالبحث الحر المنظم ، وبالنقد المسئول ، وبالتربية العريقة الحزة ، وبالتطلع الى القيم الانسانية الرفيعة ، وبالاتصال بالتراث الايجابى المتراكم ، وبمحبة النظر والبحث لذاتهما ومن أجل موضوعهما

* ان الحقيقة موجودة لكنها ضائعة وعسيرة المنال ، وان

خلاصنا كقوم وكبشر انما هو فى نشدانها والظفر بها ، وأن انقياء القلب لا بد أن يعاينوها

* ان الاكباب الدائب المتواضع على شيء وحصر الجهد فيه والامانة التامة له ــ على أن يكون شيئا حقيقيا موجودا لا خيالا فى رأس شاعر ــ هو شرط كل خلق ، وأن لا شيء أضر من الالتفات الحائر الى كل من أومأ

* انى بالفعل مدين للحياة لا دائن ، وانها تسخو على بالنعم بقدر ما أصدق باقرارى الفعلى الشاكر بهذا الدين

* ان الزمان وكل ما فيه يزول ، والتاريخ وكل ما يخلق من قيم وثقافات ينتهى . . لكن شيئا واحدا يبقى الى الأبد ، هو رؤية الحق والشهادة الأمينة الحية الصادقة له

* ان سر الوجود الاخير هو المحبة ــ محبة الشيء ، محبــة الموضوع ، محبة القريب ، محبة الله ــ وأن المحبة تقتضى الالم والايمان والمعرفة كى تفعل

* انه مهما فعلنا فى هذه الحياة الدنيا فسيلازمنا حتما على الدوام [illegible] من اخطائنا ووقوع الظلم بنا ، وانه وجب لل[illegible] بثقة الى ملا اعلى يؤمن فيه احقاق الحق كاملا ويعوض لكل نفس بقدر ما تطهر وتتوب

* ان الحقد والانتقام يؤديان الى الهلاك . . اما الحياة الابدية فبالغفران والصفح والمحبة

* انه بالآلام ، فالتوبة ، فالعودة ، فالغفران ، فالقبول . . كل فرح وكل خلق وكل وجود

* ان الحقيقة الحقة الاخيرة هى الشخص العارف السامى الباذل الغافر الرحيم المحب الفاعل الكائن

هذا بعض ما علمتنى الحياة . . والحياة خير معلم ، والمعلم خير حى

رضى الضمير مفتاح السعادة

للدكتور محمد حسين هيكل

نشأ فى كفر غنام من أعمال مديرية الدقهلية وحفظ فى كتابها ما يزيد على ثلث القرآن ، ثم التحق بالمدارس الأميرية وحصل على اجازة الحقوق فى سنة ١٩٠٩ ثم سافر الى فرنسا وحصل على دكتوراه الحقوق من جامعة باريس فى سنة ١٩١٢ . واشتغل بالمحاماة . وفى أثناء اشتغاله بالمحاماة قام بتدريس تحقيق الجنايات العملى ، والاقتصاد السياسى ، بالجامعة المصرية الأهلية من سنة ١٩١٧ الى سنة ١٩٢١ وترك المحاماة الى رياسة تحرير جريدة السياسة ثم تولى الوزارة، ثم انتخب رئيسا لمجلس الشيوخ سنة ١٩٤٥ وبقى فى هذه الرياسة الى ١٧ يونيو سنة ١٩٥٠ .

كنت تلميذا بالمدرسة الثانوية .. وكنت معتزا أشد الاعتزاز بمعلوماتى فى اللغة العربية . وألقى علينا أستاذ هذه اللغة يوما سؤالا أجاب عليه أحد زملائى اجابة استرحت اليها موقنا بصحتها . ولشد ما كانت دهشتى حين ذكر الأستاذ أن زميلى أخطأ ، وحين صحح هذا الخطأ . عند ذلك أيقنت بأنا يجب أن لا نبالغ فى الاطمئنان الى كل معلوماتنا وانه يجب علينا أن نراجع أنفسنا ما بين حين وحين ، لنستوثق من هذه المعلومات حتى لا يدفعنا الخطأ فى بعضها الى التورط من بعد فى أخطاء أخرى

وحينما كنت أدرس الحقوق، كنت قوى الذاكرة، فلا أحتاج الى تلاوة الموضوع الذى أدرسه أكثر من مرتين لينقش فى ذهنى .. وانى لأناقش أحد زملائى الطلبة يوما وأدعم حجتى بنص حفظته ، اذ أشار هو الى نص آخر لم يغب عنى

حين سمعته ، ولكنى لم افكر من قبل فى التقريب بين النصين ومقارنتهما

ومن يومئذ أيقنت ان الاعتماد على الذاكرة وحدها ، وبخاصة فى الشئون العلمية ، لا يكفى لكشف الحقيقة كاملة .. بل يجب أن يهضم الفكر ما تعيه الذاكرة ليخلف منه مجموعة وثيقة لا تنافر بين اجزائها كيما يتسنى لادراكنا ان يتمثلها فتصبح جزءا من محصولنا العقلى قائما بذاته ، وله من ثم اثره فى توجيه احكامنا توجيها سليما

فلما أتممت دراستى ، ومارست شئون الحياة .. رايت الكثير مما يقع فيها يخالف ما تعلمته من مبادىء وقواعد وقوانين . ورأيت كثيرين ينجحون ، ويرجع سبب نجاحهم الظاهر الى مخالفة هذه المبادىء والقواعد والقوانين .. لكنى تبينت بعد سنين قليلة ان النجاح بمخالفة قواعد الخلق ومبادىء القانون ، يعرض صاحبه لمتاعب جمة ، وقد يهدم حياته من اساسها ، وان التشبث بما نؤمن انه الحق ، والدفاع عنه دفاعا صادقا ، وسلوك سبيلنا فى الحياة على هداه .. ذلك هو الذى يرضى ضميرنا ويبعث الطمانينة الى نفوسنا . ورضى الضمير وطمانينة النفس مفتاح السعادة وعمادها المتين

وكان لما تعلمته من ذلك ابلغ الأثر فى حياتى ، فقد قضيت السنوات الثلاثين الماضية منها صحفيا ، ومؤلفا للكتب ، ووزيرا ، ورئيسا لمجلس الشيوخ .. وكل وجهتى فى هذه المراكز جميعا ان ادافع عما اومن بانه الحق ، وقد تعرضت بسبب هذا الدفاع لمتاعب كثيرة . قدمت من اجلها لمحكمة الجنايات فى تهم صحفية ، وتعرضت لغضب السلطات العليا ، والسلطات الحاكمة ، ولم اكسب فى الحياة المادية ما كنت استطيع أن اكسب اضعافه لو اننى جعلت قلمى او جعلت مجهودى فى خدمة هذه السلطات . ولم انتصر فى بعض الحملات التى اثرت غبارها الا بعد سنوات . لكننى لم ايأس يوما من النصر ، ولم آمن يوما بالكسب المادى ، لاننى كنت

مستريح الضمير لأداء ما آمنت بانه الواجب دفاعا عن الحق ، ولأننى رأيت الحق ينتصر آخر الأمر لا محالة ، وان طال انتظارنا قبل انتصاره

وكثيرا ما شعرت بأن السبب فى طول الانتظار وقوعنا فى خطأ عن غير قصد ، كما أخطأ زميلى ونحن بالمدرسة الثانوية حين ألقى الأستاذ سؤاله فى اللغة العربية ، أو أن السبب يرجع الى اغفالنا جانبا من الحقيقة كما حدث لى أثناء مناقشة صاحبى وأنا ادرس الحقوق .. على أن الكبرياء لم تدفعنى يوما الى التورط فى الخطأ ، بل كنت أعود دائما الى الحق لكيلا يزيد الشطط فى طول انتظارى ، مع اقتناعى الثابت بأن الصبر مع صدق الارادة وحسن القصد كفيل بدرك الغاية التى أقصد اليها

ونحن مدركون هذه الغاية ما كان هدفنا هو الحق ، وهو الخير العام . ولا سبيل للخير العام الا من طريق الحق . والحق والخير العام يقتضياننا انكار الذات مع الثقة بالنفس، والثقة المطلقة فى نفس الوقت بالله جل شأنه .. فالله هو الحق ، والحق سبيلنا اليه . ورضى الضمير وسيلتنا الى رضى الله . والضمير لا يرضى الا عن الخير وعن الحق

وصدق الله العظيم : « والعصر ، ان الانسان لفى خسر ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر »

موقفى من الناس !

للأستاذ عباس محمود العقاد

ولد بأسوان فى الصعيد الاعلى سنة ١٨٨٩ . اشتغل بالوظائف الحكومية ، وتركها ليشتغل بالصحافة ، ثم اشتغل بالتعليم ، ثم كانت الحركة الوطنية فخاض معركة السياسة وانتخب لمجلس النواب،وعين عضوا بمجلس الشيوخ ، فعضوا بمجمع اللغة العربية ، والف عشرات الكتب فى النثر والنظم تدور حول الموضوعات الادبية والفلسفية والاجتماعية ، والتاريخية ، والسياسية ، وتراجم المشاهير منها كتاب من ((عبقرية محمد)) ، وكتاب من ((عبقرية المسيح)) ، وكتاب ((ابن الرومى)) ، وكتاب ((فرنسيس باكون))

علمتنى الحياة خطتين فى سياستى مع الناس .. خطة اتبعها فيما يصيبنى من الناس ، وخطة اتبعها فيما يصيب الناس منى ، فاسترحت كثيرا من تبديد شعورى فى غير طائل ، وعرفت كيف يكون الاقتصاد فى انفاق ثروة الحياة

اما خطتى فيما يصيبنى من الناس ، فهى أن أتناول طباعهم واخلاقهم جملة واحدة .. ولا افرق بينهم على حسب اختلاف الأشخاص والأفراد

كان الخلق الواحد فى مبدأ الأمر يسبب لى الألم وخيبة الرجاء عشرات المرات بل مئات المرات .. وكنت فى كل مرة اشعر بصدمة المفاجاة كأننى اكتشف شيئا جديدا لم أتوقعه من قبل

ثم تعودت مع الزمن أن أجعل للناس جميعا حسابا

واحدا فى رصيد المكسب والخسارة ، فهبطت الخسارة كثيرا على الأقل .. وهذا فى ذاته مكسب معدود

تعودت أن اجمع الأخلاق الى أنواعها ، وأن أضع كل نوع منها تحت عنوانه . فى الناس أنانية .. فى الناس صغار .. فى الناس سخافة .. فى الناس تقائص وغرائب .. وهكذا ، وهكذا .. الى آخر هذه المألوفات التى توارثناها نحن أبناء آدم وحواء ، فليس فيها من جديد

فاذا أصابنى من الناس شيء مكدر رجعت به الى عنوانه ، فوجدته مسجلا هناك ولم يفاجئنى بما لا أنتظر . فى النـاس انانية .. فى الناس صغار .. نعم .. نعم . وماذا فى ذلك ؟ الم تعلم هذا من قبل ؟ بلى ، علمته مرة بعد مرة .. فما وجه الاستغراب ، ولماذا الألم والشكوى ؟

وراقبت نفسى طويلا فوضعت نفسى فى القائمـة .. وتعودت أن أقول لها كلما أصابها ما يكدرها : « وأنت أيضا كذلك » . فلا محل للحساب والعتاب

اما خطتى فيما يصيب الناس منى ، فهى أن أسأل نفسى كلما شعرت بسخطهم أو انتقادهم : « هل الأمر يعنينى ؟ »

وبعبارة أخرى : « هل يضيرنى أن أفقد رضاهم ؟ وهل يعيبنى أن أفقده ؟ »

فاذا كان فى الأمر ما يضير أو ما يعيب فالأمر يعنينى ، ولا بد من معالجته بما أستطيع والا فلا وجه للتعب والاكتراث

وعولت دائمـا عـلى القياس العملى ، لأن الجرى وراء النظريات لا ينتهى الى غاية .. فكنت أضع أمامى على الدوام خمسة أو ستة من الذين اعرفهم ، وأعرف أنهم من أصحاب الحظوة عنـد النـاس ، وأن النـاس لا يسخطون عليهم ولا ينتقدونهم فأتساءل : « هل يسرك أن تكون مثلهم ، وان تحصل على الرضى كما حصلوا عليه ؟ »

وكان جواب هذا التساؤل نافعا لى على الدوام ، لأنه

يحدد لى العمل اللازم ، أو يعفينى من كل عمل ، ويبين لى فى معظم الأحوال أن ثروة الرضى والثناء عملة زائفة أو عملة صحيحة على أحسن الوجوه

ولكن الاستغناء عنها غير عسير

□

ومن التجارب الكثيرة فى الأشخاص الذين عرفتهم حق المعرفة ، تبين لى انهم يحتالون،ويتعبون عقولهم وضمائرهم فى الاحتيال طلبا للشهرة التى لا تهمهم لذاتها ، ولكنها تهمهم لغاية يصلون اليها من ورائها

وحمدت الله لأن تلك الغاية لا تهمنى انا ، ولا تستحق عندى ان ابذل فيها اقل تعب حتى لو استطعته كل لحظة

وكنت كمن يتمنى نصيبا من المال ليشترى به شيئا ، ثم علم أن الشيء لا يستحق الشراء ، فاستغنى عن المال واستغنى عن تمنيه

خطتان سهلتان : خطة مع الناس وهى أن اجمعهم جملة واحدة .. وخطة مع نفسى وهى أن تقصر جهودها وهمومها على ما يعنيها . والخطتان سهلتان كما قلت ، ولكننى لا انسى ان أقول انهما سهلتان على من هو مثلى ، مطبوع على العزلة وقلة الاختلاط بالناس

وحب العزلة عادة لم اتعلمها من الحياة ، بل اخذتها من ابوى الاثنين بغير تعليم

فمن استطاع ان يتعلمها فليتعلمها .. ان كانت تعنيه !

الحياة هدف وارادة

للأستاذ توفيق الحكيم

تخرج توفيق الحكيم فى مدرسة الحقوق . ولكن اهتمامه كان موجها للأدب والفن المسرحى فالف مسرحيات مثلتها بعض الفرق التمثيلية . وان كانت روايته التمثيلية الاولى قد كتبها قبل ذلك العهد بعدة أعوام ـ سنة ١٩١٨ ، واسمها « الضيف الثقيل » ـ وكانت ترمز الى احتلال الانجليز لمصر،فلم يسمح بتمثيلها.وسافر توفيق الحكيم الى فرنسا وانغمر فى جوها الأدبى والفنى . ثم عاد ليبحث عن عمل يعيش منه . فاضطر الى الانخراط فى سلك القضاء ثم انتقل الى وظيفة مدير للارشاد الاجتماعى بوزارة الشئون الاجتماعية . ثم لاح له أمله القديم فى ترك المناصب والانقطاع الى الأدب والفن ، فاعتزل خدمة الحكومة وخصص نفسه للكتابة أعواما طويلة فى الكتب والصحف ، الى أن خشى من طغيان الصحافة على عمله الأدبى ، فقبل تعيينه مديرا لدار الكتب المصرية

أعتقد أن أهم خطوة فى حياتى ، هى أنى استطعت أن احدد هدفى من الحياة منذ الصبا .. فانى لم أكد أمضى قليلا فى مرحلة التعليم الثانوى ، حتى وطنت العزم على أن أكون أديبا كاتبا ، ولم أدر لذلك سببا . فأنا لم أكن من المبرزين فى اللغة وآدابها .. بل كنت تليمذا عاديا . على أنى أذكر ميلى الخاص دائما الى الفنون الجميلة منذ الطفولة. فكنت مولعا بالرسم ثم بالموسيقى ، ولكن ازدراء أهلى لهذا العمل لم يشجعنى على التشبث به . فلما جاءت مرحلة المطالعة ووجدت فى يدي ما صادفنى من كتب وقصص ، تيقظ فى نفسى حب الفن فى صورة أخرى . وكان والدى من

رجال القضاء ، ولم تكن الجامعة قد انشئت في مصر وقتئذ .. فادخلني مدرسة الحقوق لاصبح فيما بعد مثله من رجال السلك القضائي . ولكني لم اظهر ميلا الى القانون ، وكان حبي للأدب والفن قد نما بمطالعاتي الكثيرة الخفية . ولحظ والدي مني ذلك، فجعل يحذرني من سوء المصير اذا انحرفت عن القانون الى الأدب . ولكني كنت قد قررت في نفسي مصيري .. وهذا القرار الذي يتخذه الانسان في شأن مصيره قلما تنقضه الأيام ، اذا كان صادرا حقا عن ارادة وايمان

ولا أعني بالايمان هنـا أن يؤمن الانسـان بمواهبـه ، فانا من اقل النـاس ثقة بان لي مواهب .. وانما أومن بالهدف الذي وضعته نصب عيني ، وركزت ارادتي في السير نحوه . ولم يكن امامي خطر اخشاه الا تعدد الهدف وحيرة الارادة . وكان هذا الخطر من أشد ما تعرضت له في حياتي وكافحت للتغلب عليه . فقد تفتحت امامي أبواب كثيرة كان من الممكن أن تغير مجرى حياتي .. كانت امامي وظائف السلك القضائي ، وكان امامي الاشتغال بالسـياسة .. بل كانت امامي يوما فرصة العمل للسينما على نطاق تجاري . وكان في مقدوري النجاح في كل باب من هذه الأبواب ، لأن طبيعتي قابلة للتكيف .. ولكن ايماني بوحدة الهدف جعلني اخصص نفسي لخدمة الأدب وحده . وعلى الرغم من اعتقادي أن الحياة هدف وارادة ، فاني قد لحظت فيهـا وجود كائن هائل هو وحده الذي احسب له كل حساب .. ذلك هو « القدر » ، وهو معي ساخر دائما . وهو لا يبدو لاذعا في سخريته الا عنـدما يلمح مني بادرة شـعور باني اقتربت من هدفي

وقـد علمني بذلك أن المقصـود من الهـدف هو السير نحـوه لا بلوغه .. لذلك ما احسست يوما باني

بمأمن الا عندما أسير وأعمل،لأن القدر لا يسخر ممن يسيرون ويعملون . واذا فعل فانه لا يجد لديهم وقتا أو فراغا يتألمون فيه كثيرا لما يفعل بهم .. ولكنه يسخر أقسى السخرية من أولئك الذين يظنون أنهم وصلوا وانتهوا الى الغايات

لذلك لا أعرف بالضبط ماذا جنيت من حياتي حتى الآن. فأنا ـ وقد تجاوزت الخمسين ـ لا أستطيع أن أقول أنى بلغت هدفا . ولكنى أستطيع القول ان حياتى كلها قد أنفقتها في السير المضنى نحو هدف واحد لا يتغير . وانى لأسأل نفسى أحيانا : هل كنت على صواب فى تركى الأهداف الاخرى التي كان من الممكن ان أنجح فى تحقيقها ..؟ فأتلقى الجواب من طبيعتي الخاصة أن مجرد النجاح على اطلاقه ما كان قط يغرينى . فالنجاح فى الوصول ـ حتى فى مجال الألقاب العلمية والأدبية والاجتماعية وغيرها ـ لا يهمنى بقدر ما يهمنى تكوين نفسي . وكل نجاح يأتينى عن طريق آخر غير طريق هدفى الحقيقى ، وهو تحقيق ذاتي فى الخلق الأدبى الفنى ، هو نجاح لا يستحق فى نظرى بذل جهدى للحصول عليه ، لأنى لا أزن الحياة بميزان المنافع العاجلة . فالحياة عندى فى جوهرها هى تحقيق الذات ، اى استخراج خير ما فى أعماق الانسان من ملكات . وفى الانسان أحيانا ملكات كاذبة يجب فى اعتقادى أن يضحى بها فى سبيل اظهار الملكات الأصيلة .. حتى ولو كلفه ذلك خسارة مادية أو معنوية . فكرة واحدة هى التى تعذبنى دائما .. هى احتمال الخطأ فى تقدير الملكة واختيار الهدف . من أدرانى أن ما حسبته ملكة أصيلة لم يكن سوى ملكة كاذبة ؟!. وأن تلك الحياة التى ركزتها كلها فى استخراج قطعة من حجر نفيس لم تكن سوى حياة ضائعة هباء ؟ عزائى الوحيد هو أنى أعتقد أن مجرد الجهد المبذول فى الحفر على أعماق النفس لاستخراج خيرها هو عمل شريف فى ذاته ، حتى ولو كشف فى النهاية عن جصى ورمال مخيبة للآمال !

الرجل الحق يغم نفسه ولا يغم عياله !

للأستاذ شفيق جبرى

ولد شفيق جبرى فى دمشق الشام سنة ١٨٩٨ ، ودرس فى مدرسة فرنسية أصحابها رهبان عازاريون ، ثم انصرف الى المطالعات الخاصة .. فقرأ من شعر العرب وكتبهم طائفة لا بأس بها ، وعنى بصورة خاصة بالكتب التى تغذى العقل ، وأولع بالكتابات التى تشيع فيها بشاشة الحياة . عالج الشعر .. فكان شعره مطبوعا بطابع وطنى قومى بالنظر الى الاحوال التى قيل فيها ، ومارس الكتابة التى يغلب عليها الجهد والتعب . وهو الآن عضو المجمع العلمى العربى فى دمشق وعضو مراسل فى مجمع فؤاد الاول للغة العربية ، وعميد كلية الآداب فى الجامعة السورية

الحياة مسرح يجرب فيه الانسان عقله وشعوره وعاطفته وحسه وذوقه ، فيهتدى كل يوم الى أمور جديدة، لأن الحياة غير ثابتة .. ففى كل عصر مذاهب جديدة فى كل ناحية من نواحى الفكر ، فى الفلسفة والأدب والعلم والاجتماع والاقتصاد وما شابه ذلك ، فى كل عصر حركات جديدة وأزياء جديدة .. وعلى هذا الشكل تتسلسل آثار العقول ، فيؤدى كل عصر نتائج ما يهتدى اليه الى العصر الذى يليه ، ويزيد كل عصر فى هذه النتائج بقدر ما يتيسر له من العلوم والتجارب

قد يكون من هذه العلوم والتجارب ما يحتاج الى تعديل . فمن عصر الى عصر يظهر علم جديد يعفى على آثار علم قديم، وتظهر تجارب حديثة تبطل تجارب عتيقة. فالانسان يحتاج

من حين الى آخر الى تعديل ما تعلمه أو جربه ، والخطأ كل الخطأ فى الثبوت على علوم باطلة أو تجارب فاسدة ، والذى يفيد البشرية انما هى هذه التعديلات التى ندخلها على آرائنا من حين الى آخر

والآن نصل الى جوهر السؤال : ماذا علمتنى الحياة ؟ أو ماذا تعلمت فى الحياة ؟

لقد يتعلم المرء فى حياته أمورا لا سبيل الى احصائها فى ورقة أو ورقتين .. ولكن لا نرى العبرة بكثرة علومه ، وانما نرى العبرة بمقدار انتفاعه بهذه العلوم . فاذا ذهبت الى الاتيان على ذكر ما تعلمته فى حياتى ، طال على المجال. وقد يكون الذى تعلمته أو جربته قد تعلمه غيرى أو جربه ، فالمهم — على ما أعتقد — أن يذكر الانسان ما انتفع به من علومه وتجاربه فى حياته

لقد قرأت بعض الكتب ووقفت على بعض التراجم .. فاذا كنت استعظمت رجلا من رجالنا فى قديم الدهور ، فقد استعظمت رجلا قالوا فيه انه امام فى العلم ، رأس فى الزهد عارف بالفقه،بصير بالأحكام حافظ للحديث،مميز لعلله،قيم بالأدب جماع للغة . هذا الرجل انما هو ابراهيم بن اسحق الحربى ، عاش فى القرن الثالث . وعلى الرغم من الأمور التى حصل عليها ، لم تكن له شهرة كشهرة عظماء أدبائنا أو علمائنا

قرأت ترجمته وعسى أن أنتفع بخلق من أخلاقه .. كان لا يشكو الى أمه ولا الى أخته ولا الى امرأته ولا الى بناته حمى يجدها . كان به صداع بأحد جانبى رأسه خمسا وأربعين سنة ما أخبر به أحدا قط ، وعاش أكثر من عشر سنين بفرد عين ما أخبر بذلك أحدا ، وأفنى من عمره ثلاثين سنة برغيف فى اليوم والليلة . ولو أردت الاتيان على هذا النوع من شظف عيشه وصبره ، لذكرت الشىء الكثير .. وانما المهم أن نعرف هذه الحكمة التى انتقلت

الينا على لسانه ، وهي « الرجل الحق هو الذى يدخل غمه على نفسه ، ولا يغم عياله ». ما اظن انى اخرج عن موضوعى اذا استشهدت بسيرة عظيم من عظمائنا ، لأن أصل السؤال « ماذا علمتنى الحياة ؟ » فاذا قلبت السؤال ، قلت : « ماذا علمني ابراهيم بن اسحق الحربى ؟!.. » والنتيجة واحدة

انا نعيش فى عصر غلبت فيه المادة على كل شيء .. فكان لهذه الغلبة عواقب وخيمة فى اخلاقنا واجتماعنا .. فى حياتنا كلها ، فالعصر الذى نعيش فيه انما هو عصر المادة ، فكل شيء يقاس بها . لقد ضعفت قيمة الروحانيات حتى كادت تموت ، لقد افسدت هذه المادية سياستنا وادبنا وعلمنا واوضاعنا الاجتماعية بحذافيرها ولاسيما الزواج.. فاذا كان من الواجب على رجال الفكر ان يبينوا فى هذه الأيام ماذا علمتهم الحياة حتى تنتفع البشرية بآرائهم ، فمن الواجب على أن أعترف بأن الذى علمنى اياه ابراهيم ابن اسحق الحربى فى احتمال الحياة والصبر على مكارهها انما هو شيء عظيم

ولست ارى فى هذا التعليم اثر زهد يقعد بصاحبه عن السعى فى الحياة ويميل به الى الكسل والخمول ، وانما ارى فيه جوا روحانيا يقوى سعى صاحبه ويشد آماله .. فالرجل الذى يدخل غمه على نفسه ولا يغم عياله ، انما هو رجل يخلق لنفسه افقا روحانيا يعيش فى ظلاله فى كثير من الهدوء والعالم حوله مضطرب ، وفى كثير من الراحة والدنيا حوله تعبة ، وفى كثير من القناعة والجشع حوله هائج مائج . ويستطيع فى هذا الأفق الروحانى الهادىء المستريح القانع ان يعمل كثيرا ، وان ينتج كثيرا ، وأن تنتفع البشرية بعمله وانتاجه !

لتكن آراؤك من وحى ضميرك !

للدكتور فيليب حتى

ولد الدكتور فيليب حتى فى يونيو سنة ١٨٨٦ ببلدة شيملان من اعمال جبل لبنان . وقد ظفر بدرجة البكالوريوس فى الآداب من جامعة بيروت الأمريكية فى عام ١٩٠٨ ، وحصل على الدكتوراه من جامعة كلومبيا الأمريكية سنة ١٩١٥ ، ثم هاجر الى الولايات المتحدة واصبح مواطنا أمريكيا عام ١٩٢٠ . وقد اشتغل بتدريس التاريخ بالجامعة الأمريكية فى بيروت ، ثم التحق بقسم الآداب الشرقية بجامعة برنستون فى الولايات المتحدة حتى أصبح رئيسا وأستاذا لهذا القسم منذ عام ١٩٤٤ . وهو معروف بنشاطه الواسع فى الميادين الأدبية والثقافية والاجتماعية ، وله مؤلفات كثيرة

علمتنى الحياة أن أعرب عن آرائى ــ اذا طلب الى ذلك ــ فى اعتدال ولباقة ، وطبقا لما يمليه الضمير ، ووفقا لما تتطلبه الأمانة الفكرية .. وذلك بغض النظر عما اذا كانت تلك الآراء مناسبة أو مقبولة من الجانب الآخر ، سواء أكان مستمعا أم قارئا . وبعد ، فان المرء انما يعيش مع نفسه ، ولن تتاح السعادة أبدا ما لم يتوفر السلام الوثيق بين اللسان والقلم من ناحية ، وبين المبادىء الشخصية من الناحية الاخرى

حدث فى أوائل شهر يناير سنة ١٩٥١ أن نزلنا فى القاهرة ضيوفا على الحكومة المصرية بمناسبة الاحتفال بمرور خمسة وعشرين عاما على انشاء جامعة فؤاد الاول ، وكنت أنا ممثلا لجامعة برنستون . وكان هنالك مندوبون للجامعات وللهيئات العلمية فى مختلف أرجاء العالم

وسعى رجال الاذاعة الحكومية لتسجيل حديث يذاع فى مختلف أرجاء العالم العربى. وكان بين الأسئلة المطروحة على هذا السؤال المعتاد : « ما رأيك فى مصر ، وما هى الآثار التى انطبعت فى ذهنك عن تقدمها فى مختلف نواحى الحياة من ثقافية واجتماعية واقتصادية ؟ » وهنا الفيتنى فى ورطة .. لقد كانت الحكومة تبالغ فى اكرامنا ، وكان مندوبوها يعاملوننا احسن معاملة

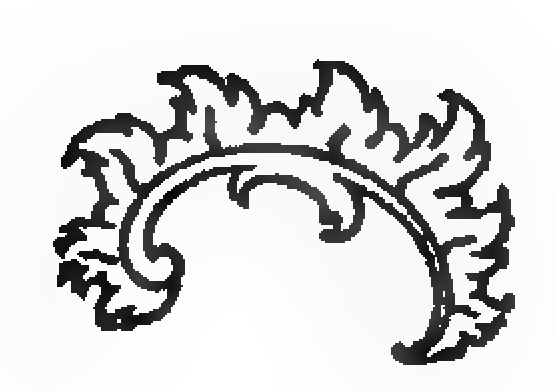
افهل يسعنى اذن ان اعرب عن آرائى بأمانة وصراحة بغض النظر عن كافة العواقب ، أم أعرض ضميرى وامانتى الفكرية للمهانة لمجرد ارضاء المستضيفين ؟ ومهما يكن من امر فقد جرت اجابتى على النسق التالى : « لا شك اننا قد تأثرنا بمدى التقدم الذى تحقق فى المستوى العالى للتعليم ، ولكننا تأثرنا بالمثل ، بتلك الثغرة الواسعة التي تفصل ما بين القلة المتعلمة تعليما عاليا ، والجماهير الغفيرة من الأميين . ومثل هذا يمكن ان يقال عن الثغرة الواسعة التى تفصل ما بين عصبة الأرستقراطيين الثرية والجماهير الفقيرة التى يخطؤها الغد والتى تعيش عيشة الحرمان والجوع ، وما لم يعمد ذوو السلطة الى التنازل عن بعض نفوذهم وسلطانهم ، ويجعلوا الذين لا يملكون يشاركونهم بقسط أوفر فيما يملكون ، ومن ثم يهبطون — من ناحية — بأعلى المستوى ، ويرتفعون — من ناحية أخرى — بحده الأدنى ، حتى تضيق المسافة بينهما — أجل ، ما لم يبد ذوو السلطان طواعية واختيارا رغبتهم فى صنع ذلك ، فلسوف يأتي وقت — وربما عن قريب — يضطرون فيه الى صنع ذلك قسرا وعن غير رغبة منهم »

وحدث أن كان مدير جامعة استنبول على مقربة ، بحيث استمع الى الحديث المسجل ، فأعرب عن دهشته من

« جسارتى وجرأتى » وأفضى الى بما سمعه من همسات رجال الاذاعة باللغة العربية ، التى لم يستطع فهمها بوضوح

. ولم يكن بفندق شبرد اى راديو . ومن ثم لم نستطع الاصغاء الى اذاعة الحديث المسجل . ومع ذلك فقد أخبرنى رجال الاذاعة عندما قابلتهم فى الصباح التالى أن « رقيب جلالة الملك » قد مر بقلمه الأحمر على العبارة بحذافيرها ؛ ومن ثم لم يذع حديثى المسجل

وفى يوليو من عام ١٩٥٢ اى بعد مرور عام ونصف عام على هـــذه الحادثة أصبح الملك « لاجئا » الى ايطاليـــا وقدم « رقيبه » للمحاكمة !



استقرار المرأة فى البيت يربو على آلاف الحقوق السياسية

للسيدة امينة السعيد

دخلت الجامعة المصرية فى الفوج النسائى الاول ، وكانت اول فتاة تدخل قسم الأدب الانجليزى واول خريجة فيه . وقد حصلت على شهادة الليسانس عام ١٩٢٥ ومنذ ذلك العهد وهى تشق طريقها فى عالم الكتابة بجد ومثابرة وكانت دائما شديدة الاهتمام بقضايا المرأة ، فاشتغلت بالنهضة النسائية . وعندما اسست الزعيمة الخالدة هدى شعراوى الاتحاد النسائى العربى العام سنة ١٩٤٤ ، اختيرت السيدة امينة السعيد أمينة سر عامة للاتحاد وهى تشترك الآن فى تحرير ثلاث من مجلات « دار الهلال »

كنت فى السابعة عشرة من عمرى ، عندما دخلت كلية الآداب بجامعة فؤاد . . وكان والدى على غير المألوف من أهل جيله رجلا تقدميا بكل ما فى هذه الكلمة من معان كريمة فاضلة . فتمتعنا فى صغرنا بكثير من الحريات التى لم يكن يستمتع بها البنات اذ ذاك . وكان طبيعيا ان أمضى فى حياتى الجامعية على ما اعتدت من تحرر عظيم ، غير مبالية بتقاليد العهد الصارمة ، فلم ألبث مثلا أن اشتريت مضربا للتنس ، ومارست به رياضتى الحبيبة ، وتدرجت من ذلك الى الشيش ، فكنت أول مصرية تمسك السيف بيدها . . وآلمنى ان أرى الطالبات حزبا ، والطلبة حزبا آخر ، فاقمت فى بيتنا حفلات للتعارف ، أشرف عليها والدى بنفسه ، وحضرها بعض اساتذتى وعمدائى

وكان سلوكا غريبا لم تعرفه الجامعة فى طالبــة قبلى ، وكانت التقاليد الرجعية ما زالت سائدة والبنات يخضعن لها خضوعا تاما ، فينطوين على أنفسهن ، ويبتعدن عن كل وجه من أوجه النشاط الجامعي .. وأغضب المتزمتين أن أخرج عن العرف المألوف ، واعتبروا تصرفاتى بدعا تسيء الىالأسس الاجتماعية الوطنية ، فثارت نفوسهم لذلك ثورة شديدة ، وبدأت الزوابع تتجمع حولى ، وانا لاهية عنهــا بحياتى الجامعية المسلية . ولم أنتبه الا وقد انفجرت مراجل الغضب ، فابتعد الزميلات عني خوفا من أن ينالهن الأذى بصداقتى ، وانبرت المجلات الأسبوعية الى التنديد بى فى أسلوب جارح مهـين . واشــــترك بعض رجال الادارة الجامعية فى الحملة . فكانوا ينتقدوننى علنــا وعلى مســمع منى ، وغرضهم بذلك أن يسيئوا الى شعورى بقدر ما أسأت ـ فى رأيهم ـ الى العرف الشرقى المألوف . وأعترف صراحة بأن هذه الثورة أصابتنى فى صميم كيانى وتركت فى نفسى آثاراً لم تزل حية الى يومنا هذا ، ولكنى لم أكن بطبعى جبانة لأتقهقر . ولم اكن أيضا خبيرة بشؤون الحيــــاة لأحسن تصريف الموقف ، ولذلك اعتبرت الثورة تحــديا من اسرة الجامعة .. فقبلت التحدى فى غضب طائش ، وجعلت أرد الصاع صاعين ، لمن ألمح فيه بادرة للانتقاد . وكثيرا ماكنت أبدأ بالعدوان وامعن فيه لأنتقم لنفسى قبــــل أن ينالنى الأذى ... فساءت الأحوال الى أبعــد حد ، وأصبحت حياتى فى الجامعة أشبه ما يكون بمعركة رهيبة أحارب فيها وحدى بأسلحة خائبة

وظل أبى يرقب الحال من بعيد ولا يتدخل فى أمورى بكلمة أو اشارة ، حتى اذا رأى اننى بدات أخرج فى غضبى عن دواعى الحكمة والمنطق نادانى الى غرفته ، وقال :

ـ انى أراك فى ثورة جامحة ، فما السبب ؟

قلت وانا اغالب الدموع :
ـ انهم يظلمونني ويهـــاجمونني ، واحب ان أرد لهم اساءتهم بالمثل وأكثر
قال : « وماذا يأخذون عليك ؟ »
قلت : « انني ألعب التنس والشيش ، وهم يعتقدون انني أخرج بذلك عن دواعي الاحتشام »
قال : « ولـكنك تدفعين رسوم الاتحـاد في أول العام الدراسي ، ومن حقـك أن تمارسي الرياضـــة على مختلف أنواعها .. فأنت والأمر كذلك على حق ، وليس لأحد أن يمنعك من الرياضة أو ينتقدك عليهــا .. فهل هــذا كل ما يأخذون عليك ؟ »
قلت : « انهم يكرهون ان أشترك في المناظرات الثقافية ، ان وقوفي على المنصة مع الرجال ، جنبا الى جنب ، يتنافى مع الحياء النسوى »
قال : « ولكن المناظرات نشـاط اجتماعي محمود ، ومن واجب الطالبة الجامعية أن تشترك فيه . ويسرني أن تكوني في هذا الميدان قدوة طيبة لبقية البنات .. فهل من مأخذ آخر ؟ »
قلت : « ان الحفلات التي اقمتها للتعارف أثارت ضجة خبيثة .. وقيل في وصفها ما قيل من التهم القبيحة »
قال : « ولكن التعارف واجب بين الزملاء والزميلات ، وأنا الذي اذنت لك باقامة الحفـلات في بيتي .. وأشرفت بنفسي على كل صغيرة وكبيرة من امورها ، وقد حضرها أساتذتك وعمداؤك ، فمم تخافين ؟ »
قلت : « انهم لا يفهمون منطقنا هذا ، واخاف أن يوقعوا بي حتى تفصلني الجامعة من سلك طلابها . واذا كان لا بد من فصلي فانا أحب أن أسبقهم الى الاساءة فأنتقم لنفسي وأغيظهم »
قال : « ولـكنك تخرجين بغضبك عن دواعي العقـل

والمنطق ، وأخشى أن تدمرى نفسك بنفسك »

قلت : « هذا لا يهم ... »

قال فى صرامة : « ليس من عادتى أن أتحكم فى أمرك ، ولكنى أحب أن تكونى على بينة من اتجاهاتى ، لتختارى طريقك فى غير التباس .. أنا أكره أن تكونى جبانة فيخيفك الهجوم ، ولكنى أكره أن يضلك الغضب والتحدى فتخطئى سبيل العقل .. ولذلك أؤكد لك أنك اذا فصلت من الجامعة مظلومة لأى سبب من الأسباب السخيفة التى يأخذونها عليك ، فسوف أكافئك على الفصل بارسالك الى أرقى الجامعات الأوربية تتمين فيها تعليمك العالى . أما اذا فصلت عن حق وكنت الملومة بخطأ صغير أو كبير ، فلن تنالى تعليما عاليا ، وسأبقيك فى البيت جاهلة شأنك شأن ملايين الفتيات المصريات . هذه كلمتى الأولى والأخيرة ففكرى فيها ثم اختارى ما يعجبك »

ولم يشأ والدى أن يقول أكثر من ذلك بعد أن وضح اتجاهاته ونواياه . وترك لى مطلق الحرية فى تقرير مصيرى . وأشهد أنى لم أفهم فلسفته فى بداية الأمر .. فلما أمعنت التفكير فيها ، لم تلبث الغيوم أن انقشعت عن رأسى ، وتكشفت لى الحياة على حقائقها فى جو جديد من الايمان بالمبدأ ، والثقة بالنفس . ورأيتنى أراجع نفسى فى كل خطوة قبل أن أخطوها ، وأناقش منطقى وضميرى فى كل فعلة أفعلها ، حتى لا أخرج عن سبيل الحق فأحرم فرصة التعليم الجامعى ، وحرصت كل الحرص على أن أتمتع بحقوقى مؤمنة بها ، وأقوم فى مقابل ذلك بواجباتى على أحسن وجه ، وأن أسير فى الحياة مطمئنة الى عدالة والدى الرجل الوحيد الذى يملك ناصية مستقبلى

وكان درسا خلقيا ممتازا .. فان المثابرة على سلوك

سبيل الحق شهرا بعد شهر وسنة بعد سنة ، غرس فى نفسى حب الحق والانتصار للعدالة فى كل تصرفاتى وأحكامى ، وعلمنى أن أطلب الحق من نفسى قبل أن أطلبه من غيرى ، وتكيفت أخلاقى على مضى الزمن بهذه الخلة الحميدة فعرفها الزملاء والأصدقاء ، وعندما وقفت فى ميدان الكتابة ، وبنيت اسما صحفيا طيبا ، اقترنت شهرتى دائما بالعدالة والانتصار للحق .. فقصدنى فى طلب المشورة أعدائى وأحبائى على السواء ، وكلهم ايمان بأننى لا أحيد عن العدل ولو كان الغرم من نصيبى شخصيا

وقد أفادتنى هذه الصفة فى جهادى الطويل من أجل ترقية أحوال المرأة ، ولا أذكر أننى خرجت يوما عن دواعى الحق فى مطلب أو دعوة ، فأنا أعلم مثلا أن الجهل ما زال منتشرا فى النساء وأن التشريعات العائلية بصورتها الراهنة أحق بالعلاج من دخول البرلمان . وبالرغم من أننى من أصلح نساء مصر لدخول البرلمان ، فان البيت فى رأيى جنة ما بعدها جنة ، وأن استقرارها فيه يعادل آلاف الحقوق السياسية

ولا شك أن اتجاهى هذا كان السر الحقيقى فى ثقة أصحاب الشأن بما أكتب أو أقول ، ولا شك أن انتصارى للحق قد ساهم فى بناء شهرتى أكثر مما ساهم القلم ، ولكنى لست صاحبة الفضل فى الميزتين . انما كان صاحب الفضل والدى بنصيحته الغالية فألف رحمة عليه

الرحمة تسع المحسن والمسيء !

للدكتور احمد زكى

ولد فى السويس ، وتعلم فى المدارس الاميرية المصرية من ابتدائية وثانوية . ثم نال دبلوم مدرسة المعلمين العليا . واشتغل بتدريس العلوم فى المدارس الثانوية والازهر ، ثم سافر عقب الحرب العالمية الأولى الى انجلترا فقضى بها نحوا من عشر سنوات ظفر خلالها بعدة درجات علمية رفيعة وبدرجة الدكتوراه فى العلوم ، ثم عاد لمصر حيث أصبح أستاذا بكلية العلوم ، ثم مديرا لمصلحة الكيمياء ، ثم مديرا لمجلس فؤاد الأول للبحوث ثم عين وزيرا . وهو اليوم مدير جامعة القاهرة

الا ما أكثر ما علمتنى الحياة . .

ومما علمتنيه الحياة ، أن التربية الأولى هى الأصل الأول من أصول النجاح فى الحياة . وأن مرجع هذا الى الوالدين ، والى البيت ، والى البيئة . وأن التربية الواسعة العريضة ، حتى مع الضحالة ، خير من التربية الضيقة العميقة . وأن التعميم فى أول الأمر خير من التخصيص . ذلك لأن الرجل منا لا يدرى ما يأتى به الغد . . اذن لأعد له ، وأعد له وحده

فكل احتمالات الغد يجب أن تكون نصب عين المربى ، والأب أول مرب ، وكذلك الأم . ولو أنى ملكت من أمر تربيتى فى صغرى ما أملك الآن ، اذن لتعلمت الرياضة والسباحة والرماية وركوب الخيل ، واذن لتعلمت الرسم والنحت والموسيقى والغناء ، وكل ما وقع فى طريقى من صور

الفن . واذن لتعلمت اللغات من انجليزية وفرنسية والمانية وايطاليــة .. ذلك والعمر غض ، ومادة المخ مرنة تلتقط بأيسر جهد . واذن واذن ...

هذا الى جانب ما تعلمنى المدارس ، فاذا كبرت اتسع اختيارى للحقل الذى أعمل فيه لكثرة ما أعددت للحياة من عدة . وليس فيما أعددت ما يذهب أبدا هدرا

ومما علمتنيه الحياة ، حاجة صاحب العيش الى الأصدقاء .. ان الذى يعيش فى الناس لا بد ان يعرف الناس ، وان تعرفه الناس ، وان يعين وان يعان . ولقد حرصت على الأصدقاء صغيرا كل حرص ، وحرصوا . وكان الولاء ولاء قلب .. وكلما كبرت وكبر معى الأصدقاء تحول ولاء القلب الى ولاء عقل ، وولاء حساب ، من جمع وطرح . وثقلت مطــالب العيش على الصديق منهم وتزوج .. فتركزت همومه فى داخل أسرته على الزمن ، فقل همه بالذى خرج عنهــا ، فبالأصدقاء ! وتدهورت الصداقة فصارت مفاوضات ، فى الخير وفى الشر .. فلم يبق من خير الصديق الصادق يبذله للصديق الصادق الا النصيحة الخالصة ، والنصيحة الخالصة شىء عزيز عظيم . فأنا أستنصح الأصــدقاء الخلصاء .. لا لأتبع ، ولكن لأزداد فهما ، ولأدرك كيف يرى النــاس الامور من زوايا غير زاويتى ، لتكون نظرتى اشمل ثم يكون الحكم آخر الأمر لى ، ولى وحــدى . وكثــيرا ما خالفت النصحاء ، فحمدت العاقبة

□

وعلمتنى الحيــاة كراهة الضيق .. الضيق فى المكتب ، والضيق فى المسكن ، والضيق فى المغدى والمراح .. وكذلك ضيق عقول ، وضيق قلوب . ان الذى ظهر لنا من هــذا

الكون دنيا لها أفق واسع ، والذى لم يظهر لنا منه له أفق بل آفاق أوسع . وليس يناغم الحى الحياة بهذه الدنيا الا بالواسع من كل شيء . وأكره ما أكره من صنوف الضيق ، ضيق الأذهان على أى صورة فى الناس كان .. وما أكثر صوره التى يكون بها فى الناس . وهم يعبرون عنه بالتعصب الذهنى . وقد يتعصب الرجل لرأيه جزافا ، وقد يتعصب لأسرته جزافا ، وقد يتعصب لأمته ، أو للونه ، أو لدينه ، أو حتى لعقيدة سياسية تقع عنده أنها الصواب ، وسائر العقائد الخطأ . وهذا حمق ذهنى لم أجد وراءه حمقا ، واعتداد بالغ بقدرة عقل بعد أن تبين الناس ما فى العقول من قصور

أما ضيق القلوب فصفة للقلب الذى لا تدخله الرحمة من باب واسع ، الرحمة التى تسع الناس جميعا ، من كل رأى وكل جنس وكل أرض . الرحمة التى تسع المحسن وتسع المسيء ، وتدرك حقيقة الطبيعة الانسانية فى أوج علاها ، وفى الدرك من حضيضها . فتفهم كل شيء ، وتغفر كل شيء ... الرحمة التى تطول فيطاول بها الانسان رحمة الله

وعلمتنى الحياة وعلمتنى ...

ان الحياة علمتنى دروسا الفا .. هذه ثلاثة منها

اذا سرت وصلت

للأستاذ حافظ وهبة

الأستاذ حافظ وهبه سفير المملكة العربية السعودية بلندن ،، ولد منذ ستين عاما فى حى بولاق بالقــاهرة . وتعلم بالأزهر ، ومدرسة القضاء الشرعى . واولع بالمغامرة وهو فى مطلع الشباب ، فسافر لاستنبول والهند والكويت الى أن التقى بجلالة الملك عبد العزيز آل سعود ، فاتخذه مستشارا سياسيا له ، ثم جعله سفيرا للمملكة العربية السعودية فى لندن

لقد كانت حياتى كلها كفاحا ومغامرة .. كفاحا ضــد الأمراض التى كانت تعصف بالأطفال والشباب فى أيامنا ، وكفاحا ضد الخرافات السائدة فى احيائنا

لقد كنت طموحا بفطرتى ، فلم اقنع بلون من الوان الحياة التى كان يقنع بها زملائى فى الأزهر ومدرسة القضاء الشرعى

لقد منحنى الله من قوة الصبر والاحتمال ما مكننى من احتمال كثير من محن الحياة .. لقد كان سلواى فى محنى الآية الكريمة : « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو اخباركم » صدق الله العظيم .

لقد كان لبعض اساتذتى بالأزهر الفضل الأكبر فى تحرير عقلى من عبادة المؤلفين وتقديس الكتب ، كما كان لكتابى « سر تقدم الانكليز السكسونيين » ترجمة فتحى زغلول ، و « التربية الاستقلالية » ترجمة عبــد العزيز محمد الأثر الأكبر فى اعتمادى على نفسى وحبى للمغامرة والمخاطرة

ولدت قبل ستين سنة فى حى بولاق من أحياء القاهرة فى وقت ساد الجهل فيه مصر ، وتحالفت على جيلنا جميع الأمراض المعدية والفتاكة ، فلم يبق من هذا الجيل الا من كتب الله له السلامة بما منحه من المناعة القوية . وبالرغم من جهل وسطنا ، فان آباءنا كانوا شديدى الحرص على تعليمنا بالقدر الذى تمكنهم منه مواردهم المالية ومداركهم الفطرية .

دخلت الكتاب أو المدرسة المتواضعة ، فتعلمت القراءة والكتابة ومبادىء الحساب وحفظت القرآن الكريم كأمثالى طلبة الكتاب .. وهنا قامت أول معركة بين والدى ووالدتى . فأمى تريدنى أن أكون من المطـــربشين ، وتود أن ألتحق باحدى المدارس النظامية كمدرسة عباس فى حى بولاق . ووالدى يريد أن ألتحق بالأزهر لأكون عالما من علمائه كالشيخ بخيت ، أو الشيخ محمد عبده ، أو الشيخ على حسين البولاقى الذى ارتفع شأنه فى حينا

أما أنا فكنت أميل الى رأى والدتى ، فلم أكن فى تلك السن أفهم من الالتحاق بالأزهر الا أن أكون من المحترفين بقراءة القرآن سواء فى البيوت أو فى المآتم أو على المقابر ، وكنت بفطرتى أكره هذه الحرف أشد الكره .. غير أنى التحقت بالأزهر بالرغم منى ، وكما أراد أبى

لقد كانت خيبة أملى عظيمة .. فالنظافة لم تعرف الأزهر فى تلك الحقبة من الزمن ، والأخوة الاسلامية قد تركت مكانها للعصبيات الجاهلية .. فالمعارك بين الصعايدة والشراقوة لا تكاد تنقطع . وكثـيرا ما قادت العصبيات المشـــايخ ، فاشتركوا فيها بسهم بارز . ولكن بجانب هذه العيوب كان الأزهر عامرا ببعض العلماء ممن آتاهم الله بسطة من العلم والعقل ومتانة الخلق والزهد فى الدنيا وحرية البحث مما أنسانا جميع المساوىء ..

لقد كانت لنا الحرية التامة فى اختيار أساتذتنا وكتبنا ، فكانت هناك روابط روحية تربطنا بمن احببنا من أساتذتنا ، وهى أشبه بما نراه اليوم فى جامعات أوربا

ثم اختططت لنفسى طريقا آخر فى الحيــاة ، فالتحقت بمدرسة القضاء الشرعى .. والحق اقول انه بالرغم من نظام المدرسة وحسن العناية بالطلبــة وحرص القــائمين بامرها على اخراج جيل يقوم باصلاح القضــاء الشرعى فى مصر ، لم أجد فى المدرسة ما يرضى نزعتى الى الحرية وحرية البحث

لم اجد فرقا كبيرا بين ما نتعلمــه فى مدرسة القضــاء وما نتعلمه فى الأزهر اللهم الا فى طريقــة التعليم وتنظيم الحياة وترتيب التفكير . أما الكتب والمادة فهى مادة الأزهر وكتب الأزهر .. وبعض المدرسين قد اختيروا من الأزهر ارضاء للأزهريين . ولذا فانى لم اجد فى المدرسة ما يتفق مع رغباتى المتطرفة

وتركت مصر الى استانبول ، وكنت أعتقد ان استانبول قد سبقت مصر بمراحل فى مضمار الحضارة والتقدم .. ولكنى وجدت الأمر على عكس ذلك فالطرق فى مصر خير منها فى عاصمة الخلافة ، والترام حتى سنة ١٩١٣ كان لا يزال يسير بالخيول لا بالكهرباء . ولم يكن فى العاصمة التركية ما يسترعى النظــر سوى الجيش ، وقد ظهــــرت قوته واستعداداته فى حرب البلقان التى انتهت بالقضاء على تركيا فى اوربا تقريبا

ولقد يممت الهند بعد تركيا ، فأقمت بهــا عشرة أشهر متنقلا من مدينة الى أخرى . ولقد رايت بالهند ما لم أجد بمصر ، فالمسلمون بالهند قد سبقوا المصريين فى التأليف والترجمة الى الانكليزية .. ترجموا القرآن وتفسيره الى الانكليزية ، ووضعوا كتبا قيمة عن الاسلام وتاريخه والدفاع

عنه . وقد كان المصريون اولى بذلك ، فهم أعرف بدقائق اللغة العربية من اخواننا الهنود . ورايت من أهل الحديث فى الهند عصبة ليس لها نظير فى أيامنا الاولى ..

على أن هنالك أشياء كثيرة فى الهند لا تختلف عما كان فى مصر .. فالبوليس السياسى يحصى على الناس أنفاسهم ، والويل لمن يقع تحت أيديهم ، وقد بلوت شرورهم تسعة أشهر كاملة أثناء الحرب الاولى

لقد ضاق صدرى من التفرقة فى الهند بين الهنود والانكليز حتى فى النوادى والقطارات ، مما لم يوجد له مثيل فى بريطانيا .. فالمساواة تامة بين من تضمه بريطانيا من السكان ، ولكن الهندى فى بلاده يرى نفسه أقل منزلة من الانكليزى

وتركت الهند بعد اعلان الحرب الاولى ، وكانت نيتى الرجوع الى استانبول عن طريق العراق .. ولكن شاء القدر أن أحط رحالى بالكويت لأن الباخرة التى كنت أستقلها لم تتعد الكويت . وهنالك بالكويت ، رأيت من الوفاء وحب التعاون بين الناس ما حببنى فى اطالة الاقامة بها . وبالكويت اشتغلت بالتعليم ، فكنت بلا فخر الرائد الاول للتعليم بها ، وانى لفخور أن أرى جيلا وطنيا مخلصا يشارك حكام بلاده فى تحمل كثير من المسئوليات

لقد شننت حربا شعواء على الجهل والخرافات السائدة ، وعلى سياسة الحكام الجائرة ، وسياسة بعض الوكلاء السياسيين الذين تعدوا حدود وظائفهم من الارشاد والاصلاح فاعتبرت العدو الاول للسياسة البريطانية ، والحق اننى لم أكن الا منتقدا لبعض التصرفات التى لا تتفق مع ما كنا نقرأه عن السياسة البريطانية ، وبعض الموظفين البريطانيين لا يريدون منك الا أن تكون خادما لا صديقا تصدقهم

ثم سمع السلطان عبد العزيز بما اقوم به من الجهـد فى سبيل الدعوة الى الحق فى الخليج الفارسى ، فأرسل الى دعوة كريمة لزيارة الرياض .. وكنت قد تعرفت الى جلالتـه عنـد زيارته للكويت أثناء الحرب العالمية الاولى . فلبيت الدعوة وهنالك عرض على جلالته الاقامة بالرياض لأكون بجانبه كمستشار فى الأمور السياسية .. فترددت أول الأمر ، ولكننى قبلت بعد الحاح على شرط أن أكون صديقا أصدقه القول ، وهو حر فى قبول ما يعرض عليـه . وقد قلت لجلالته قولتى المشهورة المعروفة فى جزيرة العرب : « اذا عاملتنى كصديق وجدتنى خادما ، واذا عاملتنى كخادم وجدتني ثائرا »

واشهد ان جلالة الملك عبد العزيز عاملنى طوال الثلث قرن كصديق وفى ، كثيرا ما اتسع صدره لمناقشتى . واذا كنت قد أطلت فى خدمته ، فذلك لأننى أحببتـه من كل قلبى .. فوجدت فيه الرجل العظيم الحكيم السياسى البارع والقائد المحنك

تلك هى قصتى باختصار ، لعلها تحفز الشباب الى الوثوب ، واذا لم يسر الانسان لم يصل الى غاية ، ومن جد وجد ، ومن زرع حصد

الحياة جديرة بأن نحياها !

للأستاذ محمد شفيق غربال

ولد محمد شفيق غربال بالاسكندرية فى عام ١٨٩٤ ، وتخرج فى مدرسة المعلمين العليا فى سنة ١٩١٥ .. وأوفدته وزارة المعارف لدراسة التاريخ الحديث فى انجلترا ، فدرس فى جامعتى لفربول ولندن وتتلمذ فى الجامعة الثانية على آرنولد توينبى وقد فتحت له هذه التلمذة آفاقا لا يتصورها بدونها . وقد قام بتدريس التاريخ بالمدارس الثانوية ، وبالمعاهد العالية وبالجامعة ، ولم تنقطع صلته بالتعليم حتى اللحظة الحاضرة ، حتى بعد تركه الأستاذية الرسمية وانتقاله وكيلا لوزارة المعارف منذ سنة ١٩٤٠.

علمت نفسى أن أتعلم من الحياة ، أنها تستحق أن أحياها . ولا أدرى على وجه التحقيق كيف ومتى ، ولم بدأت ذلك . . أكان هذا لسعد الطالع — ان صح أنه كان سعيدا — أو كان لنوع المزاج الذى وهبته — ان كان هناك معنى لما يقال فى أنواع الأمزجة وآثارها . . أو كان للبيئة السعيدة التى نشأت فيها . وربما كان هذا العامل الثالث أقوى ما أعدنى لتعلم الدرس

على أنى أعلم علم اليقين أننى منذ أن وعيت ومنذ أن أخذت أنظر فى نفسى وفيما حولى ، ومنذ أن حاولت الوقوف على أسرار الأصول والمصائر ، ومنذ أن جاهدت لأقيم أفعالى على أساس من المعقولية ، ولأوجهها لغايات مفهومة ، وأنا موقن بأن الحياة تستحق أن أحياها ، وأن نظرتى هذه اليها خليقة بأن تكون دستور سلوكى فى فترة العمر ، وأن ينظم

على اساسها ما بينى وبين الناس

ولا أستطيع أن أزعم أن لهـذه النظرة للحيـاة قيمة فلسفية أو مذهبية .. ولذا فانى لم أحملها ولا أحملها أكثر مما تطيق . ولم أتخذ منها يوما ما وسيلة لتفسير أصل أو مصير . ولكننى وجدتها تقبل صحبة غيرها من المذاهب طيعة معتدلة ، وتتمشى مع مافى الوجود من الخير الـكثير والشر المستطير ، ولا تناقض الرأى القائل بالارتقاء أوالآخر الذاهب الى أن الخراب قضاء محتوم أو الايقان بأن الـكون يخضع لنظام ، وان كان قدر البشرية فيه ضئيلا ــ أو على الأقل ــ غير واضح المعالم

ولم اجد ــ من ثم ــ دستورا خيرا من الايمان باستحقاق الحياة للحياة . ولم اجد أحسن منها مثلا لفكرة « الوسط الذهبى » الذى تحدث عنه اليونان أو كما نقول « خير الأمور الوسط » ، اذ هى لا تسمح للنجاح بأن يدفع الانسان فى طلب المستحيل ، ولا تمكن الفشل من التعطيل ، فلا زهو ولا بطر ولا افراط ولا تفريط ، تقبل الناس على ما هم عليه ، ولا تطلب منهم ولا تطالبهم بما هم عنه عاجزون

□

ولم أتعلم الدرس من حياتى أنا بالذات وحدها ، ولا من حيـاة جيلى وحـده .. بل كان معلمى الانسانيـة ، كما احتوتها دنيا التاريخ وجعلتها دنياى .. أعمارها عمرى واجيالها جيلى ، وناسها أجمعون معاصرى .. فلم اهتم بدنيا الطبيعة ، ولا بالانسان العارى ذى الظفر والناب .. بل كان انسانى الانسان الناشىء فى عشـيرة تكفله ببرها وحنانها ، تطعمه وتكسوه ، وتقيه الغوائل ، وتلقنه معارفها ، وتكسبه آدابها وشرائعها ، وتربط مصيره بمصيرها .. ومن

هذا السجل المبسوط تعلمت أن الحياة تستحق الحياة

وطريقتى تجـــرى على قاعدة الجمع بين الاتصـــال والانفصال .. فأتصل بشؤون الحياة أحيانا ، وأنفصل عنها أحيانا اخرى او يكون الأمر مزيجا من الخطتين ؛ وهــذا كله ارضاء للضمير ، أو تحقيقا لمنفعـــة عامة ، أو درءا لشر . والدافع الأكبر فى جميع الحالات هو أن أحفظ حقى انسانا مسئولا محاسبا مع ما يؤديه من خير وما يقترفه من شر ، وأن أؤدى حق العشيرة على

وقد قرأت ما حكاه أديب عن جماعة القنافذ ، كانت اذا التصق آحادها طمعا فى الدفء أو دفعــا للأعداء آذتهــا جميعا أشواكها ، وكانت اذا تباعدت فقدت الأمن والحرارة .. فكان عليها أن تسوى ما بين القرب والبعد ، ما بين الاتصال والانفصال

ولا يستطيع احد أن يرسم حدودهما رسما دقيقــا ، وأن يعين لكل ظرف ما يناسبه .. فلا بد من ترك تقدير كل هذا للفرد ، الا أنه فى سبيل الكشف عن الطريق وتبين المنهج الصالح ، لا يستغنى عن درس سير الرجال . ولقد أدركت ذلك عندما انتهيت من دراستى الثانوية ، فاخترت أن ألحق بمدرسة المعلمين على كره من يهمهم أمرى لهذا ، وكان أساس اختيارى انها كانت ، مع التزامها باعداد المعلمين فى أضيق الحدود ، المعهـــد الوحيـــد فى مصر اذ ذاك الذى يصلنى بالدراسات الانسانية . وتم لى أن مكنتنى المدرسة ، من متابعة تلك الدراسات على نطاق أوسع فى المعاهد الخارجية ، وتهيأ لى بذلك الاطار الذى أعمل فيه مواطنا مصريا ، وانسانا جادا فى أن يجعل حياته جديرة بأن يحياها

حدد أهدافك

للأستاذ اميل زيدان

ولد السيد أميل زيدان عام ١٨٩٣ . وحاز شهادة الدراسة الثانوية فى مصر ثم شهادة بكالوريوس علوم من جامعة بيروت الأمريكية ، ثم ليسانس الحقوق . وقد والى أصدار مجلة «الهلال» بعد وفاة والده سنة ١٩١٤ ، ثم اسسا بالاشتراك مع أخيه الاستاذ شكرى زيدان عدة مجلات اسبوعية وشهرية . منها كتاب الهلال وروايات الهلال والمصور والاثنين والكواكب وايماج الفرنسية كما اسسا قسما ثقافيا بدار الهلال لاصدار الكتب والمجلات الثقافية الاخرى

أستطيع اليوم ـ وقد أشرفت على الستين ـ أن القى على تجاربى نظرة فاحصة تتضح معها المبادىء التى اعتمدتها فيما أنجزت من عمل ، والعبر التى خرجت بها من تلك المعركة المتصلة التى نسميها « الحياة » . .

كان والدى معلمى الاول . . ولم انس يوما قصة رواها لى وأنا حدث ، فرسخت فى ذهنى من ذلك الحين واعانتنى فى أحرج الأوقات . قال : « ركب جندى بريطانى حمارا فى طريقه الى ثكنته بالعباسية . . وكانت الحمير من وسائل الانتقال المألوفة. وكان صاحب الحمار وهو يعدو خلفه يوجه اليه ألوانا من السباب ثقة منه ان الجندى لايفقه شيئا من هذه الألفاظ . . ولكن أحد المارة استوقف الجندى ، وقال له : اتدرى ما يقوله صاحب الحمار ؟ انه يسبك ويصفك بكذا وكيت . . فما كان من الجندى الا أن سأله : وهل هذه

الألفاظ تمنعني من الوصول الى الشكنة ؟ قال : لا طبعا .. فقال : اذن دعه يقل ما يشاء فانما يهمني أن أصل الى حيث أريد »

تعلمت من هذه القصة أنه ينبغي للانسان أن يعرف هدفه ، فاذا عرفه وحدده مشى اليه فى ثقة واطمئنان دون التفات الى ما يعترض طريقه من المنغصات والمثبطات .. فليس النجاح بعيد المنال بالقدر الذى يراه شباب اليوم ، وانما سبيله الأكيد تحديد الهدف وتسخير الوسائل الفعالة لبلوغ ذلك الهدف ، ويندر أن تجد شابا يعرف ما يريد ويصرف له جده ونشاطه دون أن يصل يوما الى الغاية التى ينشدها . وانما يفشل أولئك الذين يريدون الغايات الجميلة دون أن يبذلوا فى سبيلها ما تقتضيه من جهد ، ينفق بلا حساب ، وعرق يتصبب يوما بعد يوم ، بل ساعة بعد ساعة

ثم أن طاقة الانسان محدودة ، فما يصرف منها فى الكلام والنقاش أو فى الغل والحسد والبغضاء ، انما يسقط من حساب العمل الذى يستطيع انجازه... ومن ثم ندرك حكمة عمر بن الخطاب اذ قال : « اذا أراد الله بقوم سوءا سلط عليهم الجدل ومنعهم العمل »

أصدق نفسك

وثمة حكمة كان لها الأثر الأول فى حياتى ، وهى قول شكسبير فى رواية هملت (بشيء من التصرف) : « أصدق نفسك تصدق الناس جميعا » . فالانسان أبرع فى خداع نفسه منه فى خداع الناس . ومن راض نفسه على مواجهة الواقع ــ مهما آلمه ــ فقد تسلح بأفعل الأسلحة فى نزاع الحياة ..

وقد يبدو من السهل أن يكون الانسان صادقا مع نفسه ،

ولكنه من أشق الغايات ولا يتأتى الا بالمران الطويل . فالانسان نزوع بطبعه الى تصديق ما يريده والاقتناع بما يريح ذهنه . أما مواجهة الحقيقة المرة ، وأما مجابهة الواقع المؤلم .. فدون ذلك ترويض شاق للفكر وتطبيع طويل الأمد لنزعات النفس

اعذر الناس

وحكمة أخرى كان لهـا ابلغ الأثر فى حيـاتى ، وهى القول المأثور : « أعقل الناس أعذرهم للناس » فالحوافز الأساسية تكاد تكون واحدة فى البشر . وانما يختلف فريق منهم عن فريق باختلاف الأحوال التى نشأوا فيها ، فمن أعسر العسير على من عاش فى بحبوحة النعمة أن يحس ما يحسه المعوز الذى لا يحصل على ما يتبلغ به الا بشق النفس

وقد يكون من التعسف ـ أو فى الأقل من التفكير البدائى ـ ان تقام حدود تفصل بين طوائف الناس .. فالفروق بين الأخيار والأشرار ، وبين العقلاء والمخبولين ، وبين الصادقين والكاذبين الخ .. ليست بالقدر الذى يبدو لأول وهلة . وفى كل منا عناصر ـ بنسب متفاوتة ـ من تلك النزعات جميعا . ولو كان أحدنا مكان من نسميه شريرا أو مخبولا أو كاذبا وتأثر بما تأثر به منذ نشأته ، لما تصرف فى الغالب الا كما تصرف ذلك الرجل الذى يزدريه ..

وقد تعلمت من الحياة ان نصيب الفكر والمنطق من أعمال الناس أقل بكثير مما يدعون .. فهم مسيرون بغـرائزهم ومصالحهم فى المقام الاول ، ولـكنهم يحتـالون على الفكر والمنطق لكي يستسيغوا ما يفعلون ، ولكى يستسيغه أيضا سائر الناس ..

تسامح مع المرأة

واود ان اقول كلمة عن المرأة فهى نصفنا الذى لا غنى لنا

عنــه ، ولعلى أغضب فريقا من السيدات فيما أنا قائله ، ولكنى أقوله وأمرى لله : من الخطأ ــ بل من الظلم فى نظرى ــ أن يعامل الرجل المرأة على نفس القواعد التى يعامل بهــا زملاءه من الرجال .. فنظرها الى الحياة غير نظره ومنطقها غير منطقه ، ولا ريب أن أنوثتها تسيطر على حياتها ، كما أن تصرفاتها مطبوعة على الدوام بطابع عواطفها وانفعالاتها

على أنه ليس فيما تقدم ما يهبط بمكانة المرأة .. وانما ينقص من شأنها أن تعتقد انها صورة ثانية للرجل . فقــد جعلت لها الطبيعة مجالا لا يقل شأنا عن مجاله ، والأمر الأجل أن تعرف حدود هذا المجال فلا تتعداها

واذا ادرك الرجل هذه الحدود ، أمكنه ان يكون على أتم الوفاق مع المرأة .. وخصوصا اذا تمسك بالقــاعدة التى وضعها أوسكار وايلد ــ وان يكن فيها بعض المغالاة ــ وهى ان المرأة قد جعلت لكى يحبها الرجل لا لكى يفهمها

هذه طائفة من العبر التى خرجت بها من حياتى الماضية .. ولو عشت عشرين سنة أخرى وسئلت مثل السؤال الذى أجيب عنه اليوم ، فهل يا ترى أجيب بمثل ما أجبت ؟

لست أدرى . فقد علمتنى الحياة أيضا الا أومن برأى ــ أيا كان ــ على أنه حقيقة غير قابلة للتعديل ، فسنة الحياة الاولى النمو والتجدد .. والعاقل من فهم هذه السنة ، فكان دائما مفتح الذهن مستعدا لتقبل كل رأى جديد

حقائق وأوهام

للأستاذ محمد رضا الشبيبي

ولد السيد محمد رضا الشبيبي في النجف في اواخر العقد الاخير من القرن الماضي بين ابوين ينتمي كل منهما الى أسرة علمية ، وفي تلك المدينة نشأ ودرس وفق برامج المعاهد العلمية الأهلية ، وقد ولدت مع الشبيبي موهبته الشعرية الموروثة من الآباء والاجداد ، وقد عني بالسياسة في مقتبل أيامه ، وانخرط في سلك غير هيئة من الهيئات السياسية العاملة وانتخب رئيسا لبعضها ، وأسند اليه بعد ظهور الدولة العراقية منصب الوزارة خمس مرات ، وانتخب عضوا في كل من مجلسي الشيوخ والنواب غير مرة ، ورئيسا للمجلسين ، وهو الآن عضو في مجلس النواب

امتازت المرحلة التي انتقل اليها العالم ــ في اعقاب الحرب العامة الاولى ــ بأحداثها الجسيمة . وقد جاءت أحداث الشرق العربي منها متشابهة في طبيعتها ، وفي مقدماتها ونتائجها السياسية والاجتماعية في العراق ومصر والشام

غلب على الأمة العراقية شعور عام بضرورة الخروج من عزلتها ، والاتصال بالعالم للتعريف بأمانيها ومطالبها المشروعة . غلب هذا الشعور على الأمة في تلك الفترة بعد اجراء استفتاء عام في البلاد ، من اجل تقرير المصير ، واختيار الوازع وتعيين شكل الحكومة .. وهو استفتاء أسفر عن طلب الحكم الذاتي والاستقلال . ولم يكن لي مفر من القيام برحلة الى بلاد العرب وما اليها في الفترة المذكورة

كان الفج عميقا ، والسبيل مخوفا ، ووجوه الرفاق متنكرة غريبة .. بيد أننا تغلبنا على هذه الصعاب . قطعنا الفجاج على ظهور النجائب ، فرضنا أنفسنا على تحمل المشاق ، وهجمنا على المخاوف فغنمنا الأمان ، وتمادى السفر فزالت الوحشة ، وحل محلها صادق الود والاخاء

كنا فى حلنا وترحالنا نشعر بأننا خلقنا خلقا جديدا ، وأن الدماء المتدفقة فى عروقنا دماء حية .. ذلك أن الحياة تريد أن تراك مقدأما مخاطرا بالنفس والنفيس ، لاتتردد فى اقتحام الأهوال كلما اقتضى الأمر ذلك . أضف الى هذا تجارب وخبرة اكتسبناها فى شؤون الناس وطبائع الشعوب

كنا فى العراق مأخوذين بما نسمعه عن ثورة العرب فى الخارج ، وعن النجاح الذى أحرزه القادة الثائرون فى بعث الدولة العربية المرجوة .. رايات قومية تنشر ، بعد طى طويل ، وكيان سياسى مرموق ، وحكام تجرى فى عروقهم دماء عربية ، الى روايات أخرى جذبتنا جذبا الى الوطن العربى الأكبر تحدونا آمال جسام فى الحصول على معونة ايجابية لهذا البلد المنكوب باحتلال الانكليز . وسرعان ما صدمتنا الحقيقة المرة صدمة أشعرتنا بأننا كنا مسرفين فى التفاؤل ، مسترسلين مع الخيال ، مخدوعين بالأقوال .. فاذا الحركة فى الديار الحجازية يخيم عليها الجمود ، وفى الشام لاحظنا — والحق يقال — بعض مظاهر الوعى والنشاط ، ولكنه نشاط محدود بحدود الزمان والمكان . أما الدولة الهاشمية هناك ، فتنقصها مقومات الدول .. اذ لا جيش ولا سلاح ، كما ثبت بعد ذلك فى المعركة التى دارت رحاها بين السوريين والافرنسيين . والأنكى من ذلك أن الكثرة الكاثرة فى لبنان لا تؤمن بالوحدة القومية ، بل تطغى عليها نعرة اقليمية تحقد على العروبة ، وتؤثر الانفصال

على الاتصال ، فمن العبث أن تحمل هؤلاء العرب الثائرين ما لا يطيقون

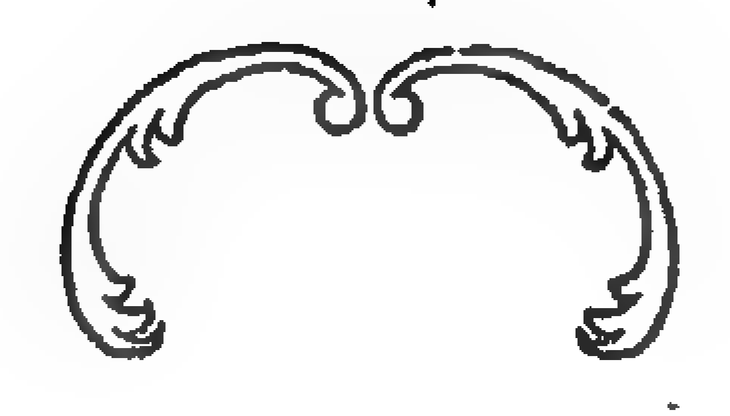
من ذلك الحين ، وبعد انجلاء الموقف على هذه الصورة ، اتجه العراقيون وجهة اخرى فى مناجزة الانكليز ، وجهة امتازت باستقلالها ، وعدم اتكالها على معونة ما من خارج البلاد

نسقت هذه الأقطار جهودها ، ووحدت صفوفها ، فحالفها النجاح قبل أكثر من ثلاثين سنة ، فصارت دولا مستقلة ذات سيادة باعتراف الدول الكبرى فى الظاهر و « دساتير » أو « قوانين أساسية » عليها مدار الحكم فى البلاد . واليوم وقد مضى على ذلك ردح طويل من الزمن ، يلاحظ تضاؤل ذلك الشعور الشريف ، وانكماش روح التضامن والاخاء ، وفقدان الطمانينة والاستقرار .. فبماذا يعلل فشل التجربة فى بعض هذه الأقطار ؟

لقد دلت التجارب على ان الأمم الفتية تستطيع بسهولة تنسيق جهودها وتوحيد صفوفها فى مجابهة الحكم الاجنبى السافر .. ولكن لا يسهل عليها ذلك اذا موه الحكم المذكور ، وطلى ببعض المظاهر الوطنية الخلابة . ففى ظل كثير من هذه المظاهر الأخاذة تتصدع الصفوف وتتضاءل روح التضامن والاتحاد ، ويتبلد الشعور ، ولاتؤخذ هذه الشعوب ولا تغلب على امرها الا بمثل هذه الأشراك والأحابيل ، فويل للمخدوع وويل للضعيف ..

تعاقبت علينا بعد ذلك فى العراق وخارجه غير الليالى ، وتصاريف الزمان ، بين شدة ورخاء ، ويأس ورجاء ، وخوف واطمئنان .. وقدر لى ان انال بعض أوطار النفوس ومطالبها ، تلتها بالترفع عنها والزهد فيها ، لا بالاسفاف اليها ، أو التهالك عليها ، كما يخيل الينا فى كثير من الأحيان

صوبت الى مقاتلى سهام مسمومة أخطات أغراضها ..
فاذا بأديمى هـذا وهو أديم سليم من المطـاعن والجراح ،
وذلك بفضل نوع من الالهام أو البصـيرة بدخيلة هـذه
النفوس . وهكذا تعلمت أن البصيرة النافذة ، وأن الحذر
والاحتياط من أمنع المعاقل والحصون فى معترك الحياة



الولد سر أبيه

للدكتور ابراهيم مدكور

ولد فى فجر هذا القرن فى قرية تعتبر ممتازة بين قرى الريف المصرى ، لقربها من العاصمة واشتغال أهلها بالتجارة ، وهى قرية « ابو النمرس » من اعمال الجيزة . التحق ــ وهو فى الثانية عشرة من عمره ــ بالازهر . وانتقل منه بعد ثلاث سنوات الى مدرسة القضاء الشرعى ، متابعة لدراسة دينية مستنيرة ، ثم امتد به الشوط الى مدرسة دار العلوم . ثم سافر فى بعثة الى باريس ، حيث درس الفلسفة والقانون ثم اختير لتدريس الفلسفة بكلية الآداب بجامعة القاهرة . وفى عام ۱۹۳۷ ، فاز بعضوية مجلس الشيوخ ثم اختير وزيرا ثم عضوا بمجلس الانتاج

لا اظن أن هناك درسا ابلغ من دروس الحياة ، وهى كثيرة ، ومن لم يؤدبه والداه أدبه الليل والنهار .. ويمكن أن يقاس النجاح بمدى الانتفاع من هذه الدروس. واذا صح أن هنالك حياة طويلة عريضة واخرى قصيرة ضيقة ، فالفرق انما يرجع الى مقدار التفاعل والتجاوب بين الفرد وبيئته الجغرافية والاجتماعية .. تطول حياته اذا ساهم فى شتى الأحداث المحيطة به ، وكان له فيمن حوله أثر ، وتقصر اذا عاش فى نفسه ولنفسه

وقد علمتنى الحياة ، وعلمتنى كثيرا .. واكتفى بأن أشير الى درسين اثنين من دروسها . اولهما ان الجانب الشخصى يكاد يختفى وراء كل عمل ، ولولاه ما دفعت المشروعات الدفعة التى تخرج بها الى حيز الوجود . يكتب الكاتب ، ويدعو

الداعى ، ويخترع المخترع ، وينفذ الصانع .. ولكل من نفسه حافز ومن شخصه هدف . وهناك من يقر لها علانية ، وآخرون يحرصون على أن يصقلوها ويخفوها عن الناس ، والأمر صادق على الشؤون العامة صدقه على الاعمال الخاصة .. فالقادة والزعماء لا ينسون أنفسهم ، وان بدا من أمرهم أنهم وهبوا كل شيء للصالح العام

أنا لا أزعم أن الحياة بنيت كلها على الأثرة .. ولكني اذهب الى أن الايثار يستر وراءه قسطا من المصلحة الذاتية ، وهذا طبيعي ما دمنا نتحدث بلغة البشر . فلنقبله اذن على علاته ، ولنقم دعواتنا الاصلاحية على أساس من التشويق والترغيب والنفع الخاص ، ان كنا نريد لها نجاحا . وليس ثمة سبيل أهدى لاستقامة الأمور من أن نلائم بين المنازع الذاتية والمصالح العامة

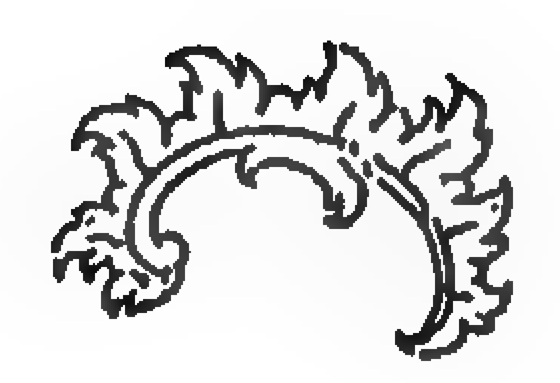
ومن الخطأ أن ننتقص البواعث الشخصية لذاتها ، فهى قوة ما أحوجنا اليها .. وفى الاعتراف بها ما يكسبها ثقة ، ويدفعها الى أن تعمل فى وضوح ، فنكشف عن سرها ونتقى خطرها ، والا لم يعز عليها أن تجد سبلا الى التغرير والمواربة . وأشهد أن كثيرا من المشروعات العامة لم يأخذ بيده الا دافع شخصى وعامل خاص

والدرس الثانى هو أن السرية المطلقة فى الاعمال والأقوال متعذرة ان لم تكن مستحيلة .. نحتاط لتصرف ما ونخفيه ونسمع الخبر ونكتمه ، ولكن لا نلبث أن نراه منشورا

ومهما تكن عند امرىء من خليقة
وان خالها تخفى على الناس تعلم

ومن الغريب أن أكثر الناس حرصا على الكتمان قد يكونون أشدهم مساهمة فى اذاعة السر ، ويستوى هنا أيضا شؤون الأفراد والجماعات ، فأهل الفضول يظهرون بواطنها ويكشفون خفاياها

وليتنا نستحضر هــذا دائما أمام أعيننــا .. فنقيس أعمالنا بمقياس الجهر والعلانية ، ونتقى ظلم الخفاء وظلماته. وكم من رذيلة ترتكب تحت ستارالجهل ، ولو أحس المقدمون عليها أنها ستعرف لترددوا كثيرا فى ارتكابهــا ، ومن لهم بالجماهير صلة أحوج الى استذكار ذلك أكثر من غيرهم



لا يأس مع الحياة !

للسيدة الدكتورة درية شفيق

حصلت الدكتورة درية شفيق على درجة الدكتوراه فى الآداب من السوربون بباريس ، ولم تكد تعود الى مصر حتى غامرت فى ميدان النهضة النسائية عن طريق تأسيس جماعة « بنت النيل » التى تنادى بوجوب حصول المراة المصرية على حقوقها السياسية . وهى تصدر الى جانب ذلك مجلة « بنت النيل » التى تدافع عن آراء هـــذه الجماعة ، ذات النشاط الملحوظ فى ميـــدان النهوض بالمستوى الصحى والاجتماعى للمراة المصرية

ان الدرس الاول الذى لقنتنى اياه الحياة هو أن أومن ايمانا مطلقا بانه لا يأس مع هذه الحياة ، وأن النصر فيها لمن يطب لها ويعالج أمورها .. والأمل يحدوه والصبر درعه فى الكفاح والنضال

وقد علمتنى الحياة أن اصبر وأصابر .. وأذكر انى حين سافرت الى باريس لاستكمال دراساتى فى جامعة السربون ، كان ذلك أمرا غير مستساغ ولا مقبول من الرجعيين الذين لا يؤمنون بتعليم البنت ، ويرون أن مكانها فى البيت وحده ، وقد لقينا فى سبيل استكمال علومنا هجوما وحملة شعواء ، فصبرنا على الأذى وتجملنا بذلك الصبر القوى الذى يدفع المرء الى بلوغ المنى فى أناة وايمان

لم أعرف اليأس فى حياتى لأن اليــأس يولد الهزيمة ، وقد علمتنى الحياة أن الانسان على قدر ما وهبه الله من قوة ارادة ، يتحكم بها فى مصيره بحيث يتخطى المصاعب والملمات ، ويبلغ

الأرب دون أن يهون أو يستخذى . وأذكر أن عشرات قبلى انشأن صحفا للنساء .. فلما عزمت على أن أجعل للمرأة المصرية لسانا بانشاء مجلة بنت النيل خوفنى الكثيرون من فشل الكثيرات اللائى حاولن قبلى هذه المحاولة ، غير أن الحياة علمتنى أن الارادة القوية لن تظهر الا اذا أخـذنا من الفشل وسيلة للنجاح الأكيد .. وقد كان والحمد لله

ويعجب مواطنى ان لى زوجا وطفلتين ، واننى استطيع ، بالرغم من المسئوليات الملقاة على عاتقى نحو قضية المرأة المصرية ، أن اؤدى واجباتى كزوجة وام ، ونسوا أن الحياة علمتنى أنه بقليل من حسن التصرف يستطيع المرء أن يوائم بين الخصوصيات والعموميـات ، وأن ينجح فى كلتيهمـا ولا يصيبه أى فشل . وحسبى أننى بالرغم من جهادى فى المسائل العامة لا يزال بيتى يستمتع بحياة الزوجية السليمة وتشع فيه الأمومة ، كما أحب ان يكون نظيرها موجودا فى كل بيت مصرى

إن الحياة لا تمر بنا او نمر بها سهلة مواتية .. فكل ساعة تصدمنا متاعبها ، وتقض مضاجعنا مشاكلها ، وتأتى ملماتها احيانا كالطوفان فيغرق الأكثرون فيه ، وينتهى أمرهم الى أسوأ مصير . وهنا تعلم الحياة الأحياء أن الهدوء وضبط الأعصاب هما وحدهما سلاح يحارب به العاقل تلك الفواجع والملمات ، حتى ينتصر ويخضع التيارات المختلفة الى توجيهه ويسيطر على الأمور حتى يبلغ غاية النصر والتوفيق

لقد بدأ اتحاد بنت النيل رسالته فى موجة عاتيـة من السخط على كل جديد ، وتآزرت هيئات مختلفة على القضاء على رسالتنا والحيلولة دون تحقيق أهداف المرأة المصرية الحديثة ومساواتها بالرجل فى الشؤون السياسية والاجتماعية مساواة مطلقة غير معلقة على شرط .. ولـكننا بحسن السبك وموالاة الجهاد ، استطعنا أن نشطر جبهة الخصوم

بالمنطق والعمل المثمر المفيد . واستطعنا بالحكمة والهدوء والصبر أن نأخذ الى جانبنا كثيرا من الهيئات المتنورة ؛ حتى أصبح خصومنا قلة وأصبحت خصومتهم لنا فى أضيق الحدود ...

لقد علمتنى الحياة أن ألبس لكل حالة لبوسها ، وأعالجها بالدواء الذى يناسبها . فلم أجعل كفاحنا تهريجا ، بل رسمنا الخطوط وعينا الأهداف ، وسرنا بانتظام نحو تحقيق رسالتنا . فقطعنا شوطا بعيدا نحو الهدف المنشود ، وأصبحت الدولة تفكر تفكيرا جديا فى أن يكون للمرأة المصرية نفس النصيب الذى قررته للرجل فى الشؤون السياسية العامة . ولولا النظام والدأب والعمل ، لما قربنا من أهدافنا أو بدت لنا تباشير النجاح . وأذكر — والذكرى تنفع المؤمنين — أن الحياة علمتنى أن أعتمد فى كل عمل من أعمالى الخاصة والعامة على نفسى ، فالاعتماد على النفس صفة القادرين .. والقدرة لا تأتى الا من ذات نفسك . ولعل صفة الاعتماد على النفس هى خير ما علمتنيه الحياة ، فقد بدأت وحدى معتمدة على نفسى ، وانتهيت اليوم الى أن اعتمادى على نفسى كان وحده الكفيل بنجاحى وبلوغى أقصى ما أتمناه من نجاح . وحسبى أن وقفتى وحيدة فى الميدان منذ ثمان سنوات قد انتهت الى جبهة قوية من النساء القادرات الفاضلات ، كادت أن تصل اليوم الى الهدف الرفيع الذى سعيت اليه معتمدة على الله ثم على نفسى

الحرية وهبت لى السعادة

للأستاذ محمد فريد ابو حديد

ولد فى سنة ١٨٩٣ وبدأ دراسته المصطرية فى المكتب ثم المدرسة ، الى ان تخرج فى سنة ١٩١٤ فى مدرسة المعلمين العليا. ثم درس القانون ، وحصل على ليسانس الحقوق سنة ١٩٢٤ . وقد تنقل فى وظائف التعليم المختلفة حتى عين عميدا لمعهد التربية بالقاهرة ، الى ان صار وكيلا مساعدا لوزارة المعارف ثم مستشارا لها ، واختير عضوا فى مجمع اللغة العربية ، ومنح فى عام ١٩٥٢ جائزة الدولة فى القصة

اعظم التجارب وأشدها اثرا فى النفس هى التى تنشأ من حوادث صغيرة فى ايام الطفولة . وليس من السهل على طفل ان يتفتح عقله الى معانى الحياة مبكرا ، ولكن هذه المعانى التى يتفتح لها عقله فى صغره تكون أساس حياته.. وهذا ما كان نصيبى من الحياة

كنت اول ولد يعيش لأبوى ، ولم يرزقا ولدا آخر الا بعد ان صرت صبيا يافعا . وقد داخلنى من معاملتهما الكريمة شعور بأننى عضو مهم فى الأسرة ، وأننى شريك فى تحمل مسئولياتها . وكنت ألمح فى حياة أسرتى صورة غامضة ، جعلتنى أعرف أن هناك فرقا بين أسلوب الحياة فى بيتنا وأسلوب الحياة فى بيوت أعمامى واخوالى .. كما كنت ألمح ان والدى كان يعانى أزمة شديدة ، ويجاهد فى مواجهتها جهادا عنيفا

وفى يوم من الأيام تحدثت الى أبى فى حماسة الطفولة

عما رأيته عند أبناء عمومتي من اللعب والمتع . ورأيته يصغى الى فى شيء يشبه الدهشة والحزن .. وما كدت أفرغ من حديثي حتى وجدته يمسح رأسي وهو صامت ، وأحسست أنه كان شديد التأثر ، وسألنى فى رفق : « أأنت حزين لأنى لا أهدى اليك مثل هذه الأشياء ؟ » وشعرت عند ذلك بشيء لا أستطيع وصفه بلغة الكبار .. كان مزيجا من الأسف والعطف والاحترام . وقلت فى حماسة : « أبدا » . ولأول مرة فى حياتي أخذت أراجع نفسى فى قيمة الزخارف التى تفرق بين أسلوب حياتي ، وأسلوب حياة الآخرين ، واعتز بالحالة التى أنا فيها

وأظن أننى مدين لتلك اللحظة فى أننى صرت فيما بعد أميل دائما الى التقليل من قيمة المظاهر والمتع الكمالية

وكان لى ابن عم يكبرنى ببضع سنوات وهو عزيز عند أمى ، كأنه ولدها .. وكانت تمازحنى أحيانا قائلة : « انه أحب الى منك ، لأنى رأيته وأحببته قبلك » . وكانت قد نذرت له عندما كان فى سن السابعة وكنت طفلا رضيعا ، أننى اذا كبرت وبلغت سن السابعة مثله جعلتنى له خادما أسوق له حماره . فلما بلغت السابعة أرادت أن توفى بنذرها، فدعت ابن عمى وأعدت له دابة ليركبها وحزمتنى كخادم وأعطتنى عصا وأمرتنى ان أسوق له الدابة

وأطعتها كما تعودت ان أطيعها ، ولكنى بكيت بكاء مرا بعد ذلك سائر يومى ، برغم اعتذار أمى ومواساة أبى . وبغير أن أحس وجدت نفسى أفكر : هل أنا أقل شأنا من ابن عمى ؟ .. وعلى أى أساس يفضل بعض الناس على بعض ؟

وأعتقد أن الأسئلة التى بدأت أوجهها الى نفسى عند ذلك هى التى فتحت لى بابا واسعا لأسئلة كثيرة أخرى عن الناس وعن الحياة

كنت دائما أسأل ، وكنت دائما أفتح عينى لأرى . وكان

المعنى الغامض الذى تدور حوله أسئلتى هو معنى العدالة فى قياس أقدار الأشخاص وفى معاملة الناس بعضهم مع بعض

وفى يوم من الأيام عندما كنت شابا فى الثامنة عشرة من عمرى ، خرجت كعادتى الى جانب نهر النيل لأتنزه وفى ذهنى اسئلة كثيرة : ما هذه الحياة ؟ ما معناها وما غايتها ؟ وما هؤلاء الناس ؟ كيف تكون السعادة ؟ وكيف تكون العدالة ؟ وهل الحظوظ عادلة ؟ وكانت ساعة من أصيل يوم من أيام الصيف وماء النهر الأحمر يتــدفق زاخرا بالفيضان .. ووقفت انظر الى اللجة المضطربة ، وسرحت بأفكارى فى أسئلتى الحائرة .. فلمحت على وجه الموج عودا يتقاذف به الموج . فشعرت كان أسئلتى الحائرة تجتمع كلها عند ذلك العود المضطرب ، وغبت فى تأملى . وما زلت حتى صحوت من سرحتى وقد حددت لنفسى فلسفة خاصة كان لها أثر عظيم فى توجيه حياتى : الحياة زائلة والناس يشبهون هــذا العود الذى يتقاذف به الموج . هم يأتون الى الحياة بغير ارادتهم ويذهبون عنها بغير ارادتهم . ولو جردناهم من مظاهرهم التى يخلقونها بانفسهم لأنفسهم لعرفنا حقائق اقدارهم . وهذه المظاهر التى يخلقونها لا قيمة لها أمام الحقائق الأبدية . وما دامت الحياة هكذا ، فما قيمة هذه الأغراض التى يتطاحن الناس عليها ؟ . الناس يتطاحنون ليشقوا ، والأمم تتطــاحن لتشقى ، وسبيل الســعادة واضحة اذا فطن البشر اليها

نحن نمر فى الحياة تأدية لواجب الوجود .. فلا ينبغى أن نعقد وجودنا بالخروج عن اتجاهاتنا الانسانية التى تفضى الى السعادة ، وهى فى متناول أيدى البشر اذا شاءوا . هى فى داخلهم لو تجردوا من الأنانية والحرص والظلم ، واتجهوا الى التعاطف والتعاون والخير والرحمة والعدالة

وكان لهذه الفلسفة اثر حاسم فى توجيه مسلكى مع نفسى

ومع الناس .. فأنا أومن بأن أفضل الناس هو أجدرهم بالاكبار ، وأن أقواهم هو الذى يمد يده الى الغير بالمساعدة، وأن أقلهم قدرا هو الانانى الذى يزاحم لكى يخطف ما ليس من حقه ، وأما أحقرهم فهو الذى يعتدى على الآخرين

وقد أخذت نفسى بفلسفتى أخذا صارما .. فأذكر اننى عندما تخرجت فى مدرسة المعلمين العليا عرضت على بعثة الى انجلترا . وكانت البعثة عند ذلك هى السبيل الوحيد الى الرقى فى وظائف التعليم .. ولكنى رفضت تلك البعثة بغير تردد ، لأن قبولها ينطوى على أنانية ، اذ كان والدى شيخا كبيرا ، وكان سفرى يعرض أسرتى للحرج . ورضيت بأن أشق طريقى فى الحياة مجاهدا بغير سند من الغير . وكنت سعيدا بأن أكون والدا لاخوتى عندما توفى والدى

وقد كانت هذه الفلسفة نعمة كبرى عندى ، لأنها حررتنى من قيود تستعبد الكثيرين من الناس . وجدت فيها حريتى من الشعور بأنى لست مدينا لأحد بغير الصداقة الخالصة ، ووجدت فيها حريتى من الرغبات والأطماع الجامحة التى تضلل العواطف ، ووجدت فيها حريتى من المخاوف التى تضلل الناس عن طريق الحق

ولا ابالغ اذا قلت أن هذه الفلسفة وهبت لى السعادة المكنة على هذه الأرض ، لأنها وهبت لى التحرر من نفسى . وجعلت لى فى أعماقى صديقا وفيا .. وهو ضميرى الذى لم يخذلنى فى يوم من الأيام مع كثرة الشدائد التى اعترضت سبيلى

وكل ما أتمناه الآن أن أجعل أبنائى يدركون قيمة هذه الحرية التى وهبت لى السعادة ، ويعملون على أن يكونوا من أنصارها . ولهذا كنت عظيم السرور عندما أتيحت لى الفرصة لأن أكتب هذه السطور

الارادة تحقق المستحيل

للأستاذ طاهر الطناحى

تخرج فى مدرسة دار العلوم ((كلية دار العلوم بجامعة القاهرة الآن)) وتعلم اللغة الانجليزية وترجم عنها شعرا ونثرا ، كما درس الفرنسية ، وهوى الصحافة منذ كان تلميذا وقد مارسها لاول مرة محررا بمجلتى المصور وكل شىء . ثم اختير سكرتيرا لمجلة الهلال مع عمله فى التحرير ثم رئيسا لتحرير مجلة الدنيا المصورة فمديرا لمجلة الهلال . وهو الآن فوق عمله فى الهلال رئيس تحرير ثلاث مجلات أخرى من مجلات دار الهلال . وله عدة مؤلفات طبعتها دار الهلال ودار المعارف وهو فى الرعيل الاول من كبار الصحافيين المبدعين

علمتنى الحياة كثيرا ، واستفدت من تجاربها الكثير .. ولكننى لا أزعم أننى تعلمت منها كل شىء ، فالحياة خضم واسع ، ومدرسة عظيمة لا تنتهى دروسها ، ولا تقف عند حد ، وكلما تعلمت منها شيئا احتجت الى تعلم أشياء ورأيت علمى بجانب ما فى الحياة يعد جهلا على حد قول الامام الشافعى :

كلما أدبنى الدهـ ـر أرانى نقص عقلى
واذا ما ازددت علما زادنى علما بجهلى

ومع ذلك فلست بظالم نفسى ، ولا انسك نسكا شافعيا ، وانى أقول بقول أبى تمام :

لقد جربت هذا الدهر حتى أفادتنى التجارب والعناء

الحياة كثيرة الفرص

لقد اخذت بقسط من علم الحياة ، وأفادنى ما تلقيته فى تجاربها من دروس ، وكان أول درس تعلمته ـ وأنا صبى ناشيء ـ درس فى الصبر والجلد والثبات أمام الصدمات والمحن التى لا تفرغ الحياة منها ، وهذا الدرس كان له أثر فى حياتى كلها ..

ولعلك تعجب اذا قلت لك أن هذا الدرس كان درسا من الفشل الذريع فى صناعة الكتابة التى أعيش منها وأعرف عن طريقها الآن ، فقد كنت فى العاشرة من عمرى ، وكانت مادة الانشاء تدرس لنا فى السنة الثالثة الابتدائية ، وجاء مدرسنا لأول يوم يحمل كتابا تحت ابطه ، ويتوقر فى خطوته ، فخلته الجاحظ فى مشيته ، وما استقر فى كرسيه حتى أسمعنا موضوعا فى «فوائد النظافة» ثم طوى الكتاب ، وطلب منا أن نكتب فى هذا الموضوع ، فكتبت ما عرفته بفكرى وما أملته ملكتى الصغيرة فى ذلك الحين ، وكنت أظن أننى سأنال الدرجة الكبرى ، وجاء الدرس التالى ، وقد امتلأت نفسى بالأمل الجميل ، ولكن المدرس أقبل وعلى وجهه عبوس ، ثم فرق الكراسات على زملائى واحتفظ بكراستى فى يده ، وأعلن انى أخذت أقل درجة فى الفصل ، لأننى تحررت من فكره ، ولم أكتب على طريقته ، وتبرع لى بعبارات مناسبة من التقريع ، ثم قذف بالكراسة أمامى ، واذا بى أرى درجتى $\frac{3}{20}$ وبجانبها عبارة : « انشاء منحط » !

كانت صدمة لى حقا فى سنى الصغيرة ، كادت تزلزل نفسى ، ولكنى لا أدرى ، وأنا فى هذه السن ، كيف تذرعت بالصبر ، وكيف انقلب ما أصابنى من تثبيط ، قوة وتحديا ورغبة فى التغلب على هذه الصدمة. وكنت أحفظ فى ذلك الوقت قول القائل :

اصبرى أيتهـا النفـ ـس فان الصبر أحجى
ربمـــا خاب رجاء وأتى ما ليس يرجى

واعتصمت بالصبر وثابرت حتى تقدمت « قليلا » فى نظر استاذى .. وذات يوم أتى ما يرجى وما ليس يرجى.. ذلك أن ناظر المدرسة طلب من استاذنا أن يطلعه على كراسات تلاميذ الفصل ، وكان فيهم ابنه الوحيد ، فأمرنا الاستاذ ان يذهب كل منا بعد الانتهاء من كتابة موضوعه الى الناظر ، واقترح أن نكتب فى موضوع : « اسعد يوم شـهدته » ، وكتب كل تلميذ ما فتح الله به عليه ، وذهبت مع اخوانى الى ناظر المدرسة وقدمت اليه كراستى ، فرأيت أساريره قد انفرجت ووجهه قد علاه الارتياح ، وبعد أن قرأ ما كتبت خط فى نهايته كلمة لم يكتبها لغيرى ، وهى : « أحسنت » !

وأخذت كراستى ولم اتكلم ، ثم رجعت وقدمته مغلقا الى الاستاذ ــ كما هو النظام ــ وفى الدرس التالى جاء الاستاذ يحمل الكراسات ، وقد اعطانى الدرجة الكبرى مصحوبة بعبارات الاطراء والاعجاب ، فبهت التلاميذ ، لأنهم لم يكونوا يسمعون منه ذلك ، ولكنهم عرفوا أننى كما قال الأستاذ ، سحرت الناظر ، فاعتبرت هذا اليوم الذى رعى فيه أبناءه أسعد يوم شاهدته ، ولعلى لم اقصد السحر ولم أهدف الى تملق الناظر ، لأن سنى الصغيرة لم تكن تتسع للتملق ولا لأسعد يوم مر بى ، ولعلى الآن لا استطيع أن اعرف أسعد يوم فى حياتى ، ولكنى اخترت اليوم الذى طلب فيـه الناظر أن يرى كراستى لأنى اغتبطت به واعتبرته أسـعد الايام فى افقى الصغير ..!

هذا هو الدرس الاول ، وفيه موقفان : أولهما موقف من الهزيمة والفشل لم أجزع منـه ، ولم يثننى عن العمـل والجهاد ، تغلبت فيـه على نفسى فالقمتهـا الصبر حتى استساغته وانقلب يأسها أملا .. والثانى موقف من مواقف

النجاح تعلمت منه أن من النجاح ما يكون وليد الفشل ؛ وأن الحياة واسعة المدى ، وكثيرة الفرص وليس من الصواب أن نضيق بها اذا ادلهمت الخطوب ، أو تنكرت الايام ..

الاعتماد على النفس

أما الدرس الثانى الذى تعلمته من الحياة ، فهو : « الاعتماد على النفس » وأذكر أننى فى مفتتح حياتى الدراسية رغبت أن ألتحق بمدرسة القضاء ، فتقدمت لامتحان المسابقة ، وحادثت أستاذا لى فى ذلك ، فشجعنى ورأى أن يعطينى خطابا الى الاستاذ حسن منصور احد كبار أساتذة هذه المدرسة ليساعدني. ولم أطلب أنا منه هذا الخطاب ولكني أخذته ووضعته فى جيبى ، ودخلت امتحان المسابقة ونجحت فيه ، وانتظمت فى المدرسة ، ثم نزعت الخطاب من جيبى لأدعه للاهمال ، ونظرت ، فوجدت الاعتماد على النفس خيرا من الاعتماد على خطابات التوصية وبطاقات التزكية ، ومن ذلك الحين لا اتوسل فى حاجة الى انسان الا بعملى ..!

وحدث بعد اشتغالى بالصحافة أن رغبت فى ان أشتغل باحدى الوظائف الحكومية ، لأن الأعمال الحرة – كما كان يقال – على كف عفريت ، ووظائف الحكومة عمل مضمون ، مع أن الحياة كلها على كف عفريت .. وصادفت وظيفة خالية فى مجلس الشيوخ فتقدمت لها ، وقبلت فيها ، وطلب منى المرحوم عبد الرحمن فكرى السكرتير العام أن أتسلم الوظيفة الجديدة يوم السبت .. وقبل ذلك بيومين مررت على المرحوم احمد حسنين ، فأخبرته بوظيفتى الجديدة ، فنظر الى نظرة عتاب وقال :

– أولست واثقا من نفسك ؟

قلت : « بلى .. انى واثق من نفسى » قال : « وهل انت فقدت الاعتماد عليها وعلى الله ؟ »

قلت : « كلا ، فانى أعتمد بعد الله على نفسى »

فقال : « اذن ، فانى انصحك الا تدخل وظائف الحكومة». قلت له : « تنصحنى بذلك وانت موظف بالحكومة ؟ ! » قال : « نعم .. وانى ارى اعتمادك على نفسك فى الصحافة خيرا لمستقبلك من اعتمادك على عمل فى الحكومة محدود »

ومضى على ذلك عشر سنوات ، وقابلته وهو رئيس الديوان الملكى ، فقال لى مازحا : « هل تقبل أن تكون مديرا لمكتبى ؟ » فقلت : « لا .. » فضحك وقال : « أذن ، فانظر كيف كان عقبى الاعتماد على النفس لا على الحكومة » .. وقد اصبح الاعتماد على النفس ديدنى فى كل عمل وفى كل وقت ، وما احوج الشباب العصامى المكافح الى هذه الصفة !

الاستفادة من الكبار

والدرس الثالث : « الاستفادة من مصاحبة الكبار » .. فقد نشأت ولى ميل الى الاطلاع ، والاستفادة من تجارب الآخرين ، ولا اذكر اننى كنت أميل الى مصاحبة قرنائى ، لانى لا أستفيد منهم اكثر مما اعرف ، وقد قرأت أن أعلام الأدباء كانوا يصاحبون فى أثناء تربيتهم ودراساتهم أعلام العلماء والأدباء والشعراء ويأخذون عنهم ، لذلك رغبت فى مصاحبة الكبار ، لأنهم اكثر علما وأدبا وأصح تجارب فى الحياة ، فصاحبت الشيخ محمد المهدى وكيل مدرسة القضاء ، فاستفدت منه ادبا وهذبت ذوقى بما اشتهر به من حسن الاختيار ، وجودة الذوق ، وسداد الرأى ، ونزاهة النقد الأدبى ..

وصاحبت الشيخ مصطفى عبد الرازق ، فاستفدت من نبل أخلاقه ، ونظافة حديثه ورقى مجالسه ، وترفعه عما يجرى فيه غيره من الابتذال ، وحبه للعزلة وإيثاره للنسك العلمى والفلسفى والأدبى فى مكتبته ..

وصاحبت الشيخ عبد المحسن الكاظمى (شاعر العرب) فقرأت معه عدة دواوين من دواوين الشعراء وكانت الليالى التى كنت أقضيها عنده فى منزله بمصر الجديدة ، عامرة بالدروس الأدبية فى فن الشعر ونقده وقد صححت رأيى عليه فى بعض الشعراء القدماء والمحدثين ..

وصاحبت داود بركات رئيس تحرير الاهرام الأسبق فى مفتتح حياتى الصحافية ، فتعلمت كيف يكون الصحافى النزيه الذى لا يفكر الا فى المصلحة العامة ، والذى اتخذ الصحافة خدمة للجمهور ، وفنا نزيها يعمل لرقى الثقافة ورقى المجتمع ورفع مستواهما على الدوام ، ووجدت فى خلقه وسلوكه خير مثل لخلق الصحافى الكبير وسلوك الرجل العام الذى يحبه الجميع ، ويقدرونه على اختلاف هيئاتهم وأحزابهم ..!

وصاحبت محمد حافظ ابراهيم شاعر النيل ، فرأيت المثل الحق فى الشاعر الذى يصور شعره حياة قومه ، ويشاركهم باحساسه فى السراء والضراء ، وكانت له رسالة يؤديها فيما يعانيه وطنه من جهاد وطنى وما يتطلبه من أصلاح أجتماعى فكانت حياته من أحسن الدروس لأدباء الشباب ..

وصاحبت المرحوم احمد زكى «شيخ العروبة» فاستفدت من سعة اطلاعه ووفرة مراجعه وتصحيحاته التاريخية واللغوية ، واتخذت من نشاطه فى شيخوخته خير قدوة لنشاطى فى شبابى ..

وصاحبت الآنسة مي ، وكنت ازورها كثيرا واتزود من جلساتها زادا وفيرا وكانت جلساتها كعمر الورد قصيرة ، ولكنها عاطرة . . وانيقة ولكنها عامرة بأسمى المعانى وأجمل الآداب . وقد تعلمت منها درسين كان لهما احسن اثر فى نفسى : الأول — ان عزة الأدب فوق عزة الغنى والجاه والمناصب الكبرى ، وان كرامة الخلق وطهارة النفس فوق شهوات الجسد ومطامع الدنيـا ، وقد كان شعارها تلك الأبيات التى تروى عن الامام الشافعى وهى تتضمن خير دروس الحياة :

اذا شئت أن تحيـا سليما من الأذى
وعيشـك موفور ، وعرضـك صين
لسـانك لا تذكر به عورة امرىء
فكلك عورات وللنـاس اعين
وعينك ان أبدت اليـك معايبـا
فصنهـا وقل يا عين للنـاس اعين
وعاشر بمعروف ، وسامح من اعتدى
وفارق ، ولـكن بالتى هى أحسن

وصاحبت خليل مطران ، فتعلمت منه كيف يكون خلق الأديب الموهوب ، فى بره بالأدباء وبذله من ادبه ونفسه ويده للناس ، وكان يرى أن الحياة واجب وليست بمتاع ، وأن هناك شعرين : شعر ادبى يكتبه القلم ، وشعر عملى يكتبه القدم فى سعيه للغير ولمصلحة المعوزين ، وقد تعلمت منه أن الحياة اقل من ان يأسى عليهـا الانسان ، وأن كل شيء من الرزق كاف ما دامت النفس معتصمة بالقناعة والكرامة . وتعلمت منه كيف كان يقابل الاساءة بالاحسان . وقد كان يأسى للمسيء اليـه ، ويعطف عليه ، لأنه فى رأيه محروم من

سعادة الفضيلة ، وكرم الاخلاق ، ومع ذلك فقد خاب امله في الناس وفيمن كان يحسن اليهم أيام رخائه وقال في أواخر أيامه :

خدعت بمن عاشرت أيام موردي
لهم مورد والمحفل الضخم محفلي
فلما انقضى ما كان للناس مأملا
اذا يممونى خاب فى الناس مأملي

الارادة تحقق المستحيل

والدرس الرابع : « قوة العزيمة ، والايمان بأن الارادة تحقق المستحيل » ..

لقد كان للصحافة الفضل فى تهذيب عزيمتي وشحذ ارادتى ، حتى أصبحت أومن بما قاله نابليون بونابرت : « لا مستحيل فى الحياة » !

نعم لا مستحيل ما دامت الحياة هي حياة البشر لا حياة الآلهة وسكان السماء .. ومع ذلك فقد قال النبي محمد (ص) : « لو تعلقت همة أحدكم بالثريا لنالها » ..!

لقد دخلت الصحافة جنديا صغيرا ـ أو على الأصح ـ لم أدخل الصحافة لأشتغل بالصحافة ، لأننى لم أهيىء نفسي الا لأكون قاضيا أو كاتبا أو مدرسا في وزارة المعارف ، وكان عملي فى الصحافة علاجا لحالة وقتية فى حياتي ، وان كان ميلي للأدب منذ كنت تلميذا يهيئني لمستقبل آخر

وأذكر أن المرحوم الشيخ محمد الخضرى المدرس بالجامعة القديمة والمفتش بوزارة المعارف تنبأ يوما بأني سأكون كاتبا معروفا ، وكان كلما رآنى فى دار العلوم يقول لى : « أرى فى وجهك الأدب وسوف يكون لك شأن » فكنت لا أرى فى ذلك الا تشجيع استاذ لتلميذه ..

وصدقت النبوءة واشتغلت بالصحافة ، فوجدتها لايكفى فيها ان يكون المشتغل بها اديبا فقط أو كاتبا يعرف فنون الكتابة فحسب ، بل تحتاج ايضا الى صفات أخرى ، منها ان يكون الصحافى واسع الاطلاع قد اخذ من كل علم وفن بطرف أو بأطراف ، وأن يكون مجددا مبتكرا ، أو عنده ملكة التنويع والتجديد ، وان يسير مع أزياء الحياة وأطوار الزمن وان يأتى كل يوم لقرائه بجديد يريدونه لا بجديد يريده هو وحده ، وان يعيش معهم فى الارض ، فيتناول حياتهم واحوالهم ، لا ان يحلق وحده فى الأفلاك ، وان يعرف أن ما يكتبه متى خرج من ذهنه الى قلمه أصبح ملكا للجماهير .. وان يكون الصحافى مستعدا للمفاجآت ، فلا تخونه الحوادث فيتخلف عن الركب ، ويشذ عن الباقين ، فيكتب ما لا يقرأ فتكون الكارثة لا على كتابته ، بل على صحيفته ، وأن يهدف على الدوام الى ان يبنى كل يوم لبنة فى ثقة قرائه به : فان رأس مال الصحافى الثقة وما يعرف عنه من الصدق وطهارة السريرة والكفاءة فى عمله والحرص على افادة قرائه

تلك هى صفات يحتاج اليها الصحافى ، ولكن أهم صفة له هى « قوة الارادة » التى تخلق المستحيل » . وكم فى الصحافة من مستحيلات يمكن الوصول اليها بالارادة القوية والعزيمة الغالبة ، والمثابرة التى لا تنى ، والجهاد الذى لا يقف عند حد ، ولا يعرف الهزيمة ، ويرى أن كل صعب يمكن التغلب عليه بالصبر والعمل

لماذا لم أصفق ؟

للدكتور زكى نجيب محمود

ولد فى فبراير سنة ١٩٠٥ ، ولما بلغ التاسعة من عمره ، انتقل مع أبيه الى الخرطوم بالسودان حيث تلقى تعليمه الابتدائي وجزءا من تعليمه الثانوى فى كلية غردون . وبعدئذ استانف دراسته فى القاهرة ، حتى تخرج فى مدرسة المعلمين العليـــا . واشتغل بالتدريس عدة اعوام ، ثم أتيح له السفر فى بعثــة الى انجلترا وهنــاك ظفر بالدرجة الجامعية ، وبالدكتوراه فى الفلسفة من جامعة لندن . وعاد ليدرس الفلسفة فى كلية الآداب بجامعة القاهرة

سئل سوفوكليز الشاعر المسرحي اليونانى مرة ، وكانت السن قد بلغت به مبلغ الشيخوخة : « ما موقفك الآن ازاء الحب ياسوفوكليز ؟ ألا تزال قادرا عليه ؟ » فاجاب : « صه .. نشدتك الله لاتوقظه فى قلبى من جديد ، فكم يسعدنى أن أرانى قد فررت من حبائله ، فأحس كأنما فررت من مستبد متوحش مجنون »

فاذا جعلنا لفظة « الحب » فى هذه العبارة رمزا يشير الى العواطف والانفعالات الملتهبة الحادة فى شتى ألوانها .. من غضب شديد ، وحزن شديد ، وفرح شديد، ومقت شديد، وحقد شديد ، وطموح شديد ، وحماسة شديدة ، الى آخر هذه الانفعالات والعواطف التى يحتدم أوارها عادة فى صدور الشباب وتبرد نارها فى صدور الشيوخ ، كان سوفوكليز بهذه العبارة ، ينطق بما أريد أن ألخص به أهم درس علمتنى اياه الحياة

لقد كنت فى شبابى حاد الانفعال قوى العاطفة ، خصوصا اذا كان فى الامر اختلاف على رأى ، فمهما كان الموضوع الذى يدور حوله الجدل ، فقد كنت أدافع عن فكرتى فيه بحرارة ملتهبة مشتعلة كأنما قوائم الدنيا بأسرها ترتكز على صواب فكرتى

وكنت شديد الحزن اذا خسرت فى اللعب ، شديد الفرح اذا فزت فيه . وكانت عروقى تغلى بدمائها أياما طويلة اذا ما غضبت لاهانة لحقتنى ولم استطع ردها ، كما كان دمى يوشك أن يجمد كلما أصابتنى خيبة فى رجاء كنت أرجوه

ثم علمتنى الحياة برودة العواطف .. علمتنى ان حدة العاطفة معناها عجز فى قوة التفكير ، فبمقدار ما يتضح الامر الذى بين يديك وضوحا تزول معه سحائب الشك والغموض ، ترى ان عاطفتك قد بردت ازاءه . ولذلك لا تشتعل العواطف بين المختلفين على نظريات العلوم ، وانما تشتعل اذا كان موضع الخلاف فى الرأى موضوعا غامضا مبهم المعالم كالمذاهب السياسية والعقائد الدينية

نعم .. ان لذة الحياة قد نقصت حين بردت العواطف فى نفسى ، لكن آلام الحياة كذلك قد نقصت تبعا لذلك . ولست أتردد لحظة فى ان أوثر القلة من اللذة والالم معا ، على الكثرة منهما معا ، لو كان اقتران القلة أو الكثرة فيهما امرا لا محيص عنه ، فاذا لم تعد لى لذة الحب العارم التى يتمتع بها الشباب ، فاننى الى جانب ذلك مستريح البال من آلامه وأوجاعه . ودونك شعراء الحب ، فانظر كم قصيدة قيلت فى نعيم الحب وكم قصيدة قيلت فى جحيمه .. فلئن كان الشباب يعرف الحب ، فالشيخوخة تعرف كيف تكون الصداقة . وما الصداقة الا حب هدأت فيه العاطفة ، وزالت عنه شرورها

ان التزام الواقع فى هدوء بغير صخب العاطفة وصراخها ، هو بعينه ما يسمى بخبرة الحياة .. فالرجل طفل غر مهما تقدمت به الايام ، اذا ظلت تعصف به عواصف العواطف الهوج . والشاب شيخ مجرب مهما صغرت سنه اذا نفخ الدخان عن نار عاطفته ، ليرى الحوادث على حقيقتها الهادئة فى دنيا الواقع . ألا ما أغزر الدماء التى أراقتها حروب العواطف الوطنية والدينية والنزوات الفردية ! وكم كان الناس لينعمون بفردوس أرضى لو هدأت عواطفهم بين جنوبهم فلم تدفعهم دفع الضلال والعمى

لقد كنت ذات يوم أنظر مع صديقتى الى العاب بهلوانية اجاد فيها اللاعبون ، حتى اذا ما فرغوا من العابهم ، صفق الناس لهم تصفيقا يمزق فى الأكف جلودها .. لكنى جلست ساكنا لم أصفق ، فسألتنى صديقتى : « لماذا لا تصفق مع الناس ؟ »

فأجبتها قائلا : « انها خبرة السنين .. »

أنا شاب فى السادسة والستين

للأستاذ سلامة موسى

الاستاذ سلامة موسى صحفى ومؤلف ، بدا حياته الصحفية بمقال له عن ((نيتشه)) فى مجلة المقتطف سنة ١٩٠٩ واشتغل هذه السنة نفسها فى ((اللواء)) جريدة الحزب الوطنى ، ثم اخرج مجلة ((المستقبل)) فى سنة ١٩١٤ . واشتغل فى تحرير مجلة ((الهلال)) فيما بين سنة ١٩٢٣ و ١٩٢٩ واخرج وهو بها خمسة كتب . ثم اخرج المجلة الجديدة وعددا كبيرا من المجلات الاسبوعية التى عطلت فى كفاحها السياسى . وعمل بعد ذلك فى ((البلاغ)) و ((النداء)) و ((اخبار اليوم)) حيث هو الآن ..

أنا شاب فى السادسة والستين احترف الأدب والعلم والصحافة . كنت أكثر الناس تعاسة عائليا واجتماعيا وتعليميا فيما بين ١٨٩٨ و ١٩٠٧ ، ولكنى حوالى ١٩٠٩ « وجدت نفسى » فوضعت برنامج حياتى وعينت هدفى .. وهو أن أكون رجلا مثقفا متطورا أنمو وأكبر ، ولكن ليس بالثراء والاقتناء ، بل بالنضج النفسى

وقد ألفت خمسة وثلاثين كتابا ، هى جميعها صور من حياتى أو كفاحى كى أتعلم وأعلم . ومع أنى أقل المثقفين تعليما نظاميا ، اذ لا أحمل غير الشهادة الابتدائية : فانى أقرأ ثلاث لغات ، وقد استوعبت الآلاف من الكتب ، ولم أقنع بالأدب وحده أو العلم وحده ، بل جمعت العلم والأدب والفن والفلسفة التى تكونت منها تربيتى

وانبسطت لى منها آفاق ما كنت لأعرفها ، لو أنى تخصصت فى واحد منهـا

وثقافتى هى لذلك استيعاب .. وليست تخصصا .

والأساس هنا أن هدف حياتى هو تربية شخصيتى .. وهذه التربية تحتاج الى الاستيعاب وليس الى التخصص

وقد علمتنى الحياة درسين :

الدرس الاول لنفسي .. والدرس الثانى لبلادى

□

فاما الدرس الأول فهو ان أبقى شابا مستطلعا أنمو وأتطور وأدرس وأسأل أسئلة الأطفال ، ولا أكف عن اللعب والمرح . وليس الشباب عندى فترة من العمر تسبق سن الخمسين ،

وانما هو عقيدة أومن بها وأحافظ على سننها وأذود عنها الزنادقة الذين يكفرون بهـا ، ويدعون الى الشيخوخة والجمود والاستسلام

وقـد عرفت نظرية التطور وأنا دون السادسة عشرة فأكسبتني مزاجا نفسيا ومنطقا ذهنيا واتجاها عاطفيا نحو نفسي والناس والكون . وجعلت النمو مزاجي والاستطلاع اتجاهي. وهذا الى جرأة فىالتفكير ونهم الى الثقافة الشاملة

□

واما الدرس الثانى فلبلادى أو للعالم كله .. وهو أن البشر فى حالتهم الحاضرة ينقسمون قسمين ، أحـدهما يجعل أساس حياته وأسلوب عيشه المعرفة التى تسمى علما عندما تحقق تفاصيلها وتقاس وتعين خواصها ، وبكلمة أخرى يعتمد هذا القسم على العلوم

أما القسم الثانى ، فيجعل أساس حياته وأسلوب عيشه

العقيــدة الموروثة .. بما يحميها من القــوانين . وابنــاء القسـم الأول من البشر ، قسم المعرفة والعلم يتغلبون ــ فى الغالب ــ ويسودون

وقــد تعبت كثيرا فى اقنــاع مواطنى بضرورة الاهتمام بالمعــرفة والعلم ، ولكنى لن اكف عن المثــابرة فى النصح والارشاد والتوجيه

وما بقى من شبابى صار صده لاتمام هذين الدرسين : تربية نفسى وتنمية شخصيتى ، وجعل المعرفة اساس الحيــاة



الأنانية والذل توأمان !

للدكتور احمد زكى أبو شادى

ولد الدكتور احمد زكى ابو شادى بالقاهرة عام ١٨٩٢ ، وبعد ان أتم دراسته الابتدائية والثانوية بالقاهرة ، التحق بمدرسة الطب فى مصر ، ثم غادرها بعد سنة الى انجلترا لاتمام دراسة الطب فيها ، وبقى فى انجلترا حتى عام ١٩٢٢ . فلما عاد الى مصر برزت مواهبه المتعددة الجوانب فى الادب والشعر والصناعات الزراعية والنحالة . وقد اصدر الدكتور ابو شادى العشرات من الكتب فى الشعر ونقده وفى القصة وفى العلوم والصناعات الزراعية ، وفى المشاكل الاجتماعية . ولما اشتد الطغيان ابان عهد الملكية فى مصر ، آثر الهجرة الى الولايات المتحدة الامريكية فى أبريل عام ١٩٤٦ حيث يداب على خدمة وطنه مصر بنشر الآثار الادبية القيمة والتعريف بمآثر الأدب العربى فى العالم الجديد

كان الجنود يفتشون حوالى سنة ١٨٣١ بمدينة بوسطن الامريكية عن الادارة السرية لجريدة «الليبراتور» The Liberator أى « المحرر » .. فعثروا فى النهاية على مطبعتها فى مكان دفين خبيء حيث كان يعمل على اصدارها « وليم لويد جاريسون » يساعده صبى زنجى . وما كان يناصر هذه الجريدة سوى قلة ، اذ كانت غايتها تحرير الزنوج فى الولايات المتحدة الامريكية ، وقد نوه الشاعر « روسل لويل » فيما بعد ، بشهامة جاريسون وشجاعته ، حينما قل الأصدقاء والأنصار ، ممهدا للتحول الفكرى الاصلاحى ، ولنضوج حركة التحرير التى انتهت باعلان تحرير العبيد بلسان «ابراهام لنكلن» فى منشوره المأثور المذاع سنة ١٨٦٣ . وقد

استمر اصدار الجريدة الرائدة الحرة حتى سنة ١٨٦٥ ، حينما اتمت مهمتها ، وتوفى جاريسون فى سنة ١٨٧٩ .. ولكن ذكراه ــ كذكرى ابراهام لنكلن ــ بقيت على السنة الأحرار فى كل مكان عبرة وعزاء والهاما

تلقيت هذا الدرس فى صغرى من سيرة جاريسون .. ولكن الحياة بظروفها المختلفة وأحداثها التى لاترحم ، علمتنى انلا اكتفى بدرس الكتب وساقتنى من حيث ادرى ولا ادرى ، الى التعلق بالحرية تعلقى بالحياة ، بل جعلت معنى الحرية فى نظرى مرادفا لمعنى الحياة ، ثم صارت الحرية فى اعتبارى من مرادفات أسماء الله الحسنى . فليس الله هو ذو الجمال والمحبة فقط ، وانما هو الحرية ايضا ، وتشبث ايمانى وتصوفى بالحرية ، بحيث لم أعتبر أية تضحية فى سبيلها الا بعض الثمن العادل للتمتع والائتناس برحمة الله

من اجل الحرية ، آثرت الاغتراب عن وطنى حينما تبختر الطاغوت يضرب بنعله المفكرين المقيدين يمنة ويسرة . ولأجل منبرى الحر وطلاقتى الفكرية والروحية ، احتملت مشاق نفيى الاختيارى ماديا ونفسيا لأنى وجدت هذه المشاق لا بد منها لانقاذ نفسى وتحقيق رعايتى بقلمى ولسانى لمسقط راسى الحبيب ولخدمة مثلى الانسانية العليا

علمتنى الحياة كل هذا ، فاتبعت تعليمها واثقا مطمئنا . ولم اندم مرة على مطاوعتها .. وكيف اندم وقد رايتنى اقدر على انصاف نفسى وانصاف المثاليات التى أدين بها والتى اعمل لها وعملت لها طول حياتى ؟ وكما آمنت بها لنفسى آمنت بها لغيرى ، وسعيت الى تحقيقها له . وهكذا علمتنى الحياة ألا اكون أنانيا ، وعلمتنى تبعا لذلك ان الأنانية والذل توأمان ، وانهما ينافيان الكرامة البشرية . وعلمتنى ان الاحتمال والمثابرة من عناصر هذه الكرامة ..

وما سر الحياة سوى أحتمال ســـواء للهنى وللشـــقى

ولكنه احتمال المكافح المجاهد فى سبيل عقيدة شريفــة يبشر بها لخير الانسانية وسدادا لدين الحياة عليه، لا احتمال الخانع القابع

علمتنى الحياة هذا ، كما علمتنى الا الوم غيرى قدر ما ألوم نفسى على عثرات كان يمكننى تجنبهــا ، لو كنت الحاذق الواعى . ومن ثمة علمتنى التسامح ، لأنى وجدت التسامح من عناصر التسامى .. كما وجدت التســامى من صميم الكرامة البشرية . فأحسست بأن اللطمة التى تنالنى ترتد نهائيا الى المعتدى على ، كما أن التسامح يشعره نهائيا بمعنى العقاب ويرده الى الاخاء الانسانى

ولكنى لم أعرف مرة التسامح فى كرامتى ومثاليتى ، وتركت للزمن الحاسب والقدر المراقب انصافى بما أومن به وابذل من اجله . ولو جاء هذا الانصاف متأخرا أو بقى فى ضمير الغيب

ان الحرية هى حارسة المواهب ومغذيتها ومنميتها . ولولاها لصارت الانسانية هباء .. انها انفس النفائس التى منحتنى الحياة إياها وتعلمتها منها .. وبقبولى تعليمها وحرصى عليه شعرت بانى استحق الحياة

محاكاة المنبه !

للدكتور محمد غلاب

أمضى الدكتور محمد غلاب طفولته في قرية من قرى مصر الوسطى تقع على بحر يوسف ، ولم يكد يجتاز أولى مراحل الطفولة حتى أصيبت عيناه بالرمد فأثر في أبصارهما تأثيرا شديدا ، وكانت تلك المحنة سببا لآلامه ومتاعبه . ولم يلبث أن مات والده ، وكاد يبقى في القرية لا يريم عنها حولا مدى الحياة .. لولا أن صحت عزيمته على الالتحاق بالأزهر ، ثم سافر الى فرنسا حيث ظفر بشهادة الدكتوراه . وهو مكافح بطبيعته ، ولذلك لا يزال ، حتى وهو يمارس التعليم بكلية أصول الدين بالجامعة الأزهرية ، يكافح جهد طاقته في تثقيف الشباب وتهذيبه وتربيته

من القواعد المتفق عليها بوجه عام ، أن عقلية المرء بعد نضوجها تعتبر كلا تألفت أجزاؤه من التجارب التى هيأتها له حياته الخاصة .. ولكنه عندما ينحنى على ماضيه متأملا في جوانبه البعيدة ، يحاول دراستها مستعينا بأضواء المحن التى اجتازها ، مسترشدا بأشعة المعضلات التى اصطدم بها في حياته ، فانه كثيرا ما يلاحظ أن ميوله وانعطافاته ، بل أن العوامل الموجهة لارادته قد نبتت في طفولته الاولى ، وجعلت تجارى هذه الطفولة في نموها ونضوجها واثمارها ، وليست هذه نظرية فرضية ، إنما هى حقيقة واقعية يتبينها كل من أنعم النظر في طفولته ليستخلص منها المقومات الأساسية لشبابه ونضوجه . وليعذرنى

القارىء اذا ذكرت له واقعة ساذجة كان لهـا أبلغ الأثر فى حياتى .. ومجملها أنه بينما كنت فى الرابعة من عمرى اشترى أخى الأكبر منبها جميلا وضعه على مكتبه فأعجبت به أيما اعجاب واحتلت دقاته الموسيقيـة من رأسى الصغير مكانا ممتـازا . ولمـا كنت أشـاهد أن الخادمات فى منزلنا لا يقمن بمهماتهن الا اذا راقبتهن ربة البيت فى دقة وحزم ، وأنهن لا يكدن يشرعن فى عمـل حتى يشكون التعب ــ ان صدقا وان كذبا ــ فقد خيل الى أن المنبه مثلهن سيقف عن الدق عندما يزول عنه كابوس الرقابة ، وأنه سيخلد الى الراحة عما قريب .. فأسررت فى نفسى أننى سأباغته ليلا لأرى ما عساه يفعل . فلمـا استسلم جميع أهل المنزل للنوم ، انسللت من فراشى ، ومشيت على أطراف أصابعى حتى وصلت الى حجرة المكتب ، ووضعت أذنى على ثقب القفل مصغيا الى دقات المنبه ، فسمعتها تتتابع فى نظام وانسجام ، ثم كررت هـذا التجسس عدة مرات فكانت النتيجة هى عينها ، فامتلأت نفسى الناشئة اعجابا بهـذا المنبه ، وخرجت من تلك الواقعة بثمرتين عظيمتين :

أولاهما : أن هنالك كائنات ــ كالمنبه ــ تحس وان لم يراقبها أحد

وثانيتهما : أن هناك كائنات ــ كالمنبه أيضا ــ لا ينال منها التعب ، وأنها متى أرادت شيئا وصلت اليه لا محالة ؛ وأن هذه الكائنات أسمى من طراز الخادمات ..

فصممت على أن أكون كالمنبـه ، لا كالخادمات . وقد لبث هذا الشعور يحتل نفسى ويدير قيادتها حتى عهـد الشباب ، بل النضوج ، وان كان قد تمثل فى صور أخرى تختلف عن تلك الصور البدائية الساذجة

وليس فى هذا شىء من المغالاة .. فأنا لا أزال أطبق هذين

المبدأين فى حياتى العملية تطبيقا دقيقا بل قاسيا أحيانا : اذ وطنت نفسى منذ نعومة اظفارى على أن لا أحتـاج فى اعمالى الى رقابة ، وأن لا اسمح لأية عقبة أن تقف فى طريق ارادتى، وانى لا أكاد اومن بمبدأ التعب كعائق دائم عن العمل، وانما هو عارض كسحابة الصيف لا تلبث أن تنقشع . ومن آيات ايمانى بأن من اراد وصل حتما .. تلك الواقعة الاخرى التى حدثت لى ابان طفولتى أيضا ، وموجزها انى لاحظت أن اخى الأكبر ــ وهو لم يكن يعبأ بأثرياء الاقليم ــ جعل يحتفل بأسرة فقيرة كانت تقدم من القاهرة الى الريف فى صيف كل عام ، فسألت من حولى عن السبب فى الاهتمام بتلك الأسرة الى هذا الحد ، فأجابونى بأن افرادها متعلمون .. فوقعت هذه الكلمة من نفسى موقعا هائلا ، وصممت على أن أعض بالنواجذ على ذلك الكائن الفاتن المســمى بالعلم ، والذى لا يتطاول الثراء الى عليائه ، ثم طفقت أستخـدم سـلاح الارادة الحديدية وجحود مبدأ التعب فى الوصول الى الظفر بهذه البغية العالية ، فقذفت بنفسى ــ رغم ضعف بصرى ــ بدون رحمة ولا اشفاق فوق صفحة البحر الابيض المتوسط . وكنت انا الوحيـــــد الذى ليس له مودعون على مرفا الاسكندرية ، وما زلت أكافح فى ربوع تلك البلاد كمثال من مثل المجالدة والمثابرة ، حتى ظفرت ببغيتى التى حددتها منذ طفولتى .. فكانت كأنها نوع من الايحاء تحقق بحذافيره جملة وتفصيلا .. ولله الحمد أولا واخيرا

كلنا نكافح !

للمهندس فؤاد اسكندر

ولد المهندس فؤاد اسكندر فى عام ١٩٢٦ ، وقد تدرج فى مراحل التعليم حتى ظفر ببكالوريوس الهندسة من جامعة القاهرة .. ثم التحق بخدمة شركة مصر للغزل والنسج بالمحلة الكبرى عام ١٩٤٧ . وقد أرسل بعد ذلك فى بعثة عملية الى انجلترا عاد منها فى عام ١٩٥١ ، وهو يشغل اليوم وظيفة المهندس الكهربائى للشركة المذكورة وهو يمثل الشباب المصرى المثقف المكافح

كنت أنتظر نهاية الاسبوع بصبرنافد بعد أحد الأسابيع الحافلة بالعمل المرهق ، وسافرت الى الاسكندرية بالرغم من مبادىء الانفلونزا التى كنت أشعر بها . ولفت نظر أصدقائى الحمى التى كانت تسرى فى جسدى ، ونصحونى بالراحة . ولكننى صممت على الاستمتاع بوقتى ، وليكن مايكون . وتملكتنى هذه الفكرة ، حتى لقد ضربت بتعاليم الاطباء عرض الحائط ، وأخذت حماما باردا وانا محموم . وكان عجيبا أن تنتصر روحى وارادتى على المرض والحمى . وانطلقت مع أصدقائى لنقضى وقتا سعيدا . وكنت كأسعد ما يكون ، وفى أتم صحة وعافية ، مما أثار دهشتهم . وعدت من هذه الرحلة بأفكار جديدة وايمان جديد .. ان ما يجرى فى روحنا وقلبنا ، يلقى ظله دائما على مشهد الحياة . فان كانت النفس سعيدة فصورة الحياة سعيدة ، وان كانت كئيبة فهى سوداء ، وان كانت مريضة فصورة الحياة مريضة

ثقيلة ، وان كانت ثائرة غاضبة فصورتها حمراء بلون الدم
فنحن نستطيع ان نسيطر بأفكارنا حتى على أجسادنا ، فلو
ان الانسان أوحى الى نفسه بأنه سعيد بينما هو يمر
بمحنة قاسية .. فان ذلك الايحاء ، ان لم يحل مشكلته ،
يجعله يجتازها بروح طيبة ، والعكس صحيح أيضا

ولكن علمتنى الحياة أيضا ان هذه الطريقة الايحائية
لا تجدى فى جميع الاوقات ، فمن العبث أن توحى الى انسان
متعطل جائع لايجد قوت يومه ، او تجعله يوحى الى نفسه
بأنه سعيد موفق ، فان ذلك الايحاء لو أمكن ، فسيكون له
فعل المخدر الذى ينسى الانسان حقيقة حاله ويصرفه عن
ايجاد حل لها . بل العكس ، فان افهامه حقيقة مشكلته
يجعله يفكر دائما فى طريق الخروج منها الى المستقبل المشرق
وتكون طريقة الايحاء العقلى هنا هى أن تؤدى بالانسان لأن
يقول لنفسه : انى اومن بانى ساخرج من هذا المأزق المظلم .
انى مؤمن بمستقبلى .. انى سأوفق .. وهكذا ، فان هذا
الأيمان كفيل بأن يدفعه الى العمل باصرار وعناد حتى يصل
الى شاطىء الراحة والاطمئنان

ان ما حدث فى ذلك اليوم لمن الاحداث العارضة التى يمكن
ان يمر بها الانسان دون أن تترك فى نفسه أدنى تأثير ، ولكن
شيئا واحدا اعلمه ، وهو ان هذا الحادث قد اثر فى نفسى
تأثيرا بالغا .. وفتح أمام تفكيرى آفاقا جديدة الى فهم
جديد للحياة

كنت واقفا فى قسم من أقسام المصنع الذى أعمل به ؛
ارقب العمال وهم عاكفون على الآلاتهم فى ذلك اليوم القائظ
من أيام رمضان — شهر الصوم — ولم يكن الحر الخانق أو
البخار الذى يشبع الجو والصوم عن الطعام والشراب ، لم
يكن اى شىء من هذا يقلل من عزيمة هؤلاء العمال العاكفين
على الآلاتهم كأنهم جزء منها ، يدورون معها ويدورون !..
أجل ، هكذا كنت أنظر اليهم دائما ، أجزاء من آلات ! أداة

صغيرة من آلاف الادوات التى يحتويها المصنع الكبير .
واستوقف نظرى أحد العمال وقد بدا منصرفا عن عمله ، مطرقا برأسه ، وعلى وجهه حبات من العرق تلمع ، كان مجهدا مرهقا .. وسرت نحوه ، فلما أحس بى أمامه ، رفع رأسه ببطء ، ورأيت فى عينيه مزيجا من الاجهاد والاعتذار الصامت فقلت له : « لا بد أنك وزملاءك مرهقون بلا شك من الحر والصوم ، كان الله فى العون ! » فتمتم : « شكرا ياسيدى ، انى لممتن لشعورك الطيب نحوى ، انى أحسن حالا الآن »

ومضى الى آلته وأدارها فى همة ونشاط جديدين . كان يمكن أن أنسى هذا الحديث فى زحمة العمل ، ولكننى لم أستطع أن أبرح مكانى . بل استرسلت فى تفكير عميق . فكرت فى هذا العامل ، وآلته الصماء

كلا .. ان هؤلاء العمال ليسوا كالآلات .. انهم بشر ، حياتهم كحياتنا ، فيها الالم والوجع . يحبون ويكرهون ويتعذبون . وأدرت عينى فى وجوههم السمراء اللامعة الصلبة .. وخلت انى أرى فى وجوههم الصامتة قصة تموج بالحياة والكفاح المرير . انى أيضا أكافح فى سبيل الحياة — أنا وذلك العامل وهؤلاء العمال — كلنا قوة ضخمة نكافح فى سبيل هدف واحد .. الحياة

وأحسست بنفسى تمتزج بنفس هذا العامل وتمتزج بها امتزاجا عنيفا ، وشعرت بمشاكله وآلامه تضطرب فى نفسى ، وآماله تلمع بجانب آمالى .. كما لو كنت أحيا حياته ، من يوم ولادته . وكأنما خلقت من ذلك اليوم خلقا جديدا ، بروح جديدة ، واحساس جديد ، بأننا جميعا اخوة ، نكافح من أجل رخاء بعضنا البعض ، ليس فينا آلات وأصحاب آلات ، بل كل واحد منا نغمة ، وهذه الملايين من النغمات تنصهر وتذوب فى بعضها البعض لتكون « سيمفونيـــة » الحياة

لا بد من توفير حياة اجتماعية سليمة !

للدكتور محمد كامل عياد

ولد سنة ١٩٠١ بمدينة طرابلس الغرب .. وبعد اتمام الدراسة الابتدائية والثانوية فى استانبول وبورسا (بالاناضول) وحلب والقدس مارس الصحافة مدة سنة ، ثم التحق سنة ١٩٢١ بجامعة برلين ، وحصل على شهادة الدكتوراه فى الفلسفة ، ولما عاد الى دمشق سنة ١٩٣٠ اشتغل مدة بالصحافة ثم عمل بالتدريس فى المدرسة الثانوية بدمشق ، ثم دار المعلمين العالية ببغداد . ثم عين استاذا مساعدا فى كلية الآداب . وقد انتدب من الجامعة السورية مؤقتا كخبير فى الادارة الثقافية لجامعة الدول العربية

لا اعتقد ان الحوادث المختلفة التى تعاقبت على فى شتى البلدان ، قد جعلتنى أكثر معرفة بحقيقة الحياة أو أكثر قدرة على حل مشاكلها من جمهور الناس الذين لايفتأون ــ رغم التجارب المتوالية ــ يرتكبون الاخطاء ذاتها فى سلوكهم وفى علاقاتهم بأبناء جنسهم

ولكن لاريب عندى ايضا فى اننى ــ لولا بعض الظروف والوقائع ــ لما اتجهت فى حياتى وتفكيرى الوجهة الحاضرة

لقد اضطررت ــ وانا فى العاشرة من العمر ــ الى الهجرة من وطنى « ليبيا » ، بسبب غارة الطليان ، فانتقلت من بيئة نصف بدوية الى مدينة استانبول المتحضرة نسبيا . وهناك ، كان على أن أبذل جهدا زائدا لمسايرة البيئة الجديدة ومجاراة رفاقى الجدد فى المدرسة . وبفضل هذا الجهد نلت الدرجة الاولى فى الفصل عند امتحان آخر السنة

ومن جهة اخرى فان التفكير المتواصل فى نكبة بلادى ، قد صرفنى عن ميولى الفطرية نحو الرياضيات ودفعني الى دراسة التاريخ والعلوم الاجتماعية ، والى الاشتغال بالامور السياسية

ومن المؤكد ان ذلك انتهى بى الى اهمال مصـــالحى الشخصية المادية ، مثل الكثيرين غيرى من ابناء امتي الذين ادركوا انه لا قيمة لحياتهم الفردية دون نجـاح القضـية القومية العامة

ولعل أهم حادث كان له اعمق تأثير فى توجيه تفكيرى هو ما تعلمته بعد اشتغالي بالتدريس . فقد كنت ـ ككل مدرس مخلص لعمله ـ أشعر بمنتهى السرور والاعتزاز عندما أشاهد طلابى يتقدمون فى المعرفة والبحث والتفكير . وكنت فى الصميم اعلق اكبر الآمال على مستقبل النابهين بين هؤلاء الطلاب ، الذين لم يكن يخامرنى ادنى شك فى انهم سيصبحون علماء أو مخترعين أو مصلحين وانهم سيعملون على نهضة الامة العربية

الا انه لم تمض بضع سنوات حتى كشفت لى الحياة عن الواقع المؤلم . ذلك انى التقيت ببعض الطلاب المتفوقين بعد مدة من تخرجهم ، واذا بهم قد صاروا معلمين فى قرى نائية لانهم كانوا فقراء لايستطيعون اتمام الدراسـة الجامعية ، وكان لابد لهم من العمل لاعاشة انفسهم واسراتهم . وقد هالنى ما كان يبدو عليهم من الخمول والبؤس ، ولاحظت أن أحدهم على الاخص كان هزيلا ، شاحب اللون خلافا لما عهدته عليه فى المدرسة . فلما سألته عن السبب أجاب : « كيف لا أنتهى الى هذه الحالة وانا أعيش فى قرية تحيط بها المستنقعات وتفتك « الملاريا » بسكانها ، وليس من طبيب أو صيدلية فيها أو بالقرب منها ؟ »

وقد تبين لى من الحديث مع هؤلاء الطلاب القدماء انهم

جميعا لم يطالعوا أى كتاب أو مجلة منذ ان تخرجوا من دار المعلمين . فظننت لاول وهلة ان ذلك ناشيء عن ظروفهم الخاصة . ولكننى عندما اخذت ابحث فى الموضوع على نطاق أوسع واسأل عددا كبيرا من المتعلمين ، كالمحامين والاطباء والمهندسين والموظفين ، وجدت ان اكثرهم قد انقطعت كل صلة لهم بالعلم

عندئذ ادركت ان هـذه الظاهرة لا يمكن تعليلها بكسل الافراد أو نزعتهم المادية ، بل لابد من ارجاعهـا الى تأثير البيئة الاجتماعية . ومنـذ ذلك الوقت آمنت بأن مجرد العناية بتعليم الافراد وتهذيب اخلاقهم لاتكفى وحـدها لنهضة المجتمع وتقدمه . وانما ينبغى فى الوقت نفسه ـ وقبل كل شيء ـ تغيير النظم والمؤسسات واصلاح الاوضاع العامة ، فان الافراد لاتنكشف مواهبهم ولا يستطيعون الانتاج والابداع الا اذا بداوا بتهيئـة الجو الصالح لحيـاة اجتماعية منسجمة ، متطورة زاخرة

درهم حكمة خير من قنطار علم

للدكتور احمد أمين

تربى تربية دينية. فتعلم فى الأزهر، ثم فى مدرسة القضاء الشرعى، ولما تخرج منها عين مدرسا بها ثم قاضيا شرعيا، وظل على ذلك سنين ثم اختير مدرسا فى كلية الآداب بالجامعة المصرية ، وما زال يتنقل فى مناصبها حتى اختير عميدا لها . وظل ممثلا لها فى مجلس الجامعة نحو عشر سنين . وقد كوفىء على نشاطه العلمى بمنحه الدكتوراه الفخرية من جامعة القاهرة ، كما كوفىء على كتبه الأدبية بجائزة الدولة. وقد شعر وهو فى سن الثلاثين تقريبا بحاجته الى تعلمه لغة أجنبية ، فتعلم اللغة الانجليزية فاوسعت أمامه الأفق حتى حاضر بها فى مؤتمر المستشرقين بليدين . وانتخب عضوا فى مجمع فؤاد للغة العربية ومجمع دمشق العربى ورئيسا للجنة التأليف والترجمة والنشر من سنة ١٩١٤ الى اليوم . وقد اختير مديرا للادارة الثقافية للجامعة العربية

علمتنى الحياة فيما رأيت من نفسى ، وفيما رأيت من أبنائى ، ومن عاشوا حولى .. أن العمل اذا بنى على التجارب التى جربها الانسان فى حياته ، نجح غالبا ، واذا بناه على العلم والمنطق الذى كسبه لم ينجح غالبا . فان للأحداث منطقا غير المنطق الذى فى الكتب ، ورأيت من أبنائى أن أنجحهم فى الحياة ليس أعلمهم ، بل أحكمهم . وأذكر أنه كان فى فصلنا فى مدرستى أول الفصل وآخره.. فأول الفصل كان أعلمنا ، ومع ذلك لم ينجح فى الحياة . وآخر الفصل كان أحكمنا ، ولذلك نجح فى الحياة

وأسمع أن أزواجا كثيرين سعدوا بزوجاتهم لأنهن

حكيمات فى الحياة ، بينما فشل غيرهن وان كن أكثر ثقافة

ونشاهد فى الحياة رجلا كبيرا فى السن تاجرا قد نجح فى تجارته ونال ثقة الجمهور ، وحصل على ثروة كبيرة من مال وحسن سمعة ، وعظيم جاه ، وهو فى هذا كله لم يتعلم فى المدرسة اقتصادا ولا تجارة ، وانما تعلم فى الحياة حكمة عرف بها ماذا ينجح وما لا ينجح ، وعرف بطبيعته نفسية الناس وما يعجبهم وما لا يعجبهم ، وكيف يصرف تجارته بينهم . ثم لما رزق ولدا علمه أحسن تعليم ، واعده للتجارة كل اعداد ، وبعد ان اتم دراسته فى مصر ارسله الى الخارج ليتم تعليمه ، حتى صار دكتورا فى التجارة . فلما عاد وامسك تجارة أبيه ، تبددت ، وانصرف عنه الناس ولم يفهمهم ولم يفهموه ، ولم يستطع بعلمه ان يدرك شأو أبيه بحكمته .. ذلك لأن العلم الذى حصله لم يعوض حكمة أبيه

وقد أدركنا فى مصر بيوتا كثيرة خسرت واغلقت ، لأن الأبناء لم يستطيعوا أن يقوموا بما قام به الآباء . وربما كان الآباء عصاميين كونوا انفسهم بأنفسهم ، لم يرثوا من آبائهم مالا ولا جاها ، ثم لما اورثوها بنيهم اتلفوها . وقد نجد اللغات المختلفة فرقت بين العلم والعقل والحكمة ، وجعلت لكل من هذه الأشياء اسما . والحكمة هى الفلسفة العملية فى الحياة والقدرة على النفوذ الى الأشياء وحسن التصرف فيها . وهى كثيرا ما تستفاد من تجارب الحياة ، لا كالعلم الذى يستفاد من الكتب . وكان حكيما قول القرآن « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا » (صدق الله العظيم)

وتعجبنى حكاية قراتها فى بعض كتب الأدب العربية ، وهى ان اعرابيا بدويا ، راى قوما من الفرس يبيعون ويربحون ، وهو لا يربح .. فقال : « الحمد لله ، يلحنون ويربحون ، ونحن لا نلحن ولا نربح » .. لأنه ظن لغفلته ،

ان العلم بتصحيح الكلمات ، وعدم اللحن فيهـا ، يربح فى الحياة ، مع أن الربح يعتمـد على التجـارب ، لا على عدم اللحن فى الكلام .. وتلك حكمة وهذا علم

وكما أن العلم مظهره الكتب والتدريس ، ويبلغ منتهاه فى نيـل الدرجة الجامعيـة ونحـو ذلك .. فان الحـكمة مظهرها فى الأمثال الشعبية التى تنبع من رجال الشـعب ونسائه الذين جربوا الحياة واستطاعوا أن يبلوروا تجاربهم وتجارب امثالهم ، ويركزوها فى حبات من الحـكمة . وكما اشتهر فى كل أمة علماء متخصصون فى العلم وصلوا فيه الى الغاية ، كذلك يوجد أفراد اشتهروا بالحكمة والتجربة ، وفهم الأمور على حقيقتها وتصرفهم أمام المشاكل على أحسن ما يكون ، أمثال ايزوب عند الرومان وجحا عند المصريين والأتراك ونحو ذلك . فكل هؤلاء رويت عنهـم أقوال فى منتهى الجمال ، تشرح تجربة ، أو تحل مشـكلة أو تضع مبدأ للحياة .. وكثيرا ما تكون فى صيغة قصصية جميلة

وقد رويت لنا عن الأمم المختلفة أقوال حكيمة كثيرة ، كل له طابعه الخاص ، مما يدل على أن كل أمة جربت فى الحياة ما بطبيعتها واستفادت من بيئتها ، وأن كل أمة كانت تنظر الى الحياة من زاوية .. وكلهـا تعبر عن الحقيقـة بأسلوب يخالف أسلوب الآخر

ونحن لو قلنا أن السعادة فى الحياة مرتبطة بالحكمة أكثر مما هى مرتبطة بالعـلم لـكنا على صواب .. فالعالم قد يتصرف فى المال تصرفا سيئا فيتلفه ، ويتصرف فى المنصب تصرفاخطأ فيضيعه ، أما الحكيم فيصيب دائما ويسعد دائما

من أجل ذلك دعونا الله أن يرزقنا ولو قليلا من الحكمة .. فذلك خير من أن يرزقنا العلم ولا حكمة

الجزء الثاني

أقلام من الغرب

هاك كرة لتدحرجها

لروبرت ج . أولمان

أحرز « روبرت ج . أولمان » النجاح لمكفوف البصر فى ميـادين الرياضة والقانون ، والتنبؤ بنتائج المباريات الرياضية ، وذلك على الرغم من أنه فاقد البصر . ولقد التحق فى طفولته بمدرسة أوفربروك لمكفوفى البصر فى فيلادلفيا ، حيث ابتدأ مزاولته لعبة المصارعة ، ثم التحق بجامعة بنسلفانيا وتخرج فيهـا من قسم الفلسفة . ثم درس القانون وهو اليوم يشتغل بالمحاماة فى شركات التأمين

فقدت بصرى وأنا بعد فى الرابعة من عمرى ، اذ سقطت على أم راسى من سيارة نقل فى أحد أفنية شحن البضائع بمدينة « أتلانتيك سيتى » ، وأنا اليوم فى الثانية والثلاثين من عمرى . ولو أن الابصار عاد الى لكان ذلك حدثا رائعا ، بيد أن كارثة ما ربمـا قدمت للناس أيادى بيضاء ، حتى ليخيل لى أن حبى للحياة ربما قل لو لم أكن أعمى . انى أومن الآن بالحياة ايمانا عميقا .. ولست أعتقد بأنه كان يسعنى الايمان بها على هذا النحو ، لو أننى لم أكن فاقد البصر . ولست أعنى بذلك أننى أجحد نعمة البصر ، وانما أعنى أن فقدانى لها جعلنى أجل قدر ما تبقى لى من نعم فى الحيـاة

أعتقد أن الحياة تطالبنا دائما بتكييف آرائنا بحيث تنسجم مع الواقع . وكلما كان الشخص أكثر تأهبا لهذا التكييف ، أصبح عالمه الخاص منطويا على أهمية عظمى . وليس تعديل

الآراء سهلا أبدا . . لقد اهتدى والداى وأساتذتى الى شيء فى ـ يسعك أن تسميه طاقة الطموح فى الحياة ـ لم أستطع أنا رؤيته ، فجعلونى أرغب فى الكفاح ضد ظلام البصر

وكان أشق درس وجب على تعلمه هو أن أومن بنفسى . كان هذا درسا جوهريا . ولم يكن فى مقدورى أن أصنع ذلك بل كان محتملا ان انهار واصبح قعيد كرسى متحرك أمام سدة الباب طوال ما تبقى لي من العمر . وانى عندما أتحدث عن الايمان بنفسى ، فلست أتحدث عن مجرد ذلك النوع من الثقة بالنفس التى تعيننى على البقاء وحدى فى ردهة غريبة عنى . فهذا جزء من ذلك الايمان . وانما اعنى شيئا أعظم من ذلك : هو اليقين باننى ، على الرغم من مظاهر عجزى ، امرؤ ايجابى وانه فى هذا الخضم المتلاطم المتشابك من البشر ، يوجد مكان خاص بى استطيع أن أشغله بجدارة

ولقد اقتضانى اكتشاف هذه الثقة وتعزيزها سنوات كثيرة . وكان يجب أن يبدأ الأمر بأبسط الأشياء . حدث ذات مرة أن ناولنى رجل احدى كرات لعبة « البيزبول » ، وحسبته يسخر منى واحسست بالاهانة ، فقلت : « اننى لا أستطيع استعمالها » فاستحثنى قائلا : « خذها معك ودحرجها أمامك » . فثبتت الكلمات فى رأسى « دحرجها أمامك » . وبدحرجة الكرة استطعت أن أسمع أين ذهبت . وهذا الفعل ولد عندى فكرة قوامها أن أحقق هدفا خلته مستحيلا . ذلك الهدف هو أن العب « البيزبول » . وفى مدرسة أوفربروك لمكفوفى البصر فى فيلادلفيا ابتكرت طريقة جديدة ناجحة للعبة « البيزبول » اطلقت عليها اسم الكرة الأرضية

وطوال حياتى ، وضعت امامى طائفة من الأهداف ، ثم حاولت أن أبلغها . . كل واحد منها فى وقت معين . وكان على أن أعرف نواحى النقص عندى . ولم يكن من الخير

أن أحاول شيئا كنت أعلم من مبـدأ الأمر انه بعيد بعـدا شاسعا عن متناولي ، لأن ذلك من شأنه أن يسبب المرارة والحسرة لدى الاخفاق والفشل . ومهما يكن من أمر فقد أخفقت فى أشياء ، ولكننى احرزت ـ على العموم ـ تقدما

وأعتقد أننى حققت التقدم بسرعة ، نتيجة لنظام من الحياة هياته قيم معينة . وانى لأجد من الأيسر أن أعيش مع نفسي اذا حاولت أن أكون أمينـا . واجـد القوة فى صداقة الناس ومعاونتهم ، ولولا أصدقائى الذين يعينوننى بابصارهم لكنت أعمى حقا . وبكل تواضع أقول أننى وجدت الراحة والهدوء فى طموح الانسان الفانى ومحاولته الارتفاع والتسامى صوب الألوهية . وربما كان الرجل المسلوب البصر أقل عمى عن أهمية الأشياء المادية من المبصرين . كل ما أعرفه هو أن ايمانا بوجود غاية أسمى للبشر يكافحون فى سبيل بلوغهـا ، كان وحيـا أعاننى ، أكثر من أى شيء آخر ، على صيانة حياتى وتماسكها

درس تعلمته فى منتصف الليل

لجيمس كى دى بونت

التحق مستر « دى بونت » بشركة دى بونت منذ عام ١٩٢٠ . وهو رجل نحيل عاطفى ، تنبئك ابتسامته عن فهم وتقدير دقيق لمسائل الحياة . كان قد نيط به الاشتغال بأعمال الانشاء والهندسة فى مصنع بمدينة « كلنتون » بولاية « أيووا » بالاضافة الى ندبه مع من ندبوا لمشروع الطاقة الذرية فى جامعـــة شـــيكاغو « واوك ريدج » فى تنيسى . وهو متزوج ويعيش الآن مع زوجته واربعة أولاد على مقربة من تلك البقعة القديمة حيث أقام جده شركة « دبونت » فى عام ١٨٠٢

أصبحت منذ منتصف ليلة من الليالى فى عام ١٩٠٩ ، وهى الليلة التى استمعت فيها لصراخ أمى ، التمس السبيل الى معتقدات أستعين بها على متاعب هذه الحياة وضيقها وقد كان صوت والدى ، وهو يحاول تهدئة أمى ، صوتا خافتا حزينا . وحين اشتد بهما الجزع نسيا أنهما على مقربة من مضجعى .. ولكنى سمعتهما وكنت يومئذ فى السابعة من العمر . ومع أن المشكلة التى أثارتهما حينئذ ، قد حلت منذ زمن بعيـــد وأصبحت نسيا منسيا ، فان ما انكشف لى فى تلك الليلة لم يزل حقيقة ماثلة أمام عينى .. تلك هى أن الحياة ليست كلها حبا وأزهارا ، ولكنها فى الغالب تصطبغ بالقسوة والمرارة التى يشعر بها معظمنا . أن لنا جميعا متاعبنا ، وان اختلفت فى طبيعتها . هذا ما بدا لى ان أتعلمه وقتئذ ، بل تلك هى العقيدة الأولى التى تعلمتها

وفى رأيى أن الجنس البشرى قوى الشكيمة شديد البأس، من الصعب أن يتطرق اليه اليأس . ولو كان الأمر غير هذا لما عرفت فى قاموس البشرية منذ الأزل كلمات : «الضحك» و « الغناء » و « الموسيقى » و « الرقص » وما اليها . لقد أوحى الى هذا الرأى أن أفخر بنفسى كانسان . وفى رأيى أن نسيج كل انسان منا ينطوى على الخير والشر . تلك هى الحقيقة التى لم أستطع تبيانهـــا على الصـــورة القوية الفياضة التى جاءت فى عبارة « توماس مان » اذ تحدث عن «الثنائية الشديدة التطرف» بين العقل والبهيمية فى الانسان وتلك هى الظاهرة التى نشترك فيها جميعا

وهذا الاعتقاد يشد من أزرى .. لأنى كلما تذكرت قوى الشر التى تسيطر على تصرفاتى دائما ، وتذكرت فى الوقت نفسه ذلك القبس من النور المقدس الذى يضىء جوانب نفسى ، تضاءلت أمام عينى فى ختام كل يوم تلك المقاييس التى أقيس بها أخطائى وأسباب ضعفى . وتفصيل ذلك أن « حذرك من الشر ان هو الا كسب لنصف المعركة ضده »

انى أومن بالسعى فى سبيل الخير ، ومحاولة فهم الناس والصفح عنهم .. خصوصا اذا حاول الانسان أن يتسامح مع الأذكياء والحساسين من الناس . ان الانسان قد يكون عبقريا ، ولكنه قد يأتى من الأشياء ما يحطم قلبك تحطيما

أعتقد أن معظم أفكارنا النبيلة السامية ــ ان لم تكن كلها ــ نافعة ومفيدة ، وأن كثيرا من أروع أعمالنا يجب أن يبقى ســـرا لا نبوح به ، أو أن يبقى كذلك على الأقل حتى مماتنا . ولطالما سبب لى هذا شيئا من الارتباك ولكنى أدرك الآن أن تلك الأعمال المجيدة التى نعملها ولا نستطيع أن نتكلم عنها ، أن هى الا قبس خفى من حياة مستقبلة خير من هذه الحيـــاة

واعتقد انه لا مفر لنا من التزام تلك القاعدة التى تحتم علينا القيام بسلسلة أعمال ضئيلة ، لأنها الطريق الى تحقيق أمر واحد عظيم . تلك هى القاعدة التى توحى الينا بالصبر ، حينما تشتد حاجتنا اليه

وهنا أجدنى أقوى على تحمل مسئولية أعمالى ، أو بتعبير أدق ، أستطيع أن أكون أمينا مع نفسى . وقد يكون هذا مستحيلا أو شبه مستحيل احيانا ، ولكننى على ثقة من انى أحاوله دائما

وأخيرا — بل أهم من هذا كله — ايمانى بالله .. انى مؤمن بوجود اله حكيم قادر على كل شىء هو الذى خلق هذا العالم،وهو الذى يسيره على النحو الذى نعرفه نحن البشر . هذا الكون بما فيه من نجوم مضيئة ، وسدم ، وأقمار ، وكواكب ، ونساء جميلات ، وأشجار ، ولآلىء ، وعشب أخضر ، وبما يجيش فى صدور ابنائه من آمال فى السلم ، ودعاء لله أن يحققه

لست العب للنظارة

لروبرت دوير

كان والد « روبرت بوبى دوير » من لاعبى كرة السلة ، وقد اشترى له اول زوج من هذه الكرة حين كان فى العاشرة من عمره . وما ان مضى على ذلك ست سنوات حتى كان « بوبى » يساهم فى هذه اللعبة بوصفه الظهير الثانى لاحدى فرق ساحل الباسيفيك . وما لبث ان اصبح من كبار اللاعبين المحترفين ، وقد تفوق على تسع فرق من الفرق العالمية والآن وقد اعتزل اللعب عقب خمسة عشر موسما رياضيا من مواسم كرة السلة ، فانه يعيش مع زوجته من ايراد مزرعة تبلغ مساحتها نحو مائة وستين فدانا على مقربة من اجنس فى ولاية أوريجون

يبدو لى أن معتقدات المرء ـ كيفما كانت ـ تتوقف على الطريقة التى يسلكها فى حياته . . لقد أمضيت شطرا طويلا من حياتى كلاعب محترف لكرة السلة وطبيعى أن تكون هذه اللعبة التى أعيش منها أمرا يهمنى فى حياتى الشخصية . لقد علمتنى هذه اللعبة أشياء كثيرة عن الحياة . . جعلتنى أشعر بقسط كبير من السعادة ، بل أرجو أن تكون قد خلقت فى شخصية أقوى . تعلمت أنه لو أتيح لى استخلاص الكرة من قبضة الفريق الآخر لكان فى ذلك مدعاة لسعادتى أكثر مما لو قمت بحركة من الحركات المظهرية التى لن تجدى نفعا الا اغتباط النظارة . وتلك هى نفس الفكرة التى أرى جدواها فى الميادين الاخرى من الحياة غير كرة السلة . وتفصيل ذلك ان ما أقدمه من خدمة لجار أو لصديق او لقريب ، تكون أمتع لنفسى من عمل يقتصر على وحدى

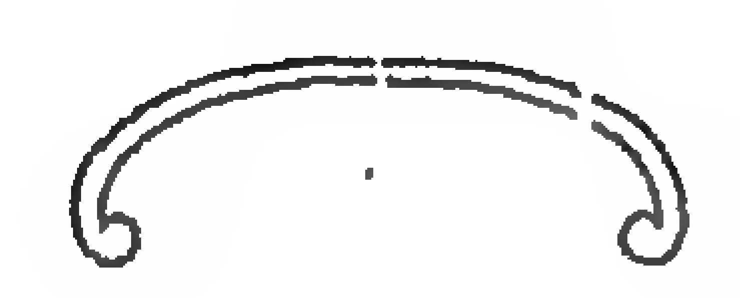
حتى ليخيل الى أن كل فرد ان هو الا زميل لى فى حلبة كرة السلة فى هذه الحياة الدنيا كلها .. وأن خير الأشياء هو ما قربنى للناس ، وأن شرها هو ما باعد بينى وبينهم

وثمة عقيدة أخرى آمنت بها ، تلك هى أن الأعمال التى اجيدها هى المقياس الذى أقيس به نفسى .. فاذا لم أستطع اتقان شىء كان اسمي وسمعتى هباء . ولقد فكرت فى ذلك فى ربيع عام ١٩٥١ حين قلت لفرقتى انى لن ألعب فى عام ١٩٥٢ . ولم أنته الى هذا القرار الا حين تأكدت من عجزى عن القيام بدور هام يرضى هؤلاء الذين يدفعون لى راتبا فى مقابل رؤيتى وأنا أخترق الحواجز . ولست ادرى كيف يطيب للانسان أن ينعم بنجاح أو بشهرة لا تكون ثمنا لمجهود ، وانما الذى اعرفه هو انى ما استسغت مديحا أو ثناء الا وكان مرده الى شعورى بما بذلت من جهد حقيقى أستحق عليه الثناء . وطالما تحدث زملائى فى الفرقة عن الحظ ، يعزون اليه نتائج النجاح والاخفاق فى الملعب وخارج الملعب ، حتى لقد يحمل بعضهم كعب ارنب او اداة من أدوات السحر الجالبة لحسن الحظ ، أو يلجأ الى شىء من التعاويذ او مراسيم الشعوذة يهيمن بها على سير المقادير تبعا لما يرضاه . والحق أنى لم أستطع الانسجام مع نفر كهؤلاء ، بل طالما شعرت أن ما يصيبنى من حسنة أو سيئة مرده الى أمر أعمق واهم مما يبدو فى الظاهر . ويخيل الى أن الكثير مما يتحدث به الناس عن حسن الحظ ان هو الا توفيق من عند الله ، ولست استطيع ان اتصور الها سامى الحكمة سامى القدرة لا يبالى بما أقوم به من اعمال فى حياتى . وايمانى بهذا هو الذى يصرفنى الى القيام بتلك الأعمال التى استحق من أجلها رضاء ربى وما يسبغه على من نعماء

وقد يكون هذا هو اهم شىء فى الحياة كلها .. واقصد به فعل الخير لتكون اهلا للخير . لقد صادفت فى حياتى الخاصة

عددا من الأعاجيب والخوارق ، ولى تاريخ حافل مجيد فى لعب كرة السلة ، جوزيت عليه أحسن الجزاء وقوبلت من أجله بالكثير من آيات التقـدير والترحيب . كنت أحب زملائى فى الفرقة حبا جما ، ولكن الذى يعنينى فى هذا كله هو أنى عرفت أفضل قوم يطمع انسان فى معرفتهم . ولعل من أعظم ألوان المتاع التى استمتعت بها كان بذل قصارى الجهد .. فكثيرا ما أقوم بأعمال ابتغاء ادخال السرور على نفس أبى وزوجتى وابنى ، اذ أجد فى ذلك السبيل الى مكافأتهم على ما لقيت منهم من تشجيع وخدمات .

ولعل خير وسيلة للتعبير عن هذا كله ، هو اغتباطى بتلك الدائرة التى تحيط بى .. وبودى لو يغتبط الناس بمثل هـذا أيضا



انى سعيد بوقتى

لبات فرانك

بات فرانك من اهل شيكاغو ، ولكنه لم يترك جزءا من أجزاء هذا العالم الا كتب عنه .. لقد بدأ حياته مراسلا للصحف فى فلوريدا ، ثم اشتغل مديرا لمكتب واشنطن فى وكالة أنباء ما وراء البحار ، ثم كان مساعدا لمكتب العمليات فى جنوب المحيط الهادى ، ثم اشتغل مراسلا حربيا فى الجبهة الايطالية ثم فى الشرق الاوسط وأوربا الوسطى وقد صاغ ذكرياته عن الحرب وايامها ، فى ثلاث روايات . وهو الآن فى الخامسة والاربعين من العمر ، يوجه كامل نشاطه الى كتابة القصص ، ويعمل فى داره تحيط به الكتب والآلة الكاتبة ومطفأة السجاير وخريطة العالم

حدث فى عام ١٩٤٥ أن تتبعت جيوشنا ابان اندفاعها الأخير فى جنوب ايطاليا .. ثم طرت الى برلين لحضور مؤتمر بوتسدام . وكان مراسلو الصحف الامريكيون قد أسكنوا فى ضاحية « زهلندورف » ، فأسكنت فى منزل من نوع المنازل التى تسكنها الطبقة الوسطى فى شارع محفوف بالظلال . وكان يسكن معى فى هذا المنزل ايد مزو . ولم يكن يقيم فى هذا المنزل من الامريكيين غيرنا نحن الاثنين

وكان الروس قد احتلوا زهلندورف قبل الأمريكيين ، فأخذوا ما فى المنزل من اغطية الفراش والبطاطين . ولكن كانت لدينا اغطية سرائرنا ، وكان يملك المنزل زوج وزوجة تقدمت بهما السن . وكانا يسكنان فى الجراج . وقد خاف الرجل وزوجته منا فى أول الأمر ، فقد قيل لهما ان الإمريكيين من

البرابرة ، واننا سنأتى على كل ما فى المنزل ونأخذ منه ما خلفه الروس

ولكننا طلبنا منهما أن يعودا للسكنى فى منزلهما .. وبما انا تعودنا السفر الطويل انا وصاحبى مرو ، فقد كان لا بد لنا أن نحمل معنا الاشياء الهامة التى لم يكن للمراسلين فى هذه الأيام قدرة على الاستغناء عنها .. مثل اللحم المحفوظ واللبن والصابون والشاى ومواد التموين الاخرى والزبد . ولقد أعطينا هذا كله للزوجين الهرمين ، وطلبنا اليهما أن يديرا شئون المنزل ويأخذا لنفسيهما ما أرادا .. فما كان منهما الا أن شكرانا على هذا شكرا مضطربا حزينا يبعث على الاسى

وفى اليوم التالى ، وجدنا أزهارا فى غرفتنا ، فأدركت أننا أصبحنا وهذان الزوجان أصدقاء . . . فوجود آنية من الزهر فى هذا الوقت الذى كانت فيه برلين مسرحا للموت والدمار تنبعث منها رائحة الجثث ، أمر يثير الدهشة

لقد أتيحت لى فرصة الاجتماع بشعوب الدول الثلاث التى ناصبتنا العداء فى الحرب العالمية الاخيرة : الألمان ، والايطاليين ، واليابانيين . ولقد كنت أعتقد على الدوام أن عناصر الجنس البشرى كلها واحدة لا تختلف فى جوهرها عن بعض . وفى اعتقادى أن الدليل على صدق كلامى هذا ، هو ما اتضح الآن من أنهم أصبحوا حلفاء لنا . فمنهم الحليف الفعلى ، ومنهم من هو على أستعداد للانضمام الينا . وانه لمن الأسس الثابتة أن العطف يورث العطف ، والبغضاء تورث البغضاء

لقد شهد جيلنا مأساة الدم فى حربين عالميتين ، وربما قدر له أن يشاهد المأساة الدموية الثالثة التى تتضاءل أمامها أهوال الحربين الماضيتين . ولكنى لو خيرت لما اخترت أن أعيش فى وقت غير هذا ، أجد فيه مثل هذا العوض الضئيل

من ازهار تقدم بروح الصداقة ، وأعمال توحى بالأمل كميلاد هيئة الأمم المتحدة

واذا كنت أعيش فى وقت ملىء بالمتاعب ، فانى أدرك أيضا انى أعيش فى وقت تتاح فيه أعظم الفرص .. فلقد أتيح لى بوصفى مراسلا وكاتبا ، أن أشهد التاريخ يكتب وأن أرى تلك الحوادث التى تقرر بقاء المدنية أو زوالها . لقد تبينت المرة بعد المرة أهمية الخلق الفردى وقيمته فى تكييف مستقبل ابنائنا ، وهل يحق لهم أن يعيشوا ويفخروا بنا . وانى لعلى بينة من انى لن استطيع الهرب من مسئوليتى التى تلزمني تطبيق ما تعلمت من دروس ، ذلك أن على ـ رغم أخطائى وأسباب ضعفى ـ واجبا نحو نفسى ، ونحو هذا العالم الذى أعيش فيه

ولعلى لن اتبين ما لهذا الواجب من أهمية على وجه التحقيق ، ولكن يجب على أن أعيش بالطريقة التى ترضينى ، بحيث لا أخجل أبدا من كيفية أدائى لهذا الواجب

النصر للايمان

لهربرت هوفر

ولد هربرت هوفر فقيرا فى برانش الغربية من أعمال ((ايوا)) ، وقد التحق بجامعة سترانفورد ، فتخرج منها مهندسا فى التعدين وذهب بعد ذلك الى استراليا موفدا من شركة بريطانية للمساهمة فى بعض الاعمال الهندسية فى تلك البلاد ولما عاد تزوج من زميلة تخرجت معه

وحين نشبت الحرب العالمية الاولى ، التحق بوظيفة خطيرة فى لجنة الانقاذ الحربية البلجيكية وعين بعد ذلك وزيرا للتجارة ، ثم رئيسا للولايات المتحدة الامريكية فى عام ١٩٢٩

كان تخصصى فى العلوم الهندسية وهى دراسات تهدف الى الاهتــداء للحقيقة ، وتطبيقها بمــا يعود على البشرية بالفائدة . ومذ أخذ العلم يتقدم ، تعرضنا لسلسلة هجمات من جانب جماعة من الملحدين واللاأدريين ، ذهبت الى أن ثمة صراعا بين العلم والدين لن يهدأ له بال حتى يقضى على الدين . . ولكنى لم أومن بهذا، فأنا لا أرى أن العقيدة الدينية هى التى كتب لها النصر فحسب ، ولكنى أعتقد فى نفس الوقت أن انتصارها أمر حيوى للبشر . اننا قد نختلف من حيث أسس العقيدة الدينية وتفاصيلها الظاهرة ــ وتلك مسائل يراها كل منا فى أعماق نفسه مقدسة ، ومن حقنا أن نرفض النقاش فيها ــ ولكن ثمة أساسا واحدا تقوم عليه كل العقائد الدينية . .

وتفصيل ذلك أن اكتشافاتنا العلمية قد أثبتت أن الكون

يخضع لقوانين علمية صارمة ، تتحكم فى مسالك النجوم كما تتحكم في تركيب الذرة،ولا بد من وجود قوة عليا قاهرة هى الخالقة لهذه القوانين . وجاء حين من الدهر تميز فيه الانسان عن الحيوان ، فدبت فيه الروح وانبثق معها الضمير كما انبثقت منها المثالية الاخلاقية والروحانية الظامئة ، وانه لمن المستحيل أن ننكر أن من وراء هذا كله قوة الهية تهدف لغرض . وفى اعتقادى أن التعبير عن هذا كله لن يكون الا عن طريق الايمان الدينى

وانك لتجد ان الآباء الاول استنادا الى عقيدتهم الدينية قد حددوا تحديدا تاما ذلك القانون الاساسى الذى انتظم التقدم البشرى منذ القدم .. حددوه بقولهم أن الخالق أسبغ على الانسان سلسلة من الحقوق لا عدوان عليها،وهى حقوق يجب ان يحميها القانون والعدالة من اى اعتداء

ولقد ذهب فلاسفة الالحاد والتشكك الى المناداة بأن التقدم انما يقوم على أسس مادية بحتة ، ولكن من أين اتت الاخلاق ، واتى هذا النزوع الروحى ، والايمان ، وآمال الانسانية فى العدالة والحرية الفكرية .. وهى الأسس التى يقوم عليها تقدمنا ؟

الحق ان كل المجتمعات التقدمية النامية تسجل ايمانها بالله ، فى حين ان المجتمعات التى دب فيها الضعف يعوزها هذا الايمان وتكفر بالله

العاطفة الانسانية تربط بين البشر

للويس هوسكينز

لويس هوسكينز هو رئيس الهيئة التنفيذية لجماعة تحمل جائزة نوبل ، لقاء ما قدمت من خدمات لقضية السلم العالمى . وقد ولد فى بلدة متواضعة بسيطة بولاية أوريجون ، واكتسب خبرة بشئون العالم من تجواله فى ربوعه ، وهو يحمل لقب الأستاذية والدكتوراه فى التاريخ وكان فى فترة من الفترات استاذا للتاريخ وعميدا لكلية باسيفيك ، واشتغل بالتدريس بعض الوقت فى الصين وفى الفترة بين عامى ١٩٤٥ و ١٩٤٨ كان يعمل مع وحدة من وحدات الكويكر فى الصين ، وكان مديرا لاحد المستشفيات فى مقاطعة هونان وقد اشرف على اعداد الكثير من مشروعات الترفيـه فى أوروبا والشرق الأقصى

كان عسيرا على رجال وحدة « الكويكر » التابعة لنـا أن يواصلوا خدماتهم الطبية ابان حرب العصابات العامة الاهلية فى الصين ، وكان ذلك بسبب ما واجهنا من عقبات ، فى وقت كانت فيه الحاجة ماسة الىهذه الخدمات الطبية. وقد كانت لهذه الوحدة قيمتها عند الطرفين المتحاربين ، ولكن مصيرها فى الواقع كان مرتبطا بمصير المعركة .. مثال ذلك أن أحد مستشفيات الكويكر كان يخضع لهذا الجيش مرة وللجيش الآخر مرة أخرى حتى لقد حدث ذلك ست مرات فى عشرة أيام .. ولكن المستشفى مع ذلك ، ظل يقوم بمهمته خير قيام . ولما كان من الضرورى لنا أن نثبت شخصيتنا لكل من الفريقين المتحاربين ، فقد تحتم علينا المرور عبر الأراضى المحايدة . وفى هذه الحالة كنا اذا استطعنا ، فى لباقة ، أن

فلت من أحد الجيشين ، اضطررنا الى الاتصال بالجيش لآخر فى المنطقة الاخرى برغم ما يكتنف ذلك من صعوبة ومشقة

وانى لأذكر مغامرة من هذا النوع ، كان يتعين علينا فيها مفاوضة السلطات الشيوعية لتوفير أسباب العلاج لتلك المنطقة التى تدور فيها رحى الحرب . وهنا وصلنا الى منطقة متنازع عليها ، واذا بجندى شيوعى واحد يقبض على وعلى عضو صينى معى فى الوحدة . لقد كان هذا الجندى صبيا لم يتجاوز الرابعة عشرة فى الغالب ، وكان يبدو شبحا مذعورا .. وكنت حينئذ على بينة من الفوارق التى تفصل بيننا ، وهى فوارق فى القومية والجنس واللغة . ولا شك أنها فوارق طبيعية ، تضاف اليها فوارق اخرى غير طبيعية هى وليدة الظرف القائم او وليدة الدعاية ، وأقصد بها الخوف والريبة والكراهية . لقد كنت انا هناك ممثلا لهذه الدولة التى أقنعته الدعاية بانها عدو وطنه ، ومع أنى لم أكن مسلحا فى ذلك الوقت الا انى كنت عرضة للاتهام بالخديعة والوقيعة

طال الحديث بيننا برهة من الزمن ، واخيرا سمح الجندى الشيوعى لزميلى أن يعود الى اخواننا اعضاء هيئة المفاوضات، ولكنه قبض على وحدى كأسير . ومرت بينى وبين هذا الجندى الصينى فترة عشرين دقيقة ، وهو هائج شاكى السلاح ، حاولت فى أثنائها الاستيلاء على عواطفه واقناعه بكل ما اوتيت من صراحة . لقد حاولت أن أنفذ الى أعماق روحه الطيبة الخيرة ، متوسلا بسلطان المودة والصداقة . وبينما انا اتحدث اليه فى حالة جزع بالغ باللغة الصينية ، حديثا تناول شتى الموضوعات اليومية ، مستهدفا اقناعه بحسن نيتى ورغبتى فى مساعدة شعبه ، اذا بى أوفق الى طريقة استطعت بها تحطيم الحواجز القائمة فيما بيننا واستدرار عواطفه الطبيعية وروحه الانسانية . وبيان ذلك

أننى أطلعته على صورة ابنتى الطفلة واستدرجته من ذلك الى السؤال عن عائلته ، فقال ان له اختا طفلة فى منزله وأخا أكبر منه يعمل كذلك جنديا فى الجيش ، وهنا ، وعلى غير قصد منه فيما أعتقد، تخلى عن بندقيته. وسرعان ما أفهمته بلغتى الصينية الركيكة مهمة الوحدة الطبية لجماعة الكويكر ولماذا جاءت الى هذه البقاع يحدوها الأمل فى أن تنشىء عرى الصداقة بينها وبين هذا الشعب ، بما تقوم به من خدمات فنية . وهنا تلاشى من نفسه ما حملته اليها الدعاية من ريبة وبغضاء ، واستطعت من هذه اللحظة أن أسيطر على العنصر الانسانى فيه ، وأن أثير فى جانبه الروحانى الاستجابة الكاملة لعواطفى نحوه ، وحين وصلت بقية أعضاء وحدة الكويكر ، وافق الجندى الصينى على أن يقودنا الى المركز الرئيسى ، حتى نستطيع القيام بما أوفدنا لانجازه من مفاوضات ، وأنا انما أورد لك هذه القصة تبيانا لما أومن به من ثقة فى الله ، ومن وجود صلة خفية تربط بين البشر جميعا .. تلك الصلة التى لا بد منها لتحقيق السلم والتفاهم

الأمانة أساس النجاح

جون هيوز

ولد جون هيوز فى مزرعة جميلة فى مقاطعة تونا جهام فى ايرلندا ، وقد اصبح يتيما فى الثانية من عمره، وقدم الى الولايات المتحدة وهو بعد شاب ، ثم انخرط فى سلك الجندية ، وخدم فى الحرب العالمية الاولى وسرح مكرما فى عام ١٩١٨

وهو رجل ضئيل الجسم ولكن ممارسته للرياضة ابان شبابه قد اسبغت عليه الصحة والقوة وهو يعمل الآن سائقا لاحدى سيارات الأجرة

فى اعتقادى أن الأمانة من خير ما وهبه الانسان .. انهم يطلقون عليها فى هذه الايام أسماء خيالية كالاستقامة والعدالة ونحوهما ، ولكن للناس أن يطلقوا عليها ما شاءوا من الاسماء ولى أنا حق الاعتقاد فى أن « الامانة » هى الكفيلة بأن تخلق المواطن الصالح .. ذلك هو دستورى الشخصى الذى أتقيد به فى حياتى

لقد ظللت سائقا لسيارة أجرة مدة خمسة وثلاثين عاما ، وأعرف ما يكتنف هذا النوع من العمل من سيئات ومتاعب كثيرة . ان سائق السيارة لا بد أن يكون على شىء كثير من الخشونة والصلابة ، وأن يكون قادرا على ضوضاء المرور وقسوتها فى المدن الكبرى ثمانى ساعات فى كل يوم على الأقل ، ومن هنا كان اعتقاد الناس فى رداءة هذه الطبقة اعتقادا خاطئا ظالما ، لأن سائقى سيارات

الأجرة ليسوا الا بشرا كسائر البشر ، بل ان أغلبهم قوم أمناء شرفاء . انك تقرأ فى الصحف كل أسبوع عن أموال أو ودائع عثر عليها فى السيارات ثم ردها السائقون الى أصحابها . فلو لم يكن سائق سيارة الأجرة أمينا،لما قام برد ما عثر عليه فى سيارته من مال أو متاع

وحدث ذات مرة فىبروكلين أن عثرت على خاتم من الزمرد فى سيارتى ، واذكر فى ذلك اليوم أنى كنت قد حملت فى عربتى سيدة معها عدد كبير من اللفائف ، وكان على أن أرد لها هذا الخاتم فتتبعتها ، وكلفنى اقتفاء أثرها مجهود يومين حتى عثرت عليها . ولم ألق على ذلك شكرا ، ولكنى كنت بعملى هذا أسعد حالا منها

لقد ولدت ونشأت فى أيرلندا ، وعشت فيها حتى بلغت سن التاسعة عشرة .. وجئت الى هذه البلاد فى عام ١٩١٣ حيث زاولت أعمالا كثيرة مقابل عدد ضئيل من الدولارات فى اليوم ، قبل أن اتطوع للخدمة فى الحرب العالمية الاولى . وما أن انتهيت منها حتى اشتريت لى سيارة ، وقد ظللت منذ ذلك الوقت أمتلك لنفسى سيارة . ولم يكن هذا العمل سهلا فى بعض الأحيان ، ولكن زوجتى كانت تدبر شئونى المادية ، فادخرت منه ما يلزمنا فى أوقات الأزمات

ولم تصادفنى ابان السنين الطوال التى عملت فيها سائقا، أية متاعب من جانب الجمهور ، ولست أستثنى من ذلك مدمنى الخمر ــ ذلك لأنى حرصت على أن أكون رقيقا حليما هادىء الأعصاب حتى مع المتعنتين . وطالما سألنى الناس عما يجود به الركاب من « بقشيش » يضاف الى الأجرة فأقول أن الذى أعرفه فى هذا الصدد هو أن كل راكب تقريبا يعطيك شيئا ، ذلك أن معظم الأمريكيين على شىء من الكرم ، وأنا أحاول على الدوام أن أكون رقيقا فى معاملة كل انسان سواء أعطانى هذه الهبة أو لم يعطنى اياها . وأنا شديد الايمان بالله

واحاول دائما أن أكون عضوا صالحا فى المجتمع وأعامل الناس ، بما يرضى الله ، معاملة طيبة . وقد دأبت على ذلك منذ زمن طويل ، ولذلك أجد الحياة كلما تقدم بى العمر ، تزداد سهولة ويسرا



الايمان خير زاد

جيريد انجرسول

تخرج جيريد أنجرسول فى برنستون ، وهو من موظفى السكة الحديدية الناجحين فى عملهم . وهو يرأس شبكة من الطرق الحديدية فى الجنوب الغربى ، وعضو فى ادارة سكة حديد بنسلفانيا وهو فى نفس الوقت مدير اتحاد صناعة الفولاذ فى الولايات المتحدة وشركة الزيت الاطلنطى ، وشركة التأمين فى أمريكا الشمالية واتحاد فلبس دودج

أشعر بمزيج من الجرأة والاضطراب ، حين أحاول أن أفصح علانية عن الأشياء التى أومن بها . . ولكننى أعتقد فى نفس الوقت أن المشاكل الانسانية تقوم على شيء من الارتباط أو التشابك فيما بينها . ولو بدأ الناس أن يقارنوا تجاربهم بعضها ببعض ، فلربما تمخضت هذه المقارنة عن عناصر مشتركة بين هذه المشاكل ، تيسر الطريق لحلها جميعا

أنا رجل سعيد الحظ ، لأنى أحيا حياة كاملة سعيدة فيما أعتقد . نعم ، أقول ذلك برغم أنه قد مرت بى فى حياتى صدمتان قاسيتان . لقد سقطت زوجتى الاولى من قمة جبل ، ذات يوم كنا نمارس فيه رياضة الانزلاق على الجليد ، فماتت . . وكان ذلك بعد ثمانية عشر عاما من حياة زوجية سعيدة . أضف الى ذلك أن ابنى الوحيد المهندس فى سلاح الصيانة قتل فى ايطاليا ابان الحرب الماضية . . ومع ذلك فلم يكن من شأن هاتين الفاجعتين أن تفقدانى صوابى ، فاستطعت أن أدخل السعادة على نفسى من جديد . ولكنى

لا اريد أن يفسر هذا باني انسان جامد العاطفة . . اذ الواقع أن هاتين الكارثتين قد أثقلتا كاهلي ، ولكن عاملين أساسيين ساعداني على الاحتمال فيما أعتقد ، أولهما أني أصبحت أنظر الى الحياة على أنها نوع من المقامرة ، وثانيهما الايمان بالدار الآخرة

واستنادا الى هذين العاملين ، احاول جهد الطاقة أن أحيا حياة كاملة .. حتى اذا ما ساء حظى لم يكن ثمة مبرر للأسف أو اتهام الظروف بأنها المسئولة عما أسرفت فيه او اضعت من وقت . أما عن عقيدتي في الدار الآخرة ، فتلك فكرة قلما استطعت أن أتبينها بشكل ملموس .. ولكنها بلغت مني مبلغ الايمان العميق الذى يسيطر على عواطف رجل من غير رجال الدين . تلك هي فكرة الايمان بالله التى لو بدا لى أن أصفها أو أن أدافع عنها استنادا الى المنطق الجامد ، لأعيتنى الحيلة . ولكن من العسير على أى انسان أن يحملنى على العدول عنها

لقد اصبحت الآن اعتقد انى مدين للحياة بقدر ما هى مدينة لى ، ولعل هذا يفسر ما أشعر به من غبطة حين احاول القيام بما يعهد الى من عمل على خير وجه أستطيعه وحين أمد يد المعونة لغيرى من الناس

وكنت ابان طفولتى مكلفا بتمهيد الارض فى الحقول ، وقد هالنى وقتئذ ان علي تنظيف هذه الحقول تنظيفا كاملا . ولكنى اكتشفت في غمرة العمل أن الجهد المضنى والمسئولية ينطويان على متعة حقيقية ، كما أن القيام بالواجب ليس من قبيل الكدح المضنى

ولست اعرف السبب الذى من أجله احب خدمة الناس . ولست اقصد بهذا تحمل التبعات العائلية أو العمل فى المستشفيات المتنقلة أو المنظمات الدينية فحسب ، ولكن تستهوينى أيضا أقل الأعمال قيمة .. تلك الأعمال التى قد

لا تكون خليقة بما يبذل فيها من وقت . ويقع مكتبى فى ميدان كبير ، ولذلك تتاح لى الفرصة من حين الى حين أن أرشد سائحا أو ازوده بشيء من تاريخ البلاد ، وهذه الخدمات ــ على تفاهتها ــ تعود على من يلتزمها بالخير الكثير . لقد عادت على أنا نفسى بأعظم خير ، بل بأكثر مما أستحق بلا شك



البشرية لم تزل فى المهد

للويد جوردان

يعمل لويد جوردان الآن طيارا فى خطوط الملاحة الجوية فى الشرق وقد كان قائد فرقة من فرق قاذفات القنابل التى عملت فى الحرب العالمية الثانية ، فحصل على اعظم الاوسمة وتزوج بمن احبها فى صباه ، ويعيش هو وزوجته وأولاده الثلاثة فى جزيرة رائعة على ساحل فلوريدا فى وسط مزرعة قديمة من مزارع جوز الهند . وهو من هواة الالعاب الرياضية : يعشق الجولف والتجديف وصيد السمك بالحراب

حدث ذات مرة ــ حين كنت أحلق باحدى قاذفات القنابل فى سماء أوروبا ــ ان آمنت بأبدية البشر . ولم تكن تلك اللمحة وليدة هزة عاطفية من نسيج الخيال المسرف ، وانما تمخضت تلك العقلية التى أرهقتها ويلات الحرب الذرية بألوان من المرارة لا حد لها ، عن حقيقة واحدة ، هى أنك « ستعرف الحقيقة وستتحرر نفسك بهذه المعرفة » . كنت أطير وقتئذ فوق جبال الألب ، ومرت فى مخيلتى ذكرى هانيبال وهو يعبر هذه الجبال . . مرت أمامى مرور السحاب تستتبعها صور من تاريخ الحروب البشرية كلها . نظرت من حولى الى الجهاز الذى يقذف القنابل والى ما أحدثته القنابل من اثر فى معالم الارض التى اطير فوقها . . فتذكرت على الفور أن هذه الحرب ان هى الا واحدة من آلاف الحروب التى كتب على البشر أن يخوضوا غمارها ، وهى مع ذلك لم تعقهم عن التقدم . فأيقنت حينئذ أن الانسان مثله كمثل

الشمس المتقدة ، والسماء العطوف ، والأرض وما عليهـا من آيات الله . . قد كتب له الخلود ، وجعلتني تلك الحرارة التى سرت الى هذا الوادى الدامي ، مقترنة بهذا الوحى المقدس ، أوقن آخر الأمر أنى هنا أجد السبيل الى لون من الوان السعادة التى كان من العسير على أن أجدها . فانظر كيف أن الحياة الموحشة التى كان كل يوم فيها يعتبر ميلادا جديدا قد لا يأتى عليه الغد ، تستحيل الى أمل جديد فى حياة مستقبلة . وتلك حقيقة اذا ما نبتت فى تفكير الانسان لا بد أن تخلق له دنيا أخرى يستطيع الحياة فيها . على ان هذا الوحى الذى شعرت به أخيرا ، لا بد وأن يدركه أولادى عن طريق غير طريق المصادفة ، لأنى طالما علمتهم ما كتب للانسان من خلود بالاضافة الى آيات الله التى تحيط بنا فى السموات والأرض . . تلك الآيات التى ابدعها الفنان الأعظم، من تصوير للسماء فى مشرق الشمس ومغربها ، ومن الوردة ذات العبير العبق ، ومن الروح البسيطة التى تندس فى ميلاد حمل جديد ، ومن الجبال الشامخة التى كساها الثلج لونها الارجوانى ، ومن البحار التى تخفى فى أعماقها عوالم أخرى وتخفى عنا أشياء لا حصر لها ولا عد ومن النجوم التى تتلألأ فى كبد السماء وهى تبعد عنا بملايين الأميال

لقد تعلم أولادى أن هذه الأشياء من صنع الله ، وأنهـا أبدية كالموسيقى واللوحات الفنية التى يسر الله لنا أسبابها لتكون رمزا لخلود أساتذة الفن الكبار الذين أبدعوها

ولكن أولادى سألونى قائلين : « لقد قيل لنا أن القنبلة الذرية تقضى لا محالة على العالم القضاء الأخير . اليس كذلك ؟ »

انى أستطيع الآن أن أحدثهم ، عن أبدية الانسان ، حديثا قويا مؤمنا ، فأقول :

ــ لقد قال الناس ذلك يوم اختراع الرمح ، ثم قالوه ثانية عندما أبدعوا القوس والسهم ، وثالثة حين اخترعت البنادق

والرصاص والطائرات والقنابل ، ولكن هناك من فوق هذه القوى الهدامة كلها ، قوة تفوقها جميعا .. وهى السبب فى بقاء الناس على سطح الأرض حتى الآن أكثر عددا وأصح بدنا ، وذلك بفضل ما أوتينا من علم ومعرفة لم يتح مثلهما من قبل ، فتذرعوا بالصبر يا أولادى على الرغم من هذه المآسى

وسأقول لهم أيضا : « ان البشرية يا أولادى لم تزل بعد فى المهد طفلة مثلكم ،ان عمر الأرض ملايين من السنين لا نعرفها، فى حين ان عمر الانسان نحو ستة آلاف سنة لا أكثر . ان البشرية ما زالت فى دور النمو بالقياس الى الحياة على سطح الأرض ، ويمكن لنموها ان يقارن بنموكم .. انها مثلكم ومثل اطفال الجيران : تتحاورون وتتقاتلون ، ولكنكم قد تتجاوزون عن ذلك وتعودون الى اللعب والمرح والعمل من جديد معا ، وكلما نضجتم قل نضالكم بفضل ما أوتيتم من ذكاء .. وتلك صورة من هذا العالم »

وأنا اذ أورد هذه الحقائق لأولادى ، أدعم ايمانى بمستقبل البشرية بثقتى فى طيبة قلب الانسان ونقائه ، كما أعتقد فى خلود روحه،وأنه جدير بأن يتبوأ مكانه الحق تحت الشمس، لأنه مطبوع على صورة من صور الله . انى أومن مخلصا بكل هذه الحقائق .. ولكن أهم من هذا كله ، ايمان أولادى بها ، لأنهم ومن فى مثل عمرهم يعتبرون الفئة التى يتألف منها سلام الانسان وسعادته فى المستقبل

كل يوم .. وحى جديد

لأندريه كوستلانيتز

اندريه كوستلانيتز اسم من الاسماء التى تحمل معانى كثيرة عند كثير من الناس . فهو فى نظر جمهور كبير من محبى الموسيقى فى أقصى الارض ، خير من يستمع لاسطواناته الفونوغرافية ، أما المحاربون فى الحرب العالمية الثانية فكانوا يرون فيه خير منظم ومدير للأوركسترا فى كل جبهة من جبهات القتال بين المانيا والباسفيك ، وفى نظر رواد الحفلات الموسيقية فى كل مكان ، كان كوستلانيتز دائما ولا يزال فى طليعة من يديرون الاوركسترا ، وهو رجل فياض بالحيوية يعشق الادب والفن والرياضة والفلسفة ، ولكن الموسيقى هى المهمة الاولى التى أخذت بلب هذا المؤلف الموسيقى الروسى المولد .

حدث فى يوم عيد القيامة من عام ١٩٤٥ وهو آخر أعوام الحرب أن كنت أنا وزوجتى فى مرسيليا ، وكنا قد سافرنا اليها طلبا للراحة أربعة أيام . وذلك عقب عودتنا من بورما ، حيث كنا نرفه عن الجنود ... لقد كان يوما رائعا حقا متألق الضياء ، ولكنه لم يكن شديد الدفء . لم يكن هناك سائحون بالطبع ، فقررنا السفر بالسيارة عبر « الريفييرا » الى البندقية حتى نلتقى بفنان يدعى ماتيس ، ولم يسبق لنا أن قابلنا هذا الفنان ، ولكنا كنا نعرف جيدا ولده بيير فى نيويورك

الفينا ماتيس يعيش فى بيت متواضع ، تطل حديقته المزروعة بالخضر على منظر فخم رائع من المناظر الطبيعية . ووجدنا فى احدى غرفه قفصا مليئا بمجموعة من الطيور الثائرة .

وكان المكان مزينا بلوحات فنية أغلبها ــ فيما يبدو ــ من النوع الجديد،وقد أخذتني الدهشة مما انتج من ألوان النبات

فسألته قائلا : « انى لك بهذا الايحاء ؟ »

فأجابني : « انى أزرع الخرشوف »

ولقد ابتسمت عيناه حين رأى دهشتي،فاستطرد قائلا :

« انى أذهب الى الحديقة فى صباح كل يوم ، فأراقب هذه النباتات وأرى أشعة الشمس والظلال على أوراق النبات . ومن ثم أستطيع الكشف عن مجموعات جديدة ، ونماذج غريبة من الألوان أعكف على دراستها .. ذلك هو مصدر ايحائى بالفكرة التى اهرع الى « الاستديو » لتصويرها »

لقد نالت من نفسى هذه الفكرة التى صدرت عن رجل ، لعله أشهر مصور فنان على وجه الأرض اليوم .. لقد قارب الثمانين ، فكان من الطبيعى ــ فى نظرى ــ أن يكون قد رأى أية مجموعة نباتية يمكن تصويرها من الذاكرة،وقد انعكس عليها الضوء والظل .. ولكنه ، مع ذلك ، كان يتلقى فى كل يوم وحيا جديدا نتيجة لانعكاس أشعة الشمس على الخرشوف. فكان ذلك مددا يزود جهاز عبقريته بطاقة فياضة لا تنفد

ولقد أخذتني الدهشة ، فصرت أفكر فيما كان يفعل ماتيس لو أنه لم يذهب الى الحديقة كل صباح . ولكنى ادركت على الفور أن هذا الاعتكاف ليس من طبيعته . قد يبنى بعض الناس حائطا حول نفسه،يحول بينه وبين الضوء ، ولكن ماتيس ليس من هذا النوع .. فانه يخرج ليرى العالم، وليكتشف ما فيه ، حتى اذا ما كشف عن شىء استساغه وتشربه . ولكونى موسيقيا ارى أن الايحاء أمر حيوى بالنسبة لى ، ولكنى أجد من العسير حصر مداه وتحديده . انه شىء أعظم من احساسك بالحب . وعندى أنه يحمل معنى الكشف ، بل هو عاطفة جامحة تستهدف شيئا جديدا .. ثم هو يحمل معه قدرا من النظام وضبط النفس،

مضافا اليهما ما يشعر به الانسان من قلق يجعله يثور على الأوضاع القديمة المألوفة

على أن هذه القدرة تثير فيك الدهشة البالغة التى تستهدف تفسير ما تراه من ظواهر،مردها الى سلطة أسمى من متناول الانسان . وهذا هو نفس شعورى حيال الطبيعة، التى توحى الى بكل ما أقوم بانتاجه وابتكاره . وثمة أشياء كثيرة فى هذا الكون أرانى عاجزا عن فهمها .. مثال ذلك ؛ عجزى عن فهم التفسير العلمى الدقيق ، لقدرة الناس على سماع أصواتنا وادراك كلماتنا ورؤية أشخاصنا. أو عجزى عن فهم التليفيزيون وما ينطوى عليه اختراعه من اعجاز

والواقع أن مثل هذه المخترعات وما يشابهها كانت منذ سنين قليلة من الخوارق التى يقصر دونها التفكير . وقد يكون سبب الحياة غامضا بالنسبة لى،ولكن ليس معنى ذلك أنه لا يوجد سبب للوجود . ان مثلى هنا كمثل ماتيس والخرشوف ، ذلك أنى أستطيع النظر الى هذا العدد غير المحدود من الأضواء والظلال التى تتراءى فى ثنايا مقطوعة موسيقية ، كما أستطيع أن أدرك ما تنطوى عليه من حقيقة

احترام كرامة الفرد

للسيدة جون لى

السيدة « جون لى » سيدة انيقة الطلعة متموجة الشعر . وهى ام لاربعة أولاد وجدة صغيرة لطفلين اثنين ، وهى تنتقل اسبوعيا من بيتها فى فارمنجتون بولاية كونكتكت لمزاولة عملها بوصفها رئيسة اتحاد النساء الناخبات فى الولايات المتحدة . اما زوجها فمهندس لاسلكى بحرى متخصص فى الطيران الحربى ، وهو يرى ان احد اعضاء الاسرة يجب أن يخصص جهوده للون من النشاط السلمى

لا مراء فى أن والدى هو الشخصية التى كان لها اكبر الأثر فى حياتى . كان مخترعا وعالما وذا عقلية محبة للاستطلاع . لقد شغف حبا بجمال الطبيعة وما ينطوى عليه من انسجام سيطر على مشاعره الى أقصى حد . كان يؤمن بالناس ، وكان هو نفسه رجلا امينا . وكانت روح المرح عنده طاغية، وكان عطوفا رحيما ، كما كان نشاطه متدفقا لا ينضب له معين . سأله احد الناس يوما ، كيف توصل الى اختراعه الجهاز المعروف باسمه — لتجنب الضوضاء ، فأجابه قائلا : « لقد اهتديت اليه عن طريق الانصات لخرير المياه ، وهى تنساب فى الماسورة »

تلك هى العملية البسيطة التى كشفت لى عن أفق واسع للتأمل والتفكير ، انتهى بى الى ايمان راسخ بأن العقلية البشرية لا ينبغى أن تخضع لحدود ، وأننا نستطيع — باستخدام هذه العقلية البشرية — أن نمضى قدما نحو

فهم حقيقة الانسان ، والكون الذى يحيط بنا . ومن شأن هذه المعرفة أن تحقق انسجاما أقوى بين الانسان والبيئة التى تحيط به،ولا ريب أن هذا هو الطريق لخلق عالم أفضل تطيب لنا فيه الحياة

أذكر بعد ذلك أنى كنت أجلس معه على ظهر سفينة فى ليلة من ليالى سبتمبر .. كانت السفينة راسية فى خليج صغير ، وكان النسيم رقيقا مشبعا ببخار الماء . كنا وقتئذ نستطيع أن نتبين تلاطم الأمواج فوق قطعة صغيرة من الأرض .. وكانت النجوم لامعة ، وكنا نشاهد بين الفينة والفينة شهابا منيرا يمرق فى سرعة عجيبة عبر السماء . وكان أبى شديد الولع بعلم الفلك ، فسرى تفكيرى فى آفاق لا نهاية لها .. وأحسبنى استطعت أن أفهم عن هذا الطريق، انه لا بد من وجود قانون ونظام فى هذا الكون

أجل .. ان الانسان ليستطيع أن يلاحظ ـ بل هو قادر فعلا على الفهم ، وعلى تطبيق ما يفهم ـ وانما ينصرف هذا التطبيق الى خدمة الصالح العام . ولست أقصد الصالح العام لفرد أو لفئة قليلة ، كما أننى لا أقصد الهدم ، وانما أقصد البناء من أجل البشرية قاطبة . ولقد امتاز كل من أبى وأمى بضمير اجتماعى يقظ ، وكانا يؤمنان بأنهما رزقا من حسن الحظ قدرا موفورا لم يتح لغيرهما ، ومن ثم نبتت عندهما فكرة القيام بواجباتهما ، كل فى دائرته الاجتماعية . ومن هنا كان ايمانى الشديد بأنه يجب على أن أعطى أكثر مما آخذ ، وأن الحياة التى تبعث على القناعة يجب أن تقاس بما تقدمه للناس من نفع

وانى لأذكر ذلك النقاش الذى دار بيننا فى المنزل ، ومبلغ تأثيره على نفسى . لقد استعرضنا حينئذ مختلف الأفكار ، كما فندنا ضروبا مختلفة من الأهواء . واستنرنا بآراء

جهابذة الفكر فى تصدينا لعلاج كل مشكلة من مشاكل هذا العصر . ومن ثم علمت أن لكل فرد كامل الحق فى التمسك بمعتقداته ، وأن الهوى من شأنه أن يباعد ما بيننا وبين الحقيقة ، وأن العنف ، وان طال به المدى ، لن يجدينا نفعا ، ومن هنا ، وعن هذا الطريق ، آمنت بأن الناس فى كل مكان ، يجب عليهم أن يقيموا أواصر التعاون فيما بينهم ، مستهدفين غاية واحدة ، هى النهوض بأحوال البشرية

وفى اعتقادى أن ثمة مبدأ من أسمى المبادىء الباقية على الأيام ، وهو فى حد ذاته قانون أخلاقى فعال . ذلك المبدأ ، هو احترام كرامة الفرد بوصفه عضوا فى البشرية . واستنادا الى هذا المبدأ ، ينبع الشعور بالتضحية من أجل الصالح العام

وعنـدى أننـا لو ربطنا بين كافة الأفكار السابق بيانها ـ وهى رغم بساطتها الظاهرة أفكار جوهرية أساسية ـ ثم تعهدناها بأمانة وصـدق ، فانا لن نواجـه حينئذ أية عقبات تقف بين الانسان وبين السمو الذى لا يدرك مداه



انى أومن بالناس

لديفيد لوث

عمل « دافيد لوث » عشرة أعوام محررا فى جريدة نيويورك وورلد القديمة ، وسبعة أعوام فى جريدة نيويورك تيمس الجديدة . وفيما بين ذلك كان محررا وناشرا لاول صحيفة أسبانية تصدر باللغة الانجليزية . وقد الف عدة كتب فى التراجم والتاريخ

وهو يقول انه مدين بكتبه وأسفاره الكثيرة لاهتمامه العظيم بالناس .. وهو يعيش اليوم فى وادى نهر هدسون على مقربة من مدينة نيويورك حيث يجمع بين الكتابة وهواية فلاحة البساتين

انى أومن بالناس.. ومهما يكن من أمر الفوضى التي يبدو أننا حولنا العالم اليها ، فان النـــاس هم الذين حققوا كل التقدم الذى نعرفه . ولست أعنى التقدم المادى وحسب . لقد تبلور كل ذلك وتم الاعراب عنـــه على أيدى الرجال والنساء . ويبدو لى حتى حينما يقترف الناس الأخطاء أنهم انما يرتكبون تلك الأخطاء نتيجة لدوافع طيبة . وأعتقد أن الكثيرين منا يريدون أن يكونوا خيرين

انى أومن بالناس لأني رأيت كثيرين منهم فى مختلف انحاء العالم .. وانى أفضل أن أثق بتجاربى الخاصة وملاحظاتى، أكثر من ثقتى بتلك الملاحظات الجافة الساخرة ، الصادرة من قوم أشقياء . ولم أفد من ايمانى هذا حياة « سعيدة » فحسب ، ولكنه يسر لى كذلك أسباب القيام بأى عمل من الأعمال المفيدة التى نهضت بها . وطبيعى أننى أحب الناس

كذلك .. وقد يسر لى عملى فى الصحافة أن أقابل فى غضون عشرين عاما فى هذه البلاد – وفى أوروبا واستراليا – نماذج عديدة من الرجال والنساء ، وأن أراهم فى خير الظروف وأسوئها . ويسر لى اشتغالى بكتابة التراجم أن أعرف أن أهل العصور الماضية لم يكونوا يختلفون كثيراً عما نحن عليه اليوم . وأن الدرس المستفاد من التاريخ – التاريخ المدبر ، والتاريخ الذى نعده ونهيؤه – هو أن غرائز البشر خيرة فى أغلب حالاتها ، وفى وسعك أن تثق بها

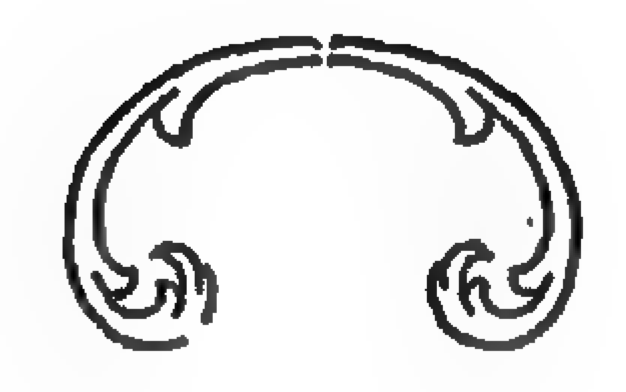
وقد تكون معلومات البشر خاطئة وقد يكون تفكيرهم سيئا ، ولكن احاسيسهم بريئة سليمة .. ومن هنا يكون الرقى

لقد عشت فى اسبانيا فى الوقت الذى سقطت فيه الملكية عام ١٩٣١ ، وسمعت هناك لأول مرة عن اقامة جمهورية جديدة ، عندما اقبلت طاهيتنا من السوق تروى لنا النبأ بأنفاس متقطعة . وكان أول تعليق لها،يعبر عن أهم ما يجول فى ذهنها ، هو ما قالته وهى تمد بصرها فى زهو : « سيدى ، سيتعلم أطفالنا الآن كيف يقرأون ويكتبون » لقد كان شيئا رائعا أن نرى اناسا تحدوهم هذه المثل العليا،ويقومون بثورة سلمية لا تراق فيها قطرة من الدماء

وعلى الرغم من أن الثورة المضادة كانت مريرة قاسية ، فان هذا لم يغير من الحقيقة الواقعة .. وهى أن أفراد الشعب انفسهم كانوا فى غضون سنوات النهضة هذه ، ينطوون على الرقة واللطف والتسامح

ولست أعرف شيئا يمكن أن ينهض دليلا على ما ينطوى عليه البشر من روح قدسية أكثر من اهتمام الصحافة بالآثام والشرور . وبوصفى صحفيا ، فقد كنت أوثر على الدوام ان أتحرى قصص العنف والجريمة والخيانة لأنها مشاكل

غير عادية . وقد حدث أن كتبت ذات مرة قصة حادثة من حوادث الفساد السياسي فى أمريكا ، وبعد سنوات من البحث والتحرى والتحقيق كان على أن أعزو هـــذا الفساد الى اقل من واحد فى المائة من رجالنا العموميين . ولقد أدى بحثى الى أن أكون على صلة من الناحية التاريخية بعدد أكبر من الرجال الأمناء



الايمان بالعمل يحقق السعادة

لجو ميكل

ولد جو . ج . ميكل فى تكساس ، ودرس فى جامعتي مينوديست الجنوبية وكولومبيا . وهو رئيس لكلية لويزيانا فى شريفبورت منذ عام ١٩٤٥ ، وميدان اختصاصه الرئيسى هو التاريخ والعلوم السياسية ، وان ظل طوال عشرين سنة يدرس المواد التجارية فى جامعة كوانسي جاكوين اليابانية . وقد راقب خلال اقامته باليابان مراقبة دقيقة انتشار الروح الديكتاتورية فى تلك البلاد فيما بين عامي ١٩٣١ و ١٩٤١ فكشفت له تلك الدراسة عن طبيعة الحكومات الدكتاتورية ، وضاعف اهتمامه بالأنظمة السياسية الدولية

يجب على أن أعلن على رؤوس الأشهاد أن ذنبى هو التفاؤل البعيد المدى .. ذلك أنى أحب أن أستعرض التقدم البشرى بحساب القرون ، لا بحساب السنين . ولست أومن بأن التقدم يجرى على نسق آلى ، كما أن تفاؤلى لا يعفينى أبدا من الاحساس بوجوب الالحاح فى العمل لتحسين أحوال البشر .. بيد أن نظرة طويلة متأنية الى الوراء لأحوال الجنس البشرى تجعلنى أكثر تفاؤلا

ومعنى هذا أننى متحمس للحياة .. وقد أثر عن هنرى تشيستر قوله : « الحماسة أعظم رصيد فى العالم .. وهى الايمان بالعمل لا أكثر ولا أقل »

وعندى أن أكثر الناس استعصاء على الفهم ، هو ذلك الانسان الكثير السأم . ومع ذلك فانى التقى فى كل يوم

بأولئك الذين يبدون لى وكأنهم موتى حيال الحياة وأمام تحديها

ان مناحى الحياة البهيجة لتبلغ من الكثرة حدا لا أستطيع أن أتصور معه كيف تبدو متعبة أو مملة . وكم أتمنى أن تكون لى حيوات متعددة .. واحدة لكل نشاط مختلف عن غيره . وعندى أن الحياة لذيذة جدا بحيث أن التحمس لها امر طبيعى . وانه لمن يمن الطالع ان عملى كان من الضخامة بحيث أصبح خليقا بحماستى الكاملة»أى «بايمانى بالعمل» . ولكن عندى أن التفاؤل والحماسة يمكن أن تكون جذورهما عميقة ونشاطهما مستمرا متصلا ، اذا نبعا من احساس باطنى وشعور خفى بوجود الله واليقين بأن قوته سبحانه وتعالى ذات أثر عظيم فعال فى الوجود . ولقد كان المزمور التاسع والثلاثون بعد المائة من مزامير داود وحيى وشعارى لأنه يعبر عن هذا الايمان ، اذ يقول : « لقــد بحثت عنى يا الهى وعرفتنى ، ولو أننى اتخذت لى أجنحة من ضــوء الصباح ، وجعلت أعمق أعماق البحر مسكنى فسترشدنى يدك وتقودنى حتى هناك »

هــذا الايمان يجعل الحياة أكثر تنظيما وبساطة وأقرب الى الكمال

والشكران كذلك ، هو « ايمانى بالعمل » فانى جد شاكر للأجيال المنصرمة التى أدت ثمن التقــدم البشرى ، وانى لأحاول الا أمر على هذه الاجيال العظيمة مر الكرام باللغو .. فانى أشعر بامتنان حى لا ينقطع ولا يزول لأولئك الذين قدموا لنا بما تحملوا من آلام كثيرة ، حرية أعظم ، ووهبوا لنا مطامح أوسع أفقا وظروفا للحياة أوفق وأنسب . ولكم أحب أن أرجع الزمن القهقرى لأتمكن من دراسة حيــاتهم وألوان كفاحهم

كذلك أنا ممتن وشاكر لأهل جيلى،وبخاصة لأولئك الذين امتازوا بمواهب تفوق مواهبي وتختلف عنها ، أولئك الذين كانوا يواصلون العمل من النقطة التى يقف عندها غيرهم ، والذين يواصلون السير صوب ذلك الهدف الالهى البعيد الذى تتحرك صوبه الخليقة قاطبة .. غير أن عاطفة شكرانى لأهل جيلى ولأهل الاجيال السالفة لا يمكن أن تكون كاملة ، من غير أن أرفع وجهى الى السماء بين الفينة والفينة،لأقول : « شكرا لك يا الهى »

والواقع ــ فيما يتصل بى على الأقل ــ أن عاطفة الشكران تجد تعبيرها الأول والأصيل فى هذه الصورة ، ومن هناك ، أحب أن تفيض فى الخارج وتغمر رفاقى فى الانسانية مهما اختلفوا فى العنصر أو اللون أو الدين أو المواهب

لقد عرفت طفلة فى اليابان فى الرابعة من عمرها .. وقد طلبت فى نهاية يوم قضته فى اللعب مع صديقاتها الامريكيات واليابانيات ، أن يؤذن لها بتلاوة صلواتها بألفاظها الخاصة . ثم قالت : « شكرا لك يا الهى من أجل هذا اليوم البهيج » ثم ترددت برهة وهى تفكر فى العبارة التالية ، ثم قالت باخلاص ليس بعده اخلاص ، موجهة عباراتها لله : « وأرجو أن تكون قد سعدت انت أيضا بوقت طيب »

وهذا الدعاء يدل على الشكر ما دام صادقا ، ويجب أن يكون وثيق الصلة بتصرفات الحياة وأوجه نشاطها . انه لشاكر صادق ذلك الذى يتوجه الى الله بهذه العبارة « أرجو يا الهى أن تكون راضيا عن تصرفاتى فى هذا اليوم »

الانسان لا يمكن تحطيمه !

لويليام ل . شيرر

ويليام ل . شيرر مراسل صحفي ومعقب على الأنباء في الاذاعة ، ومؤلف عدة كتب ، وقد ظفر بدرجات علمية ودرجات شرفية كثيرة

ولقد سافر الى الخارج في عام ١٩٢٥،لكي يقضي شهرين فقط .. ولكنه بقي أكثر من عشرين سنة . وكانت باريس ولندن وفينا وبرلين وأسبانيا بعض الاماكن التي استدعته مهامه للاقامة فيها

من الصعوبة في هذه الأيام الشديدة الضوضاء ، الكثيرة الاضطراب والقلق ، المحطمة للأعصاب ، أن تظفر براحة العقل لحظة لكي تفحص وتتأمل الأشياء التي تؤمن بها . والواقع أن الوقت والفرصة المتاحين لمثل هذا التفكير ضئيلان جدا ـ على الرغم من أن حياتنا متوقفة على هذه الأشياء ـ وبدونها ، أي بدون معتقداتنا ، ما كان لنا اليوم أن نطيق وجودنا الانساني

ونظرتي الشخصية للحياة ، هي ـ كنظرة كل من عداي ـ نتيجة لتجاربي الشخصية . وثمة تجربتان ، عاونتاني ـ بصفة خاصة ـ على تكوين معتقداتي .. تجربة حياتي وعملي في ظل نظام دكتاتوري ، ووقوفي على ملامح خاطفة للحرب

أما معيشتي في بلد دكتاتوري ، فقد علمتني كيف أغالي في تقدير نفس الأشياء التي رفض الحاكمون بأمرهم الاعتراف

بها لشعوبهم .. كالتسامح ، واحترام الآخرين ، واحترام الروح الانسانية بوجه خاص

واما ظروف الحرب التى شاهدتها ، فقد ملأتنى بالدهشة .. ليس فقط من شجاعة الانسان واستعداده للتضحية ، وانما كذلك من ارادته الرائعة العنيدة فى سبيل الاحتمال والبقاء والسيادة ، على الرغم مما يحيط به من آلام ومظاهر للوحشية لا يمكن تصديقها . واذا انت رأيت أناسا من المدنيين ، وقد ألقيت عليهم القنابل من الطائرات المغيرة ، او شاهدت أولئك الذين كابدوا أفظع من هذه الآلام ، بأن حشروا مثلا فى معسكرات الاعتقال ، واجبروا على العمل فى معسكرات السخرة .. اذا قدر لك أن تراهم بعد نجاتهم من هذه المحن المليئة بالرعب والتعذيب ، وهم لا يزالون محتفظين بكيانهم كآدميين وقد امتلأوا عزيمة على السير قدما وافعموا ايمانا بأنفسهم ، وبرفاقهم فى البشرية وبالله سبحانه وتعالى

اذا انت رأيت ذلك ، فستتحقق من أن الانسان يستحيل تحطيمه والقضاء عليه . ولسوف تقدر كذلك كيف أن الانسان استطاع بصعوبة خارقة ـ على الرغم من فساد الحياة وقسوتها ـ أن يحفظ على نفسه فضائلها العظيمة ، من محبة وشرف وشجاعة وتضحية ورأفة ، ولسوف تحس بقدر غير يسير من الفخار لأنك عضو فى الجنس البشرى .. ولسوف يتجدد ايمانك برفاقك فى البشرية

وطبيعى أن هنالك اياما كثيرة ـ فى عصر القلق هذا الذى نعيش فيه ـ يشعر فيها المرء بانهياره وفقدانه للشجاعة الى حد كبير . ولقد اهتديت شخصيا الى العزاء فى مثل هذه الأوقات بوسيلتين اثنتين . الأولى الاتعاظ بدروس التاريخ ،

والثانية نشدانی من جديد حياة ملؤها الرجاء والأمل

مثال ذلك أن أذهب الى الماضي لكى أطالع تاريخ بلوتارك.. أنه يذكرنى بأنه ـ حتىفىأيام الاغريق والرومان الذهبية،تلك الأيام التى نستمد منها أروع ما فى حضارتنا الراهنة ـ كان يوجد كثير مما نأباه ولا نطيقه فى حياتنا اليوم .. كالحرب والنزاع والفساد والخيانة والغش والنفاق والتعصب والاستبداد واثارة الرعاع . وهكذا فان قراءة التاريخ تصور لك المآسى على حقيقتها ، وتساعدك على أن تنظر الى متاعبك نظرة نسبية ، وعندئذ تهون عليك تلك المتاعب

وانی لأجد آخر الأمر أن أعظم قسط من السعادة الحقة انما ينبع من حياة المرء الداخلية ومن حالة عقله وروحه ، ويمكن القول ، بصراحة،انه من الصعب تحقيق حياة داخلية سليمة ، وبخاصة فى هذه الأيام العصيبة . أن مثل هذه الحياة تتطلب من المرء التأمل والتفكر وأخذه نفسه بنظام دقيق . كما يجب على المرء أن يكون أمينا مع نفسه .. وليس هذا بالأمر اليسير،اذ يستلزم أن تكون صبورا واسع الادراك عظيم الاعتماد على الله

غير أنها مكافأةسخية تلكالتىيحصل عليها المرء لقاء ظفره بسلام داخلى لا تقوى على زعزعته أية عاصفة أو أى حدث من أحداث الزمان وكوارثه

لم أكف عن الايمان

للسيدة ايفا د . ساكل

ايفا د . ساكل شابة شقراء مرحة من مواليد براغ في تشيكوسلوفاكيا ، وبعد أن تعلمت في مدرسة ابتدائية تشيكية ودرست في مدارس ثانوية ما بين المانية وفرنسية ، التحقت بكلية انجليزية واستطاعت أن تلم بست لغات . وهي تهوى الاسفار ، وقد طوفت بمعظم بلاد اوروبا وآسيا وامريكا الشمالية . ولقد جعلت منها انطباعاتها الشخصية ومغامراتها وروح المرح عندها كاتبة ومحاضرة ممتازة

أعتقد أنه من الأمور الحيوية الهامة أن ينشأ الانسان وهو مؤمن بالخير ايمانا ثابتا لا يتزعزع . ولقد كنت موفقة من هذه الناحية . فوالداى لم يقتصرا على تهيئة بيت سعيد لى ، ولكنهما كذلك استطاعا أن يمكناني من أن أتعلم ست لغات وبذلك يسرا على السفر والتنقل فى البلدان الاخرى . وكنتيجة لذلك اصبحت أشد تسامحا وأوسع أفقا ، كما ساعدنى ذلك على تجاوز صعوبات جمة واجهتها فيما بعد

فلقد غادرت أنا وزوجي ، بعد زواجنا بقليل ، وطننا الأصلى تشيكوسلوفاكيا قاصدين الصين للاقامة في شنغهاى ، وكانت مدينة دولية بكل ما فى هذه الكلمة من معنى .. فالناس من كل الأجناس والأديان يعيشون هناك ويعملون جنبا الى جنب . كان هناك الأخيار والأشرار كما هو الحال فى كل مكان ، ولقد الفيت الكثرة الغالبة منهم أخيارا رحماء ، ولكن المرء لا يستطيع أن يكون على الدوام مطمئنا هناك ..

لأن الكثيرين لا يفصحون عن نواياهم الحقيقية علانية . وكثيرا ما يصعب على المرء أن يضرب على الوتر الذي يحصل منه على استجابة منسجمة. ولكننا استطعنا العزف على تلك الأوتار عندما تعلمنا اللغة الصينية ، وفى مقابل ذلك علمنا الصينيون الكثير من فلسفتهم فى الحياة

□

وفى عام ١٩٤١ اكتشف الأطباء فى شنغهاى اننى مصابة بمرض السكر ، على الرغم من أننى لم أكن حينذاك قد جاوزت العشرين من عمرى . ولقد كان هذا النبأ صدمة مروعة ، لأنه لا شفاء من مرض السكر وان كانت السيطرة عليه ميسورة بالأنسولين . وعلى الرغم من أن هذا العقار لم يكن يصنع فى الصين ، فقد كان ميسورا استيراد كميات كبيرة منه من الخارج . وأعاننى ذلك على أن أواصل حياتى العادية فى جو من السعادة

ثم ألقيت القنابل على ميناء « بيرل هاربور » واحتل اليابانيون شنغهاى وانقطع استيراد الأنسولين . ولم يمض الا القليل من الوقت حتى أصبح الموجود منه غير كاف للمصابين بمرض السكر . ولقد كنت أتبع نظاما فى الأكل يكاد يكون هو الجوع والحرمان ، لكى أهبط بحاجتى من الانسولين الى أضأل قدر مستطاع ، غير أن مواردى الضئيلة منه سرعان ما تلاشت . ولقد مات بالفعل كثير من مرضى السكر ، وأمست الحال باعثة على القنوط .. ولكننى طوال هذه المحنة لم أكف قط عن الايمان بأننى ــ بمعونة الله ، وبمحبة زوجى وعنايته ــ ستكتب لى الحياة

وهكذا واصلت التدريس بالمدارس الصينية . وامتلأت شجاعة بفضل ايمانى وبفضل الجهد المتصل الذى

بذله زوجى فى سبيل بدء انتاج الانسولين فى تلك البلاد . فقد جيء ببنكرياس الثور ، وبدات محاولة انتاج الانسولين فى معمل صغير ، ولن أنسى اليوم الذى أعطانى فيه زوجى أول حقنة من الانسولين الجديد ، الذى نجح عندما حقنت به الأرانب . ولقد اسفر حقنى به عن نجاح كبير ، وفى وسعكم أن تتصوروا مبلغ سعادتى وراحة بالى بعد هذا النجاح

ولكن كانت هنالك أشياء أخرى تثير القلق .. فهنالك الأمراض الاستوائية، والتضخم النقدى والاحتلال العسكرى اليابانى . أجل ، وهنالك قاذفات القنابل الامريكية المغيرة من طراز ب ــ ٢٩ . ولقد حدث ذات مرة أن أصابت قنابلها محطة توليد الكهرباء ، فانقطع التيار الكهربائى عنا . ولم يكن يستطاع صنع الانسولين مع انقطاع هذا التيار .. لقد كانت هذه أوقات عصيبة حقا

وفوق ايمانى بالله ، فقد استمددت أعظم قوة لى من تلك المحبة العظيمة ، وذلك الفهم الكامل القائمين فيما بينى وبين زوجى .. ويلى ذلك العطف والمعونة اللذان لقيتهما من الأصدقاء الكثيرين من الجنسيات الكثيرة المختلفة ، ومن بينهم بعض المدنيين اليابانيين الذين عاونونا على الرغم من أن بلادهم كانت حينذاك فى حرب معنا ، كلما وجدوا المعونة مستطاعة

آلام الحياة من صنع الانسان !

للدكتور ليون ٠ ج ٠ سول

« الدكتور ليون.ج. سول خريج جامعتي كولومبيا وهارفارد واستاذ العلاج النفسى بمدرسة الطب بجامعة بنسلفانيا وقد اشرف فى غضون الحرب العالمية الثانية على برنامج مكافحة « الارهاق الناتج عن الحرب » فى قاعدة فيلادلفيا البحرية . وقد الف كتابين هامين عن التحليل النفسى ، هما : « النضج العاطفى » و « قواعد السلوك الانسانى »

أعتقد أن الهدف المباشر للحياة ، هو أن نحيا ، وأن نحاول الابقاء على النوع البشرى . وكل الأنواع المعروفة للحياة انما تطويها مراحل العمر .. وما سلم الحياة الا الميلاد والبلوغ والزواج والانسال ثم الموت . وهكذا فان الهدف المباشر للحياة الانسانية هو أن يعمل كل فرد على تحقيق أطوار حياته . وهذا ينطوى على النضوج السليم والتحول الى شخص كامل البلوغ

ان شجرة البلوط تنمو وتترعرع مستقيمة ما لم تحط بها مؤثرات ضارة . وهكذا الأمر فيما يتعلق بالجنس البشرى . وانه لاكتشاف عظيم الدلالة أن الرجل الناضج والمرأة الناضجة ، قد زودا بطبيعة وخصائص القرين الصالح والوالد السليم كما أن لهما المقدرة على التمتع بالعمل والحب المنطويين على المسئولية

ولو أن العالم كان فى الأصل مكونا من أشخاص كاملى

النضوج ، محبين منتجين ، يتحملون المسئولية تجاه الأسرة والعالم ، لأمكن حسم معظم المشاكل الانسانية .. غير أن معظم الناس قد عانوا فى طفولتهم مؤثرات عوقت تقدمهم .. ومن ثم ، لم تتكامل فى مرحلة البلوغ طبيعتهم السليمة الكاملة . انهم يشعرون أن هنالك شيئا معوجا خاطئا ، وان جهلوا ذلك الشيء . ويشعرون بضآلتهم وخيبة آمالهم واضطرابهم وقلقهم . وهم يقاومون هذه المشاعر الباطنية كما يقاومون خطرا يهددهم أو عدوا يحاول أن يفتك بهم ، وذلك بالاستعداد اما للقتال او للهرب . أما الهرب فيدفعهم الى ادمان الخمور والتردى فى غير ذلك من الاضطرابات الذهنية . فى حين أن حب القتال يدفعهم الى الجريمة والقسوة والحرب . وهذا الاستعداد للعنف والقسوة فى الانسان ضد أخيه الانسان ، هو من المشاكل الجوهرية فى الحياة البشرية ، لأنه باتخاذه صورة الحرب أصبح يهددنا جميعا بالعناء والفناء

ولولا أن الانسان دافع عن نفسه بالقتال تارة والهرب تارة أخرى ، لظل مقبورا فى الكهف والغابة . ولكن المشاهد اليوم أن الانسان قد تمكن — عن طريق عيشته الاجتماعية أن ينجو ، الى حدما ، من أذى العناصر الطبيعية ، ومن عدوان الحيوانات المتوحشة . وهو يتعلم حتى كيف يحمى نفسه ويحصنها ضد الأمراض . وهو يستطيع أن ينتج ويهيىء الطعام والكساء والمأوى بنسبة تكفى سكان الأرض الحاليين . وما لم يقع حادث فلكى خارق ، فان الانسان لا يواجه اليوم اى خطر جدى يهدد وجوده ، اللهم الا روح المقاومة التى تنطوى عليها نفسه .. ونعنى بها روح القتال او الهرب . فهذا الاستعداد الوحشى لالحاق الأذى والقتل لا يزال حتى اليوم شيئا أثريا كالزائدة الدودية .. فمحاولة حل كل مشكلة بواسطة القتال أو الهرب انما هى طريقة

بدائية ، وهى نفس الطريقة التى يعتمد عليها الغلام المراهق . أما الطريقة الثانية ، وهى طريقة التفاهم والتعاون ، فهى لا بد أن تستند الى الطاقات الناضجة للشخص البالغ الرشيد

وربما اضطر الانسان الى القتال اضطرارا طالما هو يعيش فى عالم تسيطر عليه روح الطفولة ، بيد أن مثل هذا القتال جدير بأن يكون أشد أثرا اذا سيطرت عليه قوى رشيدة لتحقيق أهداف رشيدة . والمرجح أن الحروب لن تتوقف الا اذا حفلت الدنيا بعدد كاف من الأشخاص الراشدين

□

وتنحصر المشكلة الرئيسية فى التكيف الاجتماعى والبقاء البيولوجى ، وقوام الحل الرئيسى أن يفهم الناس طبيعة نضوجهم العاطفى البيولوجى ، وأن يعملوا فى سبيل تحقيقه ، ويساعدوا الأطفال فى مجالى تطورهم صوب بلوغه

ان معظم آلام البشرية من صنع الانسان . وهى — أولا وقبل كل شىء — نتيجة لاخفاق البالغين — نظرا لمعاناتهم أهوال طفولة ناقصة مشوهة — فى تحقيق حياة ناضجة من الوجهة العاطفية . وهكذا بدلا من التمتع بطاقاتهم فى العمل والحب المنطويين على المسئولية ، نراهم يبدون بخلاء انانيين مضطربين مبددى الآمال ، قلقين ، يضمرون العداوة والبغضاء

أن النضوج هو الطريق المؤدى من الاضطراب والقلق الى سلام النفس والعيشة الراضية لكل فرد ، وللجنس البشرى بأسره

هذا ما أومن به ، وما يؤيده العلم ويزكيه .. وقد انتهيت اليه بملاحظاتى وتجاربى الشخصية .

عشت أربع مرات

للسيدة اليس طومسون

السيدة آليس طومسون ، ناشرة ورئيسة تحرير احدى المجلات الامريكية المعروفة وقد عملت لدى تخرجها في كلية « سوار ثمور » في دار النشر الصحفية المعروفة باسم « كوندى ناست » وظلت بها احدى عشرة سنة ، أسست خلالها مجلة « جلامور » وكانت رئيسة لتحريرها اكثر من سنتين

اني أعيش حياة ذات شعب أربع : فأعيش كزوجة ، وكأم ، وكعاملة ، وكفرد في المجتمع . نعم ، هذه مهام مختلفة متباينة .. ولكن تربط بينها ، برباط وثيق ، قوتان رئيسيتان : الاولى ـ محاولة الاستكشاف والفهم ، وقبول آراء أناس آخرين ، والثانية ـ ايمان بمسئوليتي تجاه الآخرين

وقد بدأت الفترة الاولى منذ طفولتي ، حينما انطلقت أنا وأبي نمثل « شكسبير » . وأبى والدى أن أقتصر على مجرد ترديد مناجاة هاملت الحالمة ترديد الببغاء ، أو أن أصنع مثل ذلك في منظر السير أثناء النوم في مسرحية الليدي ماكبث ، أو التحليل النفسي « للكاردينال وولزى » . ولقد وجهني توجيها رائعا آسرا ، وهو يساعدني على ادراك البواعث المتوارية وراء الالفاظ الشعرية

ومضى في اثارة حبي الشديد للاطلاع على أحوال الآخرين أستاذ في الكلية ، فحوله ـ بقدوته الطيبة ـ الى

اهتمام عميق واحساس بالمسئولية ، نبع ـ ليس فقط من المبادىء الدينية الجامدة ـ وانما من اهتمامى بكل ما أتلقى ، وايمانى بوجوب مواجهته فى انشراح وسرور

وأعتقد أن هذا القبول ، وهذه الرقة التى يواجه المرء بها الآخرين ، أمران لا يمكن تحقيقهما ، بدون الاعتراف بجوهر النفس الانسانية . وقد حدث فى أواخر العقد الثالث من عمرى أن بدأت أعرف غرائزى ، وكنت حرة فى مواجهتها وفى ادراك أنها ليست فريدة فى نوعها ولا هى مما يستحيل تحقيقه

والحياة الفنية السعيدة التى أحياها تقدم لى دليلا جديدا فى كل يوم على صدق فلسفتى وصحتها فى انطباقها على . وهذه الفلسفة ناجحة تماما فى الحياة الزوجية .. فالزواج الحقيقى تفاهم وقبول مستمر متصل ، يؤيدهما ويشد من أزرهما مسئولية متبادلة عن اسعاد القرين لقرينه . وفى كل يوم أسير معززة قوية لمعرفتى أننى أحب زوجى وأن زوجى يحبنى وتنطبق نفس هاتين القوتين على علاقة الأم بأطفالها . والألفاظ تعجز عن وصف الجهود التى أبذلها لفهم أطفالى ، بيد أن دينى العظيم لهم لفهمهم عنى ، هو دين عجزت فى معظم الحالات عن الوفاء به . كيف أكون مبالغة فى تقدير شاب صغير السن ، له من الخيال والعطف وحسن التفكير ما يجعله على الدوام يبعث برسالة تليفونية للاستفسار عندما يسبب التأخير عن الحضور قلقا ، وما يجعله على الدوام يعرف كيف يطمئن النفس ويهدىء من روعها . كيف يمكننى أن أفى بدين ذلك الذى انغمس فى طور البلوغ وهو بعد طرير صغير ، وحمل كل أعباء الرجولة بروح قوية ثابتة مرحة

ان عملى نفسه يعتبر توكيدا للمبادىء التى أعيش من

اجلها . ففى الباكورة الاولى لحياتى العائلية ، كنت ترسا صغيرا فى عجلة صغيرة فى مصنع هائل . وما أن هجرت عملى المتواضع حتى وجدت أمامى عالما عجيبا مخيفا . ولقد كان كل فرد فيه ينطوى على مودة سطحية. ولكن تحت ذلك السطح ، كان هناك الشك وعدم الثقة .. وكانت اليد متأهبة على الدوام لكى تسدد الخنجر فى الظهر

ولقد ظللت سنوات أحسب أننى فى عالم غاص بالوحوش البشرية .. ثم بدأت أعرف رئيس الشركة التى كنت أعمل بها ، ولم يكن لدى سبيل لمعرفة حقيقته ، ولكنه وهو فى السبعين ، كان كثير الشكوك عديم الائتمان لأحد واثقا من أن احدا لا يقول له الحق . ولقد برع فى تنفيذ خطة قوامها أن يشى كل واحد منا بالآخر . ولما لمست فساد أساليبه ، صرحت فى حماسة الشباب ، بأننى اذا قدر لى ذات يوم أن أدير عملا ، فسيكون ذلك على أسس مغايرة لأسسه

وفى غضون السنتين الأخيرتين ، اتيحت لى فرصة مراقبة الناس ــ على اختلاف نحلهم وتباينهم ــ وهم يتعلمون كيف يفهم بعضهم البعض الآخـر ، وكيف يقبل بعضهم آراء الآخرين ، وكيف يشعرون جميعا بمسئوليتهم المتبادلة

ولقد تحولت محاولاتى واخطائى ، وتجمعت متركزة فى ايمان واحد عظيم ، هو أننى لست وحدى فيما أحس به من رغبة فى الاتصال برفاقى فى الانسانية ، وأعتقد أن الجنس البشرى ينطوى على التعاون الغريزى الصادق ، وأن كل فرد يهمه أمر شقيقه فى الانسانية

كلنا نحمل الآلام

للسيدة مارتى مان

السيدة مارتى مان رئيسة الهيئة التنفيذية للجنة الوطنية لمكافحة المسكرات ، وهى ابنة احد مديرى المتاجر الكبرى بأمريكا وقد عادت الى الولايات المتحدة فى عام ١٩٢٦ بعد اتمام دراستها فى أوروبا ، فوقعت فريسة العادة المنتشرة حينذاك ، الا وهى فشيان مشارب الخمر . ولما استبدت بها هذه المحنة ، اضطرت الى أن تنقطع عن عمل كان ينطوى على آمال وضاءة مشرقة.ولم يكد يتم شفاؤها من داء ادمان الخمر فى مصحة « بلايث وود » حتى اصبحت أول امرأة عضو فى جماعة منع المسكرات

كنت واحدة من المدمنات على تعاطى الخمر ، ولكنى من السعداء الذين وجدوا السبيل الى الشفاء . حدث ذلك عندما كنت فى الثالثة عشرة من عمرى ، ولكننى لم أنس ، بل انى لأذكر كيف يصبح المرء فاقد الآمال ، اذ يقع فريسة لداء الخمر الوبيل . ولا زلت أذكر كيف كنت أبحث عن العون بحثا مشوبا باليأس .. فلما أخفقت فى العثور عليه ، أحسست بما لا زلت أذكره من اليأس

انى لأذكر السخرية والاستهتار اللذين واجهتبهما العالم، على الرغم من مخاوفى الرهيبة الدفينة..مخاوفى من الحياة، ومخاوفى من الموت . فلقد كنت فى بعض الأوقات أخشى الحياة أكثر مما أخشى الموت ، حتى لقد سعيت الى الموت مرتين . ولقد بدا لى أن الانتحار هو المنفذ الوحيد من رعب وعذاب عجزت عن النهوض بعبئهما

وكم انا اليوم سعيدة لأننى لم أوفق فى محاولة الانتحار .
ولكننى لم أكن أومن بشيء حينذاك ، لقد كنت محبوسة بين جدران أربعة مع آلامى ، اشعر بأنى وحيدة مخذولة مهجورة ، ولكننى بطبيعة الحال ، لم أكن منبوذة . والحق انه ما من أحد يعتبر منبوذا مهجورا فى هذا الوجود . لقد خيل الى اننى أقاسى الآلام وحدى .. ولكننى أومن اليوم باننى لم أكن قط وحيدة ، وأن أحدا منا ليس وحيدا ابدا .
واعتقد كذلك اننى لم اقاس قط من الآلام أكثر مما كان يمكننى احتماله وأن هذه الآلام كانت ضرورية ولازمة لى حتى تحطم الجدار القائم حول نفسى ، وتدمر وقاحتى وسخريتى وتكبرى ، وتدعنى أبحث عن العون وأتقبله

ولقد بدأت أومن بذلك وأنا رازحة فى أعمق أعماق آلامى، بدأت أومن بأن هنـــالك قوة أعظم يمكنها أن تساعدنى ، بدأت أومن بأنه من أجل هذه القوة ــ من أجل الله ــ يوجد قسط من الأمل والعون لى وحدى

وجــدت العون يوجــه الى من النــاس ، من الأطبـاء الذين تقتضيهم مهنتهم معالجة الآلام ، ومن غيرهم من الناس الذين سبق أن عانوا على النحو الذى أعانى . وفى أعماق الهوة السحيقة لمحنتى الشخصية ، تلقيت العطف والعون وحسن الادراك من أشخاص كثيرين . ولقد تبين لى أن فى وسع الناس ان يكونوا شديدى العطف . .وأصبحت أومن بهذا ايمانا عميقا .. أصبحت أومن بالناس ، وبجانب الخير الذى ينطوون عليه

وانتهى بى الأمر الى التحقق من أن معاناة الآلام مسألة يشترك فيها الناس كافة . وهذه الآلام قد تتوارى خلف كثير من الألفاظ القاسية والتصرفات الجارحة التى تجعل حياتنا اليومية عبئا لا يحتمل ولا يطاق فى كثير من الأحوال ، وقد أدركت أننى ، متى فهمت هذا ووعيته صرت خليقة بأن

أتصرف فى معظم الأحيان تصرفا مجردا من الغضب ومنزها عن الاساءة . وأدركت أننى اذا عرفت كيف أتصرف مع ذوى الأخلاق الفظة تصرفا ينطوى على العطف وحسن الادراك ؛ فقد أساعدهم على تغيير سلوكهم وتعديل تصرفاتهم . لقد أعانتنى آلامى على معرفة الكثير من حقائق الأشياء

ولست أعتقد أنه ينبغى لكل فرد أن يعانى الآلام . ولكننى أومن بأن الآلام قد تكون مفيدة ، بل وضرورية ، اذا عرف المرء كيف يتقبل هذه الآلام باعتبارها جزءا من عملية التعليم الأساسية للانسان ، واذا عرف كيف يستغل هذه الآلام فى الأخذ بيده ، وبأيدى سواه من اخوانه المعذبين

ألسنا جميعا نحتمل الآلام بطريقة أو بأخرى ؟ . ان هذه الحقيقة تملؤنى باحساس عميق من الزمالة والمشاركة مع غيرى من الناس ، كما تملؤنى كذلك رغبة فى مساعدة الآخرين بأية وسيلة أستطيعها

ان هذا هو الايمان الذى ينطوى عليه عملى الآن ، لأن مكافحة المسكرات هى الميدان الذى أعددت له خير اعداد ـ نتيجة لتجاربى الخاصة ـ كيما أعين الآخرين وأساعدهم . وأعتقد أن محاولة مساعدة رفاقى فى البشرية هى طريق من أكثر الطرق استقامة فى سبيل تعزيز الترابط الروحى . انه طريق يستطيع أن يسير فيه كل انسان ، وليس من المهم أن يكون المرء جميلا أو موهوبا أو غنيا أو قويا، لكى يهب يدا معينة مساعدة لرفاقه المعذبين

طف حول التل فى هوادة

لداريل ف . زانوك

داريل ف . زانوك من مواليد واهو من اعمال ولاية نيبراسكا . ولقد زار كالفورنيا وهو بعد غلام صغير ، وسرعان ما عقد العزم على ان يعمل فى صناعة السينما . وهو الآن نائب لمدير قسم الاخراج بشركة القرن العشرين - فوكس - وهو المخرج الوحيد فى تاريخ هوليوود الذى استطاع ان يظفر بجائزة ايرفنج تالبرج فى ثلاث مناسبات . كما ظفر بثلاث جوائز لأكاديمية الصور المتحركة

دلتنى تجاربى الكثيرة على أن الفضائل التى تعلمتها وأنا صبى ، لا تزال هى بعينها الفضائل الجوهرية . لقد تغيرت وجهة نظري بطبيعة الحال عبر السنين،وكذلك تغيرت وجهة نظر أصدقائى . ولكن تغير وجهات النظر هذا يشبه صبيا صغيرا وهو يحدق صوب تل فوق احد السهول . فالتل لا يزال كما هو ، بيد أن الصبى الصغير يراه من زوايا مختلفة فى مراحل نموه

ولقد حاولت على الدوام أن أسير حول كل «تل» فى حياتى، منذ ذلك الحين ، حتى أستطيع أن أراه من كل زاوية . واحسب أن هذا التصرف يكشف عن الفرق بين الأمانة والروح الساخرة المستهزئة . انك حينما ترى التل من كل زواياه ، تتاح لك فرصة أفضل لكى تحتفظ بجهودك مركزة . فاذا ما رأيت التل من زاوية واحدة فقط تعرضت لخطر هائل قد يؤدى لأن تكون مستهزئا ساخرا

ومن الفضائل الأساسية التي خففت عني متاعب الحياة كثيرا ، من أيام طفولتي حتى الآن ، فضيلتان اثنتان هما : الاخلاص ، وحب الخير . وليس الاخلاص مجرد اصطلاح ، وانما كان لي بمثابة قاعدة أساسية للحياة . ولست أعني بذلك مجرد الاخلاص والولاء لأصدقائي وأسرتي وانما أعني به الاخلاص للقيم الأمينة التي تقوم البلاد الناهضة القوية على دعائمها . وعندي أن هذا العنصر الذي استرشد به الا وهو ولائي واخلاصي ، يستهدف بالضرورة ولاء المرء واخلاصه لنفسه

ولقد ثرت ، وأنا بعد يافع ، على كثير من الأشياء : وناضلت ضد طائفة من الأفكار والمبادىء الأساسية في الحياة .. ولكنني وجدت ، بعد كثير من الثورات ، وبعد طوافي بعين العقل حول التل القائم بين سهول نيبراسكا ، أن هذه الفضائل لم تعتنق عبثا عبر القرون

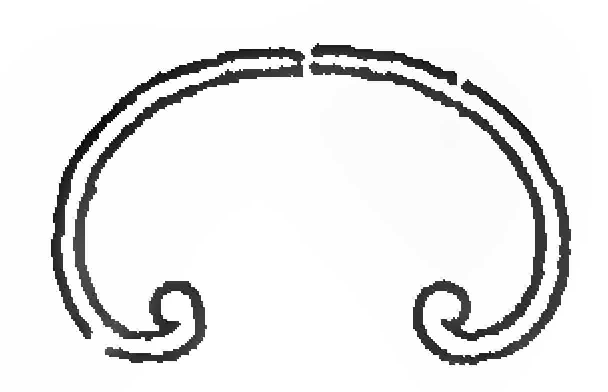
والاحسان الى الناس مبدأ آخر كان سببا لارتياحي العظيم في كثير من المواقف الحرجة .. ان الاحسان شيء يجب أن نتعلمه . ولقد كنت سعيدا جدا في حياتي لأن ظروفي ساعدتني على عمل الخير ، وينبغي الا ينتظر المرء أية مكافأة عن الاحسان أكثر من الارتياح الذي يحدثه في النفس

فاذا ساهمت في عمل من أعمال الخير فيجب أن تشعر نفسك بالراحة من كل قلبك . وأي نوع آخر من أنواع الاعطاء يعتبر خيانة رهيبة للحياة نفسها . والحق أن الاحسان والاخلاص ، هما الشيئان اللذان أثرا في حياتي تأثيرا عميقا . أجل ، لقد كانا مصدر ارتياحي العظيم في كل يوم عشته . وقاعدة الولاء هذه جعلتني أراجع في ختام كل يوم مجال نشاطي طواله .. حتى أتأكد أنني لم أسيء — عن قصد — الى أحد في مجال نشاطي اليومي

ولقد حاولت دائما أن أصلح الاساءات التى تسببت فيها قبل نهاية اليوم ، ولا ريب أن هذا منى عمل ينطوى على الأنانية ، لأننى ادركت أن هذه المراجعة منى لتصرفاتى فى كل يوم تجعلنى انام نوما طيبا .

وهكذا استطعت اثناء سيرى حول التل المشرف على السهل كل يوم من أيام حياتى أن أهتدى الى أن الفضائل هى نفس الفضائل على الدوام ، سواء كنت فى لندن أو باريس أو روما أو القاهرة أو نيويورك أو هوليوود أو واهو أو نيبراسكا

انى لمدين لهذه الفضائل العتيدة التى تعلمتها ، وأنا بعد صبى فى نيبراسكا ، وأرجو أن أزود على الدوام بقسط واف من التواضع الصحيح ، أعرب به عن امتنانى وشكرى ، اذ ولدت فى بلد أتاح لى مثل هذه الفرصة .



فضائل الحياة

بقلم هارى ج • بليك

هارى ج بليك من اشهر تجار الصوف ، وهو رئيس شركة بليك بمدينة بوسطن ، وكان مديرا لغرفتها التجارية . ولا يقتصر نشاطه على الاعمال التجارية والاقتصادية ، وانما تجاوزه الى المساهمة فى مشروعات اجتماعية وخيرية عديدة ، منهـــا انشاء المستشفيات والمدارس واعداد المخيمات الصيفية للبنين والبنات

حدث ذات ليلة من ليالى الصيف الماضى أن كنت جالسا فى حديقتنا مع زوجتى ونجلينا . وكان الولدان فى أجازة آخر الأسبوع ، وهى بالنسبة للولد الأكبر آخر أجازة تعقبها فترة طويلة من البعاد والغياب

لقد كان ضابطا فى البحرية يناهز الرابعة والعشرين من العمر ، أما الأصغر ـ وهو فى العشرين ـ فقد كان جنديا فى الجيش ، ولكنه أقبل من فورت ديكس ليودع أخاه

وكنا وقتئذ نسرد الذكريات الجميلة عن طفولتهما، فرحين بهذه الذكريات وبالحديث عن مختلف شئون الأسرة . . ولكن هذه الجلسة العائلية العاطفية لم تكن لتخلو من التعرض لمسائل هامة . .

• لقد سألنى أولادى عن أهم الصفات التى يجب ـ فى نظرى ـ أن يتحلى بها الانسان فى هذه الحياة . . ولقد فكرت فى هذا الموضوع برهة ، ولكنى أدركت على الفور أن الفضائل الثلاث الأساسية ـ وهى : الايمان ، والأمل ، والاحسان ـ هى

الأســاس لكل شيء خليق بالجهد ، بل منها وحدها ينبع كل ما فيه الخير .. فهى تمثل فينا ذلك الحافز القوى الذى يدفعنا الى الوفاء بالتزاماتنا نحو خالقنا ونحو المجتمع .. بل هى فى حد ذاتها الأساس لما نحرز من نجاح دنيوى أو مادى

ولقــد اكد لى ولداى انهما على بينة من تلك الحقائق البسيطة المعقولة .. ولكنهما اقترحا على ـ رغم هذا ـ أن أعرض لما أقول فى شيء من التفصيل ، مبتدئا من وجهة النظر التى تحاول تطبيق هذه الفضائل بصفة عملية ، وأن أستطرد بعدها الى تلك الصفات أو الخصائص التى تؤهل الانسان لحيــاة موفقــة فى عمله ، وكذلك لتحقيق الســعادة فى الحيـــاة . وطبيعى أننا اتفقنا على أن الايمــان ـ وهو أعظم هذه الفضائل جميعا ـ ان هو الا أعتقاد الانسان فى وجود الله . ومن المؤكد أن الايمان هو المصدر الذى يستقى منه الانسان ولاءه لوطنه وبيئته وأصدقائه

وما الابتكار الا نتيجة لهذا الايمان ، كما أن النزاهة والثقة هى الأسس الجوهرية التى يقوم عليها ، والأمل هو القوة الفعالة فى عزيمة الانسان وشجاعته . أقصد تلك الارادة التى تستهدف النجــاح ، والواعز الذى يحفزك الى الانجاز ، بالاضافة الى القوة التى تحدوك الى المقاومة .. وهى عتاد الأمل ومعين قوته . ثم تأتى بعد ذلك يد الاحسان العطوف تلك هى الرحمة والايثار والتواضع والشفقة ، وهى الفضيلة المتعددة النواحى ، بل هى أعظم الفضائل جميعا

ومهما تباينت صور الفضائل الثلاث ، فهى على الدوام عماد حياتنا الدنيا فى نطاقها الواسع الذى اجتزناه منذ ولدنا . وأخيرا ، هبنا أسأنا تطبيق بعض هذه الفضائل عبر الطريق ،

فليس من العسير أن نصلح ما اعوج من الأمر وأن نستعيد العمل بها ، ذلك أنها معين لا ينضب نستطيع الاستقاء منه جميعا ، متى توافرت لدينا نية الاستفادة منه والعمل به .
وكان الظلام يطوى الحديقة عندما انتهينا من هذا الحديث واتفقنا على أن الايمان والأمل والاحسان ــ وهى فضائل أزلية كأزلية الشمس فى مشرقها ومغربها ، أو قديمة قدم المد والجزر فى البحر ، أو خالدة خلود الجبال ــ ما زالت تحتفظ بطابعها الجديد ، كالمخترعات الحديثة الجبارة فى الكيمياء والعلم . أنها فى الواقع فضائل يومنا هذا كما كانت فضائل أجيال مضت

واخيرا .. أن هذه الفضائل العظيمة التى تتسم بالكمال والبساطة، يرجع اليها الفضل فيما انجز البشر من معجزات.
ذلك هو ما علمتنى الحياة



الحرية والعدالة حق للجميع

لليلاند ستو

ولد ليلاند ستو فى « سوث برى » بكونكتيكوت عام ١٨٩٩ ، وكان فى غضون ربع القرن الاخير مراسلاً صحفيا فى الخارج ابان السلم والحرب ، وشمل نشاطه القارات الخمس قاطبة . وقد حاز جائزة بوليتزر لقاء انبائه عن اوربا بين الحربين .. فكان مراسلا حربيا لجيوش سبع دول مختلفة وجيوش المستعمرات فى الحرب الاخيرة . ولقد ألف ، نتيجة لمشاهداته ، عدة كتب صادفت رواجا عظيما

اغرقتنى مشاغل هذا العالم فترة دامت أربعة وعشرين عاما ، قابلت خلالها أناسا من مختلف أقطار العالم،وشاهدت الدول تنساق الى الحرب ، وقد آمنت بعد كل هذا ، أن ثمة رسالة هامة لكل منا فى الحياة .. تلك هى أن نحاول تفهم وجهة نظر الآخرين . لقد فكرت طويلا فيما يجب أن أتسم به من تسامح وعدالة ، كما لو كنت فى موقف انسان آخر أرى الأشياء كما يراها ، وأشعر بها على نحو ما يشعر هو بها . وانى لأذكر ما حدث فى السنين التى أعقبت عام ١٩٢٠ مما دار بين الامريكيين والاوروبيين من نقاش حاد بسبب تخفيض ديون الحرب ، وكان على فى هذا الصدد أن أفسر موقف اوربا وشعورها ، ولماذا وقفت هذا الموقف . وكان من نتيجة هذا ، أن أدركت عنصر الضعف والقوة فيما يذهب اليه كل طرف من الطرفين فى مثل هذا الصراع . لم يدر بخلدنا أن نفكر فى وجهة النظر الاوروبية وقتئذ

التفكير الكافى ، وكذلك لم يفكر الاوربيون فى وجهة نظرنا ولم يلقوا لها بالا .. ومتى تعذر ادراك وجهات النظر على هذا النسق ، كان لا بد من قيام البغضاء واشتعال الحرب .

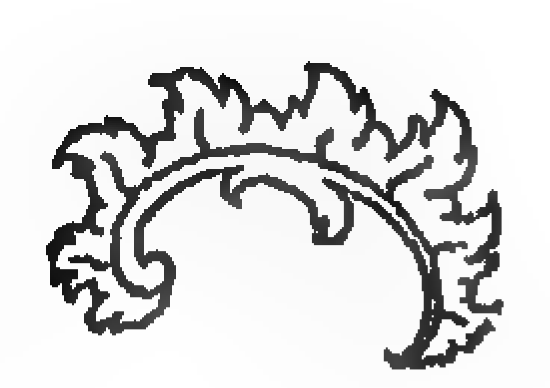
ولكن مثل هذا يحدث فى حياتنا اليومية أيضا . فلو أنى تحدثت فى احتقار عن جنس آخر من الأجناس البشرية ، لكان من أثر ذلك اثارة البغضاء والصراع فى بلادنا . ولقد فكرت فيما كان يخالجنى من شعور لو أنى كنت فردا من افراد هذه الجماعة المهينة .. شاهدت بعينى رأسى فى برلين عدوان أوغاد هتلر على لفيف من الضعفاء ، وحين عدت الى وطنى سمعت الناس يعلقون على ذلك العدوان بقولهم : « نعم هذا شأنهم » ، ولقد نسى هؤلاء أن الحرية والعدالة حق للجنس البشرى بأسره ، وليسا وقفا على الأمريكيين وحدهم

لقد نسى هؤلاء أن البشر بشر بغض النظر عن العقيدة أو الجنس أو القومية ، وانى لأتذكر فقراء الأسبان واليونان من الفلاحين الذين شاطرونى خبزهم وجبنهم ، وكان هذا كل ما ملكت أيديهم . كما أذكر تلك المرأة الروسية العجوز التى آثرتنى بسريرها وفضلت هى أن تنام على الأرض .. وهكذا كم من أناس لا يعرفون لغتى وانما يخاطبوننى بقلوبهم

ان خير أصدقائى مجموعة كهيئة الأمم ، تضم أوروبيين وآسيويين ومواطنين من أمريكا اللاتينية وأمريكا الشمالية، وكافةأقطار الأرض،ولعل خير ما ينطوى عليه هذا،هو الكشف عن مدى ما نرتبط به من صلات مشتركة تذكرنا على الدوام بأن الصداقة لا تعرف تلك الحدود القومية الجغرافية الضيقة ، وما يستتبع هذا من علم بأن كل عناصر الشعوب تستطيع فهم بعضها البعض

ان طبيعة كل فرد مزاج من الخير والشر . ولقد وجدت ان الخير فى طبيعة أغلب البشر يرجح الشر ، وتلك ظاهرة

المسها فى كل اقطار الأرض ، وما عليك فى هذا الصدد الا ان تعمل الفكر . ان ادراك الحقيقة مثله كمثل الزهرة اذ تزدهر ، ولكن عليك أن تتعهد نموها بالرى ، فاذا ما ازدهرت كان احساسك عجبا . وستشعر بهذا حين تكسب صديقا جديدا ، وانى لأتخيل حقيقة الصداقة فى الاحسان والمحبة ، وفى اعتقادى ان هذا يسبغ على حياتنا معنى جديدا . وبودى لو يقول الناس عند موتى : « لقد كان هدفه أن يجعل الانسان يفهم أخاه الانسان » . وطبيعى ان أخفق فى هذا بعض الأحيان ولكن ما ابذله من محاولة فى هذا الصدد يجعل الحياة خليقة بالحرص عليها



فلنضحك ولنتسامح !

لاليزابيث كوكر

تجمع السيدة « اليزابث كوكر » فى اهاب شخصيتها نواحى ثلاثا .. فهى مؤلفة وزوجة وأم ... وقد احتفلت هى وزوجها صاحب أحد مصانع الورق بمضى عشرين سنة على زواجهما فى عام ١٩٥٠ ، وذلك بنشر روايتها الاولى « ابنة الفرباء » أما روايتها الثانية « يوم الطاووس » فلقد نشرت حديثا ... وهى تعيش مع زوجها وطفليها فى مدينة هارتسفيل بولاية كارولينا الجنوبية

حدث حين كنت فى السادسة عشرة أن لطمت لطمة عنيفة على الجانب الأيمن من وجهى ، فتحطمت عظمة الخد الأيمن وانكسرت عظمة الفك فى عدة مواضع ، وتطايرت أسنانى الأمامية .. وحين سمح لى الطبيب لأول مرة أن أشاهد ما طرأ على وجهى من مسخ فى المرآة ، أصبت باغماء. ولكن كان من حسن الطالع أنى رزقت أبا حكيما عطوفا ، فلم يقبل أن أنزوى فى الغرفة الخلفية ، وحملنى فى سيارتنا الحمراء الكبيرة لأقودها حين أصبحت قادرة على ذلك ، ثم دفعنى الى التحدث ببشاشة لكل من قابلنا عبر الطريق

لقد كان هذا فى الواقع أمرا شاقا ولكن كان أشق منه أن أتعلم كيف استقبل كل يوم جديد ، وأن أواصل نشاطى العادى كل يوم . كان على أن أدرك أن الحياة ليست وسادة للجلوس عليها ، وانما هى لون من التحدى الذى ينبغى أن تعد له العدة .. وادراكى لهذه الحقيقة أنبت فى نفسى ايمانا

استعين به ، فضلا عن شجاعة نفسية مكنتنى ان اقف على قدمى فى الضراء وحين البأس وعند فقدى الكثيرين ممن احببت حبا عميقا

وما تعودت الاعراض عن الناس .. وهذا هو السبب فى أننى كنت بصفة خاصة غنية بعدد كبير من الأصدقاء يتفاوتون فى السن . واذكر كيف كنت اسير اشواطا بعيدة فى سبيل الابقاء على الصداقات والاستمساك بها ، ولكن هذه الأشواط التى قطعتها فى هذا السبيل تقترن فى نفسي بأعذب التجارب التى صادفتها فى حياتى . وفضلا عن هذا ، فقد خلق ذلك منى شخصية عزيزة كريمة . لقد تعودت النظر الى كل انسان على انه شيء ثمين بالنسبة لى،حيوى بالنسبة لحياتى . وقياسا على هذا ، بدت لى اهمية الناس . ولست اقصد هنا اهمية البشرية من الوجهة النظرية المجردة .. اذ من السهل حب الناس لأنهم لا يسرفون فى طلباتهم الشخصية ، وانما أقصد كذلك هؤلاء الناس الذين يطرقون باب دارى يلتمسون عطف قلبى عزاء لهم

وانا اومن بجدوى الضحك وفائدته ، فهو عجيب مبارك . انه ترتيل لنغمة احب الى الخالق من انين يتصاعد من مخاوفنا وعجزنا . لقد أشربت نفسي حب المرح .. ولذلك استطعت أن أخوض غمار عدة مآزق كانت كفيلة بالقضاء على لو أننى واجهتها بالضيق والحزن والندم

ولو بدا لنا أن نقدر قيمة الضحك تقديرا صحيحا ، لاستتبع هذا ايماننا بالتسامح ، وهو أقوى ما ادين به من معتقدات فى آخر الأمر . انى أومن بالتسامح حيال الأجناس البشرية ، وحيال الأجناس الضعيفة التي تختلف عن جنسنا والأجناس التي تسمو علينا . واعتقد أننا متى بلغنا مرحلة التسامح وعرفنا كيف نلائم بينها وبين الظروف المحيطة بنا، أمكننا تحقيق أسباب الحياة السعيدة الناجحة

حاجتنا الى الأمناء

لكلود . م . فيوس

اشتغل كلود . م . فيوس بالتدريس فى أكاديمية فيلبس فى اندوفر من أعمال ولاية ماساشوستس منذ أربعين عاما ، وقد كان فى غضون الخمس عشرة سنة الأخيرة منها ناظرا للمدرسة . وحين اعتزل العمل فى عام ١٩٤٨ ، خلف من ورائه مدرسة أرقى مما كانت عليه بمراحل،وذلك بفضل ما خصص لها من جهود وتضحيات.وقد اشتهر بتآليفه التربوية القيمة . وقد سجل أخيرا التجارب التى مر بها فى الاربعين سنة التى قضاها مدرسا وناظرا فى ترجمة حياته التى نشرها تحت عنوان « ناظر مدرسة مستقل »

قضيت اكثر من أربعين سنة فى تربية الأطفال..أورثتنى ايمانا بكرامة الانسان ، وبذلك المصير النهائى الذى ينتظر البشرية .. ان صفحات الجرائد الاولى لتمتلىء بنماذج من وحشية الشباب ، والمغامرات الجريئة التى يقوم بها المراهقون من لصوص البنوك .. ولكن الحقيقة التى لمستها فى كل المدارس ، هى وجود مظاهر التفكير المتزن والعطف والكرم . وأشد ما تكون هذه الظواهر وضوحا بين الطلبة الذين يتسمون بهدوء الطبع ، وينصرفون الى عملهم فى لين وهوادة،لا يبغون من وراء ذلك مكافأة. وأجدنى،نتيجة لهذا ، من النوع الذى يمكن أن يقال فى وصفه أنه متفائل الى حد بعيد . أجل ، أننى من أولئك الذين يدركون بعض مثالب الناشىء ، ولكنهم على ثقة من أن التقدم يحدث فى الواقع ، رغم ما يكتنفه من بطء وما يعتوره من غموض فى بعض

الأحيان ، حتى لا يكاد يلمس . انني أعتقد أن الدنيا تغدو ضربا من الهذيان ، لو أنها بلغت مستوى الكمال . . لا بد أن تنطوى على الصراع والفشل ، اذا شئنا أن نصل الى تقدير دقيق لقيمة النجاح . ولا بد من رؤية الظلال اذا قدر لنا أن نتبين النور

ان أهم عامل فى نجاح النظم الديموقراطية ، هو تربية المواطن العادى . ولا أعنى بالتربية تثقيف العقل فحسب ، وانما تهذيب النفس والخلق أيضا ، وهذا هو السبب الذى من أجله سررت كثيرا حين قدم لى تلامذتى سرا اعانة قدرها خمسون دولارا ، لأشترى بها معطفا لزميل لهم . . . وهذا هو السبب الذى من أجله شعرت بالفخر حين تبينت أن أحد تلامذتى السابقين الذى لقبه الطلبة جميعا « بالأمين » كوفىء أخيرا بمدالية الكونجرس لقاء ما أبدى من بسالة فى انقاذ حياة زميل مجروح فى كوريا . ان لمدرستى شعارا هاما بارزا فى صلب دستورها وهو « أن المعرفة المجردة عن حب الخير خطيرة » . . . ولدينا اليوم عدد كبير من الكفايات البارزة فى هيئاتنا التشريعية والمصالح العامة ولكننا نحتاج الى عدد كبير من الرجال الأمناء

وقد علمتنى تجاربى أيضا أن الجهد الشاق يمكن الاستعاضة به عن العبقرية ، وأن الكثير من الأعمال ينجز الآن يوما بعد يوم ، بفضل جهود رجال ونساء يستهدفون خلق عالم أفضل يطيب فيه الوجود ، ثم هم يقومون بعملهم فى تواضع لا يعرف صلفا أو شموخا

وثمة تنبؤات مزعجة يتشدق بها رسل الفزع والتشاؤم، فهم يقولون أن مدنيتنا آخذة فى الانهيار . نعم لقد حدثت تغيرات كثيرة ، وربما أعقبتها تغيرات أخرى . . ولكن ليس من الضرورى أن يفسر هذا التغيير بالانهيار . واذا كان أولادنا وبناتنا لا يسلكون مسلك أجدادهم ، فلن يكون معنى

هذا أننا نسير من سيء الى أسوأ . لقد أصبحت أوقن أن شبابنا خليقون بأن يلعبوا دورهم بصورة لم تتح لنـا نحن الكبار

ويقيني أن الاعطاء يبعث على الاغتباط أكثر من قبول العطاء ، وأن رابطة من روابط الجوار تربطني بكل رجل وامرأة بصرف النظر عن اللون أو العقيدة ، وأن الحياة لا بد وأن تكون أهم من أكل اللحوم،وأن جسم الانسان يسمو على الكساء . وتلك العقيدة البسيطة قد دعمتها سنو خدمتي كمدرس وناظر مدرسة

ان ابناء الجيل الجديد متحررون ـ الى حد كبير ـ من روح التعصب لجنس أو لدين .. انهم يؤمنون بالعدالة والمساواة ايمانا عميقا .. وربما كان من العسير عليهم التعبير السليم عن هذا الايمان،ولكنه يبدوفيأفكارهم وآرائهم فيالحياة المهذبة الكريمة ، ويقيني اني تعلمت منهم بقدر ما علمتهم .. كانوا قادرين على الاستمتاع بمعين الفنون الذي لا ينفد من موسيقى وشعر وأدب ، ونعمة البيت والاسرة ولذة الابداع الذهني ، والسرور المقترن بأعمال البر ، وما تشعر به من سلام بينك وبين نفسك ، نتيجة للايمان بالله . ولقد شاهدت المئات منهم يقومون بدورهم كمواطنين الى الحـد الذي يسمح به تفكيرهم كتلاميذ في مدرسة ، وربما كانت هذه هي المكافأة الخالدة التي يحظى بها مدرس مثلي

أومن بالانسانية

للدكتور هارولد تيلور

الدكتور هارولد تيلور من مواليد كندا .. وقد ظفر بدرجتين علميتين من جامعة تورنتو ، وحصل على الدكتوراه من جامعة لندن . وبعد ان امضى عاما فى اوروبا ، سائحا وكاتبا ، التحق بقسم الفلسفة بجامعة ويسكونسين . وفيها اشرف على فريق ((التنس)) واشترك فى اوركسترا الجامعة وكان هو الذى يلعب على الآلة الموسيقية المعروفة باسم ((الكلارينت)) وذلك فضلا عن تدريسه اشق الدروس المثيرة ، الباعثة على الاهتمام . وقد عين عميدا لكلية ((سانت لورنس)) وهو لم يتجاوز الثلاثين من عمره

نعيش الآن فى مرحلة من مراحل التاريخ البشرى تمتاز بالتغييرات الثورية الطارئة على كافة القيم والأفكار الانسانية

وهذا هو الوقت الذى يتحتم على كل فرد منا أن يفتش فى قرارة نفسه عن الآراء والمعتقدات والمبادىء التى ينبغى أن يتخذها شعارا أو أساسا لحياته

انى أومن بالناس وأومن بالانسانية النقية الخالية من الغش والتزوير . انى أومن بوجوب الاصغاء لما عند الناس من حديث وبمساعدتهم فى سبيل تحقيق الاشـياء التى يريدونها ، أو التى يحتاجون اليها . وهنالك،بطبيعة الحال، أناس يتصرفون تصرف الوحوش .. فهم يقتلون ويخدعون ويكذبون ويدمرون ، غير أننا اذا تجردنا من الايمان بالانسان وبامكانيـاته فى المستقبل ، فلن يكون ثمـة أمل فى ذلك المستقبل .. وسوف يورثنا هـذا المرارة والأسف على

الماضي الذى ولى وادبر ، واعتقد انه يجب على كل منـا ان يتخذ لنفسه فلسفة يستطيع العيش على هديها . وهناك قوم يخلقون فلسـفة قوامهـا الكفر بكل شيء .. فهم لا يفتأون يرددون : لقد انعدم الحق والصدق ولم تعد الطيبة سوى مجرد مهارة المرء فى تغطية انانيته ومواراتها عن العيون . وهم يقولون أن الحياة مجرد فترة قصيرة بين ميلاد تعس ، وموت محتوم . وهنالك آخرون يقولون أن الانسان يولد فى بيئة الشر والخطيئة .. وما الحياة سوى مرحلة التطهير بالآلام ، فى حين أن الموت هو الجائزة التى يتلقاها الذين تألموا وعانوا فى الحياة الدنيا . وثمة فريق ثالث يقول ان الانسان نوع من الآلة ، يعمل وفقا لقوانين معينة ، وأنك اذا تعلمت القواعد ، وعرفت مقياس القوة الخاص بادارة تلك الآلة .. استطعت أن تجعل الانسان يتصرف من تلقاء نفسه تصرفا « أوتوماتيكيا » لكى يحقق آية أهداف ترسمها فى ذهنك

وعندى أن هذه الفلسفات خاطئة .. فأهم شيء فى الحياة هو الطريقة التى نعيش بها . وليس ثمة سعادة مطلقة ، أو طيبة مطلقة ، او أخلاق فاضلة مطلقة ، أو أى شيء آخر مطلق ، الا فى نظر الشخص الذى يؤمن بذلك ، ويعمل جاهدا فى سبيل تحقيقه . انما هنالك فقط ذلك الانسان المفرد الذى يعيش والذى يشـعر فى مختلف مراحل تجـاربه الشخصية فى الحياة بأنه سعيد أو شقى ، نبيل أو وضيع ، عاقل أو سيىء التصرف ، أو مجرد كائن موجود

والسؤال الذى يعرض للمرء هو : كيف يتسنى ملء هذه اللحظات المنفردة فى مراحل التجارب الانسانية بثروة من فلسفة تصبح دستورا للمرء فى حياته الخاصة ؟ وما لم نتعود التضحية بجانب من جوانب أنفسنا ، وما لم نعش مع الآخرين ونفهمهم ونقدم اليهم يد المعونة ، فنحن لا شك

قد فقدنا اهم جانب حيوى من جوانب حياتنا البشرية ، وما اساس فلسفتي الا ما توارثه الانسان بحكم قوميته من التحرر والثقة والمقدرة على صنع الخير . واذا أتيحت للمرء فرصة صحيحة لاستخدام قواه، فان هذه الفلسفة ستسفر عن فيض منهمر لا نهاية له من النشاط الحيوى ، وقسط عظيم من الارادة التى تستهدف القيام بأعمال جديدة اساسها الايمان بالمستقبل

والطرق التي تؤدى الى الحكمة والصلاح ، لا يقل عددها عن أولئك الذين يعتزمون السير فيها . وهنالك من الحقائق الأساسية التى نستطيع الوقوف عليها عدد يوازى عدد الرجال الذين يجدون فى البحث عنها ويعتزمون الوقوف عليها . وهنالك أيضا من الآراء والمبادىء عدد يكافىء عدد الرجال ذوى العزيمة الذين سيحرصون عليها حية فى اذهانهم ، وسيعملون بمقتضاها فى مضمار حياتهم



لنكن جديرين بالحياة

لوليام ف . جيمس

وليم . ف . جيمس شاب في العقد الرابع من العمر يشتغل بائعا للسيارات في سانت لويس بميسودى . وقد كان وكيلا للقومندان في البحرية فأبدى من النشاط ما استحق من أجله الانعام عليه بوسام كريم .. هذا فضلا عن الانعام عليه بمدالية البحرية والغواصات ، وظفره « بصليب البحرية » وقد أكسبته جهوده في ميادين خدمة الشباب « جائزة المؤسسة الحرة » فكرمته الغرفة التجارية المحلية في الولايات المتحدة

أريد ان أقول قبل كل شيء اني أستمتع بمعرفة الناس . وأقصد بذلك الناس من مختلف الحرف ، بدون تفرقة بين اللون أو العقيدة . أني أسر بمعرفتهم جميعا . وفي اعتقادى ان كل طائفة من هؤلاء الناس يجب أن تظفر باحترام الناس لمشاعرها ومعتقداتها . وأرى أني استفدت كثيرا من خدمتي في البحرية في السنين الاخيرة القليلة ، لأني تعلمت في هذه الفترة معنى كلمة «التسامح» . كنت قبل الحرب أداب على انتقاد الناس ، موجها هذا النقد لأشخاصهم أو لأعمالهم . أما اليوم فأنا أعتقد أن كل عمل فردي لا بد وأن يستند الى أسباب أو مبررات

وغالبا ما تتهمني زوجتي بأنني شديد الحساسية . ولست أعتقد أن هذا حقيقي . ولكنى ادرك الآن ان ما يقوله الانسان من كلمات محدودة له أبلغ الأثر في الآخرين . وما دمت

قد تعلمت التسامح ، فالذى أشعر به هو حساسية الآخرين ومن ثم تنبغى على حمايتهم قولا وعملا

ولقد آمنت بأن علينا فى هذه الحياة أن نتحمل لونا من ألوان المتاعب سواء أكانت هذه المتاعب مرضا ، أو عجزا ، أو تتعلق باعتبارات شخصية : كتشوه جثمانى ، أو مشكلة تخص الوالدين ، أو زواجا غير موفق . وفى اعتقادى كذلك أن الوقت كفيل بعلاج كل مأساة عن احد طريقين : الاول أن يتعود الانسان ما يقاسيه من عجز أو محنة شخصية ، والثانى أن يقتنع الانسان فى آخر الأمر بأن عليه وحده تقع تبعة مأساته .

ولقد ادركت قيمة الحياة نفسها فى فترة مرت بى ، كنت فيها « مرهقا بالعمل » . حدث أن كنت أتحدث الى احد رفاقى الذين كانوا يعملون على السفينة التى كنا نعمل فيها ، وقد نجا من موت محقق هو الغرق .. فاذا بالحقيقة تبدو أمامنا سافرة جلية ، تلك هى أن متاع الحياة الدنيا من مال وسلطة وقوة يتضاءل كله أمام بحر من الظلمات والزيت والبرد . والله من فوقنا ، هو وحده الذى يعرف ما نكابد من عذاب ، وهو وحده الذى يستطيع تخليصنا منه،أما نحن فلا نملك من أمرنا شيئا . والوديعة الوحيدة التى نملكها هى حياتنا بالاضافة الى حيوات اخرى تنتظرنا فى ديارنا . وأعتقد الآن ، كما كنت أعتقد حينئذ ، انى أستحق هذه الوديعة العظيمة . وما دمت قد فهمت هذا ، فقد أصبح لزاما على ان انجز من الأعمال ما هو ضرورى لتبرير استحقاقى هذه الهبة . فاذا عجزت عن الحياة بالشكل الذى أريده ، وبالعقيدة التى أومن بها .. فانى أفضل الموت

وانى لأومن قبل كل شىء بوجود اله عادل ، وانه سوف يحاسبنى ، لا على ما عملت أو على ما انجزت من أعمال ،

وانما سيحاسبنى حسابا يتناسب وادراكى للحقائق

فما دام قد وهبنى العقل الذى ادرك به، واعرف ما استطيع عمله ، واعرف كيف اميز بين الخطأ والصواب .. فعلى هذا الأساس وحده سوف يحاسبنى على ما قصرت فيه ، اذا لم استجب له .. ذلك هو اعتقادى



دنيا واحدة .. فى وقت واحد

لروبرت هيلر

ولد روبرت هيلر ــ الحائز على جائزة بوليتزر فى الشعر ــ فى مدينة ايست اورنج فى نيوجرسى عام ١٨٩٥ ، وقد انتدب عقب تخرجه فى جامعة هارفرد سنة ١٩١٧ للعمل فى الجيش لمدة سنتين، عاد بعدها الى وطنه .. فاشتغل بالتدريس فى هارفرد ، واخيرا انعمت عليه الجامعة بكرسى الاستاذية فى البيان والخطابة

«انى لأشعر بالمجد المقبل على هذا العالم من ضياء علوى»

هــــذا السطر الأخير من قصــيدة بعنوان « العقيدة » لأدوين أرلنجتون روبنسون ، يعبر عن جوهر عقيدتى التى أومن بها . وأجد من واجبى ازالة ما خلفته العواطف الجامدة والأسف والأسى والاطماع الدنيئة من آثار ، حتى يمكن لهذا الضياء الباهر أن يكتسحها كلها . ان الحواس الخمس وتلك الأنفاس الغامضة التى هى سر الحياة ، تنساب بنا معرجة فى مدهشات هذا الكون ، فيتجلى أمامنا مجد الله . وانى ــ وأن كنت قلما أسمو بنفسى الى مرتبة ذلك الفيض الروحى الذى يشرق على النفس فى لحظات معدودات ــ الا أنى متأهب مشراب لمثل هذا السمو على الدوام .. أى أنى أتحدى تلك الرغبة التى تجرفنا نحو النسيان ، تلك الرغبة التى تنال من حقيقة الانسان وجوهره ، حتى حين يدعونا الضياء الى الاشراق الروحى الكامل

وتلك الرغبة التى تنسينا معجزات الخليقة تتآمر على الروح ، مستعينة عليها بظروفها الخارجية ، وباعتبارات داخلية من صميم النفس أيضا .. وعناصر هذا التآمر هى المتاعب والغضب والحسد والمظاهر وهى بحكم طبيعتها تسعى الى الأشياء التى تثور عليها ثم هى نتيجة لهذا تقتنع بتفاهة كل شيء . ولكننى بالتأمل والصلاة أستطيع الهرب من هذه القوى المظلمة الهدامة ، والعودة الى الآيات البينات فى هذا الكون والى الابتهاج بالله

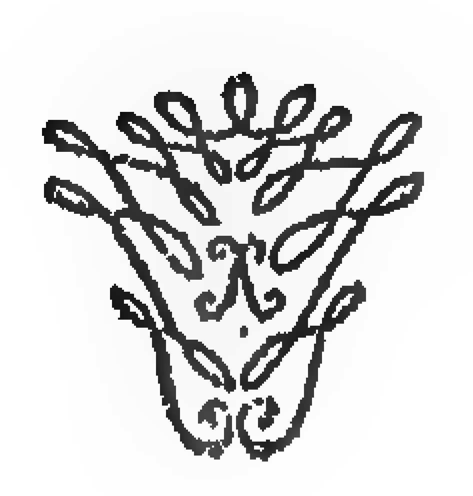
انى أومن بالحياة بعد الموت ، لأنى — أسوة بالكثيرين — أوتيت « معرفة بالخلود » . ولست أستطيع تفسير هذه الحقيقة بأكثر مما تستطيع البذرة الجامدة تفسير الشجرة الحية المثمرة

كذلك أومن بحسن نوايا الآخرين ، وأثق فى الناس بحكم الغريزة .. ولقد خدعتنى هذه الثقة بالناس فى أمور صغيرة أحيانا ، وفى أمور خطيرة أحيانا أخرى ، ولكنى لا أستطيع أن أتخلى عن ثقتى بالناس .. لأن الشك ليس من طبيعتى ، ولن أعمد الى هذا لأن عدد الذين برروا ثقتى بالناس هم عشرة بالنسبة الى واحد عبث بهذه الثقة ، والذى أعرفه كذلك هو أني أخفقت فى بعض الأحيان اخفاقا جعلنى غير جدير بثقة الناس فى ، وان يكن ذلك على غير قصد منى

أما القول بأن هذا الكون يستهدف غاية معينة ، هى الكمال الروحى .. فهذا أمر منطقى ، الا اذا افترضنا أننا جميعا خلايا فى مخ أبله . ان ايمانى بتطور روحانى ومادى فى نفس الوقت ، كان من أثره أن جعلنى أحتفظ بتفاؤلى رغم ما ذهب اليه المنكرون والمرجفون . وقد تنعكس الآية فى قرن أو قرون ، ولكن هذا الفشل تافه اذا ما قيس بمقياس التقدم

الانسانى المنتظر ، او حتى ذلك التقدم الذى أحرزته البشرية الى هذه اللحظة

ودستورى فى الحياة اليومية : « دنيا واحدة فى وقت واحد » واعنى بهذا أنى لا أريد ان تتعقد حياتى باعتبارات مادية . وفى نفس الوقت ، لن أعلل النفس بألوان من المتاع احظى بها فى المستقبل ، استنادا الى آراء متعصبة تنكر على النفس استمتاعها بالحاضر



أومن بخلود الروح

للدكتور ادموند . ا . براسيت

لم يكد ينتهى الدكتور « ادموند . ا . براسيت » من دراسته فى جامعة وانهوزر ، ومن جامعتى مونت ريل وهارفارد فيما بعد حتى انصرف لمزاولة الطب والجراحة مدى ثمانية عشر عاما . وعلى الرغم من مزاولته عمله هذا فى ظروف قاسية ، فى غالب الاحوال ، فقد كان يدخر بعض وقته لكتابة تاريخ حياته ، ذلك التاريخ الذى يتتبع سلسلة كفاح مرير ، من طفولة فقيرة معدمة فى نوفا سكوشيه الى أن اصبح طبيبا جهيرا فى ويكفيلد . ولقد صادف كتابه نجاحا سريعا عندما نشر تحت عنوان « طبيب يجوب آفاق الحياة »

ان الطبيب الذى يستطيع أن يزاول نشاطه فى حـــدود الاعتدال ، يجد أمامه فى عيادته ، فى غضون عام على الأقل ، الفين من الناس يقصدونه للعلاج . وقد حدث لى فى مرحلة الأعوام الثمانيـــة عشر التى زاولت فيهـــا مهنـــة الطب أن قصدنى فى عيادتى عدد كبير من المرضى ، الذين حدثونى عن امراضهم ، وعما ساورهم من قلق ، وما اكتنف حياتهم من مآس . وقد تمخضت هذه التجارب عن حقيقة واحـــدة جوهرية تلك هى أن كل انسان على سطح الأرض ، رجلا كان أو امرأة أو طفلا ، خليق بأن يعامل بالاحترام الجدير بكرامة الجنس البشرى ، وذلك بصرف النظر عن قيمته فى الحياة

وما جسم الانسان الا أعظم آلة، صممت فى احكام دقيق ، اضفى عليها من الوان الجمال ما جعلها أجمل هيكل على

وجه الارض ، والواقع أن كل عظمة من عظام الجسم تعتبر فى تكوينها آية من آيات الفن . وكل عضو يبرز آيات الكفاية، يتضاءل أمام أعجازها أى مهندس ، وليست أصفر غدة فى الجسم الا معينا لنشاط كيمائى يتضاءل حياله أنتاج أى معمل فى هذا العالم ، صنعه الانسان . ولو أن ما فى الأرض من كتب فى الطب جمعت فوق بعضها ، لبلغت فى الارتفاع مبلغ ناطحات السحاب ، ولكن هذه لن تأتينا بعلم عما يجرى فى داخل هذا الجسم ، اللهم الا النزر اليسير الذى يتناول قشورا مما كان يجب علينا معرفته عن نشاط هذا الجسم البشرى . وانك لتجد من فوق اعجاز هذه الصورة المركزة الكاملة عنصرا آخر فى الانسان ، لا هو بالآلى ولا هو بالمادى ــ عنصرا لا وجود له فى لون آخر من الوان الكائنات الحية التى نعرفها . . ذلك عنصر لا نستطيع رؤيته ، ولن نقدر حتى على البدء فى ادراك حقيقته أو العلم به ، ، ولكنه موجود . . وبه يسمو الانسان على سائر الحيوان

هذا ولا بد للطبيب ان يساهم فى حياة عدد كبير من الناس بقدر . فهو لا بد له أن يعرف متاعبهم ، وأن يتألم لآلامهم . ثم هو يبذل كل جهد ممكن ابتغاء تحقيق صحتهم وسعادتهم، فاذا نجح فى ذلك امسى مغتبطا لاغتباطهم . اذ الواقع أن الطبيب الكفء ، هو فى حدود اختصاصه ، خادم لأقل فرد يحتاج لخدماته . ولا أستطيع القول بأننى أحببت كل رجل وامرأة قابلت فى حياتى العملية ــ وان كنت أحببت معظمهم ــ ولكن لا علاقة للمحبة بالاحترام . هناك من الناس من يصبح مرائيا كذابا ، لصا قاتلا . ولكن هؤلاء جميعا بشر ، ولست استطيع اخفاء مقتى لهؤلاء الناس فى بعض الأحيان ، غير أن

هذا أمر موقوف . لأن الكراهية لا يمكن أن تبقى على طول المدى،الا اذا وجدت ما يغذيها ويذكي نارها بصورة مستمرة

□

وأنا شديد الايمان بالله،الذى خلق الأرض ودفعها للدوران حول الشمس . وأعرف كذلك أن هذه الأرض فى حركتها ودورانها لن تظل هكذا الى الأبد ، ذلك أن حركتها تتضاءل شيئا فشيئا ، ولا بد أن يأتي يوم ـ وقد يقع بعد مليون سنة ـ يقف فيه دورانها ، ويفنى كل شيء فيها . ولكن قبل أن يحدث هذا بزمن طويل ، ستنتهى حياة البشر على سطح البسيطة ، وتطوى صفحة جهودهم وجهادهم فيهـــا ، فتتلاشي المدن والطرق والآلات والكتب . غير أننى ، حتى اذا اختفى وتبدد صوت آخـــر فرد من أفراد البشرية ، وخيم سكون الأبدية الجامد ، فطوى هذا الكوكب ، لا زلت أومن بخلود الروح على صورة من الصور



قانون القلب

جورج فردريك

جورج فردريك رئيس مكتب العمل ، وهو منظمة من منظمات البحث والنشر. وعلى الرغم من انه المؤسس لمكاتب العمل النظامية، الا انه ، بالاضافة الى هذا ، قد ساهم فى تاسيس نادى مديرى الأعمال التجارية فى مدينة نيويورك . ولعل اهم ما انجزوه من مهام فى هــذا المضمار ، هو اكمال الابحاث الخاصة بتسويق الانتاج ، ذلك الموضوع الذى يحظى اليوم بجانب عظيم من التقدير والاهتمام وهو متزوج من كاتبة مشهورة بابحاثها عن ادارة المنزل

وهكذا انتهيت فى آخر الشوط الى نقطة بسيطة فيما يتصل بما آمنت به . لقد آمنت بما أرى تسميته « قانون القلب »، وتلك عبارة معناها فى قاموس الطب ، ذلك الكشف العظيم الذى انتهى اليه الاستاذ أرنست هنرى ستارلنج ، ويتضمن النظام الدقيق الذى يجعل القلب يسرع فى دقاته ثم يتباطىء من تلقاء نفسه ، مستعينا على ذلك بعضلة خاصة، هذا فضلا عن الطريقة التى يعمد اليها فى انجاز عملية حيــوية ذات شقين ، هى عملية تبادل السوائل فيمــا بين مجرى الدم وأنسجة الجسم

وانى لأجد فى نظرتى الى هذه الحياة الدنيا أن هنالك حاجة قصوى لعملية أخرى ذات شقين أيضا ، هى تبادل العواطف القلبية بين البشر ، وهو تبـــادل بدونه تستحيل الروح الانسانية والعلائق التى تربط بين أعضاء الاسرة البشرية ،

الى مرحلة من الجمود والخطورة. وما الاعتماد على الفضائل الجوهرية المجردة الا من قبيل الأفكار الآلية الجوفاء .. مثال ذلك ما اكتشفناه من أن الأطفال لا يتقدمون بدون حب الأم ، ذلك الحب الذى يحفزهم على التقدم

وعندى أن معنى « قانون القلب » هو أن فى مقدورى الظفر بسلامة العقل والجسم سلامة كاملة ، بالاضافة الى تنشئة أقوى الروابط الفعالة بينى وبين الحياة والأحياء ، لو أن نفسى العاطفية الناجحة استطاعت السيطرة على غرائزى وانفعالى . فاذا ما حكمت العقل فى أمر من الأمور ، ثم أصغيت لايحاء عواطفي الحقيقية ، فهذا هو أصدق الأحكام وأدناها الى النزاهة على النحو الذى يمكن أن يتسنى لكائن حى مثلى . والواقع أن للانسان نفس واحدة لا تتجزأ، وفى اعتقادى انه كل متماسك يتألف من العقل والروح والجسم،ولكن صوتا واحدا يصدر عن هذه العناصر جميعا، ذلك هو صوت القلب

واعتقادى أن الطريقة التى يعمل بها قانون القلب فى هذه الحياة ، ان هى الا صورة رمزية تفيض بأسمى المعانى التى توحى الينا ، فالذى نعلمه هو أن الانسان لا بد وأن يعطى لأخيه الضعيف الأسوأ حظا شطرا من دمه كبرهان على روح الأخوة . ونعلم كذلك أن القلوب والشرايين الجامدة التى لا تستجيب ولا تنفعل ، قد تنتهى بالمرء الى موت مفاجىء ، بل نعلم أكثر من هذا أن القلوب التى تنسجم دقاتها مع المشاكل والآلام والأحزان والحاجات التى يشعر بها الغير ، قد أوتيت علما بالموسيقى السماوية ، وهو علم لا قبل لغيرها به .. وكذلك نعلم أن القلوب التى تسرع فى النبض عندما تلمح الجمال والنبل أو تستهويها الشجاعة والتضحية أو يثيرها الحب والتعاطف ، او رؤية طفل أو مشاهدة ضياء الشمس لا بد وان تغدو عامرة فياضة بألوان من الحياة ،

ترتل اناشيدها التى لا يفقهها الغير . ونحن نعلم آخر الأمر ان هؤلاء الذين يكبحون غرائز القلب الطبيعية قد ينتهى بهم الأمر الى ايقاف تيار عاطف جموح يورثهم الجمود والتبطل

واذن،فالقانون الأول من قوانين القلب ـ وهو ما أستطيع توكيده هنا ـ هو أن يخفق ؛ وأن يحب ، فاذا فقدت هذا الخفقان أو الحب ، فأنت فى طريقك الى موت روحى عاجل اكيد . وهنالك عدد كبير جدا من الناس ، يبدو انه قد شغلته نفسه ، فوقع تحت نيرها الباطش ، فلم يعد قادرا على الحب او راغبا فيه ، اما القانون الثانى من قوانين القلب فهو ، على ما اعتقد ، الاعطاء والتسامح والتضحية . وتفصيل ذلك ان القلب هو معين الامداد والاغداق لكل ذرة من ذرات الجسم الدفينة ، كما ان عضلة القلب هى اقوى عضلات الجسم طرا

تلك هى الأشياء التى اعرفها وأومن بها . . وهى الأسس التى أقيم عليها صرح فلسفتى عن هذه الحياة الدنيا . وهى فلسفة أرى فيها دستورا نافعا لنفسى . انها تقربنى الى الأرض ، ولكنها ، مع ذلك ترفع راسى عاليا فى السماء . ان قلبى ليكاد يلمس الحقيقة الأزلية . وفى اعتقادى ان القلب المثقف الناضج هو انبل ما فى الانسان،بل هو امل هذا الوجود

الحرب وسيلة الجبناء

للى بريستول

تخرج فى كلية هاملتون ، وأصاب نجاحا كبيرا فى الاعمال الحرة ، وهو الآن مدير لاحدى الشركات الكبيرة فى نيويورك ، ويشترك فى كثير من الجمعيات القومية العاملة لخير المجتمع ونشر الاخوة والمحبة بين الناس . وفى سنة ١٩٤٧ رأس حملة صحفية قامت بها هيئة الدعاية والاعلان لنشر المبادىء القويمة ومكافحة الفوارق الجنسية والدينية بين الاهلين ، فأثبت بالدليل العملى أن استخدام الاعلان فى هذا الميدان أبعد أثرا من استخدامه فى ميادين التجارة والصناعة

فى مثل مجتمع معقد كالذى نعيش فيه ، لا مناص للفرد من أن يشعر أحيانا بشىء من القلق والارتباك . وكثيرون من الناس يرجعون هذا الى المشكلات العامة التى يعانيها المجتمع أو العالم كله ، ولكنى أعتقد أن الحل الاساسى لمشكلات الافراد والجماعات يجب أن يوكل الى الفرد نفسه أولا وقبل كل شىء . فالواقع أن لكل فرد منا جانبا روحيا تمتد جذوره الى أقصى أعماق نفسه ، وهو لذلك لا يستطيع أن ينسى هذا الجانب أو يتناساه ، مهما يخيل اليه أنه جانب سطحى من السهل نسيانه أو تناسيه

وليس من شك عندى فى أن الاساس الذى يقوم عليه جانبى الروحى هو الايمان بالخالق ، وبما يتجلى فى الكون من مظاهر قدرته الخارقة على الابداع والتنظيم . ومن هنا وقر فى نفسى أن السعادة الحقة فى هذه الحياة الفانية لا يمكن

ان يحصل عليها الفرد من طريق الانانية وحب الذات فقط ؛ بل عليه فى الوقت الذى ينشد فيه السعادة لنفسه أن ينشدها للآخرين ، وبذلك يرضى ذلك الجانب الروحى فى نفسه ، ويكون تصرفه متفقا مع ايمانه بالله ، ومع ايمانه بواجبه فى الحياة

نعم ، ان الخدمات التى يؤديها الفرد لغيره هى الطريق الصحيح الى اسعاد نفسه لانها هى الزكاة التى يؤديها عن حياته التى وهبها له الله . أما الانانية والاثرة وحب الذات فهى لا تستطيع بدا أن تحقق لصاحبها سعادة حقة ، وهى فى الوقت نفسه تحيط حياته بالمنغصات ، بل اليها يرجع ما يشكوه العالم كله من ظلم وفساد ، بين الجماعات والافراد

والواقع أن كل انسان ينشد السعادة لا بد له من أن يقبل على الحياة بروح سهلة طلقة طابعها المرح والبساطة ، كما يجب عليه أن يحرص دائما على أن يكون منسجما مع نفسه ومع من حوله ، ليسعد ويسعدوا بحسن التفاهم والتعاون المثمر

ولئن كان أسلافنا قد أتيح لبعضهم أن يعتنقوا هذه العقيدة استجابة للعظات الدينية التى غرست فى نفوسهم حب الخير أملا فى الجنة التى وعد بها المتقون فى الحياة الآخرة ، وخوفا من نار الجحيم التى أعدت هناك عقابا على الانانية وحب الذات ، فما أحرانا اليوم بأن نعمل بهذه العقيدة لكى نسعد انفسنا ونسعد العالم الذى نعيش فيه بالقضاء على أسباب الشقاق والمظالم التى تذهب بسلامه وأمنه وسعادته

لقد كتب « توماس مان » يوما عن الحرب فقال : « انها الطريق الذى يسلكه الجبناء فرارا من مشكلات السلام » . والواقع اننا لو استطعنا أن يرسم كل منا لنفسه طريقا مستقيما لتنظيم حياته على أساس تبادل المحبة والتعاون مع الآخرين ، فانه فى الوقت نفسه يكون قد وجد الطريق الى اسعاد العالم واستمتاعه بالاستقرار والسلام

للحياة قيمة سحرية كبرى

لتوماس مان

ولد توماس مان فى بلدة ليباخ الالمـانية ، ونشا فى رعاية اسرته العريقة الثرية ذات النفوذ الواسع ، فبرزت مواهبه فى سن مبكرة ، وعرفه العـالم اجمع على اثر نشر قصـته الخـالدة التى صدرت فى المانيا قبل عهد هتلر وبيع منها اكثر من مليون نسخة . وزاد فى شهرته ظهور قصته الثانية ((جبل السحر)) سنة ١٩٢٧ ، ثم حصوله على جائزة نوبل فى الادب بعد سنتين . ويعده الكثيرون خليفة ((جوته)) . كما يعد كتابه ((يوسف واخوته)) فى مقـدمة الكتب العالمية الخالدة . وقد هاجر الى أمريكا وجرد من جنسيته الالمانية لعداوته للدكتاتورية . وما زال مقيما بسانت مونيكا فى ولاية كاليفورنيا ومعه أولاده الستة وبينهم ثلاثة بنات

ليس كالفناء حقيقة ناصـعة استحوذت على شعورى وتفكيرى ، فقدرتهـا حق قـدرها عن عقيدة وايمـان . وقد يبدو الفناء ـ وأعنى به زوال الحياة ـ شيئا محزنا الى أقصى حد ، لكنه عند من أمعن النظر فيه ليس فيه ما يحزن، فما هو الا حقيقة الحياة وجوهرها. . وهو الذى يضفى عليها قيمتها وكرامتها واهميتها ، لانه هو الذى يخلق الوقت ، والوقت هو جوهر الحياة ، أو هو ـ على الاقل ـ يمكن أن يكون أعظم النعم وأكبرها نفعا فى الحياة ، لما هنالك من صلة قوية بينه وبين ضروب الابتكار والنشاط والتقدم كلها ، أو لانه فى الواقع هو كل هذه الاشياء !

والفناء يخلق الوقت ، لان الوقت لا يمكن أن يوجد ما لم يكن هناك فناء ، وبعبارة أخرى ما لم تكن هناك للأشياء بداية ونهاية ، أو ميلاد وممات !

ان للحياة قيمة سحرية كبرى ، وفى طبيعة كل انسان ما يجعله يتشبث بالحياة ويتعلق بأهدابها ما استطاع الى ذلك سبيلا . ولكن الناس جميعا يعلمون علم اليقين أن هذه الحياة موقوتة ، لا بد أن تكون لها نهاية كما أن لها بداية . ومن هنـا كانت تلك القيمة الكبرى للحياة ، وكان الايمان ببدايتها ونهايتها ، أو الايمان بالفناء ، اهم ما يميز الانسان من بين بقية الكائنات

نعم ان العلم بفناء الحياة هو الذى يبعث فى الانسان تلك القوة المتأججة العاملة،وهو الذى يمد روحه بالقوة المعنوية ، ويوجب عليه ان يكون على بينة من أمر الوقت وقيمته . على أن هذا لا يعنى ان الانسان وحده قد اختص بالروح ، فالواقع أن الكائنات كلها تحمل طابع الروحانية ، ولكن روح الانسان امتازت بقوة الوعي والادراك ، بفضل ما أوتيت من معرفة بالحياة والفناء وتعاقبهما

ومثل الوقت للانسان كمثل قطعة من الارض اعطيت له ابتغاء حرثها والقيام عليهـا . فهو فسحة من الاجل ينشط فيها الانسان لتحقيق أسمى معانى نفسيته ، ويستطيع من طريقها أن يستخلص الباقيات الصالحات من الذاهبات الفانيات

انني أومن ، كما يؤمن جميع الناس ، بأن هذه الارض التى نحيا عليهـا يجب أن تستأثر من دون بقيـة أجزاء الكون بالجانب الاكبر من عنايتنا واهتمامنا ، كما أني أومن ايمانا عميقا بأن خلق الكون من العدم ، وخلق الحياة من مادة غير عضـوية ، لم يكن هدفهما الا خلق الانسان آخـر الامر . فخلق الانسان اذن تجربة كبرى لو فشلت نتيجة لاجرامه لكان هذا الفشل أمرا أخطر مما لو فشلت تجربة خلقه

وسواء أصحت هذه العقيدة أم لم تصح ، فلا شك فى ان سلوك الانسان فى حياته مسلك المؤمن بها ، جدير بأن يجعله أصلح وأسعد فى الحياة

هذا طريقي للنجاح

لهربرت . هـ . لهمان

تخرج هربرت لهمان في كلية وليام سنة ١٨٩٩،وأمضى ثلاثين عاما في ممارسة الاعمال التجارية والصناعية . ثم انتخب نائبا لمحافظ نيويورك ، فمحافظا لها . وفي سنة ١٩٤٣ وقع عليه الاختيار لشغل منصب المدير العام لادارة المعونة والتعمير التابعة للامم المتحدة ، ومنح ميدالية الخدمة الممتازة ، ثم صار عضوا في مجلس الشيوخ الامريكي منذ سنة ١٩٤٩

هنـــاك عقيدتان ، كانت لهما السيطرة على تفكيري ، في حياتي الخاصة والعامة : أما احداهما فقد تبدو للقارىء أمرا عاديا وهي أن الحياة لا تعطينا الا بقدر ما نقدم من خدمات . وأما الاخرى فهي أن من الضروري أن نحترم آراء غيرنا وأن اختلفت عن آرائنا كل الاختلاف .

وعلى هذا ، عشت في كل أطوار حياتي مؤمنا كل الايمان بأني مدين للحياة بقـــدر ما هي مدينـــة لي ، وكنت لذلك حريصا على الاخذ بهذه الفلسفة التي أعتقد صدقها في كل عمل أقوم به ، وفي كل علاقاتي بالآخرين ، سواء في ذلك أهلي أو من أعمل معهم !

ولقـــد دلتني التجارب العـــديدة على أن كل أمر أفعله ، أو أقوله ، أو أفكر فيه . . لا بد أن يكون له أثر مبـــاشر في علاقاتي بمن يعنيهم هذا الامر ، ولا بد أن يكون هذا الاثر

متفقا مع العدل والجزاء الحق . ذلك لان معاملتى لغيرى هى فى الواقع تمهيد للطريق الذى ينبغى لهم أن يسلكوه فى معاملتهم اياى ، فالاحترام يبعث على الاحترام ، والبغضاء تورث البغضاء ، والارتياب يحمل على الارتياب . ومن هنا قيل بحق : « اذا شئت أن تحصل على صديق مخلص أمين فالطريق الى ذلك أن تكون صديقا مخلصا أمينا »

ان الاخاء والتعاطف والشفقة والآداب الانسانية وتكافؤ الفرص وقيمة الحياة ، وما الى هذه كلها من الفضائل والحريات المدنية التي نعتز بها ، لا يمكن أن تكون حقائق واقعة نمارسها فى حياتنا ، الا اذا حرصنا دائما على احترامها وتطبيقها

ولا شك فى أن احترامى حرية الرأى ، وحسن استماعى لآراء غيري وان خالفت رأيي الخاص ، مما اكسبنى كثيرا من الدروس النافعة . واذا كان تاريخ الامم قد دلنا على أنه ما من أمة استطاعت أن تحتكر لنفسها الحكمة أو العلم او غيرهما من المواهب ، فليس من العقل اذن أن يظن أحد أن فردا من الافراد ـ مهما يبلغ من الحكمة والعلم ـ يمكن أن يكون فى ذلك أوفر حظا واكبر نصيبا من أمة قوية كاملة، فلا يكون الرأى الا ما يراه هو وحده لا سواه !

وفى يقينى ، أن مثل ذلك الاستبداد بالرأى ، والاستهانة بآراء الآخرين ، انما يرجعان الى ضعف ثقة صاحبهما برأيه ، والى شك فى قدرة هذا الراى على الصمود للمناقشة والموازنة بينه وبين غيره من الآراء

وانه لمن التجنى على المبادىء الديمقراطية الجوهرية ، أن يحاول احد منا أن يفرض رأيه فرضا على

مواطن آخر ، او ان يمنع هذا المواطن من ابداء رأيه فى أى موضوع

ولنا جميعا ان نتفاءل خيرا ، وان نطمح الى مثل اعلى لمستقبل بلادنا ولأولادنا واحفادنا من بعدنا ، ما بقيت حرية الرأى مكفولة لجميع المواطنين



فهرس

مواد القسم العربى

صفحة

مواد القسم الغربى

وكلاء مجلات دار الهلال

سوريا ولبنان : شركة فرج الله للمطبوعات ـ مركزها الرئيسى بطريق الملكى . ـع من شارع بيكو فى بيروت (تليفون ٧٨ ـ ١٧) صندوق بريد١٠١٢ ـ أو باحدى وكالاتها فى الجهات الأخرى . (الأعداد ترسل بالطائرة للشركة وهى تتولى تسليمها لحضرات المشتركين)

العراق : السيد محمود حلمى ـ صاحب المكتبة العصرية ـ ببغداد

اللاذقية : السيد نخلة سكاف

مكة المكرمة : السيد هاشم بن على نحاس ـ ص.ب٩٧

البحرين والخليج الفارسى : السيد مؤيد احمد المؤيد ـ مكتبة المؤيد ـ البحرين

ساحل الذهب : The Queensway Stores, P.O. Box 400. Accra, Gold Coast, B.W.A.

نيجريا : Mr. M.S. Mansour, 110, Victoria Street, P.O. Box 652, Lagos, Nigeria, W.C.A.

انجلترا : مكتب توزيع المطبوعات العربية

Arabic Publications Distribution Bureau
15 Queensthorpe Road, London, S E 26.

هذا الكتاب

لعل هـذا الـكتاب هو أول كتاب من نوعه ينشر باللغة العربيـة ، فان موضوعه جديد ، ومؤلفه ليس واحـدا أو اثنين ، بل خمسون مؤلفا من هيئات مختلفة من الشرق والغرب ، وقد تناولوا ما استفاده كل منهم من تجارب الحياة ودروسها ، فاجتمع في الكتاب خمسون لونا من التجارب والدروس والآراء القيمة التى تفيد القراء بما تقفهم على حقائق الحياة ومثلها العليا ، وتفتح للشباب آفاقا جديدة

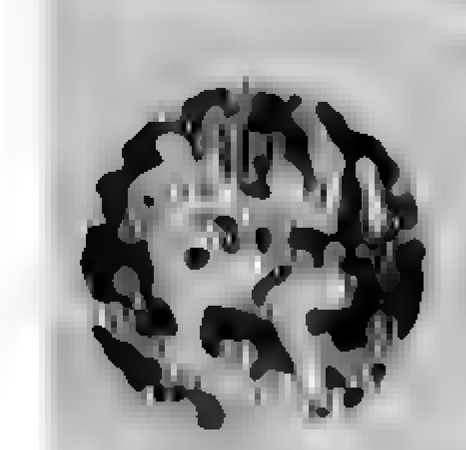
وقد عنيت سلسلة « كتاب الهلال » بنشر هذا الكتاب النفيس بمعاونة مؤسسة فرانكلين المساهمة للنشر . وقد أشرف على وضعـه وترجمته الدكتور احمد أمين . والكتاب مؤلف من جزءين : الاول : يحوى ما كتبه الشرقيون . والثانى : يحوى ما كتبه الغربيون . فاجتمع فيه ــ على الرغم من كبلنج ــ الشرق والغرب بما وعيا من تجارب وعبر ودروس

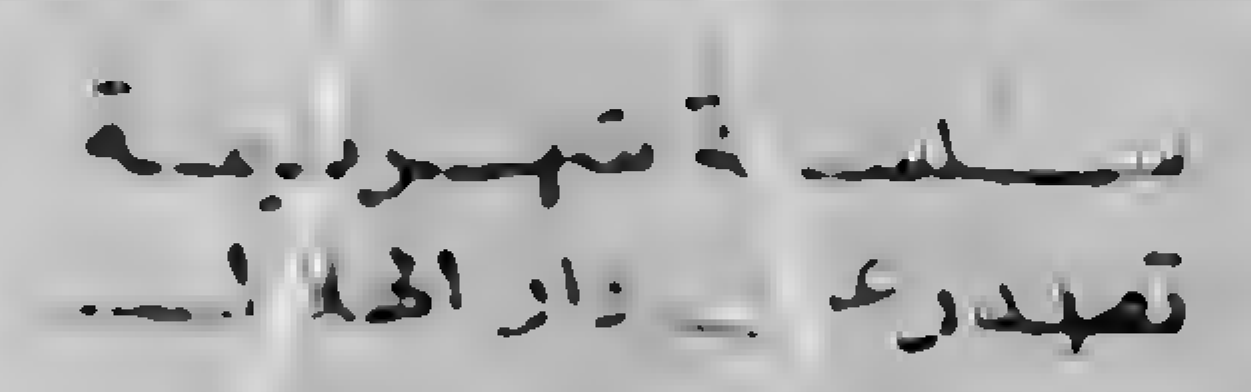
كتاب الهلال

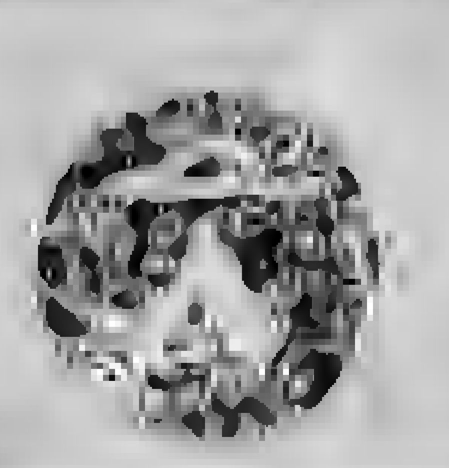
في الطريق

تأليف

ابراهيم عبد القادر المازني




سلسلة شهرية
تصدر عن دار الهلال



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »
شركة مساهمة مصرية

رئيس التحرير : طاهر الطناحى

العدد ٣٢ — صفر ١٣٧٣ — نوفمبر ١٩٥٣

No. 32 — November 1953

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب

(المبتديان سابقا) القاهرة

المكاتبات

كتاب الهلال — بوستة مصر العمومية — مصر

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشـــتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عدداً) — مصر والسودان ٨٥ قرشا صاغا — سوريا ولبنان ١٠٧٥ قرشا سوريا أو لبنانيا — الحجاز والعراق والأردن ١١٠ قروش صاغ — فى الامريكتين ٥ دولارات — فى سائر أنحاء العالم ١٥٠ قرشا صاغا أو ٩/٣٠ شلنا

في الطريق

تأليف

ابراهيم عبد القادر المازني

الاهـــداء

الى « حياة »

فى بعض الأحيان أكون جالسا الى مكتبى قبـل طلوع الشمس ، وأمامى الآلة الكاتبة أدق عليها وارمى بورقة أثر ورقة ، والى جانبى فنجان القهوة أرشف منه وأذهل عنه ، فأحس راحتيك الصغيرتين على كتفى فأدير وجهى اليك ، وارفع عينى لأصبح على بسـتان وجهك ، وأستمد من ابتسامة عينيك النجلاوين ، وافترار ثغرك النضيد ما افتقر اليه من الجلد والشجاعة ، وأدفع يدى فأطوقك بذراعى ، واضمك الى صـدرى ، والثم خدك الصابح ، وامسح على شـعرك الأثيث المرسل على ظهرك وجانب محياك الوضىء ، وأتملى بحسنك وانشر فى كهف صدرى المظلم نور البشر والطلاقة ، فتدفعين ذراعك الغضة وتتناولين ببنانك الدقيقة ورقة مما كتبت ، وترفعينها أمام عينيك ، وتزوين ما بينهما ، وتتخذين هيئة الجد الصارم ، وتفيضين على نفسك السمحة العطوف ، وانت مضطجعة على ذراعي ، سمتا وابهة يغريان بالابتسام ، وأنا أنظر اليك وفى قلبى سكينة ، وجوى من قربك معطر بمثل انفاس الروضة الأنف فى البكرة الندية . والمح شفتيك الرقيقتين تختلجان وعينيك تلمعان ، فتطيب نفسى بسرورك الصامت ، ثم أسمع ضحكتك الفضية ، وأراك

تغطين وجهك الحلو بالورقة فيستطيرني الفرح ويستخفني الجذل ، ولكنني أتظاهر بالخوف على الورقة التي لا قيمة لها أن يمزقها أنفك الجميل فترمين رأسك على ذراعي وينسدل شعرك الذهبي المتموج كالستار ، وتصافح سمعي من ضحكاتك العذبة موجات لينة . ثم تعتدلين على ساقي ، وتدفعين ذراعيك فتطوقين بهما عنقي ، وتجذبين وجهي اليك ، ولكنك تشفقين على رقة شفتيك من خشونة خدي فتلثمين أذني الطويلة — وتعضينها أيضا — فأصرخ ، فتثبين الى قدميك خفيفة مرحة ، وتخرجين بعد أن خلفت في صدري انشراحا ، وفي قلبي رضى ، وفي روحي خفة ، وفي نفسي شفوفا ، وفي عقلي قوة ، وفي أملي بسطة واتساعا ، وفي خيالي نشاطا ، فأضطجع مرتاحا واغمض عيني القريرة بحبك ثم أفتحها على :

« صيد حرمناه على اغراقنا
في النزع — والحرمان في الاغراق »

أي والله ، لولا الاغراق ما كان الحرمان . وهل هو الا الشعور به من الاسراف في الرغبة واللجاجة في الطلب ؟

بل افتح العين على جثة صغيرة حملتها بيدي هاتين الى قبرها ، وأنزلتها فيه ، ووسدتها التراب بعد أن سويته لها بكفي ، ورفعت من بينه الحصى الدقاق ثم انكفأت الى بيتي جامد العين وعلى شفتي ابتسامة متكلفة وفي فمي يدور قول ابن الرومي :

«لم يخلق الدمع لامرىء عبثا   الله أدرى بلوعة الحزن »

وتدخل على زوجتي لتحييني تحية الصباح ، فأتلقاها بالبشر والبشاشة ، وأهم بأن أحدثها بما كبر في وهمي قبل لحظة ، ولكني أزجر نفسي وأردها عن التعزي باللغط . ولو أني شرعت أحدثها بشيء من ذلك لما فرغت، فما أخلو بنفسي قط الا رأيتني أستطيب أن أتخيل فتاتي على كل صورة وكل

هيئة وفى كل حالة من حالات الطيش والحكمة ، والغضب والسرور ، والسخط والرضى ، والضحك والبكاء ، والعشق والسلوان والنفور والاقبال ، والحركة والسكون ، واللعب ، والنط ، والقفز ، والسباحة .... ويحلو لى أن أنشىء بينى وبينها أحاديث فى كل موضوع من جد وهزل ، ويسرنى أن أسمع نكتتها ، وأرانى أستملح فكاهتها — وأنتحلها فيما أكتب — وأضحك أحيانا بصوت عال ، بل أقهقه غير محتشم ، فاذا تعجب لى داخل متطفل على فى هذه الخلوة المحببة الى نفسى رفعت له وجها كالدرهم المسيح ، وهربت بالتباله من الجواب الذى يطلبه بعينه أو لسانه ، وتركته يظن بعقلى ما يشاء . وماذا أقول له ؟ فى وسعى أن أكذب ، فما لباب الكذب مفتاح ، ولكن الكذب ينغص على المتعة التى استفدتها من الحوار الذى كان يدور بينى وبين « حيـــاة »

▭

وأنت يا « حياة » الجديدة بديل من « حياة » التى فقدتها، لا .. لست بديلا ، ولا أنت عوض عنهـــا ، ولا أحسبك يرضيك أن تكونى عوضا عما لا يؤاتى . وتلك قد ربيتها صغيرة ودللتها وهى رضيعة بيدى هاتين اللتين أتنـــاول بهما خديك ، ولاعبتها وأركبتها ظهرى ، وقطعت بها فراسخ طويلة فى الغرفة الضيقة ، وسقيتها الماء ورأيتها تمص ثدى أمها وهى ذاهلة عن الدنيا وما فيها — وما هو كائن وما عسى أن يكون — ونحن ننظر اليها مسرورين مستغربين مفتونين بهيئتها ، وهى مقبلة على الثـــدى ، ويدها الدقيقـــة على الثندوة ، وأصابعها تتحرك فى لطف وعلى مهل ، مستظرفين شفتها المثنية على سواد الثدى حول الحلمة وهى مكبة على الرضاعة

ولكن فيك مشابه منها . وانا أغالط نفسي وأزعم أنها لو كتب لها البقاء لما عدتك . ولست تجلسين على ساقى فى الصباح الباكر — كما تفعل تلك فيما أتخيل — ولكنك تقرأين ما أكتب — بعد أن ينشر — وأراك يسرك أن تسكنى الى ، سكون الطائر الى وكره

وهل هذا كل شيء . ؟ لا أدرى . . واظن — بل أنا واثق — أنك تفهمين ما أعنى حين أقول انك فصل من كتاب حياة

وهل احتاج ان اقول أن اسمكما ليس « حياة » ؟

ابراهيم عبد القادر المازني

التدريب الأول

« ألا تنوى أن تعلمنى قيادة السيارة ؟ »

قلت : « اني أنوى أن أعلمك أشياء كثيرة .. فى أوانها »

قالت : « مثل ..؟ » وأمالت رأسها الصغير وألقت الى ابتسامة أعوذ بالله من سحرها

فبلعت ريقي ، وقلت : « أوووه..أشياء كثيرة كما قلت : مثل الرقة واللطف واللين وحسن المواتاة .. أشياء كثيرة »

قالت وعلى فمها ــ وفى عينيها ــ ابتسامة المتسامح : « الا ترانى لطيفة ؟.. »

قلت : « عفوا .. انما اعنى أن هذه المسائل نسبية ، فقد تكونين فى الواقع الطف فتاة تزين هذه الكرة الأرضية بوجودها .. وقد أكون انا لا احس ذلك ولا اعرفه ، لبلادة فى أو .. جهل .. أو .. »

فأشارت بكفها وقالت : « يكفى .. سأحاول أن اكون لطيفة معك ، فكن لطيفا وقل لى متى يكون الدرس الاول ؟ »

قلت : « الآن .. تعالى .. ضعى هــذا المعطف على كتفيك »

فأولتنى ظهرها لأضع عليه المعطف ، وكانت تنظر الى وانا أفعل ذلك ببطء

وانحدرنا الى الطريق وركبنا ، فقالت وأنا أهم بالمسير : « ألا تلبس المعطف .. ان الجو بارد »

فهززت رأسى وقلت : « كلا .. سأتصبب عرقا بعد دقائق ــ بل ثوان ــ من ابتداء الدرس الاول ولكنك

تعرفينني .. لا أهرب من الواجبات مهما كلفتني »
وقالت : « هل هذا واجب شاق ؟ »
قلت : « سترين » .. ولم أزد
ووقفنا فى مكان خلوى رحيب لا خوف فيه من أن ندوس طفلا أو نصطدم بشيء ، فقلت لها بلهجة الجد : « اسمعى من فضلك .. الآن يبدأ الدرس ، التدريب الاول .. فاذكرى دائما أن هذا درس وليس بلعب .. أسمعى الكلام وافهميه واعملى به ولا تحوجينى الى شد شعرك أو قرص اذنك أو خدك »
وكانت تبتسم حينما شرعت اتكلم ، فلما رأتني جادا لا اضحك ولا يبدو علي اني أمزح ، صارت الابتسامة كنور القمر المرتعش على صفحة الغدير الصافى .. فرق لها قلبى ، ولكنى تحاملت على نفسى وغالبتها وحدثتها - أعنى نفسى - بأن كل شيء خليق أن يفسد اذا لم أظهر الجد
وقالت بضعف : « انى مصغية »
قلت : « هذا حسن .. ابتداء طيب . والآن ، ادنى منى .. التصقى بى »
قالت : « لماذا ؟ »
قلت : « لتتناولى العجلة وتتدربى على ادارتها بالضبط والاحكام الواجبين »
فحاولت أن تتناولها من غير أن تلقى بجسمها على صدرى ، وكان هذا متعذرا . وأدركت أنها مترددة ، فقلت : «بالطبع ستزهق روحى وتتقصف أضلاعى وتحتبس أنفاسى .. ولكن هذا لا مفر من احتماله »
قالت : « صحيح ؟ »
فخفت أن تدفعها الرقة والاشفاق علي الى ايثار العدول فقلت : « ان فى قولى هذا بعض المبالغة ولا شك ، ولكنى

أعني انه اذا كان لأحد منا أن يتردد أو يخشى شيئا ...
فانى انا الخليق بذلك »

فظنت أني غضبت أو أن ترددها جرح احساسى وآلمنى ،
فقالت : « اني آسفة »

فابتسمت لها صافحا عنها .. وقلت : « تفضلى .. »
وتناولت كفيها فوضعتهما على العجلة وانا أسأل الله أن
يلهمني القوة ويرزقنى القدرة على مقاومة هذا الاغراء .
وصار كتفها على صدرى ، وشعرها علي وجهى ، وأريجه
فى أنفى ، وصفحة خـدها الغض المشرق تحت عينى ..
فلو مطمطت بوزى قليلا للمسته شفتاى . وسرنا خطوات
ترنحت فيها السيارة كأنها سكرى ، وأحسب أن لها ــ أعنى
للسيارة ــ عذرها .. فما لمست عجلتها كف كهذه ، رخصة
بضة دقيقة .. وكنت أنظراليها ، فأشعر اني أوشك أن
أرتد الى عصور الاستيحاش ، واحس أنى أريد أن آكلها
لفرط حلاوتها . ولم أكن أحس وهى على صدرى أن فى
بدنها عظاما من فرط الرقة والطراوة . وكان شعرها يدير
راسي ويسكرنى بعطره الطبيعى . وكانت يدى اليمنى على
كتفها ، فكنت بجهد أردها عن ضمها الى

وقلت لها وقد وقفنا قليلا لنستريح ، فقدكانت جلستها
متعبة : « لن تستطيعى أن تختفى عنى بعد اليوم كما فعلت
من قبل »

قالت : « كيف .. ماذا تعنى ؟ »

قلت : « لا أظنك تعرفين ما أعنى ، فمن حقك أن تسالى
وتعجبى .. لقد انتقلت فجأة من بيتك فأصبحت يوما فاذا
انت غير موجودة حيث ألفت أن أراك .. لا أدرى كيف
تسنى لك أن تنتقلى من بيت الى بيت من غير أن أشـعر
بذلك ونحن جاران متقابلان .. ولكنك نجحت .. غافلتنى
واختفيت »

فقالت : « على فكرة . . كيف اهتديت الى البيت الجديد ؟ »
قلت : « أوه . . هــــذه حكاية طويلة . . رأيت أخاك فتبعته من حيث لا يشعر . . لو كنت شممت شعرك كما شممته اليوم . . لما أحتجت الى اخيك أو غيره »
فضحكت وقالت : « لم اكن أحسب أنك . . » وامسكت
فقلت : « قوليها . . ولا تخشى ان تسيئى الى . نعم ، ان فى بعض خصائص الكلاب . . ومن يدرى ، لعل الله كان يريد فى أول الأمر ان يخلق من طينتى كلبا ثم بدا له ان هــذه الطينة لا تليق بكلب فصنع منها هذا الانسان الذى يجلس الى جانبك . ومن هنـــا بقيت لى حاسة الشم فى الكلاب ؛ ولكن قوتها فى شىء واحد . . ما شممت شعرا الا بقيت رائحتـــه فى أنفى . . ولو انك وقفت بين عشرين فتـــاة وعصبت لى عيناى لاستطعت ان اهتدى اليك واخرجك من بينهن بأنفى . . بمجرد شم الشعور »
فدهشت وقالت : « هل تتكلم جادا ؟ »
قلت : « فى وسعك أن تجربى . هاتى عشرين فتاة . . وارســلى لهن شــعورهن وقفى بينهن وضعى على عينى ما شئت . . ودعينى أشمكن . نعم فى من الكلب هذا . . وليت لى منه مزاياه الأخرى . . بل ليتنى كنت كلبك على الخصوص »
فضحكت وقالت : « ولمــاذا ؟ . لا تخف أن تتكلم فان حديثك لذيذ »
قلت : « اشكرك . . لو كنت كلبك لكان من حقى المعترف به مثلا أن أقعد بين يديك فى حيث تكونين . لا أحرم ذلك ولا يستطيع احد أن يقصينى عنك ولو حاول أحــد ذلك لعضضته ومزقت ثيابه ولحمه ولأدبته . . نعم . . ولكان من حقى أن أضع رجلى على . . على . . فى حجــرك . . والحس لك وجهك كلما شئت ذلك واشتهيته . . معذرة

فان الكلب لا يحسن التقبيل .. وهذا هو البديل عنده من القبل .. ولو كنت كلبك يا فتاتي الجميلة لكنت حارسك الأمين وفارسك الذى لا يقصر ولا يغفل ولا يسهو .. ولو كنت كلبك لـكان من حقي على الأرجح ـ فانك رقيقـة القلب ـ أن أنام على سريرك .. »

فصرخت ووضعت راحتها على فمي فضحكت ، وقلت : « لا تخافي فاني لم أصر كلبا مع الأسف .. أبى الحظ هذه النعمة على المسكين الذى هو أنا »

واستأنفنا الدرس وعدنا الى التدريب ، وأقبلنا على ذلك بعزم لا يفتر وارادة لا تلين أو تضعف ، ثم وقفنا وأراحت يديها وتنهدت وقالت : « تعبت »

قلت : « انى آسف .. استريحى »

فسألتنى : « هل تعبت انت أيضا ؟ »

قلت : « كلا .. انما تعبت من التفكير »

قالت : « فى أى شيء كنت تفكر ؟ »

قلت : « هل تصدقيننى اذا أخبرتك ؟ »

قالت : « لم لا أصدق ؟ .. هل هو شيء غريب جدا ؟ »

قلت : « نعم .. جدا .. لقد كنت ـ وانت على صدرى ـ أشتهى أن أمرغ نفسى فى هذه الرمال وأن أعوى كالكلب »

فضحكت حتى ترقرق الدمع فى عينيها ، وقالت بعـد أن وجدت لسانها : « ولكن لماذا ؟ .. ان هذا شيء غريب »

قلت : « لا غرابة على الاطلاق .. الم أقل لك ان فى من الكلب خصائص .. اشتهيت أن أفعل ذلك عسى أن تصنعى معى ما كان يمكن أن تصنعى مع كلبك .. تحملينني بين يديك .. على ذراعيك .. وتدنين فمك الدقيق من وجهى وتقبلينني فألاعبك وأضع يدى على كتفك وأنظر فى عينيك وأمسح خدى بخدك .. على فكرة .. وقبل أن أنسى »

فتركت الضحك ، واقبلت على تسألنى : « نعم .. »

قلت : « هل تستطيعين أن تخبرينى أو تبينى لى كيف يسعك أن تأكلى ؟ »

فاستغربت ، وقالت : « لست أفهم .. لمـاذا تظن انى لا أستطيع أن آكل ؟ »

قلت ، وأنا اضحك : « هل تسمين هذا فما ؟. انه أدق من أن يتسع لأصغر لقمة .. يصلح أن يكون قرنفلة أو ما يشبه ذلك »

فقاطعتنى ، وقالت : « والآن اسكت قليلا .. لقـد دار راسى .. لماذا تتكلم هكذا ؟ »

فهممت بأن أقول شيئا ولكنها أراحت كفها على شفتى فلثمتها ، فابتسمت وقالت : « لقد كنت أفكر فى جزاء لمـا علمتنى وقلت لى لتملأنى غرورا .. ولكنك أفسدت كل شىء .. أخذت جزاءك بنفسك »

قلت : « لا .. لا .. لا .. نمسح القبلة »

قالت : « كيف يمكن ؟ »

قلت : « هكذا .. بشفتى »

فاطرقت قليلا ، ثم رفعت راسها وقالت : « لو سألتك عما تحب أن يكون جزاؤك منى ، ماذا كنت عسى ان تطلب ؟.. افهم ان هذه مسألة نظرية بحت »

قلت : « الجواب حاضر .. وما اظن بك الا انك تعرفينه .. وهل هو الا أن تعدينى كلبا لك ؟.. »

قالت : « هذا سهل »

فصحت مسرورا وأنا لا اكاد أصدق : « ايه ؟ ! »

قالت : « لا تتعجل .. على مهلك .. لا تنس أن كلامنا كله نظرى » . فارتددت وتنهدت أسفا محزونا، فقالت وهى

تربت لى على كتفى : « لا تحـزن يا كلبى العزيز .. أنت كلبى .. ألم تقل ذلك ؟ »

قلت : « نعم .. ولكن الكلب له مزايا .. لا تنسى ذلك »

قالت : « يحسن أن تتدرب عليها التدريب الاول .. »

فقاطعتها وصحت بهـا : « لا .. لا .. انى طول عمرى كلب .. متدرب من زمان .. كلب عتيق .. والله »

وضحكنا ..

وافترقنا على موعد للتدريب الثانى



الدكان

وقفت « جليلة » لا تدرى ماذا تصنع ، فقد انغرزت احدى العجلتين الخلفيتين فى الرمل وأبت أن تخرج منه .. وعجز المحرك عن جذبها ، بل كانت العجلة تزداد غوصا كلما حاولت نزعها . وكانت الشمس قد مالت الى المغيب ولم يبد أحد فى الأفق ، وكان الكشك الذى وقفت عنده منذ لحظة تشرب « الكازوزة » يبعد مسافة كيلو ونصف أو اثنين ، فليتها ما جاوزته الى هذا المكان القفر .. ولكنها أرادت أن ترى الطيارة الشراعية من مكان قريب والارض بعد « الكشك » غير ممهدة . ولكن عناء السير فيها محتمل ولا خوف من الغوص . وقد طوفت من قبل فى أرجاء هذا الفضاء الرحيب . فهى تعرف صلابة الارض ولا تخشى رخاوتها ، غير أن الحظ خانها فى هذه المرة .. فما كادت تقف بالسيارة وتنأى عنها قليلا ثم ترجع ، حتى ألفت العجلة قد غاب نصفها فى الرمال الخائنة . وكان تلاميذ الطيران الشراعى بعيدين عنها بعد « الكشك » ، فهل تترك السيارة وتعود أدراجها الى الكشك تلتمس من صاحبه المعونة ، وتسأله أن يدعو الى نجدتها بعض خفرائه ؟ .. لم يبق من هذا مفر على ما يظهر ، والا صار خطبها أدهى بعد الغروب . وصح عزمها على ذلك ، فأقبلت على السيارة تريد أن تأخذ منها حقيبتها وقبعتها واذا بصوت يقول لها : « اسمحى لى .. »

فالتفتت مذعورة .. فما سمعت وقع قدميه وهو مقبل عليها ولا رأته ، وان كانت قد دارت بعينها فى المكان ونفضته قبل أن تنوى الرجوع الى « الكشك » . ولم يسألها الرجل شيئا ولم ينظر اليها بل انطرح على الرمل بثيابه الانيقة بعد

ن القى طربوشه فى السيارة ، وراح يجرف الرمل بيده من
خلف العجلة وقدامها .. ولما فرغ من ذلك ووسع للعجلة
نهض ومشى مطرقا ينظر الى الارض كأنما يبحث عن شيء ،
ثم انحنى وتناول حجرا كبيرا ولوحا من « الصاج » وعاد
بهما فوضع الحجر خلف العجلة واللوح أمامها وتحتها ،
ليكون دورانها عليه لا على الرمل . ثم نهض مرة أخرى ،
وقال : « أظن هذا يكفى .. فلنجرب على كل حال »

فقالت : « اشكرك .. لا أدرى ماذا كنت اصنع لو لم
تنجدنى »

فأشار بيده ، وقال : « أجلى الشكر حتى أستحقه ..
ان العجلة المسكينة لا تزال غائصة ، فلننقذها أولا »

ومضى الى آخر السيارة ، وقال : « اديرى المحرك
وسيرى بها ، وسأدفعها من الخلف »

ففعلت وخرجت السيارة ثم وقفت على مسافة امتار ،
ونزلت منها جليلةمتهللة الوجه فصاح بها : « لماذا وقفت ..
هل حدث شيء ؟ »

قالت : « لا .. انما جئت لأشكرك »

ففرك يديه ومد يمناه اليها ، وقال : « آه صحيح ..
صار الشكر الآن واجبا . أليس كذلك ؟ »

فضحكت وسرها منه انه لا يبدو عليه أنه يريد شكرا ،
وأنه كان ينتظر منها أن تمضى عنه بلا كلام

وقالت ، وهى تبتسم له فى عينيه : « الا تريد أن
اشكرك ؟ »

فقال وهو ينفض الرمل عن ثيابه : « كلا .. انه دين قديم
أؤديه .. بعضه على الأقل »

ففاضت الابتسامة ، وقالت مستغربة : « دين ؟. لى انا ؟
ولكنى لا أذكر انى أعرفك .. لا مؤاخذة »

قال : « صـــدقيني حين أقول لك انه يسرني أن أراك ناسية .. انها ذكرى خليقة الا تثير في نفسك الا الامتعاض والنفور بل المقت .. فالحمد لله »

فدنت منه مقدار خطوة ، وقالت : « ولـكن أرجو أن تريحني .. هل تعرفني ؟ »

قال : « اعرفك ؟ اظن ذلك .. وان كنت لا أكتمك اني نسيت اسمك .. انتظري .. ورفع كفه الـكبيرة الغليظـة الى جبينه .. اسمك يا ستي .. غريب أن تبقى الصورة كل هذه الأعوام ويذهب الاسم .. أوه .. جما .. جميلة .. وجدته وجدته .. جليلة .. أليس كذلك ؟ »

فصاحت : « نعم .. نعم .. ولكني آسفة لأني لا أذكرك ابدا ... لا صورتك ، ولا اسمك »

فقال بابتسام : « انهما جديران منك بالنسيان »

فألحت عليه ان يذكر لها اسمه ، فقال : « هذا لغز سأترك لك حله وانت عائدة »

فابتسمت ، وقالت : « الا تخشى أن أشغل به عن الطريق وما فيه فتحدث لي حادثة ؟ »

فقال : « صحيح .. صحيح .. اذن لم يبق لي مفر من التضحيـــة . سأخسر ما صرت جديرا به من الشـــكر ، واسترد سخطك القديم »

فسألته وهي تضحك : « هل كنت فظيعـــا الى هـــذا الحد ؟ »

فقال : « ستعرفين مبلغ فظاعتي حين تعرفين اسمي .. مراد الباروني »

فأطرقت ، وقالت على مهل : « مراد .. الباروني .. (وهزت راسها) كلا .. ان ذاكرتي لا يختلج فيها شيء .. آسفة »

فقال ، وهو يضحك : « أما أنا فان ذكراك يقشعر لهـا بدني ، فما أستطيع ان انسى انك صببت على ماء قربتين من الماء فى الشتاء . سلطت علي خرطوم الحديقة واطلقت على ماءه .. أهذه ذكرى تنسى ؟. الست معذورا اذا ظللت متذكرا ؟ »

فدنت منه ، وقالت بصوت خافت كالهمس : « مراد ؟.. صحيح .. »

فقال : « وكنت ظالمة لى .. »

فقالت : « كلا .. لقد تذكرت الآن ، فقـد وضعت لى دودة ميتة فى قفاى .. الحق أنك كنت فظيعا »

فاشار بيده اشارة المستنكر : « لا .. لا .. هذا كان سوء تفاهم .. اعنى انى كنت فرغت من اللعب بالدودة ، وظننت انك قد يسرك ان تأخذيها لتلعبى بها .. ولـكنى اخطأت فوضعتها لك فى قفاك بدلا من يدك ، بل كان الخطأ منك لا منى .. فقد جعلت تجـرين خائفـة وأنا أجرى وراءك ، فلم يسعنى الا أن أتركها حيث تيسر لى .. فالذنب ذنبك يا جليلة »

فقالت جليلة ، وهى تضحك : « أتذكر كيف كنت تصيح باعلى صوتك كلما رأيتنى .. وكيف كنت تجرى ورائى وتدبدب برجليك كلما أدركتنى فتزيدنى رعبا ؟ »

فقال : « نعم اذكر ذلك .. اذكر كل شىء .. انه كل ما بقى لى منك .. لقد كنت اصيح وأدبدب لأخفى عنك حبى لك »

فقالت : « غريب .. أكنت تحبنى ؟.. لقد كان نجاحك تاما اذن فى اخفاء هذا الحب »

ونظرت الى وجهه الذى لوحته الشمس وشعره الذى ظهر فيه الشيب هنا وهنا ، واخذت الصورة القديمة

تسترد ألوانها وتبرز معالمها شيئا فشيئا ، ثم قالت : « لقد كبرت جدا .. طولا وعرضا .. وتغيرت أيضا . من الذى يراك الآن فيذكر ذلك الطفل الشقى الذى كان يسود عيشى ويرعبنى كلما ظهر فجأة من وراء شجرة .. أو من تحت الارض فيما كان يخيل الى .. ماذا صنعت بنفسك كل هذه السنين ؟ »

فقال : « أوه .. ماذا يصنع الناس بنفوسهم ؟. يكبرون ويقعون على عمل يشتغلون به . انا أيضا وجدت لى عملا .. فى تجارة رابحة والحمد لله .. وأنت ؟.. »

قالت : « أوه .. كبرت مثلك »

فقاطعها وقال : « كلا .. انك لم تتغيرى .. لو كان هنا دود لما خطر لى وانا أنظر اليك الا اننا ما زلنا طفلين ، ولهممت بأن أضع لك واحدة فى قفاك »

فضحكت وقالت : « لقد صرت مهذبا جدا .. لم يبق شىء من ذلك الطفل اللعين .. غريب أن نلتقى هنا هكذا بعد كل هذه السنين .. ماذا كنت تصنع ؟.. أعنى هنا »

قال : « أتمشى .. للرياضة »

فتنبهت ، وقالت : « اذن لا أقل من أن أحملك معى فى السيارة »

وقال وهو يركب معها مسرورا : «ما قولك . نحتفل بهذا اللقاء الذى لم يكن لى ولا لك فيه حساب ، بالعشاء نتناوله فى محل الحاتى .. هه ؟ »

فابتسمت لنفسها فى مرآة السيارة وأصلحت شعرها الذى عبث به النسيم ، ثم التفتت اليه وهزت رأسها أن نعم .. ثم انطلقت تخطف بسيارتها الارض

ولم يكن فى جليلة خفة أو طيش ، ولكنها كانت فتاة وحيدة مدللة .. ورثت عن أبيها قسوة القلب واستقلال

الطبع ، وعن امها سرعة الاستجابة لدواعي الخير . وقد مات أبوها قبل سنوات ، فلم يبق لأمها سواها ولم تهمل تربيتها .. ولكنها كان ينقصها حزم زوجها وحكمته ، فألقت لها الحبل على الغارب وهي تحسب أنها لا تعدو ماكان يصنع ابوها . على أن الفتاة لم يكن فيها سوء ولم تثمر الحرية شرا ، وانما اكدت استقلالها واورثتها تمردا صريحا على كل قيد من القيود التي يفرضها العرف حتى على الفتاة الحديثة . وكانت أمها وبعض أهلها يشق عليهم ذلك أحيانا ، فتقول لهم اني لا أفعل سوءا ، ولا أسيء أدبي ، ولا أتوقح على أحد ، ولا قيمة لخروجي وحدي ، أو مرافقة أصحابي وصواحبي الى السينما أو غيرها ، لأني استطيع بسهولة وبلا عناء أن أحافظ على نفسي .. فكانت امها تسكت ولا تقول شيئا لعلمها أن الكلام لا خير فيه

ولم تكن جليلة بارعة الحسن ، ولكن صوتها كانت له حلاوة التغريد .. وكانت نظرتها الحالمة تفعل فعلين يبدوان متناقضين .. تنعش القلب وتفتر الجسم ، فاذا أدامت اليك كرة الطرف — على عادتها اذا سرها منك عمل أو قول — شاع الرضى في نفسك وفاضت بالسرور ، ودار راسك ، واحسست بالخدر في أعصابك . وكانت أقرب الى القصر منها الى الطول ، والى الامتلاء منها الى النحافة والهزال ، وقد حمتها كثرة الحركة والولع بالمشي في الهواء الطلق ، وفطام النفس عن الاطعمة الدسمة الثقيلة ، أن تصبح كأمها أكداسا من اللحم تلح على روحها . وكانت سمراء ، ولكن سمرتها مشربة حمرة لا كدرة فيها ولانمش . وكان شعرها جعدا واثيثا .. وكانت تفرقه وترسله الى الوراء وتعقصه وتأبى أن تقصه . كانت انيقة بلا تكلف ، ولم تكن رقيقة الحال أو مضطرة الى حسن التدبير والاقتصاد .. فقد ترك لها أبوها الحازم ثروة كافية ،

ولكنها كانت تؤثر أن تصنع ثيابها بيديها ، فتجيء محبوكة التفصيل على قدها الجميل يبرز من تحتها ثدياها الناهدان الراسخان كالرمانتين الصغيرتين . وكانت مجدولة الساقين لا عظيمة العضلة ولا مضطربتها ولا عرقوب لها . وجمال الساق فى المرأة يشير بحسن القوام . . وكانت تكره الأحذية العالية الكعوب نفورا من بروز الفخذين . على أن هذا كله ما أكثر من يشاركنها فيه ، ولو اقتصر الامر على التكوين المادى لما كانت لها مزية تنفرد بها ، ولكن أنوثتها كانت قوية الجذب شديدة الاغراء . . فلولا استقلالها وشخصيتها لما استطاعت أن تنجو من المعاطب

☐

وقال مراد وهو عاكف على البيان الذى قدمه اليه الخادم : « معذرة ، فانى اتضور جوعا . . لم آكل فى نهارى شيئا . ماذا تريدين . . كباب . . لحم راس . . حمام ؟ انى أرى الحاتى عنده كل ما يؤكل . . لا الكباب وحده . . ما قولك ؟ »

فآثرت الكباب ، وقالت : « ان هذا فنه الذى يمتاز به ، فيحسن أن اقتصر عليه »

وكانا جالسين فى آخر القاعة ووجهها هى الى الباب ووجهه الى الناس . وشغلا برهة بالأكل وذكريات الطفولة، فقال لها وهو يضطجع : « أتذكرين يوم تحديتك أن تتسلقى النخلة ؟ . . (فهزت رأسها) لقد كنت لا تطيقين التحدى . . فهل أنت ما زلت كذلك ؟ »

فوضعت الشوكة على الطبق ، ونظرت اليه وسألته : « ماذا تعنى ؟ »

قال بابتسام : « أعنى ان وراءك . . بعد مائدتين اثنتين . .

رجلين أحدهما يحدق فى ظهرك ، لا يخالجنى شك فى أنك تحسين وقع نظراته على جسمك .. انها نظرة حامية .. كاوية .. أنتظرى قليلا وسأدعو الخادم ليجيئنا بالقهوة ، فأديرى وجهك حين يقبل وانظرى »

ففعلت ثم اعتدلت فى جلستها وقد علا وجهها الاصفرار، فأكب مراد على بقية الفاكهة وتشاغل بها عما رأى فى وجهها من دلائل التغير . ولم تفت جليلة هذه الكياسة منه، ووقع من نفسها اتقاؤه الفضول .. فتماسكت وضبطت صوتها وهى تقول : « لقد تغيرت جدا .. من كان يظن أن ذلك الطفل الخبيث الذى كان يتعقبنى وينغص حياتى يصبح هذا الرجل الوديع الظريف الكيس ؟. أتعرف من هذا يا مراد الذى يكوينى بنظراته ؟. انه خطيبى زكى .. أفهمت الآن ؟ »

فقال بهدوء وبصوت متزن النبرات : « خطيبك زكى ؟.. هذه أخبار .. أظن أن من واجبى ان أقدم لك التهنئات »

ولكنها احست من نبرات صوته على الرغم من اتزانها أن هذا الخبر لم يسره ، فقالت : « لا داعى للعجلة .. ثم ان الزواج مسألة عادية جدا على كل حال .. أو كما يمكن أن تقول أنت .. هو شر يصيب كل انسان .. عاجلا أو آجلا .. متى يصيبك يا مراد ؟ »

فقال : « أنا ؟.. لا أدرى .. صاحبك .. اعنى خطيبك لا يزال محملقا فى ظهرك . فهل تستطيعين أن تنهضى وتذهبى اليه وتقولى له بكل هدوء ان لك حقا فى أن تتناولى العشاء مع صديق قديم مثلى وضع فى طفولته دودة فى ظهرك وصببت عليه عشرين قربة من الماء فى الشتاء ؟ »

فقالت ببساطة : « انى أحب زكى .. وانت لا تعرفه .. بالطبع ليس فى كونى معك هنا ما ينبغى أن يسوءه ، ولكنه لا يعرف أنك هذا الصديق القديم .. كل ما يعرفه أنه

خطيبى .. وانى ـ كما قال لى مرارا ـ طائشة.. مندفعة»

فقال مراد : « اشربى القهوة .. لا تفسدى على نفسك الليلة .. ستشرحين له كل شيء،فيعود حملا وديعا ويعتذر اليك من هذه النظرات الحامية »

فشربت القهوة، ولكنها كانت ساهمة .. فقد كانت تحب « زكى » هذا ، وكانت تكره الاضطرار الى الشرح وتستثقل أن تحتاج حتى الى ما يشبه الاعتذار

وقال مراد : « لقد قام الرجلان .. خطيبك وصاحبه »

فقالت : « يحسن أن نقوم اذن .. فسيودع صاحبه ولا شك ويقف فى انتظارى .. أشكرك يا مراد .. نبهتنى الى انه خرج فلألحق به »

وخرجا..وودعها مراد بعد أن عرفت منه عنوانه،وعرف منها عنوانها ، وألح عليها أن تتصل به اذا جد أمر من جراء لقائهما الليلة

وقالت جليلة لزكى : « معى سيارتى ، فلا حاجة الى تاكسى »

فدخل فى السيارة واضطجع .. ثم قال : « من هذا الرجل الذى كان معك ؟ »

فقصت عليه ما وقع لها عند المطار ، فقاطعها وقال : « كيف تكلمين رجلا غريبا ؟ ان هذا كثير .. »

قالت : « ولكنه ليس غريبا .. لقد نشأنا معا .. فى حى واحد »

فنفخ وقال : « ولكنك لم تكونى تعرفين انه هو صديق طفولتك »

فقــالت بلهجة المستغرب : « هل كنت تريد ان أتقبل معونته ولا اشكره على الأقل ؟ »
فترك هذا وقال : «ولماذا تخرجين الى هذا المكان وحدك ؟»
قالت : « لأنك مشغول عنى بأعمالك الكثيرة التى لا تدع لك وقتا لمرافقتي .. ومع ذلك اى بأس هناك ؟ »
قال : « بأس ؟. بأس ؟ هذا الذى حدث لك من غوص العجلة اليس بأسا ؟ »
قالت : « لا تكن متعنتا .. ان السيارات يمكن أن يحصل لها أى شيء فى أى مكان فى الدنيا » . فترك هذا أيضا وقال : « ولكن تأتين معــه الى الحاتى .. ماذا يقول النــاس ؟ »
فقــالت : « اذا كان الحــاتى مكانا لا يليق أن يدخله الشريف .. »
فقاطعها بسرعة ، وقال : « لست أقول هذا .. الأمر على العكس »
قالت : « اذن انتهينا »
فسكت ، فما رأى حجة له تنهض . وساءه ذلك فقد كان شديد الاعتداد بنفسه ، وكان عظيم الطموح واسع الأمل فى المنازل الملحوظة .. فلم يسره أن الفتاة التى سيتزوجها تقرع حجته بأقوى منها ، وأحس أن فى هــــذا تنقصا له وغضا من مقامه وسقوطا لهيبته ، ولكن الكلام خانه فآثر السكوت على مضض
وكان زكي — أو اذا اردت اسمه كله زكي الدين حمد — من أصل تركى أو شركسى — سيان — وكان يطمع أن يبلغ بماله الموروث حيث لم يستطع أن يبلغ بالكفاية الشخصية . وكان أمله الذى لا ينفك يحلم به فى اليقظة والمنام أن يصبح يوما من أعضاء البرلمــان ، ومن أجل هــذا كان يتقرب الى الزعماء السياسيين بوسائل شتى .. وكان يعنيه جدا أن يحسن رأيهم فيــه وظنهم به .. وكان يحرص على المركز

المأمول ، ويحيط نفسه سلفا بكل مظاهر الأبهة والسمت والوقار ، وينظر الى الامر كله كأنه واقع . وينتظر من الناس أن يعدوه كذلك ، بل أن يبالغوا ويروحوا يمدون بصرهم الى المستقبل ، وأن يخالوه كما يتخيل نفسه فيه وزيرا أو رئيس وزارة

وقال لجليلة ، وهو يودعها على باب بيتها : «أرجو يا جليلة ان لا تعرضيني لكلام الناس ، واذكرى أن لى مركزا يجب أن أحافظ عليه »

فسحبت يدها من يده وقد آلمها كلامه ، وأحست أن سهما وقع فى قلبها . وكانت حساسة وذكية . ولم يكن يخفى عليها أن ليس له مركز سوى ما يفيده الغنى . ولم تكن هى تحتاج منه الى مال فان مالها كثير . وكانت تدرك أن ما يسميه « مركزه » جانب ضعف فيه ، ولكنها كانت تغض عن ذلك لحبها له .. غير أنها لم تكن تتوقع أن يتهمها بأنها تسىء الى هذا المركز ــ وان كان موهوما ــ فضلا عما تنطوى عليه عبارته من التعريض بها ، بعد أن شرحت له الأمر كله ولم تخف عنه شيئا . وماذا تخفى وليس فى الأمر ما يستدعى الكتمان ؟.

وقالت له ، وهى تهم بالدخول : « ليلتك سعيدة »
فسألها : « متى نلتقى غدا ؟ »

فأطرقت شيئا ثم رفعت رأسها ، وألقت اليه ابتسامة ساخرة ، وقالت : « غدا ؟.لا..انى على موعد مع مراد.. »

ولم يكن ثم موعد ولا شبهه ، وانما قالت ما قالت مدفوعة اليه بضجرها وألمها

ودخلت .. وتركته واقفا وفمه مفتوح

□

ولم تحاول أن تلتقى بمراد فى اليوم التالى ، فقد كانت

تدرك أن هذا لا يكون منها الا خرقا وحماقة .. فلزمت بيتها الى المساء ، ثم خرجت فى سيارتها على عادتها وجالت بها جولة قصيرة ، ثم ردت بعض الزيارات وعادت فلزمت غرفتها . وكان الألم لا يزال يحز فى نفسها ، فساء نومها واضطرب . وذهب يوم وجاء يوم ، ولكنها أحست ثقلا فى جسمها وفتورا .. فبقيت فى فراشها ، وأوصت أمها أن تمنع أن يزعجها أحد — حتى ولا زكى — فشعرت الأم أن فى الأمر شيئا ، ولكنها حدثت نفسها أنه خلاف لا يلبث أن يزول . وجاء زكى يسأل عن خطيبته ، فعرفت الأم أنه لم يلقها منذ يومين .. فأظهرت تعجبها وزلت ، فقالت انها كانت تحسب أنها لم تخرج الا للقائه . وزل زكى أيضا فقال لها أن جليلة تسلك مسلك الاطفال ، وأن ذلك يسىء الى مركزه ، وأنه كلمها فى ذلك فغضبت ولجت فيما نهاها عنه ، فهو يرجوها — الأم — أن تكبحها قليلا .. فما يليق أن تترك هكذا — حبلها على غاربها . وعرفت جليلة هذا الذى دار بين أمها وبين خطيبها ، فدهشت له .. ولكنها لم تغضب ولم تثر ، بل كان من الغريب أنها أحست كأنما وضع لها فى مكان القلب قطعة من الثلج

وجاء العصر .. فركبت سيارتها وخرجت بها الى مصر الجديدة . وكان كل همها أن تكون وحدها وأن تدور دورة فى الهواء الطلق وتمشى قليلا ، عسى أن ينفعها ذلك .. فيعفيها من الشعور بالانقباض والفتور . وأنها لفى بعض الطريق ، واذا بها ترى مرادا يمشى بسرعة كأنما يريد أن يدرك موعدا .. فوقفت وأشارت اليه وقد أحست أن جسمها قد صار أخف مما كان .. فجاءها يعدو ، فسألته : « الى أين ؟ .. »

فلم يجب عن هذا السؤال ولم يلق اليها تحية ، بل ركب وهو يقول : « أرانا نلتقى فى هذه الأيام .. حسن هذا .. أليس كذلك ؟ »

فأعداها ما فى وجهه من البشر ، وقالت ضاحكة : « غريب هذا .. تمضى سنوات لا نلتقى فيها مرة واحدة ، وفى أربعة أيام نلتقى مرتين »

فقال : « لا تغلطى يا فتاتى .. ليست هذه مصادفة .. »

فنظرت اليه مستغربة ، وسألته : « ليست مصادفة ؟. »

فقال وعلى فمه ابتسامتــه الوضيئة التى لا تفــارقه : « كلا .. ليست مصادفة .. انها ارادتى سلطتها عليك فجذبتك الى حيث أنا .. نعم » . فعاد اليها اشراق وجهها واطمأنت ، وقالت : « أوه .. آه .. ارادتك ؟ طبعا .. »

فقال : « لا تمزحى .. انى أتكلم جاداً »

فرمت اليه نظرة سريعة ، فألفته لا يزال يبتسم .. فحولت وجهها الى الطريق ، وقالت : « هذا بديع .. تكلم ، ان أذنى لك »

قال : « نعم .. ارادتى .. لم أزل منذ عشر سنين أربى هذه الارادة ، فهل تستغربين انهــا بلغت من القوة هــــذا الشأو ؟ . بالطبع لا .. وأنت أول من ينبغى أن يكون من تلاميذى المؤمنين بى .. من حوارى . هه ؟ .. وسأفتتح بك العهد الجديد »

وبلغا آخر الطريق الى المطار ـ من ورائه ـ فجلسا على سلم الســيارة ، وأخرج مراد سيجارة وذهب يدخن فى صمت .. فلمــا طال ذلك التفتت اليــه وقالت : « انك لا تسألنى ماذا حدث »

فلم يحول وجهه اليها وأدرك من كلامها أن شيئا لا بد أن يكون قد حدث .. ولم يشأ أن يتطفل عليها بالسؤال ، فاكتفى بأن يقول : « ان اذنى لك .. أعرناك السمع »

فقالت : « انك قليل الفضول »

قال : « لأنى مشغول عنه بما فى نفسى .. الدكان غاصة . لا تحتمل زيادة »

قالت : « لغة التاجر .. اسمع .. غضب زكى .. أوه . غضب جدا .. لم يقل شيئا كثيرا .. كل ما قاله انى خفيفة طائشة ، وانى أسيء بسلوكى الى مركزه »

فانتفض مراد واقفا وقد تجهم وجهه ورمى السيجارة ، ثم التفت اليها وقال بلهجة صارمة : « من يكون زكى هذا ؟ »

وكبح نفسه عن الاسترسال ، ورد لسانه بجهد ، وضبط أعصابه ، وعاد الى مكانه من السلم والتفت اليها وقال ، وقد وسعه أن يبتسم مرة اخرى : « معذرة .. ليس لى حق .. قولى انك صفحت عنى »

فسرها منه انه غضب لها ، وفارت نفسه بالسخط على خطيبها من أجلها ، فقالت له برقة : « اشكرك .. اننا صديقان قديمان »

فقال لها ، وهو ينهض مرة اخرى : « قومى نتمشى .. دعى السيارة ، فلن يخطفها أحد »

وقطعا مسافة وهما صامتان ، ثم وقف والتفت اليها وقال : « اسمعي يا جليلة .. انى أعتمد على ما تخولنى صداقتى القديمة من الحق فى الصراحة .. عشرون قربة من الماء تجعل لى هذا الحق .. أريد ان أقول انى تحاشيت فى مقابلتنا الأولى أن اكاشفك بما أضمر لك من الحب كل هذه السنين الطويلة ، لأنك قلت عرضا أنك مخطوبة .. ولكن وجه المسألة تغير اليوم بعد أن سمعت منك ما قال هذا البغل »

فقاطعته ضاحكة : « اذكر انه خطيبى . لا يزال خطيبى . وانى قلت لك انى أحبه »

فقال : « لم يعد هذا يعنينى .. لست أحاول أن أصرفك عنه .. كلا ، ولكنه لم يبق لى بد من أن أقول انى أحبك ، وانى أحبك مذ كنت طفلة ، وكنت أعابثك وأكايدك واصرخ

فى وجهك . وكان هذا مظهر حبى الصبيانى .. أما الآن ، فان مظهره انى مستعد أن أذهب الى خطيبك هـذا واخنقه بيدى هاتين »

فقالت ضاحكة : « لقد توهمت لحظة انك صرت أرق »

فقال : « كلا .. أنا كما كنت .. واسمعى ولا تقاطعى والا بحثت عن دودة ووضعتها لك فى قفاك .. اذا حدث يوما ان صار الدكان للايجار فاخبرينى »

فقالت : « لغة التاجر أيضا .. ولكنى سأستعيرها منك .. ثق أنك مفضل عندى على كل مستأجر لهذا الدكان اذا خلا يوما من الأيام .. لم يخطر لى أن هذا ما تنطوى عليه لى .. ومن التى تتصور أن وضع الديدان فى قفاها يكون علامة حب ؟ . ولكنك كنت دائما غريبا .. على كل حال ، المسألة المهمة أن الدكان مزحوم . ليس خاليا .. رحت أستبضع فامتلأ .. صحيح أنه امتلأ بأشياء لا قيمة لها .. ولكنى لم أكن أعرف ان ما غص به عديم القيمة .. المهم أنه ممتلىء، وأظنك تدرك انه ما دام مملوءاً فلا مكان هناك لجديد .. يجب الصبر حتى أخليه مما فيه .. هذا يحتاج الى وقت . ومن يدرى ، ربما كان الاخلاء أصعب من الملء . ولكنك تفهم .. قل أنك تفهم وتعذر .. »

فقال ببساطة وهدوء : « لا بأس . لا بأس .. ان دكانى أيضا مزحوم . ولكنه مزحوم بالنفيس الغالى .. ولست أريد أن اخليه ــ لا أستطيع أن أخليه حتى لو أردت . وهيهات أن أريد أو أستطيع .. انه مكتظ منذ خمس عشرة سنة ، وسيظل مكتظا طول العمر . وقد عرفت أن مفتاحه معك .. فى يدك .. فادخلى حينما تشائين . وعسى أن تشائى .. عدينى أن تحتلى مكانك من الدكان بعد أن تفرغى من أمر دكانك .. وفى أثناء ذلك نبقى كما كنا دائما .. صديقين حميمين »

ولم يسع جليلة الا أن تفكر فى أمر الرجلين ــ مراد الذى تعرفه منذ الطفولة ، والذى كان يسود عيشها بعبثه ــ لأن هذا كان تعبيره الخاص عن حبه لها ــ وقد ظل بعد ذلك يحبها ، ولكنه أحجم عن طلب يدها لرقة حاله بالقياس اليها. وقد صار تاجرا،ولكنه لم يثر لأنه لا يربح الا الكفاية. . ومن هنا احجامه الى الآن عن خطوبتها كما حدثها . وقد زاد على ذلك أنه كان لا يتصور أن ترضى به فتاة مثلها ، فكتم حبه وطواه فى صدره ، وسأل الله المعونة على احتمال اليأس المخامر . وهو ظريف كيس لبق دائم البشر واسع الادراك رحيب الأفق حلو الفكاهة . . . وزكى الغنى الذى لا ينفك مهموما بمركزه المتخيل والذى لا يتقى فى سبيل الحرص عليه أن يجرح قلب فتاة ويتهمها بالخفة والطيش فى سلوكها ، وبأن سيرتها توشك أن تسىء الى مركزه الموهوم هذا . وقد أحبته . . هذا صحيح ، ولكن عينها فتحت ، فهى تراه الآن على حقيقته . وليس يسعها الا أن تفكر فى حياتها معه كيف تكون ، اذا كان كل ما يباليه فى الدنيا هو هذا المركز . . ولكنها خطيبته وقد قبلت أن تكون زوجته . . فما العمل الآن ؟

وسألت نفسها : أى الرجلين أحب اليها ؟. . وحيرها الجواب . . فهل هذا الذى تشعر به لمراد حب ؟ ان يكن هذا فهو هادىء جدا . . أما زكى فان الدكان كما قالت لمراد مزحومة . . صحيح أنها مزحومة بما لا قيمة له ــ كما ظهر الآن ــ ولكنها مزحومة . . فهل تخلو يوما ؟ . هذه هى المسألة . . والى أن تخلو لا سبيل الى شىء

ولو أن زكى ذهب اليها فى ذلك الوقت ولاطفها وضاحكها ومازحها واعتذر اليها ــ ولو كانت هى فى رأيه المخطئة ــ لعادت المياه الى مجاريها كما يقولون ، ولارتفعت قيمة ما فى

الدكان وارتدت اليه نفاسته . ولكنه أراد أن يلقنها درسا ، فأعرض أياما وجفاها وانقطع عن زيارتها ، ولم يكفه ذلك .. بل أرسل اليها خادمة من عنده تبلغها تحياته وتسألها باسمه عن صحتها ، وأوصاها أن تخلق مناسبة لتقول لها أن سيدها يكثر فى هذه الايام من زيارة بيت خالته ــ وكانت لها بنت فى مثل سن جليلة ــ ليثير غيرتها واشفاقها من أن يطير العصفور من يدها ، فأفلح ولكن فى استثارة نقمتها عليه .. فقالت لنفسها ان رجلا يهينها ويعرض بها ويرميها بأن سلوكها من شأنه أن يسىء الى سمعته وأن يضر بمركزه ، ثم لا يجعل هذا بينه وبينها بل يفضي به الى أمها ، ثم لا يكفيه هذا بل يجفوها ثم يغلو فى تعمد الاساءة اليها فيرسل اليها خادمة تبلغها أنه انصرف عنها الى سواها .. مثل هذا الرجل خير له ولها أن ينقطع ما بينهما

□

على أنها لم تتعجل ــ وان كان عزمها قد صح على الفراق ــ فقد كانت شديدة الثقة بنفسها والاعتداد باستقلالها وارادتها الحرة ، فلم تر ما يدعو الى العجلة بعد أن انتوت أن تفصم العروة . واستوى عندها أن يكون ذلك يوم انتهت الى هذا العزم ، وأن يكون بعده بأيام أو أسابيع . فقد كانت واثقة أنه ما من شيء يستطيع أن يحولها عنه . وصار عجبها أن الدكان خلا بسرعة مما كان يغص به . ولم تكن تلقى فى تلك الأيام مرادا ، لأنها أرادت أن تختبر نفسها لتعرف ما تنطوى عليه له .. فأدهشها أنها تحس وحشة ، وأنها تشتهى أن تكون معه ؛ وأن تستعيد ما تشعر به فى مجلسه من سكينة النفس واطمئنان القلب والرضى الهادىء . وزاد شوقها اليه أنها كتمت الأمر كله عن أمها ، فلم يكن هناك من تبثه ما فى نفسها . ولو كان مراد الى جانبها ، لكان خليقا أن يفهم

ويعذر ويعطف وأن يسرى عنهـا بفكاهته التى لا تخونه ، وأن يغذيها بقوته التى تجعله لا ينسى أن يضحك وهو يفجع فى أمله الذى عاش به سنين وسنين ..

وتعجبت لسرعة استيلاء مراد على هواها ، فمـا لقيته الا مرتين بعد طول الانقطاع والغيبة . فهل هذا هو الحب الذى يقال عنه انه يكون من أول نظرة .. أم تراها كانت تحبه مذ عرفته وهى لا تدرى ، وكان حبها له راقدا كامنا ينتظر فرصة للظهور ؟ .. لا شك أنها كانت تحبه، كذلك قالت لنفسها وهى راقدة على سريرها بعـد الغـذاء . نعم كان يقسو عليها ويركبها بالمزاح المتعب ، وكان يختبىء لها وراء الأشجار ثم يفاجئها بصرخة ترعبها فيضحك ويقهقه . وكان يجرى وراءها حتى تنقطع أنفـاسها وتقع من الاعيـاء .. فيحملها ، ولكنه لا يرحمها ، ولا يترفق بها .. بل يقرصها ويعضها ، فتصرخ وتصيح وهو يضحك ولا يبـالى . ولم تستطع أن تنتقم منه الا مرة واحدة حين ارسلت عليه خرطوم الماء فأغرقته ، فجعل ينتفض من البرد . ولكنه كان يضحك مع ذلك ولم يسخط عليها .. ولم ينطق بكلمة تشى بالألم او النقمة أو الغضب ، بل احتمل ذلك . ولما رق له قلبها واقبلت عليه بالاعتذار اليه وطلبت الصفح منـه ، لم ينس دعابته وعبثه ونبحها كما يفعل الكلب « وو .. وو .. » ففزعت . فما كانت تتوقع شيئا من ذلك ، ومضت عنـه مغيظة محنقة معتقدة أنه شر صبى فى الحارة ، وكان هو يقهقه وينطوى من شدة الضحك غير عابىء بالماء والبرد .. فتالله ما أقواه . ومع ذلك كانت لا تلعب الا معه .. واذا أقبل عليها غيره من الصبية نفرت . نعم لا شك أنها كانت تؤثره .. ولماذا لا تقول انها كانت تحبه ؟ . صحيح أنها لم تكن تعرف الحب .. ولكنها تعرف الآن ، فقد صارت خبيرة مجربة .. فلماذا لا تسمى الشىء باسمه الصريح ؟

وارتدت من الماضى الى الحاضر ، وذكرت كيف غاصت

عجلتها فى الرمل ووقفت حائرة .. واذا به يظهر كأنما شق الأرض وخرج منها – كما كان يفعل وهو صبى – وينطرح على الأرض بلا كلام أو سؤال ، ولا يبالى ما يصيب ثيابه ، ويجرف الرمل بيديه الكبيرتين ويحمل الحجارة .. يفعل كل ذلك ولا يرفع عينه الى..ثم يعرفنى فيتلطف فى تذكيرى بنفسه . ويتظاهر بنسيان اسمى وهو منقوش محفور فى قلبه .. وتنازعه نفسه أن يفضى الى بحبه ، فيشير اليه من بعيد فى معرض الكلام على ذكريات الحداثة .. ويعرف انى مخطوبة ، فيفقد كل أمل . ولكنه يتجلد ويتكلف الابتسام ويمضى فى مؤانستي بحديثه ، كأنما لم ينهد ولم يتقوض بنيـانه .. وهل أنسى كيف ثار وانتفض حين رويت له ما أهاننى به زكى ؟. فقد كانت وثبته تلك دليلا كافيا على عمق ما يجن لى من الحب .. ومع ذلك أبت له الكياسـة والأدب الا أن يكبح نفسه ويردها عن النيل من زكى مخافة أن أكره ذلك منه ..

وظلت تناجى نفسها على هذا النحو ، ولا تكتحل عينهـا بغمض حتى كان العصر .. فقامت ولبست ثياب الخروج ، واستقلت سيارتها الصغيرة الى دكان مراد ، فأقبل عليهـا يرحب بها ، فقالت : « أنت أولى من الغريب »

فابتسم وقال : « آه .. أهو ذاك ؟ »

قالت : « نعم .. اريد شيئا من الحرير .. قطعا كثيرة . ألوانها شتى .. الوقت ضيق »

فقال : « الوقت ؟.. لست فاهما شيئا .. »

قالت : « ألا تعرف أن العروس تحتاج الى ثياب كثيرة ؟ »

فامتقع لونه ، ولكنه تجلد وقال : « متى ، ان شاء الله ؟. لست أطمع أن أدعى ، ولكنى أريد أن أحتفل بليلة الجلوة وبسرورك فيها .. وحدى »

فسألته بخبث : « وحدك ؟ »

فقال : « نعم .. لن يكون معى سوى خواطرى »

وادار وجهه الى الباب ليخنق زفرة يعلو بهـا صدره ؛ ثم التفت اليها وقال : « متى يكون هذا ؟ »

فرفعت اليه وجها مشرقا ، ونظرت اليه نظرتها الحالمة ، وقالت « : متى تريد أن يكون ؟ »

فقطب ، وقال : « ايه ؟ »

فأعادت سؤالها : « متى تريد ان يكون ؟ »

فحدق فى وجهها ـ فى عينيها ـ ثم صاح وقد فطن الى ما تعنى ، وانحنى عليها فرفعها بيديه عن الكرسى غير عابىء بالعمال والزبائن ، وأهوى على فمها باللثمات ثم ردها الى الكرسى ، وصاح بأحد رجاله : «اذهب . اذهب . حالا . حالا»

فوقف الرجل كالأبله لا يفهم ولا يدرى أين يريد منه أن يذهب ، فصاح به : « هات المأذون .. الا تعرف المأذون يا أبله ؟ اذهب .. حالا .. »

فوقفت جليلة واقبلت عليه تسأله : « ماذا تعنى ؟ ماذا تريد أن تصنع ؟ »

فقال : « ماذا أعنى ؟ . يا له من سؤال .. نعقد العقد .. هنا .. حالا فى الدكان .. هذا ما أعنى .. رجالى وزبائنى شهودى .. شهود سعادتى .. لقد كان التجار فى الزمن السالف يجيئون برجال يقفون على أبواب الدكاكين ويدعون المارة أن يدخلوا ويزينون لهم البضاعة ، وقد انقضى ذلك الزمن وحلت الاعلانات فى الصحف محل هؤلاء المنادين .. ولكنى اليوم سأقف بالباب وأدعو الناس .. كل الناس . أن يدخلوا ، لا ليشتروا ، بل ليشاركونى فى سعادتى . لماذا لم يجىء المأذون ؟ اذهب انت وراءه واستعجله »

وفرحت جليلة بهذا الجنون وخجلت أيضا .. افرحها ان عقله استطير من فرط الجذل ، وأخجلها ان كل هؤلاء

الناس من العمال والزبائن يرونها وأن عيونهم جميعا عليها ، وأنهم جميعا يفحصونها ليعرفوا سر هـــذا السحر الذى ذهب بلب الرجل الذى ألفوا منه الرزانة والوقار والسكينة والظرف والعقل.. وأرادت أن تستمهله ، فأبى.. فاقترحت أن يذهبا بالمأذون الى البيت ، فأبى أيضا ، وقال : ان ناسا فى هذا الزمان يتزوجون فى الطيارة .. فماذا يمنع أن نتزوج فى الدكان ؟ فقالت : انه فرق ســاعة ، والمسافة الى البيت لا تستغرق زمنا . فأبى أيضا ، وقال انه يخاف عليها أن تطير وتتسرب فى الهواء .. كلا ، ولا بد أن يكون العقد هنا

وراقها هذا الجنون وألهب خيالها فرضيت ..

وتزوجا فى الدكان !

وقالت له وهمـا خارجان : « نسيت أن أقول لك انى وجدت أن الدكان لم يكن خاليا قط .. كان ما فيه مخزونا من أيام الصبى .. فلما أدرت عينى فيه عرفت ، ولهـذا جئت »

فقبلها على باب الدكان ..

ولم يستحى الرجل !

الكآبة

يقول بعض الأطباء بلهجة الجزم التى لا تردد فيها ولا تلعثم ، أن حيوية الجسم الانسانى تكون أدنى ما تكون بعد منتصف الليل . وفى تلك الساعة العصيبة ، يعجز العقل عن تدبر الحاضر بسكينة ورضى ، واستشفاف المستقبل بشجاعة ، ورجع البصر فى الماضى بغير أسف . ولكن كل أمرىء غير هؤلاء الأطباء يعرف أن ساعة الكآبة والهبوط لا وقت لها ، وأنها قد تكون الاولى صباحا أو الثانية مساء . كما قد تكون فى العصر أو الغسق . فليس لها ثبات ولا أوان معروف ، وأن ساعتها قد تكون ثوانى أو دقائق . وقد تمتد وتطول ، فينطوى فيها الليل والنهار جميعا والعمر أو خيره فى بعض الأحيان

ومهما يكن من ذلك ، فان المحقق على كل حال أن كاتبا مثلى لا يسعه الا أن يشعر وهو يتأمل « سعيدا » بقصوره وعجزه .. فان مثل هذه الكآبة لا يستطيع أن يوفيها حقها سوى مجمع من أعلام البيان . وقد يسع « زولا » أن ينصفها ، وعسى أن يكون « جوركى » قادرا على تناولها بقلمه ، ولعل « دستويفسكى » كان أقدر من سواه على ذلك ، ولكنها فوق طاقتى وحدى . وشر ما فيها انك لو سألت « سعيدا » نفسه عنها ، ما سببها أو داعيها ، لما وسعه أن يعلله .. ولكان الأرجح أن يتعجب لها ، فقد كان حسن الحال ميسر الرزق . ولا نكران أنه كان يكد ويتعب فى سبيل الرزق .. ولكن كل انسان يفعل ذلك ، حتى أصحاب الضياع لا مفر لهم من العمل والسهر والتعهد والعناية بما يملكون ، والا نضب المعين وجف المورد . وكان

فوق ذلك ذا زوجة صالحة فيها رقة وجمال وادب وحذق ولها عقل ، وكفى بهــذا نعمة . وكان فى تلك الســاعة فى « قهوة » لها حديقة تشرح الصدر . والطريق أمامها واسع نظيف ، واليــوم يوم أحــد ، والغوانى يرحن ويجئن على الرصيف .. كل اثنتين أو ثلاث أو أربع معا ، وهن فى حفل من الزينة . وأخلق بالمرء حين ينظر الى وجوههن الصبيحة وقدودهن البارعة وخطرتهن الرشيقة ، ويسمع أصواتهن البلبلية أن يشيع البشر فى نفسه . وكانت فى حديقة القهوة نافورة صغيرة ، ترسل الماء خيوطا دقيقة تعلو ثم تتناثر على صورة المظلة . وقد اجتمع المــاء والخضرة والوجــه الحسن ــ بل الوجوه الحسان ــ فماذا يبغى سعيد فوق ذلك ؟ .. أم ترى اجتمــاع ذلك كله هو ســر الكآبة .. من يدرى ؟!

وجاء ماسح الأحذية وقعد ومد يده بالصندوق الى رجل سعيد بلا استئذان ، فرفع هذا قدمه الى الصندوق بحكم العادة لا بدافع الرغبة .. فقد كان الحذاء نظيفا لماعا

وقال الرجل بعد فترة صمت شغل فيها بغسل الحذاء بالماء والصابون : « من زمان ما جئت الى هنا يا بك »

ولم يكن سعيد « بيكا » ولا كان له أمل أو رغبة فى رتبة كهذه .. فانه رجل عمل لا يحفل بالألقاب والرتب ، ولكن كل امرىء «بك» عند ماسحى الأحذية وسائقى المركبات . ولم يزد سعيد فى جواب السؤال على «آه» ، ثم أدار عينه فى الجــالسين بهــذه القهوة فألفى ناسا يشربون وآخرين يلعبون«الطاولة»وحولهم كثيرون ينظرون اليهم وهم وقوف . وأخذت عينه رجلا وامرأة جالسين تحت شجرة وامامهما قدحان من « الزبيب » فقد كان هذا أحــد الشهور التى لا «راء» فى حروفها ــ وهى مايو ويونيه ويوليه وأغسطس ــ والقاعدة المصرية أن شرب « الزبيب » يحلو ويطيب فى هذه

الشهور الأربعة . فاشتهت نفسه قدحا من الزبيب .. وصفق فجاء الخادم ، ولكنه تردد وخطر له أنه ليس معه من يشاربه . فنظر الى الخادم الصبور ، وسأله : « عندك ايه ؟ » ولم تكن به حاجة الى سؤال كهذا ، ولكن الخادم ألف هذا من الزبائن،ووطن نفسه عليه،فقال بلا تململ : «قهوة ، شربات ، كازوزه ، شاى . . » وأمسك . ثم كأنما تذكر ، فزاد «خشاف ، ليموناده» . . ولم يأنس من سعيد قبولا ، فقال : «ويسكى ، كونياك . . » فاستوقفه سعيد باشارة ، وسأله : « كونياك من أى صنف ؟ » فقال الخادم : « كمبا،كمبا عال ، مارتل ، كورفوازييه ، أنيسى . . »

فهز سعيد راسه ، وقال : « هات زبيب »

ومضى الخادم ، فقال ماسح الأحذية : « القهوة دى يا بك عال »

فزاد صدر سعيد ضيقا ولم يجب ، ودار بنفسه أن كل انسان سعيد الا هو . وأنكر أن يكون اسمه سعيدا ، ورأى فى هذا الاسم تهكما من الأقدار . وخطرت فى هذه اللحظة فتاة أمامه وألقت نظرة سريعة على حديقة القهوة وهى تمر بها ، فقال سعيد لنفسه أنه كان خليقا أن يشعر ببعض السعادة لو كانت معه فى هذه الساعة فتاة كهذه تؤنسه بحديثها . ومرت فتيات أخريات وراءها ، فقال لنفسه : « ما أكثر الفتيات اللواتى يمشين وحدهن ولا رجال معهن » وتنهد تنهد الأسف . . لا عليهن ، بل على نفسه !

وقال ماسح الأحذية : « شارع ظريف يا بك . . وخصوصا يوم الأحد . . » وأشار بيده اشارة عامة يمكن أن تشمل المبانى ومركبات الترام . ورفع وجهه الأسمر الى سعيد وابتسم له ابتسامة لا تخلو من معنى . . فعبس سعيد ، ثم بدا له أن التعبيس لا موجب له ، فابتسم متكلفا ورد عينه الى الشارع ومن يمشين فيه

وقال الرجل : « بس سعادتك ما بتجيش »

فاحمر وجه سعيد ، فقد أدرك غرض الرجل . ولم يخف عليه ما يرمى اليه ، وكان الزبيب قد جاء فصب عليه ماءاً ، ورفع الكأس الى فمه ورشف . واقبلت اذ ذاك فتاة تعدو على الرصيف وكان جسمها لينا وثوبها محبوكا ، فلم يسعه الا ان ينظر الى صدرها العارى ، وخصرها الهضيم وتحته ردفاها يرتجان ، وثناياها اللؤلؤية التى تفتر عنها شفتاها الحمراوان . . فرفع الكأس مرة أخرى وشرب وقال لنفسه : انه مسكين مسكين ومحروم محروم . ثم ارتد يقول ـ لنفسه أيضا ـ انه ليس مسكينا ولا محروما فان له زوجة جميلة ، وأن فى وسعه أن يعجب ما يشاء بجمال النساء غيرها . . ثم يسكن بعد ذلك الى زوجته ، وأن حسبه من السعادة وفاءها وبرها واخلاصها . ثم هز كتفيه ـ وان كان وحده ـ وقال : « وما قيمة أن يعجب المرء بالجمال وما خير ذلك ؟ . وماذا يكون معنى هذا الاعجاب على مسافة أمتار ؟ لكأنى أنظر الى شريط سينما . . ولا فرق بين أن أرى الفتيات يخطرن على الرصيف امامى ، وأن ارى صور النساء فى شريط السينما . انما تكون للاعجاب قيمة اذا جالس الرجل المرأة وحادثها ونعم بوجودها وحديثها وأنس بمحضرها على العموم . ولكن . . » وهز رأسه مرة أخرى متحسرا . فقد كان فيه احتشام وحياء شديد . وكان من غريب أمره أنه يجتنب المجالس التى يختلط الرجال فيها بالنساء . وكان يدعى الى سهرات من هذا القبيل عند من يعرف من الاجانب والمصريين ، فيعتذر ثم يروح يقرع نفسه ويسخط عليها . وكان حياؤه أوشعوره الشديد بنفسه يوهمه أنه ليس مقبول الشكل أو ظريفا ، ولا انس لأحد به . وكان كثيرا ما ينظر الى نفسه فى المرآة ويدور أمامها ، ليرى كيف يبدو من كل ناحيـة . . فلا تعجبه الصـورة التى تطالعه ، فيمط بوزه

ويقطب وينحط على اقرب كرسي ويروح يفكر فى سوء طالعه ، حتى أورثه هذا اضطرابا فى الأعصاب

وصفق ، فقال ماسح الأحذية : « حاجة يا بك ؟ »

فقال سعيد : « لا .. » وتردد فقال : « ناد الجرسون »

فوضع الرجل الفرشاة ونهض ، ولما عاد جلس وهو يقول: « أنا خدامك يا بك .. تحت أمرك .. بس أؤمر . أتمنى خدمة .. والله يا بك »

فدار رأس سعيد ، وقال لنفسه : « لم يبق الا هذا .. نعم لم يكن ينقصنى الا أن أستعين بهذا الرجل .. مصيبة . مثلى يخطر له أن يستعين على سد الفراغ الهائل فى حياته الجافة برجل من هذا الطراز .. ومع ذلك ، لم لا .. ؟وماذا يستطيع مثله .. انه لا يسعه شيء أعجز حتى أنا عنه ، لأنه اذا كان يعرف أحدا فانه لا يعرف ولا يمكن أن يعرف الا الطبقة التى هى كالشمس لكل الناس .. أعوذ بالله .. لا .. ليس هذا ما اريد . ومع ذلك من يدرى .. ألا يمكن أن أختبره ؟.. »

وجاء الجرسون ثم انصرف ليجيء بالكاس الثانية ، فخطر لسعيد خاطر ، والتفت الى الرجل وقال : « اسمع .. انى أريد شقة صغيرة .. غرفتين فقط .. شقة أشتغل فيها . البيت ضجة وضوضاء .. شقة صغيرة هادئة .. فى حى محترم .. »

فأقبل الرجل على الحذاء يمسحه بهمة ونشاط ، وقال : « كثير يا بك .. بس أؤمر »

فقال سعيد : « طيب ابحث وابق قل لى »

فقال الرجل : « حاضر .. من عينى »

فرمى اليه قرشين ، فتقبلهما الرجل مسرورا داعيا مؤكدا صحة عزمه على خدمته باخلاص ، ومضى عنه

وتناول سعيد الكاس وشرب وهو يحدث نفسه أن هذا جنون. وماذا يصنع بالشقة ؟ أما ان أمره لغريب .. وهم أن يدعو الرجل ويصرفه عن البحث ، ولكنه عدل وقال ان الأمر بيدى أنا لا بيده ، فلا داعي للعجلة . غير أنه مع ذلك ستثقل أن يدع الرجل يظن به الظنون . وعاد يقول لنفسه أنه رجل لا قيمة له ولا لظنونه ، فليظن ما شاء .. ولكن حملته على نفسه لم تفتر

وكان الليل قد أظلم ولم تبدد سواده المصابيح .. وكان هو فى النور ، فقدرته على رؤية الشارع محدودة.. فصارت الفتيات كالأشباح ، واتسع المجال بذلك للخيال ، فالدميمة منهن يحيلها الخيال فاتنة ساحرة. وساعدته الخمر على اتمام الصور ، وجلاء غامضها ، وعلاج عيوبها المرئية أو الموهومة. وكانت الخمر قد أنعشته قليلاً ، فكان ينظر ويفكر ويتخيل بشيء من الارتياح .. ولكنه مع ذلك أحس أنه عاجز عن احتمال كل هذا الجمال ، وان كان أكثره مما رسم خياله ، فنادى الجرسون ونهض ..

ولقيه ماسح الاحذية وهو على الرصيف ، فسأله : « تجى بكره يا بك ؟.. »

ولكن البك لم تعد له اذن تستطيع أن تحتمل الاصغاء الى مثل هذا الرجل ، فقال له : « رح .. رح » فألح الرجل ومشي الى جانبه ، يقول : « ليه يا بك .. أنا خدامك .. بس استنى طول بالك .. ان ما كنتش أخدمك خدمة .. » فقاطعه سعيد ونهره .. ومضى عنه

والمثل يقول : « راحت السكرة وجاءت الفكرة » ولكن الفكرة تروح أحيانا مع الصحو وتجيء مع السكر .. أو على الأقل ، هذا ما كان من أمر سعيد ، فقد قال لنفسه انه اذا كان من العجز بهذا القدر .. فأولى به أن يظل عاجزا وأن يعترف لنفسه بذلك ويوطنها عليه . ولم يكن هذا الخاطر

مما يجلو الكآبة ويلطف الوحشة التى تحسها النفس،وأخلق بالاعتراف بضعف الحيلة وقلة الوسيلة وعدم الصلاح أن يزيد هبوط الروح ، ولا عجب اذا كان سعيد قد عاد الى بيته وهو يسأل نفسه لماذا شرب هذا الزبيب السخيف

ودخل على زوجته ، وهو يقول لها : « اسمعى..من الآن فصاعدا لا تدعينى أخرج ومعى فلوس .. بس الكفاية للانتقال .. فاهمة ؟ »

فظنت أن ما معه سرقه النشالون ، فقال : « لا .. بس شربت زبيب .. جنون بالطبع .. الرجال مجانين »

وارتمى على كرسى ، وهو يقول : « قال زينب .. كلام فارغ .. مسخرة وقلة حيا »

واتخذت كآبته صورة السخط على النفس ، ولا نعرف كيف كانت أحلامه فى تلك الليلة .. فانه لم يقصها على أحد ، ولكن الأرجح أنها لم تخل من « الزبيب والكلام الفارغ ! »



العقد الضائع

رجعنا من السويس على عجل ـ أختى وزوجها وانا ـ وكنا نقضى فيها أياما ، فقد تلقينا نبأ من خادمتنا القديمة الأمينة « فرحة » بأن عمدة قريتنا قادم .. وسينزل علينا ضيفا اجابة لدعوة قديمة نسيناها ، فأسرعنا نحشو الحقائب حشوا بلا عناية ، لنكون فى البيت قبل أن يصل . ومضى ابن عمى ـ زوج أختى ـ فجاء بالسيارة . وكنت قد هضت ساقى قبل ذلك بيوم، فلم يبق مفر من أن يسوق هو السيارة وان كان لا يحسن ذلك .. ولم يتلق فيه الا بضعة دروس قليلة . وكان الأحجى أن نستأجر رجلا لهذا ، ولكنا كنا نحرص على الا يكون معنا غريب يحول وجوده دون جريتنا فى الكلام والضحك واللهو أثناء الطريق . وقد عزيت نفسى بأن طريق السويس سهل والحركة فيه قليلة ، فلا داعى للخوف . وفى وسعه أن يخطىء كما يشاء ، فلن يضيره أو يضيرنا ذلك ، وان كان يخشى أن يضيع وقتنا

وجلست الى جانبه ، وجلست أختى على المقعد الخلفى ، وطمأنتها بأنى وأنا معه سأكون السائق الحقيقى ، وانه لن يفعل الا ما آمره . ولكنا لسوء الحظ ، ألفينا الطريق غاصا بالسيارات .. فتعجبنا أولا ، ثم تذكرنا أن هذا يوم الأحد ، فلا عجب اذا كان الكثيرون قد أقبلوا على السويس ليقضوا اليوم فيه

وقطعنا بضع عشرات من الكيلومترات فى سلام ـ وفى ضحك أيضا ـ ثم بلغنا أول مرتقى فى طريقنا ، فأشرت على ابن عمى بأن يضع ناقل السرعة فى المحل الثانى .. ففعل ، فوقفت السيارة فى منتصف الانحدار . وكنا لا نزال فى مكاننا حين وقف المحرك للمرة العاشرة ، فاقترحت عليه أن يكف

عن الممل ، وان يضطجع ويشعل سيجارة. ولكنه هز راسه وقال : « هل أرجع بها القهقرى ، ثم أبدأ من جديد ؟ »

فقلت له : « كلا ، انى أفضل لسخافتى أن أواجه الموت » .

فقالت أختي : « هل نستطيع أن ندفعها بأيدينا حتى نبلغ ذروة هذا المرتفع ؟ . . » قلت : « كلا . . ان زنتها لا تقل عن طنين »

وقال ابن عمي : « لن أسألك عن السبب فى وقوفها كلما حاولت أن أحملها على السير ، فانى أعرف جوابك . . ولكنى أؤكد لك انى اضع ناقل السرعة فى مكانه بأقصى ما يسع انسانا من الترفق والبطء . . واذا كنت تريد أن تعرف رايى فهو أن السيارة قد اصابها تلف »

قلت : « سيصيبها التلف على التحقيق ، اذا ظللت تحاول ان تدير المحرك ثم توقفه . . فستنفد الكهرباء وتحتاج كلما أردت ادارة المحرك أن تنزل وتديره « بالمنفيلا » . وقد ينفعك هذا ، فيغريك بالتفكير قليلا »

فصاح بى : « أتظن انى لم أفكر ؟ . . اتتوهم انى لا افكر الآن ؟ . . أن راسى يكاد ينفجر من فرط التفكير » . .

فضحكت أختى ، فصاح بها : « نعم اضحكى . . انظرى الى الجانب المضحك . . ولم لا . . قد يطير عقلى ، ولكن هل يجوز أن يمنعك هذا من الضحك ؟ »

وداس برجله الزر يريد أن يدير المحـــرك . . ووقفت السيارة مرات اخرى لا اذكر عددها فاضـطجع واغمض عينيه وراح يقول : « لا فائدة . . لا فائدة . . قضى الأمر ، وانا واثق أنه كتب علينا أن نبقى هنـــا الى الأبد . ومن يدرى . . ربما كان فى الطريق مارد فى يده سيف مسلول . . والسيارة تراه وان كنا نحن لا نبصره . ومن العبث أن يقاوم المرء القضاء والقدر . كلا . . لا تتكلموا . . فانى أوثر أن اقضى نحبى فى سلام وبغير ضجة »

وفى هذه اللحظة وقفت الى جانبنا سيارة ونزل منهـا رجل لم نكد نبصره حتى أيقنا أنه انجليزى ، وحقق هو ظننا فقال لنا بلغته : « هل أستطيع أن أساعدكم ؟ »

فشرحت له الأمر وعرفته خطبنا ، فابتسم وهم بكلام ولكن ابن عمى قال له : « امض عنا .. اذهب .. وحدك .. ان امامنا ماردا وقد حذر السيارة من المضى ففهمت عنه .. كان صريحا فيما قاله لها ، اذهب وأرجو لك السلامة »

فابتسم الرجل ودعاه الى النزول ، واتخـذ مكانه .. وصعد بنا الى رأس التل ، ولم يكتف بذلك بل ظل معنا ـ على مسافة منا .. وراءنا ـ حتى فرغنا من المرتفعات ، وصار الطريق بعد ذلك سهلا منبسطا ، فشكرناه ولكن أى شكر يمكن أن يفى بحسن صنيعه ومروءته ؟

وكان مساء .. ثم كان صباح

ولم يكن النهار قد ارتفع ولا كانت الشمس قد علت ، لما دخلت على « فرحة » توقظنى قبـل موعدى المألوف بساعتين ، وتخبرنى أن أختى تصيح على وتدعونى اليها فى غرفتها . وقد عجبت ، وحق لى أن أعجب .. فما أعرف موجبا لازعاجى فى مثل هذه الساعة المبكرة ـ السابعة من فضلك ـ ومع أختى زوجها ، فما حاجتها الى ؟ وقدحاولت ان أهمل هذه الدعوة ، ولكن « فرحة » أبت أن تمضى عنى وتدعنى استأنف النوم .. فتمطيت وفركت عينى وتثاءبت وقلت لها : « ماذا هنالك يا فرحة ؟ »

فقالت بلهجتها الهادئة المطمئنة وصوتها المتزن النبرات الذى لا أذكر أنه ارتفع عن هذه الطبقة مرة واحدة فى عشرين عاما قضتها معنا مذ كانت طفلة : « ان الامر يستدعى وجودك »

وفرحة عاقلة ذكية وحريصة دقيقة العبارة ، قد رباها أبى مع أختى وعنى بتعليمها أيضا ، وجعل لها حصـة فى الوقف الذى وقفه قبل وفاته . وكانت هذه مفاجأة سارة

لنـا ، فقـد أحببنا فرحة حب الأخت . وكانت هي ـ وما زالت ـ ربة البيت . ولسنا نعاملها معاملة الخدم وانما نعدها واحدة منا لها علينا مثل الذي لنا عليها . وحسبك منها ، أنها ما أخذت في حياتها معنا أجرا على خدمة ، وأنها بعد وفاة أبينا لم تحاسبنا قط على ريع حصتها وان كنا نودعه البنك باسمها .. فاذا ارادت ثوبا أو خاتما أو غير ذلك طلبته منا ، كما يمكن أن تطلبه أختي مني أو من زوجها . فاذا كانت تقول الآن أن الأمر يستدعي وجودي ، فقد صار القيام لا بد منه

ودخلت على أختي وورائي فرحة ، فألفيتها مستلقية على السرير في منامة قرمزية مزركشة ومعتمدة بكوعها على وسادة وثيرة مربعة محشوة بريش النعام وخدها على راحتها ويسراها على فخذها وبين اصبعيها سيجـارة .. وكان منظرها فاتنا فانها جميلة ممشوقة ، وكانت هذه الرقدة تبرز خطوط جسمها الرشيق وبراعة الانحناءات فيـه . وكان زوجها قاعدا فوق السجادة ، فنظرت منهـا اليـه وقلت : « لاعجب أن تدللها . لست بانسان اذا لم تفعل »

فابتسمت مسرورة وأدنتني منها وقبلتني ، وقالت : « اجلس هنا .. الى جانبي على السرير .. وأنت يا فرحة .. قصي عليهم الحكاية » فأراحت فرحة أناملها على شباك السرير واشارت بيدها الاخرى الى منضدة صغيرة قريبة ، وقالت : « قبل أن اترك الغرفة وضعت بيدي عقدها ـ واشارت الى أختي ـ على هذه المنضدة ، وفي الصبـاح دخلت عليها فلم أجده . وسألتها عنه فقالت انه في مكانه ، فذهبت الى البك ـ تعني زوجهـا فان فرحـة مؤدبة ـ وسألته فجعل يضحك ويتحسس عنقه ويقول انه ليس هنا .. هذه هي الحكاية »

فقلت متمما لها كلامها : « فجئتم بشرلوك هولمز ليحل

اللغز ويضع يده على اللص . أشكر لكم هذه الثقة العظيمة»

فقالت أختي ، وهى تضحك : « العفو .. الواقع أن كل ما أذكره هو أنى قمت بالليل ، وغبت عن الغرفة دقائق ، ومررت فى عودتى بغرفة هــذا الزوج الصالح .. ولــكن شخيره كان عاليا فهربت »

فنهض ابن عمى محتجا وقال وهو يتمشى : « شخيرى .. هل تريدين أن تقولى انك أفردت لى غرفة من أجل شخيرى .. شخيرى .. ليتك ترين نفسك فى المرآة وأنت نائمة . اذن لرأيت كيف ترمين اللحاف وتضربين برجلك هنـــا وبيدك هناك ، كالأطفال بلا ادنى فرق . لقد تزوجت طفلة حين تزوجتك .. تقول شخيرى .. مثل هذا الطعن القبيح على سيدها وتاج راسها ، هل يليق يا فرحة ؟ »

فابتسمت فرحة ولم تقل شيئا . وماذا عساها تقول ، وشخيره يزعج الجيران حتى لقد جلا السكان عن هذا الحى ، وخربت بيوت أصحاب العمائر فيه

... وانتهت ضجة الضحك أخيرا ــ ولكل شىء آخر ــ فقلت : « ماذا كان شرلوك هولمز خليقا أن يصنع فى مثل هذه الحالة ؟ »

فصاح بى ابن عمى : « دع الفلسفة من فضلك .. الأمر واضح .. البيت موصــد من كل ناحيــة والمنافذ كلها مسدودة ، فالذى أخذ العقد لم يجىء من الخارج وانما هو ولا شك واحد ممن فى البيت »

فصحنا جميعا ــ ما عدا فرحة فانها مؤدبة .. « برافو .. برافو .. » فلم يعبأ بنا ومضى يقول : « الجديد علينا هو ابن العمدة .. فهو السارق »

فلما نطق بهذا ، صحنا به جميعا ــ حتى فرحة وان كانت مؤدبة ــ فلم ينهزم ، وقال وهو يعود الى الجلوس على الحشية : « لا بأس .. ولا داعى للصياح .. المسألة

بسيطة ، اذا لم يكن هو اللص فمن عسى أن يكون غيره ؟ »
فقلت : « أنت مثلا .. لم لا ؟ »

فقهقه ، فقلت : « الا يمكن أن تكون قد أخذته لتضعه فى مكان أمين ثم نسيته كعادتك ؟ » انك هكذا وأنت تعرف ما يكلفنا نسيانك . قم انظر أين وضعت العقد ، واذكر الأسفنجة .. قبل أن تعترض وتحتج .. قم من فضلك »

فقالت اختى وهى تعتدل فى مجلسها : « يا سليم .. انى لم اخطىء حين ازعجتك .. كلا ، وأنا الآن واثقة أن ابن العم قد نسى أين وضعه »

فصاح بها محتجا : « ولكنى يا ستى لم أدخل غرفتك .. ودعتك ــ أعنى قبلتك ولا مؤاخذة يا سليم ، فهذه عادة الأزواج ــ ثم لم أعد .. فكيف يمكن أن أكون قد أخذته ؟ »

فقالت وهى تقف : « تذكر .. حاول أن تتذكر .. »

وزدت أنا على قولها : « جرب مرة واحدة أن تكلف هذا الرأس عملا .. لا تخف أن تتعب »

فمضى عنا الى الباب وهو يقول : « انى ذاهب الى الحمام .. »

وهنا ينبغى أن أقول أن العقد الذى غاب مما ورثناه عن أمى ، وهو من اللؤلؤ النفيس .. وكانت حباته نحو مائتين ، وأكثرها من الكبار فى حجم الفولة ، وقد رأينا أن نجعل منه عقدا واحدا صغيرا أعطيناه لفرحة ، وبقى الكبير وآخر صغير لأختى .. فكانت اذا لبست أحدهما تلفه على نحرها الجميل ، فغير معقول أن يسرق منها وهو على نحرها . على أن الأمر لا محل فيه للتخمين ، فقد قالت فرحة أنها وضعته على المنضدة .. وفرحة صادقة ، ثم أن ذاكرتها لا تخونها أو تعابثها كما تعابث ابن عمى ــ احمد ــ ذاكرته . ولم يكن أسخف من قوله ــ وان كان يمزح على عادته ــ أن ابن العمدة « حسن » هو الوحيد الذى تتجه اليه التهمة ،

فان « حسنا » هذا من سراة الناس ، وهو فوق ذلك من أقرباء أحمد الأدنين . وقد ذكرت ذلك لأريك الى أى حد يذهب احمد فى مزاحه

ولا أحتاج أن أقول اننا استقبلنا يومنا مكتئبين مهمومين محزونين ، فان للعقد قيمته الذاتية والمعنوية .. وقد كنا نتكلف المرح ونبدى صفحة البشر ونتلقى الأمر بما يشبه الاستخفاف ، لأننا اعتدنا أن نواجه الأمور على هذا النحو ، وربانا أبوانا على الجلد وضبط الاحساس . أما احمد فكان بطبيعته هزالا يركب الحياة بالدعابة والبشاشة والعبث ، وقد احبنا واحببناه وانس بنا وانسنا به ، فعاش معنا وآثر بيتنا على بيت ابويه ، وانتهى الأمر بما كان لا بد أن ينتهى به ــ اى أن يتزوج أختى ــ ولست أعرف أسرة أخرى تعيش هذه العيشة السعيدة الرغيدة . وحسبك أن المال موفور وأن الطباع رضية والأمزجة متطابقة

□

ومن عادة احمد ان يغنى وهو فى الحمام . ولست أعنى انه يغنى الأصوات الشائعة ، وانما اعنى أنه وهو فى الحمام يصف كل ما يعمل ، ويرفع الصوت بالغناء بهذا الوصف .. فاذا كنت على مقربة من الحمام لم يسعك الا أن تسمعه يقول ــ أو يغنى على الأصح : « أين الاسفنجة يا سيدى .. لا بد أن تكون هذه الزوجة المهملة قد ضيعتها .. ومن يدرى يا حبيبى .. فلعلها خبأتها عمدا .. آه يا روحى .. واين الكبريت .. أظننى نسيته .. هذا خازوق يا حبيبى .. وكيف أسخن الماء الآن .. يا لعنة الله انزلى على رأس الذى اخترع التدفئة بالغاز .. آه يا عينى .. والله وحسة .. نجد الكبريت فلا نجد القرش الذى نضعه فى الثقب لينطلق

الغاز .. ويسخن الماء فلا نجد الاسفنجة .. واجد كل ذلك وانام فى الحوض ، ويبدأ الشعور بالراحة واذا بالغاز قد فرغ . وأخذ الماء يبرد .. ويجب أن أخرج من الحوض لأضع قرشا آخر فى الثقب وأبحث عن الكبريت.. والكبريت مبلول .. معلوم يا سيدى .. أو الكبريت فرغ .. طبيعى .. أصيح .. ومن يسمع .. البس البرنس وأخرج لأجىء بكبريت .. خازوق آخر يا حبيبى .. لقد سيبت الغاز مفتوحا .. فالحمام كله غاز .. وستختنق يا ولد اذا لم تفتح النافذة .. أفتح يا سيدى وابرد .. وحوح يا حبيبى من البرد .. الذى سمى هذا حماما كان ولاشك ابن حرام »

وهكذا الى غير نهاية .. ومن تحصيل الحاصل أن اقول اننا اعتدنا أن نقف قرب الحمام كلما دخل فيه احمد لنعرف ما يجرى فيه ، فنقع على الارض من كثرة الضحك. ولا بد أن يحدث له شىء لا يحدث لسواه ، لأنه كما أسلفت سريع النسيان .. ينسى أين وضع الاسفنجة وانه رمى الكبريت فى الحوض ، وينسى أنه نسى أن يجىء معه بقروش ليضعها فى الثقب .. فانه يبقى فى الحوض ساعة وساعتين وهكذا. ولولا أنه نساء لعابثناه عامدين لنضحك ، ولكنه أغنانا عن ذلك

وكان حسن قد استيقظ ونهض ليلحق بنا ويجلس معنا ، فألفانا عند الحمام واقفين وأن كانت المقاعد فى الدهليز ، فحيا بيده .. فاشرنا اليه أن اسكت .. ورآنا نبتسم وأحس من هيئتنا اننا نتسمع ، فمشى على اطراف اصابعه ووقف معنا يصغى ايضا ، وكان احمد يقول : « العقد ضاع .. قال ضاع .. كلام فارغ يا حبيبى .. والله ما اخذه الا هذا الحرامى الذى نزل فى ضيافتنا .. بالطبع سرقه. .فى عمر امه ما رات مثله. .الأقارب عقارب يا سيدى .. ضاع العقد يا ستى .. أنا المسكين يا حبيبتى

.. هات لى عقد غيره يا سيدى .. طبعا يا ماما .. من يدرى .. لعل العقد لم يضع .. أيوه يا سيدى .. لم يضع . الأرجح .. والمعقول أن يكون فى الدولاب .. أخفته الزوجة الصالحة لأشترى لهـا عقدا سواه .. النسوان ملاعين يا روحى . قالوا العقد ضاع .. ضاع فين يا أهل القونطة . لا يا ستى العقد فى الدولاب ، والغرض مرض »

وكان يبدىء ويعيد فى هذه المعانى .. فأما حسن فلم يفهم وكان ينظر منى الى أختى ، وكان يرانا نضحك فيتكلف الضحك مثلنا .. وأما اختى فضحكت أولا ثم لما سمعته يتهمها بأنها خبأت العقد لتطالبه بحلية .. تجهمت ، فشددت على ذراعها ، فنظرت الى مبتسمة وهزت رأسها ، وعاد الى وجهها الاشراق .. ولكنها لم يسعها الا أن تقول لنا ونحن نمضى عن الحمام قبل أن يخرج هو علينا : « شف .. ينسى اين وضع العقد ثم يدعى أنى خبأته .. طيب.. »

وقال حسن : « الا تقول ما هى الحكاية ؟ »

فضحكت ، وقلت : « الحكاية باختصار أن أختى لا تجد عقدها .. واحمد يتهمك بسرقة العقد .. لقد سمعته بأذنك .. والآن أفهمت ؟ »

وكانت هذه صدمة ، فان معرفة حسن بأحمد يسيرة ، وان كان من أقاربه الأدنين .. ولكنه احتمل هذه الصدمة ، وأسرعنا نحن فعرفناه بأساليب قريبه ، فضحك معنا . ولكنه مع ذلك صار يطرق من حين الى حين

وخرج احمد أخيرا ودخل علينا وفى يده صحيفة يتأملها وينظر الى الصور التى فيها فما كانت له عناية بقراءة الصحف . وجلس الى المائدة وأدار عينه فيما عليها ، ثم سأل : « ماذا أعددت لنا يا امرأة ؟ »

فاغتنمت أختى هذه الفرصة ، وصاحت : « الا تنتظر حتى يستعد الباقون للأكل ؟ . ما هذه الشراهة .. ثم كيف

تزعم انى اخفيت العقد لتشترى لى سواه ؟ ! »

فقال ببطء : « الجواب على السؤال الأول بالنفى .. النفى البات .. أما الشطر الثانى من السؤال ، فان الرد عليه يكون بعد الأكل .. فانه يحتاج الى عقل ، والعقل يذهب به الجوع ». فعادت تصيح به : « ولكن كيف تجرؤ ؟ »

فقال بهدوء : « من الغريب أنى جئت الى هنا لآكل لا لأتكلم أولا يا امرأة » . فقالت : « هل عنيت بالبحث فى ثيابك ؟ . بالطبع لم تعن .. »

فالتفت الى حسن ، وقال : « شف يا حسن .. شف .. احذر يا ابنى أن تتزوج .. لا عذر لك وقد رأيت بعينك ما تصنع الزوجات ببعولتهن »

فقال حسن : « اظن انى سأتزوج .. وعلى فكرة كيف تسمح لنفسك أن تتهمنى بالسرقة ؟ »

فرفع احمد يديه الى السماء ، ثم التفت الى حسن وقال : « وأنت أيضا ؟ .. لم يبق لى عيش فى هذا البيت .. فلأرحل » . ونهض ، وقال : « يا امرأة ، انى فى المكتب »

لم ندع مكانا فى البيت الا بحثنا فيه ، ولا ثوبا فى خزانة احمد الا نفضناه وقلبنا جيوبه .. حتى السجاجيد رفعناها ونظرنا تحتها .. حتى الستائر نحيناها وأجلنا عيوننا فيما وراءها وفيها ايضا مخافة أن يكون حبل العقد قد علق بشىء منها . فلم نجد عقدا ولا حبة من عقد ، فيئسنا وحل الاكتئاب محل البشر ، فقد كنا الى ما قبل ذلك نعتقد أن العقد موجود فى مكان ما ولكن أعيننا لا تراه . وقد أعدنا البحث مرة أخرى لظننا وتوهمنا اننا تخطيناه بعيوننا ونحن نديرها كما هى العادة فى حالة الاضطراب . ولم يكن احمد يعفينا من مزاحه فى خلال هذا البحث المتعب .. فلما كففنا ، قال وهو يضطجع ويشعل سيجارته : « لا فائدة .. لقد كنت أعلم من أول الامر أن لا فائدة .. قلت لكم مائة

مرة أن هذه الزوجة تعرف أين يوجد العقد .. نعم ، هى خبأته » . فصاحت به : « ألا يمكن أن تسكت ؟ »

فقال : « أسكت كيف .. وأنت تحملينا كل هذه المشاق من أجل خرزات ؟ » .. ولم يتمها . فقد هجنا به احتجاجا على وصف حبات اللؤلؤ بأنها خرزات

ولما هدأت الضجة ، قالت أختى : « اسمعوا .. انى لم أعد أطيق البقاء هذا النهار فى البيت ، فلنذهب الى أى مكان آخر ولنتغد هناك »

وكان هذا اقتراحا حسنا ، فان بقاءنا فى البيت كان خليقا بأن يغرينا باستئناف البحث مرة وأخرى ، فنشقى على غير جدوى . فمن الخير أن نخرج وأن نقضى النهار فى مكان آخر ثم نعود .. ومن يدرى ؟.. فقد نجد العقد تحت عيوننا حين نعود كما يحدث كثيرا . وما زلت أذكر كيف كنت أبحث مرة عن قلمى وكانت أختى معى ، فلما تعبنا جلسنا على الكراسى وهممت بان أخرج سيجارة واذا بالقلم بين أصابعى .. ومن الغريب أن أختى لم تره فى يدى كما لم أره . وقد ذكرت أختى بهذه الحكاية أو الحادثة ، وفى مرجوى .. أن أبعث فى نفسها الأمل ، فلا تقضى النهار يائسة ، وان كانت تتشجع وتتجلد ولا تبدى جزعا

وقمت الى حمامى على حين راح غيرى يلبس الثياب استعدادا للخروج .. وكان طبيعيا أن يفرغوا من شأنهم قبلى وأن يستبطئونى ، فانى أنا فى حركة دائمة فى الحمام ، وهم لا يصنعون شيئا بعد أن لبسوا الثياب ووقفوا ينتظرون .. وليس أشد على المضطرب القلق من الانتظار . فأقبلوا على باب الحمام يدقون عليه بأيديهم وينقرون بأصابعهم ، ويدعوننى أن أسرع ..

وأخيرا خرجت .. فما يمكن أن تكون لمستحم راحة أو لذة وعلى بابه من يصيحون به ويسمعونه ما يكره ، فلحقوا

بى فى غرفتى ولكنى أخرجتهم منها بجهد .. فانى مستعد ان احتمل كل شيء الا أن يحيط بى هؤلاء الصائحون الصاخبون وانا البس . على أنى أسرعت وعجلت لأتقى شر هجومهم على كرة أخرى ، وكانت ساقى لا تزال أحسها ثقيلة مما أصابها فى السويس وهاضها ، وان كانت لا تؤلمنى . فلما صرت اليهم فى الردهة وقفت هنيهة أدعكها بكفى لألينها ، فسألتنى أختى : « الا تزال تؤلمك ؟ »

قلت : « كلا .. لا الم ولكنى أحسها ثقيلة »

فقال ابن عمى : « كلك ثقيل يا أخى .. تعال »

فقلت : « ولكنى حقيقة أشعر أنها أثقل مما كانت أمس »

فقالت أختى : « طبيعى .. هذا من الجهد الذى تكلفته اليوم فى البحث »

فاقتنعت ونزلنا الى الباب ، وكان ابن عمى قد جاء بالسيارة قبل ذلك وتركها أمام الباب ، فجلست أختى ومعها حسن على المقعد الخلفى ، واتخذ أحمد مكان القيادة ، وقلت له وأنا أفتح الباب الآخر لأجلس الى جانبه : « لعل درس الأمس نفعك ، فلا تكرر أخطاءك المعتادة »

فزام أولا ، ثم قال : « ولكن اذا كنتم تريدون أن اشرفكم بتولى القيادة العامة .. أفلا يحسن أن اعرف الى اين يراد منى أن احملكم ؟ »

فقالت أختى : « أوه .. الى اى مكان .. الى القناطر الخيرية اذا شئت أو الى اى مكان تحب »

قال حسن : « الى القناطر اذن . اركب يا هذا .. ام تريد ان أنزل واحملك ؟ »

وكان الركوب يحوجنى أن أحمل ساقى بيدى ، لأن ثنيها كان يؤلمنى فى موضع الركبة .. فجلست على المقعد ووجهى الى الباب وملت على ساقى وهى ممدودة لأحملها وأدور بها لأدخلها فى السيارة . ثم ارتددت ضاحكا ، فسألتنى أختى

عن الخبر ، فقال لها زوجها : « دعيه .. انه يحلم . لا يزال نائما .. ألا ترين ؟.. أعنى ألا تسمعين ؟ »

فمسحت أولا الدموع التى ترقرقت فى عينى من فرط الضحك،ثم مسحت بطني التي صارت توجعنى..ثم تنهدت وقلت : « أخ .. مسألة ظريفة جدا »

فقالت أختى : « ولكن ما هى الحكاية ؟ . أتظن أن من اللائق أن نقف ساعة أمام الباب ؟ »

قلت : « اظن أن الواجب أن ندخل .. نعود الى البيت دقائق قبل أن نخرج الى رحلتنا »

فنهضت أختي عن مقعدها قليلا وزحفت الى الأمام مقدار شبر ووضعت كفها البضة على كتفى ، وقالت : « لا تعذبنى انطق » . قلت : « لا حاجة بى الى الكلام .. خذى »

وانحنيت فأخرجت العقد المفقود من طية البنطلون عند حرفه ، ورفعته الى عينها وقلت : « لقد كنت أظن أن ساقى اليوم أسوأ مما كانت أمس لأنى احسها أثقل .. فالآن عرفت السبب ، ولكنى لا أعرف كيف سقط العقد فى طية البنطلون »

ولا أزال الى الآن أجهل كيف أمكن أن يحدث هذا ، وانما الذى أعرفه أن أختى نعمت فى يومها هذا ، وأن ابن عمى حاول ان يركبنى بعبثه المألوف .. فوضعت كفها على فمه ، فقبل أصابعها ، ثم عضها ، فصرخت . فقال : « هذا جزاء من يدافع عن السراق واللصوص والخونة ! »

الحجارة

كثيرا ما أطلب العزلة والهرب من الناس لا لأنى أكرههم أو انفر منهم ، بل ليتسنى لى أن أخلو بنفسى وخواطرى . ولست أعنى أنى أشتهى أن أكون فى مكان خلاء . وانما أعنى انه يحلو لى احيانا أن ارى أن كل من حولى ممن لا أعرف . ولا أدرى كيف هذا .. ولكنه يخيل الى حين يتفق لى ذلك ، أنى خلعت ثيابى على ساحل بحر ورميت نفسى على مائه ورحت أسبح فيه ، واضرب بذراعى ورجلى،وأفعل غير ذلك مما يفعل السابح . وما أعرف من السباحة شيئا .. وانى لشبيه بابن الرومى الشاعر الذى يقول فى بعض شعره انه لم يتعلم من السباحة سوى «الغوص» وانه لو ألقى به فى الماء لسبق الحجر . ولكن هذه هى الصورة التى ترتسم بذهنى حين أرانى فى حشد كبير ممن لا أعرف من الخلق . وكثيرا ما يسألنى اخوانى : « أين كنت البارحة ؟ » فأقول : « كنت فى السينما » فيسألوننى : « وحدك ؟ » فأقول : « نعم مع الأسف » ولا داعى للأسف ، ولكنى اقول ذلك لهم على سبيل المجاملة ، فيقول قائلهم : « ولم لم تخبرنا ؟ .. اذن لذهبنا معك وانس بعضنا ببعض » فأقول : « أى والله .. ولكن هذا هو الذى كان ، فلندعه الى الحاضر الذى نحن فيه »

وفى نوبة من هذه النوبات ، ركبت سيارتى وانطلقت بها الى سينما « المتروبول » وانا أحدث نفسى بما أرجو أن أفيده من السرور والمتعة حين أرى تلك الطفلة الفاتنة «شيرلى تمبل» من غير أن يكون الى جانبى أحد يقول لى : « انظر . . يا سلام أما أنها لراقصة .. يا للبراعة . كيف استطاعت أن تجيد التمثيل الى هذا الحد ؟ . ترى كم ينقدونها أجرا لهـا فى

الاسبوع ؟ .. » الى آخر هذا الهذر الفارغ الذى يفسد على كل متعة

ووقفت أمام الشباك ومددت يدى الى الفتاة بثمن التذكرة، واذا بيد على كتفى .. فأبيت أن التفت الا بعد أن آخذ التذكرة ، ويحل غيرى محلى أمام الشباك مخافة أن يكون هذا صديقا فيلازمنى ، وماذا يبقى لى حينئذ من الوحدة التى أطلبها وأحدث نفسى بحلاوتها . ومن يدرى أى صديق هذا ؟.. فقد يكون ممن أحب وآنس بهم وأرتاح اليهم ، وقد يتفق أن يكون من الثقلاء الذين يفرضون أنفسهم على الناس ، فلا مهرب لمن يقعون عليه . وأحسست أنى نجوت فقد اخترت مقعدا بين مقاعد اخرى ليس واحد منها خاليا ؛ فأنا على الأقل فى أمان من جيرة هذا الذى وضع كفه على كتفى . ووسعنى أن التفت اليه وأنا مطمئن لأرى أى انسان هو .. فلم يخب ظنى ، فقد كان ممن ينبغى أن يهرب المرء منهم ويسأل الله السلامة من صحبتهم، فسألنى : «وحدك؟» فكرهت أن أكذب واكتفيت بأن أشير بيدى ، وأنا أمضى عنه، اشارة قد يكون معناها أن معى غيرى أو أنى ذاهب الى مكان ما أو غير ذلك ، مما يمكن أن يفهمه الانسان من اشارة غامضة كهذه

ونجوت بنفسى ، وكان فى الوقت متسع.. فقلت لنفسى : انى أخشى أن يلحق بى فلأبعد . فرحت أتمشى على الرصيف فى شارع فؤاد ــ وهو يغص بالناس فى مثل هذه الساعة ــ فجعلت أنظر الى الرائحين والغادين أو لعل الأصح أن أقول الرائحات والغاديات وهن مقبلات ومدبرات فى ثيابهن المحبوكة التفصيل التى تبدى منهن أكثر مما تستر . نعم تستر الجسم ، ولكنها تعرض على عينك صورة للقوام هى أبرع من صورة البدن العارى . فقد يكون الثدى مسترخيا

فيرفعه ويبرزه الرباط ، وقد يكون الخصر أكثر امتلاءا مما يجب .. فيرده حسن التفصيل أهيف ويبرز من تحته الردفين . ولم ازل أتمشى حتى آن أن أعود ، واذا فتاة أعرف وجهها ولا أجهل أين بيتها ، فانه قريب من بيتى .. وكثيرا ما رأيتها فى شرفتها أو داخلة أو خارجة من البيت أو نازلة من الترام . وأحسبها تعرفنى كما أعرفها ، فقد لفتت وجهها وأطالت النظر الى – فى عينى – فبيننا معرفة يسهل جدا أن تصبح وثيقة فى أوجز وقت ، اذا أمكن أن يفتح أحدنا فمه بكلمة . ولكن من هو الذى ينبغى أن يبدأ ؟ أما أنا فانه من العسير على – بل من المستحيل كما تبينت ذلك بالتجربة المرة – أن أبدأ انسانا لا أعرفه بكلام ، رجلا كان أو امرأة . وقد خطر لى وهى تنظر الى – لا بل تحدق فى وجهى – أن فى وسعى على الأقل أن أبتسم . ولم لا ؟.. ان الابتسامة تحية ظريفة ، فاذا قابلتها بمثلها انتهى الأمر ، واستطعت أن أنتقل أو أترقى الى الكلام . واذا أغضت عنها كأنها لم ترها ، ففى مقدورى أن أعزى نفسى بأنها خجلت أو أنها خشيت الا تكون هى المقصودة بها . واذا قابلتها بالعبوس أو غير ذلك من مظاهر الامتعاض والنفور ، ففى امكانى أن أزعم لنفسى مغالطا انى لم أكن أعنيها حين تبسمت ، وأن أهز كتفى استخفافا بها كأنما أريد أن أقول أنها ليست المرأة الوحيدة فى هذه الدنيا ، وانها ليست أجمل الفتيات ، وانها حرة .. ولها اذا شاءت أن ترفض نعمة الاتصال بى

دار كل هذا بخاطرى ، وأنا أنظر اليها وهى تنظر الى ، وكان ينبغى أن أتبسم .. فما فى ذلك بأس ، ولكنى لفرط شعورى بنفسى خشيت أن أبدو كالأبله ، ووددت فى هذه اللحظة لو أن معى مرآة فأنظر فيها الى وجهى ، وأرى كيف يكون حين ابتسم لفتاة لا أعرفها . ولكنى أرجو أن تفتنها

الابتسامة وتغريها بمثلها ـ على سبيل التجربة ـ وأين المرآة ؟.. ومتى كان الرجال يحملون المرايا معهم كالنساء ؟ وهب مع الرجل مرآة ، فهل يستطيع أن يخرجها ويتأمل وجهه فيها ويروح يبتسم وحده وهو يفعل ذلك كالمجنون ؟!

وذهبت الفتاة وغابت عن عينى ، وأنا أحدث نفسى بهذه السخافات .. وضاعت الفرصة وازف الوقت ، فعدت الى السينما وأنا أقول لنفسي : « ألم يكن فى وسعي أن أدنو منها واقول لها مثلا أننا جاران من قديم أو كلاما آخر كهذا .. كلاما أبرع من هذا وألطف وأوقع فى النفس فان كونها على طريقى الى البيت لا يستوجب أن تعرفنى واعرفها ؟ »

وذهبت انشيء أحاديث واتخيل حوارا بينى وبينها من اظرف وأرق ما يمكن أن يخطر على البال ، وكنت وأنا أتخيل ذلك أحس أن وجهى ترتسم عليه المعانى التى تدور فى نفسى .. فخجلت وخفت أن يرى الناس ذلك منى فيتعجبوا ويشكوا فى عقلى ـ أعنى فى صحته ـ وكنت قد بلغت المدخل، فدفعت « التذكرة » الى العامل فتقدمنى ووقف عند صف ، وأشار الى موضع الكرسي وقال : « السادس » فسألته على سبيل التثبت : « الثالث ؟ » قال : « لا . لا . لا .. السادس .. » فاستأذنت الجالسين ودخلت بظهرى ـ أعنى أن ظهرى كان اليهم وأنا أخطو أمامهم متحرزا ـ فلم أر وجوههم ثم جلست وبدأت أتلفت ، فما راعنى الا أن الفتاة جالسة الى جانبى ..

ولا أدرى لماذا فزعت .. وقد كان المعقول أن يسرنى هذا لأنه يتيح لى فرصة جديدة ، فقد تلتقى يدى بيدها أو تقع رجلى على رجلها فاعتذر بأدب واعرب لها عن الأسف فيفتح باب الكلام الموصد . أو قد تضحكنا « شيرلى » بنكاتها أو بحسن أدائها فألتفت الى جارتى فأراها تضحك مثلى ، ويمنعها السرور فى هذه اللحظة السعيدة أن تعبس أو تقابلنى بالجفوة . ولكنى فزعت كما قلت ولم أشعر

بسرور . وانما كان فزعي لأني توقعت أن أعجز عن اغتنام هذه الفرصة الطويلة ـ وهي اذا ضاعت لا يمكن أن تعود ـ فأروح أوسع نفسي بعد ذلك تأنيبا وتقريعا وذما وهجاء . وأدرت عيني في المكان لأرى هل فيه من يعرفني .. أو على الأصح من أعرفه أنا .. فان من عوامل التشجيع أن يشعر المرء أنه غير معروف ، وخجل المرء ممن يعرف أقوى من خجله ممن لا يعرف في مثل هذه المواقف .. على أني لست على يقين من هـذا ، فقد يكون وجود الاخوان دافعـا الى الجرأة ، والانسـان لا يسره أن يعرف أصدقاؤه أنه جبان

ولم أر وجها أعرفه ، فأخـرجت سيجارة واشعلتها ، ورحت أدخن . وخطر لي وأنا أفعل هـذا أنه يحسن أن أستأذنها .. فلعلها لا تحتمل الدخان ، وهذا أدب لا ضير منه ، ثم أنه مألوف . ولكن الوساوس لم تترك لي راحة . فقد قلت لنفسي اني أستطيع أن أستأذن اى فتـاة أخرى فلا تستغرب ولا تستريب ، أما هذه فانها خليقة أن تتوهم اني أتحكك بها واحتال للكلام معها . ثم عدت فقلت لنفسي اني أريد أن أكلمها ، وما أظن بها الا انها تعرف ذلك . نظرتي اليها تشي بهذه الرغبة . ولماذا لا أكلمها ؟.. اى بأس هناك في ذلك ؟.. ولماذا أقدر أن يسوءها كلامي ؟ . ومن يدريني أنها لا ترغب في كلامي ؟. ولكن ماذا بالله يدعوها الى الرغبة في قزم دميم الخلقة مثلي ؟ . سخافة .. كلا ، لست دميما الى هذا الحد المنفر .. ثم ان رأى المرأة في الجمال غير رأى الرجل .. أوهوهو .. لقـد وصلت الى الكلام في الجمال . أما اني والله لسخيف ..

وضحكت .. فالتفتت الى مستغربة ، فليس من المألوف أن يضحك العاقل وحده ومن غير أن يكون هناك ما يوجب الضحك . فلها العذر اذا كانت قد استغربت .. ووجمت أنا ، وخيل الى انها تنحت قليلا . ومن المحقق على كل حال أنها لمست طرف المعطف وكان متدليا،فجعلته على فخذها .

فسخطت على نفسى وصببت وجهى فى قالب صارم من الجد ، وجعلت عينى الى الستار لا أحولها عنه

وبدأت الرواية ووضعت كوعى على المسند ـ عفوا ـ وكانت كفها عليه أيضا .. فلمسها كمى ، فجذبت يدى وتمتمت بألفاظ اعتذارلم أسمعها انا ، فكيف بها ؟ ولم يسعنى الا أن أضع يدى على ساقى . ولم أعد أرى أو أسمع شيئا من الرواية . وكانت نفسى تقول لى بصوت غليظ فيما أحس : « انك بليد .. هذا انت .. وحمار أيضا .. أين جرأتك ؟ .. لماذا تجفل من هذه الفتاة الوديعة التى تتوقع منك أن تكلمها والتى وطنت نفسها على ذلك واستراحت اليه ؟ . هل بلغ من سخافتك وجبنك أن تتوقع أن تبدأك هى بالكلام ؟ . اجترىء يا شيخ . لقد كان أجدادك الأولون يخطفون النساء خطفا ولا يبالون شيئا ، وكان النساء يسرهن ذلك . وقد ذهب زمان الخطف بالقوة ، ولكنه بقى ـ وسيظل باقيا ـ ان المرأة تنتظر من الرجل أن يهاجمها ، بالكلام على الأقل .. ثم بعد ذلك بالقبل والضمات والعناق »

فقلت لها : « استحى يا نفس .. اننا فى سينما .. وهذا الكلام .. هذا التحريض على الأعمال الفاضحة لا يليق .. اننى رجل متمدين ولست وحشا كما كان آبائى »

فسخرت منى نفسى ، وضحكت .. نعم ضحكت الملعونة ضحك السخر والزراية .. فكدت اجن ، ولكنها لم تعبأ بذلك وذهبت تقول : « اين المدنية ؟ . سبحان الله العظيم ! وهل المدنية تمنع انك انسان وأن شعورك بالمرأة هو نفس شعور جدك الأعلى الذى كان يسكن الكهوف والغيران ؟ .. أو تخشى أن تغضبها بالتطفل عليها ؟ .. فاعلم أن المرأة انما يغضبها أن ترى الرجل بليدا جبانا . . هذه يدها على مسند الكرسى فضع يدك عليها . نعم لا تخف .. وماذا تخاف ؟ . انها لن تأكلك ، بل ستترك كفها تحت كفك وتنعم بملامستك

لها .. .. ادن ساقك من ساقها .. انقل اليهـا بعض الحرارة التى فى جوفك . قرب فمك من خدها .. يا له من خد أسيل .. هل رأيت أحلى منه ؟. دع أنفاسك تصافح هذا الخد . قد انتهى الفصل الذى لم ترمنه شيئا وأضيئت الأنوار ، فادع هذا البائع واشتر منه قطعتين من الشكولاتة المثلوجة وقدم لها واحدة وتبسم . تبسم يا شيخ .. هل أنت قطعة من جليـد القطب الشمالى ؟ »

ولكني استحييت أن أفعل ما تشير به هذه النفس .. فظلت تقرعني طول الفصل الثاني وتفسد علىقصة «شيرلى»

وانتهت الرواية ، فنهض الناس ونهضت .. وأولتنى الفتاة وجهها ، فأفسحت لها لتخرج قبلي ، فقالت «مرسي» فابتسمت ابتسامة عوجاء وتحركت شفتاى ، ثم فتح الله على فقلت لسخافتي : « تفضلى » فابتسمت وقالت مرة أخرى : « مرسى » والخطوة الاولى هى الصعبة ، كل شيء يسهل بعدها .. فلا غرابة اذا كنت وجدت لسانى الذى كأنما كانت به عقلة ، فقلت لها : « اظن أننا جاران » قالت وهى تضحك : « أظن ذلك »

قلت : « اذا كان طريقك الى البيت ، فان معى سيارة صغيرة تحملنى .. فاذا خربت حملتها انا »

قالت : « أعرفها .. لا تطعن عليها.. رأيتك فيها كثيرا »

قلت : « سنجد السـيارة ترقص » قالت : « ولمـاذا ترقص ؟ » قلت : « طربا .. ألست تثنين عليها ؟ ليتنى أنا السيارة »

وفتحت لهـا بابها وقلت لنفسي وانا ادور الى البـاب الآخر : « ارأيت ؟.. ان اساليب المتوحشين لا تصلح لهذا الزمان .. انك نفس قديمة .. عتيقة »

فقهقهت اللعينة وقالت : « لولا درسى .! على كل حال العبرة بالخواتيم »

البحث عن الذهب

وجدت صديقي ينتظرني ـ كما وعد ـ فدخلنا معا وجلسنا متقابلين الى مائدة صغيرة ، وبدانا بايدينا نفركناها .. فقد كان البرد شديداً ، وكان كلانا قد خلع المعطف والطربوش ؛ وكانت الحجرة دافئة ولكنه لم يكن قد مضى من الوقت ما يكفى لانتقال الدفء الى أبداننا . ثم اكب صاحبى على البيان الذى فيه ألوان الطعام ، وجعل يسردها لى لأتخير ما يطيب لى منها . وفرغنا من ذلك بعد طول التردد ، وانصرف العامل بدفتره الذى دون فيه ما طلبنا ، فقال صديقى وهو يميل على المائدة : « والآن ما العمل ؟ »

قلت : « هذا هو السؤال الأبدى .. وما اظن بنا الا أننا سنظل نسأل عن ذلك طول العمر ـ طال أم قصر ـ المسألة مسألة حظ يا صاحبى »

فقال : « كلا .. لا بد أن هناك وسائل لاكتساب المال بسرعة .. كثيرون يفعلون ذلك . وهذا دليل على ان الوسائل موجودة ؛ ولكنا نحن ـ لسبب ما ـ لا نهتدى اليها »

قلت : « فليكن الأمر كما تصوره ، فلست أرى أن هذا يجدينا شيئاً »

قال : « ولكن لا بد ان تكون هناك وسيلة »

قلت : « اذا كان ينفعك أو يريحك الايقان من ذلك .. فايقن وارح نفسك »

فقال وهو يهز رأسه : « نحن اثنان .. كلانا محتاج الى مبلغ حسن من المال .. والحاجة ملحة والسرعة لا مفر

منها . لا سبيل الى الاقتراض ، لأن الذين يقرضون يطلبون ضمانا .. شيئا يطمئنون به على مالهم .. سخافة .. ولماذا ينبغى أن نرد شيئا ؟.. ألسنا أحق بالمال من هؤلاء الذين لا يعرفون كيف ينفقونه ويروحون يكنزونه ويدفنونه فى خزانات أو فى قدور يدسونها تحت الارض ؟ »

فضحكت ، وقلت : « هذه باشفية »

قال : « لا تصدق .. آه لو كنت غنيا ، اذن لصارت الدنيا أرغد واهنأ »

قلت وأنا أبتسم : « ماذا كنت تصنع ؟ »

قال : « أصنع ؟. أتسأل ؟. كنت أضع المال فى صرر وارمى بها لمن اتوسم فيهم انهم أهل لأن يكون فى يدهم مال » — وأطرق شيئا ثم رفع رأسه وقال : « هل تعرف انى زرت اليوم أختى ؟. انها غنية كما تعرف .. وكيف لاتكون غنية وهى لا تنفق شيئا ؟ فلما دخلت عليها وفتحت فمى لأتكلم ، رفعت يدها وقالت : « ولا مليم » فغضبت وصحت بها ونهرتها عن هذا السلوك . أكدت لها مائة مرة انى محتاج الى قليل من المال ، فوقفت وأكدت لى انى سأكون محتاجا الى هذا المال حين أخرج من بيتها .. سلوك يطير العقل .. فهل تسمى هذه أختا ؟.. انى اتصور أختا ظريفة لطيفة سخية كريمة تعطينى وهى تعتذر وتملأ يدى وهى مغضية . هكذا تكون الأخت »

فقلت : « لماذا لا تفكر فى طريقة لكسب المال ؟ »

فقال بلهجة الاستنكار : « أفكر ..؟وما الفائدة من التفكير .. لا فائدة ما دامت الدنيا مقلوبة . آه لو كان لى سلطان فى هذه البلاد ، اذن لعقدت امتحانا كل ثلاثة شهور للأغنياء .. يجلس أعضاء اللجنة ويقف أمامهم الغنى ، فيقول له أحدهم : « كم تملك يا مولانا ؟ » فيقول : « ألف فدان ونحو مائتى ألف جنيه فى المصرف ، وعمارتين — كل

منهما ذات سبع طبقات فى شارع الملكة نازلى . فيقول أحد الأعضاء : « وماذا تصنع بكل هـذه الثروة ؟ » فيقول : « اود لا أصنع شيئا .. كل ما زاد على حاجاتى الضرورية جدا أضيفه الى المدخر » فتقول اللجنة : « شيء جميل .. أهذا رأيك فيما ينبغى أن يصنع المرء بالمال ؟.. لا بأس.. اسألوا احمد ـ أى العبد الخاضع المطيع ـ ماذا يكفيـه ، فأقول ردا على السؤال : « أوه يكفينى القليل .. خمسون الفا . كفاية .. اعنى مؤقتا » فتقول اللجنة : « احمد هذا رجل يحسن انفاق المال .. اعطوه ما يطلب » فأقبض المبلغ واشكرهم وافرك يدى واقول : « اذا سمحتم لى يا حضرات الأعضاء الموقرين ؛ أستأذنكم فى لفت نظركم الى رجل يعرف كيف يعطى..بارع جدا فى الانفاق » فيسأل أحدهم : « من هذا ؟ . قل بسرعة » فأقول : « انه المازنى » فيقول : «آه صحيح .. كيف نسيناه .. هاتوه حالا .. علينا به . اقبضوا عليه فى حيثما تجدونه » فيقبض عليك الشرطة ويجرونك مصفدا الى اللجنة ، فيضحك الاعضاء ويقولون : « خذ .. خذ .. خذ أيضا » فتخرج معى مسرورا .. وتروح تنفق باليمين وبالشمال حتى يحين موعد الامتحان التالى . ما قولك ؟ »

فقلت وأنا أضحك : « شيء عظيم جدا .. ولكن الى أن يتيسر ان تلى أمور الناس ، ماذا تصنع ؟ »

فقال : « آه هذه هى المسألة .. ما رأيك أنت ؟ »

قلت : « يمكننا أن نكسب الورقة الاولى الرابحـة من يانصيب المواساة أو اليانصيب الارلندى »

قال : « هذا ممكن .. ولكن ذلك يتطلب أن ننتظر بضعة شهور والعجلة من الشيطان »

قلت : « صدقت .. يمكن أن نخترع شيئا ونحتكر بيعه ـ وصنعه بالطبع ـ فنغتنى »

قال : « صحيح .. فكرة لا بأس بها .. سأدون هذا فى مذكرتى .. تنفع فى المستقبل .. وعلى ذكر ذلك ، ماذا نخترع ؟ »

قلت : « باب الاختراع واسـع .. واسع جـدا : مثلا نخترع طريقة تجعل السيارات تستغنى عن البنزين وتكتفى بالماء ـ أو حتى بالهـواء ـ أو نخترع بديلا من النقود فان النقود هى أصل البلاء فى هذه الدنيا .. أو نخترع .. »

فقال : « يكفى .. يكفى . ولكن هـذا كله يحتاج الى زمن .. والمطلوب هو الاهتداء الى وسيلة تكفل اعداد المال اللازم فى أربع وعشرين ساعة .. انا اقول لك ! »

فقلت وانا اضـطجع وارسل الدخان من فمى خيطـا ملتويا ، بعد أن فرغنا من الطعام : « يظهر أن الضرورة تفتق الحيلة حقيقة »

فقال : « معلوم .. اسمع .. أترى هذا الرجل القاعد هناك فى الركن الأيمن ؟ أترى كيف يأكل ؟ أترى كرشـه المدورة كالكرة ووجهه المنتفخ ، وكيف يفتح عينا ويغمض أخرى ، وينظر حوله قبل أن يدس اللقمة فى فمه كأنما هو يخشى أن يراه أحد ؟ . الحق أقول لك انى أكره وجهه ولا أرتاح الى النظر اليه »

قلت : « يا أخى لا تنظر اليه .. دعه وحول عينك عنه »

قال : « ولكنى لا استطيع .. انه وجه سوء ، لا يمكن أن يكون هذا الرجل من أهل الخير .. انه ممن لا يؤتمنون على القصر والأيتام والأرامل . هذا الرجل لا بد أن يكون منطويا على أسرار يكره أن تذاع .. لأن وجهه ناطق بأنه شرير . فلو قمت اليه الآن وهمست فى اذنه انى أعرف سره الذى يجاهد لاخفائه ، الا تظن أنه يفزع ويضـطرب ويشترى سكوتى بأى ثمن ؟ »

فقلت : « اها !. اهذه طريقتك ؟. اتريد ان تبتز المال من الناس بهذه الوسائل ؟ »

قال : « المصيبة انى لا استطيع .. تنقصنى الشجاعة ، ولكنى واثق انى انجح اذا استطعت ان اصنع هذا .. ومع ذلك لكل انسان سره القبيح .. ولو ان واحدا جاء الى ووقف على راسى الآن وحدق فى وجهى ، ثم هز راسه هزة العارف بكل ما هناك ، ثم قال : انى اعرف سرك يا احمد ، لما وسعنى الا ان اضطرب .. على كل حال يظهر انه لا فائدة .. لا امل فى مال كثير نحصل عليه بالسرعة اللازمة »

قلت : « صدقت لا امل »

قال : « خسارة .. سأظل اتحسر لانى لم اجد الشجاعة الكافية للوقوف على راس هذا المجرم ـ هو مجرم ولاشك ـ وابلاغه انى اعرف باطنه كما اعرف ظاهره البادى لنا .. خسارة .. نهايته .. نقوم ؟ » . قلت : « تفضل »

ودفع الى الخادم ثمن الطعام وخرجنا ..

وقلت لصاحبى وانا اودعه : « على فكرة .. من قبيل الاحتياط للمستقبل ما هو الجواب الصحيح امام اللجنة ؟ »

قال : « آه .. انفق ما فى الجيب يأتك ما فى الغيب »

قلت : « أهو ذاك ؟.. اما مافى الجيب فلست احتاج فى امر انفاقه الى التكلف .. وأما ما فى الغيب فهل تعرف متى يأتى ؟ »

فأشار لى بيده .. ومضى عنى وهو يضحك

تقديم

نشأت فى بيت لم اكن أجد فيه من يكلمنى ، لا لقلة فى أهله ولا لبكم يعقد ألسنتهم .. بل لأن مشاغلهم كانت تصرفهم عنى . فهذه جدتى ، لأبى ، كانت لاتفارق السجادة ـ أو الفروة على الأصح ـ وفى يدها السبحة التى لا أذكر ان الخيط الذى ينظم حباتها انقطع ، وشفتاها لا تكفان عن الحركة والتمتمة بما لا أعرف من الأدعية والصلوات على النبى.وما أكثر ـ وأطول ـ ما كنت أقعد أمامها محدقا فى هاتين الشفتين الدائبتين دؤوب الليل والنهار . وكانت ربما التفتت الى فتتبسم وتدنينى منها وتمسح لى رأسى ، ثم تبسط يديها بالدعاء الى الله بصوت يبريه الضعف وتبحه الحسرة ويهدجه الألم والأسف لما صرنا اليه بعد وفاة أبى ، ثم تربت على كتفى وتميل على وجهى الصغير بفمها الأدرد وتقبلنى ، فتخرج شفتاها صوتا كهذا «مق» .
وتلك امى لا تزال مصروفة عنا بشئون البيت من طبخ وغسل وكنس ونفض ، ومن حمام تسقيه وتطعمه ، ودجاجات لا تنفك تجس حويصلاتها او تصبعها لترى أفيها أم ليس فيها بيض أو تنتف ريشها . وكثيرا ما كنت أقف أنظر اليها وهى تتناول فراخ الحمام وتزقزقها ، اى تمج فى مناقيرها الماء والحب .. ولا آخر لعمل السيدة فىالبيت.
ولم يكن لنا فى ذلك الوقت خادمة ، وكانت امى تنهض بالأعباء كلها اقتصادا فى النفقة .. فكانت هى تطبخ الطعام ، وتكنس الغرف ، وترتب الأثاث ، وتخيط لنا الثياب ، وتصنع كل شىء الا أن تخرج لتشترى الأشياء التى نحتاج اليها لطعامنا . فقد كان رجل من أتباع أقاربنا الذين يقيمون فى أجنحة أخرى من هذا البيت الكبير ، يقوم لنا

بذلك . وكانت عمة أبى معنا ، ولكنها كانت عجوزا ناهزت المائة .. وكانت تجلس وساقاها ممدودتان أمامها ورأسها مستند الى وسادة ، ولسانها لا يمل الدوران ، وكان كلامها هذيانا فكنت أضحك منها أحيانا ثم أمل ذلك فأتركها لهذرها الذى لا ينقطع

وكنت اذا شعرت بالشوق الى مكالمة أحد ، أنحدر الى فناء البيت .. وكانت فيه غرف كثيرة ، يقيم فيها أتباع الشيخ قريبنا ويحيون الليل بقراءة الأوراد . وكانت هناك أيضا ميضة ومصلى ، فكنت اذا رأيت الشيخ مقبلا أندس بين المصلين وأروح أقف واركع وأسجد كما أراهم يفعلون . ولكن هؤلاء كانوا يرونني صبيا صغيرا ، فينظرون الى ويبتسمون - لأن أفواههم مشغولة بالتمتمة - ولكن لا يكلمونني . غير أنه كان هناك فى أكبر غرفة فى الفناء ، رجل ليس من الأتباع ولا هو يعنيه أمرهم أو يشاركهم فيما يصنعون . ولا أدرى الى هذه الساعة كيف سكن هذه الغرفة .. فما كان يعطى الشيخ شيئا ، وكان الشيخ يستنكف أن يؤجر بيته أو بعضه . وكان هذا الرجل يصنع أزرار الطرابيش ، فكان يطيب لى أن أجلس اليه ألاحظه وأحادثه أو أستمع الى حديثه وقصصه وكان يحادثني كأني رجل كبير لا طفل صغير ، وكان يبرم خيوط الحرير المصبوغة ويفتلها ويعقد أطرافها ويجمع كل بضعة خيوط معا ثم يثنيها ويربطها ويصمغها ويدقها على قالب من القوالب التى تتخذ لكى الطرابيش . وكانت لهذه الخيوط رائحة لا أزال أذكرها ، وانى لأجدها الآن فى أنفى وأنا أكتب ذلك . وقد علمنى صناعته ، فكان يدع لى الخيوط فأفتلها وأرتبها وأعقد أطرافها وأفعل مثل ما أراه يفعل بالمدق على القالب . ثم يعود الى فينظر فيما صنعت ويصلح لى أخطائى ، أو يثنى على حذقى . وكان يكل الى ذلك كلما قام

لاعداد طعامه او خرج لشرائه . وفى وسعى ان اقول بلا مبالغة انى قلما تعشيت الا معه ، فكنت أصعد فأجيء بطعامى وأضيفه الى ما عنده ، فنأكل معا . ولكنى لم أكن أصنع هذا الا اذا كان عندنا طعام يليق أن يقدم الىغريب . .
اما اذا كان فولا أو عدسا أو ما هو من هذا القبيل ، فقد كنت اخرج فاشترى زيتونات وشيئا من الجبن « والحلاوة الطحينية » واعود بها اليه ؛ فيؤنبنى على فعلتى وينهانى عن العود الى ذلك ، فأصارحه بأن طعامنا الليلة فول أو عدس . . . وانى لا احبه . فكان يحدث أن يقول لى انه يحب هذا الطعام ؛ ويرجو منى أن أصعد وأجيئه بشيء منه ، فاستغرب . . ولكنى اطيع . فلا عجب اذا كنت قد احببته والفته . ولم يكن أغرب من هذه الصداقة بين رجل جاوز الأربعين وطفل فى التاسعة من عمره . وقد الفنى كما الفته ؛ وتعلق بى كما تعلقت به . . فكان ينادينى اذا أبطأت عليه ، فأستبطىء النزول على الدرج وأركب الدرابزين لأن التزحلق عليه أسرع . .

وكانت له بنت أخت تزوره من حين الى حين . . رأيتها اول مرة فى ليلة شتوية كثيرة المطر شديدة البرد ، وكنت العب فى الحارة . . فلما أخذ المطر ينهمر فجأة ذهبت أعدو الى البيت . ولمحت ، وانا اجرى ، ضوءا فىغرفة صديقى . . فاشتهيت ان اخبره ان السماء تمطر وأن الريح تعصف . ودخلت الغرفة ثم وقفت على العتبة ، فما رايت المصباح المألوف وانما رأيت نارا موقدة ، وكانت السنة اللهب عالية . . فرأيت ، أول ما رايت ، كفا بدت لى كأنها ـ ولسان النار من ورائها ـ مرجان شفاف . وطالعنى محيا فتاة صغيرة على هذا الضوء المضطرب ، فرأيت شعرا أسود يتوهج هنا وهنا ، وضفيرتين فى طرفيهما خيوط من الصوف نسج عليها الشعر واستراحتا على جانبى الصدر ، وانفا فى

عرنينه نتوء قليل ، وفى مارنه لين ، وفى أرنبته انثناء الى فوق ، وعينين ضيقتين مائلتين بعض الميل . وكانت الحدقتان تلمعان كأنما تطلان من شقين ، وفى نظرتهما من وراء الاهداب الوطفاء معانى الرضي التام والسكون العميق والاغتباط الذى لاسبيل الى العبارة عنه . وكانت هــذه المعانى على الفم أيضا ، وكانت الشفتان رقيقتين وفى العليا منهما نثلة بينة ، وهنة دقيقة نابتة فى وسطها ، وكانت عليها ابتسامة أبلغ فى العبارة عن السرور من الضحك المجلجل ، وكان خط الشفتين موازيا لميل العينين ، وقد خيل الى وأنا انظر الى هــذه الابتسامة المرتسمة علي الشفتين المتلامستين كأنما هي معلقة على ما تغضن على جانبى الفم ، وكانت صــحيفة الوجه عريضة عند الوجنتين ولــكنها تنتهى بذقن دقيق ، وفى الديباجة حسن ، وفى الخدين رى وأسالة وبضاضة . أما العنق فطويل مستدير ، وأما الذراعان ـ وكانا معتمدين على الركبتين ـ فمستدقان

وقفت أحدق فى هــذا الوجه الذى أضاءته لى النار المضطربة الخفاقة اللمعان ، وخيل الى وأنا أنظر أنى لم أر قط اجمل ولا أبرع من هذا الحسن ، وراعنى على الخصوص ما على الوجه من آيات السرور الباطن .. فألفيتنى أتســاءل : ماذا ترى يسرها وهى قاعدة وحدها تتدفأ ؟.. ومن أين جاءت ياترى هذه السعادة التى تومض بها عيناها وتشى بها هاتان الشفتان الصــامتتان ؟ وأحسست أن أنفاسى أسرعت وأن الدموع تجول فى عينى ، فقد كانت الفتاة جميلة وكانت الروعة قد غمرت صدرى ، بل ملأ قلبى الخوف كأنما أشهد الحياة نفسها لا انسانا فانيا مثلى . وارتفع لسان النار فجأة وخفق ضوءها على محياها المبتسم ، فخيل الى أن الدم يجرى كالمجنون تحت جلدها الرقيق . وكانت هى ساكنة لا تتحرك ، ولا تزايلها ابتسامتها الهادئة المرتسمة

على عينيها الضيقتين المائلتين وفمها المطبق الشــفتين . نعم .. كانت الحياة نفسها تنظر الى من عينيها .. وبعينيها

رايتها بعد ذلك مرة أو مرتين فى نحو عام ، وعلمت من صديقى ـ خالها ـ انها يتيمة وانها تقيم مع عمها وتزور خالها احيانا ؛ وأكثر ما تكون الزيارة فى الصباح حين اكون انا فى المدرسة .. ولكنها لا تبقى معه الا ساعة أو بعض ساعة . وقد حاولت أن أكلمها ، ولكنى كنت أستحيي أن أطيل الوقوف معها او الجلوس اليها ، وكانت هى تحدق فى وجهى ولا تطرف حين تكلمنى ، ولا أذكر ما كانت تقول وانما اذكر كيف كانت لهجتها هادئة وحالها بادي الوثاقة .. كما ينبغى أن تكون الحياة

وكنت اسالها احيانا وانا لا اجد كلاما اقوله لها غير ذلك : « هل تلعبين الحبل ؟ » .. ولا اصغى الى جوابها ، بل أروح افكر فى جمالها واعجب له .. واسال نفسى مستغربا ماذا وراء هذه العين ياترى ؟ .. لماذا اراها سعيدة دائما بلا سبب اعرفه ؟ واشتهى ان اسالها عن ذلك ، ولكنى آنس من نفسى جبنا فأسكت

ومضت الايام وتعاقبت السنون وكبرت وعرفت الادب والقراءة ، فصار كل ما اقراه عن الحب فى شعر الشعراء وفى وصف الروائيين ، يدور حول ذكرياتى القليــلة منهــا ، وابتسامتها الساكنة ووجهها الجميــل وسعادتها الهادئة . وكان زملائى فى المدارس يذكرون مغامراتهم ويتحدثون بها ويباهون ، وكنت انا اسمع واسكت واتعزى بأن هذا الذى يلهجون به ليس من الحب فى قليل أو كثير ، وأقول لنفسى أنى أعرف ما لا يعرفون ، وأعرف ما أعرف بالتجربة . ومع ذلك لم يخل هذا الصدر من أيامى مما يسمونه المغامرات ، ولكنها لم تكن كثيرة أو باعثة على الرضى .. بل كانت على النقيض سببا فى السخط على نفسى واحتقارها ، فآليت

لانصرفن عن هذا العبث . واقبلت على الدرس والتحصيل واشتغلت بالشؤون العامة ، فصرت أحضر جمعيات الخطابة بل الفت مع اخوان لى جمعيــة للخطابة . وعنيت بقراءة الصــحف فكنت على صــغرى اقرأ كل يوم ثلاث جرائد سياسية ، وكنا جميعا من أنصار مصطفى كامل وعشاقه فى ذلك الزمان

ثم جاءت الحرب العظمى ، فشغلنا بأنبائها وبالاختلاف على نتــائجها المحتملة وبالخوف على انفســنا من الجواســيس والاعتقالات التى كنا لا نأمنها ولا نستطيع أن نعرف الطريق الى اتقائها . . ولكن يوما من ايام تلك الحرب اذكره ولا أنساه . وكان لى صديق داره قريبة من دارى ، ولم يكن معه أحد فى بيته وكان السهر محرما بعد الساعة التاسعة ، فكنت أقضى عنده السهرة فى الأغلب ، ولا سيما فى الصيف . . فأرانى يوما مسدسا ورصاصــات ، فجعلنــا نتدرب على اطلاقها ونرمى بها باب الحمام ، ولم نكن نخشى أن يسمعنا احد لأن البيت كان بعيدا عن العمار . ثم افترقنا ، واتفق أن زارنى بعد ذلك ونسى عندى مسدسه . . ولا أدرى كيف كان يجترىء على حمله معه ؟ . . فوضعت المسدس فى درج المكتب ونسيته فيه ، وتكدســت فوقه الاوراق على مر الايام . فحدث يوما أن جاءنى صديق وثيق الصلة بالسلطة العسكرية ، واخبرنى أن بيتى سيفتش الليلة . . فشكرته ، ولم أعر الأمر اكتراثا . . لأنه ليس فى بيتى ما أخشى على نفسى منه . فلما كان العشاء ، جاء ضابط انجليزى ومعه من المصريين ضباط وجنود ، فدخلوا المكتب أول ما دخلوا . ورأى الانجليزى الكتب الكثيرة على رفوفها ، فأقبل عليها يتأملها . . فألفاها كلها كتب أدب ، فجعل يقلبها وينظر الى ثم سألنى عن عملى ، فقلت : « مدرس » فاطمأن واعتقد مما رأى انى رجل مأمون الجانب ، وأرسل المصريين يفتشون

بقية البيت ، ووقف هو معى فى غرفة المكتب ، ثم دنا من المكتب وجعل يقلب ما عليه من الاوراق المنتشرة بغير احتفال، ثم فتح درجا وألقى عليه نظرة ثم رده وشد الدرج الثانى . . ولم تكن للأدراج مفاتيح ؛ فجمد الدم فى عروقى ، فقد تذكرت المسدس فجأة ؛ ولم استطع من فرط الجزع أن أدعو الله أن ينقذنى . وكان الاعدام عقوبة من يحمل سلاحا كهذا بلا ترخيص — او هكذا أعلنوا — ولكن الله سلم . . فرد الرجل الدرج ، وكان زملاؤه قد عادوا ، فحيا وانصرف وهو يبتسم . ولعله كان يعتقد ان تكليفه تفتيش هذا البيت سخافة مطبقة

وما كادوا يذهبون حتى أسرعت الى المسدس ، فقذفت به فى بستان مجاور لبيتنا ، وتشهدت . . ولم أطق البقاء فى البيت بعد ذلك من فرط الاضطراب ، فخرجت أتمشى على غير هدى واذا بى فى بعض الطريق — طريق حدائق القبة — التقى بفتاتى القديمة . عرفتها على الرغم من طول الزمن . . وعرفتنى هى كذلك ولم تنكرنى ، فصحت بها كالأبله : « تفيدة . . انت . . ؟ »

فابتسمت لى ابتسامتها القديمة الهادئة ولم تزد ، فقلت لها : « من أين ، والى أين ؟ » قالت : « الى البيت » فمشيت معها اليه . وكان شقة فى عمارة عند « المحمدى » فدعتنى الى الدخول فلم أتردد . . فأنا صديقان قديمان . ولم أر فى بيتها غيرها فلم أستغرب فانها يتيمة ، ولكنى لم أعرف من أين جاءت بهذا الاثاث الحسن وان كان قليلا وعلى قدر الحاجة ، واتفقت معها على يوم نخرج فيه للتنزه فى القناطر او حديقة الحيوانات ، فهزت رأسها أن نعم . . فتركتها ولم اسألها عن حالها وكيف تعيش

والتقينا فى الموعد المضروب . . وكان النساء يتقنعن فى ذلك الوقت ولا يخرجن الا فى الندرة القليلة بوجوههن

سافرة ، فركبنا عربة يجرها جوادان هزيلان ، ومضينا الى حديقة الحيوانات ، وجلسنا على دكة منعزلة .. وقضينا أكثر الوقت صامتين ، ثم فتحت فمي فحدثتها عن الزمن الماضي وحبى الصبياني لها ، وكيف طال عمر الحب وامتد الى الحاضر ، فلم تزد على أن تبسمت — كعادتها — وقالت : « لا أدرى لماذا أرى الناس يجنون بى »

فأحسست ان لوحا كبيرا من الثلج يوضع على قلبى .. الناس يجنون بها .. الناس .. اذن هناك مجنون .. أو مجانين بها غيرى . ودار راسي ، وذهبت أسأل نفسي عنها كيف تعيش . ولم يخطر لى هذا من قبل ، ولكنه خطر الآن نعم كيف تعيش هذه التى يجن بها الناس .. وأين وكيف ترى هؤلاء المجانين كلهم .. لا بد انهم كثر .. فمن أين يجيئون .. انى أنا صديق صباها ، فلا عجب اذا كنت أعرفها .. ولكن غيرى .. غيرى

وقطع على هذه الخواطر المزعجة سوداني فى ثياب الردنجوت . وكان كهلا ، ولكنه يمشي معتدل القامة كالرمح .. فدنا منها وحياها باسمها وسألها عن حالها وعينه تومض ، فردت عليه برزانة وسكون ومن غير أن تفارقها ابتسامتها المطبوعة . ولم يطل الوقوف ، فمضى عنا وقد عرفت منها انه ضابط فى الجيش وانه الآن فيما يسمى الاستيداع ، وأن بيته فى العباسية — قرب « المحمدى » فلم أقل شيئا ولكنى قلقت — أو على الاصح زدت قلقا وصرت اناجى نفسى بأن لعل هذه طريقة حياتها ..

وتعددت المقابلات بيننا والخروج الى الحدائق العامة ، وكنت أعود بها الى بيتها فى الليل .. فتدعونى الى مقام قليل ، فألبى ونذهب نتحدث كأننا رجلان لا رجل وامرأة . فرأيت منها — شيئا فشيئا وعلى مر الايام — ما أقنعنى أنها ليست الفتاة التى احببتها فى صغرى ، وانها لا أكثر ولا أقل

من امرأة كغيرها من النساء . ولا أدرى الآن وانا اكتب هذه السطور اى شيء كنت احسبها قبل أن أتبين أنها ليست سوى امرأة ، ولكن الذى ادريه انى ظللت أحبها على الرغم من ذلك وانى جعلت أحاول أن أقنع نفسي بأنها كما كنت أتصورها — على الاقل فى حقيقتها الكامنة ، ولـكن حبى القديم لها تغير .. فلم يعد فيه تعلق بخيال ، بل صار حبا لأمرأة معينة . وليس فى هذا مايدعو الى العجب ، فان الرجل يحب المرأة لأنها امرأة ولأن فيها من بواعث الاغراء مايكفى لاثارة الرغبة فيها والتعلق بها ، ولكن هذا شيء لم أكن قد تعلمته فى تلك الايام ، فرزقنى الله فى شخص « تفيدة » معلما لايفتر ولا يتردد ولا يترفق بالمثل العليا وصور الكمال وغير ذلك من الافلاطونيات السخيفة . وكان اول ما تعلمته — أو من اول ذاك — أن من الممكن أن يحب الرجل حبا عميقا طاغيا امرأة لايحترمها ولا يرى لها مزية ولا ينطوى لها على اكبار او مودة أو صداقة ، ولا يستطيع أن يتفاهم معها ويشركها فى نفسه وخواطره وآماله ومخاوفه وعواطفه .. امرأة لايرى فيها الا انثى منحطة .. بل امرأة يشعر بالشقاء وهو الى جانبها وبالملل والضجر من قربها وحديثها . نعم تعلمت ذلك .. وكان هذا لما تعلمته شيئا فشيئا يبدو لى مدهشا ، ويخيل الى ان الحال فيه مقلوب والآية معكوسة ، ولكنى الآن أضحك من نفسي وأسائلها ولم لايعشق الرجل بالله امرأة كهذه .. وأين ترانى كنت أعيش يومئذ ، فلم أر أن كثيرين من الرجال يعشقون نساء ليست لهن أية مزية .. نساء هن فى الحقيقة كوم عظيم من صنوف الانحطاط .. ونساء يحببن رجالا ساقطين منحطين لايساوى الواحد منهم ملء أذنه نخالة . ولكنى كنت فى ذلك الوقت أعتقد ان الحب شيء سام جدا ، وانه سماوى لاينبغى أن يخالطه الا الاعجاب والعبادة

وكانت كل لحظة أقضيها مع تفيدة ، تزيدنى ايقانا بأنها عاجزة عن السمو بنفسها الى المرتبة التى وضعتها فيها فى حداثتى . وكان يزعجنى وينغص عيشي ويسود الدنيا فى عينى هذا التباين بين الواقع والصورة القديمة التى احتفظت لها بها فى نفسى .. وتغير حبى لها كما قلت واشتهيتها وصبوت اليها ، ولكن هذا التحول لم يعفنى من التنغيص والعذاب . وقد كنت أخجل مما صرت أحسه لها ، وأعنف نفسى على ذلك وأزجرها عنه . وكانت هى ترى ضبطى لنفسي ورياضتها لها على العفة ، وتعلقى بخيالاتى وسخافاتى وأوهامى ، فتمتعض وتظهر لى التأفف والتبرم ولا تكتمنى الضجر الذى يثيره حديثى ، ولها العذر . وقد كنت أرتفع بالكلام عن طبقتها .. وأتركها على الارض ، واذهب أحلق فى أجواء لا تستطيع أن تذهب ورائى فيها . وكنت أنشدها ما أقوله فيها من الشعر ، فيسرها انها وجدت شاعرا يحبها كل هذا الحب ويتغنى باسمها ، وأن يقرأ الناس ما يقوله فيها وما يصف به وجده لها . ولعلها كانت ترى فى هذا اعلانا .. ولكنها لم تكن تفهم ما أنظم أو تقدره ، وكثيرا ما كانت تمط شفتيها ساخرة . وربما قالت لى : « ألا تستطيع أن تقول كلاما حسنا » فأهز رأسي وأقول لنفسى انى وقعت وقعة سوداء ، وانى يجب أن أصد عنها فانها لا تصلح لى ولا أصلح لها لأنها لا تفهمنى .. ولا أنا أيضا مع الأسف ، استطيع أن أفهم هذه الطبيعة المادية التى يكون فيها الجمال ستارا لكل ما هو منحط .. وكانت تدعونى كل ليلة الى دخول بيتها حين نعود اليه ، وكنت ألبى فى بعض الأحيان .. فأقعد معها كالصنم من شدة الكبح ، فلا تلبث أن تتثاءب فأقوم وأنصرف فلا تعنى بأن ترافقنى الى الباب .. فيسوءنى ذلك ، ولكنى أراجع نفسى وأقول أنه ليس بيننا كلفة فاننا صديقان قديمان . وقالت لى ذات ليلة ، وقد

دنونا من البيت : « لا تغضب اذا لم أدعك الى الدخول » فسألتها بوقاحة : « هل هناك غيرى ؟ » فلم يسؤها ذلك ولم يظهر علينا الامتعاض منه ، وقالت بابتسامتها الهادئة : « يخيل الى انك لا تحب الوجود معى فى البيت .. انك شاعر ، تحب الرياض والبساتين والماء والسماء والنجوم .. اليس كذلك ؟ » فضحكت وان كنت لم يفتنى ما فى كلامها من التهكم والزراية ، وحدثت نفسى ان هذه دعوة صريحة لايليق أن أغضى عنها مخافة أن يؤدى الاغضاء الى القطيعة والجفوة .. وكانت هذه مغالطة منى لنفسى ، فقد كنت انا اريد ذلك ولكنى كنت اصرف عنه نفسى وافطمها بجهد ، فقلت لها : « بل سادخل الليلة ـ اذا سمحت بالطبع ـ وسترين انى احب بيتك كما أحبك »

قالت : « صحيح ؟.. »

وأحسست من نبرة صوتها أنها ارتاحت الى كلامى ، وانها استغربته فى الوقت نفسه .. ودخلنا ، وأغلقت الباب وراءها كعادتها .. فلم امهلها بل طوقتها بذراعى فى الدهليز وقبلتها على خدها ، فادارت وجهها ومنحتنى فمها ..

وكنت أسخط على نفسى بعد كل ليلة وارميها ـ نفسى ـ بالانحطاط ، ولكنى الفت ذلك ـ فصار الأمر عادة كالتدخين وغيره مما يعتاده المرء ويتافف منه ويود لو كف عنه ، ويمضى فيه مع ذلك ولا يكلف نفسه جهد المقاومة وعناءها . وبقينا هكذا زمنا غير قصير ، وعرفت ان لها أصدقاء غير قليلين .. فقد كنا نلقاهم فى الطريق ، فيومئون اليها بالسلام فتبتسم لهم، ولكنهم كانوا لايدنون منها ولايكلمونها كما فعل الضابط السودانى فى حديقة الحيوان . ولم أكن أعبأ بذلك ، فقد كنت ارى انى منفرد بها وان كنت لا أعلم ماذا تصنع فى غيابى ، فما كان يسعنى أن أظل معها كل ساعة . وكنت أروض نفسى على الاطمئنان والثقة لحاجتى

اليهما ، لا لأنى واجد ما يدعو الى الثقة والاطمئنان ..

ولم يكن هذا المنطق يقنعنى أو يريحنى ، ولـكنه كان المنطق الذى اضطررت اليه .. على ان الأمر لم يطل ، فقد جاء يوم اعتذرت لى فيه بأنها مسافرة .. فاستغربت ، فما اعرف لها من تسافر اليه ، ولكنى سكت ولم أقل شيئا . ورأيتها بعد أيام ، فسألتها عن رحلتها ورجوت أن تكون كما أشتهى لها .. فقالت بضجر متكلف لم يخف على : « أوه أبدا .. كانت رحلة مملة .. انك تعرف هؤلاء الفلاحين وكيف يعيشون .. ليس فى حياتهم أى تسلية »

ومضت أيام ، فعادت تعتذر من التخلف عن لقائى لأنها مدعوة فى بيت صاحبة لها . فلم اجادل ، وتركتها ، وتكرر بعد ذلك الاعتذار ، وتوالى انقطاعها عنى . وكنت أحيانا أقسم أن اهملها وابقى أياما لا اسأل عنها ، لأعرف أعادت أم هى لاتزال مع هؤلاء الذين ظهروا فجأة فى حياتها ، ولم اسمع بهم مرة واحدة قبل ذلك كل هذه الشهور . وأحيانا كنت أضعف فأذهب الى بيتها .. فتفتح لى وتلقانى كأنها كانت معى قبل ساعة ، ولا تسألنى لماذا غبت ولا ماذا كنت أصنع وكيف كنت أقضى الوقت .. لا .. لاشىء من هذا على الاطلاق ، فأشعر بالغصة ولكنى أكتم الألم ..

وكنا قد دخلنا فى الشتاء ، وكنت أعرف انها لا تحب أن تكون فى غير بيتها بعد العشاء على الأكثر .. فذهبت الى قهوة قريبة من مدخل الحارة ، كى أرى مايكون . وانحدرت الشمس وانا لا ارى شيئا .. نعم رأيت ناسا كثيرين راكبين او ماشين وباعة متجولين ومركبات الخ الخ ، ولكنى لم أرها تدخل أو تخرج . وكانت نفسى لا تفتأ تنازعنى أن أنهض منصرفا ، وكنت أحدثها بأن من السخافة والحماقة أن أتعب نفسى بهذه الجلسة المضنية لأعرف ما أعرف . وهل فى الأمر سر ؟.. أليست قد ملتنى ونبت

بي وجفنني واعتاضت مني سواى كائنا من كان هذا السوى؟ وما حاجتي الى علم ما اعلم ؟ ولماذا احقر نفسي وامرغ وجهي فى التراب واضعه عند قدمى امراة سوء كهذه ؟ وأهم بالنهوض ولكنى أحس انى قد سمرت الى الكرسي أو لصقت به .. ويتجسد وهمي ويضحكني أمرى أحيانا ثم تغلبني الكآبة والحزن — على نفسي وعليها — ثم أراني غضبت وثرت وهاجت نقمتي على هذه المستهترة التى لاتبالى ولا تدرك . ثم اراجع نفسي فأسألها : « ماذا تريدين منها أن تبالي .. أمن العدل ان أطالبها — او أتوقع منها — أن تحفل ما لا تدرك ؟ » وأستسخف من نفسي أن أروح أنتظر من هذه العامية — على الرغم من انها تعلمت شيئا — أن ترتفع بنفسها الى حيث ارتفعت انا . ثم أرجع فأقول ان المسألة ليست مسألة تعليم أو ثقافة ، وان كان التعليم يهذب ..

وانقضى النهار فى هذه الهواجس أو الخواطر ، وأقبل الليل ومعه البرد .. فاحتجت أن أقوم وأن أتمشى لأشعر بالدفء ، فرحت اتمشى فى الحارة وعينى على بيتها وأنا فى حماية الظلام . فسمعت بعد قليل صوت باب يفتح ويغلق فدنوت على اطراف أصابعي فاذا هو بابها ، واذا الخارج منه هو الضابط السوداني . وكاد يختفي فى الظلام ، ولكن الباب فتح مرة اخرى وخرج منه صوت كهذا : « هسسسس » فوقف الرجل وتلفت ثم كر راجعا ووقف أمام الباب . وكنت على مسافة مترين منه ، فأدرت ظهرى اليه ولويت عنقى لأكون اقدر على السماع ، فسمعتها تقول له : « الساعة الثالثة تماما .. فاني أخشى أن يجيء ذلك الثقيل للسؤال عنى »

فمشيت .. ولم أقف لأسمع رده

الهارب

دخل « سعيد الميداني » على مدير دار الكتب ـ حين اذن له ـ وهو يحيى وينشر الجريدة التى كانت مطوية تحت ابطه ، وقال وهو يقدمها له : « هل قرأت هذا يا بك؟ ان الحملة واضحة التلفيق ، ولهذا جئت وفى مرجوى أن اظفر منك ببيان للرد عليها »

فتناولها منه المدير والقاها على طرف المكتب ، ولم يكتم ضجره وهو يقول : « تفضل .. تفضل .. ان كل ما يعنى رواد الدار هو أن يجدوا ما يطلبون ـ كل ما يطلبون ـ فيها وأن يهتدوا اليه بسرعة وسهولة وبغير عناء أو تضييع وقت . ومتى كان هـذا حاصلا فلست أبالى ما تكتب الصحف أو يقول غيرها . وهذا حسبى وحسبك بيانا ، فاذا اقتنعت به فذاك .. والا فأمرى الى الله ، فما أستطيع أن أضيع وقتى فى الكلام الفارغ »

وكان أمامه وهو يقول هـذا كتاب ضخم وضـع بين صفحتين منه قلما أحمر غليظـا . وكان ينظر الى أحدى الصفحتين ويشير بأصبعه الى سطور فيها كأنما يتلو منها ما ينطق به . بل لقد خيل الى سعيد أن الأمر كذلك ، ولكنه هز راسه كأنما يريد أن يطرد هـذا الخاطر ، فقد استأذن من غير أن يبين الغرض من المقابلة . وكان سعيد من أحـدث خريجى كلية الآداب بالجامعة المصرية ، ومن أنشطهم واشدهم اقبالا على التحصيل والاطلاع ونزوعا الى الاسـتقلال والعمل الحر . وخال فيه صـاحب جريدة « الأحوال » الخير من لمحاته ، وآنس الرشد من أعماله ..

فألحقه بمساعديه الكثيرين ، وما لبث أن صار يعتمد عليه فى تعقب الأخبار وتقصى الحقائق

ورأى المدير أن سعيدا ينظر الى الكتاب الذى بين يديه ، فمسح جبينه العريض بأنامله ثم قال : « على فكرة .. هل عندكم فى « الأحوال » ملفات خاصة بترجمة المشهورين ؟ »

ثم كأنما تذكر أمرا ، فقال : « متى أسست جريدة الأحوال ؟ »

فقال سعيد : « بعد الحرب العظمى .. سنة ١٩١٩ ــ أو ١٩٢٠ »

وقال المدير : « اذن لا فائدة .. »

فقال سعيد : « هل تسمح لى أن أسأل ما هى الحكاية لعلى أستطيع أن أساعد ؟ »

فقال المدير : « الحقيقة انها مسألة غريبة .. كنت أمس اقرأ كتابا لعبد القادر التميمى ، وهو كاتب مصرى وشاعر ايضا .. وان كان شعره قد ضاع باهماله ــ أوعلى الاصح ــ لأنه هو أبى أن ينشره لأنه كان يستضعفه ولا يرى رأى الناس فيه . وقد كان مشهورا منذ أربعين سنة ، ثم اختفى فجأة ولايدرى أحد أهو حى فيرجى أم ميت فيبكى .. وقد رجعت اليوم الى المستدرك ــ واشار بيده الى الكتاب الذى بين يديه ــ وهو كما تعلم الجزء الرابع من كتاب الاعلام للزركلى ، فوجدت فيه نبذة عن الرجل فيها تاريخ ميلاده وأسماء كتبه الى آخر ذلك ، وليس فيها تاريخ لوفاته . والمفهوم من هذا بداهة ، انه كان حيا حينما صدر الجزء الرابع من الأعلام ــ أعنى المستدرك . ولعل صاحب الأعلام لم يقف على تاريخ لوفاته اذا كان قد مات ، ولكنه كان حينئذ خليقا ان يذكر تاريخا تقريبيا لوفاته على عادته . لهذا أرجح ان الرجل كان حيا وقت صدور الكتاب . ولكن المسألة تبقى مع ذلك بلا حل .. فهل هو لايزال حيا .. أم

تراد مات .. وأين .. هذه هي المسألة . ولست أعتقد ان في وسعك ان تساعدني ؛ ولكن أدر المسألة في خاطرك عسى أن تهتدي الى شيء فتخبرني .. اذا سمحت ولك الشكر »

ونهض واقفا ايذانا بانتهاء المقابلة .. ولكن سعيدا كان مطرقا ؛ وكان يفرك جبينه بأصابعه ، فلم ير المدير يقف .. فعاد ذاك الى مقعده على مهل وقد جال بذهنه ان لعل هذا الشاب يعرف شيئا يستحق أن يصغى اليه ، وتنبه سعيد ورفع رأسه وقال وعينه على السقف : « عبد القادر التميمي ؟ أي نعم .. اذكر هذا الاسم ، وان كنت لم اقرأ له شيئا . قرأت عنه ولكن لم أقرأ له ، وسمعت من أستاذنا في الجامعة أن الناس في عصره كانوا في حيرة من أمره ، وكان أكثرهم لايعرف له جدا من هزل .. وكان يتهكم بكل شيء .. كل شيء حتى نفسه . وكان اسلوبه جديدا في بابه فأخذ الناس على غرة وكثر مقلدوه ، ولكنهم أخفقوا فأقصروا »

وهنا تململ المدير ، فما كانت به حاجة الى من يصف له الرجل .. وانما كانت حاجته الى من يدله عليه أو على مكان قبره

ومضى سعيد في كلامه غير عابيء بضجر المدير ، فقال : « نعم .. وأذكر ان أستاذنا قال انه رحل من مصر وخلف أسرته بها ، وترك لها كل ما جمع من مال . وكان ابنه قد كبر وصار ذا عمل يكسب منه رزقه ، ولم يرجع الأب بعد ذلك .. ولكن من المحقق انه لم يمت وان كانت أخباره قد انقطعت .. نعم اذكر هذا »

فقال المدير : « أواثق أنت من ذلك ؟ »

قال سعيد : « كل الثقة .. ولكن أين هو .. لايدرى أحد »

قال المدير : « ولكنه اذا كان لايزال حيا ـ لابد أن يكون

الآن قد جاوز الثمانين .. انتظر .. ولد .. ولد .. نعم ..
سنة ١٨٥٠ ، فهو الآن فى السادسة والثمانين من عمره .
هل تظن ؟ ولكن .. السادسة والثمانين ؟ يالله ! أتظن ..
انى لا أكاد أصدق .. لقد كان معروفا عنه انه مسرف فى
انفاق حياته .. لايبالى أعاش أم مات .. فكيف يمكن .. »

فقال سعيد : « مثل هؤلاء الذين لايبالون أعاشوا أم
ماتوا هم الذين يعمرون »

فقال المدير وهو شارد : « ربما .. ربما .. ولكن ٨٦
سنة .. هذا عمر .. هذا .. »

فنهض سعيد ومد يده الى المدير ، وقال : « سأعنى
بالبحث .. واذا وفقت الى شيء فسأخبرك »

فمد المدير اليه يده ، وهو يقول كالمحدث نفسه : « ٨٦
سنة .. أما لو كان حيا ؟ ولكن كيف يمكن ؟ كيف يمكن ؟ »

□

مضى شهران على هذا الحديث لم يسمع فى خلالهما كلمة
من سعيد ، ولم يكف هو أثناءهما عن البحث والتقصى ـ
عبثا ـ فاقصر يائسا وصرف نفسه أسفا عن عبد القادر
التميمى . وكان جميل بك ـ أو اذا شئت اسمه كاملا ،
جميل بك احمد القناوى ـ رجلا مخلصا عطوفا رقيق القلب ،
وقد شق عليه جدا أن يحدث فى القرن العشرين أن يختفى
أديب مشهور وأن تنقطع أخباره نحوا من أربعين سنة ،
فتنساه الدنيا التى يسرها ويملؤها حبورا وجذلا ، ولا تعود
تعرف عنه حتى أبسط ما ينبغى أن يعرف : « أهو حى أم
تراه مات ؟ ».وكان جميل بك يرى أن هذه فاجعة انسانية
لأنه لم يشك فى ان اختفاء هذا الأديب وانقطاع أخباره
سببهما يأس عميق آخذ بالكاتب ، وهو مع ذلك الذى يرفه

بكتابته عن الناس وينعش نفوسهم ويهذبها بفكاهته ويفيض على حياتهم البشر والسرور كما تفعل الشمس ، ولم يسعه الا ان يعجب لاختفاء رجل مشهور فى عالم لايكاد يختفى فيه شىء فى هذا العصر ، ورجح عنده لهذا ان الرجل لا بد ان يكون قد لقي حتفه فى أول مراحل هجرته – اذا صح أن تسمى هجرة – ولا يبعد أن يكون قد تنكر واتقى الا يحمل معه ما يدل على حقيقته . واخلق به حينئذ أن يكون قد دفن حيثما اتفق بالاسم الجديد الذى تنكر به ، وهز جميل بك كتفيه ومط شفتيه ، ثم زفر زفرة طويلة وقال : « ايه لاحول ولا قوة الا بالله » وشرع يشعل سيجارة واذا بالتليفون يدق الى جانبه ، فتناول السماعة متثاقلا وقال : « نعم » ولكن ما عتم أن اعتدل فى جلسته ، وصاح : « ايه ماذا تقول ؟ »

ولكن الذى خاطبه اكتفى بما قال ، فوضع جميل بك السماعة ، وقام يتمشى بسرعة ويشعل سيجارة ويضعها فى الطبق وينساها ويروح يشعل غيرها حتى اجتمع فى الطبق اربع سجاير بعضها أقصر من بعض وهو ذاهل عنها جميعا . وانه ليهم باشعال الخامسة ، واذا بالخادم – فقد كان فى بيته – ينبئه ان « سعيد أفندى الميدانى » قد حضر ، فيقول له بلهفة : « ادخله .. ادخله » ويسبقه هو الى الباب

ويدخل سعيد أفندى ويده فى يد جميل بك ، وهو يقول : « نعم وجدته .. فى غرفة فى ربع قديم فى أعتق أحياء هذه المدينة .. أو هو من أعتقها .. »

فيقول جميل بك : « وكيف وجدته ؟ »

فيقول سعيد أفندى : « أوه .. هذه حكاية طويلة . وليس المهم كيف وجدته ، بل المهم انى وجدته . ويمكننى

أن أقول لك أني استعنت بابنه ، وقد كان اعتقاده انه مات لا محالة ، ولكنى زعزعت له هذا الاعتقاد بعنف بل بقسوة . . هل تعلم ان ابنه أحيل على المعاش منذ سنتين ، وان له حفيدة تزوجت وولدت بنتا ؟ »

فيقول جميل بك : « ليس عجيبا أن يعتقد ابنه ان أباه مات وشبع موتا ، ولكن كيف وجدته ؟ »

فيقول سعيد مرة أخرى : « لقد قلت لك ان هذه حكاية طويلة »

فيقول جميل بك : « انما اعنى كيف حاله »

فيقول سعيد : « حاله . . وماذا تنتظر أن يكون حال رجل قارب التسعين واقعدته شيخوخته العالية عن العمل . . فقر وضعف وعمش . . حال لايعلم بها الا الله »

ـ ولكن كيف يعيش ؟

ـ كان يستعين به طابعو الكتب القديمة لضبطها وهم يجهلون شخصيته لأنه يسمى نفسه عبد القادر ناجى . . أليس اسما غريبا ؟ ان اختياره له يشي بثقته بالله وبحسن المآل على كل حال . . لقد أدهشنى منه انه لايزال يبتسم للدنيا ويؤمن بحسن حظه فى الحياة على الرغم مما هو فيه من الفاقة الشديدة . . ولكن من يدرى ؟ لعله قد خرف فهو لا يقدر سوء ما هو فيه » . فسأله جميل بك : « ألا يعرف أن ابنه موجود ؟ »

فقال سعيد : « يعرف . . ولكنه أبى أن يذهب اليه حين عاد من رحلاته لأنه استكبر أن يجعل نفسه حميلة عليه ، وخشي أن يأنف ابنه من الانتساب اليه اذا وقف على حالته الزرية »

ـ وهل قابل ابنه ؟

ـ بالطبع .. وقال له حين رآه : من يصدق أنك ابنى ؟ انى أبدو أصغر منك .. على كل حال ، يمكنك دائما ان تنسى أنى ما زلت على قيد الحياة .. فما أشك فى أن عثورك على حيا صدمة لك بعد أن وطنت نفسك على موتى. واحسب أن بعثى الآن قد خيب املك فى .. كذلك قال لابنه .. مدهش. .ان ذهنه لا يزال حافظا لقوته. . قال لابنه فى جملة ما قال : انى لما كبرت كنت أقول : لو عاش أبى لما عاشرته ، لانى أستنكف أن أكون فرعا وأحب أن أشعر أنى أنا أصل مستقل بنفسه عما عداه وعما غذاه ونماه . ولكن ذهنه يشرد أحيانا فيخلط فى كلامه ، لانه يكر راجعا الى ذكرياته الطويلة فى حياته الحافلة ، من غير أن يشعرك بالانتقال أو الرجعة .. فتحس أنك تهت وضللت طريقك ، وقد تظنه يهذى ولكنه ليس هذيانا بل كر الذهن الى الوراء فجأة بغير انذار . ولما قلت له أنك تبحث عنه ، ضحك وقال هل يريد أن يغلفنى ويضعنى على رف .. وقال عن كتبه لما عرض ذكرها : انخيرها ما لم يكتبه. . ولاتزال أسنانه باقيا بعضها ، وقد قال لى ان متانتها وسلامتها من الآفات هما السبب فى بقائه حيا الى الآن .. ولما قلت له ان من واجبه أن يملى مذكراته على بعضهم ، صاح بى : « أعوذ بالله يا شيخ .. حرام عليك .. اتق الله فى يابنى »

فسأل جميل بك : « وماذا كان يعمل كل هذه السنين الطويلة ؟ »

ـ أوه كل شىء .. قال لى انه لم يعش لنفسه ساعة واحدة أيام كان يشتغل بالأدب ، وان كل ما كان يرى نفسه تشتهيه كان يرى أنه محروم منه . وكان مما يثقل عليه جدا أنه لا يرى نفسه يفعل الا ما يكره فهو لا يحب المجالس التى يكثر فيها الناس ولا يرتاح الى أحاديثها ولا يغتبط

بالزوار ويحب أن يشعر أن بيته حصن منيع لا يقتحم ، ويود ألا يجالس الا الذين يصطفيهم من الاخوان ويأنس بهم ويطمئن اليهم ، ولكنه كان يجد ـ لسبب خارج عن ارادته بل ضـد أرادته ـ انه يعيش كما يعيش النـاس ، ويفعل ما يستثقل ، ويحرم ما يحب ، وقد كبر فى ظنه انه سيظل حياته هكذا . ولم يستطع أن يروض نفسه على السكون الى هذه الحياة او أن يوطنها على احتمال هذا التقيد الذى لا يعرف ماذا يفرضه عليه ، وشق عليه أن يظل هكذا .. يعرف أنه حر ولا ينعم مع ذلك بحريته ، فكره هذه الحرية الظاهرية ، ومل السخط على نفسه .. وود لو أنه مقيـد حقيقة بارادة غيره ليتسنى له على الاقل أن ينحى باللائمة على هذه الارادة الخارجية ويجعلها غرضا لذمه وطعنه . ولهذا فر من مصر والتحق بشركة أجنبية للملاحة ، وركب على بواخرها البحار .. وأقام فى الموانىء مندوبا لها ، ثم ترك ذلك وعمل وكيلا تجاريا يجوب المدن ويذرع الارض داعيـا مرغبا ، ثم انقلب مدرسا للغة العربية فى بلاد الأفغان حتى أقعدته الشيخوخة ولم تقعده فى الحقيقة ، ولكن الناس كانوا يرون أن سنه علت فهم يزهدون فيه من أجل ذلك ويؤثرون من هم أدنى منه سنا ، وكان قد جمع مالا فى رحلاته الكثيرة فصار ينفق من رأس ماله حتى قارب النفاد فعاد الى مصر فدخلها ومعه نحو تسعين جنيها .. قال لى وهو يضحك أنه حدث نفسه أنه ينبغى أن يموت بعد أن تنفد ، فما له رزق سواها . ولكنه كان يخرج ويتردد على المكاتب التجارية ، فانس به أصحابهـا وأدركوا أنه عالم وأن فى وسعهم أن يستغلوه ، فكان يضبط لهم الكتب القديمـة التى يعيدون طبعها ، وساعده ذلك على اطالة عمره ، فقد أغناه عن الانفاق من رأس ماله أو ما بقى منه . ومعنى ذلك عنده أن عمره طال لانه يحسب عمره بما لديه من المال ، فعلى حسب كثرته

او قلته يكون ما بقى له فى الدنيا من السنين .. فهل رأيت اعجب من هذا ؟ »

فأطرق جميل بك شيئا ، ثم رفع رأسه وقال : « لا شك أن الامر عجيب ولكن ابنه .. ألم يأخذه بعد أن اهتدى اليه ؟ »

فقال سعيد : « أوه .. ان الرجل شاذ كما تعرف وقد ابى كل الاباء أن يذهب الى بيت ابنه ، لأن هذا خليق أن يحدث فى رأيه اضطرابا لا داعى له فى حياة ابنه . وقد أطال النظر الى البذلة الانيقة التى يلبسها ابنه ، ثم القى نظرة على الجلباب البسيط الذى يرتديه هو واشار بيده المعروقة الى الثوبين ، وقال : « دعنى لشأنى ، فانه غير شأنك » ولم يزد بعد على الابتسام كلما ألح عليه ابنه فى القيام معه »

فقال جميل بك : « والآن الا نستطيع أن نصنع شيئا لهذا الرجل الذى كشفنا عنه .. ان رجال الآثار يملأون الدنيا ضوضاء كلما وقعوا على حجر قديم ، أفلا ينبغى أن ننبه الناس الى حقيقة هذا الرجل الذى لا يزال حيا وان كان محسوبا فى أهل القرون الخالية ؟ »

فقال سعيد : « بالطبع نستطيع .. يمكن مثلا أن نقيم احتفالا كبيرا فى اكبر الفنادق ندعو اليه رجال الادب والعلم والصحافة وطائفة من كبار الرجال ونقدم اليهم صاحبنا .. غرابة الموضوع نفسه كفيلة وحدها بنجاح الحفلة »

فهز جميل بك رأسه ، وقال : « لا شك .. ولكن صاحبنا لا يبالى هذا ولا فائدة له منه على كل حال ، وأنا أخشى اذا دعونا الى الاكتتاب أن لا نفوز بشىء يستحق الذكر .. فنكون قد أهنا الرجل بلا داع .. ثم من يدرى .. فقد يأبى هذا وذاك .. »

فقال سعيد ، وهو ينهض : « اقول لك .. دع هذا لى . والله الموفق »

لم يكن الاستاذ عبد القادر التميمى يبرح بيته ، وكان

يجلس طول النهار على سريره الضيق تحت النافذة ويطل منها ولا يكاد يحول عينيه عنها . ولم يكن يرى شيئا فى الحقيقة الا أشكال المبانى القريبة ، وذلك لضعف بصره .. ولكنه لم يكن ينظر ليرى شيئا ، ولا كان يعنى بأن يرى أو أن تأخذ عينه المناظر ، وانما كان يحدق كالذاهل . وكانت أسارير وجهه المتجعد تنبسط أو تعمق الاخاديد التى حفرها الزمن ، فيخيل الى الناظر اليه أن هذا وقع ما يشاهده . ولكن الحقيقة كانت خلاف ذلك وعلى نقيضه ، فما كان يبصر شيئا وانما كان يدير عينه فى قلبه أى فى ماضيه ؛ فيبدو عليه السرور أو الالم أو غير ذلك ، كما يبدو على وجه من يشاهد قصة معروضة فى دار السينما . وكان سعيد يزوره كل يوم مرة — وأحيانا مرتين — فى اليوم ويصغى اليه أكثر الوقت ، وهو يهضب ويسح بذكرياته التى لا آخر لها وقال له مرة : « ما رأيك يا أستاذ .. ان خبر عودتك قد شاع وذاع بين الادباء ورجال الصحف وكلهم متلهف على رؤيتك »

فقال بايجاز : « فليتلهفوا » . فقال سعيد : « ولكنهم لا بد أن يصلوا اليك فى النهاية .. كما وصلت أنا .. ولا سبيل الى صدهم » . فتجهم الرجل وقال : « ولكن يجب أن يمنعوا .. ان المكان لا يليق .. ما العمل .. أشر .. » قال : « اسمع منى وأطعنى .. خير ما يمكن أن نصنع هو أن يروك كلهم دفعة واحدة » . قال : « ولكن كيف يتسنى ذلك . ؟ هذا مستحيل ». قال : « كلا .. الضرورة تفتق الحيلة .. وقد رأى المعجبون بك أن خير ما يصنع هو أن يقيموا حفلة يدعون اليها الأدباء والعلماء ورجال الصحف ورجال الدولة أيضا .. فنفرغ من الامر كله فى ساعة » . قال : « ساعة .؟ يا حفيظ .. » قال : « هذا أهون من أن تظل كل يوم ساعة معرضا لحضورهم الى هنا وازعاجك .. فكر .. » . قال :

« صدقت .. ولكن حفلة. ؟ حفلة. ان هذا صعب »

قال : « لماذا .. اين الصعوبة ؟ ما عليك الا أن تحضر وتجلس معهم ساعة أو بعض ساعة ثم تنصرف جميعا ، وكفى الله المؤمنين القتال »

فأطرق الرجل قليلا ثم قال : « ولكنى لا أريد أن أختصر حياتى .. انى استطيع أن أعيش . دعنى انظر .. »

فعالجه سعيد حتى صرفه عن التفكير فيما تكلفه الحفلة من النفقات للثياب ، فقد كان هذا هو الذى يفكر فيه ويستثقله خوفا على عمره

ولكن المشكل لم يحل مع ذلك ، فقد كان ابنه على بك ـ فقد صار بيكا ـ عبد القادر التميمى ، فى حيرة شديدة من امره من جراء عناد ابيه .. فانه ـ اى على بك ـ رجل ذو مركز ومقام فى المجتمع ، وقد زوج ابنته منذ عهد قريب لرجل له مركز ومقام فى المجتمع ايضا ، وليس يليق أن يكون ابوه ـ اى ابو على بك ـ هذا الرجل الرث الهيئة الزرى اللباس الرقيق الحال الساكن فى غرفة حقيرة فى ربع عتيق او جديد اذا امكن أن يكون هناك ربع جديد ـ وقد استطاع أن يرجىء لقاء بنيه ونسيبه لهذا الاب الذى جاء من حيث لم يكن يحتسب ، فقد زعم لهم أن العثور عليه او الاهتداء اليه أحدث له رجة عصبية يحسن معها اتقاء ازعاجه الى حين . ولكن الصحف بدأت تكتب وتفيض ، ولا سبيل الى كبح الصحف أو صرفها عن الموضوع .. فما كل يوم يختفى أديب كانت له شهرة واسعة ، ثم يظهر بعد اربعين سنة . وقد حرص جميل بك وسعيد أفندى على اخفاء مسكن الرجل ، ولكن الصحف لا يسعها أن تصبر على ذلك . ومن حقها أن تعرف أين يسكن او يقيم والا كانت معذورة اذا هى استرابت فى الامر كله . اضف الى ذلك أن حفلة ستقام ويشهدها مئات من الخلق . وقد كانت فكرة الحفلة هى التى

أعانت جميل بك على اقنــاع الصحف بالصبر والانتظار ، وجعلت الموضوع شيقا وخليقا أن يجد القراء فيه مثل لذة الاساطير . ولكن هذا لا يمكن أن يدوم ولا مفر آخر الامر من كشف الحقيقة كلها ، فما العمل ؟

لهذا لجأ الى سعيد وجميل بك ورجا منهما أن ينقذاه ويحولا دون الفضيحة التي يجزع منها ولا يعرف له قدرة على احتمالها ، فاتفق الثلاثة أن يحملوا الرجل ــ ظهر يوم الحفلة ــ بعد أن يلبسوه بذلة الى بيت ابنه ، ومن هناك يذهبون به الى الحفلة فى المساء

وجاء يوم الاحتفال ، فذهب اليه سعيد بعد الظهر ومعه ثياب أراد أن يلبسه اياها .. فأبى واستكبر وغضب أيضا ، وقال انه ليست به حاجة الى ثياب ولا الى أحد من الناس ، وانه لا يريد أن يحضر هذه الحفلة أو يرى وجه انسان ، وانه ما يعيب ثيابه على كل حال ؟. أليس قد قابل بهــا الناس فى مصر وفلسطين والشام والحجاز والأفغان والعراق وايران .. فاذا كانت لا تكفى هؤلاء المعجبــين به والذين يريدون أن يحتفوا ببعثه ، فانه يحسن بسعيد أن يحمــل اليهم ما جاء به من الثياب على مشجب ، ويقول لهم أن هذا ما يطلبون وهو كل ما يستحقون أن يروا

ولم يقل هذه الألفاظ بعينها ولا ما يقرب منها ، بل فاه بما هو أعنف . وكان صوته متهدجا وكلامه متقطعا ، وكانت لحيته الطويلة الكثة تضطرب وأسنانه الباقية تصطك ، فلم يجد سعيد بدا من السكوت والكف عن الالحاح عليه بعــد أن وضــحت له قلة جــدواه ، وسأل الله فى سره الستر والسلامة فى هذه الليلة

وخرجا من الغرفة .. سعيد فى ثيابه الافرنجية التى يلبسها الأفندية من أمثاله ؛ والأستاذ التميمى فى جلباب فضفاض وجبة قديمة وحذاء أصفر صارت الرقع فيه أكثر من الأصل فكأنه مركوب أبى القاسم ، وطربوش مصرى سوى انه طرى وعليه لفة كانت فى الأصل مزركشة فأصبحت الوانها حائلة باهتة

وكان سعيد قد جاء فى مركبة وتركها تنتظر فى الطريق أمام الباب ، فأحاط بها غلمان الحارة .. هذا ينط على السلم وذاك يعبث بالغطاء ويطويه وينشره ويكرر ذلك مرات ، والسائق يصيح بهم أن يكفوا ويلعن الساعة التى دخل فيها هذه الحارة ، ويفرقع بسوطه ليزجرهم ويخيفهم فينفضون متضاحكين ثم يعودون الى غيهم حتى كاد عقل السائق يطير . فلما ركب الرجلان راح الغلمان يجرون وراء المركبة ويتعلقون بها من خلفها ويصيحون ، والسائق يلوح لهم بالسوط ويضرب به ظهر الغطاء حتى خرج الى الطريق العام

ولا نطيل .. ولا نحاول أن نصف لقاء الرجل بأحفاده ، فقد خاب أمل الأسرة كلها حين رآه أعضاؤها وأخذت عيونهم الفاحصة قدم الثياب ورثاثتها . وكان ابنه أعظمهم خيبة أمل وأشدهم قلقا واضطرابا ، ولا سيما حين عرف اصرار أبيه على هذه الثياب الوضيعة المخجلة حتى لأشفق عايه سعيد افندى أن يفلج ، فراح يحاور الاستاذ التميمى ويداوره مرة أخرى عسى أن يهديه الله .. ولكن الرجل كان جبلا لا يتزعزع ، ولما قال : « أنا كما أنا .. فمن كان يقبلنى على علاتى فأهلا به ، والا فانى أرجع الى غرفتى .. فما طلبت أن أجىء ولا أردت أن يعرف ابنى أو سواه أنى على قيد الحياة » ، عندئذ أمسك سعيد أفندى وأقصر

وكانت الحفلة فى فندق من أكبر فنادق المدينة وفى أوسع

قاعاتها ، وقد دعى اليها — أو على الأصح اشترك فيها — نحو مائتين من رجال الأدب والعلم والصحافة والحكم والوجاهة . وكان أكثرهم قد بكروجاء قبل الموعد .. وجاء غير المدعوين — أو المشتركين — كثيرون ، وقفوا بحيث يرون الداخلين ، واحتشد جمهور غفير على الرصيف ليروا هذا الأديب الذى بعث بعد أربعين سنة ، والذى دأبت الصحف عدة أيام متوالية على الكتابة عنه . واستعد المصورون لاستقباله وتصويره فى القاعة الكبرى بآلاتهم ومصابيحهم القوية .

ثم أقبل أحد الشبان يعدو ، وقال : « جاء الاستاذ » ، فساد السكون وانقطع حتى الهمس وتعلقت الأنفاس واشرأبت الأعناق ، واتجهت العيون الى الباب لرؤية هذا الذى كأنما قام من القبر . ودخل الاستاذ فى الثياب التى أبى سواها ، وقد أخذ بذراعيه جميل بك وسعيد افندى ، وأقبل ابنه وراءهم . ولكن الناس لم يعيروا الابن أدنى التفات وانما كانت عيونهم على هذا الرجل الهرم ذى الثياب العتيقة واللحية البيضاء والجبين المقطب والعين الثابتة اللماعة وأن كانت لا ترى الا قليلا . وكان قد ثقل عليه ما رأى من ابنه ، فآلى ليرجعن الى غرفته . وعرض جميل بك المدعوين على الاستاذ بأسمائهم ، فصافحوه واحداً بعد واحد حتى كاد ينخلع ذراعه وان كانوا جميعا قد ترفقوا به وحرصوا على الاكتفاء بلمس راحته . ولم يبد عليهم ما خشيه ابنه من الاشمئزاز أو الاستخفاف ، حين تقع عيونهم على ما هو فيه من الهلاهيل

وأديرت ألوان الطعام ، فكان الاستاذ يسأل عما يعرض عليه ، ما اسمه وكيف يصنع .. ولا يتناول الا بقدر . وكان المدعوون فى أول الامر يحدجونه بعيونهم ، ولكنهم ما لبثوا أن انصرفوا الى الطعام والحديث . ولكل شيء

آخر ـ انتهى الأكل وبدات الخطب والقصائد والاستاذ مطرق كأنه يصغي ، وكان يهز راسه من حين الى حين كمن سره شيء ـ أو ما يسمع

وانتهى هذا ايضا على طوله ، فهمس جميل بك في اذن الاستاذ : « الا تحب ان تتفضل بكلمة ترد بها عليهم »

فقال الاستاذ مستغربا : « انا ؟.. اقول كلمة ؟.. أرد على ماذا ؟.. الحقيقة انى لم أكن مصغيا.. لم أكن مصغيا .. لم يكن بالى اليهم »

فذعر جميل بك ـ فما كان يتوقع هذا ـ وقال : «ولكن يا استاذ .. لا بد من كلمة .. لا نستطيع ان نقول لهم انك لم تكن مصغيا الى كلامهم .. ارجو يا استاذ .. كلمة شكر قصيرة .. القليل منك كثير »

فهز الاستاذ كتفيه ، وقال : « ان هذا غريب ! لقد كنت افكر في ليلة قضيتها في كهف .. »

فقال جميل بك مقاطعا : « فيما بعد الحفلة نسمع ماكنت تفكر فيه .. لا بد أنه كان شيئا غريبا .. ولكن الآن .. ارجو يا أستاذ »

فالتفت اليه ، وقال : « ماذا قلت انهم كانوا يقولون ؟. انى لم أكن مصغيا »

فقال جميل بك : « كانوا يثنون عليك ويمدحونك ويذكرون كتبك العديدة ويصفون ما فيها .. كلام كثير يصعب أن ألخصه لك الآن . أنا أيضا قلت كلمة ولكنك لم تسمع مع الأسف .. نهايته .. لا بد من الرد ، فاصنع معروفا »

وكان سعيد ـ حلال المعضلات ـ قد ادرك وهو في مكانه ان في الامر شيئا ، فخف الى جميل .. فلما عرف المسألة انحنى على الاستاذ ، وهمس في أذنه : « أن هؤلاء الناس

خليقون ان يتوهموا أننا ضحكنا عليهم أو إننا مخدوعون ، وانك لست الاستاذ التميمى وانما أنت رجل غيره ينتحل اسمه ، فقم قل كلمة والا . . » ولم يتمها فقد نهض الاستاذ معبسا ، ورفع راسه كأنما يحاول أن يقيم ما قوسه الزمن ، وكانت لحيته تضطرب ، وشفته تختلج ، وكفاه لا تثبتان على المائدة التى وقف معتمدا عليها ، وظل هكذا نحو دقيقة كان من الواضح فى أثنائها انه يعالج نفسه ليردها الى السكون ، ويحاول أن يضبط أعصابه ويفىء بها الى الاتزان ثم فتح فمه ، وقال بصوت خافت : « أيها السادة » وسكت شيئا وثبت حملاقه فكأنه تمثال نصب فى مكانه ، ثم ابتسم فجأة وبدأ يتكلم بلا توقف . ولم يشكرهم كما رجا منه جميل بك ، بل قال لهم فى صراحة سرت فريقا وساءت آخرين ، انه وجد بالتجربة الطويلة أن من العسير أن يهرب المرء فى هذه الدنيا من الناس ـ ومن الأدب والأدباء وعشاق الأدب على الخصوص ـ المخلصين والمتكلفين والذين يظلون يوحون الى نفوسهم انهم يحبون الأدب حتى يؤمنوا بذلك . كلا ، لا سبيل الى الهرب . . وطالب الفرار لا بد له من الجرى الطويل والذهاب الى أبعد مما كانت الحاجة تدعو اليه قبل نصف قرن . وهو يتكلم عن خبرة فيجب أن يصدقوه ، بل أن وجوده الليلة بينهم دليل مادى على تعذر الهرب فى هذا الزمان الذى امتد به العمر اليه . وكيف يهرب الانسان ؟ . الى أى مكان يذهب وكل مكان فيه ناس ؟ . وقد صار الناس أكثر والاتصال بينهم أسرع وأسهل . . ومن أى مكان يهرب ؟ ان الهرب الصحيح مستحيل . . وقد يستطيع المرء أن يعيش فى الصين ، ولكنه لا يستطيع أن ينكر أو ينسى أن القاهرة والاسكندرية ودمشق والقدس موجودة . والهرب من الزمان أصعب . نعم يتوهم المرء أنه يعيش لا فى الحاضر بل فى المستقبل وللمستقبل ، ويروح يعزى نفسه عما هو كائن بما يزعم أنه سيكون ، ويذهب

يعمل ليقلب الدنيا ويجعلها كما ينبغي ان تكون : « انى أؤكد لكم انى أعرف هذا . فقد فعلته ــ أعنى توهمته ــ وعشت فى سكرة طويلة ونشوة مستمرة وحلم دائم بما سيكون »

وقال لهم ان هذا كله عبث فى عبث؛وأكد لهم أنه لا مسوغ على الاطلاق لأن يفترض الانسان أن للجنس الانسانى مستقبلا .. هذا أولا . وثانيا أن ما نسعى له ونلح فى طلبه او تمنيه ؛ قد يكون مستحيل التحقيق . وهب أن تحقيقه ميسور ؛ فقد يتبين أنه ليس مما يسيغه أو يرتاح اليه أو يرضى به الجنس الانسانى . وسألهم هل هم يعتقدون أن الانسان ينشد السعادة ؟. ولو كانت السعادة الدائمة الخالدة التى لا تزول ولا تتغير ممكنة ، الا يستفظعها الانسان ويفرق من تحقيقها ؟. على أن التفكير فى المستقبل والسعى له لا يمنعان أن الحاضر موجود وأنه مؤثر بوجوده .. وهناك مهرب آخر اذ يتعلق المرء بالمثل العليا وصور الكمال ، ولكن اللجوء الى الخيال لا ينفى الحقائق المحيطة بالانسان. وانتهى الى أن المهرب الوحيد الصحيح لا يكون فى الحياة وهذا لايعد مهربا ؛ لأن المرء لا يشعر به ولا ينعم بادراكه أنه استطاع الهرب .. ولو كان هذا مهربا حقيقيا للجأ اليه ! وابتسم وقال انه يرجو أن لا يلجئوه الى هذا الذى ليس مهربا ..

واستطرد بطريقة ما الى كتبه وما يلقى التكريم من أجله ، فقال انه واثق ان أكثر الموجودين لم يسمعوا باسمه ، ولم يكونوا يعلمون أن له كتبا ، وأن الذين قرأوها فهموا منها غير ما أراده ، وقد يكون هذا عيبه هو كما قد يكون عيبهم هم ، ولكنه الواقع على كل حال . والمجتمع لا ينتظم أمره الا بالمجاملة وهى شىء حسن فى ذاته ، ولكنه هو فرغ من ذلك كله وأخرجته سنه من المجتمع واعفته من ضروراته . وهو ليس من هذا الزمن ، فيحسن أن يرتد ويتراجع الى ما اخرجوه منه لأنه ليس الا قطعة متخلفة من زمن سابق ،

ولا شك أنهم أدركوا غلطتهم حين خرجوا به الى زمانهم ..

وظل يهضب على هذا النحو الذى لم يكن منتظرا ولا كان فى حساب أحد . وطال الأمر فمل النـــاس وأحس هو الهمس .. فلم يترفق بالذين ضجروا كأنما أراد أن ينتقم لنفسه أو أن يبغضها اليهم فيتركوه بعد ذلك فى سلام .. ولم يطق البعض المقام أو طوله ، فتسلل خارجا وتبعـه غيره وغيره حتى لم يبق الا دون النصف

ولكل شيء آخر .. عاد الاستاذ الى غرفته لا الى بيت ابنه واستلقى على فراشه بثيابه ، فقـد أضناه الـكلام والوقوف أكثر من ساعة ونصف ساعة

وفى الصباح جمع ثيابه وأشياءه ، وانتقل الى ربع آخر
وجاء سعيد بصحف الصباح وفيها وصف الحفلة التى ظلت أياما تدعو لها وتروج ، وفى صدر أكثرها خطبته التى عنى سعيد بتدوينها

فلم يجد الاستاذ ، وأعياه أن يعرف أين ذهب .. فأسرع الى ابنه على بك يخبره ويسأله ما العمل ، فقال على بك وهو يرسل الدخان فى الهواء : « أظن أن الواجب أن نحترم ارادته ونعفيه من الاثقال عليه »

فمضى عنه سعيد وهو يهز رأسه ويفكر فى على بك ، اكثر مما يفكر فيمن عاد فاختفى

النسيان

ـ انك قاس ..

ـ أنا ؟.. ياخبر اسود .. وهل فى هذه الدنيا الطويلة العريضة من هو أرق منى قلبا ؟

ـ ولكنه أبى .. وأنا أتألم

ـ أعرف انه أبوك .. وأعرف أيضا انه نادر ، وانه منقطع القرين .. أيكفى هذا الثناء أم تريدين الزيادة ؟ يكفى؟ حسن .. ولكن ذهوله يضحك الثكلى ، فماذا أصنع ؟ .. ما حيلتى ؟

فقالت الفتاة بلهجة مبطنة بالعتاب : « ولـكن هل من الضرورى ان تقلده ؟ ان هذا هو الذى يسوءنى منك »

فقلت : « فكرى يا فتاتى .. قولى لى كيف يمكن أن أقص عليك الحكاية واصف لك ما حدث بغير ذلك .. انى لا أريد تقليده ، ولكن الصدق فى الرواية والفن فى عرضها يتطلبان ذلك .. بل يجىء منى التقليد عفوا وعلى غير عمد» فاقتنعت أو هى لم تقتنع ، ولكنى كنت قبل أن يدور هذا الحوار ، قد شرعت أقص عليها حادثة جديدة من حوادثه التى لا آخر لها .. فلما احتجت الى تقليده فى بعض مواقفها ضحكت ، ثم انقلبت تعاتب وتستهجن التقليد وتعيب المحاكاة . وهذا بعض ما يحيرنى من المرأة ، فقد كان ضحكها وعتابها فى وقت معا ، وكانت تضحك وتشير الى بيدها منكرة ماترى وتسمع منى

وقد عرفتها من أبيها ، وبفضل ذهوله العجيب . وكانت تخرج معه لتقيه عواقب ما يقع منه . فكأنها وهى ترافقه

وتروح وتجيء معه ، ذاكرته الذاهبة . واتفق يوما ان نسيهاـ نعم نسيها ـ وخرج وحده ، واهتدي ـ لا يدرى أحد كيف ؟ ـ الى ناد لم أكن أعرف أن مثله موجود فى بلادنا ، فان حياة الأندية طارئة وعهدنا بها حديث جداً . وكنت قد دعيت فى تلك الليلة الى زيارة هذا النادي ، وقضاء بعض الوقت فيه . . وكان الذى دعانى يرجو أن أنضم اليه ويحثنى على ذلك ويزينه لى ، وأنا أتأبى وأبين له ان حياة الأندية فى مصر جافة ثقيلة ، وانها قلما تكون الا حياة مقامرة أو ما أشبه ذلك ، فيضحك منى وينفي ذلك ويقول : « تعال انظر بعينك ثم احكم » فذهبت وكان أول من لقينا هـذا الشيخ ولم أكن أحتاج الى من يعرفنى به ، فانه صديق قديم . . فأقبلت عليه وجلست معه فصفق ، فلما جاء الخادم نظر اليه مستغربا ثم الى أنا مستفهما . فقال الخادم ، وكان يعرف ذهوله : « هل تريد شيئا يا بك ؟ »

فقال البك : « ا . . ا . . أريد . . أريد . . ماذا أريد ؟ »

فكتمت الضحك ، وقال الخادم : « لقد دعوتنى ياسيدى فهل أجيء لك بقدح من الويسكى ؟ » فنسينى وقال : « ا . . ا . . نعم . . نعم . . ا . . نعم نعم نعم . . »

وذهب الخادم وعدنا الى الحديث الذى لايكون معه الا محاورات ولفا من هنا وههنا ، بسبب هذا الذهول الذى أصيب به . فقال بعد كلمات : « ولكنى أهملك . . أن هذا لايليق . . أعذرنى . . لقد نسيت أن أدعو الخادم »

وصفق مرة أخرى ، فلما جاء الخادم لم أقل شيئا انتظارا لما يكون منه ، فقال له : « ا . . يا خليل . . هل طلبت منك شيئا ؟ »

فقال الخادم : « نعم . . قدحا من الويسكى »

فسأله : « هل جئت به ؟ أعنى . . »

قال : « لا يابك .. سأجيء به حالا »

ومضى عنا فصفقت أنا وطلبت ما طاب لى ، فمال على الخادم وهمس فى أذنى : « اذا سمحت لى يابك فان اسمى عبده ، ولكن البك ينسانى ويطلق على كل يوم اسما جديدا »

وسألنى الشيخ المسكين بعد أن ذهب الخادم : « ماذا يريد هذا الرجل ؟ » . قلت : « لاشيء .. كان يقول ان اسمه عبده لا خليل » . قال : « من هو ؟ »

قلت : « الخادم » . قال : « ماله ؟ » . قلت : « اسمه عبده » . قال : « عبده ؟ » . قلت : « نعم » . قال : « من عبده هذا ؟ » . قلت : « الخادم »

واحسست انه سيعود فيسألنى : « ماله » وكان الويسكى قد اقبل به الرجل فقلت له : « آه .. هذه كاسك .. ومعها كاسى ايضا »

فنظر الى كانه لايفهم ما أقول وسكت أنا ، فما ادرى ماذا يدور فى نفسه . وطال الأمر ، فشعرت بالضيق .. فليس مما يخف محمله على النفس أن ترى غيرك يحدق فى وجهك ولا يطرف . فنظرت اليه مستغربا ، ولكنه كان كأنه لايرانى وخيل الى انى فى طريق نظرته ، فتزحزحت عن مكانى الى الوراء قليلا وبقى هو ثابت الحملاق لا يشعر بى ولا بحركتى ، فحولت وجهى الى حيث ينظر فلم أر شيئا — أعنى انى لم أر ما يستوجب هذا التحديق كله — فتركته لشانه حتى يثوب الى ويمل طول النظر

وبعد هنيهة ، قال وكأنه يحدث نفسه : « لم أر فى حياتى انسانا ياكل هكذا »

فدهشت وقلت : « ايه ؟ كيف ؟ »

فاهمل سؤالى — أو لعله لم يسمعه — وسألنى هو : « هل تعظم اللقمة وتبلعها بلا مضغ ؟ »

فزادت دهشتى ، وقلت : « كلا بالطبع .. من قال لك انى أصنع ذلك ؟ »

قال : « خفت أن تكون ممن يفعلون ذلك .. ليس أضر على المعدة منه .. » . فسكت ، فقد استطردنا الى حديث لم يكن لى فى حساب ، فعاد يقول : « كلا .. لا تفعل .. احذر .. »

فقلت ، وقد مللت : «ما الذى يجرى ببالك هذا السؤال؟» قال : « ايه ؟.. أى سؤال ؟ » . قلت : « المضغ والبلع ، ولا أدرى ماذا أيضا » . قال : « الا تمضغ طعامك ؟ » . قلت : « بالطبع أمضغه .. لماذا تسأل ؟ »

قال : « خفت الا تكون تمضغه .. لقد كان الطبيب يوصينى أن أمضغ اللقمة اثنتين وثلاثين مرة أو ثلاثا وثلاثين لا أدرى .. الزيادة احتياط ينفع ولا يضر .. هل تفعل ذلك ؟ »

فقلت لنفسى ان النسيان فى ذاته وبمجرده ثقيل وبلاء عظيم ، ولكنه يكون أعظم وأثقل اذا ألح على المصاب به خاطر واحد يحوم حوله العقل ولا يقع ولا يستقر ، فأردت أن أصرفه عن ذلك فسألته هل له فى كأس ثانية من الويسكى ، وحدثت نفسى وأنا أسأله ان رؤيته مخمورا لايكاد يعى مايقول أفضل وأشبه بما ينبغى، وأقل استدعاء للعجب والاستغراب من تخليطه وهو مفيق صاح . ولكنه رد على سؤالى بسؤال أذهلنى ، فقد قال مستغربا : « وهل شربت ويسكى ؟ » ووجه العجب فى كلامه انه لم يشعر بالتأثير المألوف للخمر ، فكأنه لا يسكر لأنه ينسى أنه شرب شيئا . ويظهر أن نسيانه هذا يعفيه من تأثير الخمر وينجيه من أسكارها ، وصار السؤال الذى يحيرنى هو : « اذا كانت الخمر لا تؤثر فى نفسه أو جسمه أو عقله ، فلماذا يشربها ؟ »

وبدا لى ان خير ما أصنع هو أن أعود به الى بيته ،

فاقترحت ذلك فوافق ونهضنا . وحملته فى السيارة الى هناك .. ولم يكن ينسى أين يسكن ، ولكن الموقع كان يغيب عنه أحيانا وتخونه ذاكرته فيقف حائرا لايدرى ماذا يصنع حتى يتذكر أو يلقى من يعرف البيت فيسأله ويدله عليه أو يمضى به اليه

وكانت بنته فى النافذة تنتظر أوبته وهى قلقة خائفة عليه .. فأسرعت الى الباب تفتحه ، وكانت ذكية فلم تعاتبه . وما جدوى عتاب من لا يتذكر شيئا ؟.

ودخل غرفته ونسينى مع فتاته ..

وقالت لى : « ماذا حدث ؟. . لاتدعنى معلقة .. طمئنى» قلت : « كل خير .. » وشرعت أصف لها ما وقع منه وأقلده وهو ينظر الى الرجل الأكول المبطان الذى يعظم اللقم ويبلعها بلا مضغ ، وقلت لها بعد ذلك : « انى أحسد اباك فما أشك فى انه قد نسى كل ما يجب أن ينساه المرء من متاعب الحياة ومنغصاتها لو كان الى هذا سبيل غير الذهول»

قالت : « انى أخشى أن ينسى اسمه فلا يعود يعرف من هو ، ألا تكون هذه مصيبة ؟ » . قلت : « يا فتاتى انه ليس أحمق ولا أقل عقلا ممن يحمل هم المصيبة قبل نزولها .. دعي هذا الى أوانه وعسى الا يجىء . ومع ذلك هل أنت واثقة أنه يعرف اسمه ؟. من يدرى ؟.. أمن أجل انا لا نسأله عنه يكون عارفا ؟ » . قالت : « لا تفزعنى » . قلت : « انما أردت أن أبين لك أن ما تخافين ، لو وقع لما كان شرا فى الحقيقة أو أدهى مما هو حاصل الآن ، فلا تزعجى نفسك بلا موجب . وعسى الا يكون الا كل خير .. والآن فلنتكلم عن شىء آخر .. شىء أحلى من أبيك وان كان يكفيه من الحلاوة انه كان له هذا الفضل العظيم على الدنيا التى تجملينها يا فتاتى »

فقالت وهى تضحك : « انك لا تعرف الا موضوعين حين

تكون معى .. أنا وأبى » . قلت : « وأنا .. أليس لى حساب عندك ؟ ألا أصلح أن أكون موضوعا ثالثا معكما ؟ » . قالت : « بالطبع .. ولكنك لست شيئا ثالثا .. موضوعك هو موضوعنا .. فهما يبقيان اثنين ليس الا »

قلت بابتسامة أردت أن يكون لها معناها : « صحيح ؟ بالذمة ؟ » . قالت : « ياخبيث ليس هذا ما أعنى » . قلت : « هذا الذى لا تعنينه ، ما هو ؟ » . قالت : « طيب أسكت بقى » . قلت : « سكتنا ياستى » ومددت يدى الى كفها الرخص وأطبقت عليه أصابعى الخشـــنة ، فتركتنى هنيهة ثم سحبت كفها فنظرت اليها فقالت : «أو لاتسكت؟»

فلم أتكلم وأشرت الى فمى المطبق فضحكت ، فهززت رأسى موافقا وأنا أبتسم ، فعادت الى الضحك ، فعدت الى اشارات الاستحســـان والرضى . وتكرر هـــذا مرات ، فصاحت بى : « الا تنطق ؟ .. أين لسانك ؟ » . فقلت وأنا أنظر الى السماء ـ أعنى الى السقف فقد كان يحجب السماء : « حرت والله معك .. أسكت طوعا لأمرك فلا يرضيك الصمت . وأتكلم امتثالا لمشيئتك فلا يروقك الكلام فماذا أصنع بالله ؟.. كونى منصفة »

فضحكت ، فقلت : « عنـــدى اقتراح » . قالت : « ما هو ؟ » . قلت : « هناك ما هو أبلغ من كل كلام وأحسن من الصمت أيضا وان كان مما يحوج اليه ولا يتيسر الكلام معه »

فزوت ما بين عينيها ، وقالت : « ما هذا ؟ »

قلت : « هل أفهم من تقطيبك أنك غير موافقة سلفا ؟ » . قالت : « لست مقطبة ، ولكنى أفكر » . قلت : « لماذا تتعبين هذا الرأس الصغير بالتفكير ؟ . دعيه مرتاحا وتعالى نعمل بالاقتراح أولا ، ثم نفكر بعد ذلك فى جماله وما أفدناه من السرور به » . قالت : « ولكن ما هو ؟. ألا تقول لى

- اولا ؟ » . قلت : « هو ذا » وملت عليها فلثمت فمها

ورفعت عينى ، فاذا ابوها واقف فى مدخل البـاب ، فتنحنحت ونهضت وقلت : « لقد كان بيننا رهان .. هى تقول انك نسـيتنى ، وانا أقول انك لم تنس .. فهـل نسيت ؟ »

فشغله الامر الجديد عما سبقه ، وانساه ما رآه ، وبدا عليه أنه لا يعرف أو على الأصح لا يذكر ، هل نسينى أو لم ينسنى . وشعرت الفتاة أن الجو صفا وأن الأزمة انفرجت ، فنهضت اليه وعانقته وقالت : « بالطبع نسيت .. أعترف بالحق »

فعادت ذاكرته تحـاوره ، وسالهـا : « الحق ؟ .. اى حق ؟ » . قالت : «انك نسيت» . قال : «نسيت .. نسيت ماذا ؟ » . فقلت لنفسي انك رأيتنى اقبل فتاتك يا مسكين

ولقيت الفتاة بعد ذلك مرة ، فقالت لى : « هل تعرف انه يخيل اليه انه رآنى اقبل رجلا أو أن رجلا يقبلنى ، ولكن هذا يطوف براسه كالحلم . . بل هو فيما يعتقد حلم ؟ »

فسألتها : « ماذا قلت له ؟ » . قالت : « قبلته فقط .. وماذا تريد أن أقول له ؟ . . »

قلت : « وانا .. أليس لى شيء ؟ . ازعمينى كأبيك او عمك وقبلينى . . أم يجب أن أرسل لحيتى أولا ؟ »

فصاحت بى : « احذر »

قلت : « اذن هاتيها . . . حلوة طويلة »

فتاة الحارة

كنا غلامين صغيرين وجارين صديقين ، وكنت أنا أسن منه قليلا .. ولكن الفرق كان فرق شهور لا تقدم ولا تؤخر ، لا فرق سنوات تباعد بين الناس . وكان الوقت صيفا والمدارس مغلقة ، فلا عمل أكثر الوقت الا اللعب فى الشارع . وكان يفصل بيتينا بيت صغير لأرملة وبنتيها ، واحداهما فى مثل سننا والاخرى اكبر بسنوات واضخم جسما ، وكنت أسميها فيما بينى وبين صديقى « السقاء » لأن ثدييها كانا ـ فيما يبدو لي ـ كالقربتين . ولم أكن أرتاح اليها ، ولكن أختها الصغيرة كانت أثيرة عندي وحبيبة الى .. فكنت لهذا أصانعها ، ولكن صدرى كان يضيق بها احيانا فأغضبها وأمرى الى الله . وكنت اذا زجرنى أهلى عن اللعب فى الشارع ، وملوا ترقيع الثياب التى ألبسها فى الصباح نظيفة سليمة فلا يجيء العصر الا وهى ممزقة وعليها طوائف شتى من الأوحال والأقذار .. اقول كنت اذا نهيت عن الشارع ، أصعد الى السطح وأتدلى منه الى سطح الفتاة وأصفر لجارى فيوافينا ، وننحدر جميعا الى غرفة من غرف البيت أو الى فنائه ـ وكان رحيبا ـ فنلعب ما حلا لنا اللعب حتى اذا أمسى الليل تفرقنا الى بيوتنا

واتفق يوما ان كانت الفتاة معى فى ساحة الدار ، وكنت قد تخلفت بعد ذهاب صديقى وصعود الأخت الضخمة ـ أو « السقاء » كما كنت أسميها ـ وكان باب البيت مواربا ، فطوقتها ـ أعنى البنت الصغيرة لا السقاء ـ بذراعى وقبلتها ، وكانت فيما أحس تلين لى فى العناق ، ولكنها عبست فجأة وتفلتت منى ودفعت ذراعى عنها بعنف ،

وذهبت تعدو الى السلم .. فتعلقت بأذيالها ، ولكنها شدت الثوب أو على الأصح ضربتـه بيدها ، فطـار من يدى وصعدت بسرعة ، وتركتنى واقفا أنظر وأتعجب

وفى صباح اليوم التالى ، قالت لى أمى فجأة ونحن على الطعام : « هل أنت بنت ؟ » . فصحت مستغربا منكرا : « بنت ؟ » . فقالت : « نعم .. لماذا تلاعب البنات ولاتلاعب الأولاد من أمثالك ؟ »

فأطرقت استحياء وقد أدركت أنهـا تأخـذ على شيئا وتستهجن مصاحبتى لهذه الفتاة ، ولم يخطر على بالى أن فى الأمر أكثر من هذا . وجاء الظهر وجاء معه رجل تركى الأصل عتيق من أصدقاء أخى الاكبر ـ وكان يلازمه من الظهر الى نصف الليل ـ وكان شعره أبيض ووجهه مغضنا، كما تبدو المدينة للمشرف عليها من قمة جبـل شامخ ، فصاح بى وأنا خارج : « تعال يا سيدى .. تعـال » . فوقفت مستغربا لهجته ، وقلت : «نعم» . فقال : «جارتك هذه ، يظهر أنها تعجبك »

فغضبت وتألمت ولكنى تجلدت ، فقد كان اذا اعتبرنا السن يعد جدا أعلى لى ، وقلت : « نعم »

فضحك وتفل وفتل شاربيه الكثيفين ، ثم قال : « لقد رأيتك البارحة تحضنها » . فصحت به : « أيه ؟.. » . فأشار الى بيده المتجعدة المعروقة : « لا تغضب .. كلنا كنا صغارا .. ولكن يا ابنى .. »

فلم ادعه يتمها وانصرفت عنـه ، وأنا أغلى من الغيظ والنقمة على هذا الطفيلى الوقح الذى لا شـك أنه روى لأخى ما رأى منى ، فلم يسع أخى الا أن ينبه أمى .. فقد كان غير شقيق ، وكان يؤثر أن يدع أمر تربيتى لأمى . وخرجت الى الشارع أنفخ ولا أكلم أحدا حتى ولا صديقى الأثير ، وكان يرى ما عرانى فيلح على أن أفضى اليه بالأمر

فلا اجد لساني قادرا على الدوران . وانقطعت عن الفتاة أياما كان صديقى فى خلالها حائرا بينى وبين صاحبته ، يعز عليه الا يكون الى جانبى وهو يرانى مهموما مكروبا لا اتسلى ولا اقول بشجوى والمى ، ويكون معى فيمل صمتى الذى لا أخرج عنه ، وتصبو نفسه الى مجالسة السقاء وأخيرا نفد صبره ، فقال لى يوما : « اسمع .. تعال معى الى فوق »

وكان يعنى «بفوق» منزل الجارة ، فنظرت اليه مستغربا كأنما كان عليه أن يعرف كل ما كتمت عنه فقال : « تعال .. قم .. قم »

فانحلت العقـدة وانطلق لسـاني ، وقلت له : « ماذا يعجبك فى هذه الفتاة ؟ » . فتلعثم وأخذ يتنحنح ، ولم يزد على أن سأل : « ايه ؟ » . قلت : « أو ماذا يعجبهـا فيك ؟ »

فرماني بنظرة عتب ثم ابتسم ولم يقل شيئا ، وخيل الى أنه لو كان له شاربان لفتلهمـا ، ثم قال ببساطة : « الحقيقة اني احبها و و و .. وهي أيضـا تحبنى » . فوثبت الى قدمى من فرط الدهشة ، وتنـاولت كتفيه فهززتهما وصحت : « ماذا تقول ؟.. أعد هذا »

قال : « ماذا جرى لك ؟. الم تسمع ؟. احبها وتحبنى .. شيء بسيط جدا » ونحى يدى عن كتفيه

وثابت الى نفسي ، فاطرقت قليلا ثم سألته : « كيف حدث هذا ؟ » . فقال : « لا ادرى كيف حدث ؟. ولكنى أول من أمس سلمت عليها وجلست بجانبها ثم ملت عليها فقبلتها ؟ »

فسألته وانا فى دهشة : « قبلتها ؟.. هل تعنى أنك قبلتها ؟ »

فضحك وقال : « بالطبع أعنى أنى قبلتها . ماذا تظننى

اعنى غير ذلك ؟ » . فسألته : « ولم يسؤها ذلك ؟. لم تغضب ولم تذهب عنك ساخطة ؟ » . فقال مستغربا : « تغضب ؟. لماذا تغضب ؟. اما انك لغريب » . فقلت وأنا مطرق : « غريب ! » . فقال : « غريب ؟. ما هو الغريب ؟ » . قلت : « أعنى أنى أعرف واحدا قبل فتاة فسخطت عليه وولت منه هاربة » . فقال ببساطة : « لا بد أن يكون له وجه قرد » .. وضحك

وتركته وعدت الى البيت ، فكان أول ما صنعت أن نظرت فى المرآة وتأملت وجهى كما يبدو فى صقالها ، ثم درت حول نفسى وعينى على جانبى وجهى ثم تنهدت وأقصرت

□

وكان للفتاة ــ فتاتى أنا لا السقاء ــ قطة صغيرة عزيزة عليها ، فاتفق أن مر كلب ضال ، وكانت هى ــ أعنى القطة لا الفتاة ــ واقفة على العتبة .. فدنا منها الكلب وهى غافلة ، ولعلها كانت مغفية ، فأحست أنفاسه وهو يشمها ، ففتحت عينيها وهى تتثاءب وانتفضت مذعورة .. وثبت وثبة ، قطعت بها عرض الشارع ، ولم يكف هذا لاطمئنانها ، فدخلت من باب ألفته مفتوحا ، وكان فى ساحة البيت شجرة « جميز » فانطلقت تتسلقها ، ولم تزل تصعد فيها حتى صارت على أعلى فرع فيها . وكانت الفتاة قد بصرت بالقطة وهى تعدو مذعورة ، وتدخل البيت المقابل لبيتها . فانحدرت مسرعة ودخلت وراءها ونظرت فلم تجد شيئا ، فارتدت الى الباب وقد اغرورقت عيناها بالدموع . وأقبل صديقى فى هذه اللحظة فسألها عما بها ، فقالت له ان الكلب أفزع القطة فهربت لا تدرى الى أين وهى تخشى أن يأخذها الجيران

فركل صديقي الكلب ـ أعنى أن صديقي ركل الكلب ، والمعنى واضح فى الحقيقة ولكنى أوثر هذا الايضاح اتقاء لكل غلط ـ ودخل مع الفتاة البيت ووقفا وأرهفا آذانهما، فسمعا مواء خافتا فتلفتا ، ثم عرفا أن القطة على الشجرة فجعلا ينظران من هنا ومن ههنا ويميلان رأسيهما الى اليمين والشمال حتى رأياها ، وجعلت الفتاة تدعوها بأصوات مختلفة أن تنزل والقطة تأبى أن تطمئن وتخشى اغراء الأصوات المهيبة بها أن تنزل ، فتصعد حتى بلغت القمة فدعت الفتاة صديقي أن يتسلق الشجرة ليجيئها بالقطة ، فهز رأسه وقال لها : « حرام عليك .. هل تريدين أن أقع فأموت ؟ » فتوسلت اليه فلم يلن ، وقال ان القطة لا تلبث متى هدأ روعها أن تنحدر من تلقاء نفسها . وكان هذا صحيحا فما يمكن أن تظل القطة على الشجرة طول عمرها ، ولكن قلب الفتاة أبى أن يطمئن فخرجت باكية ورأيتها أنا فانطلقت أعدو اليها ، وقد احسست أن قلبي يتفطر ، وسألتها ماذا يبكيها .. فقصت على الحكاية ، وقالت ان صاحبى لايريد أن يتسلق الشجرة خوفا على عمره ، فقرضت أسناني وقلت : « أنا أفعل » ففرحت وأبرقت أسارير وجهها ، وقالت : « صحيح ؟ » قلت : « بالطبع صحيح .. وهل تظنين أنى مثله أخاف على عمرى .. ومم أخاف ؟ »

وخلعت حذائي ورميت الطربوش وشرعت أتسلق الشجرة المخوفة حتى صرت بين أغصانها الغلاظ المتشابكة ، وذهبت أزحف على الغصون السميكة التى يحمل الواحد منها جملا لا غلاما خفيفا مثلى حتى بعدت عن الارض جدا ، وحتى أنها كانت تكلمنى فلا أسمع وأصيح بها أن ترفع صوتها وأحتاج أن أنحنى وأفرق الأوراق لأرى أين هى . ولم أزل أصعد حتى دنوت من

القطة ، ولكنها كانت مع ذلك لا تزال بعيدة ، وشاء الحظ ان تخاف القطة فلفت حول الشجرة واصبحت على فرع في الناحية الاخرى ، وكانت الفروع هناك أمتن واسمك . فدرت كما دارت ومددت يدى فقبضت عليها ودسستها في جيبي ، وكان الهبوط أخطر من الصعود واشق .. ولكن الله سلم

وتناولت القطة مني بعد ان أخرجتها من جيبي ، وكدت اخنقها وانا احاول اخراجها ـ فقد كان لا بد ان اقبض على عنقها لأتقي اسنانها واظافرها ـ واهوت عليها تقبلها وتضمها الى صدرها وتمسح لها شعرها ، كأنهـا طفل رضيع لا قطة لعينة كانت منذ دقيقـة على قمة جميزة ضخمة تجاورني وتعرض عنقي للدق وانا ما زلت في مقتبل العمر . وكنت انا انظر اليها راضيا قرير العين فرفعت عينها الى ، والقطة مضمومة الى صدرها ، وقالت انهـا مدينة لي بالشكر ففركت كفي مسرورا ومرتبكا ، فماكنت انتظر شكرا ولا شبهه واذا بها تصرخ فذعرت ، فقالت : « يداك » فنظرت فيهما فألفيتهما مخدوشتين فاخفيتهما وراء ظهرى ، وقلت ان هذا من لحاء الشجرة وسيزول ولا شك ، فقالت : « لا .. تعال » فقلت : « الى أين ؟ » . قالت : « معى .. اغسلهما لك في البيت .. مسكين .. »

فنظرت اليهما مرة أخرى ، وقلت : « فكرة .. »

ودخلنا البيت معا .. ونسينا صديقي في بيت الجار .. تحت الشجرة

ووصلت القطة المستنقذة ما كان قد انقطع ..

في رأس السنة

دهش الثلاثة ووقفوا حيث هم - آذانهم مرهفة ، واحداقهم ثابتة ، وأنفاسهم معلقة . وكانت الليلة ليلة العام الجديد - أو رأسه - وقد تهيأ حامد للخروج ، ولبس ثياب السهرة وأدار الراديو وراح يتمشى فى الغرفة ، ريثما تجيء جارته فتنقر له على النافذة المفتوحة .. فيمضي بها الى العشاء والرقص والمرح . وكانت الاذاعة فى تلك اللحظة رواية متخيرة ، ولكن حامدا لم يكن باله اليها وانما أراد أن يغرق ضجات الطريق المتقطعة فى ضجة اخرى أكبر لأنها أدنى - لا تنقطع ولاتفتر فيألفها ويتسنى له أن يفكر ، بعد أن تسكن أعصابه الى وقعها المتصل ، فى امره مع جارته أو فيما ينبغى أن يصنع ليحمل أباه العتيق الطراز على الرضى بما تقتضيه حياة العصرالجديد. ولم تكن به حاجة الى أبيه ، ولكنه لم يكن يريد أن يفسد بينهما الحال أو أن يضيف الى عبء السنين التى يحملها عبء الشعور بخيبة الأمل - اذا وسعه ألا يفعل . وكان أبوه فى تلك اللحظة قد دخل بالمفتاح الذى أعطاه اياه حامد ليروح ويجيء كما يشاء . ولم يشعر به حامد لأن خواطره كانت تستغرقه ولأن الراديو كان أعلى من أن يسمح بالالتفات الى باب يفتح أو يغلق ، ثم لأن الرجل لم يكد يرد الباب حتى وقف مذهولا ، فقد سمع ضحكات نساء ولغط رجال ، وكان ريفيا ساذجا فيه ورع وتقوى يعرف الراديو ويصغى بخشوع الى ما يذاع من كتاب الله ، وقد يتفق له أن يسمع بعض المقطوعات الموسيقية .. ولكنه لم يشهد فى حياته رواية تمثل ، ولم يخرج عن عادته فى

التبكير فى النوم الا فى الفلتات القليلة . فاذا كان قد وقف الآن مستغربا منكرا ، فلا شك أنه كان معذورا . ولم يكن يفهم شيئا من الاصوات التى تتأدى اليه او يفطن الى دلالة الكلام . وكان المذيع يصف حركة الروليت بعد أن توضع النقود ، وتذهب العجلة تدور وتخفت الاصوات انتظارا لوقوف الكرة عند الرقم السعيد .. ولكن الرجل لم يكن يعرف أن هذا مذيع يصف للسامعين ما لا يرون ، بل كان يظنه احد رفقاء حامد ابنه فى سهرة جمع فيها طوائف شتى من الرجال والنساء .. نعم والنساء فما فى هذا شك ، أليست هذه امرأة تقول : « أسرع يا ميمى .. أسرع .. بين الـ ٧ والـ ٨ .. »

وهذا صوت رجل يصيح : « لا لا لا .. هذا من حق لولو .. نعم فقد رأيت ما حدث .. البيك نقل الورق عن موضعه بكفه ، وهو لا يدرى »

وها هى الفتاة تعود الى الكلام مرة أخرى ، وتقول : « مرسى يا حبيبى .. ميل مرسى »

فيقول الرجل الاول ، هو بعينه بالتأكيد فان الصوت واحد : « العفو .. لقد رأيت كل شيء ، واذا كنت تسمحين بأن أقدم اليك نصيحة رجل مجرب .. فنصيحتى أن تكفى عن اللعب ، فان مثل هذه الغلطة فى العادة تكون ايذانا بانتهاء حظ اللاعب »

لعب .. نصيحة .. حظ .. نساء ورجال .. ما معنى كل هذا يا ترى ؟ فى هذا وقف الرجل المسكين يفكر . وكان يفكر فى شيء آخر هو هل يدخل فيعرف الحقيقة كائنة ما كانت أو يخرج ويدع ابنه لشأنه ؟ ولكن كيف يستطيع أن يخرج ويدع ابنه .. وكيف يدخل ومعه نساء غريبات ؟

ولم يكن هذا الأب الساذج هو الحائر الوحيد فى تلك

اللحظة ، فقد كان هناك رجل آخر من طراز غير طرازه وجد باب المطبخ مواربا .. فتسلل منه ودخل على اطراف اصابعه وفى مرجوه ان يخفف عن صاحب البيت — وعن نفسه أيضا — ولم يكد يبلغ باب الدهليز حتى صافح سمعه هذا اللغط الكثير المنبعث من غرفة الاستقبال ، ولم يكن كالآخر ساذجا فلم يلبث ان فطن الى أن ههنا اناسا يقامرون ، فسمرته الدهشة والحيرة ، فقد كان يظن البيت خاليا فاذا هو عامر بل غاص بالخلق . وكان سبب حيرته ان وجود هؤلاء اللاعبين جميعا يجعل فرصة الغنم فى ليلته هذه أكبر ، والورق اخف محملا واخفى أمرا ، وحامله أقل تعرضا للاعتقال ، ولكن كثرة الموجودين تجعل تعرضه للوقوع فى المحذور اشد فماذا يصنع ؟ أيأخذ بالأسلم فيعود من حيث جاء ، أم يذعن للاغراء فيبقى ؟ ولا سيما والأرجح أن القوم يشربون وبعد قليل يسكرون .. على ان الامر خرج من يديه ، فقد جاء اللبان فى هذه اللحظة ووقف بباب المطبخ كعادته ، ورفع صوته بكلمة واحدة ولكنها طويلة ممطوطة « لبن » فريع الرجل ووثب ودار حول نفسه ، فقال اللبان : « اللبن..عايزين لبن الليلة ؟ »

فمشى اليه الرجل كالمضروب على أم رأسه ، فعاد اللبان يسأله : « عايزين لبن والا ايه ؟.. ما ترد »

فأفاق الرجل وأشار اليه ، وقال : « هس .. هس »

فاستغرب اللبان وقال : « هس ايه .. عايزين لبن .. أنت مين قبله ؟ »

فالهم أن يقول : « أنا الخدام الجديد »

فقال اللبان : « طيب ما تقول كده من الصبح ! عايز كام ؟ »

— واحدة

فناوله سلطانية ووقف ينتظر وصاحبنا ينظر الى

الدهليز ، ثم قال اللبان : « ماتجيب اماك خلينى أروح لحالى »

قال المسكين : « اجيب .. ايه ؟ »

ـ حق السلطانية

فألهم مرة أخرى أن يقول : « الصبح .. عندنا ضيوف .. ما اقدرش انادى سيدى دلوقت »

فمشى اللبان ومسح الرجل عرقه ووقف يستعيد انتظام انفاسه ، وقد دار براسه أن خير ما يصنع هو أن يخرج وراء اللبان وأمره لله فى هذه الليلة المنحوسة ، ولكن القدر أبى الا أن يعد له مفاجأة أخرى أدهى وامر

ذلك أن الفتاة كانت قد وصلت ونقرت على حافة النافذة، فخف اليها حامد وانثنى على النافذة يقبلها ، ثم اعتدل وهم بأن يقول لها انه سيخرج لها حالا واذا بها تستوقفه وتسأله : « من عندك ؟ » وتشير الى الدهليز ، فقد رأت بابه يختفى فيه شبح ، فعجب حامد لسؤالها ونفى لها أن احدا عنده ، ثم نظر الى حيث كانت تنظر محدقة فخيل اليه انه يسمع أصواتا، فقال : «انتظرى» وخرج .. ولكنها لم تنتظر، فقد كانت فتاة عملية ، وكانت تحب حامدا وتقرأ الروايات البوليسية ، فجمح بها خيالها وجسم لها الامر ، واوهمها ان خطرا عظيما قد أحدق بفتاها .. فذهبت تعدو الى أقرب شرطى وجرته من ذراعه جرا ، فقد كانت خطوته بطيئة وهى تريد أن تطير

وفى أثناء ذلك كان حامد قد خرج ، فألفى أباه واقفا وراء باب الشقة ، فقال حين رآه : « يا شيخ ظننتك لصا »

فسأله أبوه : « من عندك ؟ » فخطر لحامد أن هذا هو الليلة سؤال الناس كلهم ، فضحك وقال : « لا أحد .. لماذا لا تدخل .؟ . لماذا تقف هكذا ؟ »

وتذكر أن الفتاة واقفة عند النافذة ، ولم يدر كيف يفسر

لابيه وجودها . نعم ، يستطيع ان يقول انها جارته ــ وهذا صحيح ــ وانها مرت به فوقفا يتبادلان التحية ، ولكن أباه رجل محافظ ثم أنه يريد أن يعرف اباه بها أحسن تعريف . على ان تفكيره فى هذا لم يطل ، فقد سمع حركة فى المطبخ فمشى اليه مستغربا وضغط زر الكهرباء .. فاذا صاحبنا الذى تركناه هنــاك حائرا بين البقــاء والهرب يمد يده الى سلطانية اللبن ، وقد خطر له أن خير ما يصنع هو أن يأكلها قبل الخروج ، فلا يكون قد خرج من المولد بلا حمص كما يقول المثل

ويقيت يد الرجل ممتدة لا هى تصــل الى السلطانيــة ولا هى تنثنى الى صاحبها ، فقال حامد : «ماذا تصنع هنا ؟» فتلعثم قليلا ، ثم قال : « جوعان ! »

قال حامد : « أهو ذاك ؟ . ومن أين دخلت ؟ »

قال : « رأيت اللبان داخلا ، فلما خرج .. وقفت أنادى فلم يرد أحد فدخلت »

فمال حامد الى تصديقه وكان مستعجلا ، فقد ترك الفتاة عند النافذة فقال : « طيب كل واخرج .. خدها كلها على السلم »

ودفعه وأغلق الباب وراءه وهم بأن يعود ، فسمع وقع أرجل .. ولكنه لم يعبأ بذلك ، وكر راجعا الى الغرفة ، فاذا أبوه واقف ينظر الى الراديو ويضحك فلم يفهم ومضى الى النافذة وأطل ، فلم ير أحدا،فالتفت الى أبيه يريد أن يسأله، ثم آثر العدول . وسمع دقا على باب المطبخ وصوتا ناعما يناديه ، فذهب يعدو وفتح البــاب واذا به يرى شرطيا ضخما مفتول الشاربين وفتــاته ، والرجل بينهما وفى يده السلطانية فارغة ، فارتد حامد خطوات وقال : « ما هذا ؟ »

قالت صفية : « لقد صح ظنى .. الحمد لله .. »

فقال حامد ببلاهة : « تفضلوا .. » وافسح لهم الطريق ثم أردف : « ولكن لماذا الشرطى ؟ »

فقالت صفية وهى تدخل : « لماذا ؟ . أو تسأل لماذا ؟ . الا تعلم لماذا ؟ . للص يا روحى » فكاد يضع يده على فمها ، ولكن أباه كان قد خرج فلم تبق اى فائدة

وقال حامد : « بابا .. هذه صفية .. جارتنا .. بنت أحمد بك .. لا ليس هـذا لصا .. انا اعطيته السلطانية ليأكلها .. »

فقال الشرطى : « اذا كان الامر كذلك فلا داعى لوجودى. سعيدة »

وخرج وهو ينظر الى صفية نظرة محنق . وقالت صفية: « شرفت يا عمى .. »

فتمتم الرجل وهو مطرق ، وقال حامد : « ا .. ا .. نحن .. أعنى صفية وأنا .. اء .. خطيبان .. اتفقنا على الزواج .. بعد موافقتك طبعا .. »

فدنت منه صفية ومالت على كتفه وهمست فى أذنه : «قل انك موافق .. »

فقال الرجل : « انا متوضىء .. ابعدى قليلا .. »

فضحكت ، وقالت : « اذا لم توافق فانى انقض لك الوضوء .. »

ففزع الرجل ونهض قائما ، وقال : « لا لا لا احذرى .. الدنيا برد وأنا راجل كبير ضعيف ، واريد أن أصلى العشاء»

فقالت : « قل أولا أنك موافق .. وآلا .. هه »

فلوح الرجل بذراعه ، وقال : « أنا مالى .. مفلوقين فى بعض .. فين السجادة يا حامد ؟. »

الذى يضحك أخيرا
يضحك كثيرا

لما جاءنى رسول اختى برقعة منها يدعونا فيها ــ أمى وانا ــ الى قضاء العيد معهـا ، لان زوجهـا سـافر الى الاسكندرية . . ادركت ان فى الامر شيئا ، وان خلافا لا بد ان يكون قد شجر بينهما ، ولكن دقة احساسها بالواجب حملتها على البقاء فى بيتها بدلا من ان تجىء هى الينا

ولم تفت أمى دلالة هذه الدعوة ، فقد سألتنى : « أتظن ان شيئا حـدث ؟ » فقلت : « لا بد » فقالت : « أترى أن نسألها ؟ » فهززت راسى ، فلبس أكفـل بفساد الأمر بين زوجين ــ فى رايى ــ من الدخول بينهما

وكان وجه أختى وحده كافيا للارتفاع بالظن الى مرتبة اليقين . نعم كانت تبتسم ولكن ابتسامها كان متكلفا،وكلامها اكثر مما الفنا منها ، وحركاتها أسرع . . وكان لونها ممتقعا حتى لقد احتاجت الى الاحمر لخديها وشفتيها . وكان الجو باردا ، فاحتجنا الى ما ندفأ به . . فجاءتنا بموقد صـار الفحم فيه جمرا لانها تكره مدفأة الكهرباء أو البترول لشدة تجفيف الكهرباء للجو ، ولان البترول له رائحة لا تطيقها

وسألتها وانا ابتسـم : « واين اللعين زوجك ؟ »

وكان لا بد أن اسألها عنه ، والا كان اجتناب ذكره واشيا بالفطنة الى ما عسى أن يكون قد وقع بينهما . وما دامت هى لم تقل شيئا فقد يربكها ان تعلم أننا نعلم

فقالت ببساطة : « أوه . . أظنه ملنا . . سافر ليبحث مع شريكه أمرهذه الشركة الجديدة التى يريد أن يؤلفها . . انك تعرفه . . لا يعترف بعيد ، ولا يطيق أن يقعد بلا عمل »

فسرنى أنها تكذب لتستر حماقته . . وكنت أعرف أن

هذه كذبة لانه أخبرنى بما تم ، فالامر مفروغ منه ولا حاجة به الى سفر جـــديد ، ولكنها لم تكن تدرى أنى أعرف هـــذا والا للجأت الى كذبة أخرى

وقضينا النهار على خير ما نستطيع ، واذا بنا بعد العصر نتلقى هـــــذه البرقيــــة : « اصطدمت السيارة وتحطمت ، واصابتى خفيفة . فهل تستطيعين أن تحضرى ؟.. سيكون اخى بانتظارك بسيدى جابر **خليل** »

فذعرنا جميعا فقد كان من الواضح ان الحـــادثة أكبر مما زعم .. ولم تستطع اختى أن تضبط نفسها ، فبكت وهمت أمى أن تزجرها عن البكاء ، فقلت لهـــا : « دعيهـــا فما خلق الدمع للناس عبثا » . فقامت ترتب لها أشياءها فى الحقيبة ، وتضع معها ما قد يحتاج اليه زوجها مخافة أن تكون حقيبته قد فقدت فى الحادثة ، أو تركت مع السيارة المحطمة

وقلت لأمى : « اذهبى معها ، وسألحق بكما غدا .. فانى مضطر الى البقاء الليلة ، وابرقوا الى فى الصباح بعد أن تروه ليطمئن قلبى »

وودعتهما فى المحطة وعدت الى البيت ــ بيت أختى ــ حزينا كاسف البال موجع القلب ، وجلست فى البيت أفكر فى هذا الحظ السيىء وأسخط على خليل ، وأقول لنفسى هل كان لا بد أن يصنع هذا الاحمق ما صنع ، وأن يعلن الى زوجته الجفوة ليلة العيد، ويروح يكسر عظامه أيضا ويرج زوجته هذه الرجة الشنيعة ؟. ولكنه لقى فوق جزائه . مسكين . ومن يدرى ماذا جرى له . ؟ ولعله الآن مشرف على الهلاك ، وأنها لقسوة أن ألومه . ثم أنه كان مثال الزوج الصالح ، ولم تكن سيرته معها قط الا سيرة المحب الذى لا يعنيه من الدنيا سوى زوجته ، فماذا يا ترى جرى حتى كانت هذه الجفوة المشئومة ؟

وانى لجالس أدخن سيجارة فى أثر أخرى،وبى ما يعلم الله من الحزن . . واذا بخليل داخل كالقنبلة ! ! فانتفضت واقفا وحدقت فى وجهه مذهولا وفمى مفتوح كالابله ، فلما رآنى كذلك وقف هو أيضا ، وسألنى أول ما سأل : «أين فريدة ؟»

فأحسست أنى سأسقط على الارض ، فانحططت على اقرب كرسى ورفعت يدى الى رأسى ، فأقبل على يهزنى بعنف ويقول بصوت عال جدا : « أين فريدة ؟. قل . . انطق . . ماذا جرى ؟ »

فحاولت أن أتكلم ، ولكن لسانى وقف فى حلقى ، فأشرت الى البرقية المشئومة ، فتناولها مستغربا ولم يكد يقرأها حتى صرخ : « ايه ؟ »

فوجدت لسانى ، وقلت : « ماذا تظن ؟. من أرسل هذه البرقية ؟ » قال : « لا أدرى . . ماذا نصنع الآن ؟ . . فكر . . فكر . . فقد ضاع عقلى . . فريدة . . من يدرى فى أيدى من من الاشرار ستقع الآن ؟ »

فقلت : « وامى أيضا معها . . رهينتان لا واحدة يا صاحبى »

فقال : « رهينتان ؟. هل تعنى أنك تعتقد ؟. »

قلت : « بالطبع . . أى معنى لهذه البرقية غير ذلك ؟. انها شرك . . وليس المهم الآن حل اللغز بل السفر وراءهما لانقاذهما . . لمنعهما من الوقوع فى أيدى هؤلاء الاشرار كائنين من كانوا »

فقال : « صدقت . . قم بنا » قلت : « سيارتك لا تصلح لهذا . . ألا تستطيع أن تجد لنا سيارة قوية . . تستعيرها من أى صديق ؟ »

وفى هذه اللحظة أقبل اخى فتشهدت واستبشرت ، فقد

كانت له سيارة جديدة من طراز هدسون تستطيع أن تطير بنا ، فدفعته الى الباب وسبقته الى السلم وأنا أناديه وادعوه أن يسرع ورائى

وكان أخى يكره السرعة فتوليت أنا القيادة ، وجلس هو وكلبه معه وراءنا ، وجلس خليل معى وكان لا بد من التمهل حتى نخرج من المدينة والا عطلتنا الشرطة ، وكنت كالجالس على الجمر ، ولكن ما حيلتى ؟ واجتزنا شبرا بعد أن ضاع ربع ساعة ثمين ، فسألت أخى : « هل الانوار قوية ؟ » ولم تكن بى حاجة الى السؤال فانى انا السائق وأمامى مفتاح النور وفى وسعى أن أجرب ، ولكن السؤال جاء دليلا على مبلغ اضطرابى . ودليل آخر على هذا الاضطراب هو اننا لم نخبر اخى ما الحكاية ، فراح يكلم كلبه ويقول : « روكسى انه يسأل عن الانوار هل هى قوية .. كأنه لا يعلم .. لا بأس .. هل تظن أن من حقه أن ينتظر جوابا .. نعم .؟ الجواب تحصيل حاصل ..؟ بالطبع .. الحق معك .. ثم أنه أرسل النور امامه وهو يضيىء الى مسافة أميال .. أليس كذلك ؟. ولكن الى اين يمضي بنا يا روكسى .؟نعم .؟ اتقول أن هذه هى الطريقة الامريكية فى الاستيلاء على السيارات واغتصابها من أصحابها الشرعيين ؟. انهما كذلك على التحقيق .. وانى أراك مصيبا دائما فى ملاحظاتك يا روكسى أوه .. تسمعون ؟ روكسى .. انه يخطف بنا الارض فهل تظن أنهما ارتكبا جناية ؟. »

وهكذا وهكذا ..

ولم اكن استطيع ان أقول له شيئا لأن عينى على الطريق . وكان خليل يساعدنى فينظر الى عداد السرعة ويخبرنى بالرقم الذى نرتقى اليه وينظر فى الساعة كذلك ، فيطمئننى أو يزعجنى ، وأخى ماض فى هذره حتى بلغنا بنها . ولم أدخلها بل آثرت أن آخذ طريق سيارات النقل لانه أقصر

وان كان غير ممهد ـ اجتنابا للبطء الذى نضطر اليه فى شوارع المدينة . وبعد أن اجتزنا الكبرى الجديد ، ثم جسر السكة الحديدية ـ أو المزلقان كما يسمونه ـ أطلقت للسيارة العنان فجعل خليل ينظر ويقول : « مائة .. مائة وخمسة . وعشر .. وعشرون .. وخمس وعشرون .. أمض أمض . لا شيء .. هذه دجاجة .. »

فقال اخي : «اظنها ذهبت الى جنتها ـ جنة الدجاج ـ قبل الاوان .. اتراه سباقا يا روكسى ؟ »

وبلغت السرعة مائة وثلاثين كيلو ، فلولا أن السيارة كبيرة ومتينة وثابتة لانقلبت بنا وقتلتنا .. ولكن أخى خبير بالسيارات والذى لا يعرفه عنها لا يستحق أن يعرفه أحد . والحق أنها كانت سيارة أصيلة ، بل هى السيارة وكفى . ولكن بالى لم يكن فى ذلك الوقت الى شيء من هذا ، بل الى ما بقي من الوقت حتى يصل القطار الى طنطا أو دمنهور والى مبلغ الامل فى ادراكه قبل ان يبلغ سيدى جابر

وتأدى الى صوت أخى يقول : « هل تعلم يا روكسى أن اسماعيل مهمل ـ يعنيني ـ .. أموافق انت ؟ . هذا ما كنت انتظر .. ولكنه ينقصك أن تعلم لماذا .. أتريد أن أسر اليك يا روكسي بالسبب ؟ .. اسمع اذن ولكن لا تخبره .. لقد أردت أن أستعير حقيبته الصغيرة .. أقول لك الحق يا روكسى بيني وبينك يا روكسى .. استعرتها فعلا .. ولكنى وجدت انه أهمل أن يضع فيها المفتاح ولهذا جئت الى بيت الاخت لعلى اجده فآخذ المفتاح .. اعرف ما تريد أن تقول فانك ذكى .. بالطبع لم يكن ينتظر أن يعطيني المفتاح .. ولكنى كنت سآخذه على كل حال .. أوه بطريقة من الطرق .. من غير أن يشعر بالطبع .. »

وقد هممت مرات أن أصيح به ، ولكنى كبحت نفسى فليس هذا وقت الاختلاف على الحقائب .. ولكنه غاظنى

مع ذلك انه اخذها وهو يعلم ان فيهــا أشيائى ، فقد كنت اعددتها لرحلة قصيرة ، فلما جاء رسول أختى عدلت وكان ما كان .. ونويت أن اغتنم أول فرصة تسنح لاستردادها . بطريقة من الطرق .. كما يقول .. والبادى اظلم

ولم اكن اطمع أن ادرك القطار فى طنطا ، فلم أستغرب أن اعرف انه تركها قبل وصولنا بعشر دقائق ، واحتجنا الى البنزين فضيعنا دقائق أخرى ، ثم استأنفنا السير بأقصى ســرعة لنعوض ــ سلفا ــ التأخير الذى لا بد منــه فى كفر الزيات . واعترانى ما يشبه الحمى ، فلم اعد أبالى كيف اقطع الطريق .. وكنت ربما صادفت مركبة أو رجلا على حمار او جمل فامرق ولا أعنى نفسى باليمين والشــمال . ولم يكن الطريق بعد كفر الزيات على خير ما يمكن أن يكون ، ولكنى لم اكن أحفل بذلك ولم أترفق بالسيارة . وكان أخى يرى هذه السرعة الجنونية ــ فقد بلغنا أربعين بعد المــائة وأصررنا عليها ــ فيقول لكلبه :

« انظر يا روكسى .. ان الخبيث ينتقم منى ــ أعنى منــا فانك شريكى فى كل شىء ــ لانى استعرت حقيبته .. من اجلها يريد أن يفجعنى فى السيارة .. اى والله يا روكسى . فتعال نبك على ما كلفتنا من مال يضيع الآن فى هذه السكة المنحوسة .. ثلاثمائة وخمسون جنيها خرجت عنها من حر مالى .. وماذا يعنيه هو .. يأخذها بلا استئذان ، وينحينى عن مجلسى فيهــا ، يردنى الى الوراء .. هل هــــذا يليق يا روكسى ؟ »

ولولا أن خليلا صاح فى هذه اللحظة : « القطار . القطار . سنسبقه يا اسماعيل .. سنسبقه بالتأكيد .. الحمد لله » لمضى أخى فى هرائه . وكنا قد قاربنا دمنهور ، فلما بلغنــا مدخلها عاد أخى الى الثرثرة ، ولكنى لم أسمع شيئا لان اذنى كانت تطن . ودنونا من المحطة ، فوقفت وفتحت الباب ،

وقلت لخليل : « انزل .. بسرعة » فشرع يفتح الباب من ناحية واخي يقول : « ألم أقل لك يا روكسى أنه سباق .. بين السيارة والقطار ؟.. »

ولم اسمع بعد ذلك شيئا لانى ذهبت أعدو الى الرصيف الذى يقف عنده القطار . ولم تكد نفعل حتى دخل ، فركبت ــ بلا تذكرة : وماذا يهم ؟ ــ وخليل ورائى . ومشينا خلال المركبات حتى وجدنا أمى واختى ، فانحططت بجانبهما بلا كلام

ولو كان فى راسى أو رأس خليل عقل لنزلنا بهما من القطار وعدنا بالسيارة على مهل ، ولكنا لم نفكر فى شيء حتى كان القطار فى طريقه الى سيدى جابر ، فأدركنا أننا تعرضنا لغرامة فادحة لم يكن لها داع . وكان فى الوسع اتقاؤها لو عنينا ان نخبر المفتش أو أحدا من رجال القطار أننا راكبون من هنا،وسندفع الاجر فى القطار .. على أن الثقة بأنا انجينا الفريستين هونت علينا الخسارة

وقلت لأختى : « هذا زوجك .. البرقية مزيفة ، فما الرأى الآن ؟. »

ولكنها لم تكن فى حال تسمح لها بابداء رأى . وأى رأى هناك يمكن أن يشير به أحد .. لقد ضاعت الفرصة الذهبية فى دمنهور ، ولو كنا أخبرنا أخى على الاقل لاستطاع أن يبرق الى بوليس سيدى جابر بالموضوع،ولكان لاستمرار السفر فى هذه الحالة معنى ، أما الآن

وعلى أنا قلنا ان الفرصة لم تضع،وأن من الممكن اذا تركنا الاثنتين تسيران أمامنا وحدهما وعيوننا عليهما أن نرى هذا الذى سيتقدم لهما نائبا عن أخى خليل ، وقد نستطيع فى ذلك الوقت أن نجعل البوليس يقبض عليه .. على كل حال لم يبق الا هذا ..

ولكنا لم نجد فى سيدى جابر غير الحمالين . ووقفنا بعيدا

ووقفت الاثنتان تنتظران ان يتقـدم اليهما احـد ـ رجل أو امرأة ـ حتى البوفيه لم يكن فيه احد ، فقلنا لعله ينتظر فى الشارع فأومأنا اليهما أن تخرجا امامنا ، فلم يكن حظنا خارج المحطة أحسن منه داخلها . ولم تبق فائدة من التفرق فركبنا وهممنا بالمضى الى الفندق . ولكن خاطرا خطر لى فجأة فنزلت وذهبت الى مكتب التلغراف وبعثت ببرقيةمنه

وفى اليوم التالى كنا فى مصر ..

ولكن هذا لم يكن كل شيء . وهنا يحسن أن ادع اخى يتكلم :

« لعله يعنيكما ـ يريد اختى وامى ـ أن تعرفا كيف كانت عودتى البارحة بعد أن تركنى هذان المخلوقان . لا فائدة من قولى انتظرت ، فان هذا القول لا يدل على شيء . فقد تركنى فجأة وذهب يعـدو كأنى جرب .. حتى محرك السيارة لم يعن بأن يوقفه . ستقولون جميعا انه كان معذورا . فليكن فان الجدال عبث ، وستسمعون بأشياء اخرى أرجو أن يكون عذره فيها أوضح .. وكان معى روكسى كما لا احتاج أن اقول ، ولا أدرى ماذا كنت أصنع لو لم يكن هـذا الرفيق معى . لعلى كنت اجن أو يحدث لى شيء من هذا القبيل . ما علينا ، هل أقول ان الامر طال على وانا قاعد فى السيارة ؟ كلا .. وهـل اقول انى كنت ميتـا من الجوع ؟ كلا ايضـا . واختصر حكاية مؤلمـة ، فأقول انى نزلت من السيارة وسرت فى الاتجاه الذى رايتهما يقصـدان اليـه ، ولم يكن الامر يحتاج الى ذكاء .. فقد كان كلامهما دائرا كله على القطار ووجوب سـبقه ، وان كان فيما عدا ذلك لا معنى له عندى . ولم اجدهما فى المحطـة كما تعلمون ، لانهما شاءا أن يركبا القطار من غير أن يبعثا لى بكلمة . وقد سمعتهما يقولان أنهما اديا أجر الركوب مضاعفا ، وهـذا

حسن وان كان قليلا .. ولـكنه يبرد بعض الغلة . وقـد وصفتهما لكل من فى المحطة ، فظن واحد أنهما هاربان من سجن ، واعتقد ثان انهما مجنونان خطران . واقتنعت انا بأن لا فائدة من البحث ، وأن أبى ـ رحمه الله ـ أخطأ حين رمانى بهذا المخلوق وزعمه اخا ، وان أمى أخطأت أيضا فى ربطنا بهذا المخلوق الثاني الذى اخفوا أمره عني حتى خطف أختى ، فصار واجبى الآن بعد أن عرفته أن اخفيه أنا عن الناس . ما علينا .. فلندع هذا التاريخ القديم .. اظنكم ستضحكون حين أقول اني احتجت أن آكل وأنأطعم روكسى وقد يسركم أن تعلموا انى أحب أن انسى فترة هـذا الاكل وأن أمحوها من تاريخ حياتى الحافل بالتضحيات فى سبيل من لا يستحقون شيئا .. ولكنى هكذا دائمـا .. كريم مفضـال ، وجزائى من النـاس بل ممن يمرحون فى ابراد نعمتى الجحود والكفران . ما علينا أيضا ..

وقلت لروكسي : تعـال يا صاحبى ، فان هـذا بلد لا يستحق أن يتشرف بوجودنا فيه ، فلنرجع الى بيتنا فى مصر .. وقد كنت أسلمت السـيارة اليـه وهى سليمة لا شيء بها ، ويشهد شريكه فى المؤامرة أنها أنقذتهما ، ولكنى حين أردت أن أدير محركها أبى أن يتحرك ... ولا أطيل . قضيت نصف ساعة فى هذا البرد حتى استطعت أن أقنعها بالحركة والعودة الى دفء البيت

وكانت السيارة كأنما ركبها قبلى ألف عفريت ، ولـكني صبرت وقلت عوضى على الله ، وهذا جزاء من يكون له أخ كهذا ونسيب كهذا .. واظن أن الفجر بدأ يطلع حينما بلغنا شبرا ، فتنهدت وتمهلت فى السير واذا بشرطى يستوقفنى ، فوقفت فدار حتى صار الى جانبى ، وقال وهو ينقر على الزجاج : « تفضل معى الى الكركون »

فقلت : « الكركون ؟ » ، قال : « نعم تفضل انزل »

فقلت : « ولكن لمــاذا ؟ . ماذا صنعت ؟ . انى لم أكن مسرعا بل كنت أسير بسرعة خمسة أمتار فى اليوم والليلة »

فقال بلهجــة جافيــة : « انزل ولا تحوجنى أن أجرك بالقوة »

فقلت لنفسى ان المكابرة والجدال عبث ، ولا شك انى ساجد رجلا يفهم فى مركز البوليس . وذهبت معه ، فقال : « اقعد هنا » ، فقعدت حيث أشار ، وهم بتركي فتعلقت به وقلت : « الا تسمح من فضلك بأن تخبرنى لمــاذا جئت بى الى هنــا ؟ »

فنهرني بعنف ، فهويت الى الكرسي وروكسي بين يدى

لم أر أحدا مستعجلا سواى . واخيرا جاء شرطى آخر ، وجلس الى مكتب واخرج أوراقا وبدأ يســتعد للـكتابة ، وسألنى عن اسمي وعنوانى ومولدى وعن السيارة ورقمها ، ثم سألنى بخبث : « ماذا معك فيها ؟ »

فابتسمت وقد خيل الى انه ظننى من مهربى المخدرات ، وقلت ببساطة : « ليس معى سوى روكسى »

فقال : « ايه ؟ » قلت : «يعنى الكلب . . اسمه روكسى» ، فقال متهكما : « يا حبيبى يخوى . . كمان عامل لى قمع ومعاك كلب . . تعملوها وتخيلوا والله »

فلم أدر ماذا أقول له . . واعفانى منالكلام ، فسألنى : « هل معك مفتاح السيارة ؟ »

فناولته المفتاح ، فنادى شرطيــا وطلب منــه أن يفتحها امامى ، وأن يجىء بما يجده فيها فلم يجد الا الحقيبة . . اضحكوا . . اضحكوا . . لا بأس . . سيجىء يوم أثأر فيه لنفسى . .

فلما جاؤوه بالحقيبة ، ابتسم ابتسامة عريضة جدا وتنهد مرتاحا ، وقال لى : « لا شىء . . هه . . ؟ طيب »

فابتسمت أنا أيضا وقد صح عندى انه يحسبنى من المهربين وايقنت بقرب الفرج . وشرع يسألنى عن الحقيبة ، فقلت له انها لأخى وذكرت اسم الأخ المحترم ، فأدهشنى بأن سألنى هل أنا اعترف بأن الحقيبة لاسماعيل أفندى زفت وقطران .؟ فقلت بالطبع انا معترف .. انه أخى

فقال : « أخوك ..؟ أواثق انت انه أخوك ؟ »

فضحكت وقلت : «بالطبع واثق..ولكن ما هى الحكاية؟»

فقال : « أين المفتاح ؟ » .

قلت : « معه..لم آخذه منه ».وهممت بأن أقص عليه القصة ؛ ولكنى رأيت انها مما لا يصدق فأقصرت ، فقال : « هل تستطيع أن تثبت شخصيتك ؟ »

فقلت : « بالطبع .. ماذا تظن ؟.. » ودفعت يدى فى جيبى لأخرج له أوراق السيارة ورخصة القيادة وغير ذلك مما عسى أن يكون فى جيبى ، فما راعنى الا أن الجيب خال ليس فيه قصاصة واحدة ! واظن وجهى فضحنى على الرغم من محاولتى أن أتماسك وأتجلد ، فقد سألنى بعد ذلك مباشرة عن السيارة ولمن هى ؟ فأيقنت انى وقعت،وقلت له : « اسمع .. انك تطيل بلا داع .. لا بد أن يكون قد حدث خطأ ، ومن سوء الحظ انى نسيت الاوراق كلها فى البيت ، فاذا سمحت فارسل معى شاويشا أو عشرة اذا شئت الى البيت لأجيئك بكل ما يزيل الشك ويريح ضميرك »

فلم يبال بهذا الاقتراح المعقول ، وقال : « هل انت مصر على دعواك أنك اخو اسماعيل ؟ »

فقلت : « الحقيقة انى مستعد للتبرؤ منه ولكن الى أن افعل لا يسعنى أن أنكر انه أخى » . فقال : « اذا كنت أخاه، فلماذا يبعث ببرقية كهذه ؟ » .. وناولنيها ، فقرأت فيها الحكم على

وللرجل العذر لانه اذا كان اسماعيل هذا أخى ، فلماذا

يطلب من البوليس ان يحجز السيارة رقم كذا ، وفيها حقيبة صفتها كيت وكيت . لا تعترض من فضلك .. لقد كانت عبارة البرقية يفهم منها أنك تريد حجز السيارة أيضا . ولا اكتمك اني لم اجد جوابا لهذا السؤال ، وأني استحييت ان أقول انه مزاح بارد

وحرت ماذا اصنع ، ولم يفتح الله على بحيلة تخرجني من هذا المأزق الثقيل .. وكان النهار قد طلع ولكنا ما زلنا في البكور ، ولا يليق أن ازعج الناس في مثل هذا الوقت ، فعدت الى اقتراحي أن يبعث معي من يشاء الى البيت ، فرفضه . فسألته عن المأمور من هو ؟ عسى أن يكون من معارفي .. فانتهرني بغلظة ، فتساهلت وسألته عن المعاون أو غيره ، فلم يزد على أن قال : «بلاش دوشة» ، فناشدته ان ينظر الى ثيابي ، وأن يفكر هل هذه ثياب مجرم ولص ؟ فقال وهو يضحك : « ان بين اللصوص من هم أشد اناقة منك » فوضعت اصبعي في الشق ، واسلمت امرى الى الله

□

وختم المحضر على هذا .. اى على اني لص ولا شك وان البوليس حاذق فطن ولا شك . ولست الوم البوليس ، فقد كانت كل القرائن ضدى . واشهد له انه كان رفيقا ، فقد سمح لي بأن اشترى — اعني ان يبعث من يشترى شيئا لطعامي وطعام روكسي . ولا انكر انى شربت قهوة أيضا ، وان كانت أشبه بمغلى الفول السوداني أو بماء الوحل الساخن . ولكن هذا لم يكن ذنب البوليس

وأخيرا في الساعة الثامنة دخل ضابط علينا ، فنظرت اليه ببلادة .. فقد فترت ويئست ولم اعد ابالي ما يجرى لى ، ولكنى لم اكد أرى وجهه حتى انتفضت واقفا ، وصحت به

« حمدى .. الحمد لله .. أين المحقق ؟ »

فاستغرب وسألنى عن الحكاية ، فقصصتها عليه فضحك ملء شدقيه . مدهش أن يضحك الناس من هذه الفصول الباردة !!. والباقى لا يحتاج الى كلام..جئت الى هنا ونمت ساعة أو اثنتين على هذا الكرسى بثيابى .. ولكنه ينقصك يا حضرة الأخ أن تفسر للبوليس مزاحك ، فقد صار الامر مزاحا مع البوليس لا معى »

فما استطعنا أن نتكلم ونغالب الضحك ، قلت : « هون عليك .. فانى أعرف ماذا أقول .. ولكنى أرجو أن يكون ما حدث درسا لك »

فقـال وفى عينيه نظرة خبيثة : « وأنا أرجـو أن يكون ما حدث لكم درسا كذلك »

فقال خليل : « ماذا تعنى ؟ »

فقـال أخى : « أعنى انكم لو لم تكونوا عميا لعرفتم أن البرقية ليست لكم .. للجار رقم ٢٢٣ ، وقد تشابه الرقمان على الساعى واتفق أن اسم الجار خليل أيضا ، واتفق أنكم عمى لا تبصرون . ولولا ذلك لقرأتم الرقم واسم الذىأرسلت اليه البرقية .. هذا ما أعنى .. فقوموا كفروا عن سيئاتكم يا جهلة »

عقاب اللص

لست أخشى اللصوص .. فما معى ولا فى بيتى ما أخشى عليه الضياع واتقى أن أمنى فيــه بخسارة . ولو أن لصا كريما فيه مروءة دخل بيتى ـ أو حيث أقيم فما هو بيتى ـ وحمل ما فيه من متاع لحملته شكرى ، ولبعثت بنسخة منه الى الصحف .. فان من اللؤم أن يقابل الاحسان بأقل من الشكر .. فما أرى لى متاعا فى شىء مما حولى . وسبب آخر يجرؤنى على لقاء اللصوص وينفى عني الخوف منهم ويجعلنى لا أتهيبهم ، وذلك انى كما تعلم ـ أو كما لا تعلم ـ ضامر ضاو ، ظاهر الضآلة بادى الضعف . وأوجز تعريف بنفسي يحضرنى الآن ، هو انى امرؤ فارغ الثياب . وأحسب أن هذا تعريف شامل محيط جامع مانع ، فان لم يكن كذلك فامهلونى حتى يلهمنى الله ما هو أوفى . وأرجع الى اللصوص فأقول ان الذى يجعل لقاءهم خطرا فى ساعات العمل هو انهم يريدون التخلص مما وقعوا فيه اتقاء السجن وما فيه ، والمفاجأة فى هذه الحالات تذهلهم وتطير صوابهم ، فيحدث أن يضيفوا الى جريمة السرقة جريمة أخرى هى الاعتداء على النفس .. أما اذا كان الذى يفاجئهم رجلا صغير الجسم مأمونا مثلى ، لا خوف من قدرته على منع السارق من الفرار والنجاة .. فان العدوان لا يخطر لهم على بال . وحسبهم أن يشدوا هـــذا المتطفل بحبل ويلقوه فى زاوية أو ركن ، ويمضوا فى عملهم كأنما لم يعطلهم معطل . ومن هنا اطمئنانى ، وهو اطمئنان لم يزعزع الثقة به الى الآن مزعزع

وقد اتفق لى أن كنت مرة فى الاقصر وكان الوقت شتاء ، والاقصر تطيب فى هذا الوقت .. فنزلت بالفندق ومضى يوم أو يومان ـ فقد نسيت لطول العهد ـ واذا بصديق من أغنياء

الاقصر يقع على فى شرفة الفندق حيث يجلس أكثر النزلاء يشربون الشاى قبيل المغرب . واقول يقع على — وأنا أعنى ما أقول — فقد كان ظهرى اليه وهو مقبل ، ويظهر أن باله لم يكن الى الارض وهو بسائر فاصطدمت رجله بساق الكرسى الذى كنت جالسا عليه فكاد يقع وارتمى فوقى — اعنى الصديق لا الكرسى — ثم شرع يعتذر وشرعت أنا أيضا أهز له راسى ايذانا بقبول الاعتذار ، فالتقت العيون واذا به يكف عن الاعتذار ويصيح : « أوه .. أهو انت ؟ »

كأنما هذا ينفى وجوب الاعتذار ويعفيه من تكاليفه ويجعلنى غير أهل له ، فقلت له : «نعم .. أنا انا يا صاحبى» قال مستغربا : « وماذا جاء بك الى هنا ؟ »

قلت : « قذفتنى موجة الحياة على هذا الساحل الذى لا أراه أرفق بى من اليم » . قال : « آسف يا صاحبى .. » فقلت مقاطعا : « لان الحياة رمت بى على شاطئكم ؟ »

قال وهو يجلس : « لا لا لا .. انما عنيت انى آسف لانى وقعت عليك » . قلت : « هـذا ادهى .. أؤكد لك أنى لم أتعمد أن أكون فى طريقك »

فصاح بى : « يا أخى ، لا .. ليس هـذا ما أعنى ... الا يمكن أن اقول شيئا لا تستطيع أن تؤوله على هـذا النحو ؟ انما أعنى .. »

فترفقت وقلت : « أعرف ما تعنى .. وأعرف أيضا أنك حمار .. والآن هات حديثا آخر »

وعرف أنى مقيم بالفندق ، فدعانى الى النزول ببيته فأبيت .. وشكرته فألح، فقلت له انى هنا حر افعل ما بدالى ولا اتوخى الا راحتى . وحريتى أعز على من أن أقبل ضيافتك الكريمة ، فأبى فأصررت ، ثم مضى وفى ظنى أن الامر انتهى . واذا بى أعلم حين هممت بالعود الى غرفتى لحاجة لى ، أن الصديق حمل حقيبتى ومضى بها الى بيته

وترك لى مركبته ، وانه لم تبق لى فى الفندق غرفة

وأوجز فاقول انى لم يسعنى الا أن اذهب الى البيت على فرط استثقالى لذلك ، فاذا البيت شيء مهول واذا هو بيتان فى الحقيقة . . واحد للرجال وآخر بعيد عنه للنساء ، وبينهما بستان واسع وحديقة زهر فيحاء ، وفضاء رحيب . . ألفيت ابناء صديقى يلعبون فيه - أو خيل الى فى أول الامر انهم يلعبون - ولكنى لما دنوت منهم رأيت رجلا معروفا لم أرتح الى وجهه ولم يعجبنى شارباه المفتولان وصلعته الناصعة ، وكان قصيرا مثلى . . ولكنه أشد منى دمامة واضيق عينا . وكان هذا الرجل يصيح بالغلمان وهو واقف لا يتحرك ، فيحركون أيديهم أو أرجلهم وينثنون ويعتدلون ويستلقون على ظهورهم ويرفعون سيقانهم وأذرعهم ، وكان صديقى واقفا يهز راسه راضيا مرتاحا ، فقلت له : « ما هذا الذى أرى ؟ . . ومن هذا الرجل القبيح ومن هؤلاء الصبية ؟ هل نويت أن تقيم فى بيتك (سيرك) ؟ »

فقال وهو يضحك : « لا لا لا . . هؤلاء أبنائى »

فقلت مستغربا : « ابناؤك ؟. ولماذا تترك هذا الرجل القبيح يمرغهم فى التراب ؟ »

فقال وهو يجرني : « لا تصح هكذا لئلا يسمع . . انه معلم الرياضة فى المدرسة . . يدرب الاولاد على الحركات الرياضية »

فقلت : « أولا يكفى تدريبه لهم فى المدرسة ؟. مدهش . . أمن أجل أن الله رزقك مالا تروح تبعثره فى هذا الكلام الفارغ ليقال انك متمدين ؟ »

قال : « لا ، انك لا تعرف . . أن الحكاية طويلة ولكنى اختصرها لك فأقول ان أحد السياح الامريكيين كان هنا فى الشتاء الماضى ، فاتصلت به بطبيعة الحال - صديقى تاجر عاديات - ورأى أبنائى فنصح لى - وهو طبيب - أن أعنى بحياة أبنائى الرياضية ، وأن أتخذ لهم معلما . هذه هى

الحكاية .. وقد نسيت أن أقول ان أحدهم كان مريضا »
قلت : « هذا ما قلت .. تقليد ليس الا .. ما علينا .. اين الحقيبة ؟.. فلست أنوى أن أقيم فى مصحة »
ولكنى اقمت فى المصحة وان كنت قد استطعت أن اتقى هذا « التصحيح » الذى يجرى على أبناء مضيفى ..

□

والاقصر ــ اذا كنت مقيما فى بيت لا فى فندق ــ مملة ، لأن الحياة كلها فى الفنادق ، وقد حزمنى صاحبى والقانى فى بيته . فلم أكن اخرج الا نهارا لأزور الآثار ، فاذا جاء الليل ذهبنا الى شرفة الفندق ومكثنا قليلا ، ثم عدنا الى البيت لنتعشى حتى ولو كنت غير جائع والا عد نفسه مقصرا فى حقى ، ولا أدرى لماذا .. ولكن هذا هو الاعتقاد الشائع . وضقت ذرعا بهذا الكرم ولم أعد أطيقه ، فغافلته مرة وانطلقت أعدو الى الفندق ، ودخلت البار وشربت حتى ارتويت ثم خرجت الى الحديقة الرحيبة ، وذهبت أتمشى فيها وأطوف فى ارجائها . وكانت الليلة مقمرة والهواء لا رطوبة فيه ، فطال تجوابى فلما نظرت فى الساعة اذا هى الحادية عشرة ولم يكن هذا ظنى ، فبادرت الى العودة الى البيت وقد سرنى أنى استطعت أن أروح وأجيء وحدى وكما أحب وفى حيث أريد والسلام ، وان لم يكن هذا ــ بمجرده ــ خيرا مما فررت منه .. فما كان ثم أى حرج فى أن أشرب أو أفعل ما أشاء وهو معى ، ولكن الوحدة أشعرتنى حرية كنت افتقدتها معه اذ أراه الى جانبى ، وكان هو يتوخى مرضاتى فى كل شيء كبر أم صغر . ولكنى لم أكن أرتاح الى هذا ولا كان يسرنى أن أرى رجلا يقيد نفسه بى ، وكان يخيل الى أنه فى سريرته كاره غير راض ، وأنه مثلى لا يريد أن يكون غير مرتبط أو مشدود الى أحد . ولم يكن

هذا كذلك فى الحقيقة ، فان الرجل كريم عظيم الاريحية ، ولكن هذا هو الذى قام فى نفسى وكبر فى وهمى

وعدت الى البيت وأنا أشعر أن الحياة تستحق أن يحياها المرء وأن الدنيا جميلة ، وشعرت بشىء من الظمأ على كثرة ما شربت .. وكنت أعرف الطريق الى حيث اطفىء ظمئى ففتحت بابا ودخلت الى حيث الشراب ، وهو مكان رحيب فيه خزانات شتى ؛ فيها ما لم أحصه من الزجاجات المختلفة الالوان والحجوم ، وفى الوسط مائدة مستطيلة مغطاة بالمخمل الاخضر وحولها الكراسى الوثيرة .. فأدرت مفتاح النور ؛ واذا بى أرى ذاك الرجل الدميم القصير الذى يقيم الاولاد ويقعدهم ويعذبهم بالانحناء والانثناء والقفز والوثب والنط الى آخر ما كرهت منه ومن منظره ، فندت عنى صيحة استغراب وانكار ، وماذا يجىء به الى هنا فى الليل — فى منتصف الليل — وهو لايبيت معنا بل يذهب الى بيته ؟

ولم يخالجنى شك فى أنه لص شرير ، على أنه خطر لى مع ذلك أن بيت الرجال أو الضيوف ليس فيه ما يسرق غير الاثاث وهو ضخم لا يسهل حمله أو نقله ، ورجح عندى أن هذا المعلم الرياضى لص خمر وأنه جاء متسللاً ليشرب كأسين أو ثلاثا بلا ثمن .. وسواء أكان هذا أم ذاك هو الصواب ، فقد شعرت أن من واجبى أن أنغص عليه ليلته

وصحت به : « من أين دخلت أيها اللص الجاحد الناكر للجميل ؟ » وكنت أتكلم بعنف وفى يدى عصا ضخمة وفى عينى لمعة أظن الفضل فيها لما سقانى صاحب « البار » فى الفندق ، فرأيت الرجل يستخذى ويتضاءل ويتراجع الى النافذة ، فأطلقت عليه صيحة عالية : « قف » فوقف كالجندى ، وكان الفضل فى سرعة الوقفة واعتدالها وجمال منظرها لتربية الرجل الرياضية أو العسكرية لا لقوة الصيحة ، ولكنه أطاع على كل حال .. فسررت وقلت له مرة أخرى : « قل من أين دخلت فى الليل .. فى منتصف الليل ؟ »

فقال بذلة وضراعة : « من النافذة .. فقد وجدت الأبواب موصدة ، والخدم نياما » . قلت : « آه .. ولكننى انا لم أجد الباب موصدا »

وايقنت أنه كاذب وأنه تعمد أن يدخل من حيث لا يراه أحد ، وهم فى هذه اللحظة أن يقول شيئا فأطلقتها عليه صيحة اخرى مدوية .. فى اذنى أنا فما اظن احدا سمعها أو سمع بها خارج الحجرة : « اخرس »

فخرس ووقف ساكتا لا يتحرك ، فسرنى مرة اخرى أنه يطيع على هذا النحو ، وقلت لنفسى أن للرياضة نفعا على ما يظهر . ولو لم يكن هذا الرجل رياضيا ، لكان الارجح أن يحاور ويجادل ويكابر ويناقش ويوجع لى رأسى ، ويسلب الأمر كله ما اجد الآن فيه من المتعة

وقلت له : « السـت انت الرجل الذى يكلف هؤلاء الاولاد المساكين أن يتلووا ويتعوجوا وينطوا ويقفزوا ؟ »

قال : « نعم يا سيدى » . قلت : «أرنا اذن بعض ما اتقنت يا صاحبى » . قال : « نعم »

قلت : « تلو .. تعوج .. انثن .. انحن .. افعل كل ما رأيتك تأمرهم ان يفعلوا .. تفضل »

فتردد برهة لا أدرى لماذا أو كيف ، ثم كأنما بدا له أن خير ما يصنع هو أن يطيع وأمره لله .. فراح ينثنى ويعتدل ، وأنا واقف أنظر اليه معجبا مسرورا ، وكلما نظر الى استزدته حتى خيل الى أن ظهره سيقصم .. فدعوته أن يقف ، وشرعت أفكر فى عذاب آخر أنزله به ، ففركت جبينى ثم تذكرت فقلت : « آه .. لقد كنت واثقا أنى سأتذكر .. اصنع من جسمك عقدة كعقدة الحبل »

فلم يفهم ، فقلت له مرة اخرى : « ألا تعرف العقدة ؟. تلف الحبل وتصنع منه دائرة وتدخل طرفا منه فى هذه الدائرة ثم تشد الطرفين فتعقد العقدة .. هكذا أريد منك

الآن أن تصنع بنفسك .. اصنع من خصرك دائرة وادخل ساقك فيها .. او لا أدرى كيف تصنع ذلك .. المهم أن تصنع ذلك وأن أراه .. تفضل »

فرقد الرجل على الارض ، وراح يقوس ظهره كما لم أكن أتوقع أن يستطيع أن يفعل .. وأنا متكىء على المائدة ، وفى يدى سيجارة أشعلتها ورحت أدخن وأنظر معجبا مغتبطا . ورأيته يحاول أن يعقد العقدة التى أمرته بها ، فلم يسعنى الا أن أضحك .. فقد كان منظره يغرى بذلك وهو يتلوى على الارض ، ولكنى لحماقتى ضحكت والدخان فى فمى ، فكادت روحى تزهق .. وجعلت أسعل سعالا شديدا ، فاغتنم الخائن الماكر هذه الفرصة ووثب الى رجليه ثم الى النافذة ، ومنها الى حيث لا أعرف

وبينما كنت أوصد النافذة .. وأنا آسف على المتعة التى لم تطل ، اذا بمضيفى يقول : « يا أخى انت كنت فين .. لقد حدثتنى نفسى أن أبلغ البوليس والله »

فقصصت عليه القصة وأنا أكاد أقع من الضحك ، فقال : « يا شيخ حرام عليك .. هذا رجل مسكين »

فصحت به : « أما انك لرجل مدهش .. اذا كنت تعتقد أن تكليفه هذه الحركات البهلوانية تعذيب له فانها تكون أيضا تعذيبا لأولادك »

فقال : « لا .. ولكنه كبير السن وأولادى صغار .. ثم انه لا يكلفهم أن يلووا أجسامهم ويصنعوا منها عقدة كعقدة الحبل .. كيف خطرت لك هذه الفكرة الخبيثة ؟ »

قلت : « لم يخطر لى شيء ، وانما كان هذا ما بدا لى أنه يكلف أولادك أن يصنعوه حين رأيتهم »

قال : « قم لتنام ، وحسبك هذا طول العمر »

وقد صدق .. فما أزال أضحك الى الآن كلما تذكرت تلك الليلة

ثمن سيجارة

كم تظن السيجارة كان ثمنها فى سنة ١٩٠٩ ؟

لا أدرى ممن القــارىء .. أمن الايفاع الذين يزدان بشبابهم الغض هــذا القرن العشرون ، أم من المخضرمين الذين ادركوا ــ مثلى ــ القرن الماضى وهو يجود بأنفاسه ، وأبوا الا أن يركبوا هذا الزمن بشبابهم الدائم الذى يأبى أن يدركه الهرم أو يرده الشيب الى تكلف الوقار ، وأن كان أعني شبابهم المتلكىء ــ لا يمتاز لا بغضاضة ، ولا ببضاضة. وليكن القارىء من شاء ــ من المحدثين أو ممن هم أحدث منه وان كانوا أعلى ســنا ــ فهذه فذلكة تاريخية يستطيع أن ينتفع بها اذا كان له من الذكاء حظ . وهل أحرص منى على فائدة القراء ..؟

كنت فى تلك السنة ــ ســنة ١٩٠٩ ــ قد تخرجت فى مدرســة المعلمين العليــا ، ومن كان يشك فى ذلك فليسأل وزارة المعــارف فلن تحابينى . وكنا فى مقــدمة الصيف ، وكنت متعبا مرهقــا ــ لا أدرى لماذا ؟ فما اعرفنى عنيت بحفظ درس فى حياتى ــ فاستشرت طبيبا أو على الأصح ألح أهلى أن أستشيره ، فقد صارت لحياتى قيمة بعــد أن حملت هذه « الدبلوم » وبلغت بهـــا مبالغ الرجال الذين يكسبون رزقهم وينفقون على ســواهم . فلما فحصنى الطبيب ، قال : « لا شيء .. يكفى أن ترتاح وتتنزه » قلت : « أين ؟ » وكان ضيق الصدر فقال : « وهل أنا أعرف .. فى أى مكان غير البيت » فلم يحسن وقع جوابه فى نفسى ، فقلت له : « وهل كنت تحسب أن بيتى منتزه يا أخى ... أم خيل اليك انى بنت لا اعرف غير غرف البيت .. سبحان الله العظيم » وانصرفت ساخطا

وأوسعته ذما فى الطريق الى بيتى — مزقته ونثرت لحمه وجلده للكلاب . . حتى الشعرات القليلة التى بقيت فى راسه الأصلع انتزعتها واحـدة واحـدة ، وسرنى أنه كان يتألم ويتلوى وأنا أشـدها بأظافرى واقتلعها من جـذورها — بخيالى — وكنت اقول له : « هذا جزاؤك يا وقح . . عسى ان يعلمك هذا أن التهكم على الناس غير جائز » .

ويظهر أنى كنت أكلم نفسى فى الطريق بصوت عال ، فقد استوقفنى قريب لى وقال لى : « مالك . . . ماذا جرى ؟ »

قلت له مستغربا : « نعم . . ماذا جرى ؟ »

وتجهمت له فقال : « من الذى تشتمه وتسبه هـذا السب القبيح ؟ »

فأفقت وارتد الى عقلى . . وكان قريبى هذا له نسيب عندنا له بقية من مال قليل استودعناه اياه ليجريه مع ماله فى تجارته، فقلت له : « يا أخى هذا الطبيب الذى أرسلتمونى اليه يقول لى انه لا دواء لى الا ان اذهب الى لبنان ، وأنه لا أمل لى فى الشفاء بغير ذلك . . ولا ادرى ما اصنع ، فقد ذهب اكثر نصيبى فى نفقات التعليم والباقى لا يكفى للسفر الى الشام . ولست احب أن اجور على نصيب أمى او اخى وان كان من السهل رد ما اقترض بعد أن اقبض مرتبى من وظيفتى . . وعلى ذكر ذلك ، أقول لك انى عينت مدرسا فى المدرسة السعيدية الثانوية »

وكان الذى اخطر الشام على بالى فى هذه اللحظة ، أن لى صديقا أصابه صداع ملح أعيى الأطباء شهورا . . فبعثوا به الى لبنان فاستراح من آلامه ، وكتب الى من هناك يصف لى جمال البلاد ويدعونى الى اللحاق به

وكان لا بد من موافقة أمى على الاستدانة من نصيبها أو نصيب أخى من هـذه البقية الباقية من المـال القليل ،

وكانت ــ رحمها الله ــ قوية ذكية ، ولم أكن أجرؤ أن أكذب عليها .. ولو أنها كانت سألتنى لما وسعنى الا أن أحدثها بما دار فى نفسى من أساليب الاحتيال عليها ــ لا خوفا منها ؛ بل لأنها عودتنى أن أصدقها والا يكون جزائى على الصدق الا الخير . غير انهـا لم تسألنى شيئا بل وافقت وقالت : « اقتراح حسن ... اذهب الى ... وخذ منه ما يكفيك »

ولو كنت ذكيا لأدركت أن فى الأمر سرا ، وأن وراء هذه الموافقة السريعة التى لم أكن أتوقعها تدبيرا خفيا .. ولتذكر أنها كانت تحبنى حتى لكانت لا تستطيع أن تفارقنى يوما واحدا فكيف بشهر أو شهرين ؟ ولكن خفة الشباب صرفتنى عن النظر فى شىء من هذا ، فصدقت وذهبت الى الرجل فقال : « ليس معى الآن الا خمسة جنيهات فخذها ، ولولا أنى مريض لخرجت معك لأجيئك بكل ما تحتاج اليه .. ولكن بضعة أيام لا تقدم ولا تؤخر »

فخرجت مغتبطا فما كنت رأيت قط قبل ذلك اليـوم خمسة جنيهات ــ ذهبا ــ فى كفى أصنع بها ما أشاء ولا أسأل عنها . وانسانى الفرح أن كونى لا أسأل عن هذه الجنيهات ماذا صنعت بها هو التدبير الذى لجأت اليه أمى اعتمادا على ما تعرف من تبذيرى واسرافى اللذين أعياها علاجهما

ومضت أيام ثلاثة نقصت الجنيهات التى معى بعددها ، فقد أبقيتها فى جيبى .. فطارت واحدا بعد واحد كأن لها أجنحة ، فعدت الى صاحبنا وقلت له انى أريد بقية المبلغ اللازم لأنى أخشى الضـياع على كل ما يعطينى .. فأبدى الاستغراب وسألنى عما بقى معى من الجنيهات الخمسة ، فقلت لم يبق الا اثنان فقط .. فهز رأسه ولم يقل شيئا وناولنى خمسة أخرى وقال : « الى أن أشفى »

فكبرت فى عين نفسى ، فقد كنت فرحت بخمسة وأحسست انى رجل عظيم .. فكيف وقد صار معى سبعة لا خمسة

فقط .. ولم اعد فى تلك الليلة الى البيت الا قبل الفجر متسللا ، فألفيت أمى قاعدة تدخن وتنتظرنى ، ولكنها لم تقل شيئا واكتفت بالنظر والابتسام . ولو كنت ذكيا لاستغربت أن تبتسم لابنها الذى لا يكاد يقوى على الوقوف على قدميه ـ لا من السكر فما كنت سكيرا بل من التعب والاعياء والسهر ـ وكانت هى تعرف أن الخمر لا تعنينى فلم تكن تخشى شيئا من هذه الناحية

□

ولا أطيل على القارىء ، فانى أخشى أن أستطرد الى غير ما اردت .. والحديث ذو شجون كما يقولون ، ويكفى أن يعلم انى أضعت خمسة عشر جنيها فى خمسة عشر يوما . وكان الذى عنده ما بقى من مالنا يتماثل للشفاء ، وكنت ازوره لأعوده كل يوم فما ينيق غيرذلك ، فاتفق يوما أن كنت عنده ـ معه فى غرفته ـ فجاءه الطبيب على عادته فى كل يوم فخرجت الى الشرفة وجعلت أتمشى فيها ـ وكانت رحيبة ـ الى أن يفرغ الطبيب من فحصه ، وكنت قد اشتريت « علبة » من الفضة للسجاير ـ فقد صار هـذا البذخ فى وسعى ـ فأخرجتها من جيب البنطلون حيث رأيت أبناء الوارثين يضعونهـا ، واشعلت سيجارة وانطلقت أدخن وقال لى الطبيب : « هذه قسوة »

فاستغربت وسألته عن معنى كلامه ، فقال انه ـ أى الطبيب ـ حرم التدخين على نسيبنا هذا ، وقد كانت رائحة الدخان تدخل الغرفة . وكان يرى المسكين تجحظ عيناه ويهتز رأسه على الوسادة ، ولكنه لا يستطيع أن يقول شيئا لأنه ـ أى الطبيب ـ واقف ، وحذرنى من أن أعطيه دخانا ، وقال ان مريضه لا شك سيتعلق بى ويلحف فى رجائى أن أعطيه ولو سيجارة واحـدة .. ولكن مصلحته تقتضى أن لا أرق له .ثم انصرف

وعدت الى صاحبنا وقد اختمرت فى رأسى فكرة ــ آخذ عشرة جنيهات دفعة واحدة ، فان أخذ الخمسات لا فائدة منه ــ وأسافر بها بلا تريث ، وأطلب من هناك كل ما أحتاج اليه .. فما يعقل أن يضنوا على بشىء فى الغربة . ودنوت منه ، وفركت كفى وقلت : « أظن أن لا فائدة اليوم من طلب شىء »

فوافق ــ وهو عابس ــ على أن لا فائدة

فقلت : « حتى ولو كان الطلب لا يعدو عشرة جنيهات لا أكثر »

فزاد وجهه عبوسا وهز رأسه هزات متوالية بلا مناسبة فما كان ثم ما يقتضى هذا العنف وهو المحتاج الى الراحة التامة . ثم انى لم أتعود منه الا التلبية السريعة ، فاقتنعت بأن رائحة الدخان ــ أو الطباق كما علمنى المرحوم الشيخ حمزة فتح الله ــ هى المسئولة عن هذا السلوك الجديد الذى لا عهد لى به منه

فقلت : « الامر لله ثم لك .. ولكنى آسف .. آسف جدا .. على كل حال لا اظن أن الامر ليس فيه نظر . هه.؟»

قال بلهجة الجزم : « أبدا » ولم يزد

قلت : « لا حول ولا قوة الا بالله »

ومددت يدى الى جيبى ، فأخرجت العلبة الفضية منه وفتحتها ببطء ــ وكانت ملأى بالسجاير ــ وخفضت يدى بها وأملتها وأنا أتناول منها ــ ليرى ما فيها من صفى السجاير ، وأخرجت واحدة ورددت العلبة الى مكانها ، وأشعلت السيجارة

واذا بالنائم ينتفض ويقعد على السرير ويصيح بى بصوت كالرعد : « هات العلبة .. هات العلبة »

فصحت به وأنا لا أريم مكانى ولا أظهر اكتراثا لانتفاضه : « ايه ؟ »

فصاح وهو يلوح بكلتا يديه : « هاتها .. أقول لك هاتها . الا تسمع ؟. »

فقلت وانا أتظاهر بأنى لم أفهم مراده الا الآن فقط : « آه تقصد السجاير ... »

وأخرجت العلبة وفتحتها له وانا فى مكانى ــ على نحو مترين منه ــ « هنا ــ فى هذا الجانب سجاير الفيل .. وفى هذا الجانب سجاير جناكليز »

فصاح : « هات .. هات .. هات »

قلت ببرود : « هى لك كلها اذا شئت »

فصاح : « أو لم أشأ .. لقد قلت لك هات مائة مرة فهل انت أصم .. هات .. أقول لك هات »

قلت ، وأنا فى مكانى : « وهل تظن انى أضن عليك بشىء ؟ اذن انت لا تعرفنى .. ولكنى أشعر بحاجة شديدة الى عشرة جنيهات .. عشرة ليس الا .. مبلغ زهيد فى الحقيقة وقد جئت اليك وفى مأمولى أن أبلغ عندك مقصودى ، فما قولك ؟ »

قال : « خمسة .. مثل كل مرة »

قلت : « عشرة .. والعلبة كلها لك .. اذا شئت . اما اذا لم تشأ ، فالامر على كل حال لك »

قال : « اجعلها سبعة .. وهات بقى »

قلت : « انى اكره المساومة .. طباعى تأباها .. وتربيتى تجعلنى أنفر منها ... أوه انفر جدا منها .. انك لا تستطيع ان تتصور شدة نفورى من المساومة ... يبلغ من كرهى لها أن أزهد فى الامر كله فلا أعود أقبل الكلام فيه مهما كان الذى يبذل لى »

وطويت العلبة على سبيل التأكيد لهذا النفور ووضعتها فى جيبى وقلت : « والآن .. أستودعك الله .. أن شاء الله .

ان شاء الله اراك غدا بخير » وادرت وجهى وهممت بالخروج، واذا به يصيح بى : « تعال يا مجنون .. خذ العشرة التى تريدها .. هات بقى »

قلت : « حتى تصير العشرة فى كفى هذه »

وبسطتها له حتى لا يساوره الشك .. فتنهد ، وناولنيها وعددتها على مهل ثم رميت له العلبة

وخرجت وتركت له السجاير غير عابىء بأوامر الطبيب ، فما أطيش الشباب وأشد حمقه واقل رفقه .. ولكن الله سلم ونجا ولم تقتله السجاير . أما أنا فلم يكتب لى الله أن اذهب فى سنتى تلك الى الشام . واهذا حديث طويل ليس هذا وقته فان أكثر الذين يعنيهم لا يزالون احياء فموعدنا به بعد عمرهم الطويل



الببغاء والقط

ـ أعوذ بالله من الستات .. انهن لا يرحمن ولا يتركن رحمة الله تنزل

قلت : « لماذا .. ماذا يسخطك على الجنس اللطيف ؟ »

فاعتدل على كرسيه وحدق فى وجهى ، وقال ـ أو صاح على الأصح : « لطيف .. أتقول لطيف .. ؟ أيكون جنسا لطيفا ذاك الذى يلبس هذه الثياب الخفيفة فى البرد ويبدو فيها مكشوف الذراعين الى ما فوق المرفق ؟ اننا نحن الجنس اللطيف لو عقل الناس »

قلت : « يا سيدى .. ثم ماذا أيضا ؟ » قال ـ غير عابىء بتهكمى : « ثم انه ليس لطيفا فى الحقيقة »

قلت : « هذه ملاحظة سمعناها فهى مكررة .. فاما قلت شيئا جديدا ، والا فاسكت »

قال : « انما أعنى أنه جنس غير لطيف المعاشرة »

قلت : « وكيف كان ذلك ؟ .. أعنى ماذا يسخطك عليه اليوم ؟ »

قال : « لعلك تذكر « احسان » .. لقد عرفتك بها. تعلقت بى كأنها ظلى ، فسئمت واقول لك الحق انى خفت العاقبة .. فقد كنت أستملحها وأستعذب حديثها وأستريح الى مجلسها ، ولكن المصيبة أنها تحسب أن الملاطفة والمجاملة حب. الحق أن أمر هؤلاء البنات عجيب .. كل كلمة من الرجل ـ أعنى كلمة ملاطفة أو تودد ـ يتخذنها دليلا على الحب .. فاذا قلت لها أن ثوبها جميل ، أو أن شعرها المرسل أو المرجل بديع ، أو أن حذاءها حسن ، أو أن ابتسامتها حلوة أو عذبة ،

أو ان ظل اهدابها على وجنتيها فاتن او غير ذلك ـ اى كلمة ثناء تنطق بها ـ فما اسرع ما تؤولها بانها صادرة عن حب وعشق وهيام وتدله .. مصـــيبة يا أخى والله ، يظهر ان هؤلاء الفتيات بهن ظمأ شديد الى الحب ، ويخيل الى أن حياتهن تجفف نفوسهن وتذويها وتؤجج فيها الشوق الى الحب .. فلا تكاد الواحدة منهن تسمع لفظا عاديا من الفاظ المدح التى يستدعيها حسن المجالسة وادب الحديث حتى يثب خيالها من فرط اللهفة الى سماء الوهم السابعة »

فقلت ـ وقد برمت بهذه المحاضرة : « اتريد أن تقص حكاية أم ان تتفلسف ؟ يجب ان اعرف لأعد نفسى ، وأتهيأ لمـا سأتلقى »

فقال : « طيب .. قلت لك ان هذه الفتاة ـ « احسان » توهمت ـ او انا خفت أن تكون قد توهمت ـ انى أحبها . ولست اكرهها او استثقلها فانها ظريفة جدا ، ولكنها ليست الفتـاة التى اختـارها للزواج ولا سيما بعـد ان عرفت « حورية » .. »

قلت : « انى أهنئك »

قال بلهفة : « أو تعرفها .؟ أليست بالله مدهشة ؟ الا ترى انها ... » قلت ـ وأنا أرفع يدى لأصد هذا السيل المنحدر: « مهلا .. مهلا .. انى لى أن أعرفها ؟ . انما راقنى الاسم وجرى فى خاطرى انك .. لعلك .. »

فلوح بيده وقال : « انك ثقيل .. تخجل المرء وتلقى على حماسته ماءا باردا .. ما هذه الطباع السخيفة ؟. لماذا تحب أن تصدم الناس على هذا النحو القاسى ؟ »

قلت : « آسف يا صاحبى .. لم أصدمك .. ولو كنت أعلم أن كلمتى سيسوء وقعهـا فى نفسك الى هـذا الحد لما نطقت بها . والآن ارجع الى حوريتك ، فان اسمها يبشر بحكاية ... »

قال : « أو هذا كل ما يعنيك .. الحكاية ليس الا .. شيء بارد »

قلت : « يا اخي كن منصفا . . هل تريد أن أحب حوريتك هذه من فرط حبك لها واعجابك بها »

قال : « اعوذ بالله » قلت : « انتهينا اذن . . هات الحكاية »

فاقتنع وقال : « الحكاية أن حورية أهدتني ببغاء صغيرا وقطة أيضا .. لا ادري لماذا ؟. ولكن لعلها ظنت أن بيتي حديقة حيوانات .. على كل حال هـذا ما حـدث .. ثم سافرت ، وخطر لي اني أستطيع في فترة غيابها أن أتخلص من « احسان » حتى اذا عادت حورية ، وجدت الميدان خاليا .. فقد كنت أخاف أن ترى احسان معي مرة فنظن بي الظنون وان كان لا محل لها في الحقيقة ، فما بيني وبين احسان ما يدعو الى أي ظن .. ولكن النساء لا يفهمن الصداقة ، ولا سيما بين الرجل والمرأة . واحسان كما تعلم رقيقة الاحساس جدا دقيقة الحساب والتقدير لكل حركة وكانت أمي تحبها وتخالفني في رأيي فيها .. ولكني كنت أقول لها — أعني لأمي — اني أنا الذي سيتزوج لا أنت ، فاسمحي لي بحرية الاختيار . وأختصر فأقول اني اتفقت معها — أعني أحسان في هـذه المرة لا أمي — أن تمر بي في البيت لنذهب معها الى القناطر الخيرية ونقضي يومنا هناك ومعنا أمي . وسافرت في ذلك اليوم على الرغم من احتجاج أمي واعتراضها ، ولكني حلفت لها أن العمل الذي يدعوني الى السفر لا يحتمل الارجاء. وطمأنتها فأوصيتها باحسان والحت عليهـا — وان لم تكن بهـا حاجة الى ذلك — أن تكرمهـا وتسـرها وأن تتقي أن « تكسر خاطرها » كما يقولون .. فهل تدري ماذا صنعت أمي ؟ »

فهممت أن أقول شيئا ، ولكنه منعني باشارة ومضى يقول : « ان الذي أريد أن أقوله هو أن أمي — على ما يظهر —

سئمت عشرة القطط والببغاوات ــ ولها العذر ــ والحقيقة انى لا ادرى كيف يمكن أن يوفق بين قط قوى. صحيح وثاب وببغاء صغير لا يستطيع ان يتكلم ولا يحسن الا ان يخرج اصواتا كتلك التى قد يخرجها كروان اصابه زكام ــ لا تقاطع اعوذ بالله من هذه المقاطعة ، انما اعنى اذا امكن أن يصاب الكروان .. أو اى عصفور بالزكام .. هل استرحت الآن ؟ فقد كان القط لا ينفك يثب الى القفص محاولا أن يقتنص الببغاء ، وكان الببغاء لا ينفك يصرخ أو يصيح أو يستنجد أولا ادرى ماذا اسمى هذه الأصوات المزعجة التى يخرجها ويستغيث بها حين يهم به القط . ومن العبث أن تحاول أن تفهمه انه فى قفص وأن القط يستطيع أن يقتل نفسه وثبا ، فان له ــ اعنى للببغاء ــ من القفص وقاية كافية . وكيف السبيل الى الراحة فى بيت فيه ببغاء لا يكف عن الصراخ ، وقط لا يكف عن الوثب حول قفصه ؟ والقط حيوان خبيث متلصص لا سبيل الى منعه ان يدخل على الببغاء فى حيث يكون من البيت الا اذا وقفت له بالعصى على باب الغرفة طول النهار . ومع ذلك يستطيع أن يغافلك ويتسلل من بين رجليك وأنت غير دار بما فعل ، وان كنت واقفا كالعصى او المقشة التى فى يدك . وقد حيرنا جدا هذا القط ــ أعنى انه حير امى فقد تركت الأمر كله لعنايتها فاذا وضعنا الببغاء على حافة الشرفة لينعم بالشمس والهواء قليلا ، نط القط اليه وراح يحاول ان يدخل من بين القضبان فينأى الببغاء المذعور الى آخر القفص ، ويرى القط أن يده لا تصل اليه فيطوى كفه ويثنى يده ويروح يحكها بالقضبان ــ عامدا بلا شك ــ فينقلب القفص ويصيب الببغاء الرعب ، فيضرب بجناحيه كالمجنون ويطلق اعلى صيحاته المنكرة ، والقط يحوم حوله ويلوب ويموء مواء له دلالته التى لا تخفى ، ويظل الجيران من نوافذهم وشرفاتهم على القيامة التى قامت فى شرفتنا ،

ونسمع نحن الضجة فنذهب نعدو كمركبة الاسعاف . اعني أننا لا نبالي ما يكون في طريقنا من الاشياء ، فكم من طاولة انقلبت بما عليها ، ومن زهرية انكسرت ، ومن أطباق سجاير انتثرت في الغرفة ، الخ الخ ... واذا علقنا الببغاء - أعني قفصه يا سيدي - راح القط يتوثب حوله غير عابيء بما يسقط عليه حين يهبط الى الارض من وثباته ، ويقلبه أو يكسره .. ولا أطيل عليك فان في وسعك أن تتصور حياتنا مع القط والببغاء .. وأكبر الظن ان حورية ارادت أن تتخلص من هذا البلاء فأهدته الينا وقيدته علينا في سجل حسناتها . المهم على كل حال ان امي في غيابي احسنت الاعتذار الى « احسان » واهدت اليها القط والببغاء جميعا .. ويخيل الى الآن أنها رمت عصفورين بحجر .. لاحظ اني لا اقول أصابتهما ، وانما اقول أنها رمتهما فما اصاب الحجر سوى راسي .. ذلك اني بعد أن عدت وعرفت ما كان واضطربت له وقلقت ، انتهيت الى ان الخيرة في الواقع وانه ليس في الامكان خير مما كان . ومضت أيام وأنا مغتبط بالراحة الجديدة التي شعرنا بها بعد أن تخلصنا من هذين البلاءين - القط والببغاء - واذا بحورية داخلة كالمدفع الرشاش . ولست أستطيع أن أقص عليك ما سمعت منها ، فقد دار راسي حتى صرت لا أعي ما أسمع ، ولكن امي لخصت لي الموضوع بعد خروجها ، فقالت انها عرفت - لا أدري كيف - أني أهديت هديتها ، القط والببغاء ، الى « احسان » فهي لهذا واجدة ناقمة ولا تريد ان ترى وجه هذا الخائن بعد اليوم .. وهكذا طارت من يدي حورية .. ما اظن بأمي الا أنها تعمدت ان تطيرها بهذه الحيلة .. فقد كنت اريد أن اتخلص من احسان فما تخلصت الا من حورية . ولا أدري ماذا اصنع فانها لا تقبل أن تسمع مني كلاما أو تصغي الى شرح وتفسير ، فهل عندك رأى تشير به ؟ »

فقلت : « قل لي أولا . . هل تعلم كيف استطاعت احسان ان توفق بين القط والببغاء ؟ »

فقال : « الحق أقول لك انى اعتقد أن المرأة أحزم من الرجل ، فان احسان لم تحاول قط أن تحل العقدة . . . وانما قطعتها بحد السيف . ذلك أنها لم تكد تصل الى بيتها وترى كيف ينظر القط نظراته المريبة الى الببغاء حتى خيرت نفسها فاختارت الببغاء . ثم تناولت القط ودسته في غرارة ودفعت به الي الخادم ، وامرته ان يذهب الى الطرف الآخر من المدينة ويفرغ الغرارة هناك . ويظهر أن حورية عرفت هذا أيضا فانى ارى نقمتها تزيد وتشتد ولا أراها تفتر فما العمل ؟ »

فقلت : « أوه . . لا شيء . . لا تقطع نفسك حسرات . . دع الأيام تعمل عملها »

فصاح بى : « ولكن عمل الايام زفت وقطران . . فكيف اتركها تعمل عملها ؟ »

فهززت رأسي ومططت بوزى . وماذا اقول لمن يتكلم هذا الكلام . . ثم خطر لى سؤال فقلت : « هل أمك رجل ؟ » فصاح : « ايه ؟ »

قلت : « لماذا لم تحل العقدة كما حلتها احسان وهى امرأة مثلها ؟ »

فمضى عنى ساخطا ولم يجب . .

السيارة المسروقة

ــ ان من الواضح أن تربيتك ناقصة.. ناقصة جدا ..
هـذا انا ــ بجلال قدري ــ اكلمك منـذ عشر سـاعات وخمس وعشرين دقيقة وثلاث واربعين ثانية وانت لاتجيبين

فقالت زوجتى اخيرا وألقت ما بيـدها ــ وكان شيئا تطرزه أولا أدرى ماذا تعنى به : « انى لست اليوم كفؤا لك ولهزلك ، فاسكت من فضلك »

قلت : « هذا بديل جميل من الاعتذار... الا تستحيين يا امراة ؟ ثم ما هذا الذى تتشاغلين به عن التقاط الحكمة من فم سيدك وتاج راسك وبعلك ؟ »

قالت : « أرجوك .. أرجوك يا مسلم .. ثم ان الطباخة خرجت »

فانتفضت واقفا وصحت : « نهارها اسود .. لماذا ؟ »

قالت : « استحسن زوجها أن يكون ذهابها اليه يوم الجمعة بدلا من يوم الأحد »

فانحططت على الكرسى وقلت : « ووافقت انت بالطبع ؟ »

قالت : « وماذا أصنع غير ذلك ؟. وقد أصرا على يوم الجمعة ، فلو رفضت لفارقتنا ولعدنا الى حيرتنا القديمة »

قلت : «يا امراة.. هل تعرفين انى أتضور فى هذا البيت ؟ يوم الجمعة الذى أستريح فيـه وأظل احلم طول الليل بما أطمع أن انعم به من الآكال ... أوه ان هذا لا يطاق !! هذه.. هذه.. هذه.. نعم هذه بلشفية صريحة ، ومع ذلك تزعم الحكومة انها تكافحها .. ما عيب يوم الأحد بالله .. لماذا يجب ــ حتما ــ أن تكون بطالتها يوم الجمعة لا غيره ؟ »

فضجرت زوجتى وبدات تنفخ ، وقالت : « الا تسكت ؟ مالك انت .. ان لك أن تأكل والسلام .. ثم انها مسلمة وكذلك زوجها فيوم الجمعة أوفق لهما »

قلت : « وهل منالضرورى ان تتزوج هذه الدميمة وذلك المغفل ؟ »

قالت ، وهى تتمطى : « انى أشعر بفتور وخدر فاعفنى بالله من وجع الدماغ .. وحسبى هم اطعامك فى هذا اليوم الثقيل »

فقلت ، وقد خطرت لى فكرة : « اسمعى أقل لك »

قالت وهى تضحك : « وهل ترانى اليوم هنا الا لاسمع ؟ تفضل يا سيدى ونور عينى .. وماذا أيضا ؟ »

قلت : « وتاج راسك .. اسمعى .. ان الفتور يغشى جسمك كما تقولين ، وانا راسي يكاد يطير مذ عرفت أن هذه الطباخة الكريهة الوجه قد تخلت عنا فى يومنا هذا،فما قولك فى أكلة ناشفة خفيفة نصنعها هنا أو نشتريها ؟ »

فاعتدلت وقالت وقد لمعت عينها : « لماذا ؟ »

قلت : « وندعو فلانة وفلانا ــ من أقربائنا ــ ونذهب جميعا ومعنا الاولاد الى القناطر الخيرية ، فنقضى يومنا هناك بين الخضرة والماء »

قالت : « ولكنه سينقصك الوجه الحسن »

قلت : « يا خبيثة..هل تظنين انى تزوجتك وانا مغمض العينين ؟ »

□

وحشرتهم جميعا فى السيارة ، ودسست السلة التى فيها الطعام والشراب فى مكان مجعول لما يحمل المسافر من زاد ومتاع ، وكانت الساعة الثانية مساء حين انطلقنا فبلغنا

القناطر بعد نصف ساعة ، فحملنا أشياءنا وتركنا السيارة في حراسة رجل من الواقفين هنــاك المستعدين لهــذه المهمات . وتخيرنا مكانا يشرف على الماء وتظلله أشــجار باسقة ، وبسطنا السجادة وألقينا عليها صفحات من جرائد الصباح والمساء ، ووضــعنا عليهــا الصحون والصواني ثم شرعنا نأكل ، ولم يكن الطعام فيما يبدو لعيوننا الفارغة كثيرا .. فجعل بعضنا يخطف من بعض فكانت ألذ أكلة وأهنأها ، ثم طرحنا الوسائد على السجادة واستلقينا فنام من نام . ولما آذنت الشمس بالغروب ركبنا زورقا في ترعة أشمون ، ثم بدا لنا أن نعود لندرك الشيخ رفعت وهو يتلو القرآن الكريم ــ فما نحب أن يفوتنا ذلك منه قط ــ فرجعنا الى حيث السيارة .. فاذا بها قد اختفت ..

بهت حين رأيت مكانها خاليا فوقفت كالصنم ، واقبلت على زوجتي تسألني وتهز ذراعي ، فقلت لها وقد افقت قليلا : « نعم .. هزي ذراعي بقوة .. ان بي حاجة الى الشعور بأني لست أحلم وان هذا ليس كابوسا .. »

قالت : « اين ذهبت ؟ » قلت : « فتشيني .. لقد كانت هنا ... تركتها في هذا المكان ... وليس في الارض ما يدل على انها انشقت وابتلعتها ... ولست اعرف أن لها أجنحة ، فلا يمكن أن تكون طارت . ان الطريقة الصحيحة للاهتداء الى الحقيقة هي أن يبــدأ المرء بنفي كل الاحتمــالات غير المعقولة ، كما ترينني أصنع الآن »

فصاحت « لولو » قريبتنا : « لقد سرقها اللصوص »

فصحت بها : « تالله ما أذكاك يا فتاتي .. ولكن كيف لم نفطن الى هذا بمثل هذه السرعة المدهشة ؟ »

فقالت لولو : «وماذا تكون مزية العبقريةوفضيلتها اذن ؟»

قلت : « صدقت يا فتاتي النابغة .. »

فقالت زوجتي مقاطعة : « هل هذا وقت الكلام الفارغ ؟ الا تفكرون فى طريقة لاستردادها ؟ »

فقلت : « آه .. هنا ايضا عبقرية ولكن من ضرب آخر ـ ضرب عملى لا يرتاح الى النظريات .. عبقرية يمكن أن ننعتها بأنها نابليونية ، ولست أرى أنه ينقصنا ـ لنوقن أن السيارة عائدة باذن الله ـ الا ضرب ثالث »

فقالت زوجتي متهكمة : « نعم يا سيدى .. تفضل »

فقلت بحدة : « لا تتهكمى يا امرأة .. نعم ينقصنا الضرب الشرلكمزى »

فصاحوا جميعا : « ايه ؟ »

فقلت : « أعوذ بالله .. مالكم تصرخون هكذا ؟. نعم الشرلكمزى يا جهلة .. لو كنتم تعنون بتثقيف عقولكم الفارغة قـدر عنايتكم بخلافى والمكابرة معى وانكار نعمتى عليكم وجحود فضلى .. لعرفتم أن الشرلكمزى نسـبة الى شرلوك هولمز »

فقالت زوجتي وهى تضع كفها على فمى : « طيب اسكت بقى »

فلثمت راحتها وسكت .. كما امرت

□

وقال سليم ـ أخو لولو : « ان من الواضح أن علينا أن نتفرق »

قلت : « بديهى .. حتى لا يرانا اللصوص فيخافوا .. نعم يحسن أن لا نضع شيئا يزعج اللصوص ويفسد عليهم متعهم »

فصاح بى : « يا أخى الا تكف عن هذا العبث ؟ »

قلت : « كففت باذن الله .. تفضل .. ولكن اسمح لى ان اسأل هل تعنى أن ترسل الاطفال وحدهم فى ناحية وامهم وأختك فى ناحية ؛ وتذهب أنت الى حيث ألقت ، واعود انا الى البيت وقد تخلصت منكم جميعا ؟ ان كان هذا مرادك فانا من الآن موافق والسلام عليكم ، ولا تكلفوا أنفسكم ارسال عناوينكم »

وبعد ان هدأت الضجة التى اثارتها هذه الكلمات البريئة ؛ قال سليم : « تأخذ أنت الاطفال وهاتين أيضا ــ وأشار الى زوجتى وأخته ــ وتركب تاكسى وتمر أولا بمركز البوليس ثم لا تتكل عليه بل تذهب تبحث .. وأنا أذهب ابحث من ناحية اخرى »

فقالت زوجتى لسليم : « أكون انا معك فانى لا أكاد أطيق مزاحه فى مثل هذه الساعات .. انه لا يفرق بين جد وهزل كل وقت عنده صالح للضحك ... شىء فظيع .. »

قلت : « أشكرك .. على انى أستطيع أن أهذب لك خطتك العقيمة .. »

فقالت زوجتى : « بالله اسكت .. ارجوك .. أر .. جوووووو »

قلت : « حالا . حالا . كل شىء فى وقته يا امرأة .. وهل هذا وقت رجاء ؟ . انه وقت العمل .. الا تفهمين ؟ اسمع يا هذا . تذهب أنت الى البوليس وتعفينى من هذه المهمة التى لا ارتاح اليها ولا اعتقد أن فيها فائدة ، وتأخذ معك هذه الزوجة الجاحدة الناكرة للجميل ، وافعل بعد ذلك ما تستطيع .. والى الملتقى فى البيت العامر ان شاء الله »

فقالت زوجتى : « أيوه .. انا أقول لكم ماذا ينوى أن يصنع .. سيذهب الى البيت مباشرة ولا يكلف نفسه أى عناء فى البحث عن سيارته .. وسترون »

فقلت : « وهبيني فعلت ذلك ، فهل كنت تحسبين أنى شرطى أو بوليس سرى ؟ وماذا اصنع اذا كانت السيارة قد سرقت .؟ هل اجرى فى الشوارع كالمجنون . . . أو اقعد على هذا الرصيف وأبكى ؟. ثم ان معى طفلين صغيرين يريدان أن يناما . . أليس كذلك ياميدو ــ اختصار عبد الحميد من فضلك ــ ومعى ايضا هذه الفتاة الطويلة البلهاء التى لا راس فى عقلها ــ أعنى لا عقل فى رأسها »

فمضيا عنى ولم يجيبا بشيء ، وضحكت لولو فقلت : « هذا أحسن . . ما فائدة الحزن واللطم والنـــدب ؟ . ثم انهما مغفلان ــ ولا مؤاخذة ــ فتعالى نسأل اولا الحارس الذى كان هنا متى رآها آخر مرة ، فقد خطرت لى فكرة ارجو من ورائها خيرا كثيرا وراحة تامة »

وبحثنا عن الحارس حتى وجدناه نائما تحت شجرة ، فأيقظناه فقال لنا انها كانت هنا منذ وقت قصير جدا ، وقد ركبها رجل وفتاة وان الرجل قال حين سأله عن الباقين ــ منا ــ انه ذاهب ليشترى لهم شيئا ثم يعود . فسألته عن الاتجاه الذى ذهبا فيه فأشار الى القنـاطر وطريق القاهرة

فطلبت أن يجيئنا بتاكسى بسرعة ، وقلت للولو : « اذا حقق الله ظنى فسيخيب أمل السارق وفتاته ، لأن السيارة ليس فيهـا من البنزين ما يكفى الا عشرة كيلومترات . وانا ارجو أن يخطيء الخطأ المعقول اى أن يتوهم أن من يجيء الى القناطر بسيارة لا بد أن يكون قد تزود من البنزين للذهاب والاياب ، فيمضى معولا على ذلك ومتخوفا من أن يقف فى القناطر لأخذ بنزين آخر فتقف به السـيارة فى الطريق حيث لا بنزين . ولا يخطر له فى أول الامر أن هذه هى العلة فيدور يبحث عن سبب آخر لوقوفها ، ويضيع فى هذا وقتا ثمينا ثم ييأس فيتركها فى الطريق وينجو بجلده»

وكنت مقتنعا بهذا الرأى حتى لقد اشتريت « صفيحة » بنزين من القناطر وضعناها معنا فى التاكسى ، وقلت للولو : « لهذا فائدة اخرى هى ان يعتقد سائق التاكسى حين نتركه ونركب سيارتنا انا ما استأجرنا سيارته الا لهذا السبب ؛ فلا يروح يعجب او يسأل عن شىء ولا يبدو له شىء غريب فى عملنا »

وقد شاء الله أن يحقق ظنى ، فما كدنا نقطع خمسة كيلومترات من الطريق بعد أن تركنا القناطر واخذنا فى سكة قليوب حتى وجدنا السيارة. واوجز فأقول انا ركبناها فرحين ، وعدنا الى القناطر عسى أن نجد بقيتنا . فلما لم نجد احدا تركنا لهم خبرا عند الحارس النائم ، ثم حملناه معنا الى مركز البوليس لنسرهم ونعفيهم من البحث ؛ فعلمنا أن أصحابنا ابلغوهم خبر السرقة ، وأن بعض الشرطة خرج للبحث وأن الخبر طير بالتليفون الى قليوب والقاهرة ولجهات اخرى ايضا لضبط السارق فى الطريق . فشكرنا لهم هذه الهمة التى لم تكن متوقعة ثم قلت لهم : « ان المهم الآن هو البحث عن زوجتى »

فصاح الرجل : «ايه ؟» قلت : «انها مع قريبى وقريبها» قال : « انتهينا »

قلت : « كلا لم ننته . . وما أدراك أن هذه ليست سرقة اخرى أفظع واشنع ؟ »

فضحك الرجل . . وجرتنى لولو وهى تحتج

▭

تركنا السيارة أمام رصيف البيت وجلسنا فى الشرفة ناكل لحم الغائبين ــ اعنى ننتظرهما ــ واذا بهما عائدان بعد نحو ساعتين فى سيارة ــ هى اخت سيارتنا بلا فرق ــ

فانحدرت الى الطريق بسرعة فوجدتهما يتأملان هــذه المعجزة ، فقلت : « تمام .. لقد سرقت هــذه السيارة يا صاحبى ، ولم أكن أعرف أن قريبى ونسيبى لص ... ولكن ماذا اصنع ؟.. لقد أخفوك عنى قبل أن اتزوج ، فصار واجبى أن اخفيك عن اعين الناس بعد أن تزوجت»

فهم بكلام فمنعته ودعوته أن ينظر الى الســيارتين ، فاقتنع وقال : « ما العمل الآن ؟ » قلت : « تســتعد للسجن .. لقد كان هذا واجبا من زمان طويل فى الحقيقة ، ولكن ما أكثر من يستحقون السجن وهم طلقاء ... والآن اذهب بالسيارة الى الجراج ـ السيارة المسروقة ثم أبلغ البوليس بالتليفون وقل له انك عنـدى تنتظر حضوره للقبض عليك »

وعرفنا منهما بعد ذلك أنهما ركبا القطار ثم الترام الى العتبة الخضراء واذا بهما يريان السيارة عند رصيف ادارة البريد ، فذهبا اليها يعدوان فألفياها خالية فركبا ، وانطلقا بها من غير أن يعنيا بالنظر الى رقمها وانحدرا بها فى شارع فاروق .. وتركا صاحبها المسكين يجرى وراءهما ويصيح ويصرخ ويستنجد ، وهما يضحكان مسرورين .. بارك الله فيهما من لصين جريئين

وقلت لهما : « لا عليكما .. ستكون العتبة الخضراء كلها عندنا بعد دقائق ببوليسها وصبيانها وباعتهـا .. الى آخره .. الى آخره .. وسيشهد الجيران وجيران الجيران أمتع رواية رأوها أو يمكن أن يروها فى حياتهم أو حياة هذا الشارع الرزين »

وجاء الشرطة والمسروق المسكين فى تاكسى . وكان لا بد أن يروا السيارة وأن ينزلوا ، وكنت واقفا الى جانبها انتظر هذا التشريف ، فقال الرجل : « هذه هى » ومسح العرق المتصبب ودنا منها وهم بأن يفتح بابها فتصديت له وقلت : « عفوا .. هل من خدمة ؟ »

فصاح : « خدمة ؟. يا حرامى يا مجرم .. اين اخفيت شريكتك ؟. المراة التى كانت معك ؟ »

فنظرت الى الشرطي وانا أبتسم ـ فقد كان الموقف يتطلب الهدوء والكياسة ، وقلت : « هذه سيارتى يا حضرة الشاويش ، فما خطب هذا الرجل ؟ »

فصاح الرجل : « سيارتك يا حرامى يا صفيق الوجه ؟ »

ـ انى أسمح لك بأن تتأملها

فدار حولها ونظر اليها من الامام ثم من الخلف ، ثم وقف امامي وهو يرعد وينتفض ويقول : « أما مجرم .. بسرعة غيرت أرقامها ؟. ولكن هل تظن ان هذا ينفعك ؟.. »

فبدا على وجه الشرطى التردد حينما سمع أن الارقام مختلفة ، واذا كان المفجوع فى سيارته قد طار عقله ، فان الشرطي لا يوجد ما يدعو الى ذهاب عقله أيضا ، وقلت انا : « المسألة بسيطة . ومن المعقول أن أغير لوح رقم المرور بسرعة ، ولكن ليس من المعقول ان أغير رقم الشاسيه المحفور على محرك السيارة ، فتفضل واذكر هذا الرقم بعد مراجعة رخصتك اذا شئت ، ثم ارفع غطاء المحرك وانظر »

ففعل فاذا الرقم مختلف جدا ، وشعر بالهزيمة وادرك انه تجنى على جدا فبدأ يعتذر .. فسألته : « ولكن كيف يمكن أن تخطىء الى هذا الحد ..؟ هل يعقل الا تعرف سيارتك ؟ »

قال : « انه لا فرق بينهما على الاطلاق لا من الداخل ولا من الخارج »

فقال الشرطي وهو يريد أن يفض النزاع الذى تهور فيه صاحبنا : « ما دامت السيارتان متشابهتين الى هذا الحد فانه معذور »

قلت : « وهل كنت تعذرني لو كنت اخطأت مثل خطئه وذهبت أسب الناس وأتهمهم بالسرقة ؟ »

قال : « طبعا . . صحيح انه تهور فى الاتهام قبل التثبت ، ولكنه معذور فى خطئه فى معرفة السيارة »

قلت : « واذا دللتك على سيارتك هل تشكرنى . . ام تستأنف اتهامك لى بالسرقة ؟ »

فعاد الى الاعتذار ، وأكد لى أنه يكون شاكرا جدا . فلم يبق داع للاطالة فرويت له وللشرطى القصة من أولها الى آخرها كما وقعت ، وقلت لهما اننا ابلغنا مركز البوليس انا وجدنا السيارة الاخرى التى ظنها قريبى سيارتنا ، وان البوليس لا شك سيحضر بعد قليل ليتسلمها . وبهذا انتهى الحادث . .

وقلت لزوجتى وانا أدخل بعد الفراغ من ذلك : « هل تعترفين الآن أن الذى كان يضحك ويمزح كان هو الحكيم السديد الرأى الصحيح النظر ؟ »

فآثرت المكابرة وقالت انها مصادفة واتفاق ، فشهدت لولو بأني احسنت التقدير . . فعادت زوجتى تلوم لأنى كتمت رأيي الحقيقي وتركتها تذهب وتلف وتدور مع سليم، وأنى آثرت لها التعب ولنفسي الراحة

فقلت : « ليكون هذا لك درسا . . الم أقل لك ان تربيتك ناقصة ؟ » فهاجوا بى وثاروا ، ولكن هذا لا يعنى القراء لا قليلا ولا كثيرا

میمی

ـ انت أجمل فتاة على ظهر هذه الكرة الارضية .. وانا اسعد الرجال

وضم اليه زوجته التي لم يمض على بنائه بها أكثر من اثنتي عشرة ساعة ، فالمبالغة تغتفر له ولا ينبغي أن تسوء أحدا من بنات حواء ـ كل ما فيك صاغه فنان .. فخداك من المرمر الناصع ـ وأمر يده عليهما برفق ـ وردفاك حساسان ولجلدهما الرقيق اختلاج حين تمشين كاختلاج الماء صافحه النسيم الواني .. وثدياك راسخان لينان واحلى فيما تحس اليد من الكمثرى

وحنا عليها بسرعة وطبع على غلالة شفتيها قبلة حارة.. فلمعت عينا « ميمى » واتقد وجهها وصار صدرها يعلو ويهبط ، ثم قالت : « لكأننا تزوجنا منذ سنين يا سليم .. أليس كذلك ؟ » ولصقت به ، ثم قالت : «تحبنى يا سليم ؟ »

فرفع راسه وابتسم ابتسامة عريضة ، وقال : « أحبك اني مجنون بك .. لا ادرى ماذا أصنع اذا لم تكونى معىَ »

فلمعت عيناها وقالت : « من يدرى .. ربما شغلت عنى والهيت عن ذكرى... »

فلم يدعها تتم الكلام واهوى على فمها بقبلة ..

□

وكانت « ميمى » مشهورة بقوة جذبها السريع حتى أيام كانت بنتا صغيرة . وكان غيرها من البنات أجمل منها شعرا او احلى عينا أو أفتن ابتسامة .. أما ميمى فلم يكن

لها ما يمكن أن تقول انه سر جمالها ، وانما كان المرء يشعر أنها
فى جملتها أجمل وأسحر . وكانت قوة الجذب هذه تلفت
النظر اليها وهى تلميذة فى المدرسة ، وكان كل من يراها
يشتهى أن ينظر اليها مرة أخرى . ولكنها هى كانت تعتقد
أنها ليست على شيء من الجمال ، وان كان اعتقادها هذا
لم يغرها بالتكلف . وكان الذى وجه خواطرها فى حداثتها
الى هذه الناحية انها سمعت أمها تقول لصاحبة لها مرة :
« ان ثديى ميمى كبيران جدا » وكان هذا صحيحا ، فلما
اقبل الليل وصارت فى غرفتها وحدها نظرت الى صدرها
فى المرآة وسألت نفسها : « أترى هذا من الدمامة .؟ أهما
أكبر مما يجب ان يكونا ..؟ » ، وآلت على نفسها فى تلك
الليلة أن تهتدى الى الحقيقة

ولو أن ميمى لم تسمع أمها تقول ذلك لكان الأرجح ان
لا تجرى خواطرها هذا المجرى ، ولظلت على الأقل سنة
أخرى لا تطلب أن تهتدى ولا تشتاق الى هذا الضرب
من المعرفة . وكان أول ما عنيت به هو أن تتأمل صدور
البنات من أترابها في المدرسة ، فألفتهن جميعا الا القليلات
ذوات أثداء صغيرة نابتة ولم تكن للقليلات أثداء كبيرة ،
ولكنها كانت تقبل المقارنة بثدييها

أما المقياس الحقيقى فاتيح لها فى يوم خرجت فيه
مع لفيف من أهلها بينهم سليم ــ ابن عمها ــ الى القناطر
الخيرية فاتفق أن جلست على دكة هناك تحت شجرة على
ربوة ، فجاء سليم وجلس الى جانبها .. فقالت لنفسها
حين أبصرته يقعد معها ان هذه فرصتها ، وشرعت تحاول
أن تعرف منه ما تريد . أليس سليم شابا ؟ فهو خليق
أن يقول لها ما رأى الرجال فى حجم ثدييها .. ولكن سليم
حيي فهى محتاجة الى اللف والدوران أو الى أن تكون معه
كالطلمبة الماصة لتحمله على القول الذى تنشده ، فسألته :
« هل تخرج كثيرا مع البنات يا سليم ؟ »

فقال : « ايه ؟. احيانا »

فسألته : « كم بنتا خرجت معها الى النزهة ؟ »

فأطرق وقال وعينه على الارض : « أوه .. وهل انا اعرف .؟ ربما كان عددهن سبعة أو أكثر .. »

فسألته : « كلهن من حيكم ؟ »

فقال بايجاز : « تقريبا »

فسألته : «ألا تعرف أحدا من غير الحى الذى أنت فيه ؟»

فقال : « اعرف.. ولكن ما هى الحكاية ؟ ». قالت : « هل هن جميلات .. اعنى هل قوامهن جميل ؟ » فقال : « بعضهن » فقالت : « هل قوامهن أعدل من قوامى ؟ »

وكان صوتها وهى تلقى عليه هذا السؤال يخيل الى السامع انها ترجو منه أن يكون جوابه « لا » ولكنه خرج من « لا » ومن « نعم » بقوله : « لا أعلم »

ففعلت شيئا لم تكن تظن انها تستطيع ان تقدم عليه ، ولكنها اقنعت نفسها بان الامر كله أمر بحث عن حقيقة واختبار لمبلغ الصدق فى قول امها ان ثدييها كبيران ، فقالت له وهى تمنحه فمها : « قبلنى »

وصارت شفتاه على شفتيها ـ لا يدرى كيف ، ولكن هذا هو الذى كان ـ واحس حرارة القبلة تسرى فى بدنه وتوقد النار فيه وتخزه ايضا . وانتهى الفصل الأول ورجعت ميمى الى بيتها فى تلك الليلة وهى تشعر أن شيئا حصل تحت الشجرة اللفاء ، وأن بابا يفضى الى أسرار عويصة قد فتح لها .. فتحته قبلة واحدة ليس الا .. وصارت تشعر بعد ذلك انها مخلوق جديد وأن حياتها من طراز آخر غير الذى غبر .. واصبحت تناجى نفسها وتسألها عما وراء الباب .. وتقول لنفسها ان القبلات حلوة وانها تحسها معسولة ، ولكن أهذا كل شىء ؟.. لا .. فانها تحس حنينا الى ما لا تعرف وما لا يسعها أن تدرك

واخيرا عرفت بعد أن بلغت العشرين وانتقلت الى بيت سليم وارتمت بين ذراعيه

▭

وقالت ميمى وهى بين ذراعى سليم صباح ليلة الجلوة : « لقد ارتفعت الشمس .. صرنا قرب الظهر .. الا نقوم ؟ »

ففتح سليم عينيه ببطء وقال : « من حسن الحظ أن الزواج ليس كله شهر عسل .. والا متنا »

فزوت ميمى ما بين عينيهـــا وقالت : « لست افهم ما تقول .. اليس واجبا أن تظل حياة الزوجين شهر عسل كلها .. اى أن يكون الشهر سرمدا ؟ »

فتنهد وقال : « انه ليس كذلك من حسن الحظ .. أوه مستحيل .. اين من يحتمل ذلك .. اوهو .. مستحيل »

ثم عاد فقال : « لا يخب أملك .. كل شىء يفتر على الايام .. هذا عزاؤنا جميعا »

فلم تستـــطع ميمى أن تفهم لمـــاذا لا يبقى شهر العسل دائما .. ولم تدر ماذا يمنع أن يدوم ولكنها لم تقل شيئا ولم يحاول هو أن يفهمها ، وشغل كلاهما بحياتهما الجديدة فى البيت وخارجه فنسيت أن شهر العسل سيزول كما هددها سليم أو انذرها . وكانت بعد أن تفرغ من تغيير ثيابها كل ليلة على أثر عودتهما من السينما أو الزياضة أو نحو ذلك تجلس فى حجـــره وتنحى ما امامه من الاوراق وتوسعه تقبيلا ، ثم تسأله : « الا تزال تحبنى ؟ » فيقول : « بالطبع .. يا له من سؤال »

وكان النهار أثقل الاوقات على نفسها لأن زوجها يغيب فيه عنها ، ولم يكن لها فى البيت عمل فان الخدم كثيرون ..

الطباخة وبنتان للكنس والمسح وما الى ذلك . وكان بيتها شقة فى عمارة كبيرة عالية فحدث يوما انهـا كانت تنتظرد ليخرج بها الى السينما ، واذا بالباب يدق جرسه فظنته سليما جاء قبل موعده . . فأسرعت الى الباب تفتحه فألفت سيدة تقول لها : « معذرة اذا كنت ازعجتك . . ولكن خادمتى اضاعت المنفضة ، فهل اجد عندكم واحدة ؟ »

فقالت ميمى : « لا أدرى . .. تفضلى حتى اسأل الخادمة »

فدخلت السيدة وهى تقول ان شقتهـا هى التى فوق هذه ، فاستغربت ميمى فى سرها لماذا لم تذهب الى أحد من السكان الآخرين المقابلين لها فى دورها ، وحدثت نفسها أن لعلها فعلت فلم تجد عندهم ما تطلب . وقالت السـيدة ــ كأنما ترد على هذا الذى تحدثت به ميمى الى نفسها : « لقد رايتك منذ لحظة تخرجين الى الشرفة فى قميصك . . ولايسعنى الا أن اقول ان قدك مدهش »

فسألتها ميمى : « رايتنى . . كيف رايتنى وانت فوق ؟ »

قالت : « رأيتك من الشرفة الاخرى . . من حسن الحظ أن زوجى ليس فى البيت ولم يرك ، والا لـكان من المحقق أن يقذف نفسه عليك »

فدهشت ميمى ولم تقل شيئا وراحت السيدة تسألها عن اسمها كله ، فقد عرفت بعضه من البواب ، وتخبرها باسمها هى وتقول ان من الواجب ان تلتقيا كثيرا وان تتزاورا ، ثم سألتها : « هل زوجك يسافر ويغيب عنك أياما ؟ »

فقالت ميمى : « يسافر ؟ . . يسافر أين ؟ . . كلا بالطبع »

فقالت الاخرى : « ان زوجى لا يزال على سفر . . وقد كنت فى أول الأمر اقعد فى البيت ولا أبرحه يوما بعـد يوم انتظارا لعودته . وقد ضاق صدرى ولم أعد أطيق ذلك ، فلن تجدينى فى البيت حين يتركنى ويرحل »

فأحست ميمى انها تحتاج الى حماية من هذه الجارة ، والفت نفسها تلف الروب دي شامبر على صدرها وان كانت مع ذلك لم تستطع أن تمنع نفسها أن تسأل جارتها : « أين تذهبين حين يغيب عنك زوجك ؟ »

فقالت الجارة بابتسامة وضيئة : « أوه فى اى مكان .. الاصدقاء يتكفلون بذلك »

فصاحت ميمى : « الأصدقاء .. أى أصدقاء ؟ »

فقالت الجارة : « بالطبع يا طفلتى العزيزة .. واى باس فى ذلك ؟ »

فقالت ميمى : « ولكن زوجك ؟. الا يسوءه هذا ؟. الا يغضبه أن تخرجى مع رجال ؟ »

قالت الجارة : « يغضبه ..؟ وماذا تظنينه يصنع وهو مسافر ..؟ يقضى الوقت فى المسجد ؟. كلا انى أعرف ما يصنع ... »

وصارت هذه الجارة معلمة لميمى . وكرت الايام فأصبحت لا تبالى تقصير سليم معها ، ولا تحفل ما تراه من فتوره حين يعود الى البيت متعبا . وتكررت زيارات الأتراب لها فجأة بفضل الجارة الحاذقة التى ادركت ان ميمى غريرة لا عهد لها بهذا الضرب من حياة المرح ، وما لنا لا نقول حياة الاستخفاف .. فبدأت معها بتبادل الزيارة ثم صارت تزورها ومعها أتراب لها ، فتحتاج أن ترد الزيارات وتخرج اليهن ، وارتقت من ذلك الى دعوتها الى التنزه والخلوات ، ولم تكن الجارة تعدم سيارة تستعيرها بسائقها من بعض من تعرف من الرجال ، وكانت تحرص فى هذه الرحلات الاولى على أن تكون قاصرة عليهن ، ثم صار يتفق أن يلتقين فى هذه الرحلات الى الاهرام أو الماظة أو غيرهما ببعض « اقارب » الجارة ، فيحصل التعريف الذى تقضى به الآداب ، وهكذا الى أن الفت ميمى ان تكون مع الرجال كما الفت ان تخرج

مع النساء . وكان الزوج غافلا عن ذلك فى أول الامر . وكانت ميمى اذا آن أن يناما تدنو منه وتلصق به فيتثاءب ويعرض عنها . وكان ربما زجرها عن ذلك وقال لها بعنف انه محتاج الى النوم ، وكانت هى فى أول الأمر يشق عليها اعراضه وتحس بحزه فى نفسها فتبكى ، فلما توثقت الصلات بينها وبين الجارة لم تعد تبالى هذا الفتور . وظن سليم فى بادىء الامر ان زوجته « هداها الله » حتى كانت ليلة فأقبل عليها يريد أن يقبلها وفتح لها ذراعيه ليضمها ، فلم تحرك ساكنا ولم يبد عليها انها راغبة فى ذلك فعجب وسألها : « مالك ؟ » . قالت : « لا شىء .. ما لك انت ؟ » . قال : « ألا تقبلينني ؟.. »

فمطت شفتيها وهزت كتفيها وقالت : « انك تحتاج الى النوم وأنا لا اريد أن أقبل أحدا »

فلم يفهم وألح عليها بالكلام ، فبدرت منها كلمة فهم منها انها لا تباليه ، فنظر اليها محدقا فى وجهها وقال : « مع من تخرجين ؟ من هؤلاء الاصدقاء أو الصديقات اللواتى ظهرن فجأة ؟ »

فقالت : « لم تعد الحقيقة .. أصدقاء وصديقات .. ومن الجنسين .. ولكنك تكون نذلا اذا أسأت الظن .. ولا أكون أنا بنت أبى وأمى اذا احتملت منك ذلك »

فذهل — وان كان عنفها قد طمأنه — وقال : « ولكن .. ماذا جرى لك ؟ »

قالت : « لم يجر لى شىء .. الى الآن .. لا أزال ميمى التى تعرفها وان كنت قد تعلمت أشياء كثيرة ، ولكنه سيجرى لى على التحقيق أشياء كثيرة اذا بقيت تهملنى .. ثق أنى تعلمت ولكنى لم اعمل بما تعلمت الى الآن .. سأعمل حتما .. فهل ترضيك هذه الصراحة ؟ »

فقال : « لقد كنت طول عمرك جريئة »

وانحط على كرسى ، فقالت : « جريئة أو غير جريئة .. سيان .. المهم انك دفعتنى الى التعلم . . واخشى أن تدفعنى الى ما هو شر .. وقد انذرتك .. وانت ورايك .. ولكن لا تلمنى حينئذ »

فاطرق يفكر وطال تفكيره واحس انه واقف على حرف هاوية ، وكان قلبه يخفق بشدة وعنف غير انه كان يبدو للمتأمل هادئا ساكنا ، وجرى بخاطره أن ميمى على حق ، وراجع نفسه وهو قاعد وراسه مثنى على صدره وعينه على الأرض ، وتذكر ان ميمى كانت أبدا جريئة مجازفة .. الم تدعه الى تقبيلها مرة ؟ ولكن كيف عرفت هؤلاء الناس . . من الرجال والنساء على السواء .. ولم يرتب قط فى صدقها ، ولم يخالجه ادنى شك فى ان الامر اقتصر على اللقاء والتنزه ، وأنه لم يقع بينها وبين احد من هؤلاء الرجال ما لا يحمد فان ميمى صريحة لا تهاب شيئا ولا أحدا . ولكن كيف عرفتهم .. وقال لنفسه انها عرفتهم لأنه اهمل ان يكون معها ولأنه كان يتركها وحدها ويقضى سهراته مع الاخوان وفى ظنه انها ستقتنع برفقة الخدم . هذا هو كيف عرفت هؤلاء .. والمهم الآن هو انقاذها من الهاوية وانقاذ نفسه معها . ونهض ومشى اليها وهو يمد يده ويتناول كفها : « سامحينى يا ميمى .. لن اهملك بعد اليوم »

فرفعت راسها وحدقت فى عينيه ، وقالت : « صحيح . . ؟ لا تتركنى وحدى ؟ »

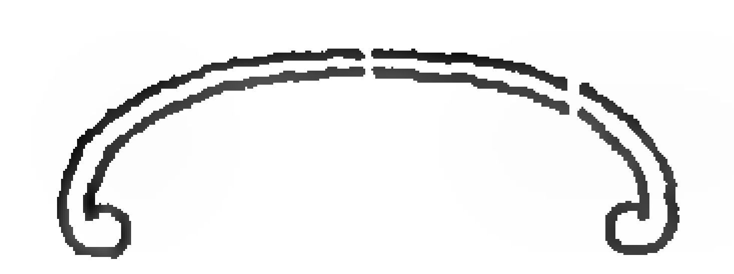
فقال وهو يميل عليها ويدنى فمه من فمها : « كيف يمكن ..؟ وانت هل رجعت الى ..؟ هل ارجو ان اراك كما كنا »

وفى هذه اللحظة دق التليفون فمدت يدها وتناولت السماعة ، وقالت : « اللو .. نعم ..؟ زكيه .. معك من..؟ حمدى ..؟ آسفة .. يا زكية مشغولة .. نعم .. معى

صديق قديم عاد الى .. تريدين ان تعرفى من يكون .. اسمعى انه أحب الناس الى .. لا استطيع ان اعرف احدا ما بقى هذا الصديق لى .. من هو ..؟ سليم .. الاتعرفين سليم .. لم تسمعى به قط .. معذرة .. زوجى يا بلهاء .. معذرة .. لا .. لا أمل فى لقاء أحد بعد اليوم . كلا .. لا تتعبى نفسك لا أنت ولا غيرك .. أعنى هذا .. تماما .. مع السلامة »

والتفتت الى زوجها وقالت : « فهمت انى لا أريد منها ولا من غيرها زيارة فغضبت »

فلم يقل سليم شيئا بل انحنى عليها وحملها بين يديه ومضي بها الى الأريكة الواسعة وهى متعلقة به تضحك له وتقبله راضية



ليلى

٧ في الطريق

وقفت ليلى أمام المرآة تصلح شعرها ، وتضع فيه المشابك وتسويه براحتها وأناملها ؛ وتثنى شعرات منه هنا وترد اخرى الى مكانها هناك ، ثم تناولت المثبنة وفتحتها ونظرت فيها هنيهة ثم قلبتها على المنضدة ونفضتها بأطراف اصابعها ، ثم نحتها وراحت تتأمل ما أفرغته منها . ثم هزت رأسها آسفة ، وشرعت ترد الأشياء الى الحقيبة : المشط والمنديل وثلاثة طوابع بريد بثلاثة ملاليم .. لا شيء غير ذلك .. حتى ولا أجرة الترام الى عملها الجديد الذى فازت به . وما غناء ثلاثة من طوابع البريد بثلاثة ملاليم .. لو كانت عشرة لباعتها وركبت ، أن المسافة طويلة من حدائق القبة الى شارع سليمان باشا .. ولو كانت عشرين لباعتها ايضا ــ لتركب ــ فان المشى يسهل أن يحتمل اذا كان معها قرش تاكل به . كلا .. لا بد أن تصبر على الجوع ، وأن تتجلد وتحتمل المشى مع الطوى ، وما بقى سوى يومين ثم تقبض أجرها عن هذا الاسبوع الاول . ولكن هل تستطيع أن تحتمل الجوع وتعب العمل والمشى يومين كاملين ..؟ وابت أن تفكر فى هذا وأن تدعه يثبط همتها وقالت لنفسها ان حسبها انها وفقت الى عمل ، وانه وسعها أن تظل حية الى اليوم . وهبطت على كرسي وهى تقول « آخ » لا من التعب بل مما ستلقى فى يوميها هذين . ومر أمام عينيها كشريط السينما ما كان من أمرها الى الساعة ، فقد تخرجت فى المدرسة السنية ولكنها لم تشتغل بالتدريس .. فقد أحبت فتى رشيقا اغراها بنفسه ووعدها بالزواج وكرر الوعد واكده واقسم على الحفاظ ــ وما أسهل بذل هذه

الوعود على الشبان – حتى فاز منها بما يبغى . وألحت عليه تطلب منه الوفاء . وتوسلت اليـــه ، وبكت وقبلت يديه ورجليه . ولم يكن هو ينوي الوفاء ، ولا كان هذا فى وسعه .. فما كان سوى عامل فى مصنع ، وان كان مظهره يوهم انه من الوجهاء .. ولم يكن يدرك ما تورط وورطها فيـــه – وماذا عسى أن يخشى مثله ؟ – ولكنها هى كانت لا يخفى عليها ما هى صائرة اليه من الفضيحة لا محالة اذا لم تعجل بالتدبير المنقذ . وليتها اطلعت أمها على ما كان من أمرها مع هذا الفتى .. ولكن ما جدوى « ليت » بعد ثلاث سنوات قضت فيها الحسرة على الأم المسكينة ولم ترقق قلب أبيها الغليظ ؟ وكانت ليلى تخشى ضعف أمها وقوة أبيها فلم تجد أمامها الا فتاها تلقى بنفسها عند قدميه باكية متوسلة ، وهو يرى تضعضعها هــذا فيتجبر ويتغطرس ويتحكم ويدعوها أن تفر معه . وتتردد وتحجم عن هــذه الخطوة الحاسمة التى لا رجعة بعدها الى أهلهـــا ، فان اباها عنيف عنيد يؤثر أن يقتلها على ان يقبلها فى بيته . بل هو لا محالة قاتلها اذا عرف الحقيقة ، واذا أطاعت فتاها وفرت . وسيعرف الحقيقــة اذا بقيت فالفرار انجى . وقد لا يكون أشرف ، ولكنه سبيل الحياة اذا شاءت أن تبقى حية . وقد كان .. فرت مع هذا الفتى وحملت معها فى حقيبة الثياب حليها وشيئا من حلى أمها ايضا ، وقد نفعها ذلك فما أقامت مع الفتى الا أياما فى فندق زرى ، وكان ظنها انها ذاهبــة الى بيته ، وأنها ستكون زوجة له ، فيكون مما يرجى ، أن تغتفر زلتها على جسامتها .. فاذا بالفتى لا يريد الا ان يقضى اياما فى متعة خالصة ثم يلقى بها عظمة بعد أن أكلها لحمها . فكادت تجن .. واغتنمت فرصة خروجه من الفندق يوما ، فحملت حقيبتها وادت حساب الفندق ، وانطلقت على غير هدى . وصارت المسألة « أين تذهب » .. بيت أبيهـــا لاسبيل

اليه ، واترابها فى المدرسة .. كلا .. هذا أيضا ممتنع . وتذكرت وهى واقفة فى محطة الترام صديقة لهـا كانت من جيرانها فى زمن الحـداثة ، وهى الآن « حكيمة » فى قصر العينى . ولكن الحـكيمات فى هذا المستشفى يبتن فيـه ولا يخرجن الا أياما معلومة ، فما العمـل ؟.. ولم يطـل ترددها فذهبت الى العيادة الخارجية ، وسألت تلميذة لقيتها فيها عن صاحبتها ، واتفق أنها كانت تعرفها فدلتها عليها وانبأتها أنها تعمل فى قسـم الرمد ، وكتبت اليهـا ورقة بعثت بها مع خادم أو « تمورجى » كمـا يسمى فدعتهـا الحكيمة اليها .. وكانت هذه المقابلة بداية الفرج

اقامت ليلى بعد ذلك مع أهل الحكيمة ، وكانتا تلتقيان يوم الأحد ويوم الخميس والجمعة الى المساء ـ كل أسبوعين مرة ـ وكانت ليلى ربما اشتاقت الى صديقتها فى أيام عملها بالمستشفى فتذهب فى الظهر أو فى الساعة التاسعة لتراها وهى خارجة من المستشفى فى طريقها الى «الهوستل» حيث الطعام والنوم،فتحدثها دقائق ثم تكر راجعة الى البيت. وكانت المسألة التى تشغل البنتين هى كيف ينبغى أن تحيا ليلى . فقد كان مفهوما ان اقامتها فى بيت صاحبتها ليست سرمدا ، وان كانت تنفق على نفسها من ثمن ما تبيعه من الحلى .. فان لهذا آخرا على كل حال . وكان مما فكرا فيه أن تعمل فى عيادة أحد الأطباء ، ولكن ليلى أشفقت أن تلتقى عنـده بأحد من أهلها أو معارفها . وخطر لهما أن تعمل فى مصلحة التليفون ولكن السعى أخفق ولم تجـد وساطات الاطباء الذين استعانت بهم « الحكيمة » فقد تحول التليفون وانقلب « أوتوماتيكيا » فما الحاجة الى بنات جديدات ؟.. وخشيت أن تشتغل بالتعليم فى مدرسة أهلية فيهتدى اليها أبوها ، وكان خوفها من ذلك عظيما . وأخيرا اقترح عليها طبيب أن تتدرب على الآلة الـكاتبة ، ففعلت وأتقنت ذلك حتى

صارت تكتب ثمانين كلمة فى الدقيقة ، واعانها الطبيب، والحقها بمكتب يتلقى طلبات « النسخ » ولكن العمل كان قليلا لأن أكثر ما كان يطلب كان باللغتين الفرنسية والانجليزية . وكانت تعرف الانجليزية فقد تعلمتها فى المدرسة ، فلم يسعها الا ان تتدرب على كتابتها على الالة ، وسهل عليها بعد ذلك ان تستطيع « نسخ » الفرنسية ايضا ، فان الحروف واحدة وان كان جهلها بهذه اللغة قد جعلها أبطأ . غير أن السرعة يمكن أن تجيء مع الوقت

واستغنت على الايام عن المقام فى بيت صديقتها ، وان كانت صلتها بها قد بقيت وثيقة فان فضلها عليها كبير ، وجميل صنعها معها ليس مما يجحد ولا مما ينسى ، حتى ولو نزعت نفسها الى الكفران . وافلس المكتب فانتقلت الى سواه بعد عناء ، على الرغم من انها اصبحت معروفة فى هذا المحيط .. محيط الكاتبات الناسخات . وكانت حليها قد ذهبت جميعا فى نفقات الحياة وأجور التعليم وسد النقص

وها هي ذى الآن قد التحقت بمكتب جديد ، بعد ان ظلت عاطلة شهرين أكلت البطالة فى خلالهما القليل الذى كان مدخرا

ونهضت عن الكرسي وهي تتنهد ، وتناولت حقيبتها لتخرج الى عملها . وكانت الساعة السابعة .. فأمامها ساعة كاملة للمشي الى المكتب ، وقد عرفت بالتجربة ان الساعة فوق الكفاية ، ولكن فسحة الوقت خير من ضيقه . ومضت الى بابها لتفتحه وتخرج ، واذا بقرع خفيف عليه .. فقالت : « تفضل » ، فدخل رجل بدين وسلم وقال : «أراك خارجة» فقالت : « نعم .. » وهمت أن تقول انها مضطرة الى التبكير ، ولكنها كبحت نفسها فما يعنيه هذا ، فقال : «أجرة الغرفة عن ثلاثة أسابيع .. الا يمكن أن تعطينى منها شيئا على الحساب ؟ »

فقالت : « آسفة .. واني لشاكرة لك هذا الصبر كله .. والعطف ايضا .. وبعد يومين .. اقبض أجرة الاسبوع فاعطيك شيئا »

قال : « انك تحرجينني مع زوجتي .. هذا الصبر الطويل ليس له عندها الا معنى واحد . وقد أنذرتنى اليوم .. وعبثا احاول أن أفهمها الحقيقة .. لا تريد أن تفهم .. كل ماتعرفه ان الاجرة تأخرت ثلاثة اسابيع . وكل ما تريده هو أن تؤدى اليها هذه الاجرة أو تخرجى اليوم »

قالت : « الا يمكن أن تمهلونى يومين اثنين .. أين اذهب اذا خرجت اليوم .. ليس لى مكان آخر » . فهز الرجل كتفيه الغليظتين ، ولم يقل شيئا

فدنت منه ليلى ، وقالت : « أرجو أن تمهلنى .. كن شفيعى عندها »

فقال : « لو كان الامر الى لما تقاضيتك شيئا قط .. ولكنك تعرفين زوجتى .. ولست اعرف لى حيلة »

قالت : « ولكن كيف أستطيع أن أعطيك اليوم شيئا ؟ .. لا أعرف أحدا أقترض منه .. ولا يمكن أخذ شيء من المكتب .. انى جديدة فيه »

فقال : « اسمعى .. لو لم تكونى بلهاء لأمكن تذليل كل هذه المصاعب ، ولكن لم أر فتاة مثلك »

فقالت : « ماذا تعنى ؟ . كيف يمكن تذليل الصعاب ؟ »

فأراح كفيه الغليظتين على كتفيها ، وقال : « أنا أستطيع أن أدبر الامر اذا طاوعتنى » . فهزت رأسها غير فاهمة ، فقال : « تعالى »

وطوقها بذراعيه ، وأدنى شفتيه المطوطتين من فمها .. فحاولت أن تنأى عنه ، ولكنه جذبها اليه بقوة ، فحولت

وجهها عنه ، فذهبت شفتاه تعبثان فى نحرها وكتفهـــا ، وكانت يده اليسرى تتحسس صدرها وتقف وتتكور على ثديها الراسخ ، فكاد عقلها يطير وتفلتت من عناقه بعنف ، وارتدت راجعة الى آخر الغرفة ، وهى تلهث وتنهج ، كأنما كانت تجرى وصدرها يعلو ويهبط كالموج من جهد المقاومة، ومن الغضب أيضا ، وكان هو ينظر اليها نظر النقمة والغيظ فصـــاحت به وهى ترتجف : « اذا لم تخـــرج من هنـــا فسأصرخ »

فزام وهز رأسه ، وقال وهو يدور ليخرج : « طيب .. سنرى .. اما أن تدفعى اليوم ، والا فاخرجى انت »

فلم تقل شيئا .. وماذا عسى أن تقول ..

□

ـ بونجور

ـ بونجور .. خذى هذا العنوان واذهبى اليه حالا .. عمل مستعجل .. الرمنجتون ذهب بها أحمد .. العمل يستغرق يومين .. ثلاثة .. المهم الاتقـــان .. يجب أن يكون راضيا .. فاهمة ؟

فذهبت ولم تسأله أهو عربى أم افرنجى .. وماذا يهم .. كله عمل .. آلى . ودخلت الشقة فاذا هى بيت لا مكتب ، وقالت للخادم النوبى : « انى من محل .. »

فاكتفى بأن يشير الى غرفة المكتب ، فجلست على كرسى من الجلد كبير وثير .. وأدارت عينها فى الغرفة ، فلم تر فيها أثاثا غير كرسى آخر كالذى جلست عليه . وحول الجدران رفوف كثيرة عليها كتب لا تحصى ، وفى الركن مكتب أنيق ؛ وفى وسط الغرفة منضـــدة صغيرة مما يستعمـــل للشاى وضعت عليها « الرمنجتون » فتوقعت أن ترى رجلا عالى

السن ، وأدهشها أن يدخل عليها شاب يناهز الثلاثين ، وأن تعلم أن هذا هو الذى جاءت لتعمل له ولتنسخ ما يشاء

وقال برقة لا تكلف فيها : « قهوة ؟ »

قالت : « أشكرك .. فيما بعد .. بماذا تأمر ؟.. »

فقال وهو يناولها ملفا ضخما : « فى كم يوم يمكن الفراغ من نسخ هذا كله ؟ »

فقلبت الأوراق ونظرت فى الخط والسطور ، ثم رفعت رأسها اليه وقالت : « صعب أن أقول كم يستغرق .. ولكن .. بعد ورقة أو اثنتين أستطيع أن أحكم حكما قريبا من الصحة »

فهز رأسه وهو يبتسم وتحول عنها ، ثم خطر له خاطر ، فدار على عقبيه بسرعة وسألها : « يهودية ؟ »

فابتسمت وقالت وهى تهز كتفيها : « لأنى شقراء ؟ »

فقال : « اذن أنت .. »

فأراحته من عناء التخمين ، وقالت : « مسلمة »

فقال وهو يهز رأسه بعنف : « أنا أيضا مسلم »

فلم تقل شيئا واجتزأت بالابتسام وشرعت ترفع غطاء الرمنجتون ، وتركها هو وذهب فجلس على الكرسى الآخر ، ثم رآها تتلفت فى الغرفة ، فنهض وهز رأسه مستفسرا ، فنهضت هى أيضا وقالت : « لا تتعب نفسك .. أظن أن فى وسعى أن أجد كرسيا من الخيزران فى .. »

فقال وهو يعدو الى الباب : « بالطبع .. اما انى لمغفل .. »

وعاد بالكرسى وهو يقول ضاحكا : « لكأنما كنت أظن أنك ستجلسين القرفصاء وتكتبين على حجرك .. لم تشهدى ذلك العهد بالطبع .. لا يمكن فانك ما زلت صغيرة .. أوه جدا .. ولكن أين تعلمت الكتابة على هذه

الآلة ؟.. معذرة اذا كنت أتطفل ، ولكن المصريات يندر .. جدا أن تعنى واحدة منهن بذاك »

قالت : « اضطررت أن أتعلم .. صنعة فى اليـد أمان من الفقر .. » وابتسمت ، فقال : « أهو ذاك ؟.. معذرة .. كان سؤالى فضولا منى لا يغتفر .. سامحينى »

فسرها منه هذا الادب ، وقالت : « ليس هذا سرا .. الست أعمل ؟ لست هاوية بالطبع »

فقال : « اذا كنت تعملين فى مكتب .. فانك ولا شك تعرفين لغة أجنبية أو اثنتين .. ف .. ف .. »

قالت : « أعرف الانجـليزية .. واصـبحت أعرف من الفرنسية ما يكفى للنسخ .. وأتكلمها أيضا ، فاننا جميعا نتكلمها هناك .. »

فقال : « أوه لست اريد أن افتح لك محضر تحقيق .. معذرة مرة أخرى .. » ورفع يده الى جبينـه العـريض ومسحه ، وقال : « هذه اول مرة ارى فيها مسلمة تشتغل بالنسخ ــ وضحك ــ أرانا نتقدم .. أليس كذلك ؟ »

وكانت قد شرعت تدق على الآلة الـكاتبـة ، فاكتفت بالابتسام ..

وتركها هو بعد ذلك وخرج بعد أن قال لها ان فى وسعها أن تطلب ما تشاء من الخادم .. اى شيء .. قهـوة .. شاى .. أكل .. كل ما فى البيت تحت أمرها ..

ولكنها لم تطلب من الخادم شيئا ، ولم تقلق راحته بل اقبلت على الآلة تدق وتدق بسرعة ثمانين كلمة فى الدقيقة ، وتخرج له من كل ورقة نسختين . واستغرقها العمـل ، ووجدت فيه متعة لا عهد لها بها فى مثله .. فقد كانت هذه رواية تنقلها ــ استعدادا لطبعها ولا شك ــ وكانت الصور التى يرسمها المؤلف ــ هذا الشاب الوسيم المؤدب ــ تتجسد

لها ، والمواقف تتمثل وهي تدق وتدق بسرعة ثمانين كلمة في الدقيقة . وكانت نفسها تجيش بمثل العواطف الموصوفة والاحساسات المصورة ، فتضحك تارة ، وتخنقها العبرة تارة أخرى ، وتعبس حينا .. وترى نفسها تنطق الألفاظ التي تدقها بقوة وعنف كأنها تمثل ما تقرأ أو كأنما كان الامر حقيقة لا خيالا . وكانت ورقة بعد ورقة تلقى في السلة على المكتب ، وهي ذاهلة عن كل شيء . فما قامت مرة ، ولا تمطت لتريح اعضاءها المكدودة وتحرك اصابعها التي كادت تتشنج وتتصلب أو تتخشب ، ولا شعرت بظمأ أو جوع ، ولا كان لها بال الا الى هذه الرواية التي تقرأها وهي تنسخها . ولقد كانت مشغوفة أيام المدرسة بالروايات والقصص ، ولكنها منذ ثلاث سنوات لم تقرأ رواية ، وان كانت قد ذهبت مرارا الى السينما — وهي مطمئنة — فان اباها من الد أعداء السينما . ومع ذلك كانت تتحرز وتلقى على وجهها نقابا خفيفا شفافا ، حتى حين تمشي في الطريق كانت تنتقب زاعمة أن هذا وقاية من الشمس والتراب

ولم تشعر بعبد الحميد — فقد كان هذا اسمه — حين دخل عليها ، ووقف ينظر اليها أكثر من دقيقتين . فلما رآها لا تنظر اليه ولا ترفع عينها اليه عن الورق ولا تتمهل أو تتباطأ في العمل ، قال : « معذرة .. ان هذا انتحار .. »

فرفعت راسها حينئذ ، وقالت : « أوه .. لم أرك لما جئت .. كلا .. اني على العكس مسرورة . واعترف لك بأن هذه أول مرة سرني فيها عملي .. رواية مدهشة »

فقال وهو ينحي كفيها عن الرمنجتون : « قد تكون الرواية مدهشة .. ولكن أبعث على الدهشة أن لا يحتاج الانسان الى الراحة .. تفضلي وقومي ، أريحي جسمك قليلا على هذا الكرسي » وتناول ذراعها لينهضها ، فقالت وهي تقوم : « صدقت .. أستريح دقيقة »

فقال وهو يمضى بها الى الكرسى : « تستريحين تماما »
فقالت ، وهى تجلس على الكرسى : « ولـكننى اريد أن اعرف بقية الرواية »
فقال : « اضطجعى اولا .. انا اقص عليك البقيـة .. الخصها لك فى الفاظ قليلة »
قالت : « كلا .. هذا يفسدها .. انى أريد أن أقرأها »
قال : « اذن اقرأها لك » . قالت : « تتعب .. دعنى اقرأها انا وأنا أستريح » . قال : « بعد الغداء .. الوقت طويل »
فقالت : « الغداء ..؟ كلا .. اسمح لى أن أخرج ثم أعود فى الساعة الثالثة كالعادة »
قال : « ولم لا تبقين وتتغدين هنا ..؟ قولى انك باقية »
قالت : « لا أستطيع .. سأعود بالطبع بعد الظهر »

وكانت تعلم انها مفلسة ، وانها لا تستطيع أن تذهب الى بيتها ــ حيث ذلك الرجل الخشن الفظيع ــ وهبه ليس فيه ، فما تصنع هناك ؟ واذا لم تذهب الى البيت فاين يمكن ان تذهب ..؟ هذا شاب يعرض عليها أن يطعمها وأن يريحها من الأنياب التى تمزق أحشاءها ويعفيها من الشعور الثقيل بالقرص والعض فى جوفها ، فلم لا تطيع وتقعـد وتأكل ؟ وأحست وهى تدبر هـذا فى نفسها بالدموع تترقرق فى مآقيها وتخنقها ، وخشيت أن تخونها قواها وأن تغلبهـا العبرة أمامه .. فقرضت أسنانها وشدت أعصابها ونهضت متحاملة على نفسها . فقـال : « الى أين ؟.. لا يمكن أن تخرجى .. عيب .. لا يليق »
فقالت بضعف ، فما بقيت فى بدنها ذرة من القوة بعد أن انفقت البقية فى المكابرة : « أرجو .. » ولم تزد ، فقد هوت كالجثة أو كأنها ثوب فارغ

ولم يكن هذا مما يجرى لصاحبنا فى حساب ، فلم ينتبه الى ما حدث الا بعد أن ارتمت على الارض .. بعضها على الكرسى : وسائرها على السجادة . فانحنى عليها وحملها واراحها على الكرسى ، وخرج يعدو ويصيح : « محمـد . محمد . تعال حالا .. » ولم ينتظـره بل ذهب الى غرفة النوم ، وجاء منها بزجاجة من الكولونيا رش منهـا على وجهها الأصفر ، وأقبل على راحتيها يدلكهما وخلع حذاءيها وجوربيها ، وراح يدلك قدميها أيضا بالكولونيا ومحمـد واقف ينظر وينتظر الأوامر التى لا تصدر ولا يصنع شيئا

بعد لأى ما،بدا الدم يعود الى وجهها المتقع .. فتنفس عبـد الحميـد الصعداء واطمأن . وفتحت ليلى عينيهـا وأجالتهما فيما حولها بفتور ، ثم تنهدت ووسعها أن تتكلم . فقالت : « لم يحدث لى هذا أبدا »

فقال بشيء من العنف : « كان جميلا جدا أن يحدث لك هذا فى الشارع .. هه ». فابتسمت ، وقالت : « أشكرك .. انى آسفة .. هذه أول مرة » . فقال : « محمد . خذ هذه الزجاجة وضعها فى مكانها .. والآن لا يسعنى ــ وقد خرج محمد ــ الا أن أوجه اليك سؤالا ثقيلا .. باردا فى الحقيقة.. ولكنه واجب .. متى أكلت آخر مرة ؟ احذرى أن تكذبى »

قالت : « لا داعى للكذب .. أمس ، الظهر »

قال : « لقد ظننت ذلك .. ». قالت : « كيف عرفت ؟ »

قال : « أوه المسألة فى غاية البساطة .. ليست مسألة فراسة ، ولكنها مسألة ضم قرينة الى قرينة .. مررت بمكتب .. واستدرجت صاحبه الى الكلام عنك ، فقال انك معروفة فى مكاتب النسخ وان كنت من الجديدات عنده .. هذا يومك الخامس فى مكتبه .. وأثنى عليك وطمأننى كأنما كنت أحتاج الى ذلك .. فلما أغمى عليك الآن أدركت أن

هذا من التعب والجوع .. ألا ترين انى أصلح للقيام بدور سنكلر أو شرلوك هلمز ؟ ! »

فضحكت وقالت : « لماذا سألت عنى ؟ »

فقال : « قبل أن أجيبك ، يجب أن تنتظرى قليلا حتى أعود اليك »

وخرج وتركها ، فراحت تفكر مسرورة فى هذا الشاب . نعم هو شاب ، وان كان الأرجح أنه جاوز الثلاثين . وفى رقته ودعته ، وفى مروءة نفسه وحسن أدبه ، وفى براعته فى فن الرواية ، براعة جعلتها تعمل كما لم تعمل قط فى حياتها .. وفى وسامته ، وفى هذا السحر الذى ينطلق من عينيه فينفذ الى القلب ، ثم تنهدت آسفة .. سحر أو لا سحر .. سيان .. لا شك أنه يعجب بها .. هذا واضح .. ولكن ما قيمة هذا الاعجاب .. وهبه أحبها فما أملها معه الا امل الخليلة .. وهيهات أن ترضى ذلك . ولو كانت ترضى ذلك ، لما فاتها ما فاتها من الفرص .. ولا كانت خسرتِ ما خسرت من الاعمال ، فما كان أكثر أصحاب الاعمال الذين طمعوا فى هذا النوع من العلاقة .. فلما خيبت أملهم ألقوا بها فى الشارع ، وحسبها زلة واحدة فى حياتها أورثتها هذا الشقاء الطويل ..

واختصرت زفرة طويلة ، فقد دخل فى هذه اللحظة محمد وأمامه سيده .. الخادم يحمل سلطانية متوسطة فيها مرق ، والسيد يحمل فوطة ، وقال السيد : « اشربى هذا حالا .. »

وطرح الفوطة على حجرها ففعلت كما أمر ، وقال : « هذا يكفى الآن .. بعد طول الطوى ، يحسن التخفيف حتى لا تتعب المعدة »

فقالت وهى تضحك : « لا تبالغ .. انه يوم واحد ليس الا »

قال : « هذه الشجاعة التى تظهرينها تسرنى وتعليك فى عينى .. ولكنها تكلف على كل حال »

فقالت مستغربة : « تكلف .. أبدا »

قال : « ان الذى أعنيه هو ان الشجاعة لا تكون الا تكلفا شيء يحمل الانسان نفسه عليه .. هذا ما أعنى »

فسألت : « ولكنى لست فاهمة »

قال : « نؤجل الدرس الى وقت آخر . ونتحدث الآن عنك .. قولى ما اسمك » . فقالت : « فريدة » . قال : « ينطقونها فى المكتب « فريدا » .. ما علينا .. هل هذا اسمك الحقيقى ؟ »

قالت : « ولماذا تظن أنه ليس اسمى ؟ » . قال : «ما رأيت من شجاعتك يحملنى على هذا الظن .. انت بنت ناس »

قالت : « كل الناس أبناء ناس » . وضحكت ، فقال : « أعنى انك تشعرين بكرامة تحرصين عليها »

قالت : « هل أنا الوحيـدة التى تفعل ذلك ؟ » قال : « اعترف أنى انهزمت .. عنـدى كلام كثير .. حجج .. ولكنى أوثر الهزيمة .. فما قولك أن تكون صريحين ؟ »

فضحكت .. ولم يكن ضحكها سرورا ، بل عن شعور بالضعف وبالاضطراب الذى أدركت أنه سيدفعهـا الى الاعتراف بكل ما فى نفسها ، فقال : « قولى لى اسمك الحقيقى .. سأحتفظ به »

فأقرت من حيث تريد المكابرة ، وقالت : « ولكن ما الفرق بين اسم واسم ..؟ كله اسم »

قال : « ها .. لقد صح ظنى .. والآن اسمك الحقيقى . لقد وعدتك بكتمانه فهل تستطيعين أن تثقى بى ؟ » قالت : « نعم .. ليلى » قال : « ليلى .. ليلى ماذا » . قالت : « الا تعفينى ؟.. لست أشعر أنى أستطيع المقـاومة اذا الححت .. ارحم ضعفى »

فقال : « بالطبع .. معذرة .. لست اريد أن استغل ضعفك .. كلا .. اغفر لى فضولى ، فانه ليس عن خسة بل عن .. »

وأمسك مترددا ، فقالت وقد رات تردده وأدركت بغريزتها الذكية دلالته : « عن .. »

فقال : « عن حب .. لقد قلتها ... قولى عنى مغفل . ما شئت قوليه .. ولكنها الحقيقة .. وقد استرحت الآن .. رفعت عن صدرى حجرا .. تنفست .. عجيب ولا شك .. هى دقائق رايتك فيها .. ولكنى مع ذلك احببتك كانى عرفتك من قبل أن أخلق .. كانما كنا معا فى عالم آخر قبل هذا .ولست أقول هذا لأخدعك .. وانى لأعلم ان الرجل يستطيع أن يخدع المراة بتمثيل دور العاشق ، ولكنى لا احاول خداعك ولا مطمع لى فيك .. كل ما اعرفه انى احببتك .. قد يكون هذا شعورا وقتيا يفتر بعد قليل او كثير .. واى حب لا يفتر .. على كل حال لا أعلم .. اعرف فقط انى انا فوجئت بهذا الحب الذى غمر نفسى وشاع فيها علوا وسفلا .. انظرى اليه كيف شئت .. باستخفاف اذا أردت أو لم يسعك غير ذلك . ولكن صدقينى .. فانى أحتمل الاستخفاف ، ولكنى لا أستطيع ان احتمل التكذيب . كلا ..!! »

فقالت ببساطة : « انى أصدقك » فصاح بها : « أيه ؟ » قالت : « الم تسمع ؟.. هات اذنك وانا أصيح لك فيها .. صدقتك .. هل سمعت الآن ؟.. لا لا لا لا ... صدقتك معناها صدقتك فقط .. »

وعرف اسمها الكامل واسم أبيها أيضا ، فقال وهو يمسح جبينه : « انتظرى .. أليس والدك هو الذى كان ضابطا فى الجيش .. »

قالت : « هو بعينه » قال : « وكان يسكن فى شارع .. »

قالت : « هذا هو البيت الذى ولدت فيه »

قال : « غريب .. لقد كان أبي رحمه الله صديقا جدا لأبيك . ولداهما يلتقيان الآن .. غريب . وماذا حملك على ترك أبيك ؟ اسمع انه كان عنيفا » . قالت : « لأنى خفت عنفه .. اسمع .. سأقص عليك حكايتى كلها .. لم يبق بد من هذا . وأحببنى بعد ذلك اذا استطعت .. ربما كان هذا لازما لتشفى »

وقصت عليك الحكاية ولم تكتم شيئا ولم تحاول ان تهون من زلتها . وكان يصغى وهو مطرق ، فلما فرغت قالت : « والآن يمكنك أن تبلغنى أنك دفنت حبك المباغت لهذه الفتاة الطائشة »

قال : « لقد كنت ضحية ... ولست أدفن حبي لك ، ولكنى انوى أن اعلنه .. فهل تسمحين لى بأن أطمع أن تحبينى يوما من الأيام ؟ »

فاطرقت تفكر ، فقد أساءت فهم ما قصد اليه وتوهمت أنه يريدها كما أراد غيره ، خليلة .. وشعر هو من اطراقها أن معنى كلامه ليس واضحا،وشجعه ترددها الظاهر فقال : « انى لا ارى أنى أستطيع أن أعيش بعد اليوم بدونك ، فهل تقبليننى زوجا على أن تكون الطـــاعة منى والحب .. ولا يكون منك الا ما يسمح بالامل فى أن تحبينى يوما ما ؟ »

فصاحت : « ولكنى أحبك من الآن ! »

وندعهما .. فما بقى لنا مقام معهما

حواء والحية

رفعت « جليلة » رأسها قليلا عن الرمل ، ونظرت الى صدرها الذى يعلو ويهبط ، وجلدها الذى دبغته الشمس ثم مدت بصرها الى ساقيها والى اصابعها التى عنيت بصبغ اظافرها ، وابتسمت ابتسامة الرضى والاغتباط ، ثم ردت رأسها وظلت راقدة وتركت الشمس تفعل فعلها فى جسمها العارى من الصدر الى الردفين ومن الساقين الى الأخمصين وكانت هذه عادتها مذ جاءت الى الاسكندرية .. تخرج كل صباح من الفندق فى ثياب الاستحمام ، فتلقى بنفسها فى الماء فى هذه الناحية المنعزلة وتسبح ما شاءت قريبا من الساحل ، ثم تخرج الى الرمل وترخى ما على صدرها من ثوب البحر وتعريه للشمس ، لتفيد ما قيل لها ان أشعة الشمس تفيده من الصحة والعافية . ولم تكن تلقى أحدا فى هذا المكان أو تخشى أن يتطفل عليها فيه مخلوق ، لبعده وضيقه واحتجابه وكثرة ما يحيط به من الصخور

ولمحت زورقا شراعيا يشق الماء من بعيد فنهضت واتكأت على كوعها ، وراحت تنظر اليه تارة والى اظافر قدميها المصبوغة تارة أخرى ثم أرهفت اذنيها ، فقد خيل اليها انها سمعت صوتا يشبه صوت تكسر العود داسته قدم .. فنسيت اظافرها وانطرحت على بطنها وعينها الى الناحية التى تأدى اليها منها الصوت ، فما لبثت أن سمعت وقع أقدام ــ أو قدمين على الأصح ــ فما أسرع ما جلست على ركبتيها ، ورفعت الثوب فغطت صدرها . وكانت أصابعها لا تزال تعمل فيه لتربطه ، حين وقف أمامها رجل وسيم معتدل القامة حسن البزة عارى الرأس ، فحدقت

فى وجهه .. فقد وقف مفتوح الفم كأنما بهره جمالها ثم قال : « أرجو المعذرة »

فلم تقل جليلة شيئا وظلت قائمة على ركبتيها تنظر اليه ، فضحك فجاة وبلا مناسبة ظاهرة ، ثم كف فجأة وقال : « ارجو المعذرة .. لكأنك حواء تصلي فى الجنة » . فقالت بلهجة امتزج فيها الغضب بالسرور المكبوح : « ماذا تعنى بحواء والجنة ؟ »

قال : « من الاتفاق الغريب أن اسمى آدم ، وقد كنت وانا ماش اتوقع ـ اخشى فى الحقيقة ـ ان القى حية .. ولكنى على التحقيق لم أكن أتوقع ان التقى بحواء »

وضحك مرة أخرى ، فقالت بحدة : « ليس اسمى حواء » . فقال بابتسام : «هل لى اذن أن أسأل ما اسمك ؟»

قالت : « كلا .. لن اخبرك » قال : « اذن ساسميك حواء فانه اليق ما يكون .. وليت من يدرى هل كان لحواء بحر كهذا فى الفردوس ؟ .. »

ونظر الى البحر ، ولكنها ردته بقولها : « سمنى ما شئت فانى راجعة الى الفندق » . وهمت بالنهوض ، فقال : « سأرافقك اليه فانى نازل فيه اذا كان هو هذا » واشار الى ناحيته

ولكنها لم تذهب ، بل وقفت وقالت ، وقد جنحت الى العناد : « بل سأبقى هنا » . فوافق الرجل بسرور وقال : « حسن جدا .. سأبقى أنا أيضا .. لأسليك وأونسك فى وحدتك »

فهزت جليلة كتفها هزة خفيفة ، وعادت الى الرمل فجلست عليه ، فجلس مثلها بثيابه الأنيقة وراح يجيل عينه فى مفاتنها .. وكانت هى أيضا تتأمل كتفيه العريضتين ووجهه القسيم وشعره اللامع وساقيه المفتولين ، ولا يبدو

عليها أنها غير راضية عن وجوده وتطفله عليها فى هذا المكان الذى كانت تظنه نائيا عن الخلق

وسألها : « ماذا تصنعين هنا ؟ » فقالت باختصار : « كنت أتمشى »

ولكنها رمت اليه ابتسامة ساحرة ، فقال :

« ولكنك كنت راقدة على الرمل ، فهل هذه طريقة جديدة للمشى ؟ » . قالت : « كنت أستحم » . قال : « تستحمين ؟ ولكن بينك وبين البحر أكثر من مائة متر »

فقالت بغضب : « ألا أستطيع أن آخذ حمام شمس اذا أردت ؟ » . فقال : « آه .. صحيح »

وهز رأسه ثم رفع طرفه الى السماء وقال : « حواء تأخذ حمام شمس ، فيفاجئها آدم الذى كان يبحث عن الحية .. أليس كذلك .. ويفسد عليها حمامها .. معذرة مرة أخرى .. »

فتركت الاعتذار وسألته بلهفة : « آدم .. قل لى .. هل تظن أن هنا حيات ؟ » . فقال : « لا أظن .. وماذا تصنع حتى الحية هنا ؟ .. تأخذ حمام شمس هى أيضا ؟ »

فضحكت وقالت : « ألم تأخذ قط حمام شمس ؟ .. »

فكاد يفهق . وقطب هنيهة وهو يحاول أن يهتدى الى المعنى الذى أرادته ثم قال بابتسام : « كلا .. لم أفعل ذلك قط .. جربت كل نوع من الحمامات الا هذا .. والله فكرة .. »

فصاحت به : « لم أكن أعنى هذا » وابتسمت على الرغم منها ، ثم أردفت : « انما أردت مجرد الاستفهام »

فقال : « لقد كنت الآن فى حمامك فقطعته عليك ، أفلا يمكن أن تستأنفيه من حيث انقطع ؟ .. »

فقالت : « ولكن هذا لا يمكن .. أعنى لا يليق يا آدم ..

ربما كان هذا مالوفا فى الجنة . ولعلنا لو كنا فى عصر قبل عصرنا هذا ببضعة قرون .. ولكن فى هذه الايام التى ليس فيها جنات .. كلا يا آدم » . فسألها : « ولكن لماذا تحرمين نفسك ما تحبين ؟ » .. قالت : « قد يراني أحد » . قال : « لا أحد هنا يراك » . قالت بابتسام : « ألم تفاجئنى انت فى الحمام ؟ »

فلم يستطع أن يرد عليها وينقض حجتها واطرق شيئا ، ثم تناول شعره وشده وصاح : « وجدتها .. استانفي حمامك .. واقعد انا وراء هذه الصخرة .. احرسك .. وانبهك .. عند الحاجة .. اذا طرأ طارىء »

ولم ينتظر ان توافق بل نهض ووثب فوق الصخرة واختفى عنها . وصاح بها من ورائها : « ما قولك ؟ » .. قالت : « حسن . واذا رأيت أو سمعت أحدا مقبلا فنبهني واسمع .. حاذر أن تنظر »

قال : « مستحيل » بلهجة من يعتقد أن هذا غير معقول ثم أردف : « لقد رأيت ما فيه الكفاية »

واستلقت مطمئنة وراحت تفكر فى آدم القديم وآدم الحديث، وتسأل نفسها : «أتراه سينظر من بين الصخور ؟» وتهز كتفيها وتنظر الى ثدييها وتحدث نفسها أن لا بأس .. ولا خوف .. ثم انه ظريف ، ومهذب ، فلينظر .. ألم ير ما فيه الكفاية كما قال ؟

وكان آدم ـ على الجانب الآخر من الصخور ـ قد خلع الجاكتة واتخذ منها وسادة لراسه واستلقى على الرمل وذهب يفكر فى هذا الجمال البارع الذى كتب له فى يومه ان يراه ، ويسأل نفسه : « أتراها تريد منه أن يبقى حيث هو .. أم هى يا ترى تنتظر منه أن يكون جريئا وأن يحور الى طباع أجداده .. ماذا كان جده الأعلى خليقا أن يصنع

فى مثل هذه الحالة ؟ اكان يطيع المراة التي لعلها تعنى خلاف ما تقول أم كان يطيع غرائزه ورغباته ..؟ »

وانه ليفكر فى هذا وما اليه ، واذا بصرخة عاليــة .. فوثب الى قدميه ونط فوق الصخرة وانحط عند جليلة وسألها : « ماذا جرى ؟ »

ولم يحتج منها الى جواب فقد كان حسبه جوابا ذلك الفزع الذى ارتسم على وجهها ، فدار بعينه ينظر فما كان يسعها أن تقول شيئا من فرط الجزع ، فأبصر أفعى على نحو مترين منها .. فانقض عليها وتناولها من ذيلها وطوح بها فرماها بعيدا ، ثم تناول يد الفتاة فأنهضها وهى لا تزال نصف عارية ، ولكنها صاحت به : « لا تلمسنى .. أوه لقد لمست يدى .. ماذا أصنع الآن ؟ »

وانتزعت يدها منه ، ولكنها أبقتها بعيدة عنها كأنهـا ملوثة ، فقال : « ماذا جرى ؟ هل يدك ..؟ »

وهبط قلبه فى صدره ، وابترد الدم فى عروقه وجمد ، وجعل ينظر اليها وهو مفتوح الفم من الخوف الذى ساوره، فقالت : « لا تلمسنى .. أقول لك لا تلمسنى .. انى أمقت الأفاعى »

فأدرك مرادها ، واطمأن قلبه وتشهد ، وهز رأســه مرتاحا،ووسعه أن يبتسم وقال : « آه..هذا..لا بأس.. سأذهب وألبس جاكتتى وأعود اليك » . فصرخت : « كلا. لا تتركنى وحدى » قال : «اذن تعالى معى..نلبس جماعة»

وهم أن يتناول يدها ليعينها على الصعود فوق الصخرة، ولكنها تراجعت عنه فقال : « لا بأس .. أرانى صرت مثل المنبوذين الهنود الذين لا يلمسهم أحد .. »

فرقت له ولكنها قالت وهى تخطو الى جانبه : « أظنك وضعت هذا الثعبان بيدك الى جانبى عامدا » . فقال « كيف يمكن ؟.. لقد كنت راقدا فى الناحية الاخرى »

فقالت : « وأظنك كنت ستنام » فقال معترفا : « أى والله كاد النعاس يغلبنى »

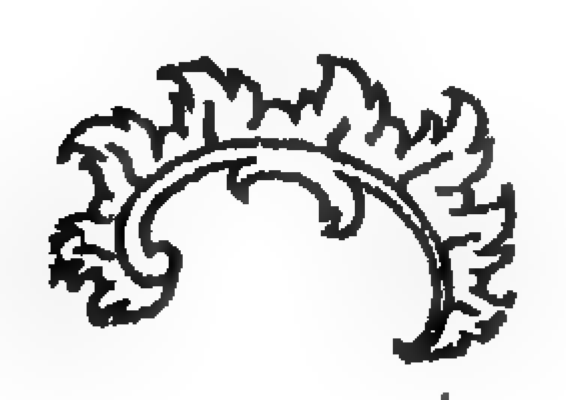
قالت : « هذا العن » . قال : « ولكنك أمرتنى أن ابقى هناك ولا أجىء » . قالت : « وتتركنى مع الثعبان ؟ » . قال : « لا تكونى متعنتة » . قالت : « لن أجىء الى هنــا بعد اليوم »

فقال بضحك : « انتهى فصل الحمامات الشمسية » قالت : « بل انتهى شهر العسل »

فالتفت اليها وصاح بها : « ايه ؟ . شهر الـ ... الـ .. »

قالت : « نعم شهر العسل .. ألا تعــرف ما هو .. انا وزوجى هنا فى الفندق وسنعود الى القاهرة غدا .. واسمع .. أن زوجى غيور جدا .. اسرع ما يكون انسان الى اساءة الظن .. فاحذر .. ابق حكاية حواء والحية بينى وبينك »

قال : « تعنين بينى وبين نفسى » قالت بابتسام : « لا .. سنلتقى يوما .. » . قال : « متى ؟ .. طمئنينى » قالت : « متى أيقنت أن يدك لم يبق بها أثر من الحية .. »



العقلة

لم يكن « عبده » يشكو قبل هذا أن فى لسانه عقلة ، وان الكلام يتردد فى فمه ولا يكاد يخرج منــه .. ولكنه أحب بنت خاله ، فماذا يقول لها أو لأمها أو لخاله ؟ وكيف تحتمل علته هــذه فتاة عصرية تحب أن تبــاهى النســاء بزوجها ؟ والمصيبة أن شعوره بهذه الحبسة يزيد لسانه امتساكا كلما جالسها . فكان اذا هم بكلامها لا يزيد على أن يخرج صوتا كهذا « ا ا ا ا ا ا ا .. » أو « م م م م » أو « ف ف ف » وأين الفتاة التى لا يحيله هذا مضحكا فى نظرها ؟ وأخيرا أشاروا عليه بأن يستشير طبيبا ، قالوا له انه بارع فى علاج هذه الحالات .. فقصد اليه ، فلما جاء دوره وقف أمامه يقول أو يحاول أن يقول : «ا ا ا ا ا .. شذ سششــســـــش للللل .. » فقــال الطبيب : « ظاهر ، ظاهر .. ان هذه الحالات العصبية معروفة » فأراد عبده أن يقول انه ليس مصابا بمرض عصبى ، فقال : « ا ا ا ا أريد ااان ا اتتتززززوج ووو » فسأله الطبيب : « ماذا تقول ؟ » فحــاول أن يبين ، ولــكن الحبسـة حالت دون الافصاح .. ففرك الطبيب جبينه ، ثم قال : « غن اذا استعصى عليك الكلام » فدهش عبده ولم يصدق أن الطبيب يطلب منه الغناء ، وبدا عليه أنه يريد أن يستوثق ، فقال الطبيب : « بالطبع غن . غن بما تريد .. انها طريقة حسنة للتغلب على العلة ، وان كان أسعافها وقتيا »

فملأ عبده صدره بالهواء ورفع عقيرته بأنكر ما سمع الطبيب فى حياته ، حتى لقد لام نفسه على حماقته فيما أشار به . وبعد أن اضطرب لسان عبده قليلا ، انطلق

يقول بصوت شبيه بشهقة المصاب بالسعال الديكي أنه يريد أن يتزوج .. ولكن هذه الحبسة تقضي على أمله . وكان كلما أخرج صوتا أحس الطبيب ان حجرا دفع في صدره ، فما ندم في حياته على نصيحة كما ندم في يومه هذا ، فقد حمس عنده وظن نفسه في موقف مناجاة ، فمضى يغني : « طول الليالي وناطيفك على بالي ، ياللي غرامك ملك قلبي وشغل بالي ، يا خوفي من طول بعادك واللي خبالي »

فأسرع الطبيب يقول مقاطعا : « تمام .. لم تكن بك في الحقيقة حاجة الي أتعاب نفسك بهذا الغناء البديع . الآن اسمع ، أن حالتك عصبية وانت على ما يظهر شديد الحياء » فلم يرق عبده هذا التشخيص،وحاول أن يعترض، فحالت الحبسة دون ذلك .. فتذكر أن الغناء أسعفه كما لم يسعفه شيء فيما يذكر ، فصاح يقول : « لا ، لا ، لا ، ليس بي حياء بل انا قليل الحـ .. »

وقاطعه الطبيب بدوره اشفاقا على نفسه وعلى سمعة عيادته ، وعجل بأن يقول : « طبعا .. طبعا .. والآن اسمع ولا تضيع وقتي . يجب ان تفهم ان علاجك الوحيد ان تجترىء على الناس بالكلام .. تعرفهم او لا تعرفهم .. سيان . والأفضل أن يكونوا ممن لا تعرف . ابدا بالكلام كل من تلقاه اذا استطعت ، باي كلام .. وحبذا لو كلمت نساء فاذا فعلت هذا كل يوم ، فانت لا شك تشفى بعد حين »

فنفخ عبده صدره استعدادا للاستفسار بالغناء ، فريع الطبيب منه وسد أذنيه وخاف أن تطير لعيادته سمعة سيئة ، وصاح به : « لا لا لا .. ابق صوتك الحلو لمن تقابل لا تسرف يا صاحبي » واسرع فأداره الى الباب واحكم ايصاده وراءه وتشهد

وكانت عيادة الدكتور ــ ولعلها ما زالت ــ في العباسية فلما خرج عبده اتجه الى آخر محطة للترام الأبيض الى

مصر الجديدة حيث بيت خاله ، وكان وهو يمشي شارد الذهن موزع النفس ، يفكر فيما أشار به الطبيب من ابتداء الناس بالكلام وان كان لا يعرفهم . وكيف بالله يبدأ غريبا لا يعرفه بمثل هذه الاصوات «مممن ففففضلك السسساعة كككام » ان هذا مستحيل . وهذا الطبيب لا شك مجنون انه طبيب مجانين لا طبيب .. ماذا .. اى طبيب هو .. لقد ارشده اخوانه اليه وقالوا انه اخصائى فى هذه الحالات ، غير انهم لم يقولوا أى حالات فهل تراهم حسبوه.؟ ولكن هذا غير معقول وكان قد بلغ المحطة وراح يتمشى ريثما يجيء الترام ، وكانت الشمس قد مالت الى المغيب ، ولم تكن المصابيح التى رفعتها شركة النور سبعة أمتار فوق الرؤس الا كالنجوم التى لا تنير ، وانما تريك كيف تكون العتمة ، وكيف تغيب معارف الارض ، وكيف تستطيع أن تظن الرجل شجرة ومصباح النور فتاة هيفاء ، والظل على الارض ماء يحسن أن تتقى بلله وتلويثه للحذاء الجميل . وانه لكذلك ، واذا به يرى رجلا عجيب الثياب مقبلا يتمشى مثله ، فوقف مكانه مبهوتا . وكان الرجل لابسا جلبابا قد يصلح أن يكون كلة لسرير ، ولكنه لا يصلح ثيابا لآدمى مهما بلغ من الجسامة ، وكان الثوب لسعته يكنس الأرض ، وقد اضطر صاحبه أن يطوى أكثره تحت أبطه . وكان يحمل عمامته مقلوبة على كفه ، كما يحمل الخادم القصعة . وكانت مشيته بطيئة ، وعلى ثغره ابتسامة العاشق رأى فى منامه حبيبته تؤاتيه بعد طول الصد والحرمان . وحدث عبده نفسه أن لا ضير من خطاب رجل كهذا ، ولكن غرابة أمره صدته . على أن الامر خرج من يده ، فقد دنا منه الرجل وقال بابتسامته المتحجرة : « كله من فضل الله .. كلوا مما رزقناكم » ونظر عبده فى العمامة المقلوبة ، فلم يجد شيئا فهم بأن يقول شيئا على سبيل الاعتراض على هذا المزاح ، ولكنه لم يستطع أن يجاوز

ابتداءاته المعهودة .. وقال له الرجل يشجعه : « لا تستحى ان الخير كثير . أطلب تعط . ألست مؤمنا مسلما .. هه ؟» فلم يفهم ما العلاقة بين الايمان وبين ما فيه هذا الرجل ، ولكنه شعر بأن الحزم يقضي عليه بأن يجيب فقال : « نننعم مممم مسسسسلم ووو ممم موحد بببالله » فأشرق وجه الرجل ، وحنى رأسه تواضعا وقال وهو يبتسم : « انتهينا اذن .. أنا ربك » فذعر عبده وتلفت ناحية الترام ، والفى نفسه يقول وهو يتلفت : « أأأنا مممممؤمن ججججدا »

فقال الرجل : « لا عجب أن تتلعثم فى حضرة الهك ، فما كل يوم يظهر الله للناس . لا تقل لأحد انك رأيتنى ، فانى أحب أن اظهر لمخلوقاتي فى السر » فحنى عبده رأسه مرات عديدة بسرعة لم يكن يدرى انه قادر عليها أو أن رأسه يحتملها ، ومضى الرجل فى كلامه فقال : « أنت من احسن من خلقت . وانى لأذكر انى أردت أن اخلق من طينتك بغلا ، ولكن شيئا ألهمنى أن أجعل منك انسانا .. وقد ندمت على ذلك ولكنى أرى الآن انى لم أخطىء ، فاطلب ما تشاء . هل تريد مالا ؟ أو تريد غير المال ؟ سلنى فليس فى بخل .. عندى من الحب كل صف يورث الجنون ويضرم النار هنا ـ ودفع كوعه فى بطنه ـ حتى لتحرق الصدرية وتزغرد من فوقها . وعندى من الحب ما يجعل منك شاعرا ، وثالث تصير به خطيبا ، ورابع يغريك بالخيالات ويحبب اليك احتضان اعمدة السرير ، فأيها تريد ؟.. تعال هنا .. بعيدا عن الناس .. فى هذا الكشك ولنغلقه علينا ، فانى أرى الترام آتيا وأخشى أن يرانا احد فلا تظفر بنصيبك العادل من وجودى »

وأمسكه من ذراعه وجعل يدفعه أو يقوده ، فقد كان عبده بادى الزهد فى هذه الخلوة .. ولما بلغا الباب كان الترام قد وصل فاندفع الرجل داخلا ، واندفع عبده

راجعا ، ووثب الى الترام فدخل فى الدرجة الاولى وانحط على كرسى وهو ينهج ويمسح العرق المتصبب . وكانت امامه سيدة تنظر اليه ، وهو غير شاعر بها . وكان يتنهد ويتشهد ويثب من حين الى آخر ، لينظر من النافذة مخافة ان يكون ذلك المجنون قد لحق به . وكان الترام قـد قطع شوطا كبيرا ، فهدأت نفسه شيئا فشيئا وابصر السيدة .. وكان الترام لم يقف بعد أن ركبه فلا شك أنهـا كانت من أول الامر هنا معه . وتذكر انه دخل كالمدفع وانحط على المقعد كالحجر وأنه لا شك قد بدر منه ما يريب ، فأراد أن يفسر ما لعلهـا استغربته من سلوكه .. غير أن دخول الكمسارى قطع عليه عزمه ، وكان الكمسارى ثرثارا فجعل يقول وهو يتناول القرش ويقدم التذكرة : « مجنون هرب من المستشفى .. وجدوه فى محطة العباسية . فى آخر محطة وقفنا فيها ، لكنه اختفى بسرعة غريبة . من يعرف يمكن يكون ركب الترام .. لكن هذا مستحيل .. ومع ذلك اين اختفى ؟. ليس فى المحطة مكان يختبىء فيه .. لا بد أن يكون ركب الترام »

وكان عبده حين سمع ذلك قد ذعر وفتح فمه كالابله .. وكانت السـيدة تنظر اليـه وتسمع حـديث الكمسارى ثم تنظر الى عبده ، وترى آيات الفزع فى وجهه . وخـرج الكمسارى الى حيث الركاب الآخرون واحس عبده أن عليه ان يقول شيئا ، ولو على سبيل التفكهة والتسلية وليخفف عن هذه السيدة التى لا شك انهـا ريعت من حـديث الكمسارى ، ولا سيما انه ــ أى عبده ــ الوحيد الذى يعرف أين اختبأ المجنون ــ وهذا العلم وحده يغرى بالكلام . ولكن لسانه خانه على عادته فقال ــ على حين لم تكن السـيدة تنتظر كلاما : « أأأأنا ششففففته »

وأمسك ، فما فى مثل هذا فائدة ، وتذكر أن الطبيب

قال له : « غن » فرفع صوته يقول مغنيا : « المجنون يا ستى الذى سمعت عنه مختبىء فى الكشك هناك »

ولم تتح له فرصة لاتمام ما بدأ .. فقد وقفت السيدة وانطلقت تصرخ بأعلى صوتهـا وتصيح : « أدركونى .. أدركونى .. الحقوا .. »

وكان الترام قد بلغ محطة وقف عندها ، فلم يسع عبده الا ان ينزل مسرعا .. فما بقى له مقام فى هـذا الترام والا قبضوا عليه على أنه المجنون الهارب ، وانطلق يعدو ..

وأخيرا بلغ البيت وقابل ـ أول من قابل ـ بنت خاله ، فأدهشه وأدهشها ان الحبسة زالت عنه



فهرس

وكلاء مجلات دار الهلال

سوريا ولبنان :	شركة فرج الله للمطبوعات ـ مركزها الرئيسى بطريق الملكى المتفرع من شارع ببكو فى بيروت (تليفون ٧٨ ـ ١٧) صندوق بريد١٠١٢ ـ أو باحدى وكالاتها فى الجهات الأخرى . (الأعداد ترسل بالطائرة للشركة وهى تتولى تسليمها لحضرات المشتركين)
العــــراق :	السيد محمود حلمى ـ صاحب المكتبة العصرية ـ ببغداد
اللاذقيـــة :	السيد نخلة سكاف
مكة المكرمة :	السيد هشم بن على نحاس ـ ص.ب٩٧
البحرين والخليج الفارسى :	السيد مؤيد احمد المؤيد ـ مكتبة المؤيد ـ البحرين
برقـــة :	السيد محمد على بوقعيقيص ـ بنغازى ـ ص . ب ١٠٤
البـــرازيل :	Snr. Jorge Suleiman Yazigi, Rua Varnhagem 30, Caixa Postal 3766, Sao Paulo, Brazil.
ساحل الذهب :	The Queensway Stores, P.O. Box 400. Accra, Gold Coast, B.W.A.
نيجـــريا :	Mr. M.S. Mansour, 110, Victoria Street, P.O. Box 652, Lagos, Nigeria, W.C.A.
انجـــلترا :	مكتب توزيع المطبوعات العربية Arabic Publications Distribution Bureau 15 Queensthorpe Road, London, S.E. 26.

هذا الكتاب

تعنى سلسلة كتاب الهلال — فيما تعنى — بآثار كبار العلماء والأدباء ، فتختـار بين حين وآخر مؤلفا من مؤلفاتهم . احياء لعلمهم وأدبهم وخدمة للنهضة الثقافية فى الشرق . وهاهى ذى تقدم لقرائها مؤلفا نفيسا من مؤلفات فقيد الأدب ابراهيم عبد القادر المازنى . وهو مجموعة من قصص الحياة والمجتمع

وقد أودع فيها طائفة من تجارب الحياة وعبرها ودروسها . استمدها من الواقع لا من الخيال ، وصاغها فى قالب أدبى بليغ

ولا ريب أن المرحوم المازنى قد وجد فى فن القصة خير وسيلة له فى ايصال آرائه وأفكاره وتجاربه للقراء . ولهذا عنى فى الشطر الأخير من حياته بهذا النوع من الأدب . وقد برهن فى كتابته للقصة على أنه من نوابغ القصصيين . فأنت تقرأ فيها فنين ممتعين . فن الحياة كما هو فى عبره ودروسه وفلسفته ، وفن القصة كما برع فيه المازنى بأسلوبه الشائق وتصويره المبدع الرائع

كتاب الهلال

مدرسة المغفلين

تأليف

توفيق الحكيم





كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »
شركة مساهمة مصرية

رئيس التحرير : طاهر الطناحى

العدد ٣٣ ربيع أول ١٣٧٣ ـ ديسمبر ١٩٥٣

No. 33 — December 1953

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب

(المبتديان سابقا) القاهرة

المكاتبات

كتاب الهلال ـ بوستة مصر العمومية ـ مصر

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشـــتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ـ مصر والسودان ٨٥ قرشا صاغا ـ سوريا ولبنان ١٠٧٥ قرشا سوريا أو لبنانيا ـ الحجاز والعراق والأردن ١١٠ قروش صاغ ـ فى الامريكتين ٥ دولارات ـ فى سائر أنحاء العالم ١٥٠ قرشا صاغا أو ٩/٣٠ شلنا

كتاب الهلال



سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

مدرسة المغفلين

بقلم

توفيق الحكيم



بعض القصص التى يضمها هـــذا الكتاب قد بنى على حوادث وقعت بالفعل فى مجتمعنا ، كما أن بعضها بنى على ما يحدث فى الحياة الانسانية . وهناك فرق بين تصـــوير المجتمع وتصوير الحياة ، فمصور المجتمع لابد أن يتقيد بما رأى وشاهد وعرف ، اذا أراد أن يكون صادقا ، فلا ينبغى له التعرض لبيئة أو طبقة لا يعرفها

ملاحظة الواقع شرط من شروط التصوير الاجتماعى . . أما تصوير الحياة فأمر آخر ، لان الحياة أشمل من الواقع . فالحياة الانسانية يدخل فى نطاقها الواقع وغير الواقع ، لان حياة الانسان ــ على خلاف حياة النبات والحيوان ــ لا تقف عند حد الوجود المادى . . بل هى تشـــمل الوجود فى مختلف نواحيه ، المنظورة وغير المنظورة ، المادية والروحية

ولعل سمو قصة « هاملت » لشكسبير راجع الى احاطتها

الكاملة بالحياة البشرية ، فى غرائزها ومشـاعرها وخيالاتها وأشباحها وتفكيرها ، فيما هو كائن على الارض وما هو غير كائن الا فيما بعد الموت ...

حياة الانسان هى أعجب ما فى الخليقة لانها أوسع ما فى الخليقة

والقصة القصيرة ، باعتبارها لونا من ألوان الفن ، يجب أن تتنـاول ذلك كله فيما تتناول من شئون الانســان فى مجتمعه وحياته . ومهمتها فى ذلك عسـيرة . لانها فن اقتضاب وتركيز ، شأنها فى ذلك شأن المسرحية والقصيدة

وهذا التركيز هو الذى قد يجعل منها فن المستقبل ـ فى رأى بعض أهل الأدب العالمى اليــوم ـ ذلك أن أدب المستقبل لن يحتمل الاسهاب . وقارىء اليـوم والغد يكاد تكفيه اللمحة الخاطفة لادراك الصورة الكاملة ، وتكاد تغنيه الاشارة عن الاطناب فى العبارة

فالقارىء الحديث الذى يعيش فى عصر الطائرات النفاثات لن يطيق طويلا الاسترخاء فى مطالعة مئات الصفحات ليحيط بصورة من الصور أو شـخصية من الشخصيات . كما أن وجود الراديو والتلفزيون لن يتيح وقتـا لقارىء ينفقه فى مطالعة كتاب طويل الى جوار المدفأة، كما يقول الاوروبيون.

فان ركن المدفأة الذى ترعرعت فى كنفه القصص الطويلة لأمثال بلزاك وفلوبير ودستوفسكى وتولستوى وسكوت وديكنز وغيرهم ، هذا الركن لم يعد يحتله الكتاب وحده الآن كما كان فى الماضى . بل يشاركه فيه اليوم صناديق الفن الصوتى والمرئى وبرامج مختلفة من مسموع ومنظور

أترى مجد القصة الطويلة قد انقضى بانقضاء القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ؟

مهما يكن من أمر ، فان طابع المسرحية والقصة القصيرة بما فيه من ضغط وتركيز وايجاز وتلميح هو الأدنى الى طابع العصر الحديث فى مستقبله القريب

ومن يدرى ؟ فقد تدور الأيام دورتها وتصبح البلاغة فى عرف العالم القادم ، كما كانت فى عرف الأدب العربى الغابر ، هى بلاغة الايجاز ، يفرضها على العالم اليوم عصر السرعة .. كما فرضها قديما عند العرب الرحل سرعة تنقلهم بين واحات الصحراء

السرعة فى كل زمان ومكان تنمى فى الانسان سرعة الادراك وسرعة التلقى والاستيعاب ، فيتخذ الفن تبعا لذلك من القوالب ما يتفق مع روح العصر والحياة

توفيق الحكيم

مدرسة المغفلين

هب من فراشه بعد منتصف الليل على طرق الباب ، وقام ليفتح ، وهو كالسكران من حلاوة النوم ، ومشى فى دهليز مسكنه الذى يبيت فيه وحده ، مشية غير الواثق من يقظته ، ثم فتح بغير تفكير ، واذا شاب يدخل صائحا :

ـ ارحمونى .. ارحمونى ..

ويندفع الى البهو ، فيضىء أنواره كلها ، ويختار مقعدا ضخما فخما يرتمى فيـه ، ويخرج من جيبه ورقة ، طفق يقرأ منها بأعلى صوته :

ـ ارحمونى .. ارحمونى ..

فأقبل صاحب البيت يجر قدميه ويسأل متثائبا :

ـ ما هى المسألة ؟

ـ المسألة خطيرة جدا ، انه الحب ، انه السهاد ، انه البعاد .. طول الليل وأنا أنظم هذه القصيدة ، لعلها ترق وتحن، لقد قطعت لها قلبى ، لأضع فى كل كلمة قطعة .. اجلس واسمع ...

فلم يجد صاحب الدار بدا من الاذعان ، فالضيف صديق لا يجب اغضـــابه ، وهو فى عرف الذوق واللياقة مكلف باكرامه وارضائه ، فجلس مكرها ، يغالب الكرى ويتجلد ، ويصارع النعاس ويتماسك ، ليسمع شعرا ونظما فى الهزيع الاخير من الليل

ونشر الضيف الورقة فى يده وأنشد :

ارحمونى .. ارحمونى ..
طـــار نومى من عيـــونى

وتنبه صاحب البيت وقال وهو يفرك أجفانه الحمراء :

ـ عيون من التى طار نومها ؟

ـ عيونى أنا طبعا

ـ آه .. طبعا .

ومضى الضيف فى التلاوة ، حتى قطع فيها شوطا ، فلم يجد لانشاده صدى ، ولم يسمع على خريدته تعليقا . فرفع بصره الى ذلك الذي يلقى عليه أبياته ، وينثر عليـه آياته ، فوجده يترنح ويتمايل .. لا من الإعجـــاب .. ولا من الطرب .. طبعا ..

فكف عن القراءة وصاح :

ـ أنا آسف ، يظهـــر أنك متعب ، خـير الأمور أن تقوم ...

فأيقن النـائم بالفرج ، ولم ينتظر ، ووثب من مقعده ، كأنه عبد أعتق ، أو سجين أطلق ، ولسانه يلهج بالشكر ، ولكن الضيف استأنف :

ـ نعم ، خير الأمور أن تقوم فتصب على رأسك كمية من الماء البارد ، لتفيق وتنشط وتسمع بقية القصيدة ، لأنهـا طويلة جدا

وهنا لم يطق صاحب البيت صبرا . ولم ير في ذمتـه للضيافة حقا. فانفجر يلعن الحب والمحبين ، والشعر والنثر ، وقصائد الغناء والبكاء ، وكل ما على الأرض من نساء .. وترك المكان . وذهب الى حجرته ، واندس في فراشه ونام

□

مرت شهور على تلك الليلة ، وهو لا يعلم من أمر صديقه المتيم شيئا .. ثم ترامت اليه الأخبار بأن ذلك الغرام الذى أنشدت فيه القصائد بعد منتصف الليل ، قد جر صاحبه الى

أحرج المآزق ، فالحبيبة معلقة بعنقه كأنها قصيدة من معلقات الكعبة . لابد من الزواج. تلك صيحتها التى لا تنزل عنها ، وبغيتها التى لا مفر منها . ولكن كيف يتزوجها ، وقد عرف عنها ما عرف ؟ انها فتاة لعوب ، من أولئك الفتيات المعروفات على شواطىء المرح ، المبرزات فى ملاهى الغــزل . كم داعبت ولاعبت . وفتنت وسحرت . ولو أنطق الله سلك التليفون لجهر بعدد مغازلاتها . ولو تحدثت رمال البــلاج وموائد « الأوبرج » ، لما اختلفت على مقــدار غمزاتهــا وبسماتها ولفتاتها . .

ووقف حبيب الأمس وقفة الذائد عن عنقه ، الغيور على اسمه وشرفه . كل شيء الا الزواج من هــذه الفتاة . ان الحب شيء والزوجية شيء آخر. انه ليس مغفلا حتى يخلط بين مسائل الغزل ومسائل المستقبل . . لا . . لن يتزوجها. على الرغم من جمالها الفاتن ومركز أسرتها البارز . أما هى فقالت بلسانها ولسان من توسط فى الأمر أن لعب الفتاة قبل الزواج لا يدل على شيء ، وقد أصبح مألوفا فى عصرنا الحــاضر . عصر الحرية والنــور . فكثير من الزوجات الناجحات شبعن لعبا ومغازلة قبل الزفاف. انها حجة واهية، يجب ألا يتذرع بها رجل جاد . . .

وانتصرت المرأة فى النهاية، كما تعودت دائما أن تنتصر . ووقع الرجل فى « الزوجية » كمن يقع فى « حفرة » .. لا يدرى كيف لان وأذعن ، وقال « نعم » .. ولا يذكر بالضبط كيف ساخت قدمه .. ولكنه أخذ يعلل نفسه ويمنيها ويقنعها بقوله : « مع غيرى ربما صحت المخاوف ... ولكن معى أنا ، مع مثلى !.. وأنا أعرفها أكثر من أمها التى ولدتها ، وهى تعرفنى وتعرف طباعى العنيفة وشكيمتى القوية وغيرتى الشديدة وعينى الساهرة .. »

□

هذا ما كان من أمر الضيف المغرم ، أما ما كان من أمر صاحب البيت ، فهو لا يعرف الشعر ولا الحب . وكل ما يعرف أن وحدته فى بيته قد ثقلت عليه . وأن البيت بلا امرأة جسد بلا روح . وأن همه فى منزله أن يخرج من حجرة ليدخل أخرى ، ولسان حاله ينطبق على الأغنية الشعبية القديمة :

« العزوبية » طالت عليه
يا أمى اخطبى لى حلوة وغنية

ولم يكن لديه أم تخطب له . ولم يكن من الضرورى

عنده أن يتشبث بشرط الحلوة الغنية . يكفيه الحل الوسط. انه رجل مسالم قنوع ... ولكن ، من يبحث له ؟ وهنا تذكر سيدة من صديقات الأسرة .. امرأة نصف وزوجة رجل محترم ، لها علم راسخ بأخبار المجتمع الراقى .. خاطبها بالتليفون ، وأبان لها عن طلبته . فقالت ضاحكة : «أتقبل نصيحتى ؟ الزواج فى عصرنا الحاضر كما يقول المثل السائر : « على عينك يا تاجر » .. الطريقة المتبعة الا ن أن تحضر المجتمعات والحفلات وتختار من تعجبك ، وتسأل عنها .. وها هى الفرصة سانحة. فى الاسبوع المقبل حفلة خيرية فى « الاريزونا » ستلقى فيها كل أنيقات القاهرة ، من سيدات وفتيات . تعال وانظر .. وأخبرنى هناك وأنا أدلك ...»

□

ووافى موعد الحفلة الخيرية . وكان مساء جميلا لمعت فيه عيون النجوم وتألق القمر . فارتدى رداء السهرة ، وذهب على بركة الله . ولم يمض قليل ، حتى غاص فى بحر أضواء السماء والكهرباء والنساء ، وأوغل فى روضة الشجر والبشر . وامتدت حوله أيدى الاغصان وأذرع

الحسان . واستقبلته كواعب بائعات الفتنة فى صورة بائعات للورد . وأحطن به من يمين ومن شمال . انه حصار الجمال . ورد يبيع وردا . وأزهار تحمل أزهارا . فأخرج من جيبه النقود عن غير وعى ، ونثر وبذر ، ليحصد البسمات والنظرات . ها هى ذى سوق الملاحة والرشاقة والدلال ماذا يأخذ منها ، وماذا يدع ؟ ومن يحب ومن يكره ؟ ومن ينبذ ومن يختار ؟ . فغشى بصره ، وزاغ نظره . وارتبك وحار . . . ثم انتبه على صوت يناديه . فاذا هى السيدة الخبيرة التى سألها هدايته . أقبلت عليه وقادته كالربان الماهر ، فى خضم موائد الأكل ومواكب الحسن . وهمست فى أذنه :

ـ ألم تعجبك واحدة ؟

فقال على الفور :

ـ أعجبنى الكل : أحب هذه ذات الثوب الوردى ، وأحب تلك ذات الثوب البرتقالى ، وأحب الدانية ذات الثوب البنى . وأحب البعيدة ذات الثوب الكحلى . وأحب الضاحكة ذات الثوب البندقى ، أحب هذه ، وهذه ، وهذه ، وهذه . . . أحب الجميع . . .

فضحكت وقالت :

ـ ليس من المعقول أن تتزوج كل الحفلة . يجب أن يقع اختيارك على واحدة بالذات

ـ هذه الحفلة «الخيرية» وان شئت فقولى « سوق النخاسة العصرية » ، تعج ببضاعة تبهر العقل .. ولم أعد أدرى أأنا البائع فى هذه السوق أم المشترى ؟ لقد تهت وضللت .. تخيرى لى أنت بصائب حكمتك وواسع خبرتك !..

فأشارت الى مجموعة من النساء متلألئة، تزرى بالمجموعة الشمسية ، وقالت :

ـ ألق نظرة على هؤلاء ..

ـ أكلهن للزواج ؟

ـ بالطبع . كل من ترى هنا . . الفتيات يردن أن يتزوجن والزوجات يردن أن يتطلقن ..

فأرسل نظرة شاملة على تلك النحور العارية ، والصدور المكشوفة ، والبسمات الفاتنة ، والنظرات المفتونة ، وقال فى نفسه : أين ذلك العهد الذى كانت تسمى فيه المرأة « السيدة المصونة والجوهرة المكنونة » ؟! ترى ماذا يجب أن تسمى اليوم ؟..

وأخذ يفكر فى اسم أو لقب أو وصف يمكن أن ينطبق عليها الآن .. ولكن حبل تفكيره انقطع فجأة .. فقد لمح عن بعد صديقه الضيف،صاحب القصيدة ، يدخل من الباب، وقد أحاطت به بائعات الورد كالمعتاد .. ولمحتــــه فى عين الوقت الست الدليلة الهادية ، فهمست قائلة :

ـ صاحبك !..

ـ نعم . انه يدخل وحده . عجبا !.. أين زوجته اذن؟ بلغنى أنك كنت احدى الساعيات فى الخير بينهما .. وكنت ممن توسط فى أمر ذلك الزواج

فقالت السيدة بصوت الجد :

ـ حقيقة .. شوشو صديقتى ، وكنت أظنها تمشى بعقل بعد زواجهــا . ولكن ، كلام فى سرك .. أنا لا أحب أن أكون مسئولة عنها الآن . أنا أفهم أن يكون للزوجة بعض الحق فى اللهو .. ولــكن عــلى شرط أن تكون فى منتهى الحذر حتى لا يلحظ عليها شىء .. وأن تتصرف بغــاية الحرص حتى لا يبدو على سلوكها شك . أما شوشــو فلا أدرى ماذا جرى اليوم لعقلها..انها ـ فضلا عن علم الجميع بأن لها حتى الآن أربعة عشاق أو خمسة فى نفس الوقت ـ

لا تحـــاول أن تدارى أمورها ، أو تستر تصرفاتهـــا ..
تصور أنها فى وضح النهار تنزل من سيارتها أمام دهبيـــة
معروفة ومعها حقيبة صغيرةتحوى « بيجامتها » الحريرية ..
وكل هذا تحت سمع السائق وبصره ، وتحت نظر من يمر
من المعارف والفضوليين الذين قد يعرفون السيارة وصاحبها
.. لا .. شوشو فى الحقيقة متهورة اليوم أكثر من اللازم،
وانى أرى منها كل ذلك وأقول فى نفسى : «ربنا يستر» ..
فكل الناس يعرف سيرها الآن .. أمرها شاع ورائحتهـا
فاحت ...

ـ وزوجها .. ألم يشم الرائحة ؟

ـ الظاهر أنه مزكوم ، كأكثر الازواج

وكان زوج شوشو عندئذ قد تخلص من بائعات الورد ،
وسار يفحص بعينيه الجموع ، كأنه يبحث عن أحد . حتى
أشرف عليهما .. فلما صار عـلى خطوات منهما لمحهما هو
الآخر فأسرع نحوهما وحياهما . وعاتب صديقه صـاحب
البيت عتابا هادئا يخالطه المزح ، لما لقيه فى بيته من اهمال ،
تلك الليلة التى تفجرت فيها شاعريته .. على أنه انتقم ،كما
قال ، فلم يدعه الى حفلة قرانه ولا الى بيت عروسه..وهنا

التفت الى السيدة قائلا بلهجة العجلة واللهفة :

ـ شوشو .. ألم تلمحيها هنا ؟ لقد سألتنى أن أسبقها .. قائلة انها ستمر ببعض صديقاتها أولا .. وقد رأيت الذهاب لبعض أعمال أخرتنى ، وجئت حاسبا أنى أجدها .. لا شك أن حديث صديقاتها شغلها عن الوقت .. انه لمن حسن الحظ أن أقابلك هنا الليلة . انها خير مناسبة أقدم لك فيها شكرى . كاد يمضى نصف عام على زواجى ، الذى توسطت أنت فيه ولو تعلمين كم أنا سعيد ! .. لقد كنت مغفلا يوم ترددت وتمنعت وتخوفت . ألا تذكرين كم جاهدت أنت لاقناعى ؟ الحق كان فى جانبك . شوشو اليوم ملاك . وانى أضحك من نفسى لرأيى السابق فى طيشها . انك ولا شك قد لاحظت اليوم كم تغيرت وعقلت . الحمد لله ، مخاوفى كانت فى غير محلها . لقد ظلمت المسكينة . وهى فى الحقيقة زوجة طيبة مخلصة يندر أن يوجد لها مثيل ..

ومضى فى هذا الكلام .. وصديقه « صاحب البيت » يصغى اليه فاغرا فاه .. لا يصدق ما يسمع . الى أن تأكد له أن أذنه لم تخدعه .. فهمس قائلا :

ـ انا لله وانا اليه راجعون !

ولم يلبث هـذا الزوج أن جذبته من ذراعه يد أحد المعارف . فاستأذن ومضى معه الى مائدة عامرة بالأصدقاء وترك صاحبه والسيدة الدليلة الهادية يتبادلان النظرات ، صامتين بلا تعليق .. وأخيرا نطقت السيدة قائلة :

ـ والله شاطره !..

ـ شاطره !؟ وهل هذا مصيرى أنا أيضا ؟ وهل نصيحتك لى ستكون من هذا القبيل ؟

فضحكت وقالت :

ـ لا .. لا تخف .. ظروفك أنت مختلفة كل الاختلاف ومع ذلك .. ما دمت قد رأيت بعينك وسمعت بأذنك فلا يصح لى أن أغشك .. هل تريد الصراحة ؟ اذن اسمع رأيى : هذا جيلك الجديد وهذا عصرك . خذ الأمور كما هى ولا تخدع نفسك . واعلم أن أكثر النساء هنا لكل واحدة منهن على الاقل عشيقان أو ثلاثة .. وان تلك التى يقال انها نظيفة السمعة ولم يسمع عنها أحد شيئا ، هى التى لها عشيق واحد .. فاذا أردت منى أن أغالطك ، أو أن أشجعك على مغالطة نفسك ، فهذا أمر آخر .. ولكنى أنصحك أن تنظر الى الواقع اليوم بعين الواقع ...

وسكتت لأن الموسيقى الراقصة دوت فى المكان . .وقام من كل مائدة زوجان . . ودق الطبل ورن النحاس وعوى « السكسوفون » . .فكان لمزيج أصواتها صدى يشبه صراخ الحيوان الجوعان . . ولعبت الاجساد بالأجساد . .واحمرت العيون وندت الشفاه واتسعت الاحداق . . واضطربت الافكار فى رأس «طالب الزواج» ماذا يصنع ؟ وماذا يقول؟ وعلى ماذا يعول ؟ . .

وظل فى اختلاط فكره وحيرة رأيه ما ظلت الرقصة فى اختلاطها ولعبها بأفئدة الراقصين والمشاهدين . . . الى أن انتهت الرقصة . وصمتت الموسيقى ، وصفق الحاضرون . وأقبل البعض على البعض يتحادثون . . . فالتفتت السيدة الهادية الى زميلها الخاطب قائلة :

ــ لم أتلق جوابك . . ماذا قررت ؟

فأطرق لحظة ، ثم رفع رأسه وقال :

ــ أمرنا الى الله . ابحثى لنا اذن عن واحدة شريفة ، عفيفة ، سمعتها طيبة ، ليس لها غير عشيق واحد !!!

الشيخ البلبيسي

لم أره قط رؤية العين .. ولكنى سمعت به ممن رأوه وعرفوه .. فقد كان لذلك الرجل صيت فى الاقاليم منـذ أكثر من ثلث قرن .. كان رجلا فارع الطول ، فيما يقال، ضخم الجرم ، ذا هيئة تفرض على الناس التبجيل والاحترام .. وكان شديد العناية بثيابه ، لا يرتدى منها الا ما غلا فى الثمن وزاد فى المهابة.. كان عظيم الهامة ، أشيب اللحية ، طويل المسبحة ، كبير العمامة ..

□

روى لى محدثى عنه قائلا :

ـ عرفت الشيخ « البلبيسى » لأول مرة فى دار الباشا المدير . دخلت عليهم فى تلك « المنظرة » التى كان يجتمع فيها من حين الى حين جلة علماء المديرية وأكابر أعيانها : فأبصرت « الشيخ » بطلعته الجليلة فى صدر المجلس ، فما شككت فى أنه أعظمهم فضلا وأرفعهم قدرا .. فلما قدمنى

اليه المدير ، لم أنتظر حتى أعى اسمه ، وانكببت ، لهيبته ، على يده أقبلها .. فسحبها منى برفق وأفسح لى مكانا الى جواره ، وهو يقول بصوته الوقور :

ـ أستغفر الله يا بنى ، أستغفر الله !... على من أخذت العلم فى الازهر الشريف !؟..

فعلت وجهى حمرة الخجل وقلت :

ـ لم أدرس العلم .. ولكنى رجـــل مزارع من ذوى الاملاك ..

فربت على يدى بكفه قائلا :

ـ وأنعم بالزراعة والزراع !. من يزرع خيرا يحصـد خيرا ، ومن يزرع ...

وسعل سعالا خافتا غريبا كأنه عواء .. جهـد فى كتمه بكمه ومضى يقول متلطفا :

ـ كيف اتفق أننى لم أرك هنا من قبل ؟

فقلت وأنا ألقى نظرة على الباشا المدير المتشـــاغل عنا بضيوفه وهم يتحـــدثون ، فيما بينهم ، هامســـين ، حتى لا يزعجونا ، فيما اعتقدت ، بأصواتهم :

ـ انى قليل المجىء الى البندر. ولا أغادر أرضى وعزبتى

الا اذا دعتنى الى ذلك المصالح أو الضرورات ..

فقال الشيخ وهو يعد بأصابعه المرتجفة حبات مسبحته :

ـ حسنا فعلت يا بنى .. لقد قالوا فى الأمثال : الارض التى لا ترى قدم صاحبها لا تفلح ...

وسعل ذلك السعال الغريب المكتوم وقد وضحت معالمه المشابهة لعواء الكلب .. فأخذتنى رعدة .. وأحس ذلك منى .. فمال على أذنى هامسا :

ـ هل أزعجك سعالى ؟ . لا تخش شيئا .. هـذا أمر يأتى أحيانا ويمر مر الكرام ..

فقلت له باطمئنان :

ـ بل لا تنزعج فضيلتك .. انما هو برد عارض من برد هذه الايام ..

فقال لى بنبرة وقورة هامسا :

ـ لا .. يا بنى .. هـذا ليس ببرد .. انى ما تعودت الكذب . انما هو مرض آخر ..

ـ ليس خطيرا على كل حال ..

ـ أرجو أن يبرئنى الله منه ..

وسعل .. أو على الأصح عوى كالكلب .. وهو يسد

فمه بكمه حتى لا يبلغ الصوت أسماع الحاضرين .. وألقى عليهم نظرات قلقة مضطربة .. وهمس فى أذنى :

ـ لعل سعالى لم يصل اليهم . أما أنت فمثل ابنى .. ولعلك تكتم عنى .. انها بليـة ، ابتلانى بها الله .. وهو لا يبلو الا عباده الصالحين .. أسأله تعالى أن ينهى هـذه الازمة على خير حتى أنصرف عن هذا المجلس ..

فأخذتنى به شفقة..ورأيته يلم أطراف عباءته ، ليسرع بالنهوض ، ولكن السعال أو العواء أدركه .. فلبث فى مكانه يحشو فمه بكمه .. حتى هدأ قليلا .. فقلت له :

ـ أما من علاج لهذا ؟..

ـ العلاج بيد الله .. وأخشى أن يكون قد فات أوانه.. كل ما أرجوه ألا يكون دائى خطرا على النـاس .. كفى ما حدث لذلك الخادم المسكين ..

ـ ماذا حدث له ؟..

قلتها مرتاعا .. فقال بصوت مرتجف متعب جاف :

ـ اشتدت على الأزمة يوما . وقيل انى كنت أسعل سعالا كعواء ذلك الكلب « المسعور » الذى عضنى .. فلما أراد خادمى اسعافى ومعونتى هبرته بأسنانى وعضضته عضةأدت

الى وفاته .. رحمه الله رحمة واسعة ! ورحمنى أنا أيضا وغفر لى ..

وقطع سعاله حديثه .. وجعل يمزق كمه بأسنانه ، حتى لا يخرج الصوت من فمه واضحا .. وجعلت أنا أحاول التزحزح من مكانى مبتعدا عنه من الخوف .. ولكن احترامى له وعطفى عليه وحرصى على شعوره وخشيتى من لفت الانظار اليه .. كل هذا سمرنى فى مقعدى .. فتجلدت وقلت له بصوت متهدج :

ــ انها ولا شك أزمة خفيفة ستمر ..

ولم أتم .. فقد جحظت عيناه .. وتغير وجهه .. وأرغى وأزبد .. وكشر عن أنيابه ، وانقلب ــ فى لحظة ــ ذلك الشيخ الوقور ، الى كلب خطر عقور .. وترك كمه وفغر فاه بعواء سافر مرعب .. ومد يديه نحوى كأنهما مخالب .. وهم بالهجوم على .. وهنا لم أدر من الفزع الا وأنا أثب نحو الباب وثبة ، صدمتنى بعارضته الخشبية صدمة ، ما برح أثرها باقيا فى جبينى .. وما كدت أجد نفسى فى فناء الدار .. حتى صحت من حلاوة الروح بالخدم والحجاب :

ــ الحمد لله ! هربت بجلدى .. لكن المصيبة هى مصيبة

الباشا المدير وضيوفه .. لقد أكلهم فضيلة الشيخ ونهشهم وانتهى الأمر !..

وأردت أن أدفع بالحجاب الى داخل « المنظرة » لينقذوا من يمكن انقاذه ... واذا بى أرى الباشا المدير وضيوفه ، يتوسطهم « الشيخ » الجليل ، خارجين من الباب يتمايلون ، والضحك يكاد يقطعهم تقطيعا ..

□

فلما انكشفت لى الحقيقة وأبديت احتجاجى .. قال لى المدير باسما :

ـ ألا تعرف الشيخ « البلبيسى » ونوادره ودعاباته ؟!.. هذا هو الشيخ البلبيسى ... هل تعرفه الآن ؟

فأشرت الى الصدمة فى جبهتى وقلت مبتسما :

ـ معرفة تركت فى أثرا !..

فتقدم نحوى « الشيخ » كما يتقدم الممثل بعد أن مسح عن وجهه طلاء التمثيل .. وقال :

ـ الحمد لله على السلامة !. ان شاء الله قريبا ..

فقاطعته صائحا :

ـ مستحيل .. لا يلدغ ـ بل قل .. لا يعض ـ مؤمن ..

فبادر هو يكمل العبارة :

ـ من كلب مرتين ... هذا صحيح .. ولكن من قال لك أنى سأكون كلبا فى المرة القادمة ؟

ـ اذا قابلتنى فى المرة القادمة فكن كما شئت وشاءت لك براعتك ..

▭

ولم أقابله بعدها أبدا .. الى أن مات وذهبت أيامه .. ولم يعد لهذه المجالس و « المنادر » وجود .. وانقرض هذا النوع من الناس .. وانقرض معه نوع من المواهب الطبيعية يتفجر من السليقة الانسانية ، كان لازما لادخال الانس على مجالس ذلك العهد

أن لكل عصر رجال أنسه .. ولكن عصر « المنادر » كان له رجال قلما يجود بمثلهم الزمان ..

لا آسف على شيء أسفى على انى لم أقابل « الشيخ البلبيسى » مرة أخرى . وان كنت على ثقة من أنه كان سيترك فى مرة أخرى أثرا لا يمحى ...

ابليس ينتصر

اتخذ قوم شجرة ، صاروا يعبدونها .. فسمع بذلك ناسك مؤمن بالله ، فحمل فأسا وذهب الى الشجرة ليقطعها .. فلم يكد يقترب منها ، حتى ظهر له « ابليس » حائلا بينه وبين الشجرة ، وهو يصيح به :

ـ مكانك أيها الرجل !.. لماذا تريد قطعها ؟

ـ لانها تضل الناس

ـ وما شأنك بهم ؟ دعهم فى ضلالهم !..

ـ كيف أدعهم .. ومن واجبى أن أهديهم ..

ـ من واجبك أن تترك الناس أحرارا ، يفعلون ما يحبون

ـ انهم ليسوا أحرارا .. انهم يصغون الى وسوسة الشيطان ..

ـ أوتريد أن يصغوا الى صوتك أنت ؟!..

ـ أريد أن يصغوا الى صوت الله !...

ـ لن أدعك تقطع هذه الشجرة ..

ـ لابد لى من أن أقطعها ..

فأمسك ابليس بخناق الناسك..وقبض الناسك على قرن الشيطان .. وتصارعا طويلا .. الى أن انجلت المعركة عن انتصار الناسك .. فقد طرح الشيطان على الارض وجلس على صدره وقال له :

ـ هل رأيت قوتى !..

فقال ابليس المهزوم بصوت مخنوق :

ـ ما كنت أحسبك بهذه القوة .. دعنى وافعل ما شئت

فخلى الناسك سبيل الشيطان .. وكان الجهد الذى بذله فى المعركة قد نال منه .. فرجع الى صومعته واستراح ليلته ..

فلما كان اليوم التالى حمل فأسه ، وذهب يريد قطع الشجرة واذا ابليس يخرج له من خلفها صائحا :

ـ أعدت اليوم أيضا لقطعها !؟

ـ قلت لك لابد لى من أن أقطعها ..

ـ أوتظنك قادرا على أن تغلبنى اليوم أيضا ؟..

ـ سأظل أقاتلك حتى أعلى كلمة الحق !..

ـ أرنى اذن قدرتك !..

وأمسك بخناقه .. فأمسك النـاسك بقرنه .. وتقاتلا وتصارعا .. الى أن أسفرت الموقعة عن سـقوط الشيطان تحت قدمى الناسك .. فجلس على صدره وقال له :

ـ ما قولك الآن فى قوتى ؟!

ـ حقا .. ان قوتك لعجيبة .. دعنى وافعل ما تريد ..

لفظها الشيطان بصوته المتهدج المخنوق..فأطلق الناسك سراحه .. وذهب الى صومعته واستلقى من التعب والاعياء حتى مضى الليل وطلع الصبح فحمـل الفأس ، وذهب الى الشجرة فبرز له ابليس صائحا فيه :

ـ ألن ترجع عن عزمك أيها الرجل !؟

ـ أبدا .. لابد من قطع دابر هذا الشر !..

ـ أتحسب أنى أتركك تفعل !؟

ـ ان نازلتنى فانى سأغلبك ...

فتفكر ابليس لحظة..ورأى أنالنزال والقتال والمصارعة مع هذا الرجل لن تتيح له النصر عليه ... فليس أقوى من رجل يقاتل من أجل فكرة أو عقيدة ..

ما من باب يستطيع ابليس أن ينفذ منه الى حصن هـذا الرجل غير باب واحد : الحيلة ..

فتلطف للناسك وقال له بلهجة الناصح المشفق :

ـ أتعرف لماذا أعارضك فى قطع هـذه الشجرة !؟ انى ما أعارض الا خشية عليك ورحمة بك .. فانك بقطعهـا ستعرض نفسك لسخط الناس من عبادها .. مالك وهـذه المتاعب تجلبها على نفسك ؟.. اترك قطعها وأنا أجعل لك فى كل يوم دينارين تستعين بهما على نفقتك .. وتعيش فى أمن وطمأنينة وسلامة !..

ـ دينارين !؟

ـ نعم .. فى كل يوم .. تجدهما تحت وسادتك !

فأطرق الناسك مليا يفكر ثم رفع رأسه وقال لابليس :

ـ ومن يضمن لى قيامك بالشرط !؟

ـ أعاهدك على ذلك .. وستعرف صدق عهدى ...

ـ سأجربك ..

ـ نعم .. جربنى ..

ـ اتفقنا

□

ووضع ابليس يده فى يد الناسك.. وتعاهدا.. وانصرف

الناسك الى صومعته وصار يستيقظ كل صباح ، ويمد يده ويدسها تحت وسادته فتخرج بدينـــارين .. حتى انصرم الشهر . وفى ذات صباح دس يده تحت الوسادة فخرجت فارغة .. لقد قطع ابليس عنـــه فيض الذهب .. فغضب الناسك .. ونهض فأخذ فأسه...وذهب الى قطع الشجرة .. فاعترضه ابليس فى الطريق ، وصاح فيه :

ـ مكانك !.. الى أين ؟..

ـ الى الشجرة .. أقطعها !

فقهقه الشيطان ساخرا :

ـ تقطعها لانى قطعت عنك الثمن !..

ـ بل لأزيل الغواية وأضىء مشعل الهداية !..

ـ أنت ؟!..

ـ أتهزأ بى أيها اللعين ؟!..

ـ لا تؤاخذنى !.. منظرك يثير الضحك !..

ـ أنت الذى يقول هذا ، أيها الكاذب المخاتل ؟!.

□

وانقض الناسك على ابليس وقبض على قرنه...وتصارعا

لحظة . . . واذا المعركة تنجلى عن سقوط الناسك تحت حافر ابليس . . فقد انتصر وجلس على صـــدر الناسك مزهوا مختالا يقول له :

ـ أين قوتك الآن أيها الرجل ؟!. .

فخرج من صدر الناسك المقهور صوت كالحشرجة يقول:

ـ أخبرنى كيف تغلبت أيها الشيطان !. .

فقال له ابليس :

ـ لما غضبت لله غلبتنى ، ولما غضبت لنفسك غلبتك . . لما قاتلت لعقيدتك صرعتنى ، ولما قاتلت لمنفعتك صرعتك !



ليلة الزفاف

انطلقت آخر « زغاريد » ذلك القران الميمون فى الساعة الثانية بعد منتصف الليل.وزف « العروسان » الى حجرتهما بعد أن رشا بالملح من عيون الحساد . وأغلق عليهما البـاب وصارا وحدهما أخيرا ... وقد اجتازا الاعتـاب نحو تلك اللحظة التى لم تخلق مثل كل اللحظات ... تلك اللحظة التى تشع كاللؤلؤة البهيجة فى تاج الزمان..زمان كل فرد على هذه الارض .. من الملوك الى الصعاليك . تلك اللحظة التى بذل فيها ما بذل . ومن أجلها احتشـــد المعــارف والاصــدقاء ، واحتفل الاهل والاقرباء ، ونصبت الموائد ، وقرعت الكؤوس ، ولعب الفـــرح والأنس بالرؤوس ، وحمى الرقص وارتفع الغناء ، وسبح الحاضرون وعاموا فى أويقات من الهناء ... جاءت تلك اللحظة...قمة السهرة، وقبة الحفلة ، ومحراب الليلة...لحظة الخلوة بين العروسين. ويا لها من لحظة !.. كل زوج ولا شك يذكر حيرته وهو يبحث فى رأسه عن أول كلمة يخاطب بها عروســه وقد

صارا على انفراد . أيبدأ بكلمة جدية أم كلمة فكهة .. أم كلمة عاطفية ؟. وكل زوجة تذكر ولا ريب احساسها وهى تنتظر الكلمة الاولى من فم « عريسها » !

أما عروس الليلة فلم يبد عليها أنها تنتظر شيئا . فما كاد باب حجرة العرس يغلق ، حتى تركت « عريسها » واتجهت الى منضدة الزينة، وجلست ووضعت رأسها الجميل فى كفيها . ورأى « العريس » منها ذلك ، فأقبل عليها يقول :

ـ أمتعبة أنت يا عزيزتى ؟ صخب العرس أزعجك فيما أرى !..

فلم تجب. ولم ير العريس وجهها الذى تخفيه بيديها ، ولكنه لم يلبث أن رأى قطرة دمع تفر من بين أصابعها ، وتسقط على ثوب عرسها الابيض . فقال بصوت يتهدج حنانا :

ـ أتبكين يا سونه ؟!

فلم يسمع منها غير نشيج خافت . فتألم لها . انه يعلم السبب . ان سنية وحيدة أمها . وقد فقدت أباها منذ بضعة أعوام . فالافتراق عن هذه الأم العزيزة التى كانت لها كل

شيء ليس بالأمر اليسير . ولعل هذه الفكرة هى التى كانت تخيم عليها طول الحفلة . . لقد كانت مطرقة واجمة ذاهلة ، قليلة الكلام نادرة الابتسام فحدب عليها ، وألصق خده برأسها ، وقال لها :

ـ لا تبكى يا عزيزتى سونة . سأكون لك أما وأبا وزوجا وأخا . . ولن أجعلك تشعرين أبدا أنك فقدت شيئا أو فارقت أحدا . .

فأبعدت رأسها عن خده ، وأرادت أن تتكلم ، ولكن الدموع غلبتها . . فبادر هو يقول لها :

ـ لا تتكلمى ! انى أعرف ما تريدين أن تقولى . اطلقى دموعك ولا تكتميها . هذا أمر طبيعى . لست أخشى الا على عينيك الجميلتين . . ولكن البكاء فى مثل هذه الحال يجلو النفس ، وعما قليل تشعرين بالراحة ، ويشرق وجهك ، كأنه شمس تسطع بعد مطر خفيف لطيف . .

فاهتزت كأن فى جوفها معركة . . ثم تشجعت وقالت والدمع فى عينيها :

ـ أريد أن أصارحك بشىء . . . هل تسمح لى ؟

ـ بالطبع يا سونتى . . بالطبع . صارحينى بكل ما فى

نفسك . ألسنا الآن زوجين ؟ لا ينبغى أن يخفى أحدنا عن شريكه شيئا

ـ نعم ، من واجبى أن أقول لك .. وأرجو أن لا تتألم أو تغضب : انى أحب شخصا آخر ...

لفظتها بسرعة وقوة ، ثم استخرطت فى البكاء . ودوت هذه العبارة فى أذن العريس كأنها قذيفة ، وأذهلته المفاجأة، فلم يحس ألما ولا غضبا .. بل لم يشعر بنفسه ولا بما حوله .. ولا بالوقت الذى مر قبل أن يتماسك ويثوب الى رشده، ويعى مدلول ما سمع .. وينظر فيما ينبغى أن يصنع ... وكان رجلا رزينا عاقلا فى نحو السادسة والثلاثين ، علمته تبعات منصبه المحترم أن يزن الأمور . فسرعان ما ضبط نفسه ، وقال بهدوء ممزوج بالمرارة والعتب المهذب :

ـ ألا ترين أن هذا التصريح جاء متأخرا بعض الوقت ؟ هل كان لديك مانع من الافضـــاء به الى فى أيام الخطبة أو قبل ابرام العقد على الأقل ؟

ـ كان يجب أن يتم هذا القران ارضاء لأمى المسكينة . كنت أراها أتعس مخلوقات الارض كلما حاولت اقناعهـــا بفسخ خطبتنا . لقد كان أملها الوحيد ، وحلمها الدائم أن

ترانى زوجة رجل مثلك !.. ولقد خانتنى شجاعتى فلم أجرؤ على صدمها فى آمالها..وهى مسنة ضعيفة مريضة . ان الله يعلم كم جاهدت كى أكتم عاطفتى وأخنق حبى ، وكم أردت آخر الأمر أن أفهم نفسى أن الماضى قد انتهى بالزواج .. وقد خيل الى أن قلبى قد استجاب لنداء العقل، لكنى الليلة ، وقد تم الأمر ، وأمسى كل شىء حقيقة .. سمعت صرخات قلبى تهزنى هزا وتكاد تهدم كيانى،فأيقنت انى لن أستطيع المضى فى خداع نفسى . ولا يليق بى المضى فى خداعك ..

كانت تقول ذلك وهى تشهق ببكائها وتنشج ..وأطرق العريس وفكر فيما أفضت به مليا .. ثم قال :

ـ تصرف سليم ، ولا غبار عليه . ثقى انى من جانبى على أتم استعداد لمعاونتك فيما يتجه اليه عزمك . الحق معك .. لا يجب أن تخدعى نفسك . استمعى الى صوت قلبك . وما دام حبك صادقا .. فليس لأحد عليك سبيل . انى أضع حريتك بين يديك منذ الآن،وأضع نفسى فى خدمتك، فلنتدبر الأمر معا..كيف نخرج من هذا الموقف أولا؟. هبى أنى طلقتك الليلة ، ما الذى سيحصل ؟ ستكون فضيحة

لن أرضاها لك ، ومصدرا للاقاويل والاشاعات حولك لن ينضب .. ثم هى صدمة قاسية لوالدتك. وأنت التى أشفقت عليها من صدمة أخف وأهون !.. اذن ماذا نصنع ؟ فكرى معى قليلا ...

ـ أصبت ... ان طلاقى الليلة فضيحة

ـ فلنبحث عن حل غير هذا ... ابحثى جيدا ...

ـ ها أنذى أبحث ..

وجلس كل منهما يفكر ، وقد جعل رأسه فى كفيه .. وأخيرا نهض العريس صائحا :

ـ وجدت حلا ، ربما كان فيه الخير ، ولكنه يتطلب منك بعض الصبر ، ومنى بعض القدرة على التمثيل .. ذلك أن أطلقك بعد شهر أو شهرين، وفى خلال هذه الفترة أتظاهر أمام الناس ، وعلى الأخص أمام والدتك ، انى فظ الخلق شرس الطباع وانى أسىء معاملتك ... بهذا نعدها اعدادا رفيقا لتحمل يمين الطلاق ... بل قد ينفد صـــبرها هى فتحثك قبل انقضاء المدة على طلب الانفصال ، فاذا تم ذلك رأت بعدئذ حلمها ومحط أملها فى ذلك الذى اختاره قلبك ... ما رأيك فى هذا الحل ؟

ـ مدهش !..

لفظتها وهى تريد أن تكفكف دمعها و « تنف » فلم تجد غير طرف ثوبها. فأسرع العريس قائلا قبل أن تتمخط فيه :

ـ انتظرى .. انتظرى .. خذى منديلى ، ولا توسخى ثوب عرسك ، حافظى عليه للقران الآخر !..

فتناولت منديله وهى تقول :

ـ انك رجل نبيل .. انى آسفة . ما ذنبك أنت حتى أعكر عليك صفو هذه الليلة ؟ وماذا جنيت أنت حتى تفجع هكذا فى عروسك ؟... ولعلك علقت آمالا كبارا على هذا الزواج ..

فأطرق لحظة .. ثم قال كالمخاطب نفسه :

ـ لا تذكرينى ... أقصد ... لا تعلقى على هذا الأمر أهمية

ـ انى متألمة لك ...

ـ لا تتألمى لى .. انى بخير .. انك على كل حال لست مسئولة عما وقع لى .. حظى هكذا .. حقيقة لقد وضعت فى هذا الزواج أملى ، لأنى كنت دائما رجلا شحيحا بعواطفه ضنينا بفؤاده . استغرقتنى حياة العمل ، فلم أعرف

من حياة اللهو الا القليل ، ولم أعط امرأة من نفسى شيئا نفيسا ... ادخرت كل ما فى قلبى من حب للزوجة التى هى نصيبى. كنت أتخيلها فىأوقات فراغى وهى الى جانبى، وأتخيل ما أناجيها به من حدب وعطف وحب وحنـــان ، كدسته كدنانير البخيل على مر الاعوام من أجلها .. ولكن القدر أراد أن يصيبنى فيما كنزت كما يصيب أحيانا البخلاء فيما يكنزون .. لأنه يحلو له السـخرية ممن يركزون همهم فى هدف . فيتربص بهم حتى يقتربوا منه ، فيعبث به بطرف اصبعه ، فاذا جهودهم هباء ..

ـ كل ذلك بسببى .. أنا مجرمة ..

ـ لا مطلقا .. لا شأن لك بالأمر ... ان مثلى مثـــل ذلك الذى ظل يجمع المال ويدخره ليشترى به عينا ، فلما تم له ذلك واشترىالعين وجدها محجوزا عليها أو مرهونة لآخر رهنا عقاريا ممتازا لا فكاك منه .. فما ذنب العين فى هذه الحال ؟ الذنب ذنب الادخار .. والبخل .. وليتنى جعلت شعارى : «انفق ما فى الجيب يأتك ما فى الغيب» !..

ـ ان كلامك يحز فى نفسى كسكين ... لست أدرى ماذا فى امكانى أن أصنع لك .. من يدرى ؟ ربما عوضلك

القدر عنى خيرا ... وجاءك الغيب بزوجة أحلامك ... انى لم أكن بك جديرة ...

ـ هذا لطف منك يا سو ... يا سنية ... سنيةهانم.. اعذرينى . لم أعد أدرى كيف أناديك ...

ـ عجبا .. نادنى كما كنت تنادينى منذ لحظة ...

ـ أمام والدتك بالطبع ... أما ونحن وحـــدنا ... فلا حق لى ...

ـ لماذا ؟

ـ لم يعد لى حق تدليلك...أنت منذ الآن ـ كما قلت لك ـ أجنبية عنى ، ولا أدرى ماذا نصنع الآن ، ووالدتك فى البيت ، ولابد لنا من المكث فى حجرة واحـــدة ... اسمعى : أنت لكالسرير ، وأنا لى الارض..ها هنا بجوار الباب فى ذلك الركن البعيد...هيا انهضى الى فراشك.. أنت فى أشد الحاجة الى الراحة الليلة ، بعد كل هـــذه الأحداث المثيرة لأعصابك

ـ تنام على الارض ؟!

ـ لا يوجد وضع آخر

ـ هذا صحيح ، مع الأسف ، ولكن سامحني . . أرجوك . . أهكذا أجعل ليلة عرسك على هذه الصورة غير البهيجة !

ـ مالها ليلة عرسى ! انى راض بها . هل يتاح لكل عريس مثلها ؟ ثقى أنه سيظل لها دائما فى نفسى ذكرى عزيزة . .

ـ انك تريد أن تنفى عنى كل مسئولية . . على كل حال الوقت الآن غير مناسب لمجـادلتك . . فلأعد لك مكانا مريحا لمبيتك . . فأنت الذى أنهكتك ولا شك هذه المفاجأة غير السارة . . . أرى فوق السرير « مرتبتين » فلأفرش واحدة منهما على الارض . . وليكن توزيع المكانين بيننـا بالقرعة . . ما رأيك ؟ . . .

قال لها مبتسما :

ـ موافق . انى مطمئن الى سوء حظى

ونهضت من فورها . . ونهض هو . . فتعاونا على نقل احـدى حشيتى السرير الى ركن من أركان الحجرة . . . وأخذت هى فى وضع الوسائد وتهيئة ذلك الفراش الأرضى ، حتى فرغت منه ، فطلبت اليه عملة من ذات القرش ، واتفقا على أن الذى يخرج له الوجه ذو الصورة يظفر بالسرير . .

ورمت بالقطعة النقدية فى الفضـــاء ، فاذا هى الظافرة . . فقال لها :

ـ ألم أقل لك أنى أعرف بختى ؟!

ـ انى أخطأت الرمى ، فلتعد القرعة من جديد . . .

ـ لا . . لا . . من فضلك . . حافظى على مبـــدئك : الصراحة والصـــدق وعدم الخداع . . .لقد كسبت أنت وخسرت أنا . . فلا محل للمراوغة ولا لزوم «للحمرأة»!

فقبلت على مضض...وخرج من الحجرة الى أن خلعت ملابسها واندست فى سريرها ، فعاد وخلع ملابســه وأوى الى فراشه...ومدت ذراعها البضة المرمرية الىزر المصباح بقربها وهى تقول مستأذنة :

ـ هل أطفىء النور ؟

ـ اذا شئت . . وأتمنى لك نوما هنيئا. .ومستقبلا سعيدا مع من اختاره قلبك. .وانى واثق من أنك أحسنتالاختيار . . ولو أنك لم تحدثينى عنه . . .

ـ انه ضابط . . ملازم أول . .

ـ وشاب جميل بالطبع ، ويصغرنى بعشر ســنوات على الأقل فلا جدوى فى منافسة . . ولا أمل فى مقاومة . .

لفظها هامسا وهو يخاطب نفسه ، فسألته :

ـ ماذا تقول ؟

ـ لا شيء .. اطفئي النور ... تصبحي على خير ..

☐

مرت الأيام والزوج يمثل الدور المتفق عليه خير تمثيل، ويشعر حماته برفق أنه ليس الزوج المثالي الذي كانت تتمناه لوحيدتها ... غير أن المشكلة التي استعصت عليه هي مسألة الحجرة المشتركة. ان هذه الحال بينه وبين زوجته « المزيفة » لا يمكن أن تدوم على هذا الوضع .. انه لا يستطيع النوم وهي معه في غرفة واحدة ، هكذا كأنهما غريبان ، وبينهما حيوان شهوان ، بالحرمان يزأر وبالرغبة يجأر ... انه يحس كأن أنفاسها الحارة تلفح وجهه .. كل حركة منها تطرد النعاس من أجفانه ، اذا سعلت نهض يجرد نفسه من غطائه ليدثرها به .. واذا نفذ شعاع القمر من النافذة ، قام على أصابعه يتأمل وجهها البديع السابح في ضوئه ، ثم يسدل بعد ذلك الأستار ، حتى لا يزعجها النور . واذا تقلبت على أحد جنبيها تقلب هو أيضا . واذا نهضت بالليل لحاجة ، تصنع النوم العميق وكتم أنفاسه

المضطربة ، حتى لا تعلم أنه يقظان . انها فتنة دائمة نائمة فوق سرير .. ولكنها مستيقظة ثائرة ساهرة فى جوفه .. كل شيء منها يقض مضجعه . ويحطم أعصـــابه وارادته ويجعله يضطرب فى فراشه كأنه ريشة : رائحة جسدها فى أنفه ، وتنهداتها اللطيفة فى النوم ، وشـــخيرها الخفيف الهامس المتقطع ، وطريقتها العجيبة فى نومها،وهى منبطحة على وجهها ، بشعرها المتدلى ونحرها العارى ووسادتها التى تضغطها وتضمها فى حضنها .. انه لعذاب لا يستطيع أن يتحمله رجل من لحم ودم .. انه تحمل ذلك ليلة وليلتين وثلاثا وأربع .. وكاد ينقضى الاسبوع .. ولكن المضى فى ذلك لفوق الطاقة والاحتمال ... كيف يصـنع ؟ والبيت ليس فيه للنوم غير المكتب أو البهو أو قاعة حجرتهما هذه ثم حجرة أخرى تشغلها حماته ، أيبيت فى قاعة الطعام ؟ وما عسى أن يقول الخدم والحماة فى هذا التصرف من عريس؟ وحماته لن تفارقهما أبدا . اذ ليس لها غير ابنتها ملاذ .. لم ير الا أن يصبر صبرا جميلا . وأن يسرع فى انهـــاء مهمته . وجعل يشتد يوما بعد يوم فى اظهار غلظ طباعه .. وحماته تتغاضى حرصا على هناء ابنتها . وابنتها لم تكن متقنة لتمثيل دورها . فما كان يبدو عليها غضب من طباع زوجها

« الموهومة » . ذلك انها كانت تعلم انه اذا خلا بها فى الليل
جعل يعتذر لها عن اساءات النهار . . وانتهى بها الأمر أن
صارت تسر لهذا اللون من التمثيل كأنها طفلة وتكاد تضحك
بدل أن تغضب . . وهو يغمزها بعينه ، ويحثها على التظاهر
بالتقطيب . . بل كانت تغلظ أحيانا وتدافع عنه أمام أمها أو
الزائرين اذا وجه الى طبعه نقد . . فتفلت من بين شفتيها
كلمة « والله مظلوم ! »

الى أن جاء يوم خطر فيه للزوج خاطر وجد فيه العلاج
لسهاد الليل . ذلك أن يلجأ الى منزل صديق قديم عزب ،
يرتاح عنده وينام من العصر حتى المساء . وأخبر حماته
وزوجته أن أعمالا طرأت ترغمه على هذه الغيبة . . وصار
لا يعود الا فى العاشرة . وأحيانا فى منتصف الليل .
ولا ضير عليه فى ذلك ، فهذا يمكن أن يدخل ضمن برنامج
التمثيل لدوره البغيض

وعاد ذات ليلة فى الثانية صباحا . . فقد دعى الى عيد
ميلاد صديق ، وكانت ليلة بريئة فيها طرب وغناء ومزاح .
فرأى لدهشته ، زوجته تستقبله فى سريرها مستيقظة مقطبة
. . لاتقطيب تمثيل . . بل تقطيب غضب حقيقى . فلما

أبدى لها العذر وبين لها السبب . ســـكتت غير مقتنعه ولا راضية ..

ومرت أسابيع ، فاذا هى تطلب اليه يوما أن يذهب بهـا الى السينما .. ورأى حماته تحبذ الفكرة قائلة :

ـ نعم .. اذهب يا ابنى بعروسك وتنزها معا كما يفعل كل « العرسان » !

فرأى من واجبه أن يكون فظا سىء الادب فقال :

ـ ما كان ينقصنى الا هـــذا : أنا أخــرج مع بنتك الى السينما ؟!.

ـ وما المانع ؟ أليست ظريفةجميلة ؟ انها عروس تشرف أحسن عريس !

ـ هذا رأيك أنت وحدك ..

ـ عيب يا ابنى

ـ على كل حال ، ليس عندى وقت أضيعه فى نزهةبنتك

وهنا احمر وجه الزوجة غضبا وقالت :

ـ وعندك وقت تضيعه فى السهر لما بعد منتصفالليل ؟!

ـ هذا شأنى

ـ لن أخرج معك فى حياتى .. أبدا .. أبدا ..

وتركتـــه وانصرفت مسرعة الى حجرتها .. وأطرقت الحماة أسفا وألما .. أما هو فقد خرج الى شأنه ، كما اعتاد أن يصنع فى كل يوم .. ولم يعلق بنفسه شيء مما حدث ، كالممثل بعد تركه خشبة المسرح ، وقد ضرب عليها وطعن وجرح .. وعاد فى المساء فوجد زوجتـــه فى سريرها ، ووجهها فى وسادتها وقد بللتها بدموعها .. ولم تتحرك لدخوله .. وحسبها هو نائمة ، لولا شهيق خافت ، ونشيج غير مرتفع نبهه .. فذهب اليها يقول :

ــ مالك ؟ مالك ؟

فرفعت رأسها من فوق الوسادة ، والتفتت اليه وخيوط العبرات تلمع على خدها .. ولم تجب .. فقال لها بحنان :

ــ لم أرك تبكين هكذا منذ زمن بعيد .. أهو أيضا ؟

ــ من هو ؟

ــ الملازم ..

ــ أى ملازم ؟ آه ..

لفظتها مستدركة ، ثم قالت سريعا بنبرة عتاب مرة :

ــ لا .. لا تحاول التهرب من اساءتك .. بل اساءاتك المتكررة .. انى لا أستطيع أن أحتمل منك أكثر مما تحملت

هذا كثير على .. ما من امرأة تتحمل هذا من رجل !

ـ ماذا فعلت يا ناس ؟..

ـ أتنكر أنك آلمتنى اليوم ؟

ـ تمثيل طبعا ...

ـ هذه حجة بالية .. انك الآن صرت تجعل من هذ التمثيل ستارا تخفى وراءه كرهك لى ..

ـ سبحان الله !

ـ انك الآن أمسيت تتحاشى رؤيتى أطول وقت مستطاع أتنكر ذلك ؟ انك تنصرف مبكرا فى الصباح وأنا نائمة ولا تعود الا فى الغداء .. ثم تخرج فلا أراك الا فى العاشرة أو الحادية عشرة أو منتصف الليل .. انى أسألك وأسأل نفسى : ماذا فى وجهى ينفرك أو فى شخصى يبعدك ؟..

ـ أهذا معقول ؟

ـ أتقسم أنك لا تنفر منى ؟

ـ أقسم أن هذا لم يخطر لى على بال

ـ لقد كنت ظريفا معى فى أول عهدنا .. شديد العطف على .. كثير الحنان ..

ـ وأنا الآن كما كنت .. لم أتغير.

ـ نعم .. أحيانا ونحن وحدنا فى هذه الحجرة تتلطف معى ، ولكنك أمام الناس ..

ـ بالطبع .. أمام الناس يجب أن أكون غير لطيف .. طبقا للخطة

ـ أى خطة !.. أتعرف أنها أمست لعبة سمجة ؟!

ـ ولكن !.. هذا لابد منه ..

ـ كان يسرنى تمثيلك أول الأمر . ولكنى الآن أراك جادا فيه ، ويبدو لى كأنه حقيقة

ـ كثرة الممارسة تعلم الاتقان

ـ كنت أفضل أن لا تتقن هذا الدور..حتى لا يخالجنى شك .. كل كلمة منك الآن تطعننى حقيقة ، وتدمينى.. يجب أن تحذر قليلا .. لم يعد الأمر فى نظرى تمثيلا.. لقد اختفت كل لفظة رقيقة .. لماذا لا يمتـد اتقان دورك أيضا الى ما يسرنى ؟ كنت تقول لى أمام والدتى «يا سونة» وأحيانا .. « يا سونتى » ماذا حدث ؟ لماذا لا أسمع هـذا النداء منك اليوم ؟

ـ حصل تغيير فى الخطة . نظرا لضيق الوقت ..

ـ ضيق الوقت ؟

ـ ألا تعرفين ؟ نحن اليوم فى آخر أسبوعنا السابع .. ولم يبق أمامنا سوى بضعة أيام لنفترق ..

ـ بهذه السرعة ؟ أواثق أنك لم تخطىء ؟

ـ اطمئنى ! انى لا أغلط فى الحساب .. وكل يوم يمر أعده بكل دقة ..

ـ تعد الايام لتعتق رقبتك !

ـ أنا ؟!

ـ لم يبق اذن سوى بضعة أيام لنفترق !.. ما أشد سرورك !.. حدثنى ماذا ستفعل بعد ذلك اليوم ؟ وأين ستسكن ؟..

ـ لا أدرى . لم أضع بعد برنامجا لحياتى المستقبلة

ـ كم أتمنى أن تكون سعيدا فى حياتك المستقبلة . ترى هل ستذكر بالخير أو بالشر أيامى معك ؟

ـ بالخير طبعا

ـ وهل سيكون شخصى عزيزا عليك !..

ـ دائما ..

ـ أشكرك ..

ـ نامى الآن هادئة البال .. لقد تأخـــرت عن موعد نومك ..

وجذب الأغطية ، وغطاها جيدا ، ومست كفه وجههـا عفوا ، فمرغت خدها فى يده ،كأنها قطة تتمسح فى صاحبها وأحس دفء ذلك الخد المخملى الأسيل ، فسحب يده برفق .. وأطفأ النور فى سكون ، وذهب الى فراشه صامتا ..

□

مرت الأيام الباقية مرا سريعا ، فى جو عجيب رهيب . فهى قليلة الكلام نادرة الابتسام ، بادية الكا بة . وكأن على وجهها من الحزن المكتوم سحابة. تجيبه اذا تحدث بنظرة فيها أشياء ، يفهمها ويعلمها ويهتز لها فى أعماقه كأنها قصيدة بليغة . وقد شقت عليه مهمته ، فجعل يتحامل على نفسـه ليستطيع أن يمعن فى اساءته لها أمام والدتها ..

وتهيأت أخيرا الظروف التى يستطاع فيها اصدار ذلك القرار الحاسم ، دون أن تتأثر الأم كثيرا أو تخدش سمعة الزوجة

جاءت الليلة الاخيرة . فتعمد الزوج أن يعود فى الهزيع الاخير من الليل ، حتى يكون التعب قد أرغمها على النوم ،

ولكنه وجدها ساهرة مستلقية على ظهرها فوق سريرها ، وضـــوء المصباح على وجهها الشاحب ، وكأنها تشخص ببصرها الى السقف .. فقال لها :

ـ عجبا !.. ألم تنعسى بعد !

ـ كنت أنتظر عودتك

ـ لو كنت أعلم ذلك لجئتك مبدرا

ـ انك تعلم ذلك

ـ ما هذه اللهجة المكتئبة والوجه الحزين ؟

ـ ليس هناك ما يدعونى الى الفرح والاغتباط

ـ على النقيض ... كان يجب الليلة أنتكونى مسرورة مرحة . غدا تكونين حرة ، وتستطيعين الزواج ممن تحبين

ـ انك تعبر عن احساسك أنت

ـ لا شأن لك باحساسى من فضلك ، انى منذ خلوت بك فى هذه الحجرة ، فى ليلتنا الاولى ، وأنا لا أهتم الابشعورك أنت وحدك وموقفك ومشكلتك وقد عاهدتك على ذلك .. وأظن انى قد بررت بالوعد !

ـ نعم . لقد كنت رجلا شريفا

ـ الحمد لله

ووقع بينهما صمت عميق ... واضطربت فى شـفتيها كلمات ، لم تجرؤ على اخراجها..وأخيرا تشجعت وقالت:

ـ اذن أزفت الساعة ..

ـ أعتقد ذلك ..

ـ هل .. هل تحب أن تعـرف شعورى الآن .. أو ترى من مصلحتك أن تتجاهله ؟.. ثق أنه يشق على نفسى احراجك .. أظن من الخير لك أن أسـحب كلامى ، ولا أسألك شيئا.وليكن ما فى قلبى مكتوما . ولا يجب أنأطمع فى نبلك أكثر من ذلك ..

ـ افصحى وكونى صريحة دائما

ـ اذا طلقتنى فانى أموت

قالتها سريعا ، وأخفت وجهها فى كفيها . ولم يكن فى صدقها خلجة شك . وكان صوتها صوت الصدق نفسـه لو أنه أعطى لسانا .. فجلس زوجها على حافة سريرها ، وأمسك بيدها وقال :

ـ اسمعى يا .. سنية ! من الصعب على أن أنسى أنك

أحببت شخصا آخر .. ذلك الحب الذى رأيت بعينى آثاره فى وجهك ليلة عرسى !..

ـ أعلم أنك لن تغفر لى ذلك . وأحب أن تعاقبنى العقاب الذى تراه ، ولكنى أرجـوك أن تصدقنى اذا قلت لك أن عواطفى نحو ذلك الشخص كانت عواطف طفلة لم تعرف بعد ما هو الحب !

ـ انى لا أكذبك مطلقا .. غير انى واثق انك تقدرين موقفى ..

ـ نعم ، أقدر موقفك .. وأدرك ما يجول بخاطرك .. وأعرف السؤال الذى يمنعك أدبك من أن تسألنى اياه . ولكن أقسم لك أنه لم تكن بينى وبين ذلك الشخص علاقة تخجل أو صلة تشين .. كل ما فى الأمر أنه كان جارنا يوم كنا نقطن فى حى « العباسية » وكنت ككل فتاة يبهرها ذلك الزى العســكرى والقوام الممشوق ، وكان يحيينى وأحييه كلما تقابلنا فى الطريق ، وكان يحادثنى فى التليفون .. ولكنى لم أخرج معه قط .. ولم نجتمع على انفراد .. أؤكد لك ذلك وأحلف بكل يمين وسـيأتى الوقت الذى تتحقق فيه من صدق قولى ..

ـ انى أرى الصدق فى عينيك . وهذا يكفينى . ولكنى أخاف من أمر آخر .. حقيقة شعورك نحوى .. هل أنت واثقة ؟..

ـ كل الثقة

ـ كيف تقطعين بذلك ؟

ـ انك ترتاب ، لأنك لا تعرف الحب . ولكنى أخبرك ما هو .. انه ليس فى تلك البهرة العاجلة التى تخطف أبصارنا، ولا الهزة المفاجئة التى ترج قلوبنا .. ولكنه شىء يتكون على مهل كالجنين. أنه ينسج فتلة فتلة ، ويربط عقدة عقدة، كشغل « التريكو » .. هكذا يتوثق الرباط بين قلبين .. مهما تشك فى قولى .. فانى لن أستطيع التخلى أبدا عنك .. انك ضرورى لى ... بكل حسناتك وسيئاتك ... انك لازم لى ، بمجرد وجودك فى هذه الحجرة .. أسمع سعالك ، ويؤرقنى غيابك .. وتسرنى عودتك ، ولو بعد منتصف الليل ، ويضحكنى بحثك فى الصباح عن جواربك تحت السجاجيد وعن حذائك تحت الأمتعة ، ووجهك الملطخ بالصابون وأنت تحلق .. وجرحك لوجهك بالموسى، ونسيانك منديلك قبل خروجك .. واعتمادك على لأذكرك بمحفظتك الملقاة على منضدتى .. وابتسامتك الساذجة

اللذيذة ، وأنا أتمطى فى الصباح وأتثاءب ، وغضبك المفتعل وصياحك التمثيلى .. أمام والدتى ، وكلامك لى عن عملك كأنى أفهم دقائقه . ثم تذكرك فجأة أنى لست حقيقة لك فتبدى معى التكلف .. ثم تنسى فتتبسط وتدللنى وتلاطفنى .. وتطرى ثوبى الجديد ، ثم عاداتك فى الطعام عرفتها وتعلمتها .. فالخبز يجب أن يسخن ويحمر ، والأرز يؤكل مع الخضر .. حتى نومك .. عرفت فى أى ساعة من الليل تكون على جنبك الأيسر .. كيف تريد أن أتخلى عن كل هذا ؟.. تلك تفاهات صغيرة ، ولكنها هى الحلقات الدقيقة الوثيقة فى « تريكو » الحب الزوجى ..

ـ « تريكو » !.. يا له من تعبير ! لا تنسى الابرة الطو. من فضلك ! انها خطرة ، وهى فى يدك أنت !

فضحكت ضحكة رقيقة .. ثم قالت بنبرة جد :

ـ لا تخش شيئا منى أبدا ...

فأطرق مليا .. ثم رفع رأسه وقال :

ـ سونه .. دعى لى وقتا للتفكير !

ـ لم أسمع منك لفظ « سونه » منذ دهور !.. لم كل هذا الخوف منى ؟..

ـ ليس منك .. ولكن على كنوزى. كنوز البخيل التى ادخرها فى قلبه . نامى يا سونه الآن.. وفى الصباح نفكر وقد يأتى الفرج ..

وغطاها كما اعتاد أن يفعل ، وأطفأ النور وذهب الى فراشه الارضى فى ركن الحجرة ..

ولم يكد يأوى اليه ، ويسحب غطاءه عليه ، حتى سمع صوت سونه تثب من سريرها .. واذا هى قد دلفت الى فراشه ، واندست تحت الغطاء الى جواره والتصقت به والتحمت بجسده وهى تقول :

ـ أنت زوجى أمام الله والناس وقلبى ، ولن تفلت من بين ذراعى .. أبدا ..

وطوقته وضمته. واذا هو يجد نفسه فى مكان الوسادة التى اعتادت أن تحتضنها ليلا ..

وكانت تلك هى ليلة عرسهما ، ولعلها أول مرة فى تاريخ الزواج يهجر فيها العروسان سرير الزفاف ، ليفترشا الارض متعانقين ...

طريد الفردوس

ـ سنذهب الى الفردوس ...

ـ بعد عمر طويل .. ان شاء الله !

ـ الآن ...

قالها صاحبى المرح ، وهو يدخل بى ذلك المساء حانة من حانات القاهرة ، كتب على بابها بلون أخضر «بار الفردوس» وأجلسنى من الفور وجلس الى مائدة ، يبدو أنها محجوزة له ، موقوفة عليه...وأدار بصره فى المكان وحيا بنظرة صاحب البار واخوانه ، وبابتسامة حور الحان وولدانه .. وصفق طالبا الشراب وهو يتلو :

ـ قال الله تعالى : وما الحياة الدنيا الا متاع ...

ـ أكمل الآية من فضلك ...

ـ لم يتسع فؤادى لأكثر من هذه الجملة ...

وأقبل الساقى بالاقداح ، وأراد صاحبى أن يقدم الى قدحا ، فقلت له :

ـ ذنوبى قد فاضت بها كأسى فلا حاجة بى أن أزيدعليها قدح خمر .. اذا أردت أن تكرمنى فاطلب لى عشاء ! ..

فأذعن لرغبتى ... وطلب لى الطعام ، فطفقت ألتهم ، وجعل هو يرشف من كأسه .. ويقول :

ـ يعجبنى أن يعرف الانسان أن له ذنوبا ... اذا عرفنا ذنوبنا عرفنا حدودنا ... واذا عرفنا حدودنا لزمناها وأبينا أن نتعداها .. وهأنتذا قد رفضت أن تتعدى حدودك !.. سأقص عليك قصة ثق أنها ليست من وحى شرابى ، لقد وقعت بالفعل وفى هذا المكان بالذات ... واذا لم تصدقنى فسل كل هؤلاء الحاضرين .. ولكنك تعرف انى لم أكذب عليك يوما ..

فلم يستطع فمى المملوء بالطعام أن يجيب ... فاكتفيت بهز رأسى علامة المصادقة .. فمضى الصديق يروى قصته:

ـ لست أذكر هل سبق لى أن حدثتك عن ذلك الشيخ الصالح الذى يتبرك به أهل بلدنا فى الريف ، الشيخ عليش .. رجل ولد بعينين فى رأسه ، ولكنه لم ير بهما غير السماء .. ويبدو لنا أنه منذ نزل من بطن أمه،وضعوه فى اناء من زجاج وختموا عليه ، حتى لا ينفذ اليه هواء

البشر ، ولا تنسل اليه جرثومة من جراثيم الشر . . . رجل
لا يعرف ما هو الذنب ، ولا السيئة ولا الزلة ولا المعصية . .
ما كنا نبصره الا ساجدا أو هائما فى ملكوت الله ، لا يفطن
الى نفسه ولا الى من حوله . . . ولا يفرق بين الناس والهوام
. . . لم يؤذ انسانا ولا بعوضة ، ولا يملك من دنيـــاه غير
مسبحة من حصى ، وغير موسى يحلق بها شعر رأسه ، وغير
عمامته العتيقة ، وأطماره المهملة ، ولحيته المرسلة . . . هكذا
عاش ، يأكل من عشب الارض أحيانا كأنه دابة ، ويقضم
ما يلقى فى حجره أحيانا من كسرات المحسنين على غفلة منه
أو سهوة ، فهو لا يسأل أحدا شيئا . . . ولا يطلب الى الدنيا
متاعا . . . الى أن مات الشيخ ذات يوم ولم يبلغ الاربعين . .
وكنت بالمصادفة فى الريف ، وأبصرته بعينى مع غيرى من
الناس ، وهو ملقى فى مكانه ، مسجى عـلى الغبراء ، وقد
طرحت عنه عمامته فبدا رأسه الحليق ، كالصخرة اللامعة
الملساء ، وسقطت الى جانبه المسبحة ، وظهرت من حزامه
يد الموسى . . . وسكنت حركة لحيته التى ما كانت تهتز الا
لذكر الله . . . وهبطت على الناس رحمة به ، فأجمعوا على
أن يبنوا عليـــه ضريحا . . . وما تركت الريف حتى كان
الضريح قائما على جثمان الشيخ عليش ، وقد ســاهمت

بنصيبى فى اقامته ، وقلبى جياش بالتأثر ، ونفسى فياضة بالخشوع ... وعدت الى القاهرة ، وعاد الى ضعفى ، قاتله الله ... وجذبتنى قدماى الى مكانى المألوف من هذه الحانة .. فما نحن الا بشر ، لم يكتب لنا السمو على أنفسنا غير لحظات .. ومرت أيام ... واذا بى أسمع جلبة من مكانى هذا ، فاستدرت فأبصرت على هذه المائدة من خلفى شيخا رث الهيئة ، قد أحاط به خدم المحل، يحاورونه ويحرجونه ويفهمونه أن الموضع ليس موضعه ، وأن من الخير له أن ينصرف بالحسنى ، فتتبعت المحاورة ، ثم سددت الى الشيخ البصر .. ويا لهول ما رأيت !.. كلا .. انه ليس الوهم ولا السكر ولا الجنون .. بل هو الشيخ عليش بشخصه ولحمه ودمه وعمامته وأسماله ومسبحته وموساه ... وفركت عينى وطلبت فنجانا من قهوة ثقيلة أستعين بها على اليقظة .. ثم سألت صاحب الحانة أن يمتحن عقلى . وطلبت الى غانية من حسان المكان أن تفحص صحوى، فنظرا الى بريبة أول الأمر ، ولكنهما خضعا لاصرارى ، ولم أتركهما حتى أقرا واعترفا انى ثائب الى رشدى ، مالك لصوابى .. فتقدمت الى الشيخ ، ونحيت عنه الخدم ، وقلت له بصوت متهدج :

ـ ما اسمك أيها الشيخ ؟ ..

فما راعنى الا قوله ، بجد وصراحة وثبات :

ـ عليش !

وكان الصوت صـوته ، والنبرة نبرته ، فكدت أجن ، ومضيت أستفسر منه :

ـ الشيخ عليش من بلدة ..

فذكر لى اسم البلدة والقرية من ذلك الريف بما لم يدع فى نفسى ذرة من شك ..

ـ ساكن الضريح الذى ساهمت فى ..

ـ نعم ..

ـ وكيف تركت ضريحك وجئت ها هنا ؟ .. لقد أبصرتك بعينى رأسى وأنت ميت ..

ـ نعم .. لقد مت حقا .. وأردت أن أدخل الفردوس ولكنهم طردونى !.

ـ الفردوس ؟!.. أيمكن أن يغلط الانسان الى هـذا الحد ؟ ألا تستطيع أيها الشيخ الورع أن تفرق بين الفردوس الذى فى السماء ، و « بار » الفردوس الذى فى شارع عماد الدين ؟!

ـ لا .. لم يحصل منى غلط ! لقد صـــعدت فعلا الى السماء ، وطرقت باب الجنة ، فمنعنى حارسها من الدخول ، وأعلن الى أنى لست من أهلها ، ونصح لى أن أطرق باب النار ، فصدعت بالأمر دهشا حزينا وطرقت باب النـــار ، فمنعنى حارسها أيضا من الدخول ، وأعلن الى انى لست كذلك من أهلها .. فحرت فى أمرى ، وصحت شـــاكيا سائلا الهداية ، طالبا البت فى مصيرى ، وأخيرا قالوا لى : ليس فى السماء موضع أوضع فيه .. لان الدنيا معركة بين الخير والشر ، ومبارزة بين الفضيلة والرذيلة تقوم فى نفس الانسان ، فاذا انتصر الخير دخل الانسان مملكة الخير وهى الفردوس ، واذا انتصر الشر دخل مملكة الشر وهى الجحيم .. أما أنا فلم تقم فى نفسى معركة ، ولم يحدث انتصار ، ولم أواجه الشر لأغالبـــه .. فأنا فى نظرهم كالفار من الميدان ، أو الهارب من الامتحـــان ، فكيف يجوز لهم أن يثيبونى أو يعاقبونى ، وأنا لم أعرض نفسى لاحداث الحياة ، حتى يظهر معدنها الخير من معـــدنها الشرير ؟.. انى فى نظرهم غشاش مخادع ، لجأ الى أيسر السبل لينال الجائزة دون أن يواجه الخطر !. وانتهى أمرهم الى اعلان هـــذا القرار فى أمرى : وهو الغاء حياتى الاولى واعتبارها كأن لم

تكن ، وطـــردى من السماء ، لأعيش مرة أخـرى على الارض ، بنفس جسمى وروحى وكيانى الاول ، على أن أتقدم للامتحان العسير وأواجه الشر وأنازل الرذيلة ليعرفوا بعد ذلك من أمرى ما ظهر وما اســـتتر .. وألقوا بى الى الدنيا من جديد بعين ثيابى وهيئتى ، فوقعت على القاهرة ، وأنا لم أزل فريسة حزنى ويأسى من ضياع جنتى ، أردد كالمجنون عن غير وعى : « الفردوس ... الفردوس !. » فدفعنى أحـد المارة الى هـــذا المكان قائلا لى : « ها هو ذا الفردوس ! . » فدخلت،واذا بى أجد فيه أيضا من يطردنى منه .. حتى أنقذتنى أنت أيها الرجل الطيب ..

عجبت لقصة الشيخ ، وأخذتنى به شفقة .. وقلت له :

ـ لا عليك أيها الشيخ المبروك . ما حدث لك لا يحدث لأى انسان . انما هى كرامة من كرامات أولياء الله ..أن يسمح لبشر أن يعيش مرتين فى هذه الدنيا ...

ثم أنهضته برفق وأجلسته باحترام الى مائدتى،وقلت له:

ـ والآن ، ماذا تنوى أن تصنع فى حياتك الجديدة ؟..

ـ أواجه الشر .. اذا أردت أن تخدمنى أيها الرجـل الطيب فدلنى أين أجد الشر ..

فضحكت قليلا ، وقلت :

ـ هذا شيء بسيط .. وان كنت شخصيا لست بالدليل البارع فى هذا السبيل .. ولكنى أستطيع على كل حال أن أعرفك بالشر فى أهون مظاهره ...

وصفقت للساقى فحضر .. فقلت له :

ـ زجاجة شمبانيا لفضيلة الشيخ !..

فحملق « الجرسون » فى وجهى ثم تنبه وأسرع يلبى الأمر ولم يلبث أن عادبالزجاجة غارقة فى اناء الثلج،وفض خاتمها الفضى ، فانطلقت السدادة كأنها مدفع .. نبه الينا حسان الحانة . فصوبن الينا نظرات دهشة مذهولة ، أتبعنها ببسمات ثم ضحكات خافتة مكتومة لهذا المنظر الفريد فى الدهر ..

ـ فى صحتك !...

ورفعت كأسى وأشرت اليه أن يرفع كأسه .. فرفعها بيد مرتجفة ورشف منها بحذر كأنما يرشف سما .. ولم يدر بخلدى قط أنى جرعته حقا سما سيسرى فى حياته الجديدة ، ويفعل بها الأفاعيل .. ولم أفطن للأمر الا بعد أن جرع الشيخ كأسه الثالثة .. وثمل وانقلب يغنى

بالتواشيح الدينية والمدائح النبوية ، ثم يسبح بأسماء الله على مسبحته بصوت السكارى .. وهذا كل ما يعرف طبعا من غناء دفعته اليه النشوة .. فبذلت جهدا فى اسكاته ، خشية الفضيحة .. وصيانة لمقام الدين ونحن فى هذا المجال .. فاقتنع الشيخ ، وترك الغناء بهذه الاشياء المقدسة .. وتلفت ذات اليمين وذات اليسار فلمح غانية ظريفة فتنحنح وقال :

ـ أعطنى هذه الحورية !..

فأومأت اليها ، فأقبلت وجلست وأوصيتها بمداعبة الشيخ، فداعبته ولاعبته حتى ذهبت ببقية لبه .. وخطر له وهو فى أوج انشراحه وترنحه أن يسألنى عن اسمى ، فراوغته، فقال :

ـ ولماذا أسألك ؟ أوتظننى أجهلك ؟

ـ أتعرفنى ؟

ـ طبعا .. أنت رضوان .. الذى أدخلنى هذا الفردوس بحوره العين ..!

وقهقه ضاحكا ، ومال على الغانية يضمها .. وانتصف الليل ثم دقت الساعة الواحدة ، وأقفرت الحانة ، وأراد صاحبها أن يغلقها . وهنا راحت السكرة وجاءت الفكرة..

ماذا أنا صانع بهذا الشيخ صاحب الكرامات ؟.. وأين يكون مقره ومقامه ؟... ليس من المعقول أن أسحبه معى أو أذهب به الى منزلي .. وليس من المعقول أيضا أن أرده الى ريفه وأعيده الى ضريحه !..ما الحل ؟ أين يبيت ليله؟..

وتأملت الأمر مليا .. ثم قلت فى نفسى : « ولماذا أتعب نفسى به ؟ ما شأنى بهذا الشيخ ولى الله ؟. هل عيننى أحد ولى أمره ؟.. وهل قذفوا به من السماء لأحمله أنا على ظهرى ؟.. »

وهدانى الله الى وسيلة .. أن أنقذ الغانية مبلغا لتخرجنى من المأزق ، وتبقيه معها ريثما أنصرف بسلام .. ولها بعد ذلك أن تؤويه أو تلقيه ..

وتم لى ما دبرت ، وأنقذتنى الغانية الكريمة ، وانصرفت الى بيتى ، وانقطعت عن هذه الحانة أسبوعا ، خشية أن أصادف الشيخ، فيتعلق بى ويرغمنى على مصاحبته ومسامرته وتحمل تبعته وشأنه وهمه ومستقبله ..

ومضى الاسبوع فلم أجازف بالذهاب..وآثرت الاتصال بصاحب الحانة بالتليفون .. فما كاد يسمع صوتى حتى صاح بى قائلا :

ـ ما هذه المصيبة التى نزلت علينا ؟!

ـ أى مصيبة ؟

ـ صاحبك الشيخ...انه لا يريد أن يترك المحل لا ليلا ولا نهارا .. وكلما ناقشناه صاح فينا : لن أذهب أبدا .. المؤمن لا يطرد من الفردوس مرتين !..

ـ وماذا صنعتم به ؟

ـ لا شيء .. صنعنا له صندوقا لمسح الاحذية ، وحلقنا له ذقنه ، وألبسناه جلبابا ... وألحقناه بخدمة المحل،ينظفه بالنهار ، ويلمع أحذية الزبائن بالليل !..

ـ فكرة نيرة جدا ..

قلتها بكل اخلاص ، وكل اعجاب .. ولكن هـــذا لم يمنعنى من تعمد الانقطاع عن الحانة زمنا آخر ، حتى يلتصق الشيخ عليش بصفته الجديدة تمام الالتصاق ، وينسى الليلة المعهودة تمام النسيان ، فلا يلحقنى من لقياه متاعب ...

▭

ومرت أعوام ثلاثة .. دون أن أضـــع قدمى فى تلك الحانة .. لا تعمدا بل طاعة لأمر القـــدر .. أو قل أمر

الحكومة ، فقد دس لى الحاســـدون النمامون لدى رئيسى الجديد « الغشيم » اللئيم ، واتهمونى ظلما بأنى قليل العمل كثير الكسل ، مدمن على السكر والعربدة وارتياد الحانات .. فما راعنى ذات صــباح الا أمر من الوزارة بنقلى الى أقاصى الصعيد .. فمكثت هناك الى أن أذن الله والمســاعى المثمرة بعودتى

فما أن استقر بى الحال فى عملى الجديد بالمصلحة ، حتى شعرت بالحنين الى حياتى الماضية .. ونشطت ذات مســـاء أقصد هذه الحانة ، وكنت قد نسيت الشيخ عليش وما جرى له بالتمام .. فدخلت وأجلت النظر فى المكان ، فلم أجـد شيئا على حاله القديم.. كل شيء قد تغير : مائدتى المختارة، والغانيات والساقون و « البارمان » ، وحتى مدير المحل .. لم يبق شيء كما كان ســـوى اسم الحانة ، فهو هو دائما لم يتغير : « بار الفردوس » !..

وقفت لحظة حائرا لا أدرى أين أجلس .. حتى لمحت غانية من بنات الهوى ، قد اعتلت البار .. وهى بمفردها تدخن ، والدخان مغيم حول وجهها الابيض المستدير كأنه السحاب حول قمر .. فاتجهت اليهـا ، ووقفت بجوارها

وطلبت لها كأسا ولى أخرى ، وأخـــذت أغازلها بكلمات محفوظة مما يناسب المقام .. الى أن قطع الحديث ماســـح أحذية ، يهمس قربى : « تمسح يا بك ! » . . . فارتجفت ونظرت اليه ، وتذكرت فجأة الشيخ عليش .. وقلت فى نفسى : ماذا أنا فاعل لو ظهر الشـــيخ بصندوقه ، وماذا أنا قائل لو جذب حذائى ليمسحه ؟ أأدفعه اليه ، أم آباه عليه .. ترفقا به واحتراما له ؟!

ورفعت الغـانية قدحها الى شفتيها ، وهى تنظر الى باب الحانة قائلة لى بقلق :

ـ لن أقف طويلا معك...انى أخاف أن يحضر فيرانى .. انه شديد الغيرة !..

ـ عمن تتكلمين ؟

ـ علوى .. علوى بك !..

ـ علوى بك !.. من هذا ؟..

فظهر علىوجهها الاستغراب ، والتفتت تحدق فىوجهى وهى تقول :

ـ عجبا !.. ألم تسمع بهـذا الاسم ؟ كل شـارع عماد

الدين يعرف من هو علوى !.. يظهر انها أول مرة تدخل فيها البارات والكباريهات ..

ـ حقا .. منذ أكثر من ثلاثة أعوام !..

ـ لقد اقترب موعد مجيئه .. أنصحك أن تبتعد عنى بمجرد اشارتى لك بالابتعاد .. والا فأنا لست مسئولة عن منخارك أو أذنيك اذا أطاح بها حد الموسى !..

ـ يا مغيث !..

قلتها هامسا مرتعدا .. وأنا أنظر الى الباب .. ثم خطر لى أن أبتعد بكأسى عن المرأة منذ الساعة ، دون انتظار للمقدر والله يغنينا عن قربها المحفوف بالمخاطر .. ولكنى خشيت أن أبدو على هذا الجبن أمام امرأة ، لعلها ما قصدت الا العبث بى والمزاح معى ... وتجلدت قليلا ، واستأنفت الحديث والمغازلة..واذا هى فجأة تلتفت الى الباب ، كالقطة التى أحست بغريزتها حركة.. ثم أدارت لى ظهرها،ونأت عنى بقدحها .. فأدركت أن صاحبها قد حضر .. ولقد شعرت بالفعل كأن الحانة كلها قد مستها شرارة كهرباء .. فقد ساد بغتة صمت لدخول ذلك الرجل ، شمل الحاضرين من زبائن وساقين الى مدير المحل الجالس فوق المنصة .. فرفعت عينى بحذر وأدب أفحص ذلك الذى يسمونه

« علوى » .. فرأيت رجلا أنيق الملبس ، خفيف الشارب، لامع الشعر يتضوع منـه عطر الكلونيا الثمين .. وخاطب الرجل بلهجة الآمر « البارمان » فخيل الى أنى أعرف هذا الصوت ، واحتلت لأنظر الى وجهه مليـا .. فاذا الدهش يعقد لسانى : لم يكن علوى بك هذا غير الشيخ عليش فى قالب جديد !..

ولم أدر ماذا أصنع عندئذ .. هل أحادثه ؟ هل أنسحب من المكان دون أن أشعره بوجودى ؟..وتساءلت : أترضيه مقابلتى اليوم أم تزعجه ؟.. ليس لى أن أبدأ على أى حال بشىء ... ولكن الظروف سرعان ما تدخلت .. فقد أراد هو أن يخرج من جيبه الخلفى علبة السجاير . فصدمتنى يده على غير انتباه منه . فالتفت نحوى .. وتقابلت عينـانا فحملق فى وجهى لحظة ،كمن يراجع ذاكرته..ثم ما لبث أن انفرجت شفتاه عن صيحة أذهلت الحاضرين :

— رضوان !..

ثم فتح ذراعيه ، وعانقنى عناقا طويلا .. فرحا كالطفل، مبتهجا كمن لقى لقية .. وهو يردد : « رضوان..صديقى رضوان ! » .. وقبل أن أفتح فمى بحرف ، جـذبنى من

يدى وقادنى الى مائدة فى طرف الحانة كأنما يريد أن ينفرد ويستأثر بفرحة العثور على . . . وصفق ينادى «الجرسون» :

ـ زجاجة شمبانيا !..

ـ هكذا سريعا ؟!

ـ دعنى أرد اليك بعض دينك ! أين كنت طول هـــذا الزمن ؟ . . لقد بحثت عنك فى كل مكان . . ولكنك اختفيت فجأة . هأنذا أعثر عليك الآن فاتركنى أرد اليـك الحسنة بعشرة أمثالها ! . .

ـ لست أدرى هل تعتبر فعلتى حسنة ؟! . .

قلتها كالمخاطب لنفسى ، وأنا أجيل بصرى المشدوه فى كل جزء من أجزاء هذا الكائن الذى كان يسمنى فيما مضى « الشيخ عليش » . . كلا ، ان التغير الذى طرأ عليه لا يمكن أن يسمى تغيرا ولا تطورا ولا انقلابا . . انه شىء لم يوجد له بعد اسم . . الوجه وجهه والصوت صوته ، ولكن اللهجة التى بها يتحدث ، والطريقة التى بها يشرب ، والاسـلوب الذى به يسمر ، والعقل الذى به يفكر ، والنفس التى بها يشعر . . كل هذه أشياء أراها لأول مرة . . على أن عينى الفاحصة دلتنى على شىء عنده سبق أن رأيته . . طرف الموسى

البارز هذه المرة من جيب الصدر ، خلف منديله الحريرى المتهدل .. ولم يدعنى أستغرق فى دهشتى وتأملى .. فقد رفع كأسه قائلا :

ـ فى صحة رضوان !..

فرفعت قدحى :

ـ فى صحة علوى !

وشرب كأسه كلها فى جرعة واحدة .. ثم التفت الى قائلا :

ـ أرى أن عطشك الحقيــقى هو الى معـرفة شىء عن صديقك الجديد « علوى » !.

ـ طبعا !..

فأشار الى ماسح الاحذية الذى يجوس بصندوقه خلال المكان وقال :

ـ لقد بدأ هكذا ...

ثم أخذ صوته يخفت كلما أوغل فى الحديث، كأنما يدلى باعتراف أو يسعى الى مخاطبة النفس ... ثلاثة أشهر أو أربعة حمل فيها صندوق الاحذية وتعلم خلالها النشــــل والمقامرة والمغامرة وخدمة الغوانى .. الى أن تجمع فى يده

مبلغ من المال .. فطرح صندوقه وجلبابه ، واشترى بذلة نظيفة وصار أفنديا .. ولكن صلته بالغانيات وحاجتهن الى الحماية جعلتا منه فى نظرهن رجلا لا غنى لهن عنه. ولقد تبين له بعد قليـــل أن هذا عمل مريح .. فقد كثر عـدد المحتاجات الى يده وحمايته .. وشاع عنه ذلك فى هـــذه البيئات ، وشاهد الناس من خوارق براعته فى اســـتخدام الموسى ما جعلهم يحسبون لغضبه حسابا .. وامتد نفوذه الى أكثر البارات والحانات ، بمن فيها من نساء وزبائن وساقين .. فهو الآن يرتاد أغلب أماكن اللهو ، ويطلب ما يريد ، دون أن يجرؤ أحد على الاعتراض أو المطالبة .. بل هو الذى يتقاضى من أصحابها الاتاوات والمرتبات لضمان الهدوء فى هذه المحال .. وهو أحيانا يشتط فى الطلب ، ويركن الى التهديد واحداث الشغب فيذعن من يذعن ، ويلجأ البعض الى بيع حاناتهم هربا منه وضيقا. كما حدث للمالك السابق لبار « الفردوس » .. هذا هو علوى . وهذه حياته ... رواها بلهجة سريعة مقتضبة ..

ثم التفت الى قائلا :

ــ والآن ما رأيك ؟ ..

فألجمتنى الحيرة ... ماذا أقول ؟.. وكيف أمسه بنقد وهو شارب ، والموسى فى جيبه ... ولكننى أجبته برفق :

ـ لقدكنت هبطت الارض لتواجه الشر فيما أذكروتنازل الرذيلة ..

ـ ماذا تقول ؟..

ـ ألا تذكر أنهم أنزلوك الى الارض من جديد لتنازل الشر ؟..

ـ من الغريب اننى نسيت ذلك . لقد استغرقتنى حياتى وجرفتنى ، فلم أفطن الى ما جئت له ...

ـ ألم تصادف الشر ؟.. ألم تر الرذيلة ؟..

ـ أين ؟..

قالها كالتائه أو المحدق فى الظلام .. فألقيت نظرة الى الزجاجات الثلاث التى أفرغها فى جوفه ، منذ جلوسنا .. ثم تأملت حاله ، فلم أجد للشراب أثرا فى صوابه .. هو اذن صادق فى احساسه .. لقد جرفه التيار الى حد ألهاه حتى عن سؤال نفسه : « فى أى طريق يسير ؟.. ».. يا لها من هزيمة ! انه لم يثبت للنزال ، لقد تلاشى الشيخ عليش ، وتلاشت عمامته ومسبحته بلمسة خفيفة من ظل الرذيلة

لقد رفع فى الميدان الراية البيضاء دون وعى منه ، قبل أن يفطن حتى الى وجود عدو ومعركة !..

وأطرق الرجل طويلا .. ثم قال بذلك الصوت الخافت الصاعد من أعماق نفسه :

ـ فى يدى المال والسطوة والمتعة .. ولكنى .. مخلوق شقى !..

ـ أبدأ ضميرك يعذبك ؟

ـ ضـــميرى ؟!.. أعرف الآن ما هو .. أتستطيع أن تجيد الاصغاء الى .. لأخبرك ؟..

ـ نعم .. أخبرنى بكل شىء . انى أحس كأنى مسئول

فقاطعنى بتصفيقة قوية ينادى بها الساقى وهو يصيح :

ـ زجاجة أخرى !..

ولكن مدير المحل أومأ الى « الجرســون » أن يتغاضى ويتصامم ، وصفق علوى مرة ثانية وثالثة .. فلم يجد ملبيا لندائه ، فأطلق صيحة مدوية ضج بها المكان ، فحضر اليه مدير المحل يقول :

ـ علوى بك !.. ألا تكفى ثلاث زجاجات من الشمبانيا الفاخرة ؟. هذا كثير !..

ـ الكثير أذناك اللتان لا تسمعان طلبى .. سأريك أن واحدة منهما تكفيك لسماعى !..

وفى مثل لمح البصر ، استل موساه من جيب صـدره . وقذف مدير المحل .. وكنت لحسن الطالع قد فطنت لقصد صاحبى ، فدفعت بكل قواى مدير المحل بعيـدا عن مرمى النصل ، فنجا واستقرت الموسى فى خشبة المنصة !.وهاجت الحانة وماجت ولكن ما من أحد تحرك من مكانه ، فقد كانت لعلوى هيبة .. فتسمر الحاضرون فى مكانهم رهبة أو وهما .. وقام هو يمشى على مهل بجلال الى المنصة ، فنزع عنها نصله البراق وطواه ودسه خلف منديله،وأراد أن يعود الى مجلسه من الخوان ، ولكنى أمسكت بذراعه وسألته بلطف أن يخرج معى من الحانة،لنستأنف حديثنا فى هواء الطريق الطلق .. فأذعن مرغما لرجائى وخرج معى..وهويهمس بغضب مكتوم :

ـ لا يستطيع أحـد أن يخرجنى قهرا من هـذا ... « الفردوس » !

ـ قهرا لا .. لقد خرجت بارادتك !..

قلتها له بلهجـة التزلف والمداراة خشية من بوادره ،

وتهدئة لثائره ، ثم سألته ونحن فى الشارع سـائران أن يمضى فى حديثه ، وأن يخبرنى بما كان يزمع اخبارى به .. فنظر فى ساعة ذهبية بمعصمه وقال :

ـ لا أستطيع الآن ... غدا اذا شئت... وموعدنا فى عين هذا المكان .

ـ عين هذا البار ؟! أو هذا ممكن بعد الذى حصل ؟..

ـ ماذا ؟.. هذا يحصل كل يوم !..

▭

لم أتمكن من مقابلته فى الموعد المحدد .. فقد دعيت الى عرس أحد أقربائى فى الريف .. فسافرت ولبثت هنـاك بضعة أيام ، رأيت فيها العجب : ضريح الشيخ عليش أصبح كعبة يحج اليها مئات الناس من القرى المجاورة ، يحملون اليه الشموع أيام الاسـواق ويوفون بالنذور .. وينوهون بكراماته العديدة فى ابراء الامراض وقضاء الحاجات ...

ولقد أبصرت امرأة ترفع طفلها العليـل بيديها ليلمس شباك الضريح ، ويتلقى من مس حـديده البركة ، وهى تصيح من أعماق قلبها :

ـ يا شيخ عليش !. يا ولى الله يا ساكن الفردوس !.

نظرة .. مدد .. نظرة .. مدد !..

ولقد سمعت رجلا يهز باب الضريح صائحا :

ـ يا شيخ عليش !. يا حليق الراس ... خد بيدى ، واشف وجع راسى !

أبصرت ذلك وسمعته كثيرا من أفواه كثيرة .. وقلت فى نفسى : منذا يستطيع أن يقول فى هذه الجموع المؤمنة الآملة ان الشيخ عليش لا يوجد الا فى بار « الفردوس » بشارع عماد الدين ، وأن من يدعونه ولى الله حليق الرأس ليس سوى « بلطجى » يحلق الآن الأنوف والآذان بموساه من رؤوس الناس !!..

لو قلت لهم هذا القول لرجمونى بالحجارة ، وصاحوا بى : اقتلوا الكافر !.. اهلكوا الكافر !..

على أن العجيب فى الأمر أن كثيرا من هؤلاء المرضى الذين يزورون الضريح يشفون حقا .. ولقد أكد لى ذلك بعض من يوثق بقولهم من جلة أقربائى فى الريف ..

ولقد فكرت فى ذلك قليلا ، فزال عنى العجب : يا لهؤلاء الناس !.. انهم هم الذين يشفون أنفسهم بأنفسهم وهم لا يعلمون . ان الناس لا تريد أبدا أن تصدق القوة الخفية

الكامنـــة فى أعماقهم . ولابد أن يخترع لهم وهمهم قوة خارجية ينسبون اليها ما يأتون هم من معجزات !..

وتخيلت حال الشيخ عليش ـ أو علوى بك ـ لو أخبرته بأمر هذا الكرامات التى تفيض على الجموع من نوافذ ضريحه .. بينما هو غارق فى خمور البارات والحانات .. ولكنى رأيت أن أمسك عن اخباره وأن ألزم الصـمت المطبق ، رحمة بجيوب العبـــاد .. فانه لو علم ، لحضر الى الريف واستغل هذا المنجم الذى لا ينضب ... وحسبى ما اقترفته من اثم ما زال يوقر ضـميرى ، اذ دفعته الى طريق الموبقة أول ليلة .. فلا ينبغى أن أدفعه الى طريق اثم جديد .. فليبق اسمه منبع رحمة للناس وليذهب جسمه الى الجحيم

عدت الى القــاهرة .. وذهبت فى المســاء الى حانة « الفردوس » فتلقانى مدير المحل بالترحيب ، وشـــكر لى موقفى وتدخلى فى تلك الليلة التى هاج فيها علوى وقذفه بالموسى .. وقال لى انه كان ينوى أن يخبر البوليس ، وأن يجازف ويتعرض لانتقام علوى .. فهو يعلم أنه لن يتركه فى هدوء اذا هو بلغ عنه .. فهو له أعوان .. وانه سيتعقبه بالويل ولو بعد أعوام من سجنه ... لو سجن ... ولكنه

آثر ضبط النفس ، والتغاضى عن الحادث .. لانه يعرف علوى منذ زمن ، ويعلم انه سريع الغضب سريع الصفاء .. والخير فى استئناف الصلات الودية مع مثله ... غير انه يلاحظ عليه فى الاسابيع الاخيرة تغيرا غريبا . وليس هو وحده الذى رأى ذلك منه .. غانيات الحانة على الخصوص وهن أدق احساسا بما يشغل نفسه فى هذه الايام .. ولقد سألته : أحادث علوى بعد تلك الليلة ؟.. فأخبرنى وهو دهش أن علوى لم يحضر الى الحانة منذ خروجه معى تلك الليلة

وعبثا حاولت بعد ذلك العثور على علوى .. بحثت عنه فى جميع البارات والكباريهات ...

وأخيرا قال لى أحد خدم « البار » انه لمح ذات مرة شخصا يشبهه جالسا أمام مقهى وصفه لى فى حى السيدة زينب

فذهبت الى ذلك المقهى .. فاذا بى أجد علوى قاعدا بمفرده ، يتأمل شيئا لا أتبينه .. فدنوت منه ، ولكنه لم يفطن الى حتى وضعت يدى على كتفه .. فأفاق فى شبه رعدة ونظر الى وقال :

ـ أنت ؟ ماذا أتى بك الى هنا ؟..

ـ وأنت .. ما الذى أتى بك الى هنا ؟..

ـ اجلس ..

قالها وهو يهيىء لى كرسيا بجواره ، ونادى «الجرسون» وطلب لى فنجانا من القهوة.. وأطرق طويلا ، ثم رفع رأسه وقال بصوت كالهمس :

ـ يجب أن أخبرك ..

ـ بكل ما يقوم فى نفسك !

ـ نعم .. لن أخفى عنك شيئا مما فى نفسى .. انى أحب . وعندما ألفظ أنا هذه الكلمة ، فاعلم أن أمرا عظيما قد وقع . فأنا من أكثر الناس صلة ومعرفة بالنساء ، ومن أكثر الرجال متعة وامتلاكا للحسان والغانيات والجميلات.. ولكن الذى حدث لى قلب كيانى وأنبت فى قلبى مشاعر أحسها لأول مرة .. هى فتاة لو رأيتها لعجبت كيف أن مثلها يمكن أن يوحى بالحب .. على الأخص الى رجل مثلى .. نحيلة ضئيلة يضرب لونها الى الصفرة ، لا تضع الطلاء ، ولا تعرف الاغراء ولا تلبس غير البسيط الضرورى من الثياب .. هى معلمة فى مدرسة ابتدائية للبنات فى هذا

الحي . . تسألني : كيف عرفتها ؟ أقول لك : المصادفة . . كانت في دار من دور السينما مع بعض تلميذاتها ، يشاهدن رواية ملونة بالرسوم المتحركة . فلما انتهت الحفلة وخرجت بأطفالها تعرض لها شاب ثقيل بمغازلة سمجة ، فلم تعرف كيف تحمي نفسها منه ، فتدخلت وأنقذتها ، وأوصلتها الى مدرستها مصونة موقرة مع تلميذاتها . . فشكرت لي ذلك بصوت لن أنساه ! صوت أثر في نفسي كما تؤثر أحيانا قطرات الندى في قطعة الصخر . . صوت لم أسمع من قبل نبرة حنانه ورقته ووداعته حتى ولا بين ملائكة السماء ! . . منذ تلك اللحظة شعرت أني محتاج الى هذا الصوت ، كما تحتاج الصحراء الى ماء المطر . . فكنت أجيء في كل يوم أترقب موعد خروجها ودخولها المدرسة . . لأقابلها وأقرئها السلام ، زاعما لها أني من سكان الحي ، وأنصرف عنها وقد ملأ صوتها قلبي . . فأعيش على هذا الغذاء ساعات حتى أحس الحاجة الى صوتها من جديد . . . هذا كل عملي الآن . . انها كل شغلي الشاغل . . بل هي النور الذي أضاء جوانب نفسي وجعلني أتحسس دهاليزها المعتمة وأعرف ما فيها من خير وشر ، وفضيلة ورذيلة ، وكنوز وثعابين ، آه . . ليس الفردوس هناك في السماء . . وليس هنا في

شارع عماد الدين !. انه هنا فى القلب !.. وربما كان فيه الجحيم أيضا !.. لقد عشت أياما على أمل الزواج منها .. لأنى بغير هذا المصباح لا أرى شيئا ، ولا أميز شيئا .. ولا أفرق حتى بين الحسنة والسيئة ، ولكن دون هذا الأمل هوة أوسع من فوهة جهنم !..لقد تمكنت من اطالة حديثى معها..فعلمت أنها مخطوبة لابن عم لها مدرس هو الآخر فى مدرسة ثانوية..ولقد تبينت من حديثها وتفكيرها أضواء من الحياة النظيفة والعواطف النبيلة والاهداف السامية .. كل همها فى الدنيا اخراج نماذج من البشرية الراقية . وهى تتحدث عن خطيبها كمعاون لها فى مهمتها الانسانية .. لقد كنت أحس الضآلة والحقارة وأنا بجوارها أستمع اليها ، كأنى ذبابة قذرة دانية من شراب مطهر أو دمقس مقدس !.. ماذا ينبغى أن أفعل بعد ذلك ؟ أمامى طريقان. اما الهجوم والعمل على الظفر بها بأى ثمن ، وقد أنجح .. فهى لا ترتاب فى أمرى ، وتجهل كل شيء عنى ، وقدلمحت من حديثها بعض الاطمئنان الى ، والثقة بى ، وليس من العسير أن أنمى ذلك فيها الى حد العطف والميل وربما .. الحب .. واما أن أنقذها منى ، وأتركها لطريقها المستقيم ، وخطيبها المهذب ، وحياتها النظيفة وهدفها السليم .. اذا

دخلت حياتها فقد حطمتها وهدمتها .. فما أنا لها الا نقمة !
وما ذنب هذه الطاهرة الماضي الباسمة المستقبل ، أن تكتشف
ذات صباح وهي بين أترابها وزميلاتها وتلميذاتها ورئيساتها
أنها ما تزوجت غير « بلطجي » ! .. صناعته التكسب من
أتاوات الغانيات والكباريهات ! واذا تركتها .. ولم تدخل
هي حياتي فقد حطمتني وهدمتني . ماذا أصنع ؟.. اني لفي
حيرة . واني لأرتمي كل يوم في هذا المقهى ، بعد مقابلتها ،
لأفتح في نفسي ميدان صراع : هل أقدم ؟ هل أحجم ؟..

وأطرق غارقا في صمت طويل . ولم أشأ أنا قطع هذا
الصمت .. فسكت ، وجعلت أداعب بأصابعي أذن فنجان
القهوة ... الى أن رفع رأسه مرددا :

ـ هل أقدم ؟ هل أحجم ؟..

فاكتفيت بأن قلت له :

ـ تلك هي المعركة الكبرى بين الخير والشر!.. وعليك
الآن أن تخوضها !..

□

مرت الأيام بعد ذلك دون أن أرى علوي ، فقد اختفى
من كل مكان ... واذا بي أتلقى خطابا من أقاصي الصعيد ،

بامضاء « الشيخ عليوه » يخبرنى فيه انه افتتح كتـــابا من الكتاتيب فى تلك المنطقة النائية التى كان يرد ذكرها عـــلى لسانى فى أحاديثى مع « علوى » فى ليالى السمر بالبار . . . وانه قد انقطع لتربية النشء من أبناء الفلاحين ، وتبصيرهم بالفرق بين الخير والشر والفضيلة والرذيلة . وان الموسى عادت الى حلق شعر رأســه زهدا .. والعمامة والمسبحة ظهرتا لخدمة التقوى البصيرة ، والورع الحقيقى مع العمل المفيد والكدح المجدى ، وان المصباح الذى أضاء قلبه يجب أن يظل مرتفعا عن الدنس . . ولقد تركه لمصيره الطاهر معاهدا نفسه أن يحذو حذوه ، وأن ينهج سيرته . . وانه يكفيه منه شعاع ينير له على البعد كالنجم السحيق . . .

وكانت تلك نهاية المعركة . .

▭

وختم صاحبى المرح قصته قائلا :

ــ والآن هأنتذا قد سمعت قصة ذلك الرجل الذى كان يسمى : الشيخ عليش ، وعلوى بك ، والشيخ عليوه . . . فما حكمك عليه ؟ . .

فقلت له وأنا أرشف قهوتى بعد العشـــاء الشهى الذى قدمه الى :

ـ فلنترك الحكم عليه لملائكة السماء .. فانه سيصعداليهم هذه المرة بملف زاخر ، سيقتضيهم فرزا دقيقا وحســـابا طويلا .. قبل أن يصدروا حكمهم بقبوله النهائى أو طرده الدائم من الفردوس !..



لا كرامة لنبي في وطنه

كانوا فى القرية يطلقون عليه اسم « زنجر » .. ولست أدرى أكان لهذا الاسم صلة بمنظره ؟ لقد كان أسود اللون، قبيح الصورة ، مخروم الأذن . يرتدى معطفا عسكريا ، نحاسى الأزرار ، من بقايا الحرب العالمية الاولى ، قد رث عليه وبلى وضاعت أزراره الا واحدا ربطه بخيط من تيل ، وهو يحمل فى يده هراوة كانت فرعا من شجرة السنط التى تظل « الكباس » القبلى .. يرفعها ويجرى بها وراء الساخرين به والضاحكين منه .. وما أكثرهم ! ما من أحد كان يأخذه على سبيل الجد .. وما كان هو يحفل بآراء الناس فيه .. كان يكفيه دائما رأيه هو فى نفسه .. كان له أخوة يصغرونه سنا تزوجوا واستقروا وأنتجوا ذرية تسعى معهم الى الغيطان وتعود منها بعد الغروب ممسكة بزمام البهائم المحملة بعليقها من الحشائش وأعواد الذرة .. أما هو فكانت فكرة الزواج تثير بالنسبة اليه ضحك القرية وهذرها وعبثها ... من هى تلك التى ترضى أن تتزوج من « زنجر » ؟

وكان هذا هو السؤال الذى اعتدت أن ألقيه عليه ، منذ أعوام طويلة ، كلما ذهبت الى الريف :

ـ هل تزوجت يا زنجر ؟!

ـ أبدا

كان يقولها فى شيء من المرارة والثورة.. فكنت ألاحقه:

ـ وما السبب ؟

ـ مافيش فلوس !..

هذا كان تعليله الوحيد... ورأيت أخيرا أن أبطل هذه الحجة ، فعرضت عليه أن أقوم عنه بكل نفقات عرسه من مهر وفرح وثياب الخ ... لو ظفر هو بالعروس . فسر لذلك وحمد وشكر ، ولكن الايام مرت ولا نتيجة لهذا ولا أثر ... ولم أعلم ما حدث . ولكنى صرت بعد ذلك كلما مشيت بين الحقول والى جانبى « زنجر » أتأمل من أجله كل فلاحة تميس بقدها تحت ثقل الجرة ، كما يميس العود تحت ثقل السنبلة .. فأسائلها :

ـ يا بنت ... أتتزوجين الولد « زنجر » ؟..

فما أسمع الا دقة على صدرها وصيحة :

ـ يا خيبتى !..

وتشتد فى السير مجفلة هاربة حتى تختفى ... واذا زنجر بجوارى يشيعها وهو مجروح ساخط مغتاظ :

ـ داهية لا ترجعك ... وأنا كنت أرضى ؟!..

ثم يأخذ فى اقناعى بأن كل هؤلاء الفتيات دون ما يستحق، ودون ما يريد ، ويأخذ بعد ذلك فى حمد الله اذ ضرب على أبصارهن ، فهذا الرفض منهن نعمة !... ولكنى لا أقتنع، وأظل أطرح السؤال على طوائف مختلفة من بنات القرية ... وأهبط فى سلم الجمال درجات ، وأطأطىء الرأس نيابة عنه وأقبل تضحيات ، حتى وصلنا الى درك لا نزول بعده .. فكل مشوهات القرية ، من الخنفاء والعرجاء والحدباء ، عرضت أمره عليهن .. فما سمعت قط غير تلك الصيحة المنكرة من الأفواه وذلك الدق المستنكر على الصدور .. وتلك العبارة الواحدة من كل الشفاه :

ـ ضاقت علينا الدنيا ... ما بقى غير « زنجر » ؟!..

□

وصدقت وآمنت أخيرا بصعوبة زواجه .. فهذا رجل تنشأ فى القرية أضحوكة ، وشبت فتيات القرية لا يبصرن

منه ولا يعرفن عنه الا أنه رمز السـخرية ، ومناط العبث ومثار الهذر ... لقد كان فى مجرد تقـدمه الى أسرة من القرية سـوء أدب منه فى نظرها ، وتعد منه على كرامتها ، وخدش لسمعتها ... اذ استقل شأنها فخصها دون أهل البلد بهذه المهانة وقلة التقـدير ... هكذا كانت الأسرة تدفعه عنها كما تدفع الفضيحة ... وبلغ الحال من السوء أن أصبح «زنجر» شخصية تغيظ بها البنت المذنبة اذا أردت لها تأديبا ... ولم يشذ عن استخدام هذه « الأداة » التأديبية أحد حتى أنا ... فقد انتهى بى الأمر أن آمنت بما يؤمن به الجميع فى القرية ... وصرت اذا أردت أن أشتم بنتا مهملة من بنات الخدمة فى البيت أو الحقل أكتفى بقولى :

ـ والله يا بنت لأزوجك من « زنجر » !

فتطفر دموع الخوف والضراعة من عينيها فى الحال ... وأدرك أنى قد رفعت عليها بهذه الجملة سوطا يقيم عوجها ويصلح فاسدها ...

كل هذا و « زنجر » فى ملكوت من نفسـه ، وعالم من رأيه ، وحصن من « حالة معنوية » عجيبة ... مرتفع فوق

لجج الاستهزاء العام ، لا تعصف برأسه أنواء ، ولا يصل الى عينيه رذاذ ولا ماء .. لطالما ساءلت نفسى فى أمره : أهو جمود ؟ أهى بلادة شعور ؟ أم هى صلابة شخصية وقوة ايمان ؟!..

أردت أن أتندر به ذات يوم ، فقلت له :

ـ ومن التى ترضى أن تتخذها زوجة لك من بين بنات القرية ؟

فقال بلا تردد :

ـ البنت « سلطانة »

يا للعجب !... « سلطانة » هذه هى أجمل بنات القرية طرا . هى الزرقاء العينين العسجدية الشعر...التى يخشى التقدم اليها أجمل فتيان القرية وأقواهم ... هى التى يتنافس فيها المتنافسون ، ويتزاحم المتزاحمون ، من بين من فرزت مؤهلاته وبرزت صفاته..فما تمالكت أن صحت به:

ـ طيب اسكت .. اسكت ..

مرت الأيام ... وعدت مرة أخرى الى الريف بعد غيبة عنه طويلة ...فراعنى ما أجد ، وأذهلنى ما أرى...

زنجر قد تزوج ..

تزوج بمن ؟..

بفتاة أجمل من سلطانة !...

وعلم زنجر بحضورى ، فجاءنى وكأنه يقول : « هذه المرة تستطيع أن تسألنى السؤال المعهود » . ولكنى كنت علمت الجواب من قبل ... فاكتفيت بأن أقرأ على وجهه سطور انتصاره.. بل لقد قرأت ذلك على وجوه أهل القرية أجمعين. .لم يعد « زنجر » فى نظرهم ذلك « الاضحوكة » .. ان الاسم لم يزل حقا لاصقا به . ولكن قد غسل عنه كل معنى من معانى الهزء والسخرية ..

كيف حدثت المعجزة ؟..لم يخبرنى هو ..ولكن الذى قص على شيخ وقور من شيوخ القرية ، قال :

ـ حدث منذ ثلاثة أشهر أن حضرت الى القرية «ترحيلة» « لنقاوة » الدودة من زراعة القطن وكان يعمل فيها بنات كثيرات من قرى بعيدة.. فيهن جميلات وفيهن رشيقات.. وكان زنجر هو « الخولى » عليهن. .فاذا هو يلمح من بينهن فتاة هى أسطعهن جمالا وأوفرهن سحرا وأكثرهن فتنة.. بل هى حسن لم نر له مثيلا فى قريتنا. .فلزمها فى العمل ، وتودد اليها .. وخفف عنها. .وكان لا يأمرها الا بمعروف

ولا يعاملها الا برفق ولا يحادثها الا بلطف..وتفتحت نفسه لها بيضاء جميلة كما تتفتح زهرة القطن .. وكانت الفتاة طيبة القلب ، فأبصرته « بعين » قلبها ولم تبصره بعين أذنها .. رأت فيه « الانسان » ولم تر فيه « الاضحوكة » .. فهى من قرية بعيدة لا تعلم عنه شيئا .. فلم يقم بينه وبينها سد قديم من تلك الشخصية المبنية بلبنات الضحكات ، فى بلده ، على مدى الاعوام .. لقد بادلته لطفا بلطف ، وعندما قال لها مازحا ذات يوم : «تتزوجيننى ؟» لم يرعه الا قولها : « نعم » .. فقال لها :

ــ صحيح ؟

فقالت :

ــ صحيح

ــ تحلفى على المصحف ؟.

ــ أحلف

وأقسمت انها جادة .. وأنها لا تطمع فى زوج خير منه فطار زنجر فرحا الى أهله يزف اليهم الخبر .. ولم يصدق أهله هذا الكلام الا بعد أن سمعوا قبول الفتاة بآذانهم... فارتفعت « الزغاريد » فى القرية...ودفع زنجر المهر لأم

العروس ، فأبوها قد توفى وتزوجت أمها بغيره . . . وجاءها بحلق و « غوايش » فضة وخلخال ومرتبة ولحاف ومسندين ومخدتين وحلة وطشت وفناجين قهوة وبراد شاى وصينية وأربع ملاعق وأربعة أطباق . . الخ الخ . . ثم أعدت العدة ليوم الفرح فأحضروا الجمل وطفق زنجر مع اخوته يزينونه بسعف النخيل والبوص والجريد والشال الأحمر . . . وأتموا صنع الهودج الذى سيحضرون فيه العروس الفاتنة من بلدها . . . كل ذلك بين غناء أهل زنجر وغبطتهم بفوز هذا المظلوم . . . وبين نظرات الدهشة والحسرة والندم من بنات القرية اللاتى سخرن من زنجر ، فأظفره الله بمن لا يصلن الى كعبها ملاحة وطهارة ودماثة . . .

أصغيت الى كل هذا . . وعلمت سر « المعجزة » . . لقد جاءه الخير والتقدير ورد الاعتبار من قرية أخرى بعيدة . . هكذا أنصفه الله . . بالطريقة التى أنصف بها من رضى عنهم من الرسل والأنبياء

الدنيا رواية

الدنيا رواية حقا فى نظر أولئك الذين يؤمنـون بنظرية حلول الروح . تلك النظرية التى تزعم أن عدد الأرواح فى الكون محدود، كما أن عدد الممثلين فى المسرح محدود. وأن الذى يتغير هو الادوار التى يتقمصها أولئك الممثلون. وهى أدوار لا حـد لها ولا نهـاية ، فى تلك الرواية الاستعراضية العظمى !..

اذا سايرنا أصحاب هذا الزعم فى زعمهم ، فان الصورة التى يمكن رسمها للدنيا تبدو جديرة بالتأمل . ومن السهل تخيل الارواح فى ظهورها واختفائها فوق مسرح الدنيا ، على الوجه الذى يحدث بالضبط فى المسـارح التمثيلية . فهنالك ، مثلا ، بعيدا عن هـذه الارض وشمسها وقمرها ، مكان خفى ، يمكن أن نتصور فيـه ملاكا يقوم بوظيـفة «الريجيسير» ــ أى مدير المسرح ــ يعطى الاشارة للشمس والقمر ، فتسلط الاولى أشعتها الذهبية القوية ، والآخـر أشعته الشاحبة الفضية على سـطح الارض .. كما تسلط مصابيح « البروجكتور » الكهربائية على خشبة دار التمثيل.

ولا بأس من أن نتخيل ذلك « الملاك » فى مكانه هذا يباشر أعماله اليومية ، وينظر فى « اللوح » الذى أمامه ، المسطورة فيه الادوار والاقدار ، ويستعرض ألوف الارواح المهيأة للظهور على مسرح الدنيا ، ويستقبل الالوف من الارواح الخارجة منه ... ولا ضير أيضا فى أن نطلق الخيال أبعد من ذلك ، لينسج لنا قصة روح من بين تلك الارواح العائدة

▭

ظهر الروح الذى نروى قصته ، خارجا من الدنيا وهو مدهوش مذهول ، كمن أفاق فجأة من نوم عميق ، وهو يردد هذه العبارة :

- يقولون انى مت !... أأنا الآن ميت حقيقة؟! زوجتى التى تتحطم تفجعا، تصيح بأنى أموت ،وأنى مت.. أخبرونى أيها السادة ... هل أنا حقا ميت ؟!!

ولم يلتفت اليه « الملاك » المنهمك فى أعماله ، الشاخص ببصره الى اللوح الذى أمامه ، والسجل الذى بين يديه ، واكتفى بأن هز رأسه وقال كالمخاطب لنفسه :

- كلكم هكذا ... لا تريدون أن تصدقوا أنكم متم . ماذا أصنع لكم ؟.. أنا .. ليس لدى وقت أنفقه فى اقناعكم

واقامة الأدلة والبراهين لحضراتكم .. تقدم يا .. ماذاكان دورك فى الدنيا هذه المرة ؟..

ـ كنت طبيبا . وكانت لى زوجة .. آه .. ان زوجتى هى التى تموت الآن ولا شك حزنا على أنا... ياللمسكينة!.

ونسى ذلك الطبيب ـ أو روحه ـ كل ما حوله ، وراح يذكر كل دقيقة من دقائق حياته التى يؤكدون له أنهـا انتهت ... كان طبيبا جراحا ناجحا ، تخرج فى كلية الطب متفوقا ، وكل شىء يبتسم له ، لقد كان من أولئك القـلائل الذين ينالون دائما ما يريدون ، كان حسن المنظـر لطيف المعشر ، يظفر بنظرات كل ممرضة وطالبة. لكنه كان يعتقد أن هناك امرأة واحدة لابد أن تستحوذ على كل قلبه وفكره وجسمه ، ولابد لها أن تأتى يوما ، انه أرادها ولابد له أن ينالها فالقدر قد عوده أن ينيله كل ما يتمنى ، فالنجـاح فى مهنته تمناه ففاز به ، وقد تمنى المال والترف ، فجاءه المال من عمله ومن ميراث عائلى . وهو بعد ذلك يتمنى أن يلقى الزوجة التى يعطيها حياته وكده وكسبه ... فوجدها ذات يوم فى صورة مريضة ، أتت ليجرى لها عملية اسـتئصال الزائدة الدودية ، ما ان وقع بصره عليها حتى اضطرب . أترى الارواح تتلاقى حقا؟كيف تلاقت روحاهما من النظرة

الاولى !؟ وكان من المستحيل عليه أن يتصور أنه هو الذى يجرى لها الجراحة بيده ، ويشق جسدها بمديته . ان قلبه لن يحتمل ذلك. واعتذر لها ولأهلها بشتى الحجج ، وعهد بأمرها الى جراح آخر قال انه أمهر منه . ولم تدرك هى معنى ذلك الاعتذار الا يوم فاتحها قائلا : « لقد خلقت لاكون زوجك لا جراحك » ... وكانت هذه الزوجة كل شيء فى حياته . وكان هو كل شيء فى حيـاتها . ما من كائنين اتفقا والتصقا وأصبحا كائنا واحدا مثل هذين الزوجين. كانت زوجته تقول له يوم ترى جرحا فى اصبعه : « يا للعجب ! كأن الألم فى اصبعى أنا . أهو وهم ، أهو حقيقة ؟ كيف ينتقل الوجع المادى من أصبعك الى أصبعى هكذا أيها العزيز؟» وكان هو يقول لها : « العجيب حقا هو أن كلامك هذا هو عين ما عندى . لقد شعرت فعلا يوم جئتنى لأشق جسدك ، كأن المشرط سيشق جسدى أنا ، وأنا بالطبع باعتبـارى جراحك لن أعطى مثلك البنج ، فتصورى جراحة تجرى لى بغير بنج ، بينما أنت المريضة لا تحسين الألم ! » وعاش هـذان الزوجان السعيدان أعواما كلها هناء . ولم ينجبا أولادا . ولم يحل ذلك دون تعلق أحدهما بالآخر ... بل لقد كرها الاطفال حتى لا يسمحا لغيمة أسف أن تخيم

على حبهما . انهما هكذا ناعمان أحـدهما يكمل الآخر . ولا حاجة لهما بثالث .. وجاء اليوم المشؤوم... فقد نهض على عادته فى الصباح المبكر لاجراء عملية جراحية ، ولكن زوجته أحست فى ذلك اليوم خطرا ... وتنبأت بكارثة ، كما تتنبأ آلة الرصد بكسوف الشمس . فتوسلت اليـه أن يبقى معها ذلك النهار . فأبى التقصير فى واجبه.ان مرضاه فى انتظاره . فادعت المرض.فلاطفها ، وداعبها حتى كشف بظرف عن تحايلها ، وقبلها قبـــلة طويلة ، وانفلت من بين ذراعيها المتشبثتين بعنقه . وتركها جامدة كالتمثال ... وفى الظهر عاد وفى جسمه السم.فقد شرط قفازه أثناء الجراحة، وسرى الداء فى دمه من أصبع مجروحة ، واجتمع حـول فراشه أساتذة الطب وأساطين العلم لينقذوه من الموت.ومن خلفهم زوجة تموت وتحيا مع كل نفس من أنفاس قرينها الحبيب ... ولكن .. كان الموعد محددا لانتهاء دوره فى الحياة عند هذا الموقف . وكان على الروح فى ذلك الوقت أن يخلع الجسد كما يخلع الممثل ثياب التمثيل . وعندما كان يسلم النفس الاخير ، بين شهقات امرأته المكتومة ، وبريق دمعها المنساب ، ووقفتها المترنحة المتجلدة ، وابتســـامتها المموهة الدامية خيل اليه أنه يرى الحقيقة تضـــطرب فى

الظلام خلف عتبة الحياة . نعم ، الحقيقة هى أن الحياة ليست حقيقة . كان احساسه احساس ذلك الممثل الذى عاش دوره، ونسى أمره ، وأبكى الحاضرين وبكى هو نفسه ، الى أن فرغ من الموقف الاخير ، وشعر بنزول الستار ، فالتفت، فاذا عينه تلمح فى الظلام « الكواليس » بما فيه ومن فيه ، فسكن ثائره ، ورفع يده ليمسح دمعه ، قبل أن يدلف الى داخل المسرح فيسخر منه زملاؤه ويسخر هو من نفسه . ولكن عبرات المشاهدين كانت ترده اليهم والى التعلق بهم وبدوره. فالعواطف فى ذاتها حقيقة .. كذلك الطبيب المحتضر ... خطر له أن يبسم لزوجته الثكلى ، وأن يهمس لها أن الأمر زيف فى زيف ، ولكن .. كيف يكون كل هذا الحب زيفا ؟ ... مهما يكن ما بعد الحياة ، وما بعد التمثيل فان الدموع فى ذاتها جديرة بالاحترام ، والحب فى ذاته أجل من أن يهزأ به ، ان الحب حقيقة ، وان ما يربطه بزوجته لا يمكن أن يخلع مع رداء التمثيل ، ولو اجتمعت عليه كل ملائكة السماء !.. وهكذا ترك الميت خشبة « الأرض » وخلع رداء جسده ، ودخل على « الملاك » المدير ، روحا عاريا مجردا .. ولم يحس بعد فرقا كبيرا بين ما كان منذ لحظة وما يكون الآن . أين هو ذلك الموت الذى يقولون عنه ؟

ما الذى تغير فيه ؟ ها هو ذا يحب زوجته حبا جنونيا. .وكل أمله أن يلقاها .. ولكنه لا يستطيع .. لانه ميت ، كما يقولون . اذ يراها ، ويرى جزعها ، ويريد أن يمد يده اليها ، وأن يحادثها ليهون عليها . ولكن صوته لا يبلغها ، ويده لا تطيع ارادته . ما من أعضاء مادية تأتمر الساعة بأمره . كأنها أشياء منفصلة عنه . لا يملك تحريكها ، حاله الآن كحاله عندما كان ينتابه فى الدنيا كابوس فيريد وهو فى فراشه أن يتحرك ، ولكن ارادته لا تطاع. . .انه الآن ارادة مطلقة فى الهواء لا تسيطر على أجسام ، ووعى مطلق فى الفضاء لا يؤثر فى أشخاص ، عدا ذلك فهو هو لم يتغير فمن يدريه أن هذا موت ؟ لعله نوم عميق أو حلم عابر أو كابوس مؤقت !.

والتفت مرة أخرى الى « الملاك » المنهمك فى أعماله وقال له :

ــ أنا لا أحس أنى ميت

فنظر اليه « الملاك » نظرة شزراء وقال :

ــ أنت حر ..

ــ أريد أن أعود الى زوجتى

ــ قل هذا لعزرائيل من فضلك

ـ عزرائيل ! أتمزح ؟؟

فلم يتمالك « الملاك » وقال نافد الصبر :

ـ ليس عندى وقت للمزاح يا سيدى . آه ، لو درى عزرائيل ! ذلك الذى لا تبطل له شكوى من كثرة أعماله ، لمجرد قبضه عدةأرواح كل يوم،ينفض بعدها يديه ويستريح . أما أنا فيجب على أن أقاسى من أرواحه وأتحمل حماقاتها ، وأصغى الى ثرثرتها ! يا حضرة الفاضل .. ألم يقبضك عزرائيل ؟ كيف تريد اذن منى أن أعيدك الى زوجتك ؟ واذا كان كل روح يقبضها زميلى أعيدها أنا ، فما الفائدة اذن من قبض الارواح ؟!

ـ أنا شخصيا لا أرى فائدة . لقد كنت مع زوجتى فى أتم هناء . فلماذا تتدخلون أنتم لتفرقوا بين المحبين ؟!

ـ لا نستطيع يا سيدى الفاضل أن نتركك فى هذا الدور، أعنى فى هذا الجسد كما تحب أنت وتشاء ، لان روحك تلزمنا فى عمل آخر

ـ عمل آخر ؟

ـ طبعا . لابد لك من جسد آخر تحل فيه ، ودور آخر تقوم به . وهل تظن أن هذا كان أول أدوارك أو آخرها ؟.

لقد سبق لك أن حللت فى مئات الاجساد ، وقمت بمئات الادوار

ـ أنا ؟ أنا سبق لى أن كنت شيئا آخر غير زوج يحب زوجته ، وطبيب جراح فى ...

فابتسم « الملاك » ابتسامة الساخر المتبرم ، الرائى لجهل محدثه . وأخذ يقلب فى صمت صفحات سجله الضخم ، الى أن وقف على صفحة ، نظر فيها لحظة ثم قال :

ـ اسمع يا سيدى .. قبل أن تكون زوجا وطبيبا ، كنت لصا سكيرا ، فتك براقصة فى ملهى ليسرق حليها .. ومات على المشنقة !

ـ أنا ؟!

ـ انتظر ... ثم كنت قبل ذلك جنديا بسيطا قتل فى معركة . ثم كنت طفلا مات بالدفتريا ، ثم كنت امرأة ماتت فى الوضع .. ثم كنت رجل دين مات بالشيخوخة ، ثم أميرا مات مسموما . ثم كنت ساحرا هنديا لدغته أفعى ، ثم كنت فتاة انتحرت فى حادثة غرامية ..

ـ كفى . كفى . انى لست مجنونا لأصدق هذا الهراء . أنا طبيب جراح . ولى زوجة أحبها ، واذا لم ألحق بها فهى

لابد لاحقة بى . ولن أصدق أبدا أنى كنت أمثل دورا .

فنظر اليه « الملاك » بابتسامته الهازئة وقال :

ـ كل مرة تقولون لى عين هذا الكلام ، أنت وغيرك .. انكم لا تصدقون أن هذا كان تمثيلا

ـ تمثيلا ؟... حبها لى وحبى لها ... وحياتنا معا التى لا نتصور حياة غيرها !.. لا .. لا ..

ـ انك لم تزل واقعا تحت تأثير دورك .. الى أن تذهب الى البحر ، فتغسل ذلك الطلاء ، وتزيل ذلك « المكياج » عندئذ فقط تكون على استعداد لارتداء الدور الجديد

وأشار « الملاك » الى أحد مساعديه العديدين،اشارة ذات معنى ، فتقدم ليقود روح الطبيب ، ولكنـه وقف ونظر الى عتبة الباب وقال لرئيسه :

ـ عزرائيل أرسل الينا روح امرأة

ولم يكد يتم كلامه حتى ظهرت بالباب روح الزوجة ، وما كاد روح الزوج الطبيب يرى روح زوجته،حتى صاح فرحا :

ـ ألم أقل انها لابد لاحقة بى !

واندفع كل منهما نحو الآخر . وقالت روح الزوجة :

ـ آه يا زوجي العزيز ... لم أستطع البقاء هناك بعدك، لقد كانت ليلة فظيعة ... تلك التي رأيت نفسي فيها وحيدة بدونك ، أناديك في الظلام..ولم أتمالك نفسي عند الفجر، وأنا محطمة الاعصاب فتناولت كل ما كان بجـــواري من أقراص الاسبيرين طالبة النوم الأبدي،والراحة السرمدية، أو اللحاق بك ، وها هو ذا أملي يتحقق وأراك . كيف أنت أخبرني . انك بخير فيما أرى ، كيف قالوا اذن انك مت ؟ أنا أيضا لست ميتة فيما أعتقد . كنت أتمنى الموت...وقد شعرت عندما استدعوا الطبيب والاسعاف بعد تناولي الاقراص، أنهم يهمسون حـــولي بكلمة « الموت » ولكن .. أين هو الموت ؟! أين هو ذلك « الموت » ؟!

ولم يستطع « الملاك » صبرا .. فنفخ صائحا :

ـ أف ! .. لعنة الله على هذه المهنة !..

▭

طفق الروحان يثرثران كالاطفال ، وقد أعماهما الفرح عن كل ما عداهما،ولم يحفلا بمن حولهما ، وأدرك «الملاك» أنهما لن يفرغا من الحديث ، اذا تركا وشأنهما ، فأومأ الى

مساعده أن يقودهما الى حيث يغسلان عنهما آثار دوريهما
.. الى « بحر النسيان » ..

واتجه المساعد نحوهما ليذهب بهما ، فجفلا منه وابتعدا
عنه ، والتفتا الى « الملاك » صائحين :

ـ ايراد التفريق بيننا ها هنا أيضا ؟

ـ لابد من ذلك

ـ نتوسل اليك ... نتوسل اليك أن تدعنا معا دائما .
في كل مكان ، وفي كل زمن ، وفي كل دنيا . ماذا يكلفك
هذا أيها الملاك اللطيف ؟

ـ هذا قد يحدث لنا بعض الارتباك في العمل

قالها بصوت بدت فيــــه رنة لين ، فمضى الزوجان في
الالحاح :

ـ نتوسل اليك. مثلك لن يعدم وسيلة. اجمعنا دائما ولا
تفرق بيننا أبدا

ـ سأرى ... سأرى ... ربما دبرت لكما ذلك. لكن
اذهبا الآن قبل كل شيء واغتسلا في البحر

ـ شكرا لك ...

لفظها الروحان بحرارة وفرح ... وذهبا في الحال مع
المساعد صاغرين الى بحر النسيان

وهناك وجدا بحرا هائلا ، له شاطىء جميل مثل شواطىء المصايف الشهيرة . والبحر يعج بالارواح السابحة فيه . فخلب لبهما المنظر . واندفعا الى البحر ضاحكين سعيدين كما كانا فى الدنيا

وقفزا معا الى الماء، يتناغيان بأرق الاسماء ، وغمرهما موج أبيض كأنه رغوة الصابون ...

فاذا هما يحسان كأن شيئا يزول عنهما رويدا رويدا... واذا كل منهما يردد من أعماق نفسه متعجبا متسائلا : « من أنا ؟ ومن هذا الذى بجوارى ؟ » وخرج من هذا البحر من خرج اذعانا لاوامر المساعدين ، وبقيا هما حتى أشار اليهما المساعد الموكل بهما ، فخرجا كما تخرج اللوحة المكتوبه من الماء ... لا أثر فى نفسيهما لحرف واحد من حروف حياتهما الماضية . وأعادهما المساعد الى « الملاك » وقد جاءت نوبتهما فى المثول أمامه، لتوزيع الادوار الجديدة، فسأل كلا منهما :

ـ هل تعرف من أنت ؟ وأين كنت ؟. وهل تعرف من هذا الذى بجوارك ؟

فأشار كل منهما بالنفى. فقال « الملاك » كالمخاطب لنفسه وهو يراجع سجله الضخم :

- انى وعدت مع ذلك أن أجمعكما مرة أخرى .
دوران يصلحان لذلك ، فلتكن أنت اذن طيارا رياضيا .
وأنت فتاة عاطفية .. أيها المساعد .. اقذف بهما الى مسرح
« الارض »

▭

كل شيء كان قد أعد ليصير « هو » طيارا ، فقد خرج الى الدنيا طفلا فى أسرة متوسطة المركز طيبة المنبت ، وشغف فى حداثته بالالعاب الرياضية ، وغدا فتى وتعلم فى المدارس ، وأصبحت له ميول وموجهات ، بعضها يدافع البعض ، ولكن الظروف النهائية وجهته على الرغم من كل شيء الى الطيران ، فدرسه ، والتحق باحدى شركات الملاحة الجوية . أما « هى » فقد شبت خيالية النزعة مدللة مترفة فى أسرة ميسورة الحال ، مفككة الاخلاق . الأب مشغول بنفسه وملاهيه ، والأم ساذجة ضعيفة الارادة . وولعت الفتاة بالرقص والحياة الصاخبة الحديثة . وكان « هو » فى طرف من المجتمع و « هى » فى طرف ، ولم يكن من السهل أن يلتقيا . فهو لا يرتاد المجتمعات التى ترتادها هى ، ومع ذلك فقد كان لابد من التلاقى ... وقد حدث ...

كان يقود طائرته ذات يوم . وكان الباب الصغير الذى يفصل بين مكان قيادته وبين مكان الركاب مفتوحا على غير العادة ، فلمح فى أحد المقاعد فتاة تقرأ احدى المجلات . ما كاد يراها حتى ارتجف ، وارتجفت معه الطائرة بمن فيها، فقد غفل لحظة عن قيادتها . وانزعج الركاب قليلا ، ورفعت الفتاة أهدابها الطويلة . فتقابلت عيناهما . وعجب مهندس اللاسلكى لما حدث ونظر الى الطيار بجواره ، فألفاه يصيح بين ضوضاء المحركات قائلا : « انى أعرفها . أين رأيتها ؟ متى رأيتها ؟ » . وما كاد يهبط بالطائرة فى مطار الوصول ، حتى قفز منها وتبع الفتاة ، وتقدم يخاطبها كأنه يعرفها من قبل . أما هى فلم تنهره ولم تغضب منه ، بل أحست الارتياح والرضا ، وشيئا من الاطمئنان الخفى الى هذا الشاب . ومضى هو يقول باخلاص حار :

ـ انى آسف اذ أضطر أن أقول لك تلك العبارة التى ابتذلها الشبان اليوم : « أين رأيتك من قبل ؟ » ثقى انى لا أتخذها حجة لمحادثتك .. ولكنى .. عندما وقع بصرى عليك شعرت فى الحال انى أعرفك وأنى رأيتك فى مكان ما ، انتظرى ... ربما تلاقينا آخر مرة فى ... فى بحر ؟ ...

فأجابت باسمة :

ـ من الجائز ... فى « بلاج » من هذه «البلاجات» ..

ـ ربما .. أخشى أن تكون الطائرة قد أزعجتك عندما ارتجفت

ـ لا .. انى فقط عند هبوط الطائرة ، أحس عادة بعض الصداع . ولكن عندى دواء لذلك ..

ـ قرص واحد من الاسبرين يكفى

فظهر فجأة الارتياع على وجه الفتاة وهمست :

ـ اسبرين !.. أرجوك .. لا تلفظ هـــذه الكلمة ، لا أمقت شيئا مثلما أمقت الاسبرين . ربما اتهمتنى بالخبل . ولكنى منذ صغرى أرتاع لمجرد رؤيته .. ســـامحنى .. هنالك أشياء تولد فينا ولا نستطيع لها تعليلا

ـ لا تؤاخذينى..انى آسف .. لم أقصد ايذاءك مطلقا

ـ أعلم ذلك . هذا ليس ذنبك.انما هى نزوة من نزواتى ليس لها مبرر . ألا يتفق ذلك أحيانا لكثير من الناس ؟ ألا يحدث لك أنت أيضا أن تكره شيئا بدون سبب ؟

ـ نعم .. نعم .. أنا أيضا فى الصغر كنت أحس الاغماء كلما ذكرت أمامى كلمة « عملية جراحية » . وعبثا حاول

أهلي تعليل ذلك . ولكن هذه الحالة زالت بزوال عهد الصبا .. وأصبحت بعدئذ شخصا عاديا ..

ـ أرأيت ؟ فينا أشياء كثيرة متقاربة

ـ هذا من حسن حظي

▭

منذ تلك المحادثة الاولى ، وهما يشعران كأن شيئا يجذب أحدهما الى الآخر. ولم يمض قليل حتى تم بينهما الزواج، ولكن... مرت الايام وكل منهما يلحظ أنه يسير في طريق غير طريق الآخر . هو يأتي من عمله متعبا فيجـــد المنزل يصخب بأنغام «الرومبا» و « الفوكس تروت » و « الهوجي بوجي » فينبهها برفق :

ـ أما تكفيني طول النهار ضوضاء المحركات ؟.

فتجيبه بتبرم :

ـ محركات ؟! هذا كل ما تعرفه. أنت لست «رومانتيك»

وكان يبلع هذا الخلاف بينهما في الاتجاهات. وكان يعلل النفس بأن هذا طيش قد تمحوه الأمومة . وأنجب منهـا طفلين جميلين، ولكن الأمومة لم تقهر عندها المزاج . بل

المزاج هو الذى قهر الأمومة ... وأمسى الزوج الطيب
يجد ليالى زوجته مشغولة كلها بالحفلات والسهرات. وتعدى
الأمر الى ما هو أمر . فقد دخل عليها يوما فوجد لديها
شابا لا يعرفه . زعمت أنه من رفاق الطفولة ، وأنه أخوها
فى الرضاع. وقام بين الزوج وزوجته شجار، حسمه الزوج
بالحسنى مراعاة لاولاده . ولكنه أدرك عندئذ أن علة شقائه
فى الحياة هى هذه المرأة . وكرت الليالى حمراء بالنسبة الى
الزوجة اللعوب ، بيضاء من السهاد ، سوداء من الهم ،
بالنسبة الى الزوج المنكود. ولم يعد يحسن عمله لقلة نومه
واعتلال صحته ، وسمع همسا فى الشركة المتذمرة ينذر
بالشر ، كما سمع همسا عن سلوك امرأته يندى له الجبين
الحر . وأكلت نفسه الهموم ، ونخرت فى قلبه الشكوك . .
وفى ذات ليلة دهم زوجته وهى فى أحضان شاب. . فارتاعت
وقالت متلعثمة انه معلم رقص يعلمها الرقصة الجديدة. وفقد
الزوج صوابه فأخرج مسدسه وأطلق على زوجته رصاصة
أردتها قتيلا . وقفز « معلم الرقص» المزعوم قفزة « فوكس
تروت» من أعلى السلم وهرب كما يهرب الثعلب من حظيرة
الدجاجة . . وسمع الجيران الطلق النارى ، فصاحوا، وأقبل
« البوليس » ينفخ فى صفارته وثاب الزوج الى رشده ،

وفطن الى الفضيحة،فأفرغ فى رأسه رصاصة أخرى أردته قتيلا هو الآخر ...

ورفع « الملاك » بصره من فوق سجله الضخم على شجار روحين داخلين عليه ... أحدهما يقول للآخر :

ـ سخيف !. أقسم أنك سخيف . تطلق على مسدسك لسبب تافه كهذا ؟! ما أضيق ذهنك أيها الزوج المغفل !.. ولكن هل ينتظر من مثلك تصرف غير هـــذا !؟ انك طول عمرك كنت زوجا مغفلا !..

ـ اسكتى أيتها المرأة..لا داعى لسلاطةاللسان!.ولكن الذنب ليس ذنبك .. الذنب ذنبى أنا .. لا شك أنى جننت حتى أقتلك وأقتل نفسى معك فى نفس الوقت.ما الفائدة؟. ماذا فعلت أنا اذن ؟.. ها أنت ذى معى هنـــا أيضـــا .. ياللمصيبة !.. يا للمصيبة !..

ولم يجد « الملاك » بدا من التدخل ، فصاح فيهما طالبـا اليهما السكون واحترام المكان .. فتقدم اليه الزوج ـ أو على الأصح روحه ـ صارخا متوسلا :

ـ يا ملائكة السماء !.. يا شياطين جهنم !.. يا عفاريت الجن .. خلصونى من هذه المرأة !.

نصيب

٥ ــ مدرسة المغفلين

فى حياة كل رجل لحظة يشعر فيها فجأة بآنه مثل غطاء الطبق الذى لا يجد طبقه ، والويل لمن لا يفطن الى هــذا الشعور الا متأخرا ، انهيترك عندئذكل شيء وينقلب مجنونا بتلك الفكرة المسيطرة : البحث عن شطره الآخر . كان بطل هذه القصة من هذا النوع من الرجال . شـاب مجد طموح تخرج فى الجامعات مهندسا بارعا . درس فى مصر ثم فى الخارج وكان فى مقدمة أقرانه دائما . لا يعرف غير العمل ولا تنظر عيناه غير طريق مستقبله الناجح.وقدركض فى هذا الطريق بالفعل حتى بلغ درجة « مدير أعمـــال » وكاد يشرف على الخامسة والثلاثين وهو مستغرق هـــذا الاستغراق فى عمله الهندسى.واذا بغتة تدهمه هذه اللحظة الحاسمة . واذا هــذا الغطاء الذى كان يجرى على « سنه » ناهبا الأرض كأنهكل شيء ، قد اصطدم بجدار تلك اللحظة العجيبـــة ، فوقف ودار حول نفسه دورات ثم انبطح على ظهره ورن معدنه رنينا مكتوما وكأنه يهمس : « ما أنت الا غطاء الطبق ! » وأفاق المهندس بعدئذ وليس فى رأسه غير فكرة واحدة : الزواج

ودهش أصدقاؤه لرنين هـذه الكلمة فى فمه ، فهم لم يسمعوها قط منه ، ما الذى حدث ؟ وهم الذين طالما فاتحوه من قبل فى هذا الأمر ، فلم يجدوا منه غير الصدوف وعدم المبالاة. لقد كان كلما ذكرت أمامه « الزوجة » ـ أو النصف الآخر ، أو « شريكة الحياة » ـ يبدو عليه كأن الموضـوع لا يعنيه ولا يفهم مغزاه ، ويبسم أحيانا ابتسامة المتعجب لغلو الناس فى الوصف واسرافهم فى التعبير . لقد كان يحس احساسا أكيدا أنه كامل بنفسه . وانه واحـد صـحيح لا نصف ولا ثلث ولا كسر من عدد . انه درس الحسـاب والجبر والرياضيات العليـا فمنذا يقنعه بأنه أقل من رقم ، وأنه نصف فقط ، وأن هنالك نصفا آخر فى مكان ما ينقصه ليكون الناتج واحدا صحيحا ؟ هذه المسألة الحسابية الآدمية من الذى وضعها ؟ ولماذا ؟ ولمصلحة من ؟ لا . . لا . . انه لا يظن الطبيعة مشغوفة الى هذا الحد هى الاخـرى بعلم الحسـاب . . لتجعل من الرجال والنسـاء أرقاما أو كسورا من أرقام تجمع بينها وتطرح. كان هذا كلامه فيما مضى . أما الآن فهو يقول لأصحابه : « صدقتم . الحيـاة حساب . . الحياة مسألة حسابية . أنا كسر . . أنا نصف . . اجمعونى من فضلكم على النصف الآخر ! » . لكن بقيت المعضلة

الكبرى : كيف العثور على ذلك النصف ؟ هل يترك الأمر للمصادفة أو عليه هو بالسعى ؟ هل القدر هو الذى يخط على لوح الوجود ـ بالطباشير ـ جامعا الأنصاف بعضها الى بعض ؟ أو أن على الرقم المشطور أن ينفلت هو بنفسه من تحت اصبع القدر وطباشيرته ويسرع زاحفا على اللوح بحثا عن بقيته ؟ ولبث المهندس أياما لا يلقى على معارفه المتزوجين غير هذا السؤال الذى لا يتغير : «كيف عرفت زوجتك؟ » ، وكانت الاجابات مختلفة ، فمنهم من يقول : « رأيتهـــا فى سهرة عند بعض الاقارب أو الاصدقاء » ، ومنهم من يجيب : « قابلتها فى سوق خيرية فأعجبتنى ، فسألت عنها » ، ومنهم من يذكر : « كانت على البلاج ، فتبعتها وعرفت عنوانها »، ومنهم ـ وهم الندرة فى هذا الزمان ممن يؤمنون بالنصيب أو اليانصيب ، ولا يرضون بطرائق الاختيار الحديثة ـ همسوا له : « والله البركة فى الخاطبة أم شلبى » . وحار المهندس فى هذه الاساليب جديدها وقديمها ، ولـكنه لم ينكر ولم يرفض ولم يعترض ... لقد قبلها كلها . كل سبيل يؤدى الى شطره الآخر لن يتردد فى سلوكه . لقد فتح عينيـــه واسعتين وذهب بهما يجوس خـلال السهرات والطرقات والشواطىء والاسواق . لكن ... وا أسفاه ، أما هـذه

فقصيرة وأما تلك فطويلة..والاولى أنفها لا يروقه والثانية فمها لا يعجبه .. ثم اذا هو أغضى عن المظهـر فمن يدريه بالمخبر ؟ لقد جند كل أصدقائه وزوجاتهم للبحث معه . ذلك أنه لم يكن له أقارب فى القـاهرة ... فان أهله فى الريف .. وليسوا ممن يحسنون فهم ما يريد .. ولم تكن صلته بهم تبيح لهمالتدخل فى شئونه ، فقد كانوا أقارب من درجة بعيدة .. لان والديه ماتا بعد تخرجه فى الجامعـة بقليل ... لذلك كان اعتماده على معارفه .. وأغلبهم كان يرتاب فى أنه يأخذ الأمر اليوم على سـبيل الجد . فكانت معاونتهم له ضئيلة فاترة فى أكثر الاحيان ، ثم زادهم فتورا وانفضاضا من حوله ما رأوه من تردده فى الاختيار وعـدم بته فى الأمر ، ونبذهكل فتاة عرضت عليه بحجج مختلفة. على أنه لم يكن فى الحقيقة متعنتا ولا متعللا ، انما هو ذهنه كان قد صور له امرأة بملامحها وخصالها ، وأوهمهأنتلك هى نصفه الذى لا يرضى به بديلا . فهو لا يريد أن ينتقى الا طبقا للنموذج الموضوع فى رأسه.وطال بحثه عبثاوذهب جريه سدى . فقعد ذات مساء يائسا ونظر الى السماء قائلا : « تعبت أيها القدر ! الكلمة لك أنت الآن . سأغمض عينى وأمد يدى ، فضع فيها من تشاء ! » . وما جاء الصباح حتى

أرسل فى طلب الخاطبة أم شلبى ، نعم ... ولم لا ؟ ما دام قد نزل عن نماذجه وصوره ، وقنع بالنصيب المكتوب فى اللوح ، وأسلم قياده للقدر يخط بيده ما يريد .. فماذا يصنع غير ذلك ؟ أليست أم شلبى من عملاء القدر أو من أدواته ؟... من يدرى ؟ لعلها هى الطباشيرة فى أصبعه . اذ لا يمكن للقدر أن تكون له وسيلة أخرى يفرض بها فى مثل هذا الأمر ارادته السماوية. وأقبلت تلك « الطباشيرة » فاذا هى امرأة ضخمة بدينة سمينة جسيمة كأنها فيل. وهل ينتظر أن يملأ يد القدر أو يليق بأصبعه حجم أقل من هذا الحجم ؟! وعرض المهندس الخاطب طلبته ، ووصف لها على قدر الامكان بغيته . فمضت المرأة واختفت أياما ثم عادت ومعها سجل حافل بأسماء الأسر ، ومنديل كبير يضم عددا من الصور الفوتوغرافية لفتيات على كل طراز. فوقع فى حيرة جديدة : كيف يتخير وأيها يختار؟ وحدثته الخاطبة فيما حدثت عن فتاة تصلح له .. ولكن ـ يا خسارة ! ـ تقدم اليها خاطب طيب ليس من السهل رفضه . تصلح لى ؟ وأين صورتها ؟.. وخيل الى المهندس فى تلك اللحظة أن هذه الفتاة هى امرأته ونصفه وحلمه ، وأن عليه أن يختطفها من منافسه اختطافا . وأين صورتها ؟ فقالت الخاطبة ان

أهلها رفضوا كل الرفض أن يعطوها أية صـورة لها . . .
ولكنها جميلة وأي جمال . . . فتشبث المهندس بأذيال الخاطبة
وصاح : « لابد من الصورة » . ففكرت مليا ثم نظرت اليه
نظرة دهاء ، فمثلها لا يعجز عن الحيلة . لقد لمحت فى بهو
الدار صورة الفتاة معلقة على الحائط . . فهى ستذهب اليهم
لتخبرهم بأمره . . ثم تغافلهم وتخطف الصورة المعلقة وتأتى
بها اليه . نهضت من فورها وذهبت وتركت المهندس فريسة
ذلك الاحساس . انها هى . انها هى . . لقد وجدها أخيرا
ما سر هذا الشعور ؟ أتراه الغموض الذى يشملها ؟ انه لم
يرها وينازعه فيها منذ الآن منازع . . كيف هى ؟ وهل
يفوز بها ؟ انه واثق أن صورتها هى صورة المرأة التى يبحث
عنها . ولبث يفكر فى ذلك طول مسائه . . . وتقدم الليل
وأراد أن يأوى الى فراشه . . . ولكن النوم استعصى عليـه
فقام وأضاء المصباح الكهربائى الصغير فوق رأسه ، وتناول
كتابا يهدىء من أعصابه الثائرة . . واذا نظره يقع على صفحة
تحتوى قصة قديمة لرجـل من بلاد السند كان يبحث هو
أيضا عن زوجة أحلامه ، فكان بحثا ممضا على غير طائل ،
فقال له قائل : «لا تيأس . ابحث عن الزوجة ولو فى الصين»
فلم يبطىء الرجل . وركب فى الحال البحر الى بلاد الصين

فكسر المركب به وبمن معه في وسط البحر. فنجا مع بعض القوم على خشبة من خشب المركب ، ووقعوا فى مكان لا يدرى أى مكان هو، فأقاموا فيه أياما لا يجدون قوتا حتى أشرفوا على الموت ، فقال بعضهم لبعض : « تعالوا نعاهد الله على أنفسنا أن ندع له شيئا فلعله يرحمنا ويخلصنا من هذه الشدة » فقال بعضهم : « أصوم فى كل عام شهرين » ، وقال البعض : « أصلى فى كل ساعة ركعتين » ، وهكذا . الى أن قال كل منهم شيئا والرجل طالب الزوجة ساكت فقالوا له : « قل شيئا ! » ، فحار ولم يجىء على لسانه الا قوله : « لا آكل لحم فيل أبدا ! » ، فصاحوا به : «الهزل فى مثل هذا الحال ؟! » ، فأجابهم : « والله ما تعمدت الهزل، ولكنى منذ بدأتم وأنا أعرض على نفسى شيئا أدعه لله فلا يخطر على بالى غير الذى لفظت به ».ومرت اللحظات بهم ، فقال أحدهم : « لم لا نطوف فى هذه الارض متفرقين بحثا عن القوت ، فمن وجد شيئا أنذر به الباقين ، والموعد هذه الشجرة ؟ » . فتفرقوا فى الطرق ، واذا أحدهم يرجع بعد قليل بولد فيل صغير ، فلوح بعضهم لبعض فاجتمعوا . وأخذوا الفيل الصغير واحتالوا فيه حتى شووه ، وقعدوا يأكلون ، وقالوا للباحث عن الزوجة : « تقدم وكل معنا » ،

فقال : « أنسيتم أنى منذ ساعة تركته لله ؟ انى لن أرجع فى شىء تركته لله أبدا... ولو كان فى ذلك موتى جوعا» ، وأكل أصحابه بدونه ، وأقبل الليل فتفرقوا الى مواضعهم التى كانوا فيها يبيتون . وأوى هو الى أصل شجرة كان يبيت عندها ، فلم يكن الا لحظة ، واذا بفيل عظيم قد أقبل وهو ينعر والخلاء كله يندك بنعيره ، وهو يطلب القوم. فقال بعضهم : « قد حضر الأجل » ، فاستسلموا وتشهدوا وأخذوا فى الاستغفار والتسبيح ، وطرحوا أنفسهم على وجوههم ، فجعل الفيل يقصد واحدا واحدا ، فيشمه من أول جسده الى آخره فاذا لم يبق فيه موضع الا شمه ، شال احدى قوائمه فوضعها عليه ففسخه ثم تركه كالعجين ، وقصد آخر ففعل به مثل ما فعل بالأول ... الى أن لم يبق من القوم غير الباحث عن الزوجة ، وهو جالس منتصب يشاهد ما يجرى ويستغفر ويسبح ويقول : « قاتل الله ذلك الذى نصحنى هذه النصيحة الشؤم ، وأخرجنى من بلادى فى طلب .. » ولم يتم كلامه ... فان الفيل لم يمهله وقصده للفور . فارتمى الرجل على ظهره مستقبلا الموت ، وجعل الفيل يشمه كما شم أصحابه من قبل ، ثم أعاد شمه مرتين أو أكثر ، ولم يكن فعل ذلك بأحد من الآخرين ، وروح

الرجل فى خلال ذلك تكاد تخرج فزعا..ثم لف خرطومه عليه فشاله فى الهواء ، فظنه الرجل يريد قتله بقتلة أخرى، فجهر بالاستغفار ولكن الفيل رفعه بخرطومه وأجلسه فوق ظهره ، وانطلق به يهرول تارة ، ويتهادى أخرى .. الى أن طلع الفجر واشتد ضوؤه ، فاذا الفيـــل قد أنزله من ظهره ، وتركه على الارض أمام باب قصر فخم .. ورجع الى الطريق التى جاء منها .. ولبث الرجل فى موضـــعه لا يعقل ولا يعى من الفزع والجزع .. ولم يثب الى رشده الا وهو داخل القصر ..فانتبه الى نفسه .. فاذا هو فى فراش وثير وثياب جديدة والى جواره فتاة كالبدر هى ابنة صاحب الدار ... طفقت تعنى به وهو ينظر اليها ويهمس قائلا : « أمن الموت الى الحياة .. وأى حياة ! انها هى .. هى ! » نعم كانت هى ضالته التى تجشم من أجلها السـفر والبحر والخطر ... فقد تزوجها بعـــد ذلك وكانت نعم الزوجة والخدين والشريك ...

وانتهى المهندس من مطالعة هذه القصة القديمة ، وهو يقول لنفسه : أم شلبى...هذا الفيل الآدمى..من يدرى .. لعلها هى الاخرى تحملنى غدا الى تلك الأسرة التى أجد فى فتاتها ضالتى !.. وطلع الصبح . وانتصف النهار

.. وجاءت الخاطبة تحمل في ملاءتها ، صورة في اطار ، أمسك بها المهندس متلهفا وتفرس فيهـا مليا .. ثم طفق يقول كالمخـاطب لنفسه : « نعم .. لا بأس .. حقيقة انى أردت امرأتى هكذا ! ».وسحبت أم شلبى الصورة من يده برفق ، قائلة له انها ستقع فى الحرج اذا تفقدوا الصورةقبل ردها ... وأن عليها الآن أن تعود بهـا فورا لتضعها في مكانها .. وأن ما يجب عليه عمله منذ الساعة وقد راقتـه الفتاة أن يمضى قدما الىأهلها فيعرض طلبه ، قبل أن يرتبطوا بالخاطب الآخر ، واذا شاء فانها تدبر له موعد المقـابلة مع أبيها فى أقـرب وقت .. فقال لها : « نعم ، أسرعى ... الخير فيما اختاره الله .. »

لم يمض يوم حتى عادت أمشلبى تلهث وتدعوه الىزيارة والد العروس،عصر ذلك اليوم ، وتوصيه أن يكونحريصا على الذهاب فى الموعد المحدد بغير ابطاء ولا تأخير ، فانأهل الفتاة رفضوا بادىء الأمر الكلام فى شأن أى خاطب جديد فهم قد رضوا عن الخاطب الاول ، ولم يروا مبررا لتركهذا الباب مفتوحا بعد ذلك ، ولكن الخاطبة بذلت أعظم الجهـد فى اقناعهم بمقابلة هذا المهنـدس الكفء ، فمن يعلم أين النصيب ؟ وما ضرهم أن يأذنوا له فى زيارة قصيرة ، لقـد

احتالت وصنعت ما استطاعت لتفتح له ذلك الطريق المغلق، فلم يبق الا أن يصنع هو ما يستطيع ليقنع والد البنت ، وهو شـيخ وقور متقاعد من رجال الجيش ، دقيق في نظامه ، صارم في أحكامه،فقال المهندس للخاطبة : « لا تخافى.فى الساعة الخامسة بالضبط أكون هنالك ! ».وقد بر بوعده ، فما أزفت الرابعة والنصف حتى كان قد تهيأ وتجهز وارتدى خير ثيابه ، ووقف أمام المرآة يضع منديله الحريرى فى جيب الصدر ، وينظر اليه وقد تدلى وتهـدل ، فرأى أن يخفى بعضه ولا يبرز غير طرفه ، اعتـدالا فى ادعاء الأناقة ، واقتصادا فى ابداء الخيلاء ، ورضى عن مظهره .. نزل الى الطريق قاصدا بيت العروس ، وسار فى الشارع وكل شيء فيه مبتهج فرح ، وقد غمر الاطمئنان قلبه فبدد حيرته ، لقد انتقى له القدر شريكته ، فلم يبق الا أن يتقبلها منه شاكرا، آه للانسان ! ما أشد عجزه ! هنالك مسائل لا يرتاح الى حلها الا اذا سقط عليه المفتاح من السماء ! وهنالك مواقف يواجه فيها الانسـان مفرق طرق ، فلا يسعفه الا دفعة فى ظهره من يد القدر نحو احداها.. كانت مثل هذه الخواطر تجول فى ذهن المهندس وهو يواجه مفرق طرق « ميدان سليمان باشا » واذا هو فجأة يحس دفعة فى ظهره شـديدة

قاصمة قد طرحته على الارض ، واذا شيء كالعجلات يمر فوق جسمه .. وكان هذا مبلغ وعيه لكل ما حدث ..

ليس يدرى على التحقيق كم من الزمن مضى عليه وهو فى اغمائه ، لكنه عندما تنبه وجد نفسه على فراش وثير فى سرير مستشفى ، وجسمه كله مغلف بالاربطة الصحية وقد سمع من يهمس حوله قائلا : « لا تتحرك » فحـول بصره جهة الصوت ، فرأى طبيبا وممرضا وممرضة فى ثيـابهم البيضاء ، وقد علم منهم أنه قد أجريت له عملية « جراحية » وأنه قد كسر له ضلع ، وأنه فى هذا المستشفى منذ أيام ، وأن حالته كانت خطرة بادىء الأمر ، ولكن الخطر زال عنه الآن .. وأنه سائر فى طريق الشفاء . وأراد المريض أن يتكلم وأن يستفسر فمنعه الطبيب من بذل أى حركة أو جهد ... ولم يسمح له الا بالرد المقتضب على أسئلة رجال الضبط الذين جاءوا لسماع أقواله فى الحادث ، وقد أجابهم بأنه لم ير شيئا ... لا السيارة التى صدمته ولا لونها ولا سائقها. فختموا محضر تحقيقهم وانصرفوا عنه ، وتأمل هو حاله لحظة واكتفى بالهمس فى أعماق نفسه :

ـ ضلع مكسور !. هذا كل ما وصلت اليه .. أنا الآن كسر بحق ... دون أن أظفر مع ذلك بالتى تكملنى !

ثم ذكر آخر يوم كان فيه صحيحا .. وكان سائرا الى بيت العروس .. ترى ماذا تم فى هذا الأمر ؟ أترى الفتاة ما برحت من نصيبه ؟ أم أن الخاطب الاول قد سبقه اليها ، بينما هو طريح ، كالجواد الذى سقط فى ميدان السباق ؟ كيف السبيل الى معرفة النتيجة ؟ لو استطاع على الاقل أن يبعث فى طلب « أم شلبى » ليعلم منها.... ولكن ما الحيلة فى هذا الطبيب الذى يمنعه من الكلام والحركة ؟ فليصبر يوما آخر أو يومين .. يا لسوء حظه اذا كان قد فقدها بسبب هذا الحادث ! الويل للجانى الذى صدمه عند ذاك . انه لن يغتفر له أبدا .. لا كسر ضلعه ، بل تلك الطامة الاخرى ، ضياع نصفه الآخر بعد أن عثر عليه ..

وحانت منه التفاتة الى ما حوله ، فوجد ما أدهشه : باقات من الورد والازهار الغالية فى الآنيات ، وقارورات فاخرات من ماء «الكلونيا» وكتب مجلدة مذهبة لقتل الوقت ، وصنايق ثمينة مفعمة بالحلوى ومملوءة بالسجاير ... وكل ما يمكن أن يهدى الى مريض معزز مدلل . عجبا !. من هذا الذى يهتم بترفه كل هذا الاهتمام ، ويعنى بشخصه كل هذه العناية ؟! وسأل طبيبه بايماءة من عينه عمن أحضر كل هذه الهدايا .. فلم يزد الطبيب على أن قال بسرعة

وبلهجة من يقول شيئا معروفا للجميع :

ـ الست

والتفت الطبيب الى مرءوسيه يصدراليهم الأوامرالاخيرة قبل انصرافه . وغادر الجميـع الحجرة من فورهم ،تاركين المريض مستغرقا فى الدهشة : « الست » ! ومن هى هـذه « الست » ؟! وعادت الممرضة وفى يدها أنبوبة زجاجيـة وحقنة ، ملأتها ثم وخزت المريض بابرتها... فانتظر حتى فرغت من عملها ، فسألها أن تحدثه قليلا عن تلك «الست» .. وكانت الممرضة ثرثارة .. فتدفقت تصفها بأنها أجمل وأكرم سيدة رأتها ...

وطفقت تخبر المهندس المريض بطائفة من التفاصيل لم تزده إلا عجبا واستغرابا ، فهذه « الست » الحسناء تأتى كل يوم لتسأل عن صحته .. وهى فى كل مرة تأتى بالازهار الجميلة ، وتضع النقود فى أيدى ممرضيه بسخاء وترجوهم أن يخصوه بكل عنايتهم ، وأنها كانت فى ســـاعات الخطر الاولى تسأل عن تطورات حالته فى جوف الليل بالتليفون عدة مرات .. وأنها حضرت « العملية الجراحية » منتظرة فى حجرة مجاورة كى تطمئن على عواقبها . وأنها أصرت على استدعاء « كونسولتو » من الاطباء قبل اجرائها لتزداد

اطمئنانا ... وأنها دفعت نفقات كل ذلك من جيبها بدون تردد .. بل الاعجب أن وجوده فيهذا المستشفى فى هذه الحجرة من الدرجة الاولى الممتازة بكل ما يلزم له منعلاج وغذاء ورفاهية وترف هى التى تتولى نفقاته وأن المال يسيل من بين أصابعها كالماء فى هذا المستشفى من أجله .. ولا هم لها ولا تفكير الا في شيء واحد : «انقاذ حياته بأى ثمن» .. تلك هى كلمتها التى ترددها كل يوم وكلما جاءت .. ولكل من تقابل من أطباء وممرضين .. وختمت الممرضة حديثها قائلة ببساطة :

ـ طبعا .. زوجتك..طبيعى أنها تهتم بحالتك وتضحى بكل شيء !.. ان شاء الله أبشرها بالاخبار السـارة عن قريب !..

وخرجت من الحجرة مسرعة ، وتركته يقول كالمخبول:

ـ زوجتى !؟..

وجعل يعالج حل هذا اللغز ، الى أن اهتدى الى رأى شبه معقول :

لعل هذه « الست » التى يحسبونها هنا زوجته ليست فى حقيقة الأمر سوى تلك الفتاة « العروس » التى كان ذاهبا لخطبتها . ولعلها علمت بالحادث ، وأثر فى نفسها ما وقع له

وهو فى طريقه اليها . فحملها ذلك التأثر الشديد لهـــذا الاخلاص كله على العناية به . اذا كان ذلك حقا فهى اذن الشريكة المنشودة. نعم ما أكرم نفسها ! وما أسعده بمثلها ! ثم لماذا تتحمل هى نفقات علاجـــه ؟ أتراها اعتبرت نفسها زوجته منذ الآن ، لمجرد أنه كان ذاهبا يطلب يدها ؟.. اذا كان هذا ما وقع فى نفسها ، فانه ليقرها عليه .. فهو أيضا يعدها زوجته من الآن .. بل منذ اللحظة التي سقط فيها تحت السيارة من أجلها ... يا لها من زوجة عزيزة .. ان رسمها فى رأسه الساعة مشوش مختلط .. ولكنه مع ذلك يذكر بعض ملامحها التى شاهدها فى الصورةذات الاطار .. لابد له على أى حال أن يراها سريعا ، ليشكرها على الأقل . وانتظر حتى جاءت الممرضة فقال لها :

ـ أريد أن أرى ... زوجتى ...

فأجابته الممرضة بأنها لم تحضر بعد ، ووعدته بأن تدخلها عليه توا عند حضـــورها . ولبث المريض يعد فى انتظارها الدقائق ثم الســـاعات ، ثم جاءه الليل ، ثم مر يوم وثلاثة وأربعة ... دون أن يسمع من الممرضـــة ســـوى ألفاظ الدهشة والاستغراب. فهى أيضا تعجب لاختفاء هذه السيدة الآن .. بعد أن كانت تجىء المستشفى فى اليوم مرتين ..

ووقع المهندس لا فى الهم والغم وحدهما بل فى الحيرة أيضا والحرج... بماذا يعلل للممرضة وللآخرين هذا التصرف العجيب من زوجته المزعومة ؟. فآثر الصمت أمامهم والاقلاع عن ذكرها . ولكنه ظل الايام يحاول عبثا أن يكشف لنفسه حقيقة هذا السر . الى أن بدرت ذات يوم من الطبيب بادرة أنارت قليلا هذا الأمر . فقد قال له وهو يفحص ضلعه المكسور :

ـ حالتك الآن على ما يرام . تستطيع الآن أن تضطجع على وسادة خلف ظهرك ، وأن تتكلم كما تشاء.. وأن تقرأ هذه الكتب والصحف والمجلات التى ترسلها لك الست..

فصاح المريض كالغريق الذى وجد خشبة :

ـ الست ؟.. أين الست ؟..

فقال الطبيب باسما :

ـ انها الآن مطمئنة غاية الاطمئنان بعد أن أكدت لها منذ أسبوع زوال كل خطر ..

ـ ولكنى ... أعنى ... هل حضرت ؟

ـ لا.. لقد قالت لى فى آخر مرة انها لم تعد ترى ضرورة للحضور ، ما دام الخطر قد زال ... وانها تكتفى الآن بالسؤال عن الحالة بالتليفون مرة كل يومين أو ثلاثة ...

ـ هل أستطيع أن أكلف أحدا بطلبها بالتليفون ؟

ـ بالتأكيد .. اعط رقم التليفون للممرضة وهى تقوم بذلك فى الحال اذا شئت

ـ رقم تليفون « الست » معروف هنا طبعا ..

ـ لا أظن .. انها هى التى تطلبنا دائما ... ومع ذلك ألا تعرف أنت الرقم ؟..

ـ آه .. طبعا .. طبعا ..

وضحك ضحكة يخفى بها ورطته..وانصرف الطبيب ، وتركه يتخبط فى ظلام أكثف مما كان فيه . من هذه السيدة التى تعطف عليه كل هذا العطف وهو فى الخطر ، فاذا انقشعت غمته وتحسنت حالته ، انصرفت عنه فى غير اكتراث كأنها لا تعرفه ؟! ثم كيف يتصل بها الآن والمسالك دونها موصدة ؟ ونادى الممرضة ورجا منها أن تبحث فى ادارة المستشفى وفى كل مكان عن عنوان « الست » أو رقم تليفونها . موهما اياها أن زوجته هذه تتعمد اخفاء مكانها عنه وتتكلف هذا التصرف معه ، لاسباب خاصة ، لكن المرضة لم تعثر لهذه السيدة على عنوان معروف ولا على رقم تليفون .. وكل ما يعلمونه عنها فى المستشفى أنها هى التى تحضر وهى التى تستفسر دون أن تترك خلفها أثرا!..

ولم يجد المريض آخر الأمر غير وسيلة واحدة .. ماكاد يهتدى اليها حتى صاح فرحا كمن وجد الفرج... والتفت الى الممرضة قائلا :

ـ اسمعى ! .. أرجوك .. اذا سألت عنى « الست » بالتليفون فى المرة القادمة ، فأخبريها أنه قدحدثت لى نكسة، وانى لن أعيش أكثر من ساعتين !

فترددت الممرضة . فأقنعها بورقة مالية دسها فى كفها.. فقبلت المجازفة بهذه الاكذوبة لوقت محدود. ومضى يومان .. واذا الممرضة تدخل على المهندس مهرولة لاهثة وهى تقول :

ـ تكلمت ..

ـ صحيح ؟.. تكلمت ؟..

قالها وقد كاد قلبه يثب من جوفه . فأكدت له الممرضة أن « الست » تكلمت الساعة بالتليفون لتستفسر ، فأجابتها بالرد المتفق عليه ، فذعرت وألقت بالسماعة ، وهى قادمة بعد دقيقتين . فلم يدر المريض ما يصنع من الفرح .. ومد يده على غير وعى منه يلتمس زجاجة عطر الكلونيا ليتطيب ... وهو يوصى الممرضة أن تدخلها عليه للفور ، وأن لا تنسى أنه يحتضر... وخرجت الممرضة تستقبل القادمة.

ولم يمض قليل حتى سمع المريض صوت المرأتين يقترب .. فأغلق عينيه نصف اغلاق ، واستلقى بلا حراك ومثل دور من يموت ... ودخلت « زوجته »المزعومة وتسمرت بالعتبة تنظر اليه شاحبة الوجه .. فكاد ممثل الموت يموت حقا .. من هذه المرأة ؟ انها ليست صاحبة الصورة التى فى الاطار !.. هو الذى وطن النفس وأعد الذهن لرؤية امرأة يعرفها .. أو يعرف رسمها على الاقل ؟ ها هو ذا أمام امرأة جديدة لم يرها قط فى حياته ، ولا يدرى عنها شيئا ... وانهار كل ما كان قد بناه فى لحظة . فليست هذه المرأة بالعروس التى كان ذاهبا لخطبتها ... وليست هذه العناية وهذا الاهتمام وليد تلك الاسباب التى كان قد رتبها واستنبطها واستنتجها ... هذه امرأة غريبة عليه وعلى ذهنه وفكره ... لم يرها من غير شك فى الماضى ، ولم يصادفها فى حقيقة أو خيال .. فمن تكون ؟ ومن أين طلعت له ؟ وما سر عنايتها به ولهفتها عليه .. وقلقها فى ساعات أزماته .. وتكلفها جميع نفقاته ؟. هذا هو اللغز الذى فاق جميع ما عداه . ولكن هذه المرأة التى لم يعرفها ولم يرها .. ما أجملها !.. انه تخيل فعلا يوما ما نوعا من الجمال تمناه فى امرأته ... ولكنه لم يستطع تخيل حسن كهذا .. انه

لكثير عليه هذا الجمال .. ثم ما أروع وجهها في هذا الشحوب.. لقد شحب وجهها هكذا حزنا عليه .. أهو في يقظة حقا ؟.. ثم ما هذا الذى يرى .. يا للعجب !. انها دمعة فضية تترقرق فى عينيها الواسعتين كأنها قطرة ندى.. ولم تتحمل الحسناء ألمها ـ فيما يبدو ـ أكثر من ذلك . فاندفعت خارجة من الحجرة ، وهى تمسح دمعتها بأناملها القرمزية الاصداف ، والممرضة فى أثرها .. ولم يبد المريض حركة ولم يلفظ همسة فقد أذهله ما رأى عن كل شيء ... ولم يثب الى رشده ، وتستيقظ له ارادة ، الا بعد أن عادت اليه الممرضة وحدها راجية ملحة فى الرجاء أن يكف عن هذه الاكذوبة ، وأن يسمح لها أن تخبر الحسناء بالحقيقة ، قبل أن تتحرج الامور ، ويبلغ ادارة المستشفى الأمر ، فتتعرض هى للمؤاخذة ، ذلك أن « الست » تصر على استشارة الاطباء ، وبذل كل عطاء لانقاذه من الموت ، ولم تنتظر الممرضة رأيه أو جوابه .. وأقبلت عليه تعينه على الاستواء قليلا... وتضع الوسادة خلف ظهره ، وجذبت احدى المجلات المصورة ودفعت بها اليه ، وأعلنته أنها ذاهبة تخبر « الست » بالحقيقة ، وتعود بها لتراه وهو فى حالته الحقيقية .... وخرجت عنه وهو مضطجع كالطفل الذى

لا ارادة له ولا عزم ... المتقبل كل ما يجرى له ويفرض عليه ... وأخذ يعبث بصفحات المجلة المصورة بعين زائغة وفكر شارد ... واذا بصره على الرغم منه يقع على صورة يعرفها .. عجبا !.. انها صورة للعروس التى رأى رسمها فى الاطار..نعم .. هى بعينها فى ثياب العرس البيضاء والى جانبها شاب فى ثياب السهرة « الفراك » وتحت الصورة عبارة « قران بهيج » ... لقد زفت اذن الى خاطبها الاول ... حسنا فعلت ، انه لا يأسف الآن عليها كثيرا ... وأرسل بصره الى الباب نافد الصبر .. معلق الانفاس .. واذا الممرضة تدخل وهى تجذب الحسناء جذبا رفيقا الى داخل الحجرة ، وقدمت اليها مقعدا بجوار السرير ، وانصرفت فى الحال . ومر كل ذلك مرا خاطفا ، فلم يشعر المهندس بالحسناء الا وهما منفردان وجها لوجه ، ولم يكن من اليسير أن يجد أحدهما الكلام الذى يبدأ به ... فوقعا أول الأمر فى صمت عميق محرج ... قطعته الجميلة قائلة ، وكأنما تتنفس الصعداء :

ـ أف !. الحمد لله على انك بخير ! لقد كاد يغمى على الساعة عندما حسبتك تموت !...

فرنا اليها والى فمها وهى تنطق هذه الكلمات ، وكأنه

لا يصدق أن هذا القول موجه اليه . ثم تمالك قليلا وقال لها :

ـ حياتى شيء مهم عندك ؟

ـ جدا

ـ لا يوجد غير تعليل واحد لكل هذا ، انى مت حقيقة وانتقلت الى جنة الخلد ، وما أنت الا حورية مكلفة بملاطفتى .. ولكن ... أين الشجر والثمر والكوثر .. ولماذا هذا السرير والممرضة والمستشفى !!

ـ لا .. أنت من حسن الحظ حى ... لانك لو كنت مت ودخلت جنة الخلد ، كنت أنا دخلت السجن

ـ السجن ؟ وما المناسبة ؟!

ـ آن الأوان أن أعترف لك يا سيدى بجريمتى . أنا التى صدمتك بسيارتى . وانى بالطبع متأسفة جدا . ولكنه القدر ... أقوى منا ومن ارادتنا وتدبيرنا . كنت مسرعة وهذا خطأ منى ولا شك .. ولكنى كنت مدفوعة برغبتى فى شراء ثوب حريرى رأيته فى الصباح، وخفت أن تسبقنى الى شرائه أخرى . وعندما مرت العجلات على جسدك .. لم أقف ومضيت فى السير بعين السرعة .. لا عن قسوة منى

ونقص فى المروءة... بل عن خوف شديد استحوذ على..
لقد هربت من جسدك الملقى على الارض كمن يهــرب من
شبح .. وعدت توا الى بيتنا غائبة العقل . ورأتنى والدتى
فهالها اضطرابى ، وقصصت عليها ما حدث ، فنصحتنى أن
أخبر والدى بكل شىء . وهو من رجال القضاء. فلما سمع
والدى القصة حار هو الآخر فيما ينبغى عمله . فان التبليغ
عن هذا الحادث معناه التعرض للحكم اذا مات المصاب ، كما
قال لى ، واذا لم نبلغ فاننا نتحمل تقريع الضمير طول حياتنا،
وان كرامته كقاض تمنعه من أن ينصح أحدا ولو كان ابنته
بالهرب من العدالة ... وان حنانه كأب يمنعه كذلك من
أن يدفع بابنته الوحيدة الى السجن .. وانتهى به التفكير
الى أن ترك لى حرية التصرف.. بعد أن أفهمنى كل النتائج
المحتملة لهذا الفعل .. وجعل يعنفنى على جنونى فى سرعة
القيادة .. ونصحنى أخيرا أن أتتبع حال المصاب على الاقل
وأن أعمل على علاجه وانقاذه .. فانه اذا شفى لن يقع على
من العقاب أكثر من غرامة مالية ولهذا بادرت أسأل أقسام
البوليس عن المصاب فى حادث السيارة عصر ذلك اليوم فى
ميدان سليمان باشا ... الى أن اهتديت اليك

وأصغى المهندس الى حديثها ، وكأنه يهبط رويدا رويدا

من السحاب حتى لاصق التراب . وما فرغت روايتها ..
حتى نظر اليها قائلا :

ـ يا لك من مجرمة أثيمة ! .. كسرت ضلعي ،وأضعت خطيبتي ، وبددت أحلامي !.وكل هذا لن تعاقبي عليه بأكثر من غرامة مالية !.

ـ لأنك شفيت والحمد لله !

ـ أنا شفيت ! وما قيمة شفائي ؟ ان موتي الآن خير من حياتي ... أكل هذا العطف الذي نلته منك .. وهذه الدمعة التي سقطت من عينيك ، وهذا الشحوب الذي بدا عليك لم يكن من أجلي ولا خوفا علي ، بل خوفا على نفسك من الحبس ؟!. اسمعي أيتها الآنسة .. أو الست .. أو الزوجة المزعومة ..

ـ الزوجة ؟

ـ طبعا .. وماذا تريدين أن يكون ظنهم هنا بسيدة مثلك تعنى هذه العناية برجل مثلي ؟ لقد خطر في بالهم بالضرورة أنك زوجتي ، ولم يخطر في بالهم أنك قاتلتي !

ـ لا تقل اني قاتلتك .. فها أنت ذا الآن في صحة جيدة

ـ كم كنت أتمنى أن أموت لتدخلي أنت الحبس ..

ـ الى هذا الحد تبغضنى ؟

ـ هل أبلغت الحكومة أنك أنت الجانية ؟

ـ لم أبلغ بعد . . لقد رأيت أن أنتظر حتى تشفى . .

ـ واذا كنت مت ؟

ـ كنت ذهبت وقدمت نفسى للبوليس

ـ أأنت واثقة أن القضاء كان يحكم بحبسك فى حالة وفاتى من الحادث ؟

ـ كان ذلك مرجحا لانى من أرباب السوابق

ـ أنت ؟ من أرباب السوابق ؟!

ـ نعم . . فى حوادث السيارات . . سبق لى أن صدمت حمارا محملا بالحطب فى طريق عزبتنا فى صيف العام الماضى ، ومنذ ستة أشهر صدمت حمارا آخر يحمل قصبا فى سكة الهرم

ـ حضرتك اخصائية فى صدم الحمير ؟!

فنظرت اليه وهو مغلف فى أربطته الصحية . . وضحكت ولم يفطن هو الى « النكتة » ومضى يقول :

ـ أيتها الجانية . . أنا بصفتى المجنى عليه ، لابد أن يسمع رأيى فى جريمتك . هل تريدين حكمى أو حكم المحكمة؟

ـ حكمك

ـ حكمت عليك بالحبس

ـ تريد حبسى ؟!

ـ فى أحضان الزوجية

فنظرت اليه وابتسمت ابتسامة المحكوم عليه الذى رصى بالحكم ولن يستأنفه أو يناقض فيه

□

مضى عام على زواجهما ، فأدرك المهندس أن « القدر » حقا قد عرف كيف يهديه الى « طبقه » وشطره ونصفه وزوجته المثلى .. وقد آمن أن للقدر من الوسائل أحيانا ما لا يخطر على بال البشر .. وهل كان مثله يتصور أنه سيلقى شريكته يوما بهذه الطريقة ؟! ان كلمة « النصيب » التى يذكرها الناس دائما فى بساطة ليست الا مظهرا من مظاهر فن « القدر » العجيب فى تدبير مصائر الا دميين ..

واحتفلا فى المساء بمرور العام على ذلك الزواج ، فهمس فى أذن زوجته قائلا :

ـ كان لابد لحواء أن تأخذ من آدم ضلعا حتى توجد ، وكان لابد لك من أن تكسرى لى ضلعا حتى أجدك !.

كليوباترة ومارك

من أسرار الحروب الاخيرة التى لم يكشف بعد عنها النقاب ما أرويه الآن . وما من صحيفة فى العالم نشرت هـــذه القصة الغريبة ، التى قد تصدم منطق الانســـان فى القرن العشرين . ولكن هذا لا يمنع من أنها وقعت بالفعل . وأرجو أن لا يسائلنى سائل عن مصدر علمى بها . فهذا ما أقسمت أن لا أبوح به لأحد

كان ذلك فى عام ١٩٤٤ ، فى جزيرة ما بالمحيط الباسيفيكى اتخذها الجنرال « ماك أرثر » مقرا لقيادته فى حربه ضـــد اليابان بعد أن اضطر الى الجلاء عن الفلبين . .

كان المساء جميـــلا . والشفق ما زال يدمى على صفحة سماء بيضاء كرداء العروس ، والنسيم يهب رقيقا من البحر الهادىء النائم . . .

وكان « ماك أرثر » جالسا فى شرفة مقره بمفرده ، وقد غرق فى مقعد من القماش كمقاعد الشواطىء ، وأرســـل رأسه الى الوراء على المسند وراح فى شبه اغفاءة . . تحت وقر التعب والاجهاد ، وثقل الأعباء والتبعات . .

لم ينم طويلا . فقد استيقظ فجأة على صـوت مجاديف تمس الماء كما يمس المرود الجفن ، وموسيقى تحملها الريح، وعطور تتضوع فى الهواء . . ففتح عينيـه ، فاذا هو أمام منظر عجيب : سفينة من سفن العصور القديمة ، تتهـادى فوق الامواج مقتربة . . مؤخرتها من الذهب ، وشراعها من الارجوان ، ومجاديفها من الفضة ، تتحرك على نغم المزامير ... وفى مقصورتها امرأة مستلقية على الحرير كأنها الهة ، يحرق بين يديهـا بخـور وينتشر عبير ، يلعب بالرؤوس ويسحر النفوس ...

نزلت تلك المرأة من السفينة ، ومشت وكأنها تخطر فى الهواء . . نحو مركز القيادة ، وهى تقول :

ـ « مارك أنطونى » !

ففرك الجنرال الامريكى عينيه وهو يقول :

ـ أنا « ماك أرثر » !

ـ نعم ، أقصد « ماك أرثر » . . اليك جئت ، وأنت الذى أريد ...

ـ من أنت ؟

ـ أنا كليوباترا

ففحصها القائد بنظره مليـــا . . . وتأمل ثيابها ودمقسها ودمالجها ولآلئها . . ثم التفت الى سـفينتها العجيبة ، وهز رأسه باسما وقال :

ـ فهمت ، فهمت . انما الذى أعجـــب له هو : كيف استطاعت هوليوود أن تعمل فى هذه المنطقة الحربية بدون علمي ؟ وكيف حصلت على اذن فى ارتياد هذه المياه الممنوعة لاخراج الافلام التاريخية ؟ وما هى السلطات المختصة التى يمكن أن تتحمل هذه المسئولية دون الالتجاء الى رأيى ؟! هذه مسألة خطيرة يا سيدتى ، لا يحسن الاغضاء عنها . . .

ونهض ، وعلى محياه جد وصرامة . . وأراد دخـــول مكتبه ليتحرى الأمر فاعترضته الزائرة العظيمة ، ووقفت بجلالها الملكى ، وقالت بصوتها الملائكى :

ـ قلت لك أنا كليوباترا ، ملـكة مصر . جئت اليك من العالم الآخر . ولعلها أول مرة يحدث فيها ذلك ، منذ عرف الناس الحياة وعرفوا الموت . ان عصركم اليوم عصر تقـع فيه أعاجيب ، ولكن الاعجوبة الكبرى هى تمكنى من العودة الى الدنيا . . كيف تمكنت ؟ هذا ما لا شأن لك ولا لى به . وأنا لم أحضر لأطلعك على أسرار الموت والحياة . ولكنى أريد أن تصدقنى . . فلأقل لك اذن ببساطة كيف تم هذا ،

بطريقتكم ولغتكم التي تفهمونها : اننا بعد موتنا تتلاشى روحا وجسدا كذرات فى الفضاء ... على أن المتعذر دائما هو جمع هذه الذرات ، من الكون ، مرة أخرى فى عين الجسد وعين الروح . لقد استطعتم بجهاز الراديو أن تجمعوا من الفضاء أصواتا وتنقلوا صورا ... ولكن أين للموتى ذلك الجهاز الذى يجمع ذراتهم المتناثرة ، فى كيانهم القديم وصورهم الغابرة ؟ لابد أن توجد قوة هائلة تجذب هذه الذرات وتجمعها . لقد حدثت هذه المعجزة فيما يختص بى .. لقد كنت أنت هذا الجهاز ، أو هذه القوة التى جذبتنى ، بدون أن تشعر أنت أو تعى ، انك لا تدرك أى شبه بينك وبين حبيبى السابق « مارك أنطونى » !

قالت ذلك ، و « ماك أرثر » يصغى اليها مشدوها . لكأن ارادته قد فارقته .. يدرك هذا من قرأ « بلوتارك » المؤرخ اليونانى حين وصف كليوباترا .. انها ، على حد قوله ، لم تكن فى الجمال بالغة ما لم يبلغه غيرها من الجميلات ، ملاحة وجهها لم تكن وحدها مبعث فتنتها التاريخية ، انما هو حديثها الذى كان ينفذ فى القلوب كالشوكة . كان صوتها هو العذوبة ، ولسانها قيثارة متعددة الأوتار . تعالجها برشاقة وتمسها بلباقة ، فى مختلف اللغات واللهجات . ان مقاومة

سحر حديث كليوباترا كان هو المستحيل ..

وهمس القائد الامريكى كالمخاطب نفسه :

ـ مارك أنطونى !

ـ نعم .. ما أعجب الشبه بينك وبينه ! فى وجهه وأنفه وقوامه .. ومشيته ! بل ما أشبه دولتك بدولته .. لقد كان الرومان فاتحى العالم بالسيف ، واليوم الامريكان هم فاتحو العالم بالدولار. كان للرومان مجلس شيوخ و «قيصر» .. وللامريكان مجلس شيوخ و « روزفلت » ..

□

من اللغو أن نطيل ... فمن البديهى أن نقول : ان « ماك أرثر » وقع فى حب « كليوباترا » .. وهل دنا منها أحد دون أن يسقط فى أتون غرامها ؟ ومنذ ذلك المساء وهما لا يفترقان . كانت معه كما كانت مع « مارك أنطونى » فى أول حبهما .. لقد قيل انها والقائد الرومانى كانا متلازمين الليل والنهار . كانا معا يهيمان فى الطرقات أحيانا يمرحان ويلهوان ... هى متخفية فى زى وصيفة وهو فى زى وصيف .. أما اليوم فانها تلازم القائد الامريكى فى زى « ضابطة » من المجندات ، وقد ألحقت بمكتبه . وهو وضع

طبيعى..وهل يثير التفات أحد أن يكون للجنرال الامريكى « سكرتيرة » مجندة فى ردائها العسكرى ؟

لم يكن شىء يعكر صفو حبهما غير شبح..هو دائما عين الشبح : الزوجة

فيما مضى كانت هى « فولفيا » زوجة « مارك أنطونى » التى هجرها فى ايطاليا . واليـــوم هى مسز « ماك أرثر » التى تركها فى أمريكا ..

يا له حقا من تشابه عجيب !

كلاهما زوج وأب ، بعيـد عن بلاده . وكلاهما يحزن كليوباترا ويزعجها كلما فكر فى العودة الى امرأته وأولاده. ولم تلبث مخاوفها أن تحققت.فها هى ذى المعركةالانتخابية تقوم فى أمريكا لاختيار « الرئيس » ورشـــح « روزفلت » للمرة الرابعة . ولكن نفرا قاموا من جهة أخرى يرشحون أمامه « ماك أرثر »

هنا نهضت «كليوباترا » تدرأ عن حبها الخطر ، فاستعانت بقوة سحرها ونفاذ فتنتها لتصرف « القائد الامريكى » عن هذه الفكرة ، كما صرفت من قبـل « القائد الرومانى » عن الذهاب لمحاربة قيصر ..

لعل هذا هو السر الحقيقى فى انسحاب « ماك أرثر » من معركة الانتخابات الامريكية !

وهكذا ظفرت « كليوباترا » باستبقاء حبيبها الى جانبها وأقصته عن زوجته ووطنه وذويه ..

على أنها كانت هذه المرة ذات فأل حسن وأثر طيب على القائد الامريكى. فقد حفزه قربها وألهبه ، فتوالت انتصاراته. وصار يثب من جزيرة الى جزيرة خلف اليابانيين. يطردهم منها ويستولى عليها. وهو لا يرهب شيئا الا أن يبدو مندحرا أمام « كليوباترا ».. حتى تم له الفوز الاخير . واستسلمت اليابان .. ودخل « ماك أرثر » طوكيو دخول الفاتحين..

ومرت أيام لم ير القائد أجمل منها . وفى ذات عصر ، وقفت « كليوباترا » بجـواره وأرسلت بصرها الى البحر ، وقالت :

ـ أتدرى يا « مارك » .. أقصد يا « ماك » .. ما الذى يجول فى خاطرى ؟

ـ ماذا يا « كليو » ؟

ـ أتذكر يوم جئت اليك تحملنى تلك السفينة الجميلة ؟ لقد كانت هى عين السفينة التى ذهبت فيها الى « مارك » فى « طوروس » وقد استدعانى لأقدم حسابا عما نسبوه الى من

معاونتى لأعـدائه . ولقد أحب أحـــدنا الآخر بعدئذ . ولكن برغم ذلك .. أى اذلال وهوان أن يســتدعى رأس متوج ليمثل أمام قائد منتصر !

ما قولك يا « ماك » لو استدعيت امبراطور اليابان ليمثل بين يديك ؟

فأجفل « ماك أرثر » قليلا لهذه الفكرة .. انه لا يجهل خطورة الاقدام على هـذا العمل الجرىء . ان « الميكادو » شبه اله فى قومه ..

ونظر الى حبيبته مترددا متوجسا .. ولكنها اســـتقبلت عينيه بنظرة منها أسكرته . فأحس قوة تدب فى قلبه دبيب الخمر .. وقال :

ـ سأفعل !. سأفعل يا كليو !

ولم تمض أيام حتى كان الامبراطور بقبعته العاليـــة الرسمية السوداء ، ماثلاً أمام « ماك أرثر » فى مقر قيـادته وهو بقميصه الكاكى ..

واهتز العالم لهذا الحادث !

واستمرت بعد ذلك اللحظات السعيدة ، يرتع فى ظلها الحبيبان ، ويضحكان ويلعبان ..

وخرجا ذات يوم للصيد فى خليج طوكيـــو .. وكاد النهار يولى و « ماك أرثر » لم يظفر بسمكة . وخجل من الهزيمة أمام حبيبته العظيمة،فغافلها واتفق مع أحدالصيادين الحاضرين ، على أن يغوص فى الماء ويضع فى سنارته سمكة من صيده الطازج ، ونفذ الاتفاق ، وجذب القائد سنارته ، فاذا بها سمكةكبيرة ، أراها لحبيبته مزهوا. .ولكن كليوباترا لم تكن بالغافلة. .وأعدت للغد عدتها . واتفقت هىالاخرى مع الصياد سرا .. فلما جاء الغد ، وضـــع « ماك » سنارته فى الماء الى أن شعر بثقلها فجذبها. .واذا بها : سردينةكبيرة مملحة مما يباع فى صناديق البقالين ..

ارتفعت عندئذ قهقهة الحاضرين . وكاد القائد الامريكى يغضب ، لولا قول كليوباترا البارع اللبق :

ـ أيها القائد الظافر !.. مالك وصيد السمك ؟ اتركه لنا نحن العاديين والعاديات !. .أما أنت فصيدك الجزر والمدن والملوك والامبراطوريات ! ..

ما من اكليل غار يعدل هذا الاطراء من فم «كليوباترا »!

عند ذاك ألقى « ماك » بعصا صيده ، وأقبل عليها وقلبــه يقطر حبا ، وهو يهمس :

ـ يا عزيزتى كليو !

▭

لكن الحب شديد النهم .. انه يأكل كل شيء حتى نفسه انه لا يقنع أبدا . ولا يعرف نهاية ولا حدا . لقد جعل « مارك أرثر » همه الأكبر بعدئذ مطالعة كتب المؤرخين ، اليونان واللاتين ، الذين كتبوا عن كليوباترا . وخرج من هذه القراءة بقلب نهشته الغيرة .. لقد تبين له أن أكثر كلمات حبيبته التى تناجيه بها وتخلب لبه ، سبق أن قالتها بنصها ولفظها لمارك أنطونى !

ودخلت « كليوباترا » عليه يوما ، فأبصرت فى يده كتاب « بلوتارك » مفتوحا على فصل يصف أخبارها . ففهمت لساعتها ما يجيش فى صدر حبيبها المقطب الجبين ، فابتدرته قائلة :

ـ أرجوك أن لا تصدق ما يهرف به هؤلاء المؤرخون !

ـ كيف لا أصدق والعبارات التى أوردوها هى عين عباراتك التى أسمعها اليوم من شفتيك ؟

ـ اسمع يا مارك . . .

ـ من فضلك .. أنا اسمى ماك .. ماك .. الى متى تظلين تخلطين بينى وبين الآخر ؟

ـ ثق أنى لا أخلط .. وانما لسانى يغلط .. هذا طبيعى أولا تريد للسانى أن يخطىء وهو الذى تعود ذلك الاسم منذ عشرين قرنا ؟!

ـ اياك بعد الآن أن تمزجى بيننا . تذكرى دائما انك رأيته مندحرا . أما أنا فانك رأيتنى منتصرا

ـ نعم .. لقد كان حبى له شؤما عليه . أما حبى لك ، فكما ترى ، سعيد الطالع .. ولولاى لما انتصرت .. يجدر بك أنت أن تذكر دائما أنى عدت الى الحيـاة من أجلك . هذا ما لم يحدث لبشر غيرك !.

سكن عندئذ ثائر القائد الامريكى واســتقرت نفسه . ومضت أيام وهو هادىء مطمئن راض عن حبـه . ولكن الحب لا يرضى ولا يطمئن . لانه اذا فعل ذلك نام ، وهو كالقلب اذا نام مات ...

ورنت فى رأس « ماك أرثر » عبارتها الاخيرة : « هـذا ما لم يحدث لبشر غيرك » ! فردد مخاطبا نفسه ذات ليلة :

ـ حقيقة .. هذا ما لم يحدث من قبل .. هذا هو المجد الذى لم يبلغه بشر .. كليوباترا تعود الى الحياة من أجلى !.

ولكن من يعلم ذلك حتى الآن ؟.. لا أحد سـواى ...
وما قيمة ذلك اذن ؟ ترى ماذا يحدث لو أذيع هـــذا الخبر العجيب ، ونشر فى صحف الدنيا : « كليوباترا بعثت لماك أرثر » !!

تلك هى المعجزة التى تتضاءل بالقياس اليها ألف أعجوبة مثل القنبلة الذرية !.

وتملكته هذه الفكرة واستحوذت عليه الليالى الطوال . لابد أن يكشف أمر كليوباترا للعالم المتحضر..ولم يتمالك ففاتحها برغبته قائلا :

ـ اسمعى يا كليو !..

ـ انى مصغية يا ماك ..

ـ أخبرينى .. هل فكرت فى المســتقبل .. أعنى فى مستقبلك ؟

ـ مستقبلى ؟!

ـ نعم .. أتظلين هكذا دائما ضابطة مجنـــدة فى غمار المجندات لا يدرى بك أحد ؟ أنت أجمل وأشـــهر ملكات التاريخ تهبطين الدنيا ، ولا تشعر بك الدنيا ؟ تصورى ، لو أذيع أمر وجودك ، أى أقواس نصر تقام لك فى كل مكان،

وأنا بجوارك فخور بك .. انهم في أمريكا يحسدون من يقترن باحدى النبيلات ، فماذا هم قائلون يوم يرون « مالك أرثر » وفي ذراعه « كليوباترا » أبهى الملكات وألمع المتوجات !..

ـ أيها الامريكي ، أهذا هو الذى يشغل بالك الآن ؟. أهذا هو مصير حبنا ؟ تريد أن تستخدمه أداة اعلان ؟

ـ بل أريد أن يكرمك هذا العصر

ـ يكرمني ؟ أتدرى كيف سيكون تكريمي ؟ انى أعرف ما ينتظرنى في بلدك. سأكون ملهاة للسياح،يأتون لمشاهدتي من أطراف الارض،ومادة للصحفيين والمراسلين لا تنضب، وموضوعا للنساء فى الصالونات والحفلات والمسارح والسباق يثرن الاشاعات حولى،وينهشن بألسنتهن لحمى ، ويتضاحكن ويتغامزن قائلات : « أهذه هي التي قال التاريخ انها فتنت القواد والقياصرة ؟ ماذا فيها من حسن وسحر واغراء يثير الرجال ؟! »

ـ بل ثقى أنك ستكونين أعظم امرأة في زماننا هذا

ـ أعظم امرأة ثروة . هذا محتمل جدا وجائز جدا .. فان شركات الأزياء الكبرى في أمريكا ستتزاحم

عارضــة على أبهظ الاجور لأروج لها أثوابها . وشركات الزينة والجوارب ، والعطور ، والصابون ، وكبار الحلاقين ودور النشر ، والمصورين ورجال الصناعة والمال والاعمال ..الخ.ولا تنس شركات هوليوود السينمائية..فمنّ المؤكد أنها ستتهافت طالبة الى القيــام بدور « كليوباترا » فى نظير مبلغ لم يدفع قط لانســان ، وقل مثل ذلك عن مســــارح برودواى الشهيرة ، ومن يدرى ما ستعرض على أيضا من عمل ومن مال ...

ـ طبيعى جدا أن يكون لك مال كثير وثروة ضــخمة ، لتقتنى الجواهر والنفائس ، وتملكى فى كل قارة أكثر من قصر وفى كل بحر أكثر من يخت وتعيشى حياة الترف الخليقة بك وباسمك العظيم !..

ـ اسمى العظيم..حقا سيكون كذلك ، يوم أراه منقوشا بتوقيعى الكريم ، على كل علبة بودرة وكل زجاجة كلونيا وأحمر شفاه ، وصبغة أظافر ..! هــذا هو عصرك وبلدك .. وهذا هو حبك . وهذا هو كل مستقبلى !..

وقامت غاضــــبة ، وفى عينيها دمعة ، أخفتها بأصبعها ، وانصرفت مسرعة ، فنهض « ماك » خلفها وهو يصيح بها :

ـ كليو ... كليو ... انى أمزح

ـ لا .. أنت لا تمزح . انى أقرأ ما فى أعماق نفسك
انك لن تستطيع طويلا أن تقنع بحبى لك فى زى ضابطة .
أنت تريد أن أحبك أمام الدنيا فى ثياب « كليوباترا » وان
صبرت اليوم فلن تصبر غدا .. انى أعرف غروركم !

ـ لن أقدم أبدا على أمر يغضبك

وبرق عندئذ فى رأسها خاطر ، فقالت :

ـ ومع ذلك .. فقد فاتنا شىء خطير . ليس فى مقدورك
أن تكشف أمرى .. ان ذلك يعرضك لكارثة :

هب أنك أقدمت وأعلنت حقيقتى للناس..أتعلم ما الذى
يحدث ؟

ـ ماذا ؟

ـ يحدث لك ما حدث لكل من أعلن مثل هذا الأمر من
قبلك : لن يصدقك الناس..فاذا أصررت وماريت وجادلت
قادوك بكل بساطة الى مستشفى المجاذيب

ـ ماذا تقولين ؟

ـ أقول الحقيقة . لقد كذبت عليك يوم قلت ان ظهورى
لك لم يحدث مثله من قبل لبشر . الواقع أن كثيرين من

الموتى يظهرون للأحياء . وأن كثيرين من الأحياء يعيشون ويختلطون بالموتى . ان الحاجز بين العالمين غير موجود . انه حاجز وهمى ، هو العقل الذى يسدل ذلك الستار بين هذين العالمين. ولكن من الناس من يخرج أحيانا على سلطان العقل ، فيرفع فى الحال الستر لنفوسهم ويبصرون ما وراءه ويمتزجون بمن خلفه . فاذا احتفظوا بهذا السر لأنفسهم سلموا .. أما اذا باحوا به فقد اتهموا بالجنون .. ثق أن كثيرين قد ظهـــرت لهم « حتشبســـوت » و « نفرتيتى » و « سميراميس » كما ظهرت أنا لك ... وعاشوا متحابين آمنين ما بقى السر مكتوما. .أما الذين فقدوا ضبط أعصابهم فأعلنوا ذلك للنـــاس ، فهم أولئك الذين تراهم يعمرون مصحات الامراض العصبية والعقلية

ـ ما أظلم الناس !..

ـ بل ما أظلم العقل !.. هو الحاكم المسيطر فى حيـاة البشر ، الذى يحجب عنهم نصف الوجـــود ، فمن جرؤ ونزعه ليرى خارجه .. لم يقل الناس انه تحرر ، بل قالوا انه مرض .. ذلك أن هذا الحاكم الجبار ككل طاغيـــة ، لا يسمى الخارج عليه متحررا ، بل يسميه مريضا يستحق العلاج والحبس ..

ـ من حسن الحظ أن أمريكا بلد الحرية ، ونحن فيها نكره الطغاة والمسيطرين .. وانك سترين للحرية تمثالا عظيما عند مدخل نيويورك .. فاطمئني ياكليو ، ولا تخافي شيئا ..

ـ حقا انها لحرية في تمثال ، ولا أكثر من تمثال !. ستبوح للناس اذن ؟..

ـ لا . لا .. لم أقل ذلك

ـ أرى في عينيك ..

ـ اذا وافقت أنت . ومن يدرى ؟ قد توافقين يوما ...

ـ سترى اذن ما أصنع ..

▭

مرت أسابيع .. واذا صحفي ذو شأن يأتي من نيويورك ليجرى حديثا مع « ماك أرثر » ..

وطالعت « كليوباترا » في وجه القائد الامريكي ما رابها وأثار قلقها .. وأدركت أنه قد لا يستشيرها ، ورجحت أن لسانه سينطلق..وأنه قد يضعها أمام الأمر الواقع وجها لوجه .. ويقدمها للصحفي قائلا :

ـ « الملكة كليوباترا » أو « مسز كليوباترا » !.

لم تطق هذه الفكرة .. وأسرعت من فورها تبحث عن ثعبان ...

لقد جربت الموت من عضته . انه لا يحدث تشنجا ولا تمزقا بل يغرق الانسان فىشبه نعاس هادىء يتمنى من يقع فيه أن لا يصحو منه..الى أن تضعف حواسه ويموت موتا لذيذا ..

غير أنها ذكرت وقتئذ أن « الاسبيرين »يحدث اليوم عين الأثر ... فاضطجعت على فراشها وهى بملابس الضابطة ... وابتلعت أنبوبتين ...

وعلم « ماك » بالحادث .. فدخل عليها مسرعا ، فوجدها فى النزع الاخير.وانحنى عليها متفجعا ، وهمس فى أذنها:

ـ كليو .. كليو .. ماذا صنعت ؟!

فقالت وهى تحتضر :

ـ هل أخبرت الصحفى ؟

ـ كلا يا كليو

ـ ماك .. احفظ سرى فى قلبك وحده !.

وأسلمت الروح .. للمرة الثانية .. وربما للمرةالثالثة أو العاشرة .. أو المائة .. لا أحد يدرى ...

ظل هذا السر مكتوما بالفعل زمنا . الى أن مرض « ماك أرثر » بحمى خفيفة ، فجعل يهـــذى فى الليل ، ويقول للممرضة القائمة على فراشه :

ـ كليو .. كليو .. هل عدت الى الحياة مرة أخرى من أجلى ؟!

وحار جميع من حوله فى أمر « كليو » هذه .. فهم لم يسمعوا « الجنرال » يلفظ هذا الاسم أمامهم من قبل ...

وتساءلوا من تكون ؟ أتراها تلك الضابطة «مسز كليتون» سكرتيرته التى أمضها الأرق،فماتت منتحرة بالاسبيرين ؟!

هكذا قال من أخذ الأمور بظواهرها .. أما الحقيقة التى لم تنشر حتى الآن ، فهى التى رويت هنا بحذافيرها . ولمن يرتاب أن يلجأ الى الجنرال « ماك أرثر » نفســه ... وهو لن يستطيع أن ينفى الواقعة

موقف حرج

حدث ذات صباح أن كنت جالسا على افريز المقهى المعتاد بجوار صديقى حسن « بك » . وهو ليس من أصحـــاب الألقاب ولا حملة الرتب ولـكن هكذا تناديه ، لأن حب المظهر شيء فى دمه ، والرغبة فى « التظاهر » طبع فيه

مر بى فى ذلك اليوم مصادفة ، فأجلسته وأكرمته ، ولم أكن رأيته منذ شهور . وأمرت له بفنجـــان من القهوة . وأخذنا فى الحديث.. واذا شخص يدنو منى مبتسما مترددا فالتفت اليه وبادرته :

ـ من حضرتك ؟

ـ أنا اسمى ... مرقص ..

ـ طلباتك ؟

فمال على أذنى هامسا :

ـ هل تقبـل أن تكسب خمسين قرشا فى اليوم ، وأنت جالس فى مكانك ، هذا ، بدون أن تصنع شيئا ؟

ـ بالطبع . لا موجب للرفض

قلتها على البديهة ، كأنها من وحى الشعراء ، فبادر الرجل يقول :

ـ اذن اتفقنا .. وهذه دفعة على الحساب ..

وأخرج بالفعل ورقة مالية من فئة الخمسين قرشا ، دسها فى كفى ، فوضعتها على الفور فى جيبى ، وأنا أقول :

ـ اتفقنا

وانصرفت عنه الى استئناف الحديث الذى انقطع بينى وبين حسن «بك» ، ولكن الرجل حدجنى بنظرة شديدة وقال :

ـ ألا تسألنى عن أصل الموضوع ؟!

ـ أى موضوع ؟

ـ لماذا اذن أعطيك هذه النقود ؟

ـ وهل أنا أعرف ؟ كل معلوماتى فى الأمر ، أنه قد تم بيننا اتفاق . ألم يحصل بيننا الآن اتفاق ؟. ألم يقع عرض وقبول ؟ أما من جهتى فقد قبلت وانتهى الأمر .. بهذه المناسبة أحب أن أستفسر منك لماذا تعطينى هذا المبلغ ؟

ـ أخيرا . اسمع يا سيدى . المسألة بسيطة . أنت تجلس هنا دائما تراقب المارة فى غير شىء ، فلن يكلفك جهدا أن تراقب سيدة يقال انها تتردد على هذه العمارة .. فتعرف لنا

فى أى ساعة بالضبط تدخل ، وفى أى ساعة تخرج ؟

ـ وما شأنك بهذه السيدة ؟

ـ لا شأن لى بها على الاطلاق ، ولم أرها قط . . .

ـ عجبا !. . وما الداعى اذن لأن تجعلنى شرلوك هولمز فى مسألة لا تعنيك ولا تعنينى ؟!

فتنحنح الرجل ثم قال :

ـ فلنتكلم بصراحة . لا أحسن من الصدق والصراحة. أنا فى الحقيقة المكلف بهذه المراقبة فى نظير مبلغ جنيـــه ، ولكنى مشغول بعمل أخر،وليس لدى الوقت الذى يمكننى من أداء هذه المهمة. .ففكرت فى أن أستأجرك من الباطن، ونتقاسم المبلغ . . .

ـ عظيم يا مرقص افنـــدى . أنت فى الحقيقة هو الذى لا يصنع شيئا ويتقاضى خمسين قرشا

ـ وأنت أيضا لا تصنع شيئا

ـ كيف تقول ذلك يا مرقص أفندى ؟ فأنا الذى سأقوم بكل المهمة

ـ بالاختصار تريد أن أنزل لك عن جزء من حصتى ؟

فليكن ما تريد. أنا لا أحب أن أغضبك. اليك عشرة قروش أخرى ..

ـ خمسة وعشرين من فضلك !

ـ تريد أن تأخذ ثلاثة أرباع الجنيه وأنا الربع ؟!

ـ هكذا العدل

فنفخ الرجل غيظا . ولكن لم يجـــد من القبول بدا . فأخرج من جيبـه فرق المبلغ ، ونقدنى اياه دون أن ينبس بحرف. فوضعت النقود فى جيبى ووعدته خيرا ، وانصرفت عنه الى محادثة جليسى . ولكن الرجل لم ينصرف ، ودنا منى يقول :

ـ حضرتك لم تسألنى عن السيدة

ـ أى سيدة ؟

ـ التى ستراقبها . كيف ستقوم بمراقبتها وأنت لم تعرف منى أوصافها ؟

ـ حقيقة . غاب عن فطنتى ذلك . اذكر لى أوصافها

ـ خير من هذا أن أريك صـــورتها ، لتنطبع ملامحها فى رأسك جيدا .. اليك الصورة .. انظر ..

وأخرج من محفظة جيبه صـــورة فوتوغرافية لامرأة مليحة أطلعنى عليها بحذر وهى فى يده . فقلت له :

ـ هل تسمح لى أن أحتفظ بالصورة ؟

ـ ليس هذا من المستحسن ، لأنى وعدت أن أحرص عليها ولا أسلمها لأحد

ـ ومن الذى أعطاك اياها ؟

ـ لا يا سيدى ، هذه أسرار خاصة ، لا يجوز لنا الخوض فيها . هذا لا يعنينا . فلنعمل فى حدودالتكليف ، ولا دخل لنا فى الباقى

ـ أهو زوجها ؟

ـ لا أظن

ـ لعله خليلها ؟

ـ ربما

ـ خليلها يشك فى سيرها ويغار على سلوكها ؟!

ـ فراستك فى محلها . على كل حال هذا باب أنصحك ألا تفتحه أو تفتش خلفه . أسرار العـائلات وخفايا البيوت يجب أن تكون عندنا فى الحفظ والصون . .

ـ مفهوم ، مفهوم

ـ والآن ... أنا معتمد عليك

ـ اطمئن ... فقط لا أخفى عنك أن ذاكرتى ضعيفة ولا يعتمد عليها ، فمن مصلحة العمل أن تترك لى الصورة، ولو ليوم واحد ، أرجع اليها وأطابق حتى لا يحدث لبس أو غلط . ان السيدات المارات كثيرات . ومن الصعب على مثلى أن يفرز هذه من تلك

ففكر الرجل لحظة ، وهرش رأسه قليلا ثم مد لى يده بالصورةوهو يقول : « لا بأس.أبقها معكاليوم » وأوصانى بالمحافظة عليها لحين ردها اليه فى الغد ..

وانصرف مرقصأفندى مشيعا بعبارات التجلة والاحترام وما كاد يختفى عن بصرى ، حتى ملت على جليسى حسن بك وقصصت عليه القصة من أولها الى آخرها ، مع حذف مسألة الخمسة والسبعين قرشا بالطبع،وختمت الكلام بقولى:

ـ أنت تعرف أن غفلتى أكبر من فطنتى ، وأن سهوى أكثر من صحوى ، أما أنت فكثير الفطنة شديد اليقظة ،فما رأيك لو قمت عنى بهذه المهمة .. وألقيت بالك الى كل سيدة تدخل العمارة أو تخرج منها ، وتطابق أوصافها على الصورة التى سأطلعك عليها الآن ؟.. على أنى قبل كل

شيء أحب أن أصارحك بأن هذا عمل بأجر . .

فضحك حسن بك وقال :

ـ لا عليك ... انني سأقوم به لوجه الله

ـ لا يا سيدى الفاضل . الشغل شغل . لا يوجـد شيء اسمه لوجه الله . وهل تظن وجه الله يرى بلا ثمن ؟ هذا التعبير خطأ فى خطأ . ولست أدرى من ابتدعه . ان وجه الله لا يشاهد بالمجان ، بل بمصروفات . واليك البيان : لابد من دفع صـدقة وزكاة ونذور وفداء وكفارة ونفقات حج وتكاليف زيارة واغاثة ملهوف والتضحية فى العيد بخروف . . الى آخر تلك المبالغ التى لو جمعتها لكان الحاصل رقما لا يستهان به . فدع فكرة التبرع وتناول أجر عملك طبقا للأصول المعمول بها فى جميع الاحوال

ـ أمرك . انقدنى الأجر اذن

ـ سأدفع لك ثمن فنجان القهوة . . أتقبل ؟

ـ قبلت

قالها راضيا مغتبطا ، ومد يده ليتناول من يدى الصورة. فقلت له :

ـ مهلا . يجب أن تردها الى قبل قيـامك . فقد وعدت

أن أردها الى الرجل غدا ..

فقال بابتسامة بريئة :

ــ طبعا ، وما الداعى لاحتفاظى بها طويلا ؟.

فوضعتها فى كفه... فرفعها الى عينيه باسما بغير اكتراث. ولكن..لم يكد بصره يقع عليها حتى امتقع لونه ، وارتجفت يداه ، وارتعشت شفتاه .. وهالنى أمره فقلت له :

ــ حسن بك .. مالك ؟

فلم يجب . وخيل الى أن أذنه لم تعد تسمع . وجمدت عيناه على الصورة وتصبب العرق من جبينه . فهززته بيدى قائلا :

ــ مالك يا حسن بك ؟ هل .. هل تعرفها ؟

فقال بصوت ميت ينشر من قبر :

ــ كيف لا أعرفها وهى .. زوجتى ؟!

وانتفض الرجل انتفاضة خلت روحه قد خرجت معها ووثب من مقعده ، وانطلق فى الشارع يعدو كالمجنون . ولم يلبث أن غاب عن نظرى الشارد ، وفكرى الذاهل . وكدت أصيح فى أثره :

ــ الصورة ... الصورة ..

ولكنى تذكرت فجأة كارثته . وأدركت أنها له . وأنه أحق أهل الارض بحملها والاحتفاظ بها.فملكت نفسى.. وثاب الى رشـدى قليلا قليلا فلعنت يومى . ولعنت مرقص أفندى . ولعنت الخمسة والسبعين قرشا ، التى خسرت من أجلها صديقى ، وخسر الصديق زوجته وخسرت الزوجة خليلها..ولو كنت أعلم أن المهمة ستؤدى الى هذه الفواجع كلها ، لطالبت مرقص أفندى بما لا يقل عن خمسة جنيهات

فهرس

صفحة

عبقرية خالد
تأليف عباس محمود العقاد

الذئب الاغبر مصطفى كمال
تأليف الكابتن هـ. س. ارمستروتج

كليوباترة فى خان الخليلى
تأليف محمود تيمور

الاسلام دين الفطرة
تأليف الشيخ عبد العزيز جاويش

لا تخف
تأليف ادوارد سبنسر كولز

مصطفى كامل باعث النهضة الوطنية
تأليف عبد الرحمن الرافعى

القائد الاعظم محمد على جناح
تأليف عباس محمود العقاد

زينب
تأليف الدكتور محمد حسين هيكل

مذكرات عرابى (جزء أول)
تأليف الزعيم أحمد عرابى

مذكرات عرابى (جزء ثان)
تأليف الزعيم أحمد عرابى

عبقرية عمر
تأليف عباس محمود العقاد

آمنة بنت وهب
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء

فاطمة الزهراء والفاطميون
تأليف عباس محمود العقاد

عصا الحكيم فى الدنيا والآخرة
تأليف توفيق الحكيم

أبو نواس
تأليف عبد الرحمن صدقى

البؤساء
تأليف فيكتور هيجو

علمتنى الحياة
لنخبة من الشرق والغرب

فى الطريق
تأليف ابراهيم عبد القادر المازنى

ويمكنك الحصول على ما ينقص مجموعتك من هذه الكتب من قسم الاشتراكات بدار الهلال شارع محمد بك عز العرب (المبتديان) بالقاهرة وشركة الصحافة المصرية بشارع النبى دانيال بالاسكندرية ، ومن شركة الصحافة المصرية بميدان المحطة بطنطا ، ومن السيد محمود حلمى صاحب المكتبة العصرية شارع المتنبى ببغداد ، ومن شركة فرج الله للمطبوعات بشارع بيكو طريق المالكى ببيروت ، ومن المكتب العام لتوزيع المطبوعات لصاحبه السيد على نظام ببناية العابد بدمشق ، ومن جميع المكاتب الشهيرة ، واكشاك الصحف ما عدا الكتب التى نفدت نسخها كما ترى فى هذا الكشف

الكتاب القادم

لا تقتل نفسك!

تأليف

الدكتور بيتر شتانيكرون

هذا الكتاب

لهذا الكتاب اسم غريب وضعه مؤلفه الاستاذ توفيق الحكيم ، لا حبا فى الغرابة ، ولا رغبة فى تشويق القراء الى ما فيه من غرائب القصص ، بل لأن هذا الاسم ، وان كان عنوانا للقصة الاولى من قصصه ، فانه يكاد يكون عنوانا لجانب كبير من قصص الحياة وحوادث المجتمع . فالغفلة أساس كل خطأ مادى وأدبى ، وأهم مصدر لكل اهمال وتقصير

فلولا غفلة الآباء ما درج الأبناء على الاستهانة بالواجب ونشأوا على تربية سيئة ، ولولا الغفلة ما هدمت حياة زوجية كان يسودها الهناء بين الزوجين ، ولولا الغفلة ما تقطعت أسباب الصداقة بين الأصدقاء

ان هذا الكتاب يحوى طائفة من قصص المغفلين فى هذه الدنيا ، ولكنه ــ الى ذلك ــ يحوى طائفة أخرى من قصص النابهين . وكما أن النباهة فى الحياة مدرسة يسعد فيها الناجحون ، فالغفلة مدرسة يشقى فيها الفاشلون ، وقد صور الأديب الحكيم هذا كله فى قصصه البليغة وفى أسلوبه الفنى الممتاز

كتاب الهلال

لا تقتل نفسك

تأليف

الدكتور بيتر شتاينكرون
العالم البشري والنفساني



سلسلة شهرية
تصدر عن دار الهلال



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »
شركة مساهمة مصرية

رئيس التحرير : طاهر الطناحى

العدد ٣٤ – ربيع ثانى ١٣٧٣ – يناير ١٩٥٤

No. 34 — January 1954

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب

(المبتديان سابقا) القاهرة

المكاتبات

كتاب الهلال – بوستة مصر العمومية – مصر

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشـــــتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) – مصر والسودان ٨٥ قرشا صاغا – سوريا ولبنان ١٠٧٥ قرشا سوريا او لبنانيا – الحجاز والعراق والأردن ١١٠ قروش صاغ – فى الامريكتين ٥ دولارات – فى سائر انحاء العالم ١٥٠ قرشا صاغا او ٣٠/٩ شلنا

كتاب الهلال



سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

لا تقتل نفسك !

تأليف

الدكتور بيتر شتاينكرون
العالم البشري والنفساني

ترجمة

الدكتور نظمى راشد

الى الأصحاء

والى المرضى

أهدى هذا الـكتاب

« المؤلف »



الأساس الذى يقوم عليـــه هذا الكتاب ، أن للموت غريزة كامنة فى أعماق النفس الانسانية ، كغريزة الحياة سواء بسواء . فكل واحد منا لديه فى فطرته الغريزتان ، وان كانت غريزة الحياة واضحة ظاهرة الأثر فى حركاتنا وسكناتنا ، أما الغريزة الأخرى ، غريزة الموت ، فلا تظهر واضحة جلية الا لمن أمعن النظر ولم تخدعه ظواهر الأمور

وكأن الغريزتين المتضـــادتين جوادان ، احدهما أبيض ناصع البياض ، والآخر أسود حالك السواد ، يتنازعان المرء شدا وجذبا ، ولكن الجواد الابيض يظل فى الغالب فياض الحيوية ، له الكلمة العليا ، الى أن يغلب على أمره فينطفىء سراج الحياة ، وتكون الكلمة للجواد الاسود

ولكن يحدث أحيانا أن تنعكس تلك الآية تحت ضغط بعض الظروف ، فاذا الجواد الأسود هو الغالب من البداية ، فينتشر على وجه الحياة ظل الموت ، ويندفع المرء فى تياره

ويعترف علماء النفس اليوم بذلك الازدواج ، وان كنت أنت أيها القارىء العادى ، قد تجهل ذلك الوجود المزدوج لغريزتى الموت والحياة .

وهذا هو فرويد ــ نبى التحليـــل النفسى فى العصر الحديث ــ يقول فى صراحة ووضوح :

ــ غاية الحياة هى الموت !

وهذا صديقه هانز ساخس يقول عنه فى كتابه « فرويد الاستاذ والصديق » :

ـ لقد انتهى فرويد من تأمله فى جميع مظاهر الحياة العضوية الى أنها نتيجة ذلك التجاذب الذى لا نهاية له بين غريزة الحياة بانتصاراتها المظهرية ، وغريزة الموت بقوتها الساكنة الخفية التى لا تقهر

وانك اذا سألت جارا لك : ما هى أقوى غريزة بين الغرائز البشرية ؟ . . لكان الأرجح ان يقول لك : « انها غريزة حفظ الذات » ، فاذا خطر لك أن تقول له : « ان الميل الغريزى الى افناء الذات كثيرا ما يكون فى مثل قوة تلك الغريزة » ، ربما تعرضت لدهشته وريبته فى علمك أو فى عقلك

ومع هـــذا فلا مناص من تقبلك تلك النظرية ، ومن تصديقك مبدئيا بأن للموت غريزة قوية كامنة فى اعماق نفس كل منا

ولا تحسبن ذلك الفرض نظرة سوداوية حافلة بالتشاؤم وكراهة الحياة ، وان بدت كذلك لأول وهلة ، بل الواقع أنها نظرة تهدف الى تبديد الظلمات والتفاؤل . فان من يعرف مكمن الموت هو الذى يتسنى له أن يهدم أوكاره ويقضى على جراثيمه ويقطع الطريق على قواته الزاحفة

فليس الخير كل الخير فى الهروب من المتاعب والمصائب، وانما الخير كل الخير فى مواجهتها بعزم قوى ورأى ماض وشجاعة كفيلة بالتغلب عليها

وقد سلخت خمسة وعشرين عاما فى مكافحة الموت ، فأقنعتنى تلك التجارب المستمرة بأن الكثرة الغالبة منا غير واعية لدوافع افناء الذات أو الهلاك التى تكمن فينا فاعلة ناشطة من دون أن ندرى

فعسى أن يعينك ـ أيها القارىء العزيز ـ كتابى هذا فى كفاحك اليومى ضد الموت ، وضد طابوره الخامس

بيتر شتاينكرون

الجزء الأول

النفس بين البقاء والفناء

- غريزتان متضادتان
- كل يقتل نفسه على طريقته
- الانتحار بالتداوى
- عدم التعاون
- الموسوسون اطول أعمارا!

غريزتان متضادتان

قدرت الخســـائر فى الأرواح التى نتجت عن الحرب العالمية الثانية بنحو أربعين مليونا من الأنفس

فهل هبط على الارض من المريخ شيطان مريد فألحق بها تلك الخسائر وأشعل فيها ألسنة الخراب والدمار ؟ أو هل فعل بها ذلك ساحر من أحلاف الجن يمتطى صهوة مقشة كما تصف الأساطير عجائز السحرة ؟

لا هذا ولا ذاك ! وانما الذى فعل بالبشرية ذلك الفعل القبيح هو أنا وأنت ، وملايين غيرنا على شاكلتنا من براءة المظهر

لماذا ؟

لأننا نحمل فى طوايا أنفسنا بذرة هلاكنا . لأننا ميالون بحكم الفطرة الى القضاء على أنفسنا ، كما أننا ميالون بحكم هذه الفطرة نفسها الى المحافظة على أنفسنا والحرص على بقائنا

ويقرر فرويد أن كل انسان من البشر بلا استثناء لديه دافع الى اعدام نفسه ، ولكن ذلك الدافع يختلف فى مقداره وقوته باختلاف الاشخاص

وقد اقتنع العلماء بهـــذه النظرية الفرويدية ، ولكن الكثرة الغالبة من الناس سخرت منها ، ورفضوا أن يصدقوا أو حتى أن يتصوروا أن يعمل البشر على اهلاك أنفسهم بأنفسهم . ولكن لننظر فى تلك الكلمات التى وردت على لسان الكاتب كنث روبرتس :

ـ قلت لزوجتي أن الشعوب منذ بداية العالم تبذل أقصى جهـدها لهـلاك غيرها من الشعوب والأمم . واذا كانت قد عجزت عن افنائها فناء تاما ، فليس ذلك عن تقصير في الرغبة والميل ، أو قصور في النية والهمة ، بل لعدم كفاية الاسلحة اللازمة لذلك الافناء التام . أما اليوم فقد كادت تتم للأمم هذه القدرة باكتشاف أسلحة الهلاك الحديثة ، فبات قريبا أن نرى ذلك الهدف يتحقق مرة أخرى ، وليس ذلك ببعيد

وأى دليل أقوى من هؤلاء الأربعين مليونا من البشر الذين أتت على حياتهم الحرب العالمية الاخيرة ؟ ان هؤلاء الأربعين مليونا لم يكونوا قرودا ولا بقرا ولا حميرا ، وانما كانوا نظراء لنا في كل شيء ، واخوة لنا في النوع البشرى

وربما تشكك في كلامى هذا أولئك الذين يرون محاربة أمريكا لليابان أمرا طبيعيا ، ومحاربة فرنسا لألمانيا أمرا محتوما مقضيا ، ومحاربة الانجليز للروس والطليان نهاية غير مسـتغربة لا مناص منها ، وان دافع تلك الحروب عند هؤلاء الناس ليس غريزة افناء الذات ، أو الميل الى الهلاك والفناء ، بل هو انقاذ أنفسهم من الاجانب ، أو من الأعداء على العموم

فاذا ذكرت لهؤلاء المتشككين الحرب الأهلية الامريكية، وكيف كان البيض يقاتلون البيض ، صاحوا بك :

ـ ليس هذا حب الهلاك ، وانما هو دفاع كل طرف من الطرفين عن طريقته في الحياة . فهو « حب البقاء » هنا وقد أصطدم بحب البقاء هناك .. وليس لما تزعمه من « حب الموت » أثر في الموضوع

والواقع أن النفس البشرية لغز مستعص على الحل . فبينما ترى الانسان يتشبث بالحيـاة بكل ما يملك من قوة واصرار ، وبكل ما في أصابعه وراحتيه من عزم وبأس،

اذا برسالة غامضة من نقطة خفية فى نفسه تصل الى هذه الأصـــابع أن اطلقى ما تتعلقين به واستسلمى لأعماق الهاوية المظلمة التى تفغر فاها !

فاذا كان التخلى عن الحياة ظاهرا مقصـودا واعيا ، فذلك هو « الانتحار الحاد » . أما اذا كان ذلك التخلى لاشعوريا ، فذلك هو « الانتحار المزمن » ، بلغة الطب

وقد جرت العـــادة أن نسمى المنتحر بالرصاص أو الغرق أو الشنق مختل القوى العقلية ، فى لحظة انتحاره على الأقل . أما المنتحر بغير تلك الوسائل، أى بالتراخى المزمن عن حفظ حياته ، فنسميه انسانا سويا ، عاديا ، وان كان قد لا يخلو من شذوذ كثير أو قليل

وما أكثر الوسائل التى نتخلى بها عن حياتنـــا ، كى نستسلم للموت . فمن وسائل الانتحـــار المزمن ادمان الخمر ، والترهل والبدانة ، والافراط فى الرياضة البدنية ، ومعالجة أنفسنا بغير الاستعانة بالطبيب ، والافراط فى العمـــل ، أو فى الكسل ، والاندفاع فى القلق ، أو عدم المبالاة بأى شىء فى الحياة .. وغير هذه الوسائل مئات ومئات تلحق بها وتجرى فى مجراها

ولكنك اذا قلت لجارك ، وقد رأيته ماضيا فى وسيلة من هذه الوسائل :

ــ انك تنتحر يا صاحبى بيدك ..

عجب لأمرك ، وحملق فى وجهك ، وصرخ قائلا :

ــ يا له من ظن عجيب ؟ انا افعل هذا بنفسى ؟ وهل يقتل نفسه بيده انسان وله عقل ؟

والرجل فى استنكاره صادق مخلص ، ولـكنه جاهل بحقيقة نفسه . فلو درى تلك الحقيقة لأيقن أن فى داخله شيئا لاصقا ، لصوق ذراعه وقدمه وقلبـــه وكبـــده ،

وذلك الشيء عبارة عن قوة خفية تسعى للقضاء عليه

ومن حسن الطالع أن هذه القوة تظل نائمة معطلة فى الكثيرين منا ، ولكنها موجودة ، حية ، تنتظر هزة كافية لايقاظها كى تنشط للعمل ، فاذا بها فى بعض الأحيان أقوى من قوة البقاء التى نولد بها ونعيش فى ظلها

فقوة البقاء التى تلازمنا منذ ولادتنا يغلب أن تكون من القوة بحيث تشل حركة الغريزة المضادة لها فتبقى نائمة معطلة . ولكن يحدث فى بعض الاحيان أن تكون قوة الهلاك أشد فى الشخص من قوة البقاء . وينجم عن عدم التوازن بين القوتين اصابتنا بمرض الانتحار الحاد أو بمرض الانتحار المزمن ، على حسب الأحوال

□

وكان الانسان منذ آلاف السنين ينظر الى مظاهر الطبيعة القوية نظرة فزع وهلع ، وما زلنا الى يومنا هذا نجزع من العواصف والبراكين والزلازل والفيضانات المدمرة . وكثيراً ما يرفع الانسان عينيه الى السماء ويدق صدره بيده صائحا :

ــ لماذا تصب على يا رب هذه الكوارث وترسل هذه المهلكات لتقضى على ؟

فهلا تمهل الانسان قليلا ليتأمل دوافع الدمار والهلاك التى يصيب بها نفسه من حيث يدرى ولا يدرى ؟

واذا فكرنا فيما يجره الشخص منا على نفسه ، تبين لنا أن كل واحد منا ماض فى قتل نفسه على طريقته الخاصة ، ان عاجلا أو آجلا ، بهمة أو فى أناة وبطء

ولكن لا معنى للفزع من تلك الحقيقة ، فانك اذا فهمت جيدا مضمون هذه النظرية ، التى تقول : « ان الانسان

يحمل فى طوايا نفسه بذور هلاكه وفنائه » اتسعت أمامك السبل والفرص لتأخير ذلك الهلاك أو لشل نشاطه

□

والواقع أنه لا يخلو أى انسان منا من دافع الى هلاك نفسه والقضاء عليها ، وان كان ذلك أمرا صعب التصديق لأول وهلة . ويتخذ هذا الدافع صورا متعددة ، فهو فى بعض الاشخاص قوة جارفة ، وفى بعضهم الآخر ميل ضعيف جدا الى درجة الوهن والخمود . انه كالبركان النائم

وفى عهد الطفولة تكون غريزة البقاء وغريزة الفناء متجهتين الى داخل النفس ، فالطفل مشغول بنفسه دون سواه . فاذا شب ونما بدأت هاتان الغريزتان فى الاتجاه الى العالم الخارجى . فيحب من يحيطون به أو يكرههم ، اما اذا أصيب نمو الطفل بما يعوق نموه جسديا أو عاطفيا، فان ميوله هذه تعود الى الاتجاه نحو داخل النفس ، فينحصر حبه وكراهيته عندئذ فى ذات نفسه ، ولا يهتم بمن حوله من الأقارب أو غيرهم

ومما يلفت النظر حقا مبلغ ما نلقاه من الصعوبة فى اقناع الناس بأن حب الموت أو الفناء موجود على الدوام لدى كل واحد منا ، وان آمالنا فى البقاء متعلقة بقدرتنا على تعطيل تلك الغريزة وكفها عن العمل

وذات مساء منذ مدة قريبة كنت أتحدث الى زميل لى من المحللين النفسانيين ، فأدهشنى أن يقول لى :

ــ أظن أن هناك فعلا قوة معينة فى داخل نفوسنا يمكن تسميتها حب الفناء . ولكننى لا أستطيع أن أمضى فى ذلك مع فرويد الى نهاية الشوط

فقلت متعجبا من هذا الرأى :

ـ ولكن كيف تمارس التحليل النفسى يا صديقى وأنت كافر بمبدأ هذا التحليل ؟ فانه يخيل الى أن التحليل النفسى كله قائم على الايمان بهذا المبدأ . ان الموت هو غاية الحياة ، وان بذرته كامنة فى فطرتنا ، وأن الدافع اليه تنطوى عليه سريرتنا ، ففى داخلنا صراع دائم بين غريزتى الموت والحياة ...

فأجابنى :

ـ لست أنكر أن لنظرية فرويد أساسا ، فقد رأيت مصداق ذلك فى تجاربى العلاجية . ولكنى مع هذا أعتقد أن ما يبدو لنا عند بعض الاشخاص اندفاعا نحو افناء النفس أو الموت ، يمكن تفسيره وتبريره بأسباب أخرى

ـ ومثال ذلك ؟

ـ مثال ذلك أن يكون عندنا شخص لديه دافع الى القاء نفسه من نافذة شاهقة الارتفاع ، أو الى طعن نفسه كلما وقعت فى يده سكين . فلست أرى أن أشخص حالة هذا الشخص بأن لديه دافعا الى الموت أو افناء نفسه

ـ لماذا ؟

ـ لأن ذلك الشخص لم يقفز من النافذة فعلا ، ولم يطعن نفسه بالسكين فعلا ، مع سنوح الفرصة ومواتاة الظروف فى الحالتين ، مما يدل على أنه غير مندفع الى اعدام نفسه حقيقة ، بل الأمر كله سوداوية عصبية بسيطة

.. ومضينا فى مناقشة الموضوع على هذا النحو وقتا طويلا . وظل هذا الطبيب النفسانى مصمما على رأيه ، وله احترامه طبعا ، لأنه كون هذا الرأى على ضوء تجاربه فى النفس ومشاهداته لعمل العقل والأعصاب . ولكن اعتقادى الراسخ أن هناك بعض مبادىء أساسية لا بد لكل مشتغل بأى فن أن يؤمن بها ابتداء : فصانع

الطائرات يجب أن يحترم قانون الجاذبية العام. والمهندس يجب أن يحترم قوانين الطاقة والحركة . والشاعر يجب أن يحترم الحدود المرسومة لصناعته ، وهلم جرا

كذلك الطبيب الذى يتعرض للوجدان واللاشعور ، لا يجوز له أن يخوض فى ذلك وهو يعتقد أن حب الحياة أو الدافع الى البقاء هو الغريزة الوحيدة فى النفس البشرية

وكما تغرب الشمس بعد شروق ، وينحسر الماء بعد المد ، وتتبدل الفصول بعد الحر والبرد ، غير معقول أن تكون النفس البشرية قائمة على مبدأ واحد هو حب الحياة أو دافع البقاء . فالطبيعة لا تعرف وحدة المبدأ ، وانما فيها على الدوام يجتمع الضدان ، حتى يتم الشد والجذب ، والصلاح والفساد ، ويتحقق التطور الذى لا تمكن الحياة الطبيعية بغيره

فلا بد اذن ، كى يتم التوازن الطبيعى فى نفس الانسان أن يكون فى مقابل حب الحياة أو دافع البقاء ، حب الموت أو دافع الفناء

وقد يكون ذلك الحب الأخير ظاهراً وقد يكون مقنعا مستترا ولكنه موجود على كل حال ، وموجود على الدوام . وكان فى الناس منذ درجوا على سطح الأرض ، ولكن نظرة فرويد العبقرى الثاقبة هى التى اكتشفته وألقت عليه ذلك الاسم الجديد

أما قبل فرويد ، فكنا نطلق على مظاهر تلك الغريزة أسماء أخرى ، فنسمى المخاطر بحياته متهورا ، ونسمى المفرط فى صحته مهملا ، ولا نتعمق وراء هذه المظاهر السطحية حتى ننفذ الى لباب الداء

وقد أقنعتنى تجربتى الطبية الطويلة أن الصراع بين غريزتى البقاء والفناء مستمر متصل ، وأن سلوك الانسان وانفعالاته نتيجة ذلك المزيج المتنافر ، وان كان معظم من

ناقشتهم فى ذلك يخالفوننى فى الرأى ، ويصرون على أن المخبولين وحدهم هم الذين يحسون بدافع الى الفناء ، لأن ذلك الدافع مخالف لطبيعة الانسان ..

وهذا هو السؤال :

ــ وما هى طبيعة الانسان ؟

وهو سؤال لا يزعم احد أن لديه الجواب الشافى عليه . فأعماق النفس سر مغلق ، وما أكثر أنواع التنكر التى تتخفى غريزة الفناء تحتها ، وهى تعمل فى اللاشعور ، حتى اذا رأينا آثارها حسبناها ترجع الى سبب آخر

والا فبماذا نسمي من يسبح الى أبعد مما ينبغى ؟ . وبماذا نسمى الشيخ ابن الستين الذى يلعب التنس مع كاعب فى سن العشرين ، فتجهده وترهقه ، وهو يعلم سلفا ان ذلك اللعب الخطر يجعل قلبه العجوز يقفز فى صدره قفزا أعنف بكثير من قفزات الكرة تحت مضرب زميلته الفوارة الحيوية ؟

سم هذا غفلة أو حماقة ، فلا أهمية للأسماء . أما أنا فعندى من الدواعي ما يكفى لاطلاق اسم واحد على كافة الأفعال من هذا القبيل :

« غريزة الفناء »



كل يقتل نفسه على طريقته !

لا شك أننا نولد ونعيش ، ثم نموت . وكثيراً ما يأتى الموت مبكرا قبل الاوان . فلنواجه هذه الحقائق ولنتقبلها حتى يتسنى لنا علاجها . فاننا ان فعلنا ذلك استطعنا أن نتدبر أمر حياتنا فلا نبذر فيها ،ونحرص على أن نحيا كل يوم من أيام هذه الحياة حياة مليئة ناصعة ، كما يحرص البخيل على أمواله فيعدها كل يوم قطعة قطعة ، ويتولى كل قطعة بالتنظيف والعناية ، ويضيف فى كل يوم الى خزانته قطعة جديدة زاهية البريق

ولننظر بامعان فى تصرفات هذا البخيل الذى اتخذناه مثلا . انه يعز نقوده كل الاعزاز ، ويكاد يبليها بمداومة عدهاومراجعتها فى كل يوم . لماذا ؟

ذلك انه يعلم أنها ملك يمينه الآن ، ولكنها ستسلب منه يوما ما فيحرم منها ، فهو لهذا السبب حريص على أن يمتع حواسه فى كل يوم بتلك اللذة التى قد لاتتيسر له غدا ، أما بالسرقة ، واما بالنفقة ، واما بالوفاة ، وفاته هو

وهذا هو بيت القصيد : انه سوف يموت .

وهذا هو أيضا بيت القصيد بالنسبة لك وبالنسبة لى : اننا سوف نموت

فهل تحس بالانتفاض أو الانقباض لهذه الفكرة ؟

اذن هذا الكتاب لم يكتب لك ، ولا حق لك فى مطالعة ما جاء بصفحاته ، لأنهـا ليست مكتوبة بقصـد التهريج أو التفريج ، بل هى محاولة لتفتيح الاذهان الجريئة والقلوب

الواعيـــة حتى تواجه الحياة على أساس ذلك المبدأ الذى لا شك فيه ، وهو أننا جميعا مائتون

ولست طبعا أنا الذى اكتشفت هذا المبدأ ، فهو من أقدم معارف الانسان ، وهذا هو الامبراطور الفيلسوف مرقس أوريليوس يكتب فى تأملاته قائلا :

ـ اذا ضاق صدرك وركبتك الهموم ، تذكر أن حيـــاة الانسان ليست الا لحظة من زمان ، واننا بعد برهة قصـــيرة سوف نموت ونفترش التراب

فاذا كان ذلك كذلك ، فماذا بعد ذلك ؟

ان رد الفعل الطبيعى لحكم بالاعدام مشمول بالنفــاذ لقريب أو البعيد ، هو بالطبع محاولة الحصول على أكبر ندر ممكن من المتعة والمرح

فكيف نحصل على أكبر مقدار ممكن من المتعة والمرح فى أامنا المحدودة وسنواتنا المعدودة ؟

وكيف نعيش مع انفسنا ومع الآخرين ؟

وماذا نصنع لأنفسنا ولذوينا ؟

واهم من هذا كله : كيف نعيش أطول مدة ممكنة ، فى أتم سحة ممكنة ؟

هذه هى الأهداف التى أرجو أن أبين لك أيها القارىء امزيز كيف تصل اليها ، وطريقتى فى بيان ذلك أن أحاول اقناعك بأن الكثيرين منا يقتلون أنفسهم قبل الأوان من دون أن يشعروا ، وبعد ذلك أقدم اليك الوصفة أو « الروشتة » اتى تكفل لك النجاة من ذلك الموت المبكر

ألم تسمع شخصا يقول أمامك :

ـ ما أسرع ما يمر الوقت !

لا شك أنك كثيرا ما سمعت مثل ذلك القول من أشخاص كيرين . ولو أنك دققت الملاحظة لرأيت وراء هذه العبارة

أنة أو تنهدا ينم عن الحسرة ، فليس معنى هذه العبارة أن السنوات أو الأيام لها أرجل تجرى بها سريعة حينا وبطيئة حينا آخر ، بل معناه أننا حين نشعر بسرعة مرور الوقت انما نشعر فى الواقع اننا لم نعش ملء أيامنا وكما ينبغى فتركنا الفرصة تمر بنا وراء الفرصة دون أن ننتهزها ، ولم تكن لدينا الشجاعة الكافية كى نحيا الحياة التى توافق ميولنا ومزاجنا ، ولهذا نجد للحياة فى أفواهنا مثل طعم القش أو الرماد المتخلف عن الحريق ، فى حين كان ينبغى أن يخالطها رحيق رائع وشـــهد جنى ، فمعنى ذلك أن قو؛ غامضة كامنة فى أعماقنا ولكنها غريبة عن طبيعتنا الظاهر؛ قد منعتنا من الاستمتاع بأيام حياتنا تمام الاستمتاع

والآن نسأل أنفسنا ما هى هذه القوة الغامضة المانعة من الاستمتاع المعطلة له ؟

ان هذه القوة موجودة فى كل واحد منا بغير استثناء، ويمتد تأثيرها الى حياة الغني والفقير ، والذكى والغبى . فهى تثنينا جميعا عن متابعة الحياة إلتي تروقنا من دون أن نشعر . فلو أننا عرفنا كيف نكتشف هذه القوة وهى تمارس سلطانها علينا بقوة الايحاء التى لا ترد ، فربما استطعنا حشد قوانا لايقافها عند حدها والتقليل من تأثيرنا

هذه القوة الغامضة التى لا تعفى أحدا منا من سيطرتها، والتى تستمر سيطرتها على مدى الايام ، سواء شعرنا با أو لم نشعر ، هى قوة الفناء أو حب الهلاك . وفى أعماق كل واحد منا أكثر من بذرة واحدة لتلك القوة العاتية

وقد اتضح لى أن معظم الرجال والنساء يمضون بجد واجتهاد كل يوم فى القضاء على جزء من أنفسهم . وغالبا ما يكون ذلك بغير شعور منهم . ولكن ذلك لا يمنع من اطلاق اسم الانتحار على هذا السلوك ، لأن الانتحار ــ كما قلنا ــ قد يكون حادا يراه الجميع ولا يترددون فى التعرف عليه ،

وقد يكون مزمنا فلا يتعرف عليه أحد ، ولو كان هو الضحية أو اقرب المقربين اليها

ولنضرب مثلا يساعد على توضيح الفكرة : لنفرض انك تطل من نافذة فندق فى طابق مرتفع جدا ، فتتراءى لك السيارات والناس فى الشوارع من تحتك كأنهم قطعان من النحل . وتشعر بشيء من الدوار والفزع لذلك العلو . فتتشبث بجوانب النافذة ولا تطل الا بحذر شديد

فلماذا هذا التشبث والحذر ؟

ليس معنى هذا طبعا أن الغرفة قد مادت تحت قدميك ، او انك أصبحت فى غير مأمن فعلا ، بل انك تفعل ذلك لأنك احسست فى أعماقك بقوة ما ، تشبه كثيرا قوة الجاذبية ، تجذبك الى خارج النافذة ، وهى تلح عليك فى القفز منها . فتتشبث أنت بالنجاة ...

ومن الناس نفر لا يفهمون هذا الاحساس لأنهم يستطيعون النظر من النوافذ بغير وجل او اضطراب ، ولكن هناك فريقا أكبر من هذا الفريق يحسون ذلك الاحساس بشكل جاد جدا ، ومنهم نفر لا يأتمنون أنفسهم حتى ولو على النظرة الاولى ويصارحونك قائلين :

ـ لو نظرنا لقفزنا !

ومنهم نفر آخر يحملقون فى الشارع وهم يتصورون فعلا انفسهم جثة مختلطة اللحم والعظام فوق الاسفلت ، ويحتاجون الى شجاعة كبيرة لمداومة النظر الى الشارع

وأعرف أشخاصا لا يقبلون المبيت فى طابق أعلى من الطابق الثالث مهما كانت الظروف ، ويتعللون لذلك بأنهم ربما مشوا فى نومهم ففتحوا النافذة وقفزوا منها . وهناك نفر آخر قد يقبلون المبيت فى طابق أعلى من ذلك ، ولكنهم لا يجسرون على النوم والنوافذ مفتوحة مهما كانت شدة الحر

ومن الناس من يسمون هؤلاء النفر «عصاميين» ، والواقع أنهم مصابون بتضخم فى حب الهلاك أو الدافع الى الفناء

وتنطبق هـذه الاعراض على من يخافون من تنـاول السكاكين خشية أن يطعنوا أنفسهم بها ، وعلى من يخافون من صـعود السلالم ، ومن يصابون بالدوار فى المصـاعد الكهربائية ، ومن يخافون من قيادة السيارات لكى لا يطلقوا العنان للسرعة فيهلكوا أنفسهم

والواقع أن كل واحد منا يقتل نفسه على طريقته الخاصة، سواء أكان ذلك القتل سريعا أم بطيئا ، فالقتل واقع حاصل فى جميع الاحوال

وأسباب ذلك كثيرة جدا ، وبعض هذه الأسباب يتجاوز نطاق العقل وطاقة التفسير . ومع ذلك فمن الخير لك أن تعرف مضمون هذه الحقيقة حتى تتسع أمامك الفرص لتعطيل عملية قتل نفسك بنفسك ، أو لشلها شللا تاما أن أمكن

وهذا هو الدكتور توماس سلمون رئيس اتحاد التحليل النفسى السابق فى أمريكا يقول :

ــ لا شك أنه قد خطرت لكل واحد منا فى وقت ما من حيـاته فكرة الانتحار ، على اختـلاف فى درجات العنف والضعف

ويكاد الفلاسفة فى جميع العصور يجمعون على اعتبار الانتحار فكرة أساسية فى الحياة ، فهذا أرسطو يقرر :

ــ أن من يقتل نفسه تخلصا من الحياة يقترف جريمة ضد الدولة

وهذا سقراط يقول :

ــ لعل هناك داعيا الى القول بأن الانسان ينبغى أن يتريث فلا يقضى على حياته بيده قبل أن يشاء الله

ويطول السرد بنا لو تتبعنا سلسلة الفلاسفة فى جميع العصور ، ولكننا نكتفى بهذا القدر وننتقل الى الواقع

□

فى كل عام ينتحر فى الولايات المتحـدة الامريكية نحو عشرين ألف شخص ، أما من يحاولون الانتحار فمائة ألف . وعدد النساء اللواتى يحاولن الانتحار ثلاثة أضعاف عدد الرجال ، ولكن عدد الرجال بين الذين ينتحرون فعلا أكثر من عدد النساء

وأفشل وسيلة للانتحار هى تجرع السم ، وتلك هى الوسيلة المفضلة لدى معظم النساء . أما الرجال فيفضلون الحبال والمسدسات والأسلحة البيضاء

ونسبة المنتحرين عالية بين طوائف الجنود والصحفيين والمعلمين والمحامين والأطباء وعمال الفنادق

ولكن النسبة أقل ما يكون بين السماكين والبستانيين والمزارعين والبنائين وعمال المناجم ورجال الدين والبحارة . ونسبة الانتحار بين رجال الدين هى نصف المعـدل العـام لجميع السكان . والمشاهد أن الانتحار أشيع ما يكون بين المتعلمين وأنه نادر جدا بين الحيوانات

والأسباب العميقة أو الخفية للانتحار ترجع فى الغـالب الى الخوف ممتزجا بالانتقام أو الحقد أو الاثم . أما الاسباب الظاهرية فهى العار أو الفقر أو المشكلات البيتية ، أو الخيانة، أو فقد عزيز ، أو ادمان الخمر ، أوالمخدرات ، أوسوء الصحة

ويلاحظ أن الشهور الحارة ترتفع فيها نسبة الانتحار . فهذه النسبة تبلغ فى شهرى مايو ويونية غايتها القصوى

ويلاحظ أيضا أن أوقات الازمات الوطنية والعالمية هى الأوقات التى تبلغ فيها نسبة الانتحار أقل مستوى ممكن

ففى سنة ١٩٤٢ كانت نسبة الانتحار فى الولايات المتحدة أقل ما يكون لأن النـاس فيما يبـدو ينسون مشكلاتهم الشخصية فى غمار المشكلة العامة أو القومية ، فيخفون الى نجدة وطنهم . أما فى سنة ١٩٣٣ و سنة ١٩٣٧ فقد كانت تلك النسبة مزعجة ، وكان ضحايا انفجار الزائدة الدودية اقل من عدد المنتحرين بكثير ، وهى سنوات خالية من الخطر القومى

ويبدو أنه ليست هناك علاقة واضحة محددة بين موجات الانتحار والأزمات المالية . فهناك فريق من الأغنياء الذين لا ينقصهم شىء فى الظاهر يقتلون أنفسهم . ولعله من الخير ان نتذكر دائما كلمة جيته :

ـ ما من شىء فى الحياة يشق علينا احتماله كالشـعور بالسأم من توالى الايام بلا تعب

ومهما اختلفت النظريات والفروض فى تفسير الموجات الانتحارية فانه يحسن بنا أن نعير التفاتنا ما يقوله هارى مارش وارن :

ـ لقد علمتنى التجارب أن كل من يفكر فى الانتحار من المستطاع اقناعه بالعدول عنه

وينبغى الا نستهين بتجارب هذا الرجل ، لأنه رئيس الجمعية الامريكية لانقاذ الحياة ، وقد تمكنت تلك الجمعية من منع الف شخص سنويا من الانتحار . وقد بدأت الجمعية عملها الجليل فى سنة ١٩٠٦ وظلت قائمة به حتى اليوم

ويبدو أن المشكلة الكبرى هى اكتشاف الشخص الذى يضمر نية الانتحار ثم بعـد ذلك معرفة الطريقـة المثلى لاقناعه بتغيير رايه قبل الاقدام على تنفيذ نيته

□

وكلماتوغلت فى صفحات هذا الكتاب سيتضح لك تدريجا

أن هناك وسائل مختلفة وكثيرة لشل قوة الهلاك أو الميل الى الموت الكامنة فينا ، وستتعلم كيف تكتشفها فى مظاهرها التنكرية المختلفة التى كانت مجهولة لك . وستتعلم فضلا عن هذا كيف تكتشف أو تختار الترياق المناسب لذلك السم الزعاف الذى يسرى فينا ، الا وهو الانتحار البطىء

ولست أطمع ، بل ولا يمكننى أن أطمع ، فى أن أقضى على الميل اللاشعورى الى الموت ، كما أنه لا يمكننى أن أطمع فى القضاء على قوة الجاذبية الارضية ، ولكن فى استطاعتى أن أهديك الى الطريقة التى تعطل بها هذا الميل وتكف من جماحه

وبالاختصار ، لا أستطيع أن ألغى لديك الميل الغريزى الى الالقاء بنفسك من علو شاهق ، وكان فى مقدورى أن أعلمك كيف تهبط من ذلك العلو بالبراشوت ، بدلا من أن تلقى بنفسك لتهوى حطاما لا حياة فيه



الانتحار بالتداوى !

انك اذا طلبت من رجل عادى أن يشيد لك قنطرة فوق نهر ، لظن بك الخبال ، ولقال لك مستنكرا :

ــ ولكنى لست مهندسا ، فكيف تنتظر منى أن أعرف كيف اشيدها ؟

واذا طلبت منه أن يقود طيارة ، كان استنكاره أشد :

ــ أتظنني مخبولا ؟ اننى لم أضع يدى من قبل على عجلة القيادة

ولكنك اذا طلبت منه فى أى وقت أن يدلك على علاج للصداع الذى تعانيه ، أو لعسر الهضم ، لانطلق يغمرك بأسماء الأدوية ، فى ثقة تامة وبغير أدنى تردد ، كأنه أعلم الناس بالطب على اختلاف فروعه ، مع أن معلوماته الطبية لا تزيد عن معلوماته فى هندسة الكبارى أو قيادة الطائرات ...

واذا تجاسرت فسألته كيف عرف كل هذه المعلومات الطبية وهو ليس طبيبا ، فقد يصارحك بمصدر هذه المعلومات ، واذا به لا يزيد على خبرة طويلة بهذه الأعراض التى ظل جده يشكو منها سنين طويلة ، أو كانت عمته تعانيها ..

ومثل هذا الرجل لا يقنع فى الغالب بالنصيحة الخالصة لوجه الله ، بل تأبى عليه طيبة قلبه الا أن يمشى معك الى أقرب صيدلية ، ويلازمك الى أن تشترى الدواء المطلوب وتتعاطاه بين سمعه وبصره . وهو لا يشك مطلقا فى قدرته

على التشخيص والعلاج ، وهو أبعـــد الناس طبعا عن تسخيف سلوكه هذا ...

ان اقامة الكوبرى تســتلزم دراية برسم أبيض اللون فوق صحيفة زرقاء ، ومثل ذلك الرسم يقتضى دراسة معينة وشهادة علمية خاصة . وكذلك قيادة الطيـــارة تحتاج الى شهور طويلة من المران ودرجة عالية من الحذق والخبرة

ذلك ما يعترف به هذا الطبيب الهـاوى بغير تردد . وماذا عن الجسم البشرى أيها الســيد العزيز ؟ ألست تراه أشد تعقيـــدا ، وأدق تركيبا ، واغمض أسرارا من الكوبرى والطيارة ؟

ان عواقب العبث عن غير علم بالكوبرى والطيارة معروفة ! فالكوبرى قد ينهار ، والطيارة قد تهوى براكبها . ولكن ماذا عن هذا المسكين الذى تنصحه وتطب له ؟ أليس من الجائز أن يتسبب نصحك الطبى له فى عكس المقصــود ، أو على الأقل فى ضياع وقت ثمين ، قد يكون فرصـــته الوحيدة لانقاذ حياته ؟

فالصداع مثلا عرض لمائة مرض مختلف ، هو عامل مشترك فيها جميعا . ومن هذه الامراض الضغط العالى . فالمسكنات السهلة العمياء قد لا تقتله توا ، ولكنها بطبيعة الحال تساعد على تقصير عمر المريض بالضغط العالى ، ولو بالغفلة عن حقيقة المرض الذى يتفاقم بالاهمال ..

فاذا تركنا الصداع جانبا وانتقلنــــا الى عسر الهضم وجدناه يمكن أن يرجع الى كثير جدا من الأمراض ، حتى أن نفرا غير قليل من الأطباء المتمكنين كثيرا ما يعجزون عن معرفة سببه على وجه اليقين

أليس الافتاء فى ذلك بدون تبصر ، وادعاء المعرفة فى ميدان يتسابق فيه انقباض المعدة ، أو حموضتها ، أو كسل

الكبد ، أو الافراط فى الشراب ، انما هو السخافة بعينها ، والاضرار المحقق بمن توجه اليه نصائحك الغالية ؟

▭

ولو أنك فتحت كتابا من كتب الفسيولوجيا ، أو علم وظائف الأعضاء ، لتكشف لك طرف من أعاجيب هذه الآلة البشرية المعقدة التى تتجاسر على العبث بها

ولو أنك فتحت كتابا من كتب الباثولوجيا أو علم الأمراض ، ونظرت فيما يحفل به من صور ، لعرفت شيئا مما يمكن أن يحدث لتلك الآلة العجيبة من الخلل والاضطراب ، ولأقنعك ذلك بمبلغ ما فى نصائحك من اسفاف وسخافة وخطر داهم

والواقع أن مثل هذا الطبيب الهاوى الرقيق الحاشية الغيور على صحة من يعرف ومن لا يعرف انما هو فى الواقع نموذج منتشر جدا فى جميع الأوساط ، تسمع محاضراته الحكيمة فى مركبات الاتوبيس والترام ، وفى عربات القطارات ، وفى المقاهى والمقاصف ، وفى الاستراحة بين فصول التمثيل أو السينما ، وفى كل وقت وفى كل مكان ، ومن الجنسين

ولكن اياك أن تقسو عليه أو عليها ، ووفر شيئا من الملام لحضرات المستمعين الكرام لهؤلاء الأطباء الغواة

فان العمل بتلك الارشادات البلهاء هو مصدر الضرر كله . فان المستمع الذى يصدع بهذه النصائح لا يلومن الا نفسه على ما يحدث له . وهناك ملايين من الناس يأخذون أمثال تلك النصائح مأخذ الجد ، ويرون انها اذا لم تنفع فانها لن تضر ، ناسين أو متناسين أنها على الأقل ستضيع وقتا ثمينا دون علاج شاف ، وربما كان هذا التأخير سببا فى فوات فرصة الشفاء الى الأبد

وانى لأعجب لماذا لا تصـدر الدولة القوانين الكفيلة بمنع الناس من الحاق هذا الأذى الشديد بأنفسهم

أليست الدولة حريصة على مراقبة الكبارى وفحص سلامتها وصيانتها ليلا ونهارا ؟ أليست الدولة معنيـة بصـيانة الطائرات والقطارات وفحص سلامتها منعـا للحوادث وحرصا على تأمين سـلامة المواطنين ؟ وهل لا تضع الدولة أو تلزم الناس بوضع علامات الخطر على الصناديق التى تحوى المفرقعات ؟ وهل لا تحتم الدولة عددا معينا لأبواب الخروج فى دور السينما ، بحيث تكفى تلك الأبواب لنجاة الناس فى وقت معقول اذا نشبت ألسنة الحريق ؟

لماذا تفعل الدولة كل هذا ؟

لأن سلامة المواطنين من أهم واجبات الدولة

وماذا عن هؤلاء الآلاف الذين يموتون بسبب عسر الهضم مثلا ؟

الأنهم لا يموتون فى مكان واحد ووقت واحد بضـجة مظهرية تشغل رؤوس الصحف ، لا تستحق هذه الآلاف من الأرواح عناية الدولة ورعاية القانون ؟

انه من أوجب الواجبات وأسهلها على الدولة أن تصدر تشريعا يحرم على غير المرخص لهم بمزاولة الطب أن يصفوا الأدوية سواء أكانت بأجر أم بغير أجر

بيد أن واجب الانصاف يقتضينا ان نقرر أن تنفيذ ذلك القانون لن يكون وافيا كافيا بصورة يسيرة ، لأنه من ذا الذى يستطيع ان يمنع الجيران من اسداء النصح فى ساعات الصفو ، أو على مائدة الطعام ، أو حول أقداح الشاى أو فى سهرة ينعقد فيها دخان السجائر والغليون بين أحاديث السمر التى من أهمها الحديث عن الأوجاع والأمراض وعن

أنجع الطرق لشفاء السعال والامساك وألم المفاصل وحرقان المعدة ؟

ولكن يمكن ولا شك أن يصدر قانون لأصحاب الصيدليات الا يركبوا أو يصرفوا دواء جاهزا لأحد من الناس الا بناء على أمر من الطبيب يحمل تاريخ اليوم واسم المريض ، ولو كان الدواء المطلوب قرصا من الاسبرين أو بيكربونات الصودا أو أقراص الفيتامينات أو المقويات وفاتحات الشهية

فانه من الضرورى ان يتأكد من يريد شراء زجاجة من شراب السعال أن سعاله التهاب بسيط وليس عرضا للالتهاب الرئوى ، أو السل ، أو للسرطان ، أو لمرض من أمراض القلب . ومن الضرورى كذلك أن تتأكد المرأة التى تريد شراء شراب مقو من أن الهبوط الذى تشعر به ناتج حقا عن فقر الدم وليس نتيجة مرض آخر من امراض الصدر أو القلب ، وكذلك الغلام الذى يلهث لأقل مجهود ولا يستطيع مجاراة أقرانه فى لعب الكرة أو السباحة ، يجب أن يتأكد قبل شراء الفيتامينات من أنه غير معرض لذات الرئة ، ولا سبيل الى ذلك الا بفحص دقيق يستعين فيه الطبيب بجهاز الأشعة السينية

فمما لا شك فيه أن الكثيرين منا يقتلون أنفسهم قتلا بطيئا ولكنه محقق عن طريق التداوى ، أى عن طريق تطبيب أنفسهم لأنفسهم . فعملية التشخيص هى أهم عناصر العلاج الطبى فيجب أولا الكشف عن موضع الداء الحقيقى ، أما تعاطى الدواء عن غير بينة فهو بمثابة اطلاق الرصاص فى الظلام الحالك على عين ثور . فانك قد تصيب ذلك الهدف ولكن الغالب أن تخطئه بمسافة كبيرة

ولست ألوم أصحاب الصيدليات ، فانهم يتعيشون ويرتزقون من مهنتهم فى حدود القانون القائم ، ومعظمهم على خلق

وذمة . فاذا دخل الصيدلية زبون وطلب من صاحبها شرابا جيدا للسعال ، فلماذا لا ينتقى له الصيدلى زجاجة من عشرات الأصناف المكدسة فى دولابه ؟ انه ان لم يفعل فان هذا الزبون ينصرف عنه الى الصيدلية الأخرى عبرالشارع حيث يتهافتون على خدمته وتلبيـــة رغبته . فأصـــول التجارة تحمله على التغاضى بعض الشىء عن أحكام الضمير الأدبى ، والا ابتلعه تيار السوق

وكثيرا ما حدث وأنا فى بعض الصيدليات أن يدخل رجل وهو يسعل سعالا متداركا يهزه هزا من قمة رأسه الى أخمص قدمه ، فيطلب من صاحب الصيدلية شرابا جيدا للسعال قائلا على سبيل الشكوى :

ــ لقد لازمنى هذا السعال الملعون ثلاثة أشـــهر حتى الآن ، ويبدو أننى لن اتخلص منه ، ولم يفدنى شىء مما تعاطيته ، على كثرة ما تعاطيت . واظن انه سيتحتم على الالتجاء الى الطبيب اذا لم تستطع مساعدتى بشىء ناجع، فاننى قد سمعت أن لديك دواء يشفى مثل سعالى هذا

وبغير أن يختلج للصيدلى جفن كان يجيبه :

ــ عندى فعلا ما يصلح لك تماما . فخذ بضع زجاجات من هذا وستجد حالتك قد تحسنت كثيرا

وكنت أعجب من أن الصـــيدلى لا يقترح على الرجل استشارة الطبيب تصريحا أو تلميحا . فالرجل يسعل منذ ثلاثة أشهر ، وقد أستهلك عددا كبيرا من زجاجات أشربة السعال بغير جدوى ، ومع هذا ينصحه الصيدلى بتعاطى بضع زجاجات أخرى من دوائه

بضع زجاجات ؟

ان هذا يعنى بضعة اشهر أخرى من المماطلة والتسويف مع أن ذلك السعال من المرجح أنه ناشىء عن آفة صدرية أو سل رئوى ، وخطورة هذا التسويف لا تقل بحال من

الأحوال عن خطورة ترك صناديق من الديناميت بغير تحذير من الاقتراب منها أو القائها على الارض بعنف ، فالانفجار القاتل لا بد حادث فى الحالتين

ومما سبق يتضح أن اللوم يقع علينا جميعا : أطباء وصيادلة ومرضى

أما جريرة الإطباء فهى الوقوف مكتوفى الأيدى أمام هذا الانتحار بالجملة ، فالعمل الايجابى لوقف هذا التيار واجب

وجريرة الصيدلى أنه لا يتضامن مع الطبيب فى حمل المشرعين على سن القوانين اللازمة لحماية الأرواح ، وفى تنفيذ تلك القوانين

وجريرة الشعب أنه يقبل على شراء الأدوية بغير بصيرة. وليس يشفع له فى ذلك الحمق ما تحفل به الصحف والاذاعة من اعلانات ودعاية للدواء الذى يشفى أربعين داء وما الى ذلك من أوصاف واغراء بشراء الأدوية اعتباطا

بل اننا اذا استطعنا اقناع رجل الشارع بعدم شراء الأدوية الا بأمر الطبيب ، لما كانت بنا حاجة الى سن التشريعات فى ذلك المضمار

فأهم ما فى الموضوع أن ندخل فى رأس رجل الشارع أن جسمه آلة لا تقل دقة وأهمية وتعقدا عن الطيارة ، أو الكوبرى ، أو القاطرة ، فلا يعبث بآلاته وأجهزته ، بل يترك ذلك للميكانيكى المختص ، والا كان معنى ذلك العبث أنه انتحار بطيء ، وان كان ذلك الانتحار يتسمى باسم التداوى والتطبيب الذاتى

□

ولو أننا وضعنا الأشخاص الذين يتداوون بأنفسهم جنبا الى جنب ، لتكون منهم صف طويل يكفى لتطويق الكرة

الأرضية أكثر من مرة ، ولكان عدد الضحايا الذين ماتوا بهذا السبب أكثر من عدد المساكين الذين ماتوا منتحرين بتلك الوسيلة الشنيعة الأخرى المسماة بالحرب . ولكن الذى يقلل من مظهر الأهمية لهذه الوسيلة من وسائل الانتحار المسماة بالتداوى الذاتى هو أن الحالات متفرقة ، وتجزئة الضربة تخفف من وقعها على الدوام ، فى حين أن الضجة التى تثور حول الحرب ، وشناعة وسائلها التى تقضى على الألوف جملة ، تجعلها محور الاهتمام لدى جميع الناس

والواقع أن سلوك الناس فى هذا الصدد عجيب غاية العجب . فالمحامى لا يمكن أن يفكر فى الاضطلاع ببناء كوبرى . والمهندس لا يفكر فى ارتداء ثياب القاضى الا لحضور كرنفال . والمزارع لا يمكن أن يفكر فى ادارة آلات مصنع . وعامل المصنع لا يحاول أن يجلس بين قائمتى البقرة الخلفيتين كى يحلب لبنها . والسمكرى لا يمكن أن يفكر فى بناء منزل ، وكذلك النجار لا يمكن أن يفكر فى القيام بأعمال السباكة . وبعبارة أخرى يعرف كل شخص عاقل حدوده فى مسائل الصنعة والدراية المهنية

ومع هذا نجد المحامى والمهندس والكيماوى والفلاح والسباك والنجار لا يترددون جميعا فى علاج أنفسهم بأنفسهم ، كأن جسد كل واحد منهم أقل أهمية وخطرا من موضوعات صنعته

واذا خطر لك أن توبخ أحدا من هؤلاء على تصرفه ، ابتسم فى بلاهة وهون من أمر الصداع أو عسر الهضم أو الاعياء

فلا بد اذن من انقاذ الانسان من نفسه ، انقاذه من مخاوفه ، ومن محاولات التسويف ، أى انقاذه من رغبته اللاشعورية فى الموت

تعاون مع طبيبك

ان الهدف الحقيقي لمهنة الطب ليس حمل الناس على الصحـة ، بل حماية النـاس وتخليصهم من الامراض . فلست أكتب هذه السطور بتكليف الهي هبط على من السماء أن اطوف بالناس كى استحثهم أو أجبرهم على انقاذ حياتهم ، وانما قصارى أملى ان يثوب نفر من القراء بعد الفراغ من قراءة ما كتبت الى انفسهم قائلين :

ـ لقد أدركت الآن كيف كنت اقامر بحياتى ، فمن الخير لى أن أزيد من تعاونى مع طبيبى

فذلك حسبى جزاء ما تجشمت من جهد وعناء فى تأليف هذا الكتاب

والواقع ان نسـبة مدهشة من النـاس يعتقدون أنهم يتعاونون مع طبيبهم فى حين أن الواقع بخلاف ذلك . وهذا ما شاهدته بالتجربة كل يوم تقريبا ، وما أعتقد أن معظم الأطباء يشاهدونه أيضا فى مرضاهم . وقد سألت الكثيرين من زملائى فوافقونى على ان كثيرين من مرضاهم يبذلون جهودا كبيرة فى التغلب على جهود الطبيب لشفائهم

وأول عامل مساعد على ارادة الفناء هو التسويف . وأكاد أحصر دواعى التسويف وأسبابه فى أربع مسائل :

أولا : يظن كثير جدا من الناس أنهم بخير وعافية ما داموا يشعرون بذلك فعلا بغير الرجوع الى فحص طبى

ثانيا : معظم الناس قدريون ، يؤمنون بأن ما قدر يكون ، وأن كل ما يحدث للمرء مكتوب عليه منذ الازل ، وأن الوراثة تعين ظروف الصحة والعمر لكل انسان

ثالثا : والاكثرية من الناس تفضل انفاق المبلغ المعين من المال فى شراء تذاكر للسينما على انفاق ذلك المبلغ،أو بالأحرى على تضييعه هباء فى فحص طبى لا لزوم له

رابعا : وكثيرون منهم يخشون أن يسفر الفحص الطبى عن اصابتهم بداء يجهلون وجوده . وقد صدق هربرت سبنسر حين قال عن ذلك النوع من الخوف :

ـ ان أخون الخيانة ان نخشى مواجهة الحقيقة لسوئها

والمشـاهد فى الغـالب هو عكس المعقول والطبيعى . اذ المعقول والطبيعي أن الانسان الذى تقض مضجعه الآلام أو المتاعب الغامضة ويخشى على حياته يكون أسرع الناس الى زيارة الطبيب . ولكن الواقع أن شيطان التسويف يقف لهذا الشخص فى الطريق ويحيد به عن باب الطبيب الى باب السينما أو باب المقصف ، أو غيرهما من الأبواب

ولا بد أن هناك سببا كافيا لتقاعد مثل ذلك الشخص من التمنطق بطوق النجاة والقفز الى البحـر من السفينة الغارقة . وسواء حملنا الامر على محمل الارتباك ، أو الشلل الهستيرى ، أو الحيرة أمام الخطر الداهم ، فان ذلك التفسير لا يكفى فى نظرى لتبرير الحقيقة . والتفسير الحقيقى كامن فى اللاشعور حيث القوى التى تعمل على فناء الشخص

ولو أنك قلت له ذلك ، لظن بك الحمق أو الجنون . ولكن أى تعليل أوفق من هذا التعليل نعلل به تصرفاته السقيمة ؟

فان الرجل الذى يرفض الاسعافات الأولية وهو فى أمس الحاجة اليها أما أن يكون مخبولا خبالا واضحا أو مسخرا من اللاشعور لمقاومة الحياة وعرقلة النجاة ، وهلاك نفسه

ومن المعروف أن هناك حدا اذا بلغته الأمراض وقف الطب مكتوف اليدين ازاءها . فالغريق الذى يغوص مرتين يمكن أن تدركه يد الانقاذ ، أما من يغوص للمرة الثالثـة

فلا حيلة فى انقاذه . كذلك نحن معاشر الاطباء ، فى كثير جدا من الحالات يسيطر التسويف على المريض فلا يطرق بابنا الا وقد تجاوز الحد وشرع يغوص للمرة الثالثة فأصبح الأمل فى انقاذه فى حكم المعدوم

□

والواقع انه ما من شيء يزعج الطبيب ويجهد أعصابه مثل منظر من يأتى اليه بعد فوات الأوان ، لأنه يشعر بأوجع وامر ما يشعر به انسان ، وهو العجز والغيظ من حماقة هذا الأخ الأبله الكثير النظراء بين اخواننا فى الانسانية

وليس المقياس هنا مقياسا زمنيا ، ففى بعض الأمراض يساوى مرور الساعة اسبوعا ، ويساوى تسويف الاسبوع عاما . ورب وجع فى الصدر اودى بالحياة لتسويف فى علاجه ساعات أو أياما معدودات ، كما أن هناك أمراضا مثل ضغط الدم العالى والسكر قد لا يفاقم من ضررها تسويف بضعة أسابيع أو بضعة أشهر ، ولكن لا سبيل الى تمييز هذه الحالات من تلك سلفا وبغير فحص

ومن اى وجهة نظرنا الى التسويف فى مضمار الأمراض والأوجاع ، فلا مناص من أن نرى فيه اسما آخر للانتحار

ويقال مع ذلك ان حب البقاء أقوى دافع بين دوافع الحياة . وهو كلام لا يمكن اثباته الا فى حالة واحدة ، هى حالة مواجهة الانسان لخطر داهم ، كأن يتجرع سما عن طريق الخطأ ، ففى هذه الحالة يستولى عليه الرعب فورا ، ويعمل المستحيل لتحاشى نتائج ذلك الخطأ والنجاة بحياته ، ولكن هذا الشخص لا يكترث ولا يحرك ساكنا اذا قلت له أن بعض عاداته التى يجرى عليها تفعل فى صحته فعل السم البطيء . فعدم الاكتراث وتقصير الارادة عن العناية الواجبة بجسمه

قد يكون معناهما اقتطاع خمسين سنة من حياته . فتقاعده مع علمه بتلك الحقيقة لا يمكن الا أن يكون صادرا عن الغريزة المناهضة لحب البقاء ، أى عن غريزة الفناء

وجدير بالذكر أن كثيرين من الناس ممن لا يحسون ألما ويبدون لأنفسهم وللناس فى أتم صحة وعافية ، قد يكونون فريسة أمراض خطيرة فى واقع الأمر

ولو عرفنا حقيقة مصلحتنا لما كرهنا الأوجاع والآلام ، بل لأوليناها شكرنا واهتمامنا . ذلك أنها بمثابة ناقوس الخطر أو صوت النذير بأن هناك حريقا أو غارة جوية . فماذا كنا نصنع لولا تلك الاوجاع الحادة التى تنبهنا الى وشك انفجار الزائدة الدودية عند التهابها ؟

وانه لمن دواعى الأسف حقا أن كثيرا من الامراض المزمنة والأمراض القاضية على الحياة لا تصاحبها تلك الانذارات والأوجاع التى تنبه المريض الى طبيعتها الخبيثة

وبسبب هـذه الطائفة الاخيرة من الامراض الصامتـة او الخرساء ، اى الامراض التى لا تصاحبها أوجاع تميزها ، ينبغى للشخص أن يعطى طبيبه فرصة كافية لتشخيصها واكتشافها وهى فى طور البـداية قبـل أن تستفحل . ولا يتسنى ذلك الا باستشارة الطبيب من غير انتظار لتنبيهات الأوجاع والآلام الى تلك الزيارة

ولنضرب مثلا توضيحيا بمرض السل ، فللسل اعراض يميزها الطبيب بسهولة ، ولكن المريض العادى قد يستخف بها ويمر بها مر الكرام ، وبذلك يضيع وقت ثمين جدا قـد يضيع الى الأبد فرصة الشفاء والنجاة . ومن هذه الامراض نقص الوزن وهبوط القوة وارتفاع درجة الحرارة بعد الظهر وكثرة العرق ليلا وفقدان الشهية والسعال المزمن والبصاق المدمم . ولكن كثيرين جدا من المصابين بهـذه الأعراض أو بعضها لا يذهبون لزيارة الطبيب الا اذا اكرهوا على ذلك اكراها أو حملوا اليه حملا ، ويضيعون وقتا ثمينا جدا فى

تجربة علاجات ووصفات يتعاطونها كيفما اتفق. وربما كانت نتيجة ذلك التسويف الخبيث نزيف حاد وآلام تدوم بضعة أشهر من العذاب المقيم الى أن يختمها الموت بختامه المحتوم

وليس هذا هو حسب المطل والتسويف من كارثة وضرر كلا . بل هناك أفراد الاسرة والاصدقاء والمخالطون الذين تصيبهم العدوى فيذهبون ضحيتها

أما اذا بادر المريض لزيارة الطبيب من بداية الأمر ، فان الطبيب خليق أن يشتبه فى الحالة ، فيفحصه بجهاز الأشعة السينية ، ومتى تأكد من الحالة بعث بالمريض الى المصح ستة أشهر أو سنة ، فاذا بالداء يقف عند حده ، واذا بهذا الشخص يخلص من براثن الموت ليعود الى الحياة عنصرا عاملا وقد تعلم نهجا جديدا للحياة الصحية التى يصون بها حياته ، فينفسح أمامه المجال لبلوغ سن متقدمة شأن أوساط الناس الأصحاء .

ونضرب مثلا آخر بمرض البدانة المفرطة ، ولندع جانبا ذلك الفريق من الناس الذين يعالجون البدانة حبا فى المنظر الأنيق والقوام الرشيق ، أما بحثا عن خفة الحركة أو لكى لا تضيق عنهم ملابسهم التى لا يملكون استحداث غيرها . ومثل هؤلاء غالبا ما يجربون أنواع العلاج الطبى التى يأمر بها الطبيب ، فاذا بوزنهم يزداد بدلا من أن يقل فيعودون الى الطبيب متعجبين ليقولوا له :

ــ لقد اتبعنا نظام الطعام الذى أوصيت به بدقة

ولكن حينما يدقق الطبيب فى السؤال يتضح أنهم اقترفوا جريمة «التزويغ» من الريجيم بين الحين والحين . ولكن مثل هؤلاء السمان لا يهمنا أمرهم كثيرا . وانما المهم هم هؤلاء السمان المصابون بأمراض تجعل الطبيب يحتم عليهم انقاص وزنهم، كالمصابين بضغط الدم العالى وأمراض القلب والسكر وما الى ذلك

ويتملك الطبيب العجب كيف يعود اليه هؤلاء المرضى من دون أن يقل وزنهم برغم التشديد عليهم فى اتباع ريجيم دقيق ، أى نظام للتغذية صارم فى مواده وكميـاته ، ومع أن الطبيب قد أنذرهم بأن حياتهم متوقفة على انقاص وزنهم ، ولكنهم مع ذلك لا يملكون الارادة الكافية للنحافة . وربما كا نذلك ناجما من أن ارادتهم اللاشعورية للموتأقوى وأشد من ارادة الحياة

وليست البدانة الا مثلا من أمثلة كثيرة من هذا القبيل . فمن المعلوم أن التـاريخ الصحى للمريض يكاد يكون أهم عناصر التشخيص ، وأنه فى استطاعة أى مريض أن يضلل الطبيب باغفال نقطة أو نقطتين من حلقات تاريخه قد تبدو لأول وهلة تافهة . ولا يمكن أن يعلل ذلك الاغفال الا بانه رغبة لاشعورية فى مقاومة العلاج .

ويحضرنى فى ذلك مثال مريض عصبى كان يصر عنـد سؤاله على أن ظروف حياته العائلية على أحسن ما يرام . ولكن الزوجة كشفت عن الحقيقة ، وهى وجود الخلاف الدائم بين هذا الشخص وبين حماته التى تعيش معه فى مسكن واحد ، فلما انفصل عن حماته شفى من الاضطراب العصبى تمام الشفاء

وليست هذه الحالات التى يضلل فيها المريض طبيبه باغفال الحقائق أو بطمسها وتمويهها ناتجة عن الجهل ، فان معظم من يقترفونها من الطبقة المفكرة والعاملين بأذهانهم كالمحامين والقضاة ورجال الاعمال ومن اليهم . وتعليل ذلك أن حب الفناء انفعال لاشعورى منفصل عن ملكة التفكير تمام الانفصال

□

واعرف فيمن أعرف رجلا أنذره الأطباء بخطر التدخين

على حياته . وكان هذا الرجل يدخن وهو حول الاربعين من عمره ستين سيجارة فى اليوم . وداب على ذلك سنوات فدبت الغرغرينة الى احدى ساقيه وتحتم قطعها. ثم دعيت لزيارته بعد بضعة اشهر لأنه بدأ يشكو من أوجاع فى ساقه الاخرى . فلما دخلت عليه وجدته مضطجعا فى كرسى هزاز يدخن والى جانبه عكازه . فرحت أسأله عن تاريخ مرضه ، فراح يدلى به وهو يشعل سيجارة من أخرى ، فلما فرغ سألته :

ـ الم يشر عليك أحد من الاطباء بالاقلاع عن التدخين قبل اليوم ؟

ـ كلهم اشاروا بذلك ، ولكنى لا أستطيع الاقلاع عنه

ـ أمدرك أنت تمام الادراك أن الطباق سم حقيقى بالنسبة لحالتك ؟ أمدرك أنت تمام الادراك أن كل نفس من انفاس الدخان بمثابة مسمار يدق فى نعشك ؟ ألم يحذروك وينذروك بقطع تلك الرجل الاولى أن أنت مضيت فى ادمان التدخين ؟

ـ لقد فعلوا .. وكانوا جميعا يعظوننى كما تعظنى الآن

وكان يبتسم ، ولكن كان واضحا أنه سئم حديثى ، وان كل ما كان يريده منى شىء يسكن آلام رجله الاخرى ، ولكنى لم أكتمه الحقيقة وصارحته بأنه لا بد فاقد هــذه الرجل الاخرى أيضا اذا لم يقلع عن التدخين ، فأجابنى :

ـ يؤسفنى أنك لا تستطيع لى خيرا من هذا يا دكتور . ولكن ثق أنه اذا وصل الامر الى هذا الحد ، فاننى أفرط فى رجلى الاخرى ولا أفرط فى سجائرى

ثم اشعل سيجارة أخرى واقرانى السلام ، فانصرفت لتقع عينى عليه بعد سنة مقطوع الرجلين جميعا يجتاز الشارع فى كرسى ذى عجلتين والسيجارة المشتعلة تهتز بين شفتيه !

فكيف نفسر هذه الظاهرة ؟

اننى شخصيا أدخن وأتلذذ بالتدخين ، ومع ذلك فقد

أقلعت عن التدخين بضعة أشهر لا لشيء الا لكي أجرب في نفسي قوة الارادة التي أتوقع أن أجدها في مرضاي . وربما كنت أقتل نفسي دون أن أدري بوسيلة من الوسائل الاخرى التي أجهلها ، ولكن مما لا شك فيه أنني لو أمرت بالكف عن التدخين الآن لأنه خطر على حياتي لكففت عنه بغير تردد

ولكن لماذا أصر هذا الرجل المقطوع الرجلين على الاستمرار في التدخين ؟ لماذا وجدت عنده لا عدم تعاون فقط بل اغفالا تاما لجميع النتائج ؟

الجواب أن هذه هي طريقته الخاصة في قتل نفسه . ولكل مريض من هذا الطراز طريقة خاصة في عدم التعاون مع الطبيب . فلو أننا ألقينا في نهر المسيسبي العظيم وهو أكبر أنهار الدنيا بزجاجات الأدوية التي اشتراها المرضى بأمر الطبيب ولم يستعملوها لفاضت عن ضفتيه ، ولو أننا كومنا الأقراص والحبوب التي لم يتعاطاها المرضى عاصين أوامر الطبيب لكان منها جبل ضخم تغطى قمته الثلوج ، ولو أننا كتبنا كل النصائح الطبية التي خالفها المرضى جنبا الى جنب لطوقت تلك الكتابة الكرة الارضية كما يطوقها خط الاستواء جملة مرات

ومن الأمثلة المألوفة هؤلاء المصابون بالصمم الجزئي الذين يرفضون استعمال السماعة الكهربائية وهي لا تتجاوز زرا صغيرا يوضع وراء الأذن . والواقع أن هؤلاء يسببون بعنادهم متاعب لمن حولهم أكثر مما يسببونه لأنفسهم . فكثيرا ما سمعت أفراد عائلة تبح أصواتهم من كثرة الصياح نتيجة لاصرار الوالد المحترم على عدم لبس « هذا الشيء البغيض » فهو يجلس هناك هادئا والأسرة من حوله تقوم وتقعد وتتصبب عرقا وتنفر عروق وجهها لمحاولة افهامه عبارة بسيطة

ان الانسان لغز غامض حقا . فهو لا يرفض أن يضع على

عينيه عدسة منظار ، ولكنه يرفض أن يضع وراء أذنه زرا صغيرا

□

وبهذه المناسبة أعرف كثيرين مصابين بالصداع الدائم لاختلال فى زاوية الانعكاس فى عيونهم ، وهو أمر تتكفل باصلاحه النظارة الطبية ، ومع ذلك فهم يرفضون لبس تلك النظارة . وتلك أنانية لا شك فيها ، لأن الشخص المصاب بالصداع الحاد على الدوام ليس شخصا تطيب عشرته وتلذ مجالسته

وهنـاك نوع آخـر من الانتحار البطىء ، هو الشغف باستشارة الأطباء الروحانيين الذين يسخرون الجن ويعالجون بالتعاويذ والأعشاب ، ويعلنون كفرانهم وازدراءهم لأعضاء نقابات المهن الطبية

وأعرف واحدا من هؤلاء كنت أعالجه من قبل لاصابته بحموضة فى المعدة . وقد نصحته بعد علاجه باستشارة أخصائى فى أمراض الجلد لانتشار حروق وبثور فى وجهه ، وغاب عن نظرى مدة طويلة رحل فيها الى كاليفورنيا للعمل هناك فى مصنع للطائرات ، فلما رأيته أخيرا وجدت بشرته أشد التهابا ، فسألته عن طبيبه المعالج فاعترف لى بأن أحد رفاقه فى العمل دله على ساحر يعالج هذه الامراض بالأعشاب الشرقية

ــ وهل ذهبت اليه ؟

ــ طبعا . وماذا كنت أخسر بالذهاب على كل حال ؟ لقد جربت جميع الاخصائيين فى أمراض الجلد بغير جدوى

ــ وهل أفلح ساحرك بأعشابه حيث أخفقوا ؟

ــ انه ولا شك ماهر ، فقد ظل يمارس مهنته فى هـذه

المنطقة عشرين سنة . وما كان ليقوى على الصمود هناك تلك المدة لو أنه لم ينجح فى شفاء عدد كبير من الناس . وقد أطلعنى على عشرات الخطابات التىوردت اليه طافحة بالشكر ممن شفاهم

وكنت أستمع اليه وأنا متعجب أشد العجب من أمر هذا الشاب الذى يتحمس فى اطراء طبيب ظل يعالجه عدة أشهر بغير نتيجة على الاطلاق

والواقع أن أمثال هذا الشاب غير قلائل ، فقد صادفت كثيرين لا يحقدون على هؤلاء المشعوذين بعد فشلهم الظاهر فى شفاء أمراضهم ، وبعد أن دفعوا لهم أضعاف ما يتقاضاه الطبيب المختص

لماذا ؟

الراجح عندى أن الفضل فى ذلك لدبلوماسية المشعوذ ، فهو يفهم نفسية المريض الذى يلجأ اليه ، وأن وجدانه قلق . ومعروف أن سبعة فى كل عشرة من زبائن المشعوذين غير مصابين بأمراض عضوية . فاذا عمد المشعوذ الى تهدئة أعصابه والايحاء اليه بأن الاعشاب أو التعاويذ ستشفيه ، فان قلقه النفسى يزول ، ويشفيه ايمانه ، بمعنى أن وهم المرض يتلاشى . وأهم من ذلك كله أن يشعر المريض على الدوام أنه موضع الاهتمام الشديد ممن يعالجه . فالمشاهد دائما أن المشعوذ يجيد الانصات ، وأنه يفسح لمريضه صدره ووقته الى أقصى حد ، وأنه يوهم المريض دائما أنه لا يفكر الا فيه وفى أوجاعه . فهذا الاهتمام والعطف هما فى الغالب ما ينقص المريض نفسانيا . فمعظم هذا الطراز من الناس يتوهم أنه مريض استدرارا للاهتمام والعطف

أما الطبيب الحقيقى فلا ينظر الى المريض فى الغالب تلك النظرة ، فالمريض عنده ليس انسانا بل « حالة » فهو يتوجه اليه بعقله وعلمه لا بقلبه وعطفه . وهو صادق الرغبة فى

شفائه ، ولكنه لا يهتم أو لا يتظاهر بالاهتمام بحيث ينفرد المريض بتفكيره دون شـواغله الاخرى من زوجة وأولاد وموعد مع الاصدقاء للعب الجولف

وبهذا قد يشفى الطبيب مريضه دون أن يكسب قلبه ، فى حين يفشل المشعوذ فى شفاء مريضه ، ولكنه مع هـذا يكسب قلبه ويكسب جيبه جميعا !

وانى استبعد على ذكاء فئة كبيرة من زبائن المشعوذين أن يظنوا أنهم قادرون على شـفائهم ، ولكنهم فى الحقيقة يخدعون أنفسهم بدافع لاشعورى طلبا للعطف والاهتمام ، أو على الاقل لمظاهر العطف والاهتمام

□

وهناك فريق آخر من أشد زبائن المشعوذين تحمسا لهم ، وأعنى بهؤلاء المصابين بأمراض لا أمل فى شفائها طبيا ، فان الطبيب غالبا ما يصارحهم بصدق وأمانة أن الطب لا يملك لهم شيئا . فيترامون على أقدام المشعوذين ، لا لأن المشعوذ يملك لهم الشفاء ، أو يبيعهم الدواء ، بل لأنه يبيع لهم الأمل ولا يوصد فى وجوههم أبواب الرجاء

ولكن هذه المزية التى يمتاز بها المشعوذ تقضى على مئات وآلاف من غير هـذه الفئة التى لا أمل فى شفائها . فان الكثيرين من المرضى بأمراض يمكن شـفاؤها يهرعون الى المشعوذين منجذبين اليه بمعسول لفظـه وبشاشة وجهه ، فيخطئون طبعـا فى تشخيص الداء ، ويضيع وقت ثمين تفوت به آخـر فرصـة فى علاج المرض الذى كان يمكن استئصاله بسهولة تامة لو أنه عرض على طبيب مختص

فاياك أن تتراجع أمام جهامة بعض الاطباء فترتمى فى أحضان المشعوذين . فاذا ضايقتك فظاظة طبيب ونفرت

من سماجته وضيق فهمه لواجبه الطبى ، فاقصد طبيبا آخر ولا تقصد مشعوذا . فليس كل الاطباء ذوى فظاظة ، بل منهم من يفهمون واجبهم فهما متكاملا ، ويدركون أن المريض « انسان » وليس مجرد « حالة » واردة فى كتاب علم الامراض أو كتاب وظائف الاعضاء

ثم عليك أن تتنبه الى حقيقة لا شك فيها هى ان مهارة الطبيب فى التشخيص والعلاج ليست كل شيء ، وانما لا يقل عن ذلك أهمية ان تتعاون معه معاونة صادقة باتباع ارشاداته فى دقة وأمانة . وبغير ذلك التعاون لا تكون لمهارة الطبيب فائدة أو قيمة



الموسوسون أطول أعمارا

أكبر ما يشغل الناس من أصدقاء المنتحر أو أقاربه هو التساؤل عن سبب اقدامه على الانتحار . وفى كثير من الأحيان يكون ذلك السبب مجهولا ، ويظل كذلك . ولكنى أورد هنا بضع ملاحظات قد تفيد فى فهم جانب من أسباب الانتحار التى تبدو مجهولة لبعض الناس

فهناك مثلا عامل الخوف. فكل انسان منا يخاف شيئا. والغالب أن يكون هذا الشيء الذى يخافه الانسان هو الموت . ولكن فى كثير من الاحيان يكون ما يخافه الانسان هو الحياة . وذلك هو النوع الخطر من أنواع الخوف . فالخوف من الموت يقودنا نحو الحياة . أما الخوف من الحياة فيقودنا نحو الموت

فاذا رأيت الأقارب والأصدقاء متجمعين حول جثة شاب فى مقتبل العمر ، وقد ارتسمت الحيرة على وجوههم كما ارتسمت على وجوه رجال البوليس ، لأنهم لا يعرفون تفسيرا لانتحار فقيدهم ، فاعلم أن الخوف الأكبر ، خوف الحياة ، هو سبب اقدامه على الانتحار

والواقع أن خوف الحياة موجود عند نسبة كبيرة من الناس ، ولكن الزمن يداوى هذا الجرح حتى يلتئم ، عند كثير منهم ، ولكن بعضا منهم ذوو حساسية فلا يلتئم الجرح بسهولة وينتهى بالقضاء عليهم

وأى طبيب مجرب يستطيع أن يؤكد لك صدق النظرية القائلة بأن خوف الموت يؤدى الى الحياة . فما أكثر الذين

يتقبلون أمراضهم المزمنة تقبل التسليم بالأمر الواقع ، ويخافون الموت بسبب تلك الأمراض ، فيدأبون على العناية بها وتمريضها فيعمرون بذلك طويلا . وغير قليلين من مرضى السل والقلب من يدفعهم خوفهم من الموت بهذه العلل الى الحرص والعناية الشديدين ، فيبلغون من العمر عتيا

وفي مقابل ذلك نرى كثيرين من ذوى الأبدان الصحيحة يموتون فى سن مبكرة لأنهم يخافون الحياة ، فيقتلون أنفسهم قبل الأوان ، ودون أن يشعروا ، كما سأبين فيما بعد

والواقع أن الخوف من الموت هو الغالب على الناس . فما أكثر الذين يتعلقون بالحياة مع علمهم أنهم مصابون بأمراض لا سبيل الى شفائها ، ومع ذلك فلا يستسلمون للموت ، ويظلون على كفاحهم حتى النفس الأخير

لماذا ؟

لأن دوافع الموت لدى معظمنا خاضعة ومسفة لغريزة البقاء فينا

ولكن ماذا عن هؤلاء العشرين ألفا الذين ينتحرون سنويا انتحارا حادا عاجلا فى أمريكا ؟

ان دوافع الموت لديهم قد تغلبت على دوافع الحياة . فلو أننا استطعنا أن ننفذ الى الايمان بالحياة لدى الشخص فنقويه لهبطت نسبة المنتحرين انتحارا حادا عاجلا ، ولهبطت أيضا ملايين حالات الانتحار المزمن أو البطىء

ومن أحسن الوسائل للقضاء على الانتحار البطىء ، وعلى الخوف من الحياة ، أن نقوى الخوف من الموت ، حتى يصبح الشخص « موسوسا »

فعليك أن تتعلم نصيبا من الوسوسة معتدلا ، يسمح

لك بتذوق حلاوة الحياة والتشبث بها ، وبأن تسرع فى تلبية نداء أعضائك حين تشكو ، فتبادر بزيارة الطبيب ، لأن الطبيب وحده هو الذى يستطيع ان يفهم لغة أعضاء جسمك ويترجمها ترجمة صحيحة

فصاحب الوسواس العادى معنى بأمر صحته عناية تجعله يهتم جدا باستشارة الطبيب ، فاذا اتضح أن ما يشكو منه بداية علة خطيرة مثل السرطان أو القلب ، أو ما الى ذلك ، تمكن من الانقضاض على تلك العلة قبل استفحالها ، والا كانت العلةأسبق الى الانقضاض عليه ، وكان استنجاده بالطبيب بعد فوات الأوان

ومن الحقائق المؤكدة الثابتة ثبوت شروق الشمس من الشرق وغروبها فى الغرب ، أن الموسوسين أطول أعمارا ، لأن قوة البقاء ودوافع الحياة قابضة لديهم باستمرار على عنق قوة الفناء ودوافع الموت

فالموسوس لا يهادن المرض ، سواء كان ذلك المرض صحيحا أم موهوما . فهو لا يخجل من شكوكه ومخاوفه ولا يتردد فى ابدائها للرجل المختص ، لأنه قد عقد معاهدة وتحالفا مع حب البقاء ، فهو صريح فى تشبثه بالحياة ، وحب الحياة لديه مقدم على كل اعتبار ، ولا يهمه مطلقا أن يسخر منه الناس أو يعيروه بالوسواس ، فكل حركة غريبة فى صدره يظنها أزمة قلبية ، وكل اختلاجة فى عروقه يحسبها جلطة دموية ، وكل صداع يظنه ورما فى المخ ، وكل ألم فى الظهر يخاله اضطرابا فى الكليتين

ومن سوء الحظ ان مثل هذا الموسوس يؤتى من جهة غايته نفسها : لأنه يعيش فعلا عمرا أطول ، ولكنه يعيشه منغصا شقيا بوساوسه

ومن سوء الحظ أيضا أن مثل هذا الموسوس ينتهى أحيانا بادخال الضجر والسأم على طبيبه بكثرة شكواه

الوهمية التى يتضح للطبيب كذبها مرارا وتكرارا ، فهو كصاحبه الراعى القديم الذى تعود الناس منه الصيحة « الذئب ! الذئب ! » حتى قر فى نفوسهم أنه كذاب مهذار فلما جاء الذئب حقيقة لم يأخذوا استغاثته مأخذ الجد ، فافترسه الذئب وافترس الغنم . كذلك صاحبنا هـذا الموسوس قد ينتهى طبيبه بمرور الوقت وتكرر الشكوى الوهمية على غير أساس الى الاعتقاد بأنه مريض بالوهم ، فاذا حدث بعد ذلك أن كانت شكواه على أساس صحيح، لم يدقق الطبيب فى فحصه وقرر له التطمين والتأكيد أنه سليم معافى لا أثر للمرض فيه ، ويكون الداء هو السل مثلا أو السرطان ، فيفترسه الذئب ولا يدركه الطبيب الا بعد فوات الأوان

فاذا كان ذلك كذلك ، فكيف يتفق مع ما قلته آنفا من أن الموسوسين أطول اعمارا ؟

والجواب أن هناك درجات كثيرة جدا متفاوتة جدا من الوسوسة . فهناك موسوسون حرف ألف وموسوسون حرف ياء . والموسوس الذى شبهته أخيرا بالراعى فى أسطورة الذئب هو الموسوس حرف ياء فى الدرك الأسفل من قدر الموسوسين ، أنه الشخص الذى يخاف من الارض التى يمشى عليها ، ويتشكك فى الطعام الذى يأكله ، وفى الهواء الذى يتنفسه ، وفى مقبض الباب الذى يضطر الى فتحه ، فكل شيء عنده مزرعة جراثيم .

والذى أطلبه منك وأتمناه لك أن تكون موسوسا حرف الف ، أو ما يقرب من ذلك بالزيادة أو النقصان . فالحقيقة أن الموسوس حرف ألف شخص معقول جدا ومتزن . وهو يدرك تمام الادراك أن حب الفناء وحب البقاء فى صراع دائم داخل نفسه ، وأن أقل مقدار من المعونة يقدمه لحب البقاء وحفظ الذات كاف لتغليبه على قوة الفناء . وهو

لا يخجل من مصارحة نفسه بأنه يخشى الموت . ويدرك تمام الادراك أن المطل والتسويف فى العـــــلاج هما أعظم القواد فى جيش الفناء

فالموسوس حرف الف يتخذ دائما الخطوات المناسبة لوقاية نفسه من قوى الشر الكامنة والمتربصة فى أعماقه . فقد أخذ نفسه بعادة عرض نفسه على الطبيب كل سنة لفحصه فحصا دقيقا مشفوعا بالتحليلات الكلية الوافية . وقد أخذ نفسه أيضا بالاعراض عن تهويش الاعلانات عن الأدوية . فلا يسمح لأحـــد أن يعبث بقلبه أو كبده عدا الطبيب الراسخ العلم . وقد التزم خطة استشارة الطبيب عند كل تعب فائض عن المألوف ، فلا يهون من ألم المفاصل متعــللا بحرارة الطقس ، ولا من البهرة أو قصر النفس واللهث متعللا بزيادة الوزن ، ولا من السعال متعللا بالتدخين ، وهلم جرا . فمثل ذلك الشخص يحفظ دائما توازن قوتى البقاء والفناء عند المستوى المطلوب ، فقوة البقاء تزيد عنده على قوة الفناء بمقدار كاف لدفع الخطر

أما الموسوس حرف باء فالميزان عنده مختل ، والنتيجة عنده عكس المطلوب ، فقوة الفناء عنده أعظم نفوذا من قوة البقاء نتيجة لأوهامه التى لا مبرر لها مما ينهك أعصـــابه ويفسد عليه طعم الحياة . فمن الخير له أن يقلل من غلوائه قليلا حتى يكون فى حالة متوسطة

وعلى النقيض من الموسوس حرف ألف والموسوس حرف باء وما بينهما نجـــــد هؤلاء الذين لا يظهر عليهم أى أثر للخوف من المرض أو الموت . فكل عرض من الاعراض التى تظهر عليهم له تفسير هين بعيد كل البعد عن العلل المعروفة ، وما أسهل أن يعالجوه بأى شىء الا بالعـــــلاج الناجع الوحيد عن طريق الطبيب المختص

فاذا كنت أيها القارىء من ذلك الطراز الأخير فعليك أن

تأخذ درسا خاصـــا فى الوسوسة الخفيفة ، فان جرعة معقولة من هذه الصفة تجعلك على حذر لا بد منه لحماية صحتك وحياتك ، لأن الحذر أو ســوء الظن من حسن الفطن

▭

واعلم أن قوة الفناء كثيرا ما تتنكر فى ثوب عدم المبالاة بالمرض أو الخطر ، وعدم الاكتراث للموت هو عدم المبالاة بالحياة والاستهانة بها . فلا تخجل من مخاوفك الصحية، واعلم أنه لا عار مطلقا فى نصيب معتدل من الوسوسة

وأكثر من هذا أحب أن أؤكد لك أنه لا يشترط كى تزور الطبيب أن تحس توعكا معينا . فاذا كانت زيارة الطبيب عند الشعور بألم أو توعك امرا واجبا ، فانه ليس مما يخجل أو يعاب على الاطلاق أن تزور الطبيب وتستشيره وانت تشعر بتمام العافية والصحة ، فلا أوجاع ولا توعك . واياك أن تعتقد أن الطبيب فى هذه الحالة حرى أن يسخر منك أو يهمل شأنك . فما أكثر ما يتهدد الانسان وهو لا يدرى بوجوده أقل دراية ، ولكن الطبيب حرى أن يدريه حين تعرض نفسك عليه لفحص كلى عام

وهناك نقطة أخرى أحب أن أجلوها جلاء تاما . فهناك خطأ شائع مؤداه أن منتهى الشـــجاعة فى تحدى الموت والمخاطر . فما من واحـــد ممن يواجهون الموت الا وهو يشعر بالخوف منه ولكنه يقاوم ذلك الخوف . فما من انسان منا الا ولديه بذرة الخوف . ولـكن الظروف هى التى تجعل تلك البذرة تنمو وتترعرع عند البعض منا دون البعض الآخر . وكل ما أرجوه لك الا تترك تلك تتضخم تضخما مبالغا فيه فتمسى موسوسا حرف ياء . وأن كنت

اتمنى لك من صميم قلبى أن تحتفظ بتلك البذرة حيـة فى مستوى يجعل منك موسوسا حرف ألف أو باء أو حتى موسوسا حرف ج ، فان ذلك سيكفل لك قسطا من الحذر والعناية بصحتك وعقلك ، هو القسط الواجب توفره لدى صاحب السيارة الحريص على أن تخدمه تلك السـيارة أطول مدة فى الامكان على أحسن وجه مستطاع

وفى الصفحات التالية ستطالع شيئا عن أعراض وعلامات الانتحار المزمن أو البطىء ، فركز الضــوء على نفسك واطلب منها أن تجيب عن هذا السؤال بصراحة :

ـ اترانى انتحر انتحارا بطيئا ؟



الجزء الثانى

الآفات الكبرى

- الأعصاب
- الحوادث
- المسكرات
- غدتك الدرقية
- البدانة

الأعصاب

ان من يحيا نصف حياة فكأنه نصف ميت

واذا دققنا النظر فى الناس وجـدنا مئات الآلاف منهم يقومون بأعمالهم اليومية المعتادة فى البيت أو فى المهنة أو فى المجتمع وكأن الحياة عملية آلية محض . فهم فى حقيقة الأمر مثل الدمى أو أصنام الألاعيب (أراجوز) لديهم القدرة على الابتسام والحركة والعبوس ، ولكنهم خالون من العاطفة ، فالحياة تحركهم كما يجذب صاحب الأراجوز خيوط الدمى ودورهم فى الحياة سلبى خالص

والعصابى ان هو الا دمية لا تتمرد ابدا على من يملك زمامها ، فهو عبد على كل حال ، وشعوره بالتعاسة دائم فى جميع الظروف ، لأنه محروم من تحقيق ذاته بعمل ايجابى ، ولا يتمرد أبدا على سلبيته ليقول مثلا :

ــ كلا . أريد أفعل هذا لا ذاك !

وليس معنى كلامنا المتقدم أن جميع العصابيين محرومون من الملكات الابداعية ، بل مرادنا أن نقرر أن معظمهم من هذا القبيل ، ولكن هــذا لا يمنع أبدا أن تكون هنــاك فئة من العصابيين لها أجزل الفضل وأعظم الأثر فى الحضارة البشرية بفنونها وعلومها وآدابها وشرائعها

فهؤلاء العصابيون دون غيرهم هم الذين وهبوا الانسانية ــ على حد قول مارسيل بروست ــ كل ما هو عظيم وجليل من روائع الفنون . ولكن لن يستطيع أبناء هذا العالم أن يدركوا تمام الادراك فداحة الثمن الذى أداه هؤلاء العباقرة

من أعصابهم وتعاستهم وعذابهم كى يهبوا الانسانية ذلك التراث العظيم . فنحن نستمع فى نشوة خارقة الى الموسيقى العظيمة ، ولا يجول بخاطرنا ما كلفته واضعها من دموع وأرق ونوبات ضحك عصبى وأزمات التنفس ، ونوبات الصرع والفزع .

وما أحرانا أن ندهش أعظم الدهشة لو أدركنا ما وراء المظهر الهادىء المتزن الذى يظهر به الكثيرون من حولنا ، من اختلال عصبى ووسواس مرضى فى نهايته القصوى

وأن اتعس انسان فى الحياة لهو ذلك الموسوس حرف باء ، فانه لا يهنأ له طعام ولا شراب ، ولا يعرف طعم الراحة لحظة واحدة من عشرات الاعراض الوهمية . فلا يغادر الواحد منهم فراشه كل صباح الا مرغما ، لأنه لا يتطلع الى شيء فى يومه الوليـد الا المنغصات والنكد . وهو يكره عمله الذى يقوم به ، وليس له اهتمام بأحد بعد أن قطع جميع صلاته بأصدقائه ، لأنه ليس لديه فضلة من الاهتمام والانشغال بغير نفسه . فهو يعيش فى جزيرة مقفرة فى قلب بيتـه وأسرته . والزوج والولد بعيدون عن قلبه وذهنه ، فكل ما يشغله هو أوجاعه وآلامه ووعكاته .

فمثل هذا الانسان تستطيع صادقا أن تقول عنه أنه يعيش نصف حياة ، أو أقل من النصف ، أى أنه نصف ميت ، أو أكثر من النصف . فتلك صورة واضحة من صور الانتحار أو قتل النفس بحرمان الحواس من الاستمتاع بكل ما تهيؤه الحياة لأبنائها من لذاذات .

● هيا بنا الليلة الى المسرح يا جون

ـ دعينى واذهبى ، فان قلبى قد عاد الى الشغب

● هيا بنا نزور آل فلان هذا العصر يا مارى

ـ لا أظن أننى أستطيع يا سام . فان معدتى تؤلمنى

فاذا كررنا هذه المحاورات القصيرة آلاف المرات فى كل مناسبة برزت أمامنا صورة تقريبية للحيــاة مع موسوس أو موسوسة حرف ياء

ويعتقد كثيرون من الاخصائيين أن هذه الحالات العصابية أشيع والصق ما تكون بالحياة الامريكية على الخصوص

وليست جميع حالات العصابيين ذات أعراض ظاهرة ، فقد تكون جالسا فى مطعم وتلمح رجلا أنيقا وسيما متزنا فتتساءل من عسى أن يكون هذا الشخص الوجيه . وربما يكون هذا الشخص الذى يبدو فى غاية الاتزان والهدوء من أتعس ما يمكن فى هذه اللحظة بالذات ، فهو يغالب نفسه ليقــاوم الدافع الذى يشعر به فى أعماقه لينهض ويندفع خارجا على الفور لغير سبب معين . فصوت السكاكين والأطباق والهمهمة الخفيفة الناشئة عن الحديث الخافت على الموائد كأنها مخالب وحش تمزق جذور أعصابه فلا يستطيع الصمود لهــا

وفى كثير من الأحيان ينجح هذا المجاهد فى ارغام نفسه على البقاء واتمام طعامه الفاخر من دون أن يشعر بمذاقه الحقيقى ، لأن حالته العصبية تدفع المرارة الى حلقه فيجد لمــا يأكل طعم القش المحترق . ولكن فى أحيان أخرى ينهض المسكين تاركا طعامه وهو خاوى المعدة ليخرج من همهمة المطعم الى ضجة الشارع ، فكأنه المستجير من الرمضاء بالنار

☐

هذه هى حياة أولئك الذين يعيشون فى الدنيــا نصف أموات ، وأكثرهم يتمنون لو كانوا أمواتا حقا وصدقا

وليس للذكاء دخل فى هـــذه الحالات ، ولا تأثير له فى محاولة التخفيف منها أو القضاء عليها . فانفعالاتهم العصبية

هى التى تتحكم وحدها فيهم فتفرى حياتهم فريا. ويغلب على هؤلاء أن تكون بذرة الذعر أو الخوف قد تسربت الى اللاشعور منهم فى وقت طفولتهم ، فنما لديهم وهم العداء ، أى انهم يتوهمون أن الدنيا جميعا تناصبهم العداوة ، فتتملكهم الحدة وهم يظنون انهم فى دفاع شرعى عن أنفسهم

وقد تتسرب بذرة الفزع والعداء الى نفوسهم عن طريق أب أحمق أو أم حمقاء أو جد أو جدة أصابهما الحزن . وقد تتسرب هذه البذرة أيضا نتيجة لموقف قاس فى مواقف الحياة يشعر الطفل بنضوب الرحمة من هذا العالم . فينطبع ذلك الأثر فى نفسية الطفل وينمو معه وينتهى بأن تصطبغ به جميع احساساته وتصرفاته

ومن يدرى ؟ فقد يكون هذا الرجل الوجيه الذى أعجبت به فى المطعم وهو يعانى تلك الحالة العصبية سليل أب سكير ، أو أم محرومة من الحب كانت تصب على وليدها حقدها على الحياة وتبرمها بها ، حتى تقطرت فى نفسيته عصارة القلق فأشربتها ، ثم أنبتت تلك العصارة نبات الصبار بمرور الزمن فأصبحت أشواكه لا تدع لهذا الرجل راحة ولا مستقرا

والواقع أننا جميعا نتيجة تفاعل الوراثة والتجربة ، فالكائن الانساني اشبه بالاسفنجة التى تمتص جميع الاحساسات . ولكنه يخالف الاسفنجة فى أنه لا يمكن تفريغه من هذه الاحساسات التى سبق أن امتصها بأى حال

فابن السبعين لو فتشت فى أعماقه لوجدتها أشبه بمقبرة القرية أو المدينة ، ولوجدت مدفونا تحت قبر منها ما كان يبدو أنه نسيه من تجارب اليوم الاول من أيام حياته . ولكن ذلك الدفين المنسى يمتاز بأنه ناشط فى عالم اللاشعور ، ويدفع بصاحبه الى اتجاهات معينة فى السلوك ويصبغ شعوره بلون معين . وهذا الاتجاه وذاك اللون لا يفهم لهما

الشخص سببا لأنهما ينبعان من اللاشعور . وقد يقاوم بعقله الواعى ايحاء اللاشعور . ومن هذه المقاومة وذلك الصراع تتحدد الحالة النفسية والعصبية للشخص : فالسعيد المحظوظ من يكون هذا الصراع لديه هادئا أقرب الى الهدنة والتحالف . والشقى المنكود من يكون هذا الصراع لديه ملحمة ثائرة مستمرة

فهل أنت شقى ؟ هل تشعر بفقدان التوازن دون أن تدرى لاستيائك وسخطك سببا ؟

ربما كنت اذن ممن يعيشون نصف حياة لأنك عصابى الى حد ما دون أن تدرى ، ولعلك فى هذه الحالة أن تكون فى حاجة ماسة الى عون الطبيب

□

ونحن الآن فى زمن يتجه فيه المحلل النفسى الى احتلال مكانه الحق . وأكمل طبيب فى يومنا هذا هو الطبيب الذى تعلم طب الأجسام ثم طب النفس ، لأنه قادر على أن يعالج الانسان باعتباره وحدة متكاملة ، لا مجموعة من الأعضاء المتفرقة المتناقضة والملكات المبعثرة

والطبيب الحديث مدرك الآن تمام الادراك أن السبعين فى المائة ممن يلجأون اليه مصابون فى قدراتهم النفسية أكثر مما هم مصابون بأمراض عضوية ، وليس ذلك داعيا للاستهانة بحالاتهم ، لأنهم فى الواقع أكثر آلاما من المرضى بأمراض عضوية . فالخوف من المرض أدعى لتنغيص الحياة من المرض نفسه أحيانا . والذى يتوهم انه مسلول قد يكون اشد عذابا من المسلول ، وهلم جرا

هؤلاء هم السبعون فى المائة : فزع ولا مرض ، ووهم ولا داء . فما شأن الثلاثين الباقين ؟

انهم مصابون فعلا بأمراض عضوية ، ولكنهم أيضا لا يخلون من الفزع والخوف . ولهذا لا نبالغ حين نقول انه قد آن الأوان للعناية بعلاج الفزع والخوف قبل العناية بعلاج الجوارح والأعضاء . فما من انسان يستطيع التمتع بقلبه السليم وهو يعتقد أن قلبه به عطب . فهو يخاف الحركة والرياضة ، ويخاف الطعام والسهر والشراب والاسفار والضحك والمرح . وماذا يبقى من متع الحياة بعد ذلك يخشى أن يحرم منه مريض بالقلب فعلا ؟

فما العلاج لهذه الحالة ؟

العلاج له طرفان ، أحدهما الطبيب والآخر المريض . فعلى المريض أن ينشد طبيبا حاذقا ، ويستحسن أن يكون نفسانيا بارعا يحل له العقدة التى تسبب له ذلك الاضطراب العصبى . وعلى الطبيب أن يشارك المريض بوجدانه ويفهم آلامه ، فان تلك الآلام بالنسبة له حقيقية ومروعة ، وليعلم الطبيب أن المريض اذا يئس من مخرج يريحه من تلك الأعراض التى يعتقد فى حقيقتها ، فانه كثيرا ما يقدم على الانتحار

وجدير بالذكر أننا جميعا عصابيون بالقوة ، أى أن لدينا استعدادا كامنا للاختلال العصبى ، وأصابتنا بذلك فعلا رهن بحلول المناسبة التى يمتحن بها توازننا

وهناك حالات من الاختلال العصبى لا تكون شاملة لجميع جوانب الحياة ، بل تكون منحصرة فى نقطة جزئية معينة

واذكر مثالا لذلك حالة سيدة فى التاسعة والأربعين لا ينقصها فى الحياة شيء من الأولاد أو الأحفاد أو الزوج الناجح والصحة الجيدة والحياة العائلية السعيدة ، حتى أنها تبدو فعلا أقل من سنها عشر سنوات على الأقل
فقد جاءتنى تشكو من أن نفسها تراودها بشدة كلما مشت فوق كوبرى أن تقفز الى الماء بملابسها ، فسألتها :

ـ هل انت سباحة ماهرة مغرمة بالماء ؟

ـ بل انني ارتعد خوفا من الماء ولم اجرب السباحة مطلقا

فهذه المرأة نموذج لقوة الفناء وهى تحاول التغلب على قوة البقاء فيها . ولا شك أن هذه الحالة الانتحارية ناتجة عن الاضطراب اللازم لانقطاع العادة الشهرية

وفعلا استطاعت بضع حبوب وهرمونات أن تنظم حالتها فى مدى شهرين ، فعاد اليها اتزانها وفارقها ذلك الشعور الغريب ، ولو أنها أهملت علاج نفسها ـ شأن الكثيرات من بنات جنسها ـ لقضت على جانب كبير من سعادتها وسعادة من حولها

□

وقد سئلت مرارا هذا السؤال :

ـ كيف تعرف أنك عصابى ؟

والواقع ان جواب هذا السؤال ليس من اليسر والسهولة بمكان . والغالب أن الطبيب هو الذى يستطيع تشخيص الحالة بالضبط . ومع هذا فان الشخص العادى يستطيع أن يشتم الحقيقة بغير معونة الطبيب حينما يشعر بأن كيانه العام ومزاجه ليسا على ما يرام لغير سبب ظاهر

وكثيرون جدا من الناس لا يولدون عصابيين ، بل يقضون طفولتهم ومراهقتهم وشبابهم فى حالة اتزان . حتى اذا ناهزوا الاربعين لاحظوا تدريجا أو فجأة ، وربما لاحظ أصدقاؤهم أيضا ، انهم قد تغيروا

فاذا حدث انك أصبحت شهورا متوالية فاتر الهمة ساهما ، بعد أن كنت ذا طبيعة فوارة ، فربما كنت مصابا بمرض من الامراض العصبية . وقد تكون الاصابة خفيفة

فتتلاشى من تلقاء نفسها بعد أسابيع أو شهور قليلة ، ولكنها قد تكون أيضا عنيفة بحيث تحرمك الاستمتاع بالحياة نهائيا مدة مرضك . فاذا كنت من مدمني القراءة ، وجدت القراءة وقد بغضت اليك فلا تطيق رؤية كتاب ، واذا كنت ممن يغشون المجتمعات والمجالس ، أقلعت عن ذلك وأصبحت منطويا على نفسك صموتا . فذلك كله دليل لا شك فيه على أن آفة ما تحول دون سعادتك . وربما يكون سبب ذلك خوف حدث لك فى مكان مظلم مثلا ثم نسيته ، أو ضيق بفصل بارد حدث لك فى زحام أو مجتمع ثم نسيته . وربما أيضا يكون سأمك من القراءة ناتجا عن سأمك من الحياة كلها . فعليك أن تحذر ، لأن ذلك السأم قد يكون علامة على ازدياد نفوذ قوة الفناء فيك

ويحتمل كثيرا ان يكون الفزع المسبب لهذه الحالات حادثا على أثر مرض أو وفاة أحد أعضاء الأسرة ، أو فقدان الوظيفة أو تزعزع مركزها ، فذلك يؤدى حتما الى الشعور بالنقص ، والى كراهة الحياة وعدم الاطمئنان اليها

ومهما كان السبب فان الطبيب قادر على مساعدتك وحل مشكلاتك النفسية . وكلنا نعلم أن الكثيرين يفضلون كتمان ما بأنفسهم عن ذويهم وأصدقائهم ، وذلك مما يجعل الحاجة الى معونة الطبيب أكبر واشد . لأن الاستمرار فى الكتمان يزيد الحالة العصبية استفحالا بمرور الايام

وانه لمن الحمق أن يعرض الانسان كل ما حصله وبناه من أسباب السعادة فى الحياة للضياع بالتسويف فى علاج حالته العصبية . لأن كل يوم يمر وهو بهذه الحالة فهو يعيشه نصف حياة ، أو هو فيه نصف ميت

فاسأل نفسك من حين الى حين هذا السؤال :

ــ هل أنا سعيد حقا ؟

واذا كان الجواب بالنفى ، فاسأل نفسك مرة أخرى :

ــ وماذا بى ؟ لست أشكو من مرض عضوى معين

والحل الوحيد فى هذه الحالة أن تعرض نفسك على طبيب يهتم بحالتك ، فاذا لم يجد لها حلا فلعله أن يستعين بطبيب نفسانى . والمهم على كل حال أن تبادر لوقف ثوران قوة الفناء التى بدأت تتغلب على قوة البقاء فيك

واعلم أن البيت الذى يضم عصابيا فى حالة متأخرة لا يبقى بيتا ، بل ينقلب جحيما لبقية أفراد الأسرة . أما بالنسبة للعصابى نفسه فان البيت يكون مجرد مكان يأوى اليه ، لا حلاوة فيه ولا سكينة للنفس ولا اطمئنان ولا حنان . وأن مثل هذا البيت لهو أحسن بيئة تنمو فيها جراثيم الانتحار بنوعيه : الحاسم والمزمن البطىء

فاذا وجدت فى نفسك تغيرا وسأما من الحياة وأعراضا عنها فاياك أن تتردد فى زيارة طبيب نفسانى . وانى أعلم أن الكثيرين ينظرون الى ذلك نظرة غير صحيحة ، فالطبيب النفسانى عندهم هو أول عتبة من عتبات المارستان . ولكن الزمن بدأ يتغير بحمد الله ، وأصبحنا نقترب بخطى واسعة من الوقت الذى يقول لك فيه الشخص :

ــ انى خارج توا من عيادة التحليل النفسى

باللهجة التى يقول بها لك أنه خارج من عند « الطرزى »

الحوادث

مات فى الولايات المتحـدة سـنة ١٩٤٨ نحو مائة ألف شخص نتيجة الحوادث المختلفة . ونصف هذا العـدد تقريبا يقتلون فى حوادث تقع داخل جدران البيوت الهادئة الآمنة ، والنصف الآخر يقتلون بحوادث المرور . بل لقد زادت فى تلك السنة الأرواح التى أزهقت بالحوادث المنزلية على الأرواح التى أزهقت فى الطريق العام بمقـدار ألف نفس . وانه لمن المثير حقا ، ومن المحزن أيضا ، أن يقضي على الانسان وهو يتحرك بسرعة تزيد على ستين ميـلا بالنسبة نفسها التى يقتل بها وهو جالس فى عقر داره

هذا هو عدد القتلى ، أما عدد الحوادث على العموم التى تقع بين جدران البيوت فى أمريكا كل سنة فيصـل الى خمسة ملايين حادث ، مما يدل على أن المسألة تستحق مزيدا من عنايتنا

ولم تكتشف حتى الآن رقية ناجعة تقينا من الحوادث بطريقة قاطعـة ، فكلنا معرضون لها ، ولكن ليس على السواء. فمن المؤكد ان فئة من الناس أكثر تعرضا للحوادث بسبب استعداد خاص فيهم

وليس أدل على صدق هذه الملاحظة التى تبدو غريبـة من دراسة العلاقة الغريبـة بين المعرضين للحوادث فى البيت والمعرضين لها فى الخارج . فهل هناك نسبة مثلا ممن تحدث لهم حوادث وهم يقودون السيارات تكون قد حدثت لهم من قبل حوادث فى بيـوتهم ، كأن تزل قدم

الواحد منهم فتلتوى أو تكسر وهو يعلق صورة من الصور على الحائط مثلا ؟

لقد بحثت هذه المسألة وثبت أنه يغلب أن يكون الرجل الذى يخترق اشارة المرور الحمراء المانعـــة كى يرتطم بسيارتك الجديدة كان قد كسر أصبع قدمه الكبير فى العام السابق وهو خارج من بانيو الحمام أو وهو يهبط السلالم. وثبت كذلك أنه من المرجح أن الشخص المتهور فى قيـادة السيارة الى درجة الجنون هو الشخص الذى يبحث فى المطبخ عن صنبور الغاز فى الظلام وفى يده عود ثقاب مشتعل فيتسبب فى اشعال الحريق

ولعلك ترفع حاجبيك دهشة ، ولكن ثق أن التهور فى الحركة له علاقة كبيرة بالتسبب فى وقوع الحوادث سواء فى البيت أم خارج البيت

ولنأخذ مثــلا رجلا مشهورا هو لورنس ــ الجاسوس الانجليزى المشهور فى بلاد العرب ومؤلف كتاب « أعمدة الحكمة السبعة » ــ فقد كان هذا الرجل محبا للمجازفة حتى قال عنه من يعرفونه أنه يسعى الى حتفه بظلفه ، وفى سنة ١٩٣٥ قتل نفسه وهو يقود دراجته البخارية فى حادث تصادم

فهل تسمى ذلك حادثا أم انتحارا ؟

قلما يقع حادث نتيجة تهور الا وهو مشفوع بتضخم قوة الهلاك فى نفس المتسبب فى ذلك الحادث

ولسنا نعنى بذلك أن الحوادث يمكن أن تمتنع امتناعا نهائيا ، بل نعنى أن واجبنا عمل كل ما فى وسعنا لمنع كل ما يمكن منعه منها

صحيح أن الطبيعة قد أوجدت منافذ كثيرة جدا تخرجنا من الحياة ، فلا مفر لنا ــ فى كثير من الأحيان ــ من أن نتحاشى أمراض القلب أو السرطان أو السكر ولكن كثيرا ما يكون بيدنا أن نمنع وقوع حوادث

ونستعير تشبيها من « منكن » اذ يقول :

ــ ان حياة الانسان فى هذا العالم تشبه حياة ذبابة فى حجرة كبيرة ، وفى هذه الحجرة مائة غلام ، فى يد كل غلام منهم مذبة يتصيد بها الذبابة

وهذا من شأنه أن يضاعف مسئوليتك عن الاجتهاد فى تحاشى الحوادث وبذل كل ما فى استطاعتك لتجنب الأخطار على العموم

والملاحظ من الاحصائيات المتواترة أن الذكور اشد عرضة للحوادث من الاناث . ويبلغ الفرق بين الجنسين فى هذا المصير غايته بين سن العشرين والرابعة والعشرين . ففى هذه السن تكون النسبة ستة ذكور يقتلون بسبب الحوادث الى أنثى واحدة . وتأخذ هذه النسبة فى النقصان حتى سن الخامسة والسبعين . ففى تلك السن يزيد عدد وفيات الاناث بسبب الحوادث على عدد الرجال

فبماذا نفسر هذه الظاهرة ؟

التفسير واضح اذا رجعنا الى مسلك الناس فى هذه السن . فالغلام والشاب أكثر حركة وأميل الى النشاط الأرعن من الفتاة والشابة . وكذلك فى سن الرجولة نجد الرجل أكثر اضطرارا الى الحركة بسبب عمله من المرأة . أما فى الشيخوخة فتنعكس الآية ، لأن المرأة العجوز أميل الى الحركة من الشيخ ، ولهذا تعوض تصيبها من الحوادث فى تلك السن

ويستحسن أن نورد هنا بعض القواعد العامة البسيطة التى أذاعها المجلس القومى للأمان تقليلا لنسبة الحوادث :

أولا : احتفظ بدولاب الأدوية فى المنزل بعيدا عن متناول أيدى الأطفال الصغار حتى سن الثانية عشرة

ثانيا : احذر أن تتناول شخصيا شيئا من دولاب الأدوية وتتعاطاه فى الظلام اعتمادا على الذاكرة دون قراءة البطاقة المكتوبة على الزجاجة أو الأنبوبة

ثالثا : احرص على اضاءة السلالم اضـــاءة جيدة فى الصعود والهبوط

رابعا : اذا قمت من نومك ليلا وتحركت فى المنزل لأى سبب فيجب أن تضىء الأنوار

خامسا : احذر من ترك لعب الأطفال مبعثرة على الارض

سادسا : احتفظ دائما بالأسلحة النارية فى مكان امين مقفل دائما بالمفتاح

سابعا : الزم الحذر فى دخول الحمام وعند الخروج منه

ثامنا : احذر من البحث عن صنبور الغاز وفى يدك نار مشتعلة سواء كانت ثقابا أو ولاعة

تاسعا : احذر من التدخين فى الفراش

عاشرا : لا تدر محرك سيارتك فى جراج مقفل

حادى عشر : اياك أن تمس أىزر كهربائى وأنتتستحم أو ويدك مبتلة على العموم

وهى كما ترى كلها وصايا بسيطة يسهل العمل بها كل السهولة . ومع هذا فمن الثابت أن مخالفة هذه الوصايا بالذات هى التى ينجم عنها معظم الحوادث القاضية التى كان من الممكن تلافيها تماما لأنها ناجمة عن أعمال ارادية ولا تحدث قضاء وقدرا

والواقع أن أول واجباتك نحو تجنب الحوادث أن تبدأ بشىء مهم جدا ، ألا وهو معرفة نفسك ودراستها دراسة دقيقة خالية من التحيز

فاذا كنت مثلا شخصا حدثت له فى الماضى حوادث صغيرة متعـــددة ، فمن المتــوقع أن يحــدث لك فى المستقبل حادث خطير ، ولهذا يجب عليك أن تغير طريقة ســلوكك وحركتك . وربما احتجت فى هذا الصدد لفحص أعصابك وحالتك النفسية ، لأنها قد تكون سبب سلوكك العام ، ذلك السلوك الذى يهــدد حياتك بالخطر ، فالأشــخاص الذين يعانون من القلق الداخلى وعدم الاطمئنان والشقاء المجهول الأسباب أو المعروف الأسباب على السواء ، حريون أن يكون ذهنهم مشتتا أثناء الحركة والعمل ، وأن يكون لديهم ميل لاشعورى الى الاستهتار بالحياة وعدم الحرص عليها .

وقد أجريت فى مدرسة الطب التابعــــة لجامعة غرب أونتاريو بأمريكا دراسة على مائة وستة وثلاثين سائقا من المعرضين للحوادث بكثرة ، وقورنت سجلات حوادثهم بمائة من السائقين الذين لم تحــدث لهم أى حوادث . فكانت النتيجة هذا القرار :

ـ اذا كانت حياة السائق الخاصة متصفة بالتســامح والهدوء والحذر وبعــــد النظر واحترام الآخرين ورعاية مصالحهم وشعورهم ، فان هذا السائق تتصف قيــادته لسيارته بهذه الصفات . أما اذا كانت حياته الشخصية خالية من هذه الصفات فان قيادته للسيارة تتصف بطابع العدوان الظاهر والخشونة وستظل نسبة الحوادث لديه أعلى بكثير من نسبة الحوادث لدى الشخص المتزن المتمتع بحياة خاصة سعيدة أو هادئة . وثبت أيضا أن معظم السائقين المتهورين ينبتون فى أسر متصفة بعدم الاستقرار أو الشذوذ ويغلب على هؤلاء السائقين أن يكون لهم ماض حافل بالمشاكل سواء فى المدرسة أو فى محاكم الأحداث

فاذا كنت من المعرضين للحوادث الصغيرة فيجب أن

تفحص نفسك جيداً ، ويحسن أن تلجأ الى اخصائى فى الأمراض النفسية ، والا فهناك احتمال كبير لوقوع حادث خطير لك يسبب لك عاهة مستديمة. ولا تظنن أنه لا يمكن تخفيض الحوادث بنسبة كبيرة ، فقد اتبعت خطة علمية فى بعض الأوساط أدت الى خفض الحوادث فيها بنسبة تتراوح بين خمس وعشرين وخمسين فى المائة

واذا رجعنا الى تقرير الجمعية الامريكية الطبية لوجدنا أن ثمانين فى المائة من الحوادث التى تقع للاطفال ناتجة بالأكثر من اهمال البالغين

▭

ونجمل القول بعد هذا فنقول انك يجب أن تجتهد باستمرار فى ألا تتورط فى موقف قد تنجم عنه الحوادث. وليس ذلك سهلا ، ولكنه مع العناية والانتباه ممكن

والانسان مكتوب عليه القضاء والقدر ، وأن يتعرض لحوادث لا دخل له فيها وقد لا يستطيع منعها . ولا يمكن أن توجد وسيلة للقضاء على الحوادث . فما من مرض من الأمراض كالجدرى أو السرطان الا ومن المحتمل أن يتمكن الانسان من القضاء عليه نهائيا . أما الحوادث فلا فان من مستلزمات الحياة الحركة ، وما دامت هناك قوى متحركة فان هذه القوى معرضة على الدوام لحوادث الارتطام والوفاة

ولكن اذا لم يكن فى مقدورنا منع الحوادث نهائيا ، فلنجتهد على الأقل فى التقليل منها الى أقصى حد ممكن

وترجمة ذلك بلغة قيادة السيارات :

ــ استعمل الفرامل ، وتجنب الانتحار البطىء ، أو السريع ، بالتسابق أو التهور الطائش

المسكرات

يقول الدكتور ابراهام مايرسون :

ــ ثلاثة يجب أن تتوافر بالضرورة كى يمكن علاج مدمن المسكرات : أولا رغبة المدمن فى العلاج ، وثانيا رغبته فى الشفاء ، وثالثا تصميمه على التعاون مع الطبيب

وللمسكرات أهميتها بوصفها آفة من كبرى آفات العصر . فنصف البالغين فى أمريكا لهم خبرة بالمسكرات كثيرة أو قليلة . فالاحصاء يدل على أن خمسين مليونا من الامريكيين ذكورا واناثا يتعاطون المسكرات فى المناسبات الاجتماعية . وأن ثلاثة ملايين من الجنسين يفرطون فى الشراب . وأن ثلاثة أرباع المليون من الجنسين يعانون من الادمان

والمفرطون فى احتساء الخمر والمدمنون لها هما الفريقان اللذان ينصرف اليهما نصح الدكتور ابراهام مايرسون الذى أوردناه آنفا

أما تناول الخمر باعتدال فى المناسبات الاجتماعية فلا ضرر منه . كذلك اذا كنت من الذين يميلون الى احتساء رشفة من الخمر كل ليلة قبل تناول العشاء ، فلا حاجة بك الى التخوف من تليف الكبد . واذا كنت قد تجاوزت منتصف العمر فقد يجدى عليك أن تتناول أوقية أو أوقيتين من الخمر فى كل يوم . ولكن اذا كنت تعتقد أن الخمر دواء ناجع عند الاصابة بالبرد أو الصدمات العصبية أو لدغة الثعبان ، فقد وهمت . وشرب اللبن قد يكون

أعظم جدوى من شرب كأس من الخمر فى تلك الأحوال

وان تعاطى أوقية أو أوقيتين يوميا على الأكثر نافع فى المجتمعات لأنه يزيل الوجوم ويساعد على خفة الروح وحسن الصحبة ولين المعاشرة ، كما أنه يزيد الشهية للطعام ويساعد على التلذذ به ، ويجعل النوم أعمق وأهدأ . فهذه الكأس الهينة تقطع حبل التوتر العصبى الذى يربط المرء بهمومه وعمله كما تقطع السكين الحادة حبلا غليظا . فكأن تلك الكأس تطلق سراح الانسان من الهموم ومشاغل العمل . وذلك شيء نافع جدا ولازم كل اللزوم لصحة الانسان النفسية والعصبية والجسدية

والمشاهد فى الغالب أن الرجل يعود الى بيته بعد عمل النهار الطويل المجهد فيجلس الى مائدة العشاء وهو يحمل نفسه على الأكل حملا . أما الزوجة فانها تكون أيضا قد اجهدت كل الاجهاد بالعمل فى البيت ، واللف فى الأسواق للشراء أو للفرجة على واجهات المتاجر ، وفى القيام بالزيارات أو تلقيها ، وفى مواجهة مشاكل التموين والميزانية ، فتجلس معه الى المائدة وهي فى مثل حاله ، أبعد ما تكون عن التمتع بوجبة المساء

وقد عالجت مئات من هذه الحالات وجاءتنى اعترافات بعد ذلك بتغير وجه الحياة فى البيت تغيرا كليا . وكان العلاج عبارة عن كأس من «الشرى» أو «المارتينى» قبل العشاء ، فاذا بالحياة العائلية التى تبدأ دائما بعد السادسة مساء (وهو موعد عودة الرجل من عمله الى البيت) وقد تغيرت تغيرا تاما فأصبحت القابلية عند الطرفين للتفاهم والتآلف والمرح والاستمتاع بالحياة أعظم كثيرا من ذى قبل ، فلا تتضخم المشاكل الهينة فى نظرهما ، ولا يحدث الاحتكاك والشجار لأقل سبب أو لغير سبب

فعندى من الدواعى ما يؤيدنى حين أقول أن من

لا يتناولون كأسا قبل العشاء لا يعرفون طعم الحياة بمعنى الكلمة

ولا يذهبن بك الظن الى أن هذه الكأس تجر الى ثانية وثالثة وتنتهى بالادمان كما يزعم المبشرون . فقد علمتنى التجربة العملية أكثر من عشرين سنة أن هؤلاء الذين وجهتهم هذه الوجهة ـ وهم مئات ومئات ـ لم يخرج منهم مدمن واحد . فالمشاهد بالاحصاء والتجربة الواقعية أن المدمنين لا يندفعون فى الشراب متأخرين ، بل يبدأون الادمان فى سن مبكرة من شبابهم ، بل وأحيانا منذ سن المراهقة

□

والآن ننتقل الى الادمان . فمن هو المدمن ؟

انه شخص يشرب الخمر كثيرا جدا وبكميات كبيرة بحيث لا يستطيع القيام بما عليه من واجبات والتزامات ولا يمكنه أداء عمله كما ينبغى وبحيث تتأثر صحته بالشراب

فكيف يصل المدمن الى هذه الدرجة من الانحدار ؟ وما الذى يشعل فى دخيلة نفسه الفتيل لألغام قوة الهلاك أو الانتحار البطىء ؟

لقد أصبحنا فى زمن لا ينظر فيه الى المخمورين نظرة الازدراء القديمة ، لأن عقليتنا اليوم لا تسمح لنا بتلك الغلظة والعماية فى معاملة التعساء . فمنذ أعوام مثلا كان المصاب باختلال فى قواه العقلية يقيد بالسلاسل والحبال ويعامل معاملة المنبوذ من الهيئة الاجتماعية ، ولا ينال أدنى قسط من العطف على مصيبته التى نزلت به . والى عهد قريب كان مدمنو الخمر يعاملون هذه المعاملة نفسها على وجه

التقريب ، فاذا وقع واحد منهم فى يد رجال البوليس وضموه بملابسه تحت الدش البارد ، ثم راحوا يفيقونه بالصفع والركل ، وكان قضاة محاكم البوليس يحكمون عليهم بالحبس شأنهم شأن المجرمين . وذلك بطبيعة الحال مسلك فيه من الحكمة والحصافة مثل ما فى الحكم بالسجن على مريض بالالتهاب الرئوى من هاتين الصفتين ، ذلك أن ادمان الخمر مرض مثل الالتهاب الرئوى سواء بسواء

أما الآن فقد وصلنا من الرقى الى درجة أدركنا فيها أن المدمن مصاب مجنى عليه بحاجة الى المعونة والعناية بقدر الامكان . فالمدمن شخص يلازمه الشعور بالضياع وعدم الاطمئنان والخيبة والتعاسة الطاغية . وهذا الشعور الذى يلازمه هو هو الذى يجعل يده تمتد بطريقة آلية نحو زجاجة الشراب

وذلك الادمان هو بعينه الانتحار البطىء . بل انه انتحار بطىء وعاجل فى نفس الوقت . وليس فى ذلك أى تناقض : فهو انتحار بطىء لأنه يقتل أجهزة الجسم ويعجل بالنهاية . وهو انتحار عاجل لأنه يعزل السكير عن الشعور بعالم الواقع ، فكأنه ميت بالنسبة لذلك العالم

فليس ما فى الزجاجة هو الذى يتعلق به المدمن . كلا بل نسيان الواقع والغيبوبة عنه والهرب من الاحساس به . والدليل على ذلك واضح جدا وقاطع جدا : فانه فى اللحظة التى يدرك فيها المدمن أن الخمر لم تعد تؤثر فيه التأثير المطلوب أى لم تعد تغيره عن واقع الحياة ، فانه يقدم فى هذه اللحظة على الانتحار الحقيقى ، فيشنق نفسه أو يلقى بنفسه تحت عجلات القطار

ويدل الاحصاء على أن خمسة فى المائة على الأقل من بين الذين يقدمون على الانتحار من مدمنى الشراب

ولا مناص من القول بأن الادمان دافع من دوافع الفناء الداخلية . فالباعث الأول للسكير على سكب الخمر فى حلقه هو الرغبة فى افناء جسده فلا يشعر به ، لأن ذلك الجسد لا اهمية لوجوده فى نظره بازاء انفعالاته العنيفة ومشاكله العاطفية ، وبازاء عجزه عن تحقيق التوازن بينه وبين ظروفه الواقعية

والمفرط فى الشراب هو الذى يتناول ستة أو سبعة كؤوس فى سهرة مرحة مرتين أو ثلاث مرات كل أسبوع ، وربما شرب ثلاثة أكواب أو أربعة من البيرة كل يوم ، وثلاثة أو أربعة أوقيات من الويسكى كل ليلة بعد الانتهاء من العمل ، وربما رشف كوكتيلا أو اثنين على العشاء . وقد يحمل الى البيت مترنحا أو مستلقيا مرة كل بضعة أشهر

هذا هو المفرط فى الشراب الذى لم يصل بعد الى حد الادمان . وهو مع هذا قادر على العمل ، وله بين أصحابه شهرة بالمرح وطيب العشر . ومعظم هؤلاء المفرطين فى احتساء الخمر لا ينحدرون الى الادمان . ولكن لا عاصم لهم من الانحدار على كل حال ، لأن الحد الفاصل بين الطبقتين رقيق جدا

فخير ما يصنعه المفرط فى تعاطى الخمر كى يضمن الوقاية من الادمان ، أن ينتقل من الافراط الى الاعتدال ، فيبتعد عن حد الادمان بعدا كافيا

ومن السهل طبعا على من يتعاطى ثمانية كؤوس من الكوكتيل فى السهرة المرحة كل يومين أو ثلاثة ، أن يجعلها ثلاثة كؤوس . وسهل كذلك على من يشرب أربعة شوبات من البيرة كل يوم أن يجعلها شوبا واحدا . وأما من يشرب أربعة كؤوس من الويسكى قبل النوم فماذا عليه أن يجعلها كأسا واحدة ؟ ان ذلك كله أسهل طبعا من أن

تحاول حمل نفسك على الاعتدال بعد أن تكون قد انحدرت الى هاوية الادمان

□

ومن الثابت أن جميع الامراض يسهل علاجها بمقدار التبكير فى ذلك بحيث لا يتجاوز المرض مرحلته الاولى . ولا يخرج احتساء الخمر عن كونه مرضا كسائر الامراض. أما اذا استفحل المرض فالتغلب عليه يصبح أشق ، لأنه يكون قد سيطر على جهاز المدمن العصبى

ولكن لا داعى لليأس من حالة من انحطوا الى هاوية الادمان . فمنذ سنوات كان انقاذهم من دائهم أصعب بكثير من انقاذ مصاب بالسرطان فى مرحلته الأخيرة . أما الآن فان ذلك الانقاذ يتم رغم صعوبته وندرة عدده

لماذا ؟

لأننا الآن لا ننظر الى المدمن نظرة مريض بأعضائه فنطلب منه المقاومة اعتمادا على قوة ارادته فحسب . وذلك أن الطب النفسانى كشف لنا عن حقيقة المدمن ، وكيف أن الادمان عرض ونتيجة وليس هو موطن الداء . فالمدمن انسان منكوب فى وجدانه ، يشعر بالحرمان من العطف والاهتمام والتقدير ، فاذا أزلنا عنه الشعور بالخيبة وسقوط الاعتبار والاهمال ممن حوله ، كان هناك أمل كبير فى زوال الادمان بزوال أسبابه

ان المدمن يريد أن ينسى الواقع لأنه مؤلم ألما لا يطيق احتماله . فاذا نزعنا عن الواقع أسباب الألم ، واستطعنا أن نجعله مأنوسا لطيفا يطمئن اليه ، فلماذا اذن يهرب منه ويجتهد أن ينساه ؟

فالوسيلة الى انقاذ أى مدمن من ادمانه ، هى انقاذه من نفسه ومن وجدانه

وكيف يمكن ذلك ؟

بأن يستدرجه الاخصائى النفسانى حتى يعرف عقدته الدفينة وسبب كراهيته للحياة ، ذلك السبب الذى يدفعه الى قتل نفسه بتغليب قوة الفناء فى أعماقه على قوة البقاء . ومتى تم التشخيص على هذا النحو أمكن العلاج ، وسهل على المصاب أن يجند ارادته للتعاون مع الاخصائى فى انقاذ نفسه من الهاوية التى تردى فيها بارادته



غدتك الدرقية

لتفرض انك بصدد شراء سيارة جديدة ، وقد أعجبتك السيارة فعلا ، وفيما انت تهم بامضاء توقيعك على العقد ، قال لك البائع :

ـ لهذه السيارة « حاكم » لايسمح لك بزيادة السرعة على ٣٥ ميلا فى الساعة بأى حال من الأحوال

فالغالب انك تطرح القلم من يدك ، وتنفضها من الصفقة فان السيارة تفقد جمالها متى كانت آلاتها البديعة مقيدة غير مطلقة القدرة على الانطلاق فى اى وقت تشاء

فاعلم اذن أن كثيرين جدا ممن حولك من الناس أشبه بتلك السيارة المقيدة السرعة التى رفضت اتمام شرائها بعد أن أعجبك كل شيء فيها . وهذا الحاكم الذى يقيد محركات اجسامهم البديعة التكوين والاستعداد هو « الغدة الدرقية» فهذه الغدة لدى الكثيرين تفرض على عقولهم وأجسامهم القوية ألا تعمل الا فى نطاق معين ، وبسرعة محدودة جدا

وفريق آخر من الناس غدتهم الدرقية حاكم أستخفته نشوة السلطان ، فهى تلهب أجهزة الجسم بالسياط كى تعمل بسرعة فائقة جدا تتجاوز المعقول

وكلتا هاتين الغدتين المتطرفتين معيبة مختلة . وصاحب هذه كصاحب تلك يقتل نفسه قتلا جزئيا وبغير مبرر ، لأن العلم الحديث قد اكتشف دواء سهلا جدا للافراط وللتراخى فى نشاط الغدة الدرقية

والمريض الذى أصيبت غدته الدرقية بالكسل والتراخى

لايستطيع أن يتعدى نصف او ربع طاقته العادية ، لأن سما بطيئا يسرى فى جسمه باستمرار فيسبب له الاعياء والاجهاد بغير مبرر ، وبحيث لا تنفع فيهما الراحة

والواقع ان هذا المسكين يجر قدميه جرا فى كل خطوة ، ويدفع نفسه دفعا لاتمام اى عمل بكل مشقة وضعف همة. بل انه لايمارس اللهو او الملذات العادية الا على مضض وبجهد شديد ، ولا تسمع منه وسط المرح سوى انين الشكوى :

— يا الهى ! كم انا متعب ومجهد !

ولكنه لا يعرف ماذا يصنع كى يشعر بالراحة ..

وربما عزا ذلك الاجهاد المستمر الى ضغط العمل ، أو عدم كفاية ساعات نومه . ولكنك لو سألته :

— وهل كنت تشعر بهذا الشعور طول حياتك ؟

أجابك بغير تردد :

— نعم . واحسبنى من ذلك النفر الذين يولدون متعبين فعلا ، ويظلون كذلك حتى النهاية

وأضرب مثلا لمرضى هـذا النوع بشخص ليكن اسمه «بيل» . وقد أفلح « بيل » فى انشاء مؤسسة كبيرة ناجحة على الرغم من الشعور الطاغى بالتعب ، فقد ظل يكافح ذلك التعب بكل قوته ، الى أن نفدت حيلته أخيرا ، وصار يقوم من النوم مجهدا محطم الاعصاب بعد نعاس ثمانى ساعات ، وكأنه قد فرغ لتوه من عمل مرهق دام عشر ساعات متوالية

واستولى الفزع على « بيل » من حالته فلم يجد بدا من عرض نفسه على طبيب ، واقترح الطبيب اجراء فحص لقياس التغير القاعدى (ميتابوليزم) ، وتم الفحص فاسفر عن نقص مقداره ٢٢ درجة . فلما رأى الطبيب تلك النتيجة تهلل وجهه بشرا لذلك التشخيص الصائب وقال لبيل :

ـ ان بغدتك الدرقية كسلا ، وهذا هو سبب شعورك المستمر بالاعياء والارهاق . فنحن جميعا لا نستطيع أن نتعدى الحدود التى ترسمها لنا غدتنا الدرقية

ـ وما العلاج يا دكتور ؟

ـ العلاج بسيط جدا : بضع حبوب صغيرة من خلاصة الغدة الدرقية كل يوم

ـ وهل يطول أمد العلاج يا دكتور ؟

ـ شهرا أو نحو ذلك ..

ـ وهل استرد بعد تلك المدة النشاط العادى ؟

ـ طبعا . فانك بعد ذلك ستشعر كأنك غلام ذاهب الى حفلة ساهرة سمح له بحضورها

وهذا ما حدث للسيد بيل فعلا ، فانه بعد شهر من تعاطى حبوب الغدة الدرقية يوميا شعر بفيض من النشاط الزاخر لم يكن ليستطيع استنفاده ولواشتغل أربعا وعشرين ساعة فى كل يوم . وصار يحس بدفعات من الحياة العميقة ، والتذاذ بالحياة سواء فى العمل أو فى اللهو ، وهو ما لم يكن يحس به من قبل

والواقع انه كان قبل علاجه موجودا فقط ، لا انسانا حيا كامل الحيوية . فكان يعيش نصف حياة ، لأن غدته الدرقية كانت تغذيه بنصف مادة النشاط العادى فقط

فالمريض بنقص نشاط الغدة الدرقية انسان خائر وحسود . فهو ينظر الى من حوله ممن يعملون ويلهون ويمرحون دون كلل نظرة الحسد ، وقد عرفت مئات من هؤلاء ، فلما عولجوا بعد شهر واحد اعترفوا لى أن الحياة بدأت لديهم الآن فقط

وفحص التغير الكيماوى القاعدى للشخص عملية بسيطة جدا يمكن اجراؤها بغير غضاضة أو مضايقة للشخص ،

وينبغى أن ينصح الطبيب بذلك الاختبار بصفة « روتين » ، فان نقص الغدة الدرقية يمكن أن يستمر سنوات وسنوات دون أن يفطن اليه أحد ، لأن الاختبار لم يتم ، على بساطته وسهولته

فاذا شعرت بالارهاق وتوتر الاعصاب والاعياء ، وانك لا تتحسن تحسنا ملحوظا بالراحة ، فاستشر الطبيب وألح عليه فى عمل اختبار لتغيرك الكيماوى القاعدى ، لأن غدتك الدرقية يحتمل كثيرا أن تكون مكسالا

واذا نقص وزنك ، واضطربت أناملك ، وشردت نظراتك مع زيادة التحديق ، مع وجع فى الرجلين ، وتعب عند صعود السلالم ، ومعاودة الاسهال العابر لك فى الحين بعد الحين ، فاطلب اجراء اختبار لتغيرك الكيماوى القاعدى ، لأن غدتك الدرقية قد تكون أنشط مما يجب

فاذا كان ذلك كذلك ، فعلاجك ممكن بالدواء ، أو بعملية جراحية ، فلا تتهاون وتدع غدتك الدرقية الرعناء تحرقك وتشويك بعصارات جسدك التى تزيد بأمر تلك الغدة عن الحد المطلوب . وكلما بكرت فى علاجها كان ذلك أنجع فى الزام جوارحك النشاط الطبيعى

واحب أن أنبه هنا الى التباس بسيط : فليس كل من يسفر الاختبار عن هبوط فى تغيراته الكيماوية القاعدية مصابا بكسل فى الغدة الدرقية ، فقد يكون تكوين الشخص هكذا

فكيف نميز بين من هبوط اتزانه نتيجة كسل غدته الدرقية وبين من هبوط اتزانه غير راجع الى هذه الغدة ؟

لا سبيل الى التمييز الا عن طريق الصواب والخطأ . فعلينا أن نعالج الغدة الدرقية اعتباطا ، فاذا لم يسفر علاجها عن تغير فى نتيجة اختبار تال كانت الغدة الدرقية

غير مسئولة عن هبوط اتزانهم القاعدى

وقد عرفت سيدات كثيرات يشعرن بهبوط فى القوة ، وجفاف فى الجلد ، وبهت فى لون الشعر يفقده بريقه ، مع توعك المزاج وعدم الطموح الى شيء من اللذة ، وعجز عن الحمل .. فلما عالجتهن أسابيع قليلة بحبوب خلاصة الغدة الدرقية نشطن ، وعادت الى بشرتهن النضرة والطراوة، ولمع شعرهن ، واعتدل مزاجهن ، وتيقظت رغائبهن ، وامتلأت أحشاؤهن بالاجنة فلم تعد تسعهن الدنيا من فرط السرور !..

وأحيانا لا تقل حاجة الشخص عن ثلاث حبات أو أربع من خلاصة الغدة الدرقية يتعاطاها يوميا مدة سنوات تحت رعاية الطبيب . وفى أحيان أخرى ــ حين تكون نتيجة الاختبار « ناقص عشرين » عن المعدل الطبيعي ــ لا تتجاوز مدة العلاج شهورا قليلة . ولكن من هؤلاء من لاتتغير حالتهم رغم العلاج ، فلا مناص من اعتبار غدتهم الدرقية بريئة مما يشعرون به من الاعياء والسأم

بيد أن ذلك لايخليهم من المسئولية عن أنفسهم ، فلا بد من استنفاد حيلة الطب أولا ، لأنه اذا نجح فى علاجهم كان نجاحه بالغا غاية المدى ، والتسويف أو التقاعد عن فتح الباب للعلاج الطبي كى يصل اليهم هو بمثابة انتحار بطيء ، أو تغليب لقوة الفناء على قوة البقاء .. لأنه أشبه بمنع الاوكسيجين عن شمعة تكاد تنطفيء لافتقارها اليه

وأذكر بهذه المناسبة حالة مريض عالجته منذ مدة قصيرة وكان بدينا ، ثقيل الجفون ، بطيء النطق ، فى نحو الخامسة والثلاثين من عمره ، انقضت على زواجه سبع سنين . وكان متبرما بحياته الزوجية لأن الزواج لم يثمر خلفا صالحا تقر به عيناه . وقد جرته زوجته الى عيادتى جرا ، فجاء ارضاء لها ، ورضوخا لمعنى العدل ، لأنها كانت قد

عرضت نفسها على الأطباء فأفتوا باجماع بأنها ليس لديها ما يحول دون الحمل ، فصار من المحتمل جدا أن يكون هو السبب فى ذلك العقم . وتحت تأثير هذه الفكرة أطاعها فى الحضور ، لعل عندى علاجا يثمر طفلا طالما اشتهاه

وراح يسرد على تاريخه الصحى بصوت خافت وعبارات بطيئة متخاذلة . والحق ان ذلك التاريخ كان شائقا : فقد كان صاحبنا على الدوام فى مؤخرة الفصل عند اعلان نتيجة اى امتحان . وكانت الواجبات المدرسية التى يكلف بعملها فى البيت كأنها الكابوس الجاثم على صدره ، حتى فقد الثقة بنفسه ، واستولت عليه المهانة والكآبة . أما حصص المحفوظات فكان معناها عند هذا المسكين ساعات من العذاب ، يجلس فيها متصلبا كأنه لوح من الخشب ، يتصبب جسمه البدين بكميات هائلة من العرق البارد ، الذى لايجرؤ لتصلبه على مسحه ! ويقطع الوقت بالادعية الصامتة أن يعمى الله المعلم عن اسمه كى يتخطاه

واذا صادف أن سلخ الليل فى استظهار الدرس ، ثم سأله المعلم سؤالا سهلا يعرف الاجابة عليه بالتأكيد ، فان الشلل يصيبه فيعجز ذهنه عن استحضار الجواب ، ويعجز لسانه عن النطق

فلا عجب اذن أن يكون تقرير الاساتذة عنه انه فتى تتوافر لديه النية للفلاح ، ولكن لا أمل فى فلاحه !

وهكذا اضطر لترك المدرسة وهو فى السنة الاولى الثانوية وكان والداه على يسار كاف ، وكانت لديهما آمال كبار فى تعليمه تعليما عاليا ، كى يسند اليه عمل هام فى مؤسسة والده ، فشعرا بخيبة الأمل فى ملكاته العقلية ولكن لم يخامرهما الشك أن تكون طاقته الجسدية هى السبب فى ذلك

واشتغل فى مؤسسة أبيه عاما ، اضطر بعده الى ترك

العمل ، كى يتجنب نظرات « خيبة الرجاء » التى لا يستطيع والده المرزوء ان يكتمها كلما التقى به أو عرض عليه عملا من أعماله كل يوم ، وذلك أشد مما يطيق احتماله

وراح يتنقل من عمل الى عمل على غير جدوى ، الى ان استقر فى وظيفة كتابية منزوية فى منظمة كبيرة تكفل له الستر من انتقاد الرؤساء . وهى وظيفة لا تحتاج الى اعمال الذهن ، أو نشاط المخيلة ، أو اى نشاط أو قدرة تفوق العادة . فما عليه الا أن يضغط على زر الآلة الحاسبة فتخرج له حاصل الضرب أو الجمع أو القسمة أو الطرح ، وكفى الله صاحبنا شر التفكير

وقد أسفر الفحص الذى أجريته عليه عما يأتى :

أولا : زيادة ظاهرة فى الوزن تفوق المطلوب بكثير

ثانيا : جفاف شديد فى الجلد

ثالثا : بطء شديد فى الحركة البدنية

رابعا : بطء فى الاستجابة للأسئلة ، اى بطء فى الفهم واستحضار الذكريات

خامسا : ثقل الجفون وبطء النبض وانخفاض الضغط

سادسا : سريع التهيج عصبيا

سابعا : ثقيل النوم بعد الظهر مع أرق بالليل

ثامنا : اعياء شديد فى المساء يمنعه غالبا من الاكل

تاسعا : اعياء شديد فى الصباح عند اليقظة كأنه لم ينم بعد ، ولولا الجهد الشديد للبس والخروج لظل فى الفراش

ومع توافر كل هذه الاعراض والعلامات ، فقد صمم الرجل على انه ليس مريضا ، وان كل ما يريده هو الحصول على طفل من صلبه .. فوافقته طبعا على انه ليس مصابا بمرض فى القلب ، ولا بالسل أو السكر أو ما الى ذلك ، ثم أردفت قائلا :

ـ ولكنك مع هذا مريض . ولست تدرى أنك مريض لأنك لم تعرف يوما طعم الصحة ولم تجربها

ثم اجريت له فحص التغير الكيماوى القاعدى ، فأسفر الاختبار عن « ناقص ٢٨ » .

وبعدئذ كان كل شيء سهلا ، فلم يحتج الا لستة أشهر من العلاج بخلاصة الغدة الدرقية ، فاذا هذا الكهل يعود الى الشباب ، فنقص وزنه ، وقل نومه ، وفارقه الشعور بالارهاق ، وظهرت عليه مخائل النجابة والذكاء ، وفارقته العصبية وسرعة الغضب

وتدل جميع الدلائل على ان هذا « الشاب الرشيق » سيكون عما قريب أبا نجيبا قرير العين بنسله الصالح !

ولا تظنن أن جميع المصابين بنقص فى افراز الغدة الدرقية اغبياء ، فمنهم نفر فى غاية الذكاء والالمعية الذهنية ، ولكنهم يشعرون دائما بتعب جسمانى وهبوط فى القوة البدنية لا مبرر له . ومنهم أيضا نفر أغبياء عقليا ، وأجسامهم فى غاية الصحة ولا يشعرون بالتعب البدنى اطلاقا . وفى هاتين الحالتين لايمكن حتى لأقرب المقربين أن يدرك حقيقة الحالة ولا يجد المريض من يدفع به الى زيارة الطبيب ، تلك الزيارة التى قد تجعله يحيا حياة جديدة تماما

وانى أنصح كل شخص على العموم ـ بدينا كان أو نحيفا ، وسواء كان غبيا أم ذكيا ، نشيطا أم مجهدا ـ أن يختبر غدته الدرقية ليتأكد من سلامة وظيفتها

البدانة

البدانة مرض

حقيقة يجب ان ترسخ فى ذهن كل انسان . فليس من الطبيعي مطلقا ان يكتنز الجسم شحما يزيد على ما يحتاج اليه للقيام بوظائفه الضرورية . ومع هذا فلست أعرف داء يتعرض له بنو الانسان ولا يكترثون له مثل داء البدانة

والراى عندى انه ما من باب من أبواب الهلاك والانتحار البطيء يبتلى به الناس مثل البدانة . وانه لمن حسن الحظ ان تشخيص هذا الداء سهل ظاهر ، وليس علة خافيـة لا يخطر ببالك وجودها ما لم يكتشفها الطبيب . فمجرد نظرك الى نفسك فى المرآة الكبيرة التى تبين صورتك كاملة ، أو فحص الفلول والحزوز التى تتبدى فى حزام البنطلون من حين الى حين ، أو انسجام ملابسك ، أو ملاحظات أصدقائك كل ذلك أو بعضه كاف جدا كى يوضح لك ، هل لا زلت الفتى الرشيق المعهود ، أو ان البدانة قد امتد سلطانها اليك من دون أن تدرى ...

واني انصحك اذا لاحظت ضيقا فى ملابسك ، أو فلولا فى حزامك ، أو تغيرا فى رسمك العام ، الا تعزو ذلك الى نشاط غددك ، وأن تعتبر نفسك المسئول وحدك عن هذا الخطأ

ولك أن تسمى هذا الخطأ ارتخاء فى الارادة ، أو هبوطا فى الحزم والعزم ، أو ما شئت من التعليلات والأعذار ، ولكن الراجح مع هذا أن يكون السبب هو الافراط فى الطعام !

وهناك فكرة شائعة ــ وهي خطأ ــ أن كل بدانة سببها نقص فى افراز الغدة الدرقية أو اختلال فى الغدة النخامية . ولكن الاحتكام الى اختبار التغير الكيماوى القاعدى يقطع الشك باليقين فى هذه الحالات . وقد أجريت شخصيا آلاف الاختبارات القاعدية على البدينين ، فأثبتت معظم الحالات عدم وجود نقص فى التغير الكيماوى القاعدى ، مما يدل على أن النشاط الغددى سليم وطبيعى . فلا بد اذن أن المسئول عن تلك الزيادة هو زيادة مقادير الطعام عن الحد اللازم

□

والآن نسأل أنفسنا هذا السؤال ، أو هذين السؤالين :

ــ لماذا يصاب الناس بالبدانة ؟ ولماذا يتقبلون هذا الداء فى الغالب بالاستسلام أو بالرضى والقبول ؟

ان المشاهد أن داء البدانة قد يصيب أسرا بأكملها ، فنرى الأب بدينا ، والأم بدينة ، والأولاد بدينين ، والبنات بدينات فما خطب هؤلاء جميعا ؟ أهى الغدد فى جميع هؤلاء قد أصابها كسل ؟ أهى الوراثة مجتمعة فى العرقين أبا وأما ؟

قد يكون . ولكن الأرجح أن طريقة الاكل وطهو الطعام واحدة فى هذا البيت لجميعهم ، فكانت البدانة عاملا مشتركا بين الجميع

والواقع ان طريقة الأكل وكميته وأصنافه ليست مجرد عادة يتعودها الانسان ، ولكنها أيضا دافع من دوافع قوة الفناء . فالأصل طبعا فى الأكل أن يكون خدمة لقوة البقاء . ولكنه حين يزيد على مطالب تلك القوة يغدو عادة سيئة تشارك فى خدمة قوة الفناء . وذلك هو بيت القصيد الذى يجب أن يتنبه اليه كل واحد منا وهو يجلس الى المائدة ، وعندما يطلب الالوان التى يريد تناولها

ونعود الى تلك الأسرة البدينة ، ونقترح اجراء تجربة عليها . ولنفرض أن فى تلك الأسرة غلامين وفتاتين . وبما أن أباهم واحد وأمهم واحدة ،فعوامل الوراثة فيهم متساوية تقريبا . وبما أن الذى يتحكم فى الانسان عاملان هما الوراثة والبيئة ، وبما أن عامل الوراثة ثابت لا يمكن تغييره لأنه يحدث بمجرد تكوين الجنين ، فلا يبقى فى يدنا ما نغيره سوى عامل البيئة

ولنفرض أننا سنسمح لصبى وفتاة أن يستمرا فى نظام أكلهما على ما تعوداه آنفا ، فيكثران ما شاء من الدهون والكعك والحلويات السكرية التى ألفا تناولها مع والديهما . ولنفرض أيضا اننـــا استطعنا أن نقنع الصبى والفتـــاة الآخرين بالاذعان لشروط التجربة بنية خالصة ، فيأكلان على نظام غذائى دقيق ويحرمان حرمانا تاما من فطائر اللحم والجيلاتي بالـكريمة ومن الكعك ومن البطاطس والبطاطة والقشدة والزبدة والشكولاتة وسائر الحلويات السكرية ومن العنب والبلح والتين ، وهى الأصناف التى يترك لأخويهما الأكل منها كما يشاءان . وسوف لا نعطيهما حبوب الغدة الدرقية أو غير ذلك مما يساعد على انقاص الوزن عن طريق التفاعل الكيماوى داخل الجسم . فكل همنا منحصر فى تحديد كميات الطعام والوانه .

فماذا تكون النتيجة ؟

انهما يفقدان من وزنهما ما بين عشرين وأربعين رطلا فى مدة تتراوح بين ستة أشهر وسنة . ولو أنك أجريت هذه التجربة على ألف حالة مختلفة لخرجت بهذه النتيجة عينها دون تغيير ملحوظ

فواضح اذن أن الوراثة والغدد يمكن أن تتسبب فى زيادة الوزن فى نطاق محدود وفى حالات نادرة ، كما أنه يلاحظ أن المراة لديها استعداد خاص لزيادة الوزن بعد العمليات

الجراحية وفى فترة انقطاع الحيض المسماة سن اليأس . ولكن حل المشكلة برمتها يتوقف فى الغالب على نظام التغذية

فيمكن اذن أن نقول فى غير مغالاة أو اسراف أن الحائل الأكبر دون ارتفاع نسبةالرشاقةوالقدود الهيفاء هو شخص وفن الطباخ ، بل ان هناك ملاحظة جديرة بالعناية فانه يندر أن يوجد طباخ أو طباخة خال من البدانة. واذا رجعت الى احصائية الشهر الاخير فى عيادتى وجدت أن ثلاثة من أشد مرضاى بدانة كانوا طباخين . فلما فحصتهم وجدتهم مصابين ثلاثتهم بأمراض الحوصلة المرارية

وقد صار من المعلومات الشائعة فى الزمن الاخير أن أسعد الناس ليس بالضرورة هو الرجل البدين ، ولكن عهودا مضت طويلة كانت البدانة فيها علامة على السعادة والاستمتاع بالحياة

ومن المقطوع به فى يومنا هذا أن اضطراب الأعصاب والشعور بالخيبة من أهم أسباب زيادة الوزن

وبسؤال المرضى البدينين عن تاريخ قوامهم كانوا يعترفون لى أنه جاء عليهم وقت كانوا يتعلقون فيه بالطعام أكثر من ذى قبل ، ويجدون فى أنفسهم ميلا شديدا لا تسهل مقاومته الى الانكباب على الأكل طول النهار

وعندما كنت ادقق فى استدراجهم واستخرج مكنونات الذاكرة المطوية ، كنت أعلم أن ذلك الميل الجديد قد نشأ عقب حدوث مأساة أو صدمة أثرت على جهازهم العصبى

فاذا انست لدى شخص شيئا مما تقدم،أى اقبالا مفاجئا على الأكل ، ففتش فى حياته ، وغالبا ما تجد السبب على صورة خلاف عائلى ، أو طلاق ، أو فقدان عزيز ، أو حقد ، أو غيظ ، أو النقل من عمل الى عمل اقل شأنا أو الخوف من المرض ، أو عدم الاستقرار فى المعيشة

وأن البدانة فى حد ذاتها يجب أن تعتبر ــ من وجهة النظر

العقلية والعلمية ــ مرضا ، لأنها نقطة البداية لكثير جدا من الأمراض العضوية

وكل من له دراية عامة بالطب أو الصحة يعلم جيدا ان ضغط الدم العالى ، وأمراض القلب ، والسكر ، وأمراض الحوصلةالمرارية والنقرس أو التهاب المفاصل ، من الامراض التى يكون لدى البدينين استعداد أكبر للاصابة بهـا من النحفاء ، وهى فعلا منتشرة بينهم الى حد كبير

ولهذا السبب كانت مكافحة السمنة ومعـرفة مدى ما يكمن وراءها من الأضرار الجسام من أوجب الواجبـات للتمتع بصحة جيدة . وليس توقى الأمراض التى أسلفت ذكرها فى الفقرة السابقة عسيرا اذا التزمنا حدود النحافة وحافظنا على رشاقة أجسامنا

وأول ما يجب على الشخص البدين عمله أن يجرى على نفسه فحصا طبيا كاملا دقيقا ، يشمل تحليل الدم واختبار التغير الكيماوى القاعدى وسائر الاختبارات الاخرى ، قبل أن يقدم على القيام بنظام التغذية ، ذلك النظام الذى يرسمه له الطبيب . فان الطبيب يكون أقدر على تحديد النظام الغذائى الملائم اذا كانت أمامه جميع البيانات عن كيفية قيام أعضاء المريض بوظائفها

وثمة ملاحظة يجب الالتفات اليها جيدا : وهى أنالافراط فى الطعام ، أو افراط الغدد فى الافراز ، أو كسلها ، أو كسل الكبد والمرارة ، قد تكون نتيجة حالة عصبية أو صدمة أو عقدة نفسية ، وفى هذه الحالة يلزم الالتجاء الى طبيب نفسانى . وقـد رأيت حالات كثيرة نجح فيهـا الطبيب النفسـانى فى انقـاص وزن أشخاص بدينين حيث عجز الطبيب الجسمانى عن ذلك تمام العجز ، وذلك لأنه كان يعالج الانسان فى مجموعه ، أى كان يعالج العقل والبدن وليس البدن فقط

والحقيقة أنك لا تستطيع منع الشخص عن الاقبال على الطعام الا اذا أوقفت سبب ذلك الاقبال . فاذا كان يتلهى بكثرة الأكل عن قلق معين ، فيجب ازالة أسباب ذلك القلق حتى يكف عن التلهى عنه بالأكل الكثير

□

ومع كل هذه الجهود من جهة الطبيب الجسمي او النفسى، فانه لا فائدة من بذلها ما لم تصاحبها رغبة قوية جداً من جانب المريض فى التعاون مع الطبيب وارادة حديدية للتخلص من الشحم . على أن تستمر تلك الارادة المثابرة شهورا بل سنوات بغير كلل أو ملل . فانقاص الوزن ليس مسألة أسابيع . والمريض الذى يأتيك فيقول لك انه يرغب فى انقاص خمسة عشرة رطلا من وزنه فى عشرة أيام ـ ويغلب أن يكون ذلك الشخص امرأة كل همها أن تلبس ثوبا معينا فى احتفال له تاريخ معين ـ شخص لا يدرى ماذا يريد ، وليس لديه الاستعداد العقلى اللازم لانقاص وزنه بصورة محسوسة

ولو أننا وضعنا نصب أعيننا أن الشخص قد يصل الى حد البدانة بتراكم أسبابها سنوات وسنوات ، لهان علينا أن نتذرع بالصبر ونثابر جملة أشهر على نظام التغذية الصارم كى نصل الى النحافة المطلوبة . ولكن هناك مع ذلك أشخاص يسأمون بسرعة وتنكسر قلوبهم اذا خاب أملهم فى الحصول على نتيجة ولو يسيرة فى الاسابيع الاولى ، بل فى الأسبوع الاول ، وهؤلاء الاشخاص يجب أن يكتفوا منذ اليوم الأول بطعام يومى لا تزيد الطاقة الحرارية فيه عن ألف كالورى ، وبحيث لا تزيد عن ذلك الحد بأى حال ، فان ذلك كفيل بانقاص الوزن بمقدار رطل ونصف او رطلين فى الأسبوع

فما معنى الألف كالورى يوميا بلغة الانسان العادى ؟

ان «الكالوري» هو وحدة مقياس الطاقة الحرارية فى الجسم، باصطلاح العلماء . وكل كالورى واحد هو مقدار القوة الحرارية التي ترفع درجة حرارة كيلوجرام واحد من الماء درجة واحدة مئوية

فما هى أصناف الطعام التى لا تحتوى يوميا الا حوالى ألف كالورى فقط ؟

نضرب لذلك مثلا يجب ألا يتعداه الشخص الحريص على انقاص وزنه ولو بدرهم واحد من الخبز أو الحلوى :

الافطار : نصف كوب من عصير البرتقال . بيضة مسلوقة واحدة على قطعة من التوسنت واحدة (خبز مجمر) وفنجان قهوة بدون لبن

أو هذه الأصناف للتغيير يوما بعد يوم :

نصف جريب فروت وقليل من البليلة فى نصف كوب من اللبن مع نصف ملعقة سكر صغيرة وقهوة بدون لبن

الغداء : نصف كوب من حساء الكتاكيت ، وخمس من لباب الاسبرجس (أو الخس أو الكرفس) ، وثلاث قطع من البسكويت المصنوع من الماء بدون زبد أو سكر ، وكوب من اللبن الفرز (المنزوع منه القشدة كلها)

أو هذه الأصناف للتغيير يوما بعد يوم :

فنجان من حساء الخضروات ، وقطعة صغيرة من اللحم المشوى فوق قرص من الخبز مساو لها فى الحجم ، والجبن القريش (بدون قشدة) بالخس وكوب من اللبن الفرز

العشاء : ريشة من اللحم المشوى بدون دهن ، قطعتان من الخبز صغيرتان ، خضروات خضراء عليها قليل من الملح والخل (سلطة). نصف كوب من جيلاتينة الفواكه مع نصف كوب من اللبن الحليب ، وشاى أو قهوة بدون لبن

أو هذه الأصناف للتغيير يوما بعد يوم :

قطعتان من اللحم المشوى (كباب حلة) ، ونصف فنجان من السبانخ ، وفنجان من الفواكه بدون جيلاتينة ، وفاصوليا خضراء ، وقهوة أو شاى بدون لبن

ولنفرض الآن انك لست بدينا ، وانك تريد نظاما للتغذية يحفظ عليك ذلك الوزن بغير زيادة

فيما يلى موجز لتعليمات لجنة الطعام والتغذية فى مجلس الأبحاث الامريكى القومى ، كما وردت فى تقريرها لعام ١٩٤٨ :

أن الرجل الذى يزن ١٦٠ رطلا ويقوم بعمل قاعد (أى وهو جالس الى مكتب فلا تلزم له الحركة فى العمل) يلزم له طعام مقداره ٢٤٠٠ كالورى فى اليوم . أما اذا كان هذا الرجل الذى وزنه ١٦٠ رطلا يقوم بعمل ناشط فيلزم له ٣٠٠٠ كالورى فى اليوم . واذا كان عمله ثقيلا مرهقا فاللازم له ٤٠٠٠ كالورى يوميا

والمرأة التى تزن ١٣٠ رطلا تقريبا وتقوم بعمل قاعد تحتاج الى ٢٠٠٠ كالورى يوميا . واذا كانت تقوم بعمل متوسط النشاط فهى محتاجة الى ٢٤٠٠ كالورى يوميا . واذا كان عملها يحتاج الى نشاط كبير جدا فهى محتاجة الى ٣٠٠٠ كالورى فى اليوم

بيد أن حاجة المرأة الى الغذاء تزداد فى مدة الحمل . ففى المدة الأخيرة من الحمل تحتاج الى ٤٠٠ كالورى زيادة عن المعتاد ، أى ٢٤٠٠ كالورى مع العمل القاعد . وفى مدة الرضاعة تحتاج الى ٣٠٠٠ كالورى يوميا

وأما الاطفال الذين تتراوح سنهم بين سنة واحدة وثلاث سنوات ، ومتوسط وزنهم ٢٨ رطلا فيحتاج الواحد منهم الى ١٢٠٠ كالورى يوميا

والأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين أربع وست سنوات ووزنهم حوالى ٤٥ رطلا يحتاج الواحد منهم الى ١٦٠٠ كالورى يوميا

والاطفال الذين تتراوح سنهم بين سبع سنوات وتسع سنوات ووزنهم حوالى ٦٠ رطلا فيحتاج الواحد منهم الى ٢٠٠٠ كالورى يوميا

وأما من تتراوح سنهم بين عشر سنوات واثنتى عشرة سنة ووزنهم حوالى ٨٠ رطلا فيحتاج كل منهم الى ٢٥٠٠ كالورى يوميا

والبنات اللواتي تتراوح أعمارهن بين ثلاث عشرة سنة وخمس عشرة سنة ، ويبلغ وزن الواحدة منهن حوالى ١١٠ رطلا تحتاج كل منهن الى ٢٦٠٠ كالورى من الغذاء يوميا

والغلمان فيما بين الثالثة عشرة والخامسة عشرة من أعمارهم ووزن الواحد منهم نحو ١١٠ رطلا حاجتهم الى الغذاء تصل الى ٣٢٠٠ كالورى يوميا

والفتيان ما بين السادسة عشرة والعشرين من أعمارهم ويبلغ وزن الواحد منهم نحو ١٥٠ رطلا يحتاج الواحد منهم الى ٣٨٠٠ كالورى من الغذاء يوميا

وهذه الأنظمة بالطبع يجب أن تحتوى على الحد الأدنى الواجب توفره فى الغذاء الصحى من المواد البروتينية والجيرية والحديد والفيتامين « أ » والفيتامين « د » والفثيامين والريبوفلافين . ومن السهل العثور على جداول غذائية صالحة فى أى كتاب جيد من كتب الأغذية الحديثة

□

ومهما يكن من أمر فيجب أن يراقب كل فرد وزنه مراقبة

دقيقة ، فان أحرى الناس بالاستمتاع بالحياة هم الذين يكونون فوق الوزن العادي بقليل الى أن يبلغوا سن الثلاثين وعند الوزن الدقيق بالضبط بين سن الثلاثين والأربعين .. وهؤلاء هم أخلق الناس بأن يكونوا أطول أعمارا اذا كانوا أقل من الوزن المطلوب بعد سن الاربعين

ولكن حذار !

فان الانسان قد يقتل نفسه بالافراط فى الطعام ، وقد يقتل نفسه قتلا أسرع وأشنع بنقص التغذية . فانى أعرف عانسا قتلها انها كانت تعيش على كسرة من الخبز وثلاث اكواب من الشاى الأسود كل يوم لا اكثر !

ولكن الذى لا شك فيه أن مستوى الصحة القومية يمكن أن يرتفع كثيرا اذا استطعنا علاج البدانة المنتشرة فينا ومنع أسبابها ، فلم يعد هناك مبرر فى الوقت الحاضر لاعتبار الشخص البدين نوعا من أنواع الأضاحيك الهزلية مثل الأحدب والقزم فى الزمان السالف . اذ أن علاج البدانة قد أصبح أمر ميسورا جدا وله اخصائيون

ولا بأس فى أن نستشهد هنا بكلمة للدكتور نيوبرغ :

ـ ان زيادة الوزن فيما بين الخامسة والاربعين والخامسة والخمسين بمقدار عشرين رطلا معناها احتمال مقداره ٢٥٪ للوفاة فى العام التالى زيادة على الاحتمال المماثل بالنسبة للشخص ذى الوزن الطبيعى . أما اذا كانت الزيادة فى الوزن فى تلك السن مقدارها ٥٠ رطلا ، فان هذا الاحتمال يصل الى خمسين فى المائة

لماذا ؟

لأن كل زيادة من الشحم عن الوزن الطبيعى مقدارها عشرة أرطال تحتاج الى اتساع فى الأوعية الدموية مقداره نصف ميل ، وذلك ولا شك يكلف القلب مجهودا أشق من المجهود الطبيعى بكثير

وثمة ملاحظة يجب توكيدها فى الأذهان ، وهى أن الرياضة والمشى لا يساعدان على انقاص الوزن بشكل محسوس . فقد أجريت أخيرا تجارب فى جامعة « الاباما » اتضح منها انه يجب أن يمشى الشخص ٦٦ ميلا بسرعة ٤ أميال فى الساعة أى مدة ١٦ ساعة ونصف كى ينقص وزنه رطلا واحدا . أما اذا أردت الاستمتاع بعملية انقاص هذا الرطل من وزنك فعليك أن ترقص مدة عشرين ساعة ونصف باستمرار !

ومن هذا يتبين أى خرافة شاعت وعششت فى الأذهان عن علاقة المشى بالنحافة

وملاحظة أخيرة هى تحذير لك ، مهما كانت رغبتك فى انقاص وزنك : الا تتعاطى حبوب الغدة الدرقية أو البنزدرين الا بناء على أمر الطبيب



الجزء الثالث

الأمراض الوبيلة

- القلب
- الضغط العالى
- القرحة
- السرطان

القلب

القلب عضلة صلدة يحتاج التغلب عليهـا الى مجهود قوى ، ويحتاج ذبحها الى نصل حاد ، ولكنها ، شأنها فى ذلك شأن أى جزء آخر من الجسم ، يمكن أن تبلى قبل أوانها الطبيعى . ويحدث احيانا أن يصيبها عطب مفاجىء لأسباب مجهولة لنا الى اليوم ، أو لأسـباب خارجة عن ارادتنا مستقلة عن طريقة معيشتنا . ولكن فى أحيـان اخرى يصح أن يقال أن فشل تلك العضلة أو هبوطها يرجع مباشرة الى الشخص الذى يستخدمها . فعضـلة القلب مثل أى جهاز تستطيع أن نبطىء محركها ، كما نستطيع أن نحمله على السـباق الأرعن ، أو أن نتخمه برواسب خليط خصب من أفاويق الحياة

وقلب الانسان عبارة عن عضو يزن نصف رطل ينقسم الى حجـرتين علويتين وحجرتين سفليتين . والحجرتان العلويتان هما الأذين الأيمن والأذين الأيسر . والحجرتان السفليتان هما البطين الأيمن والبطين الأيسر

ومن تلك الغرف الأربع تتكون مضخة يتصل عملهـا منذ ما قبل الولادة ولا يتوقف الا بالموت . أو لك أن تقول أن وقوف دقات القلب معناه الموت

وتقدر دقات القلب فى حياة طولها سبعين سنة بألفى مليون خفقة ، تدفع فى أطراف الجسم جالونات وجالونات من الدم كل يوم . فالقلب حينئذ عامل لا يكل ولا يمل ولا يعرف التعب بالمعنى الذى نعرفه ، لأنه ينال قسطه

من الراحة بين كل نبضة ونبضة . ولكن ذلك العـــامل كسائر العمال الصابرين المثابرين جندى مجهول ، لا يشغل ذهننا ولا يخطر على بالنا الا حين نسمعه يزمجر أو يدمدم أو يضج بالشكوى لأننا أسرفنا عليه وكلفناه ما لا يطيقه
ويجب أن نسأل أنفسنا هذا السؤال :

ـ ما هى الوسائل التى تؤدى الى القضاء على القلب قبل الأوان اسكاته أو اخفاقه ؟

الواقع ان معلوماتنا لا تتيح لنا جوابا شافيا من الوجهة العلمية على ذلك السؤال ، وان كانت معارفنا عن القلب وامراضه فى الخمسين سنة الاخيرة أكثر جدا مما عرف سابقونا فى عشرين قرنا

وأمراض القلب أشكال وأصناف . وهى ليست واحدة فى درجة خطورتها وان نسبت جميعا الى القلب . ولذا ففى يدك مصير قلبك الى حد كبير فى حالات كثيرة من تلك الامراض . فما لم تكن مصابا بآفة عضوية فى القلب ، فكل ما عليك أن تذكره جيدا أن القلب فى سن الأربعين ليس هو القلب فى سن العشرين ، فلا ترهقــه بالقفز العنيف والرياضة الشاقة والسهر الطويل والشراب والانفعـــال العنيف مع قلة الراحة والتخمة . واعلم أن اغفاءة قصيرة بعد الغذاء وأنت فى سن الخمسين هدية يقابلهـــا قلبك بالامتنان العظيم ، وان كان حريا أن يأنف من قبولها أو تقديرها قدرها حينما كان فى سن العشرين . وأى صورة من صور الاجهاد العضوى والعضلى مثل الانزلاق العنيف على الجليد ومباريات التنس الفردية الحامية والعمـــل المتواصل خمس عشرة ساعة فى اليوم ، وما الى ذلك من سهر الليالى فى طلب المعالى أو طلب التسالى ، أمور ينوء بها توازن قلب عادى فى منتصف العمـــر . وربما كان التفاتك الى مدى حساسية قلبك بالتوتر الخارق والتعب

امرا جوهريا بالنسبة لك ، تتوقف عليه حياتك
فهل تستطيع شيئا لتلافى ذلك ؟

لا شك أنك تستطيع . فما هى أوجه العناية المطلوبة منك والتى هى فى متناول يدك ؟

اذا كنت مصابا مثلا بافراط فى نشاط الغدة الدرقية ، فان قلبك لا يصبح فقط مثل جواد السباق فى السرعة والضجة ، بل وأيضا يصاب فى خفقانه بالاضطراب . فاذا تراخيت وسوفت فى عرض نفسك على الطبيب المختص ربما كان مبلغ الضرر الذى يحيق بك متناسبا مع مدة التسويف تناسبا طرديا . أما اذا أسرعت الى مختص عرف الداء وعالج غدتك الدرقية فى الحال فان قلبك يشفى من هذه الأعراض كأنها لم تكن

وأزيدك اطمئنانا الى تقدم طب القلب فى الزمن الأخير ، فأقول لك انه الى مدة قريبة كانت الاصابة بالتهاب فى صمامات القلب معناها الوفاة بنسبة تزيد على ٩٩ ٪ . لأن هذا المرض فى الكتب التى كانت تدرس فى كليات الطب من الأمراض التى يكتب أمام تشخيصها فى باب العلاج الأمل صفر ٪ وهذا كل ما تتضمنه تلك الكتب من علاج لالتهاب صمامات القلب . أما اذا ذهبت فى يومنا هذا الى طبيب مختص ، وكان ذهابك اليه فى وقت مبكر من مراحل المرض فانه يتكفل بالقضاء على ذلك الالتهاب وشفاء قلبك تماما بالبنسلين ومشتقاته فى وقت قصير

ونحن فى السنوات الأخيرة قد عرفنا الكثير عن أعراض وعلاج الانسداد الاكليلى أو التاجى للقلب وأن كنا لا نزال نعرف أقل القليل عن أسباب ذلك الانسداد الذى كان يعتبر الى وقت قريب مرضا قاضيا . أما الآن فاذا تسنى للطبيب أن يفحصك بمجرد اصابتك بذلك المرض ، فانه يستطيع أن يشخصه بسرعة بواسطة الاختبار الكهربائى

والاختبارات المعملية ، ومتى تم التشخيص بدقة فاحتمال الشفاء يصل الى أكثر من ثمانين فى المائة ، مع أن تلك النسبة لم تكن لتزيد فى أحسن الظروف منذ سنوات قليلة على عشرين فى المائة

وليس يطلب ممن أصيب بالانسداد الاكليلى وشفى منه أن يعمل شيئا خاصا كى يعيش أعواما طويلة عيشة طيبة ، سوى أن يهدىء من سرعة أعماله واندفاع تيار وجوده ومعيشته ، فيبذل مجهودا أقل ، ويحمل نفسه على تجنب الارهاق والانفعال المنيف . ومن حق الطبيب وواجبه أن ينبهك الى ذلك ، ولكن ليس من حقه أن يرغمك عليه . فان شمعة حياتك ملك يديك ، ومن حقك أنت أن تحرقها كيف تشاء فان شئت أحرقتها قليلا قليلا ، وان شئت أشعلتها من طرفيها جميعا

وما ذكرته آنفا عن الانسداد الاكليلى لشرايين القلب يصدق كذلك على مرض الجلطة الدموية والمصابين بزيادة فى التوتر العضلى للقلب وبروماتزم القلب أو بأى مرض من هذه الامراض العضوية التى تصيب القلب والتى كانت مفزعة ومميتة الى وقت قريب . ففى المرتبة الاولى من الأهمية يأتى التشخيص المبكر الدقيق . وفى المرتبة الثانية تعيين العلاج الخاص بكل حالة ونظامه العام . وبعد ذلك يأتى دور المريض اما بالتعاون أو عدم التعاون

وأحب أن أوضح جيدا مسألة التعاون ، أى اتباع الارشادات بدقة أو عدم اتباعها . فالتعاون قد لا يكون ضمانا أكيدا ضد الوفاة . ولكن عدم التعاون ضمان مؤكد لحدوثها

ومن مشاهداتى ومشاهدات زملائى أستطيع أن أقرر بكل ثقة أنه يندر أن يكون هناك مرض يحتاج لتعاون المريض كأمراض القلب ، كما أنه قل أن يتوافر عدم

التعـــاون فى مرضى كمرضى القلب . فهم لا مثيل لهم فى قتل أنفسهم بأيديهم

ولسوء الحظ أن أمراض القلب من النوع الذى لا تساعد ظروف الشخص على التنبه اليها فى الوقت المناسب . ففى كثير من تلك الامراض لا يبدو على القلب مظهر فى المرحلة الأولى يحس به الشخص ، فلا سرعة ولا اضطراب ولا سعال ولا عسر هضم ولا قصر فى النفس . بل كثيرا ما يشخص الطبيب الحالة بأنها مرض فى القلب ، ويجد المريض أن هذه الأعراض غير متوفرة فيتشكك فى التشخيص ولا يصدق . ولهذا أحب أن أنبه القارىء الى ملاحظة هامة جدا ، وهى أن القلب الذى لا يشكو ولا يضطرب قد يكون مريضا ، وأن القلب الذى يضج ويعربد فى الصدر قد يكون فى الحقيقة سليما

وأحب أيضا أن أنبه الى شىء آخر : صحيح أن متوسط الاعمار فى نصف القرن الاخير قد زاد كثيرا عن أى وقت مضى فى تاريخ البشرية ، وذلك راجع ولا شك الى الاعمال الجبارة التى توصل اليها علم الطب الوقائى فى الزمن الأخير . ولكن مراجعة الاحصاءات فى هذه المدة نفسها تدل على أن نسبة الوفيات من سن الأربعين الى الخامسة والخمسين لم تنقص نقصا ملحوظا

لماذا ؟

بسبب أمراض القلب . ففى هذه السن وهى منتصف العمر تبدأ حيوية الجسم وقوة مقاومته فى الانحدار . فاذا استمر الشخص يستنفد نشاطا حيويا عنيفا فى غير مراعاة لاحتمال أجهزته الدموية ، فهو معرض لتعطلها . ومن أكثر أنواع ذلك التعطل شيوعا مرض يصيب شرايين القلب الإكليلية . وهو مرض يتعرض له الناس أكثر ما يتعرضون بين سن الاربعين والستين . ونسبة تعرض الرجال له

الى نسبة تعرض النساء له هى نسبة ستة الى واحد

وانسداد الشرايين الاكليلية هو أخطر أمراض تلك الشرايين وأكثرها حدة . وهو عبارة عن انغلاق الشريان أو الشريانين معا اللذين هما الوعاءان الدمويان الرئيسيان للقلب . والفرق بين سنوات طويلة تضاف الى العمر وبين وفاة مفاجئة كثيرا ما يكون راجعا الى اكتشاف مبكر لمقدمات تلك الحالة . وفى معظم الحالات يمكن تشخيص ذلك المرض فى وقت مناسب جدا ، فاذا أذعن المريض للفحص والعلاج بدقة جنى من ذلك فوائد لا تقدر وأفاد العافية والعمر الطويل ، أما اذا كان انتحارى النزعة فان الطبيب لن يستطيع له شيئا

وهناك علامتان جعلتهما الطبيعة للانذار بأن حالة القلب ليست على ما يرام ، أو انها ربما كانت كذلك . العلامة الأولى قصر النفس الى حد اللهث ، والعلامة الثانية الألم عند بذل مجهود عادى جدا . فلا تغفل ملاحظة هاتين العلامتين لأن الكثير جدا يتوقف على التنبه اليهما . وعليك أن تبادر بعد ذلك بزيارة الطبيب . وقد صارت وسائل التشخيص الآن بالكهرباء وبالأشعة من أدق ما يكون ولا محل فيهما للخطأ . وأما الادوية والعقاقير فقد أصبحت كثيرة ونافعة ودقيقة الى حد كبير . ولكن أهم من ذلك كله هو تنفيذ نظام المعيشة والطعام ، ولا سيما عدم تعاطى الملح . فقد وجدت صعوبة كبيرة فى اذعان مرضاى لتناول الطعام بغير ملح لأنهم لايسيغونه

ان هذا كله يبدو مشجعا للمصابين بمرض القلب . والواقع أن مصيرهم فى نصف القرن الأخير أحسن مئات المرات مما كان عليه آباؤهم . بل ان حظهم من الشفاء والتمتع بالحياة اليوم أحسن جدا مما كان منذ عشر سنوات فقط

ضغط الدم العالى

لايزال مرض ضغط الدم العالى من الامراض الغامضة من وجهة النظر العلميـة . فمن بين كل مائة حالة من حالات الضغط العالى يملك الطبيب أن يحدد لك أسباب خمس حالات منها فقط على وجه التحديد ، كأن يكون اصابة بالتهاب حاد مزمن فى الكلى ، أو زيادة مفرطة فى نشاط الغدة الدرقية ، وما الى ذلك

ولكن ما خطب الحالات الخمس والتسعين الاخرى ؟

ان أسبابها لا تزال غارقة فى طوايا الغموض والجهل . فنحن فى الطريق الى كشفها ، ولكننا لا ندرى الى أين ينتهى بنا ذلك الطريق على وجه التحديد

وعزاؤنا فى ذلك الجهل أن ارتفاع الضغط فى حد ذاته ليس ذا أهمية جوهرية ، وانما المعول حقا على حالة الشرايين والقلب والكليتين ، وعلى ما تحس به من ضيق وتنغيص

ويمكن أن نقول بعبارة أخرى أن ضغط الدم العالى ليس فى حد ذاته الا عرضا . وكثيرون من المرضى انما يضايقهم من ضغط الدم العالى ما يصاحبه من صداع موجع مضن ورعاف ، اى نزيف دموى من الانف،ودوار وتعرض للاغماء. ولـكن هناك أيضا مرضى ينزعجون كثيرا لمجرد ارتفـاع الضغط مع عدم وجود أى عرض من هذه الاعراض

ورأيي كما سجلته منذ سنوات أنك لا تستطيع شيئا لارتفاع ضغط الدم لديك كأن تروض نفسك على سياسته

والمعيشة بما يوافقه ، فان التزام ذلك النمط الذى تمليه حالتك تريحك من متاعب وتنغيص أعراضه ، وتضمن لك حياة أسعد وأطول

واضرب مثلا بمريض بالضغط العالى حضر لاستشارتى وكان عمره أثنتين وأربعين سنة وضغطه ١٨٠ على ١١٠ وهو أعلى من الواجب بكثير ، وكان هو يعلم ذلك ، وكان مدركا لما يمكن أن يحدث له من زيادة فى الارتفاع عن ذلك اذا لم يعمل على وقف الحالة ، لذلك سألنى :

ـ ماذا يمكننى بالضبط أن أصنع يا دكتور ؟

ـ ليس الجواب سهلا يا مستر جونس ، فالمطلوب منك اشياء كثيرة وليست شيئا واحدا ، وعليك أنت وحدك يتوقف القيام بها أو اهمالها

ـ بل سأفعلها يا دكتور ، وأريد بأى ثمن أن أتخلص من هذا الصداع اللعين

ـ ليس المهم يا مستر جونس أن تتخلص من ذلك الصداع ، لأن الضغط العالى سيظل موجودا جتى بعد انتهاء الصداع ، فهناك اعتبارات أخرى هامة

ـ ليكن ذلك يا دكتور ، فأخبرنى كيف أعتنى بنفسى ولك على السمع والطاعة

وكان مستر جونس هذا رجلا ناجحا فى دنيا الاعمال ، وقد عرفت منه انه وأسرته يمكن أن يعيشوا عيشة ميسورة مترفة على ايراده العقارى بقية حياتهم بغير حاجة الى مزيد من العمل ، ومع ذلك فقد ظل يعمل بمتوسط أربع عشرة ساعة فى اليوم أعواما متواصلة حتى تركزت مسئوليات العمل فى يده ولم يكن ليتيح لأحد سلطة التصرف فربطه ذلك بمكتبه ولم ينعم بأجازة حقيقية منذ ستة أعوام ، لأن الاجازة كانت تستنفد دائما لتصميم مشروعات جديدة والتفكير فى توسيع دائرة العمل

وكان المستر جونس فضلا عن هذا بدينا يدخن تدخينا متصلا ويفرط فى الشراب كثيرا . وكان غير قادر على الاسترخاء ، فهو يعجب كيف يستطيع أى انسان أن يجلس ساعة أو ساعتين لايعمل شيئا سوى المطالعة فى كتاب . فاذا ذهب الى السينما نام فى مقعده ، واذا ذهب الى المسرح ثقلت جفونه واغفى بين الحين والحين . وقد عقب على ذلك الوصف لنفسه بقوله :

ـ واعتقد ان كل ما اصلح له هو العمل

فهل يقبل مثل هذا الرجل تغيير نمط معيشته ؟ أم أن دفعة الفناء القوية التى فيه ستظل تستحثه على الانتحار تدريجيا ؟ لذلك قلت له بايجاز :

ـ هذه هى حالتك فى كلمتين يا مستر جونس : اما أن تنفذ التعليمات فتضيف الى حياتك أعواما كما تضيف اليها راحة والوانا من المتاع ـ وهى فى مضمونها تعليمات سهلة ـ والا فلا حيلة لى

ـ وما هذه التعليمات ؟

ـ انك أزيد وزنا مما يجب بأربعين رطلا ، وسأبين لك كيف تتخلص من هـذه الزيادة . واعلم انك تدخن الآن بمعدل عشر من نوع السيجار الكبير يوميا بالاضافة الى عشرين سيجارة بيضاء ، وذلك كله ضار لا محل للمناقشة فى ضرره ويجب أن تكتفى بثلاث من نوع السيجار فى اليوم . أما السجائر البيضاء فتلغى نهائيا . وأقلع عما تتجرعه من البيرة كل يوم ، ويكفيك من الويسكى أوقية أو أوقيتان ، وسأكتب لك الآن قائمة بنظام للأكل يحوى أقل ما يمكن من الملح

ورأيت وجهه يكفهر ، ولكنه كان يطبق الفكين بما يوحى بانعقاد عزمه على التعاون ، وقال :

ـ انها لعمرى شروط قاسية . ولكن اتفقنا

ـ يحسن أن تستبقى وعدك الى أن تسمع البقيـــة

فاضطجع فى المقعد متعجبا وقال :

ـ ماذا أيضا بعد ذلك ؟ لعلك يا دكتور تعنى طول مدة ذلك النظام الخاص فى الأكل ؟ ان كان ذلك فلا عليك

ـ ليس هذا ما عنيت

ورحت أشرح له كيف يجب أن يخفف من العمـــل . فنصحته أن يجعل وقت الغداء ساعة ونصف ســـاعة ، يستريح منها راقدا فى السرير ساعة على الاقل ، وطلبت منه أن يتوجه الى عمله فى التاسعة والنصف بدلا من السابعة وأن يعود الى البيت فى الخامسة والنصف بدلا من التاسعة ، وأن يستأجر وكيلا حاذقا أمينا يحمل عنه نصف مسئوليات العمل على الاقل ، وأن يأخذ اجازة فى الشتاء مقدارها ستة أسابيع ، واجازة ستة أسابيع أخرى فى الصيف ، وأن يقضى يومين كل أسبوع فى الريف والخلاء ، وأن تكون الاجازات الاسبوعية والموسمية خالية من كل ما يتصل بالعمل أو التفكير فيه . وعقبت على ذلك بقولى :

ـ اذا لم تتبع هذه الارشادات بدقة ، أو لم تستطع ذلك بحكم عملك ، فمن الخير أن تصفى أعمالك أو تبيعها لتشترى حياتك ، ولست أرثى لك كما أرثى لشخص آخر فى مكانك ككاتب فى ادارتك مثلا لا مورد له وفى عنقه عدد كبير من الاطفال ، فأنت على الاقل تملك أن لا تعمل دون أن تضار

□

وحاول أن ينفذ هذه التعليمات فترة من الزمن ، ثم بدأ يتهاون ، ثم اتصلت بى زوجته سرا وأكدت لى أنه عاد الى

الافراط فى الشراب والطعام والسهر والعمل والتدخين كما كان يفعل من ذى قبل ، فلم أستطع أن أفهم لأول وهلة كيف ان رجلا ناجحا فى عمله ، رب أسرة سعيدة ، توفرت له جميع أسباب التعلق بالحياة ، يمكن أن يكون مستهترا بحياته الى هذا الحد

لقد عجزت وقتئذ عن حل اللغز ، ولم تستطع وفاته فى بحر تلك السنة أن تحله ، ولكنى واثق الآن أن قوة الفناء اللاشعورية هى التى قادته الى ذلك المسلك ، ولا تفسير غير هذا

فاذا كنت مصابا بضغط الدم العالى فضع نصب عينيك ان نظام الاكل الذى أساسه الارز مع الحرمان من الملح وتعاطى الادوية والحقن لايمكن أن يحل المشكلة . فهذه كلها عوامل قد تكون مساعدة ، وفى أحيان أخرى قد لاتكون لها نتيجة اطلاقا . وانما المعول على تغيير نظام العمل وطريقة المعيشة . فالعمل الشاق يجب أن يحل محله عمل هين ، وساعات العمل الطويلة المتصلة يجب أن تحل محلها فترات أقصر فى مجموعها ومتقطعة ، والقلق والاكتراث المبالغ فيه لكل شيء يجب أن يحل محلهما تسامح وتساهل ، والافراط فى التدخين والشراب يجب أن يحل محلهما تقليل منهما الى أقصى حد ، اذا لم يمكن الاقلاع عنهما ، والضغينة والحسد والغيرة يجب أن يحل محلهما القناعة والرضى والطمأنينة ، واذا تعرضت لانفعال عنيف فلا تنفجر وترخى العنان لغضبك أو لثورتك الا بعد أن تعد فى سرك من واحد الى عشرة ، واذا لم يكن ذلك كافيا فاجعلها خمس عشرة . فان هذه الثوانى الخمس التى تضيفها الى الهدنة ستفيد ولا شك فى اخماد الثورة قبل أن تندلع على حساب أعصابك وضغطك وشرايينك وقلبك . واذا كنت من غواة الرياضة فانقص مجهودك فيها الى النصف أو أقل . ولا تظن ان

المشى رياضة خفيفة ، فاذا كنت متعودا أن تمشى خمسة أميال فاجعلها ميلا واحدا على الاكثر ، وزد ساعات نومك من ست الى ثمان ، واجعل طعامك لقيمات متفرقة على طول النهار لا وجبات ثقيلة وأن يكون خاليا من السلطات والمخللات ، واجعل قاعدتك الذهبية :

ــ خير الطعام ما خلا من ملح الطعام

□

هذا هو العلاج الحديث لضغط الدم العالى ، ولو اننى خيرت بين اتباع ذلك الريجيم وبين وصف أحسن الادوية ، لتخليت عن كل دواء مكتفيا بهذا النظام ..

ولكن وا أسفاه ! ان معظم النـــاس يسهل عليهم ابتلاع الحبوب والعقاقير، ولكن لايسهل عليهم تغيير نمط معيشتهم واما الطعام بدون ملح طعام فتلك هى عقبة العقبات

وربما وصل الطب الى علاج حاسم لايحوجنا الى هــذه التعليمات ، ولكن الى أن تزف اليك بشرى هذا الـكشف العلمى ، فليس أمامك الا ما ذكرته لك فى هذه الصفحات ، واعلم ان كثيرين من مرضاى عاشوا أكثر من خمس عشرة سنة بذلك النظام وضغطهم أعلى من مائتين ، وكانت حياتهم سعيدة هانئة

القرحة

المنافسة على أشدها بين نيويورك وهوليوود !

فيم ؟ أفى الاناقة ؟ أفى المال ؟ أفى الترف ؟

لا شيء من هذا على الاطلاق ، بل ان التنافس بينهما على أشده أيهما تكون عاصمة الولايات المتحدة الامريكية ، لا فى الفن ، ولا فى السياسة ، ولا فى النفوذ الاقتصادى ، بل فى الاصابة بالقرحة !

وليست هناك ــ بصراحة ــ علاقة بين الموقع الجغرافى الذى يعيش فيه الانسان وبين تعرضه للاصابة بأنواع القرح ، وانما المعول كله على نصيبه من الحماقة

فمن المؤكد أن القرحة تتغذى وتأكل من يتغذون ويأكلون أنفسهم ، فأحسن عائل مضياف كريم للقرحة هو بدن الشخص الذى لايستقر على قرار ، فهو غارق الى أذنيه فى الحيرة والجزع والوسوسة والغيرة والحسد وكراهية المهنة والتقزز من الوسط الذى يعيش فيه اما لسبب حقيقى أو لعقدة نفسية ركبت فيه منذ الصغر ، وهى كما ترى ظروف نفسانية وذهنية لا علاقة لها بالمكان ولكن بالسكان ، ولما كانت بعض البلاد تنتشر فيها هذه الآفات لظروف اجتماعية كثرت الاصابة بالقرحة فى بلاد معينة دون غيرها

وهناك خلاف ما تقدم من الاسباب عوامل أخرى من قبيل الارهاق فى العمل ، والتعويل على الوجبات الصغيرة الخاطفة الجافة بغير راحة بدلا من الوجبات الساخنة المريحة التى يأكلها الانسان متأنيا مستريح الاعصاب ،

ويساعد على ذلك أيضا الافراط فى التدخين وشرب الخمر وفساد الاسنان والتهاب الحوصلة المرارية المزمن

ومن أطرف التجارب على أمراض القرحة ما أجرته أخيرا جامعة الينويز بأمريكا علي الكلاب فثبت لديها أن الكلاب قد تصاب بالقرحة المعدية التي يصاب بها الآدميون لأسباب نفسانية أشبه بما يعانيه الآدميون ، وذلك هو المسمى (التحنيس) اى تمنية الكلب بعظمة شهية تتلاعب أمام عينيه حتى يسيل لها لعابه ، ثم يحرم منها حتى يكاد ينفطر قلبه غيظا فلا ينالها

وما أحرانا أن نتعظ بهذه التجربة ، فان ما يحدث للكلب يمكن جدا أن يحدث للانسان الذى يجوز عليه (التحنيس) من أكثر من وجه ، لا بالعظمة الشهية فقط بل بجميع المسرات والملذات الحسية والشعورية التى يمنى بها وتتلاعب أمام عينيه ثم يحرم منها

وقد لاحظ الطبيبان ويلكلشتاين ورتشيلد فى الابحاث التى قاما بها على ثلاثة وثلاثين ذكرا مصابين بقرحات فى الجهاز الهضمي ، ان جميع هؤلاء المصابين بلا استثناء لديهم رغبات عاطفية قوية حيل بينهم وبينها بعد (تحنيس) شديد ، أى بعد اغراء واطماع

ويقول الدكتور والتر الفاريز الطبيب فى مستشفى مايو كلينك انمعظم القرحات تنتج عن التوتر العصبى الشديد والانفعالية العنيفة . فأغلب المصابين بالقرحة من الكادحين والعصبيين

والواقع أننا نعرف الآن طبيا ما هى قرحة المعدة وما شكلها ، ونعرف فى معظم الحالات كيف نعالجها ، ولكن الذى لا نعرفه بالضبط هو ما يسببها ، فكل ما نعرفه مما تقدم عوامل مساعدة ، أو هو الوقود الذى يغذى تلك النار الهادئة التى تستنزف الحيوية من المريض شيئا فشيئا ،

أما الشعلة نفسها فلا نعرف لماذا وكيف تحدث

ومع ذلك فاذا كنت مصابا بما يشخصه الطبيب انه قرحة فى المعدة ، فمن المحتمل جدا أن يقرر لك الطبيب مدة تقريبية للشفاء اذا استطعت تغيير نظام معيشتك ، فقد كنت أعرف مريضا مصابا بالقرحة منذ أعوام وكان يبدو انه انتصر على مرضه انتصارا حاسما

فكيف استطاع ذلك ؟

لقد كان يشعل السيجارة من السيجارة ، ويتجرع الخمر بالزجاجة كل يوم ، فأقلع عن ذلك كله مرة واحدة من دون أن يختلج له جفن ، وقضى على التوتر العصبى الناتج عن العمل أثناء النهار بالنوم العميق ساعة بعد الاكل على الاقل ، وأقلع تمام الاقلاع عن الاطعمة التى يدخل فى صنعها التوابل ، بدون أن يذهب فى أكله الى حد التزمت و (الحفلطة)

ثم أضاف الى ذلك تقليعة أخرى : فقد ابتدأ ينصرف الى الكتب الفلسفية الفنية ، لأنه وجد فى قراءتها ما يلغى الشحنة العصبية ، ويركز ذلك على العقل المنطقى الهادىء ، وهو أبعد ما يكون عن اشعال العواطف أو تحريكها . وافادته تلك القراءة شيئا آخر أيضا ، هو تغير نظرته الى الحياة وتغير قيم الاشياء عنده ، فزهد فى المطامع المظهرية وحب التفوق والنجاح المادى ، وترتب على ذلك شفاؤه من الغيرة والحسد وقصر النظر والطمع

وهكذا استطاع ذلك الرجل الجبار أن يقضى بارادته الفولاذية على قرحته ويتحكم فيها ، خيرا مما استطاع ذلك طبيبه

□

وكثيرون من الناس مصابون بالقرحة منذ مدد طويلة

ولكنهم لايعلمون ، فاذا شعروا بحموضة أو حرقان فى المسالك الهضمية تعاطوا قليلا من بيكربونات الصودا وانتهى الاشكال . ويظل الامر كذلك الى أن تستفحل القرحة وتظهر الاعراض على شكل نزيف أو التهاب فى الغشاء البريتونى

وآخرون يعلمون انهم مصابون بالقرحة ، فقد ثبت لهم ذلك بالاشعة السينية وبغيرها من وسائل الفحص والاختبار ، ولكنهم يرفضون اتباع نظام للمعيشة يتناسب مع علتهم ، فهم مثلا يصرون على الافراط فى التدخين ، وفى العمل ، وفى احتساء الخمر ، (والاحرى أن نقول تجرع الخمر لا احتساءه) ، وفى الاكل بتطرف شديد فى الكميات وفى الاصناف الحريفة . فكأنهم لا يريدون أن يخطوا خطوة واحدة نحو مهادنة قرحتهم ، فتبادلهم حربا بحرب ، وبذلك تنتصر قوة الفناء على قوة البقاء

وانى اكرر هنا انه لا فائدة من العلاج بغير تشخيص مبكر ، وتعاون صادق مع الطبيب بالتزام تعليماته ولا سيما فى نمط المعيشة ، فهو أهم بكثير من العقاقير والاشربة

وحينما يخفق العلاج العادى ، وغالبا ما يكون ذلك بسبب نكوص المريض عن التعاون واتباع النظام الموصى به ، فأمامنا الالتجاء الى مبضع الجراح . ولكن ذلك المبضع لا يحل الاشكال نهائيا ، لأن القرحة قد تعود فى موضعها أو فى موضع آخر اذا لم تتغير الظروف التى أوجدتها

والحقيقة ان مقياس النجاح فى هذا العالم هو قدرة الشخص على التوازن ، وقدرته على وزن مسئولياته لا أمام نفسه فقط ، بل بالنسبة لأسرته وأصدقائه ومجتمعه ووطنه ، فلا حق للشخص فى الانتحار باهمال دائه وأمامه سبيل الحياة ، والتمتع ، والعمر الطويل مفتوحا . . وليس الانتحار دليلا على ان الشخص سيد نفسه ، وانه حر فى

شخصه ، بل هو الدليل على اختلال التوازن والعبودية لدوافع الفناء الكامنة فى أعماق نفسه

أقول ذلك لأن القرحة لا تصيب أناسا أكثر من الفاشلين أو المتحسرين على فواتهم قطار النجاح ، فليس النجاح هو المظهر الناجح ، اذ رب ناجح فى نظر الناس مطوى على حسرات وآمال لم تتحقق وصدمات لها أثر غائر فى وجدانه ورب انسان فاشل فى نظر الناس جميعا ، وهو فى نظر نفسه ناجح ملتذ بحياته لايروم شيئا غير الذى هو فيه

والانسان الناجح حقا فى نظرى هو الذى يكون قد بلغ سن الخامسة والاربعين ، وهو صحيح الجسم ، سعيد فى حياته . ففى هذه السن يكون قد انفسح له الوقت واتيحت له الفرصة كى يختبر آماله ومطامعه ، ويصقل فلسفته بتجارب الواقع ، فاذا خرج راضيا عن نتيجة المعترك ، فقد كسب المعركة ، وهو رجل ناجح ، مهما كان ماله قليلا ، ومركزه ضئيلا ، واذا كان متزوجا وله أولاد ، فهم اذن راضون عما حققه لهم ، ولولا ذلك لما كان سعيدا ، لأنه لايمكن أن يكون سعيدا وهم يواجهونه كل يوم بالسخط . ويغلب عليه أن يكون محبا لعمله ، حتى أنه لايزال يقفز من سريره اليه كل يوم فى خفة وبشاشة

فالرضى هو محل النجاح ومعيار السعادة . أما الثراء والجاه والنفوذ فكلها قشور لا تغنى عن اللباب ، وبغير الرضى لا سعادة بحال من الاحوال

ولكن كيف لايكون ذو الثراء والنفوذ والجاه راضيا ؟

الجواب ان هناك فى أعماقهم وحشا لا شعوريا يأكل أعصابهم ويسمم حياتهم بالقلق والطمع ، وهذا الوحش هو قوة الفناء ، أو غريزة الموت

ويجدر بنا فى هذا المقام أن نذكر نعمة من نعم الطبيعة

الكبرى ، وهى « الالم » ، فالالم ناقوس الخطر فى كثير من الامراض. ولولا ذلك الالم الذى ينبهنا الى اصابتنا بالالتهاب الرئوى ، لكانت السلفا والبنسلين بغير جدوى فى انقاذنا

ولكن الالم كثيرا ما يأتى متأخرا فى بعض الامراض ، وفى مرحلة يكون العلاج فيها عسيرا ، ان لم يكن مستحيلا . ومن حسن الحظ انه فى أمراض القرحة لا يأتى متأخرا

ويغلب على المريض بالقرحة أن يعانى من عسر الهضم المزمن سنوات ، وهناك أيضا نوبات من الوجع تتخللها نوبات من الراحة . والوجع على صورة حرقان فى فم المعدة ، مع كثرة « التكريع » التجشؤ ، ثم تتبع ذلك آلام تحت زاوية الاضلاع

وبتقـدم الداء يقـل النوم ، وينقص الوزن ، وتزداد الحساسية العصبية وتسود الحياة فى نظر المريض . حتى اذا أزمنت القرحة بدأ القيىء والنزيف مع حصول الآلام ليلا ونهارا وتقطعها بغير مبرر لظهورها واختفائها ، فتلك هى علامات القرحة فى المعدة ، أما اذا كان الالم متصلا غير متقطع وكان الاكل باستمرار هو الوسـيلة الوحيـدة لوقف تلك الآلام ، فالقرحة غالبـا فى ذلك الجزء من الامعاء الدقيقـة المتصل مباشرة بالمعدة

ولكن حذار ! فذلك كله تخمين وترجيح ، والوسـيلة الوحيدة الاكيدة هى عمل أشعة سينية ، وأجراء اختبارات معملية أخرى

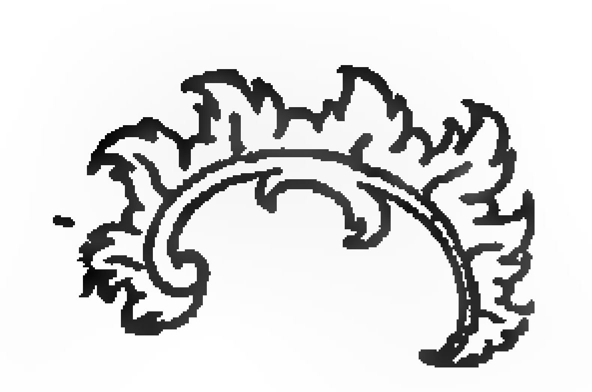
والعلاج كما أسلفت يتوقف بالاكثر على معاونة المريض للطبيب باتباع التعليمات وتغيير نمط المعيشة . فاذا كانت القرحة حادة فيلزم لعلاجها ما بين ستة أسابيع وثمانية ، ويفضل أن يكون ذلك فى مستشفى . وبعد ذلك يجب على المريض الانفراد بعلاج نفسه ، عن طريق الاعتدال فى العمل

والطعام والشراب والانفعالات المختلفة ، والاكثار من الراحة والاسترخاء والتغذية الخفيفة ، والامتناع عن الحريفات والملحات والخمر والتدخين

وقد اكتشفت أدوية للترطيب والتسكين خير من بيكربونات الصودا أهمها هيدروكسيد الالمنيوم

فليثق المصابون بالقرح فى الامعاء الدقيقة أو فى المعدة ان مرضهم الآن لن يمنعهم من الحياة الرضية والعمر الطويل والتمتع الخالى من التنغيص والانقباض السوداوى ، اذا تحكموا فى قوة الفناء الكامنة فيهم ، وغيروا نمط معيشتهم

أيها المقروح ، ابتسم واستعن ارادتك واستقبل الحياة



السرطان

السرطان ضيف ثقيل فضولي وقاتل ، وقد عرفه قدماء المصريين قبل أن يعرفه أطباء اليونان ، وله في اللغة الهيروغليفية اسم قبل أن يكون له ذلك الاسم الذي أطلقه عليه أبقراط . ففي أوراق البردي التي يرجع تاريخها الى سنة ١٥٥٠ قبل ميلاد المسيح وردت أوصاف هذا المرض

فيمكن اذن أن نقول واثقين انه ما من حضارة قديمة أو حديثة أعفيت من ذلك المرض ، وانه ما من جنس أو شعب أفلت من سطوته . وما من سن بمنجاة منه ، وان كان أوساط العمر والشيوخ أقرب الى الاصابة به ، فبعد سن الاربعين نسبة الاصابة به بين الرجال هي نسبة واحد الى ثمانية أو الى عشرة . وبين النساء واحدة من كل ستين امرأة !

والدليل على تعرض جميع الأعمار عموما للاصابة بالسرطان ، أنه في سنة ١٩٤٢ سجلت في الولايات المتحدة أكثر من ٤٥٠ حالة لأطفال سنهم أقل من أربع سنوات . وفي السنة نفسها سجلت الاحصاءات ١٦٠٠ حالة تقريبا لشبان وفتيات أعمارهم أقل من عشرين سنة

والسرطان ـ فيما أعلم ـ ليس ناتجا عن جراثيم ، أو تلوث أدوات المطبخ ، أو القلق ، أو ادمان الخمر ، أو الامساك ، أو طريقة الأكل وأنواعه . ومع ذلك فمن المعروف أن الاثارة العضوية يمكن أن تسبب السرطان

وان كان السرطان في حد ذاته ليس وراثيا ، الا أن

الاستعداد للاصابة به وراثى . وأورامه لا تجدى فيها المراهم والأدهنة ، كما أن النحفاء أقل استعدادا له من البدنيين

ولمعرفة السرطان فى مرحلة مبكرة من تكونه أهمية كبيرة ، لأن احصاءات كلية الجراحين الامريكية أثبتت انه يمكن شفاء ثلاث حالات من كل أربع اذا ما عولجت فى مرحلتها الأولى . وأن تسعين فى المائة من حالات السرطان الجلدى يمكن شفاؤها تمام الشفاء ولكن النسبة تنخفض الى ٢٥ ٪ اذا تأخر العلاج

وقد تتسبب حروق الأشعة السينية والراديوم فى احداث أورام سرطانية بعد سنوات ، كما أن كثرة الافراط فى التعرض للشمس من العوامل المساعدة على تكونها . لذلك نجد الملاحين والفلاحين يصابون بكثرة بسرطان فى أيديهم وفى وجوههم . وأما الأسنان المعوجة والمشرشرة كالمنشار فقد يتسبب عنها سرطان اللسان . وكذلك تدخين الغليون قد يعرض المدمن لسرطان الشفة . كما يلاحظ أن سرطان الجلد أكثر انتشارا فى الأجناس البيضاء منه بين السود

هذه هى المعلومات المتناثرة التى لدينا حتى الآن عن السرطان . وقد بدأت الكلام عنه بأنه ضيف ثقيل وفضولى ، ولكنى أحب أن أضيف الى ذلك صفة أخرى ، أنه أيضا ضيف مجنون . فهو لا يقنع بالحياة حيث تطفل فى هدوء بين « أهل البيت » على حسب النظام الذى يعيشون بمقتضاه ، بل تجده فجأة وقد استولى عليه الهياج بغير سابق نذير

نعم بغير سابق نذير ، أو شبه نذير . فقد لا يكون ثمة ألم فى المرحلة الأولى . أو دم ينزف ، بل ولا ورم فى بعض الأحيان تراه العين .. الى أن تتبين الخلايا المحيطة

بالسرطان ان هذه الخلية قد أصـــابها الجنون ، فراحت تستولى على جاراتها وتعطل وظائفها

واذا نظرت بالميكروسكوب رأيت تلك الخلية المجنـونة وقد تشوه منظرها واعوج ، فهى تدفع الخلايا المجـاورة وتزاحمها وتحاربها وتخنقها ، وســواء كان ذلك فى المخ أو فى الكبد أو فى الكليتين أو فى المعـــدة او فى الأمعاء أو فى العظام .. فهو لا يميز بين موضع وموضع ، وهو خليق أن ينهشها جميعا ويفترسها أو يقضى عليها اذا لم يقـــاوم بشجاعة وبصيرة واستماتة حتى يستأصـــل من جذوره

فثق أن السرطان اذا أصابك فلا محل للمهادنة بينكما ، فاما هو واما أنت. وهو يعيش ويتقوى بتسويف المصاب. فكل يوم تتأخر فيه عن الالتجاء الى الطبيب يقوى السرطان ويضعفك ، حتى اذا حزمت أمرك أخـــيرا وذهبت الى الطبيب ليستأصله ، ربما يكون الوقت المناسب قد انقضى لماذا ؟

لأنه وان نجح الطبيب فى استئصاله من هذا الموضع ، الا انه قـــد يكون تســـربت منـــه « زريعـــة » عن طريق القنوات اللمفاوية الى الدم ، ومنه الى أعضاء أخرى من الجسم ، حيث تحمل رسالة السيد الوالد الذى استأصله الطبيب باشعاع الراديوم

واعلم أن كل ورم ليس بالضرورة سرطانا . ولكن يكفى أن تعلم أنه « ربما » كان سرطانا ، وذلك فى حـــد ذاته موجب للحذر . فاذا شهدت فى جسمك ورما فاعرضـــه على الطبيب ، لأنه وحده الذى يمكن أن يعرف ما هو ، وهل هو ورم خبيث أو غير خبيث ، ولا تستسلم للتخمين والتواكل ، فان الورم اذا كان خبيثا فلن يكف عن النمو حتى يقضى عليك ، اذا لم تعاجله قبل فوات الأوان

وأكبر فرق بين الورم الخبيث وغير الخبيث ، أن الورم

الطيب أو الساذج أو المأمون العاقبة يكتفى بالنمو فى موضعه دون أن ينتشر ، أما الورم الخبيث فانه ينتشر وينمو فى وقت واحد

وقد يكبر الورم الطيب أو المأمون العاقبة نموا يعكر الصفو ، ويضغط على بعض أجهزة الجسم الحيوية ، ولكنه لا يتغذى بها ولا يقتلها ، ولا يقتلك . فى حين أن للسرطان الحقيقى أو الصادق شهوة طاغية لا تهدأ للتخريب وخنق الخلايا المحيطة به

ولكن حذار فان الورم الهادىء قد ينقلب فى أى وقت وحشا ضاريا يفتك بأعضاء جسمك بغير سابق انذار ، فعول على الطبيب دائما فى التشخيص والعلاج ، ولا تركن الى فطنتك الشخصية

واذا كان الاستعداد للاصابة بالسرطان وراثيا ، فكذلك الاستعداد لعدم الاصابة به ، أو الحصانة ضده ، وراثى كذلك فيما يبدو . فقد عاش آخر طفل ممن كانوا يتسلقون المداخن فى انجلترا لتنظيفها من الداخل على عهد شارلس ديكنز ، ولهذا الطفل مائة سنة وأربع من العمر ، مع أن مهنته من أكثر المهن تعريضا لأصحابها لمرض السرطان ، فلولا مناعة فى هذا الطفل لما مات شيخا معمرا ..

وأكرر عليك مرة أخرى أن الشفاء من السرطان أصبح الآن ممكنا الى درجة كبيرة جدا ، ولكن المعول على التبكير بتشخيصه وعلاجه . فكل دقيقة من التأخير مسمار فى نعش المصاب ، لأن هناك مرحلة لا يجدى فيها مبضع الجراح ولا أشعة الراديوم

كن على حذر من هذا العدو الخبيث المخادع ، فانه اذا تمكن منك لم يفلتك .. وكل ما عليك من نصيب تساهم به للقضاء عليه وعلاج نفسك منه هو المبادرة الى الطبيب عند أول اشتباه .

الجزء الرابع

مزالق

- علامات الزمن
- هذه الزيارات
- جماعة النحل

علامات الزمن

من قديم الزمن ــ منذ عهد أبقراط أو قبل ذلك ــ عرف أهل الطب ، كما عرف رجل الشارع ، أن « تغيرا » يعترى المرأة فى وقت معين من أواسط عمرها ، فى حين يبقى الرجل بمنجاة من ذلك التغير

ولكن أخيرا جدا ثبت بوجه قاطع أن الرجل ايضا يتغير ، وأن الرجل والأنثى سواء فى المصير والاستعداد

وانه لمما يدعو للعجب حقا أن تظل تلك الحقيقة المتكررة ملايين المرات فى آلاف السنين بعيدة عن الملاحظة . ولكن ذلك العجب يقل كثيرا اذا أدخلنا فى حسابنا أن غدد الرجل التناسلية لا يكون تغيرها ظاهرا كتغير غدد المرأة . أما المرأة فلا سبيل الى تجاهل تغيرها أو عدم ملاحظته ، لأن ذلك التغير عبارة عن توقف مبيضها عن افراز الحيض أو العادة الشهرية توقفا تاما

واذا تركنا المرأة الى الرجل ، وجدنا التغير بالمعنى العلمى لايصاحبه تغير مظهرى ، فهو لا ينقلب خصيا أمرد ، ويظل على عادة حلاقة ذقنه كل يوم ، ويظل صوته على خشونته وعمقه ، وتظل شهيته الجنسية على حالها فى معظم الأحيان ، ويظل الانتصاب يوافيه ويواتيه ولا يخذله ، ولكن كل ما هناك أن قدرته الجنسية الحيوية تأخذ فى النقصان بعد أن كانت فى الأوج ، أو قل انها تأخذ فى الذبول بعد الازدهار

ونبدأ بتناول التغير الذى يعترى المرأة

معلوم أن المراة منذ سن البلوغ يفرز مبيضاها فى كل شهر ما يعرف باسم الحيض . وفى أواسط العمر تتوقف تلك الافرازات كل التوقف ، فيقال أنها بلغت سن اليأس بمعنى أنه صار من المستحيل عليها أن تحبل وتلد

ومعظم النساء يجتزن تلك المرحلة بغير هزات عصبية. ولكن نسبة تبلغ حوالى ١٥ ٪ من النساء تعتريهن مع ذلك التغير متاعب متفاوتة متباينة

وليس انقطاع الحيض هو العرض الوحيد أو العلامة الوحيدة . فهى تشكو مثلا من نوبات سخونة تصبغها بحمرة مفاجئة وتورد يشمل جسمها كله ، مع عدم وجود مبرر خارجى ظاهر لتلك النوبات أو الفوران ، ثم تتصبب بعرق ساخن فتنهض لتفتح النافذة فى صميم برد الشتاء ، وتلقى عنها الأغطية اذا كانت فى الفراش حتى تستطيع النوم

وقد تتكرر هذه الاعراض مرة أو مرات كل يوم ، وتصاحب ذلك حالات غامضة يلاحظها الزوج وتحمله على القول بأن « مارى لم تعد فتاة الزمان السالف » أى أنها قد تغيرت ولم تعد كالعهد بها مرحا واقبالا على الحياة ومناعمها

وربما لاحظت هى ذلك فى نفسها ، ولكنها لا تستطيع لذلك تفسيرا ، ولا تستطيع لما يحدث لها ويحدث منها منعا أو تحويرا . والواقع أنها معذورة وان كانت لا تدرى مدى عذرها تماما ، لأنها لا يمكن أن تكون مرحة سعيدة مع طروء الخلل والنضوب على مبيضيها

ويستمر الزوج الفاضل فى الشكوى :

ــ ان مارى قد أصبحت فى المدة الأخيرة سريعة الثوران، وكأنها تتصيد الفرص للتشاجر والمناقشة اللولبية الحامية، واذا تصيدت خلافا لم تبد أى استعداد لانهائه ، وهى

دائمة القلق على المستقبل والخوف من الحاضر . واذا انت سألتها ما يفزعها ، لأجابتك أنها لا تدرى بالضبط ، ولكنها خائفة مروعة ، وأنها تشعر أن خطبا يوشك أن ينزل ولا ريب . والصداع المضنى لا يفارقها يوميا ، وهى دائما متعبة مرهقة ، لا طاقة لها بالخروج الى السهرات ، ولا باستقبال الاصدقاء والصديقات .. مع انها كانت على الدوام محور جملة أنواع من النشاط الاجتماعى والنسوى ، وتضطلع بأعمال كثير من لجان البر ، ولكنها فقدت الآن اكتراثها ولذتها بذلك كله ، فلا تذهب الى الاجتماعات الدورية ، ولا ترد علي التليفون ، ولا تتصل بواسطته بصاحباتها كما كانت تفعل طول النهار ، حتى بات التليفون الآن صامتا حزينا لا يسمع له حس بعد أن كان دائم الرنين ليلا ونهارا . ثم انها الآن كثيرة الاصطدام بالأولاد حتى كأنها تريد أن تعضهم ، أما أنا فيخيل الى أنها تفكر فى فى نهشى .. فأيا كان ما أفعل ، فهو خطأ وسوء تصرف وتخريف !

وشكوى هذا الزوج من قرينته السيدة مارى صورة مجسمة لشكوى معظم الأزواج حين تصل زوجاتهن الى سن التغير

وقد تستمر هذه الحالة سنوات قبل أن يتم التوازن فى جسم الزوجة على الاساس الجديد ، مما يكدر عيشها وعيش زوجها . ولكن الطب الحديث يعالج الآن هذه الحالة فيقضى عليها تمام القضاء بسرعة ، ولا تشعر المرأة بأى شىء من هذه المضايقات ، وتستأنف الحياة ببشاشتها ومرحها القديم كأن التغير لم يطرأ عليها . وذلك العلاج هو « الهرمونات » التى تضبط افرازات العرق ، وتهدىء الأعصاب ، وتوقف الرغبة فى الانتحار ، تلك الرغبة التى لا يندر أن تشعر بها المرأة فى الفترة التى يحدث لها فيها « التغير »

وتستطيع المرأة أن تعتمد على علاج الهرمونات الى أن يتم لها التوازن الطبيعي . ولكن لا يقل عن الهرمونات أهمية أن تنظر المرأة نفسها الى « التغير » نظرة خالية من التشاؤم ، فليس معنى انقضاء القابلية للحمل والولادة ان الحياة ومسراتها قد انتهت . بل ان ذلك قد يكون معناه التخلص من مضايقات الحيض وآلامه ، ومما يكلف المرأة من عناية خاصة

▭

هذا عن المرأة ، فماذا عن الرجل ؟

ماري ، هذه الزوجة التى كان زوجها يشكو من أحوالها عندما حدث لها « التغير » ، أليس زوجها أيضا عرضة لمثل تغيرها ؟

ان أحدا لم يقل عنه انه « تغير » عندما وصل الى سن الخمسين . ولكن لماذا زادت عصبيته ؟ ولماذا سئم عمله وصار يهمله ولا يكترث لمصالحه ؟ ولماذا صار يجهش بالبكاء عند أقل اثارة ؟ لماذا هجر أصدقاءه ؟ أين ذهبت ابتسامته المشرقة ، وضحكته المجلجلة وبحثه عن المرح ؟ ماذا « غيره » ؟

لا هو نفسه يدرى ، ولا أولاده وزوجته يدرون ماذا حدث له .. ولكن الحقيقة أن انحطاطا أصاب وظيفته الجنسية ، أى أصاب نشاط خصيتيه ، وان كان لا يعنى طبعا العجز عن الاخصاب والنسل ، ولكنه انحطاط وذبول ليس أكثر

وفكر رجال الكيمياء الحيوية وعلم وظائف الأعضاء فى ذلك الموضوع ، وقالوا فى أنفسهم :

ـ للمرأة هرمونات ، فلماذا لا يكون للرجل أيضا

هرمونات ؟ يجب أن نبحث عن هرمونات الرجل فقد يكون لديها مفتاح اللغز

وقد اتضح أن السن الطبيعي أو الغالب لحدوث التغير لدى المرأة هو ما بين الخامسة والأربعين والخامسة والخمسين . وان كان هناك نساء يتغيرن في سن الخامسة والثلاثين ، وأخريات يتغيرن في سن الستين

واتضح أن السن الطبيعي أو الغالب لحدوث التغير لدى الرجل هو ما بين الخمسين والخامسة والستين . وان كان من الرجال من « يتغير » في الخامسة والأربعين ، ومنهم أيضا من يتغيرون بعد أن يتجاوزوا السبعين

ولذلك كان أول ما يبحث عنه الطبيب حين يشكو له الرجل أعراض التعب والانقباض وهبوط الهمة والقوة أن يسأل عن عمره . فاذا كان في الخامسة والثلاثين أو الأربعين فليس من المحتمل كثيرا أن تكون هذه أعراض « التغير » أو بداية الانحدار الجنسي ، لأنه لا يزال شابا . ولكن ذلك غير مستحيل أيضا ، فاذا لم يجد الطبيب به مرضا عضويا يسبب هذه الأعراض ، أو مرضا عصبيا ، أو ارهاقا في العمل ، أو عقدة نفسية ، فلا مناص من أن تكون هذه الأعراض أعراض « التغير » حقا

ومتى اطمأن الطبيب الى التشخيص ، فما هي الوسيلة لعلاج الحالة ؟

لقد اكتشف العلم في السنوات الأخيرة جدا هرمون الرجل كما كشف من قبل هرمون المرأة . وقد أتى ذلك العلاج بنتائج مدهشة جدا وسريعة . فمعظم « الحالات » يعودون الى أعمالهم بنشاط وحيوية ، ويستأنفون نشاطهم الاجتماعي ومزحهم بعد مدة وجيزة ، وكأن ما حدث لهم كان كابوسا مزعجا زال باليقظة

ولكن هناك حالات أخرى ــ ولو أنها قليلة ــ لم يفدها

العلاج بالهرمونات ، وظلت على حالتها دون تحسن . فكان لا بد من عمل شيء لهؤلاء المساكين

وأخيرا جدا ظهر العلاج بالصدمات الكهربائية على يد الايطاليين « سيرلتى » و « بينى » فى سنة ١٩٣٨ ، ولا تتجاوز مدة العلاج بهذه الطريقة لمن يستجيبون لها ستة أشهر . وتبلغ نسبة المنتفعين بهذه الطريقة ٦٢ ٪ من الحالات المستعصية ، فى مقابل ٣٠ ٪ يشفون بطريقة الهرمونات

وليس كل رجل معرضا لهذه الهزات العنيفة . بل هذه حالات من « المناخوليا » لا تحدث الا للأقلية من الرجال . أما الأغلبية الساحقة فيجتازون الكهولة دون متاعب ، ويظلون على هدوئهم واتزانهم ، بل ربما زاد اتزانهم وصفاء نفوسهم

□

ومن المعروف أن من يصابون من الرجال بالمناخوليا فى أواسط عمرهم لبداية الانحدار الجنسى لديهم كثيرا ما يفكرون فى الانتحار العنيف ، ولا سبيل الى تلافى ذلك الا عن طريق يقظة الأسرة وتفتح ذهنها ، فيقنعون والدهم باستشارة الطبيب بدون ابطاء . وغالبا ما يكون المصاب بالمناخوليا عنيدا يصر على الرفض ، فتلزم الحصافة والحيلة فى اقناعه . وذلك العناد لا تفسير له فى نظره سوى ازدياد سطوة « قوة الفناء » أو غريزة الحياة

وليعلم أهل الرجل انه فى حاجة الى العطف والحب والرعاية فى تلك الظروف أكثر من اى وقت آخر ، لأنه « عزيز قوم ذل » ..

هذه الزيارات

ان المريض الملازم للفراش كالحيوان المستوحش ، تثقل عليه العزلة والوحدة . فاذا كان مرضه ثقيلا لم يشق عليه أن يرقد مستكينا ، وقد انقطعت الصلات بينه وبين العالم الخارجى بفراق عافيته . حتى اذا عاودته العافية واخذ فى النقاهة ظهر عليه الضيق والسأم والضجر ، ووجد نفرة من نظام المستشفى الذى لم يألفه

أجل ان غدو المرضات ورواحهن يساعد على قتل الوقت ، والطعـــام فى أوقاته المحدودة يساعد على قتل الوقت كذلك . والدواء فى مواعيده يقتل الوقت ، وحقن البنسلين تقتل جانبا من الوقت أيضا ، والتدليك بالكحول فيه قتل للوقت ... ومع كل ذلك القتل فالسآمة باقية ، وللوقت ثقل وتباطؤ

وان زيارة الطبيب التى كانت لها ابان شدة المرض أهمية كبرى ، لأنه يتوقف عليها المصير المشكوك فيه ، قد انطفأت اهميتها وذهب بريقها بحصول الاطمئنان .ونغمات الاذاعة التى كانت تبدو جميلة مسلية صارت ولا طعم لها ولا معنى، وانما هى ضجة مزعجة ، وكذلك الكتب والمجلات قد ذهبت عنها طلاوتها والقاها المريض بعيدا عنه دون أن ينظر الى عناوينها الخلابة ، أو يقلب صفحاتها المزدانة بالصور

واذا كنت قد مررت بتلك التجربة ، تجربة الرقاد فى فراش بالمستشفى أسابيع بعد أسابيع ، فأنت لا شك تدرى ما هى ألسنة القلق التى تأكل القلب ، وما هى أغطية الفراش

التى يجفوها الجسم ويرفض أن يطمئن اليها لانها تثير الكوع والفخذين وبقية المواضع الاخرى الحساسة من جسمك

فهل من عجب حينئذ أن نضيق بالرقاد ونتحسر على الايام الحلوة الماضية التى كنا فيها قائمين على الارض ، نروح ونجىء ، ونذهب حيث نشاء ؟

ويغلب أن تغلق باب المريض فى المستشفى بمجرد دخوله لافتة تحمل هاتين الكلمتين :

ـ الزيارة ممنوعة

وتتولى الممرضة تنفيذ هذه التعليمات ، فلا تسمح بتجاوزها الا لمدد قصيرة جدا لا تتجاوز الخمس دقائق ، ولذويه المباشرين فقط . وبذلك يحال بين المريض وبين اقرب أصدقائه

وفى اعتقادى أن مئات ، بل آلاف الوفيات فى المستشفيات انما تحدث سنويا نتيجة لسوء استخدام الزيارات

واضرب لذلك مثلا حالة المستر سميث الذى يعالج من نوبة أصابت الأوعية التاجية ، وهى أوعية القلب . ويبدو فى الظاهر أن الاصابة خفيفة ، أو هكذا تبادر الى ذهن سميث فبعد بضع ساعات فى المستشفى سيطر الاوكسيجين الذى أسعف به على الألم وقضى عليه ، وعمل المورفين عمله فى تسكين الآلام . وبعد نوم عميق فتح عينيه فى اليوم التالى وهو يشعر أنه قد أصبح « صاغ سليم »

ولكن الواقع ان الكشف الكهربائى والاختبارات المعملية تبين بما لا يدع مجالا للشك أن جدران القلب قد أصابها وهن محسوس ، وربما كان هبوطا عارضا ، كما أنه قد يكون هبوطا قاضيا . وقد رتب الطبيب نفسه ووصف العلاج اللازم بعد أن اطمأن الى التشخيص وكان من أهم عناصر العلاج هذه اللافتة التى على الباب : « الزيارة ممنوعة »

ومعظم ما تبقى من العلاج موكول الى المريض نفسه . فأى طراز من الناس هو ؟ هل هو مستعد للرقاد فى استكانة وهدوء ؟ وهل يذعن لتحريم التدخين عليه ؟ وهل يوافق على الا يتحرك فى حين تتولى الممرضة اطعامه كما يرضعون الأطفال الصغار ، وأن تقضى له ضرورات امعائه وهو فى الفراش كالرضعاء ؟ وهل يثور على عزله عن اقاربه وأصدقائه أو يستسلم للعزلة ؟

هذه كلها أسئلة تشغل ذهن الطبيب الذى يعالج المستر سميث ، وعليها يتوقف نصيبه من الشفاء

وسرعان ما تلقى الطبيب الجواب عليها بعد يومين اثنين ، أى بمجرد مرور الأزمة وأوجاعها . وهذه هى الممرضة تقول له عندما سألها على انفراد :

ـ لقد بدأ يدخن فى اليوم الثانى . وفى اليوم الثالث ضبطته خارجا من دورة المياه ، فلمته وحاولت أن أسنده لأوصله الى فراشه ، فدفعنى جانبا واستمر فى سيره وحده وهو يزمجر

اذن خرق سميث جميع النواهى . وربما كان ذلك لأنه لم يتعود أن يتلقى الأوامر من الطبيب والممرضات ، وان هم فى نظره الا أحداث فى ثياب بيضاء . فاذا احتج عليه الطبيب محذرا بقوله :

ـ ولكن الأمر يتعلق بصحتك وحياتك . .

اجابه ساخرا متضجرا :

ـ صحتى ؟ حياتى ؟ هراء ! هذا عيبكم أيها الأطباء اجمعون : تهولون وتبالغون . كأنما لا يكفيكم أن تلقوا الرجل منسا على ظهره ، فتأبون الا أن تجثموا فوق صدره كى لا يتحرك . ما أشوقنى الى مبارحة هذا المكان الكريه !

وانى شخصيا اعذر مثل هذا الرجل فى الرغبة فى الحركة

والخروج والتدخين والذهاب الى دورة المياه . ولكن الذى لا أفهمه اطلاقا كيف أن شخصا ذكيا يقدر ظروف مرضه بحيث يقبل أوامر الطبيب كلها وينفذ نواهيه حرفيا ، يقاوم منع الزيارة فى الوقت نفسه ؟

انه ـ اذا كانت لديه ذرة من الثقة فى طبيبه ـ حرى أن يدرك أن ذلك المنع لمصلحته ، وقد حتمته ظروفه الصحية ، وأنه ليس مجرد اشباع لنزعة « سادية » قاسية لدى الطبيب المعالج

وكثيرا ما يكون المريض مقتنعا ومستسلما ، ولكن حضرات الأصدقاء الأعزاء والأحباء يأبون الا التحايل على خرق منع الزيارة ، فاذا صمدت الممرضة قال الواحد منهم :

ـ من أجل خاطرى يا حضرة الممرضة . انه أعز أصدقائى وقد قطعت ثلاثمائة كيلومتر بالسيارة كى أراه . انى منزعج جدا ، ولن أمكث الا خمس دقائق .. وسترين أنه سيسر جدا جدا بزيارتى ، وستنفعه رؤيتى فى رفع روحه المعنوية ومقاومة المرض

وتلين الممرضة ، ويدخل الزائر ، وتطول الدقائق الخمس الى ساعات ..

والمشاهد أن الزوار يبدأون فى التوافد فى اليوم التالى للعملية أو للنوبة القلبية ، ويظلون جالسين ، يتكلمون ويتكلمون فى تفاهات كثيرة ، وقد ينزلق بعضهم ـ وقد يكون معروفا بالكياسة والسياسة ـ فيتحدث عن المسكين جون الذى مات فى الاسبوع الماضى بهذه العلة بالضبط ، مع أن الأطباء أكدوا أن العملية ناجحة وأن الشفاء مضمون !

واعتقادى الشخصى أن معظم الزوار لا يحضرون من أجل المريض ، أو شفقة عليه واهتماما بأمره ، بل لأن رؤية شخص طريح الفراش تشعر الزائر باللذة ، لتمتعه بالحركة والحرية والعافية ، وبأنه نجا من هذا القضاء الذى أصاب الصديق .

وذلك خير طبعا من أن يكون هو المصاب ، وقضاء ألطف من قضاء !

ان خير وسيلة تظهر بها شعورك نحو مريض هى أن ترسل اليه طاقة من الزهور ، أو كتابا ، أو مجلة ، أو حتى بطاقة زيارة ، أما الأكل فلا ، وأما طلعتك البهية ، وأحاديثك الطلية فابقها لنفسك وللأصحاء من أمثالك

ومن المقطوع به أن الزيارات الطويلة مجهدة جدا للمريض وهى كثيرا ما تتسبب فى وفاته ، لا مباشرة طبعا ، ولكن بتقليل مقاومته ، وتأخير ادخار القوة اللازمة فى مدة النقاهة

واذا سمح لك بالزيارة بغير الحاح من جانبك ، فاياك مما يأتى :

أولا : التدخين

ثانيا : الجلوس على فراش المريض

ثالثا : اظهار الجزع واللهفة

رابعا : ذكر أحاديث الموت والمصائب

خامسا : اطالة الجلوس ، فعشر دقائق أشق على المريض من زيارة طولها عشر ساعات على رجل صحيح البدن



جماعة النحل

لقد قلت لك أن التسويف فى زيارة الطبيب قد يكون معنـــاه فى حالات كثيرة أن غريزة الفنـــاء لديك قد صارت لها الكلمة العليا على غريزة الحياة والبقـاء ، وانك تنحدر الى الهلاك بسبب ذلك التسويف

والآن أتحدث اليك عن الشخص الذى يفعـــل نقيض ذلك تماما : أى عن ذلك الطراز من الناس الذين يتنقلون من طبيب الى طبيب فى غير توقف ، وبغير صبر ، ولغير سبب

وقد عرفت شخصيا مرضى اعترفوا لى بغير تحـرج وبغير خجل أننى كنت الطبيب التاسع أو العـاشر الذى استشاروه خلال العام فى مرضهم هذا !

واذا كان لدى الطبيب قدر كاف من الغرور ، فانه يسر بما سمع ، لأنه سيخيل اليه أن السلسلة قد وصلت به الى نهـــايتها ، وانه لم تعد بالمريض حاجة الى مزيد من الاستشارات بعد أن اهتدى الى نابغة الزمان وفريد العصر والأوان

ولكن الواقع أن الأطباء الســابقين كان فيهم أكثر من واحد عرفوا المرض ووصفوا له علاجا نافعا لا خطأ فيه ، وانما هى قلة صبر المريض تحــول دون انتظـار نتيجـة العلاج مدة كافية ، فيدفعـه التلهف على العافيـــة الى البحث عن طبيب آخر

وهــذه الفئة من المرضى أشبه بجماعة النحل ، يتنقلون

من طبيب الى طبيب كما يتنقل النحـــل من زهرة الى زهرة ، مع فارق بسيط : فالنحـلة تستفيد من جميـع الأزهار ، أما هم فلا يسـتفيدون من طبيب واحـد من هؤلاء جميعا ، لأنهم لا يعطونه فرصة الافادة ، ولأن كثرة الاستشارة تبلبل الذهن وتشوش الخاطر ، فتزيد بذلك الحيرة وتتضاعف عوامل الاشكال والقلق

والمفروض طبعا أن المريض لا يهبط على عيـادة أول طبيب يصادفه عنوانه فى سجل التليفون حيثما اتفق ، بل لا بد من التخير الجيـــد ، والا لم يكن هناك معنى لتلك الاستشـارة ، لعدم توفر عامل الثقة ، وهو أهم العوامل التى تساعد على الشفاء

ولـكن ما أكثر أخطاء المرضى فى هذا الباب بالذات : فكم من مريض بالقلب طرق باب جراح مشهور ، لأن له اسما رنانا ، مع أن أحدث طبيب باطنى قد يكون ، بل هو لا شك أقدر على نفعه وتشخيص حالته من ذلك الجراح النابغة

ان الاغراق فى التخصص هو مزية العصر الحديث ، أو هو على رأى بعض النـــاس عيب العصر الحديث . فيجب أن يكون للشخص طبيب مختار غير متخصص ، وانما هو باطنى على العموم ، تكون مهمته أشبه بمهمة عسكرى المرور فى الشارع المزدحم ، يعرف كيف يوقفك ، وكيف يسمح لك بالمسير ، وكيف يوجهك الوجهة الصالحة . فهو تارة يصرفك مطمئنا ، وتارة يدلك على جراح اذا كانت الجراحة هى منقذك من الملك ، أو الى طبيب نفســـانى يحلل لك مكنونات وجدانك اذا كنت تشكو من عقدة مكبوتة ، أو الى رمدى أو طبيب للمسالك البولية وهلم جرا

وانى انصح المريض اذا لم يكن راغبا فى قتل نفســه بسوء الاختيار والتصرف ، أن يدقق جدا فى اختيار طبيب الأسرة أو الطبيب العمومى ، فان ذلك الصنف من الأطبـاء

اذا توفرت له الكفاية والذمة والمرانة والاطلاع الواسع المتجدد كان كالماس الخام ، من حيث القيمة ومن حيث الندرة . فالجانب الأكبر من صحة الناس بين يدى هذا الطبيب العمومي ، وعلى فطنته وذمته وكفايته ، يتوقف مصير المريض فى الغالب

□

وفيما يلى قليل من كثير يمكن أن يحدث للمرضى المساكين اذا كان الطبيب العمومى ـ أى طبيب العائلة ـ مشغولا جدا ، أو متعجلا ، أو غير متمرن تمرينا كافيا للعناية بمرضاه وفهم مشاكلهم :

فهذه مثلا سيدة قد يكون فى صدرها ورم ، وقد يكون ازدحام عيادة الطبيب بالمرضى المنتظرين سببا فى تسرعه ، وفى هذه الحالة لا يتم كشف الطبيب بدقة على ذلك الورم ، الذى قد يكون سرطانا خبيثا

وهذا مثلا رجل يشعر بانقباض وكآبة وهبوط فى همته وقواه العامة ، فتحول عجلة الطبيب بسبب مشاغله أو بسبب قلة خبرته ، دون توجيهه الوجهة النافعة ، فيربت على ظهر المريض المكروب ويكتفى بأن يوصيه بعدم الاكتراث ، ومن المحتمل جدا أن يكون هذا المريض بعد أسبوع واحد معلقا فى حبل ، أو جثة طافية فوق وجه الماء .. لأن طبيبه لم يحوله الى المحلل النفسانى الذى يكشف عن عقدته

فأول ما يجب توافره فى الطبيب العمومى ، أو طبيب الأسرة ، أن يعرف حدوده . فالطبيب الذى يعرف جيدا أن هناك الكثير مما يجهله من أمر الطب هو وحده الطبيب الجيد المأمون الجدير بالثقة والائتمان

وما أكثر الفواجع التى خبرتها شخصيا بسبب عناد

طبيب الأسرة وكبريائه الكاذب ، فهو يحول بين مريضه وبين استشارة أخصائى شهورا وأسابيع ، لأنه يخزى من شبهة الجهل أو العجز . وكثيرا ما يحدث ذلك بسبب الجهل فعلا ، أى لأن الطبيب يجهل خطورة الحالة المعروضة عليه . ولكن المسئولية الخلقية فى هذه الحالة أخف بكثير من المسئولية فى حالة العناد والكبرياء

وليعلم المريض أن من حقه دائما أن يطلب أقصى الضمانات لشفائه ، وأن يلح فى استشارة الاخصائيين للاطمئنان ، وعلى طبيب الأسرة أن يحترم رغبته وينفذها ولكن على ذلك الطبيب أيضا أن يوقفه عند حده اذا رآه سيندفع فى الاستشارة من طبيب الى طبيب ، ومن اخصائى الى اخصائى كجماعة النحل ، وعليه فى هذه الحالة أن ينصح له ويبين له من حقائق المهنة الطبية ما كان يجهله ، فى صبر وأناة

عليه مثلا أن يبين له ان بعض الامراض مثل ضغط الدم العالى تظل أعراضها المزعجة مدة طويلة مهما كان العلاج مفيدا ، وان ذلك ليس مبررا على الاطلاق للتشكك فى الطبيب والمعالج وتغيير نظام علاجه

وانى أحب أن أهمس فى اذن المريض بنصيحة اخرى :

أولا : اياك أن تستمع الى ما يتردد دائما فى عربات الترام والقطارات من قبيل هذا اللغط :

ـ من هو طبيبك ؟

ـ فلان ...

ـ مسكين ! انى لا آمنه على علاج قطتى . انه جاهل جهول . جرب الدكتور «س» اذا كنت تريد حقيقة أن تشفى

وثانيا : اياك أن تكون من غواة الافتخار باقتناء أكبر عدد من الروشتات من أكبر عدد من مشاهير الأطباء .. فان جمع الروشتات يختلف عن جمع طوابع البريد فى أنه غير مجز ماديا ، وفى أنه ضار جدا فى بعض الأحيان ...

الجزء الخامس

المتاعب الصغيرة

- الرياضة البدنية
- القلق والتردد
- حب الظهور

الرياضة البدنية

يزعم انسان القرن العشرين على سبيل التفاخر أن البون بينه وبين جده الأعلى ساكن الكهوف قد أمسى بعيدا . وفى ظنى أن تاريخ الحروب فى ثلث القرن الأخير يضعف كثيرا من أسس هذا الزهو . فالانسان فى لبابه اليوم لا يختلف كثيرا عن جده الأعلى ساكن الكهوف. فلا تزال فيه اندفاعات ذلك الجد العنيفة ، واسراعه الى الغضب ، وترحيبه بالقتال ، ورغبتــه فى الفوز على اشــلاء اخوانه ونظرائه ، وانحصار مطامعه ومخاوفه فى نفسه وفى ذويه وآله

فنحن واجدادنا الأولون أشباه فى مجالات الانفعال والنزوع وكل ما أكسبتنا اياه الثقافة خلال تلك الاجيال الطوال انما هى قشرة سرعان ما تتهشم ثم تتلاشى عند أى احتكاك ؛ فتكشف عن الخشونة والفظاظة والعدوان

اجل لقد تقدمنا كثيرا من الوجهة الذهنية والعلمية ، أما من الوجهة الجسدية فما أشد تخلفنا عن آبائنا الجبابرة الذين كانوا يحملون الهراوات حيث ننوء نحن بريش الأوز

فاذا أمعنا النظر فى أنفسنا تكشفت لنا حقيقة صورتنا عن مزاج أو خليط شائه من ذهن قوى متقدم ، وجسد واهن لا يسايره،بعد أن أضعفته حياة المدنية السهلة الناعمة

ولكن الانسان الحديث لا يزال طموحا الى قوة الجسد ورشاقته ومرونته ، ولا يريد أن يروض نفسه على أن فى قوة الذهن كفايته من أسباب الزهو والمتعة ، ولهذا نجده يصر على الرياضة والتمرين

وفى سبيل هذا المطمع كثيرا ما يسبب الانسان الحديث لنفسه أضرارا جسيمة ، بل أنه كثيرا ما يقتل نفسه عن هذا الطريق

وربما هالتك هذه العبارة ، فصحت بى :

ـ واعجبا ! يقتل نفسه ؟ تلك دعوى عريضة ، فما أكثر ما لعبت الجولف والتنس فى الثلاثين سنة الاخيرة ، فلم ار لاعبا يسقط أمامي ميتا من الافراط فى الرياضة فى الحلبة المعشوشبة ، أو فى فناء التنس ...

ربما ! ولكنى واثق مما أقول ، وقد شاهدت شخصيا ذلك يحدث أمام عينى ذات مرة ، ومع هذا فلست أبنى دعواى على تلك المشاهدة العيانية فى الملعب ، بل على ما يحدث بعد ذلك مباشرة ، أو بعدة أيام أو بأسابيع قليلة على الأكثر

وكى يكون حسابنا دقيقا للنتائج الضارة التى تنجم عن الافراط فى الرياضة ، فلا بد من مراعاة اعتبارات كثيرة جدا، منها العمر ، والعمل ، والحالة الذهنية والجسمية

ولما كان الرأى السائد ان الرياضيين يكونون فى أوجهم وهم فى نحو سن الثلاثين ، فمن الملائم أن نعتبر سن الأربعين بداية الشيخوخة لديهم

والواقع أن المتاعب والاضرار تنجم جميعا من توهم الرياضى أنه شاذ عن المألوف ، وأنه غير قابل لأن يشيخ . ولئن كان جميلا أن يشعر الانسان أنه شاب دائم الشبيبة ، الا أنه من الخير له أن ينزل على حكم الواقع ، وأن يعترف بمرور الزمن ، فيلزم الحيطة والحذر

□

ومن دواعى الأسف ان معظمنا ميالون الى التظاهر أمام الناس ـ وأمام انفسنا بالاكثر ـ بأننا أصغر من الواقع

الحسابى . وهو ميل قوى الى درجة مدهشة فعلا ، وتحت ضغط ذلك الميل يسلك الرجل الظاهر الاتزان مسلك الغلام الذى لم يبلغ بعد سن العشرين ، تتقاذفه الاهواء والنزوات الحامية الجامحة !

فهل أنت قد ناهزت الأربعين أو تجاوزتها ولا زلت تأبى أن تخفف من غلوائك واندفاعاتك الرياضية العنيفة اظهارا للفتوة وتظاهرا بالقوة ؟

أتشعر بميل جارف الى أن تثبت لنفسك وللناس ــ ولا سيما الجنس اللطيف ــ انك لم تهرم ؟

وهل وقع اختيارك على العضلات والقوام ، لا على الذهن والقريحة ، وسيلة لذلك البرهان ؟

اذا كان ذلك كذلك ، فأنت لا شك يا صاحبى تسعى الى حتفك ، وتعمل دون أن تشعر على قتل نفسك . فليس من تفسير لاقدامك على الافراط فى المجهود البدنى فى الوقت الذى تتخاذل وتتضاءل فيه طاقة اجهزتك الا أن قوة الفناء فى أعماق نفسك قد بدأت تتغلب على قوة البقاء

لا بد ان الأمر كذلك ، لأننى لا أظنك تزعم أن سعادتك وصحتك تتوقفان على مطاردة كرة التنس طول وقت العصر متباريا مع غلمان وكواعب فى سن العشرين ، أى فى سن أولادك وبناتك أيها الشيخ !

وقد دلت التجارب التى أجريت فى المعامل التى تعالج وظائف الأعضاء الحية على انك اذا كنت متعبا جسمانيا وأتعبت عضلاتك بمزيد من المجهود كان ذلك أدعى لشدة توترها وعدم استعادتها الراحة الطبيعية الا بعد مدة أطول فالرياضة ليست من وسائل الراحة والانعاش ، ومن الخطأ أن تخرج من عملك مكدودا متعبا وتحاول الترويح عن نفسك والتهوين من تعبك فى العمل بمزيد من التعب فى الملعب

واذا كان عملك ذهنيا مكتبيا لا صلة له بالعضلات ،

فاعلم ان المجهـود الذهني يضعف العضـلات ، فيكون استعدادها للرياضة العنيفة قليلا ، وتأثيرها عليها ضارا

ومما يقلل قوة العضلات واحتمالها عدم استكمال الانسان حظه من النوم ، فلا تحاول انعاش جسمك بعـد السهر أو الأرق برياضة عضلية عنيفة

ولعلك تتساءل الآن :

ـ ولماذا خلقت لى العضلات ان لم استخدمها ؟

والجواب أن العضلات خلقت لوظائفها المعقولة لا لأغراض مصطنعة ، وخلقت لارضاء الشبان الأغرار الذين يلذ لهم تصريف حيويتهم الزائدة بالملاكمة والجرى والنط وحمل الأثقال ...

□

ولست ازعم أن سن الأربعين حـد فاصل تماما بين الشباب والشيخوخة ، ولكنه حد تقديرى ليس الا . فمن أبناء الخامسة والثلاثين من هم أسن حيويا وعضويا من فريق من أبناء الخامسة والخمسين . ولكنك لا تعدو الصواب فى أغلب الحالات اذا قلت أن أبناء الأربعين من الجنسين لم يعودوا فى سن الشباب ، وأن الأولى لهم أن يعتبروا أنهم فى « شباب الشيخوخة »

وربما خطر لك أنك بخلاف ذلك المألوف ، فأنت تكف عن الرياضة ولا زال فيك فيض من قوة ، ولم يدركك الكلال . فاذا كان ذلك كذلك فأنت حقا انسان شاذ خارق للعادة

□

والحقيقة ان المرء بحاجة الى ارادة من فولاذ كى يتحكم فى

نفسه ويمتنع عن الرياضة فى كل شوط قبل أن تستنفد قوته

بل انى أعرف شخصيا من مرضاى المصابين فى القلب من لا خطر عليهم اطلاقا من لعب خمس الى تسع حفرات من الجولف ، ولكنى لا أسمح لهم بذلك خوفا من الاندفاع ، لأن للنشاط العضلى اندفاعا ونشوة ، كنشوة البقر حين تأخذه حمى الجرى . ثم هناك الشركاء فى اللعب الذين يلحون على المرء أو يورطونه فى مزيد من اللعب بعد أن أبدى رغبته فى الاكتفاء . وللزملاء أغراء ، ولا سيما حين يخجل المرء من قطع نشوة زميل لا يمكنه أن يلعب بغير مشاركته

فمن الخير للكهول ومن تجاوزوا الأربعين عموما أن يقتصروا على الرياضة غير العنيفة ، من ركوب الجياد الهادئة ، الى المشى ، والقوارب الشراعية ، وزراعة الحديقة ساعة كل يوم . بل انى أحسب ذلك كثيرا على البعض منهم . وأسلم السلامة أن يكتفى من جاوز الأربعين بالمشى مسافة معتدلة، فذلك حسبه من الرياضة ، وفيه الكفاية للانعاش والتنشيط وتسهيل عمليات الهضم ...

اذكر جيدا أن القلب فى سن الأربعين لا يمكن أن يكون كامل القوة ، وتذكر أيضا أن عضلاتك تنال كفايتها من التمرين فى أثناء قيامك بالعمل ــ مهما كان عقليا مكتبيا ــ دون أن تشعر

واذا كنت امرأة ، فتذكرى أن أعمال البيت فيها من الرياضة ما هو حسب بنت الأربعين ، فلا تهدرى حيويتك فى الرياضة ووفريها لأعمال البيت التى لا يمكن أن تنتهى ، اذا كنت ربة بيت بمعنى الكلمة

وها هى نصيحة جوهرية للجنسين : لا تخالوا أن الرياضة يمكن أن تقيكم من الاصابة بالأمراض ، بل المرجح أن التعب

العضلى الذى ينجم عنها يجعلكم أكثر تعرضا للاصابة بها ، وأقل مقاومة للعدوى

وتذكروا أيضا أن الرياضة لا تنقص الوزن أو تذهب بالشحم والبدانة ، فالوسيلة الوحيدة لانقاص الوزن هى التزام نظام غذائى محدد

فاذا كنتم ترغبون فى النشاط والانتعاش والعافية ، فابحثوا عنها بالرشاقة والنحافة ، والنوم الكافى ، وعدم الارهاق فى العمل ، والتمتع بأجازات كثيرة طويلة ...

تذكروا أنه لاحاجة بكم على الاطلاق لأن تمارسوا الرياضة البدنية العنيفة لصحة أجسامكم !



القلق والتردد

من عجائب الطبائع واختلافاتها بين جنس المرأة وجنس الرجل،أن المرأة تكترث وتقلق لا للأمور الجسام،بل لسفاسف الامور وصغائرها ، فتأخذها مآخذ الهموم حتى لتقيمها وتقعدها

أما الرجال فانهم يسخرون من ذلك وينكرونه،ويقولون :

ــ الا ما أعجب النساء وأسخفهن ! انك حري أن تعتمد على المرأة فى مواجهة المصاعب والأرزاء ، ولكنها تتداعى وتتحطم أمام هنات هينات لا أهمية لها على الاطلاق ، أما نحن فنكترث للأمور على قدر جسامتها وخطرها

وانه لمن الخير حقا أن يكون ذلك الاختلاف فى المزاج بين الجنسين ، فماذا يحدث لوأن الامر الذى يطيش له حلم الرجل ويطير له قلبه شعاعا ، هو الذى يغمى على المرأة بسببه ؟ اذن لتعقدت الامور ، ولكانت النازلة الواحدة تنزل بالبيت فتقضى عليه دفعة واحدة فلا تقوم له من بعد قائمة

ولكنى أعرف حالات معينة كانت المرأة فيهـا أثبت من الرجل وأعظم صبرا . فقد كان الرجل يبحث عن مسدسه ليضع حدا لحياته لأن الخراب نزل به فضاعت ثروته وأعلن افلاسه بعد غنى عريض وترف وبذخ ، واذا الزوجة تستقبل الأمر هينا لينا ، فلا يطرف لها جفن ، وتؤكد بكل بساطة وبشاشة أنها ستسعد كثيرا بالسكنى فى بيت لا يزيد على حجرتين ، وأن ذلك سيكون أجمع للشمل ، وأسهل فى التنظيف والتدبير وأخف عبئا عليها

وانه لمن المدهش حقا ما غرسته الطبيعة فى فطرة بعض النساء من ملاقاة الكوارث المقعدة للرجال بصدر رحب ، وكأنهن يستشعرن لذة داخلية خفية لنزولها بهن ، وليس أقل مدعاة للعجب من هذا أنهن يألفن الحياة الجديدة ويعشنها وكأنهن لم يعرفن سواها من قبل !

وأعرف من هذا الطراز سيدة كانت رئيسة ادارة النادى فى بلدتها ، لأن زوجها كان من أغنى رجالها ، ثم أفلس زوجها فى الأزمة العالمية السابقة على الحرب العالمية الثانية ، فكان ذلك سببا فى انهيار عصبى ألزمه الفراش مدة طويلة جدا . أما هى فكانت آية فى الثبات والثقة بالنفس ، وكانت لها اليد الطولى فى شفائه واسترداد عافيته ، أكثر مما يرجع الفضل فى ذلك للعلاج الطبى والدواء

فلما دخل فى مرحلة النقاهة استطاعت أن تنصرف شيئا ما عن العناية به ، فكانت تصنع الكعك والفطائر الصغيرة و (البتى فور) والبسكويت المملح للشاى والحفلات الخاصة ، وتبيع ذلك لصاحباتها عضوات النادى . وكانت تركب عربة قديمة الى القرى المجاورة تبيع أهلها الكتب ، وتجمع الاشتراكات بالعمولة للصحف والمجلات ، وتجمع الطرف القديمة فتبيعها فى البلدة ، وتتاجر فى منتجات الريف مع المدينة ، وفى منتجات المدينة مع الريف

ومن حسن الحظ أن ابنتها كانت قد أتمت لتوها تعليمها فى الكلية فاشتغلت فى أعمال السكرتيرية . وكان ابنها طالبا بجامعة فى نيو انجلند ، فكان يعمل فى أوقات الطعام جرسونا يخدم اخوانه ، ويلتحق بأعمال متقطعة فى الاجازة السنوية ، وبذلك استطاع اتمام تعليمه العالى

وبعد سنوات معدودات كان الرجل قد استرد عافيته وعاد الى العمل والكفاح وبدأ يسترد مكانته المالية ، فعادت الزوجة الى حياتها الاولى من الترف ، ولعب البريدج

والسمر الخلى فى السهرات والندوات ، وحديث الموضات

فلولا هذه المرأة لتحطم البيت وقضى على الرجل . ولهذا يحق لنا أن نحمد الله على تقسيم الطبائع بين الجنسين على ذلك الوجه المتوازن حفظا لكيان الاسر

وصحيح أن هذه الصفات تتفاوت أنصبة الناس منها ، فمن النساء من لا تكترث للسفاسف الا قليلا ، ومنهن من تقوم لها وتقعد ، أو تقوم فلا تقعد الا بصعوبة ، ولـكنهن جميعا سواسية فى صفة الاهتمام لها ، وان لم يكن سواسية فى درجة ذلك الاهتمام أو شدته

ومن الرجال من يهتمون ويقلقون الى حد المرض للمشاكل المالية وما الى ذلك ، ومنهم من يضربون بها عرض الحائط ، ويقبلون النحوس بروح رياضية وتفاؤل فى الغد

□

اما التردد أو الحيرة فلا يقلان عن القلق خطرا ، لأنهما نوعان منه أو فرعان عليه

ولنأخذ لذلك مثلا تلك السيدة التى تخرج مع الفاضل المحترم زوجها لشراء قبعة جديدة. فان ذلك سيقتضى منها دورة كاملة على كل دكان يعرض القبعات أو يصنعها ، حتى الدكاكين الصغيرة التى لا تشترى بضاعتها الا من المحلات الكبرى والمخازن التي بدأت الزوجة دورتها بالذهاب اليها وتجربة كل النماذج التى فيها

لن تنتهى تلك الدورة الا وقد أنهكت قوى الفاضل المحترم زوج السيدة ، وانهكت هى أيضا ولكن بدرجة أقل ، لأن الدافع والاهتمام بالموضوع يخففان قليلا من وقع التعب

فماذا نسمى ذلك ؟

انه التردد المريض ، وهو بمثابة الاحراق بنار هادئة

بطيئة واستهلاك طاقة الأعصاب والعضلات فى غير مبرر على الاطلاق . واني انصح الفاضل المحترم الزوج ألا يصحب الفاضلة المحترمة الزوجة فى مثل هذه المشروعات لأنه سيتعب ويسخط ، وهى أيضا ستتعب بصحبته تعبا مضاعفا ، تعب الجسم ، وتعب الأعصاب بكثرة أضطرارها الى تصبيره كلما أظهر الضجر ، أو طلب رأيه فى كل قبعة ترتديها واصرارها على معرفة ذلك الرأى

وغالبا ما تنتهى تلك « العملية » الطويلة المعقدة بالعودة الى أول محل افتتحا به جولة ذلك النهار

□

واعتقادى أنه ليس فى مقدور أى انسان أن يكف عن القلق كفا نهائيا . والواقع أن بعض القلق والاهتمام ضرورى لسلامة الحياة ، ولحفز الهمة لمواجهة العقبات والمصاعب ، لأنه هو الذى ينبهنا الى وجود الصعوبات حتى نعمل على التغلب عليها

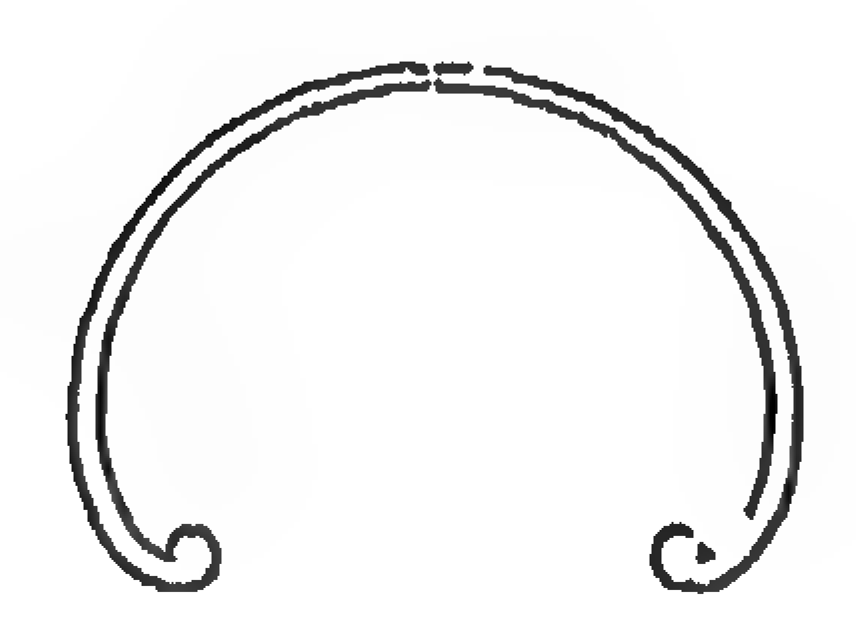
والذى ننادى بمحاربته ومحاولة التقليل منه قدر الامكان هو ذلك القلق المبالغ فيه ، والذى لا يحفز الهمة بل يقتلها ويشل الحركة لأنه يطيش الصواب

وهناك ترياق واحد لذلك السم ، وانه لسم بطىء ولكنه قاتل حقا . وهذا الترياق هو محاولة القاء المشكلة عن الأعصاب ، ووضعها أمام العقل المنطقى فقط ، فلا ننفعل بها ، بل نحاول حلها بهدوء كأننا مستشارون غرباء مكلفون بحل تلك المشاكل لشخص آخر ، وكأن مصيرنا غير متعلق بها . فالجانب الانفعالى من المشاكل هو الذى يضرنا صحيا ، وهو الذى يعطل عمل الذهن ويحول فعلا دون حل المشكلة نفسها ، فيزداد بذلك اضطرابنا العصبى والانفعالى ، فينتهى

الامر الى كارثة نحتمل نتائجها نحن ماديا وصحيا

والذى يدمن القلق والتردد مريض بمرض مزمن ، يجعله مشغولا فى جميع الأحوال بالنظر الى داخل نفسه ، بدلا من مواجهة العالم ومحاولة التكيف معه بالأخذ والرد ، فيخيل اليه أن العالم قائم قاعد بمحاربته واخفاق مسعاه ، فينتهى الأمر بفشله باستمرار ، ويكون ذلك داعيا جديدا لحزنه ، ولتصديقه ذلك الوهم الذى استقر فى نفسه خطأ

وأما المرأة فلن تستطيع طبعا تغيير طبيعتها فى شراء القبعات والجوارب والقفازات ، وستظل دائما مهتمة مهمومة بالسفاسف ، ولكن ليتنا نتعلم نحن الرجال منها مواجهة عظائم الأمور ، وليتها تتعلم من الرجل احتقار السفاسف والتفاهات ...



حب الظهور

قيل قديما ان الغنى حقا من اكتفى بما لديه ، ولم يفكر فيما ليس بين يديه

وهو قول قديم ، وصفه واصفون بأنه نوع من الأفيون ، يراد به اسكات الفقراء ، واخماد جذوة الطموح

ولكنه مع هذا قول صادق صحيح فى حد ذاته ، فما أكثر من يستنزفون عصارة حياتهم بحثا عن الرحيق الذى يتمتع به الآخرون ، فيعودون وليس فى آنيتهم الا المرارة وعلقم الحسرات والندم ، ولات ساعة مندم

فليست السعادة عند هؤلاء هى مقـدار ما ينعمون به فعلا ، بل هى رهن بالحصول على ما فى يد الغير ، أو الاربا عليه جهد الارباء

وقد عرفت شخصيا ــ وربما تكون أنت أيضا قد عرفت شخصيا ــ حالات كثيرة تهدم فيها عش الزوجية لا لأن الزوج أو الزوجة لم تتوفر لهما أسباب السعادة ، بل لأنه أو لأنها غيور حسود ، أو غيرى حاسدة لفلان أو فلانة . فكيف لا أكون مثلها أو مثله ؟

فاذا أنت لم تصرف همك الى المتاع اقصى غايات المتعة بما بين يديك ، وجعلت همـك فى مجاراة غيرك فى مظـاهر سعادته ــ وأنت لا تعلم عن سعادته طبعا الا المظاهر ــ فقد عملت على قتل نفسك شيئا فشيئا ، لأن حب الظهور ــ كما قيل بحق ــ يقصم الظهور

وكلنـا سمعنا وعرفنا شخصيا رجالا يفنون أعمارهم

ويكدحون كدح المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة
لماذا ؟
كى تلبس زوجته أغلى وأفخم الملابس المجلوبة من باريس ، والتى يتكلف كل منها ثروة صغيرة ، فمما يرضى غروره أن تلبس زوجته كالأميرات وزوجات أصحاب الملايين ، مع أنه ليس ربعهم ولا عشرهم فى الثراء . ولكن حب الظهور يجعله يسلك ذلك المسلك الأخرق . وكثيرا ما جاءنى مرضى لأعالجهم بعد أن انهارت صحتهم وأعصابهم، والسبب هو اندفاعهم فى ذلك الباب السخيف من أبواب الزهو والمظاهر الكاذبة الجوفاء

وهناك آخرون لا يفعلون ذلك من تلقاء أنفسهم ، بل يقدمون عليه مدفوعين بحبهم لزوجاتهم أو ضعفهم أمامهن. فهو لا يقوى على اتهامات زوجته وتقريعها كأن تقول له :

ـ جون اشترى لزوجته فراء بمائتى جنيه ..

فيكفى أن يسمع ذلك كى يشترى الفراء ، ولو غرق فى الدين الى الأذنين .

ولو أنه كان رجلا بمعنى الكلمة لجعل أذنا من طين وأذنا من عجين وقال لها :

ـ ليفعل جون ما يشاء ، وليلبس زوجته كما يعن له ، أما أنا فاسمى جاك لا جون ، وأنت ـ ان كنت قد نسيت ـ مسز جاك لا مسز جون ، ولا تلبسين الا ما أشتريه لك ، وكما أرى أنه يليق بنا ...

أما اذا كان ضعيف الشخصية ، فانه يشعر بالخجل من زوجته لأنه بدا لها اقل من جون هذا ، ولأنه خذلها أمام الناس وجعلها تتخلف عن زوجة جون

ومتى بدأ الرجل فى ذلك الطريق فلن ينتهى أبدا ، لأن جون اليوم يصير توم غدا ، وهنرى بعد غد ، حتى يقتله السباق مع آلاف المتبارين

وانى أعجب احيانا لقسوة بعض النساء . فانى أعرف أزواجا من مرضاى ، مصابين بضغط الدم العالى ، أو قرحة المعدة ، أو ضعف القلب أو ما الى ذلك من الآفات المؤلمة المضنية ، وهم مضطرون للعمل ساعات أضافية باستمرار ، لا لمواجهة أقساط تأمين تكفل للأسرة المعاش من بعده ، بل لمواجهة فواتير الخياطة وصانعة القبعات

وهناك نساء يدركن فى الوقت المناسب مبلغ جنايتهن على أزواجهن ، فاذا ادركن أنهن يقتلن أزواجهن بذلك المجهود الضائع ليكفل لهن مجاراة من هن أغنى منهن بكثير ، كففن عن ذلك بغير تردد

وهناك كثيرات لا يستطعن التحكم فى غرورهن وقمع حب الظهور عندهن . ويتناسين أنهن يكلفن أزواجهن لا مجاراة واحدة أغنى منها فحسب ، بل جميع من هن أغنى منها . فتجارى فلانة التى تبلغ ثروتهاثلاثة اضعاف ثروتها فى جهاز التلفزيون ، وتجارى تلك الاخرى فى الثياب ، وتجارى الثالثة فى السيارات ، وتجارى الرابعة فى الحفلات

والواقع أن ذلك دليل قاطع على سوء التربية . فالفتاة التى يربيها اهلها على احترام نفسها ، لا تربط قيمتها بالتنافس على المظاهر دون عناية بالحقائق والواقع . والتى يربيها اهلها على أن لها قيمة شخصية فى عقلها وخلقها لا تهتم كل ذلك الاهتمام القاتل باللبس والزينة والأثاث والبهارج والحفلات

□

ولكن ليس كل النساء من ذلك الطراز الذى يرهق الأزواج اسرافا وسفاهة . فقد عرفت رجالا كثيرين

يضجون بالشكوى من تقتير زوجاتهم على انفسهن وعلى أزواجهن . فعلى الزوج أن يؤدى الى زوجته التى من هذا الطراز مرتبه الاسبوعى أو الشهرى ، ثم يظل يستجديها « ثمن الدخان » أو « ثمن زجاجة بيرة » مع الاخوان

وكلا النقيضين لا يوفر الحياة البيتية السعيدة . فخير الامور الوسط . ولكنى احب أن أهمس فى اذن الرجل الذى يشكو من تقتير زوجته :

ـ انت والله فى نعمة لا تدرى قيمتها ، وكم من الرجال من يحسدونك عليها لو تعلم !

فلو خيرت بين احدى الزوجتين ، لاخترت المقترة بغير تردد ، لأنها لن تقتلنى وتقطع أنفاسى بالجرى فى سباق مع أزواج كل صاحباتها

□

ان راحة البال هى السعادة الحقيقية ، ولا تتوافر راحة البال كما تتوافر بالقناعة . فمن يعرف حدود طاقتـه ، ويلتزم تلك الحدود فلا يعدوها هو الانسان الموفق المتزن ، لأنه لا يعيش بشراء أشياء اعتمادا على آمال فى المستقبل قد تكون كالبرق الخلب . فعندما يقبض علاوته فعلا ، فهذا أوان شراء الفستان الجديد ، وعنـدما يقبض أجر ساعات العمل الاضافية فهـذا أوان شراء آلة التصـوير المشتهاة

وهناك ولا شك وسائل كثيرة يقتل بها الانسان الحديث نفسه وهو يقوم بأعماله اليومية أو يسير على روتين حياته

الخاصة . ولكن هذه الوسيلة لقتل النفس ، وأعنى بذلك حب الظهور ، من الوسائل التى يمكن منعهـا منعا باتا . وانى أعرف أشخاصا كثيرين لم يقترضوا مليما واحدا فى حياتهم ، ولم يشتروا شيئا بالنسيئة (على الحساب) مطلقا . فاذا لم يكن معهم الثمن كاملا ـ سواء أكانت السلعة قطعة قماش أم سيارة كاديلاك ـ صرفوا النظر عن اقتنائها

ويقرر هؤلاء أن راحة البال التى يشعرون بها لأنهم غير مدينين لأحد بفلس أو مليم أحمر ، تكفل لهم سعادة اكبر من شراء ذلك الشيء الذى يشتهونه

ولعلك تظن أن عبارة « قتل نفسك » عن طريق اشباع حب الظهور عبارة مبالغ فيها كثيرا . ولكنك اذا تدبرتها جيدا وجدتها حقيقة واقعة

□

فماذا تفعل كى تواجه زيادة المصروفات على الايراد ؟

انك تعمل عملا اضافيا ، أو تزيد ساعات عملك الخاص اذا كنت أنت صاحب العمل

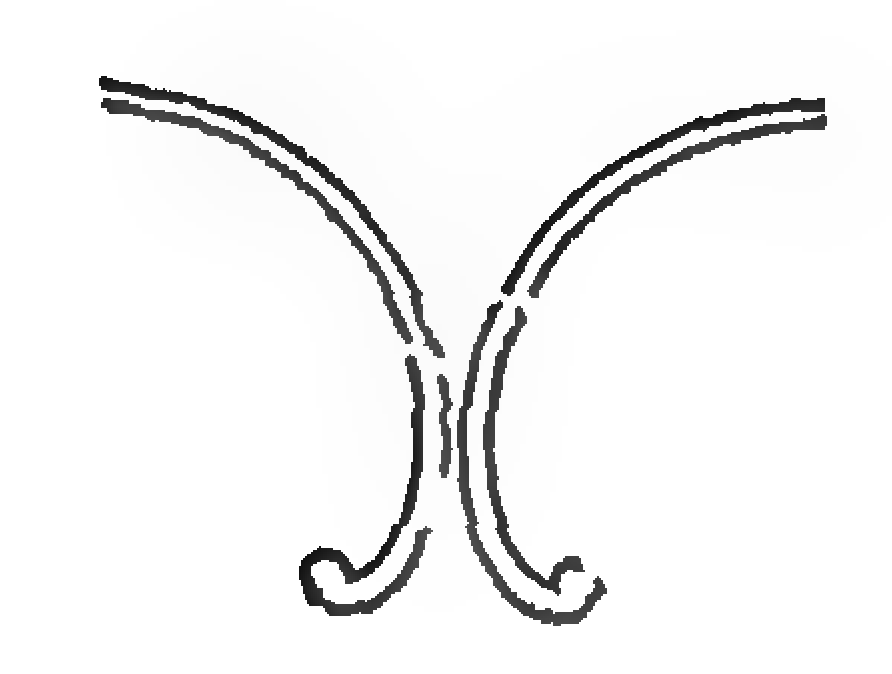
فما معنى هذا ؟

معناه ايها الصديق انك تقتطع من وقت راحتك ، أو من وقت نزهتك ، أو من وقت استمتاعك بكتاب أو اى متعة تفضلها فى الحياة

ومعنى ذلك بالتالى أنك حرمت نفسك من متعة ، ومن وقت مخصص لها . وهل الحياة الا جملة متع ! فنقص بعضها معناه انتقاص من شعورك بالحياة ، اى قتل نفسك قتلا جزئيا مساويا لذلك الوقت وتلك المتعة اللذين حرمت نفسك منهما

هذا هو حكم حساب العواطف والشعور . ويضاف الي ذلك ما تحمله أعصابك وصحتك وقلبك من اجهاد يفوق طاقتك احيانا . واذا لم يفق طاقتك بشكل ظاهر ، فانه مجهود اضافى على كل حال ، وكل كيلومتر تجريه السيارة أكثر من اللازم يؤثر فى قوة احتمالهـا ، وفى طول عمرها ولا شك ... وأنت لست فى ذلك أحسن حالا من المحرك الحديدى

ثم تذكر شيئا قبل أن تحسد جارك . تذكر أن جارك ربما يحسدك على مزايا تتمتع بها أنت وهو محروم منها . وسبحان مقسم الحظوظ والارزاق



الجزء السادس

ألغام

- كراهية المهنة
- الحسد والحقد
- الطاقة المهدرة

كراهية المهنة

الرجال ثلاثة : رجل يحب عمله ، ورجل يحتمل عمله فى سبيل المعاش ، ورجل يكره عمله ويتعذب بممارسته

والرجل الاول باركته السماء والرجل الاخير لعنته الأبالسة . أما أوسطهما فنسى منسى ، لا هو هنا ولا هناك

وأضرب لك مثلا للرجل الذى باركته السماء بمحبة عمله فانى أعرف طبيبا هو الآن ذو شهرة ومكانة راسخة فى فنه، وقد بدأ عمله منذ خمس وعشرين سنة بما يشبه الرق ؛ وكأنه باع نفسه أهل منطقته بيع السماح . وقد سلخ هذه الأعوام الى اليوم قائما بذلك العمل ، منصرفا اليه ـ بعد ان أثرى ـ كل الانصراف ، لانه يعيش لعمله وحده

ولعل زوجته وأولاده عانوا من انصرافه عن صحبتهم ، تلك الصحبة التى كانوا يتمتعون بها لو لم ينصرف الى عمله ذلك الانصراف التام . ولكنى لست الآن فى مقام مناقشة روح أسرته المعنوية ، بل بصدد العمل ومدى تأثيره فى الشخص القائم بالعمل فى حد ذاته

وأحسب أن الطبيب الذى أتكلم عنه الآن لو أنه كان شديد الاهتمام بافتئات عمله على سعادة زوجته به وهناء أطفاله لما كان الرجل الذى يجد تلك السعادة واللذة فى عمله ، لأن ذلك الشعور كان حريا أن يقضى على نشوته ويجعله غير مطمئن النفس الى مسلكه فلا يهنأ بالعمل وهو موزع الخاطر بين ما ينبغى لفنه وما ينبغى لأسرته

والواقع أنه لم يعرف تلك الحيرة أو تلك الحسرة لانه كان خالص القلب لعمله ، فلم يكن ذلك العمل يبدأ كما تبدأ أعمال الناس فى العادة فى ساعة باكرة من الصباح لينتهى فى ساعة باكرة من المساء ، بل كان عمله يبدأ وينتهى فى أى وقت ، فالعمل هو الذى يفرض نفسه فى الوقت الذى يختاره العمل نفسه . وهو مسرور بأن يكون محل الطلب على الدوام ، يطرقون بابه فى أى ساعة لطلب الفحص فى البيت أو فى العيادة . وبعد أن يعمل على مدار عقرب الساعات ، يجد نفسه نشيطا مستعدا للاستشارة والزيارة دون نوم

فما هو سر ذلك النشاط ؟

السر انه اختار لنفسه طريقا واحدا ، فهو محدود الهدف لا يزيغ بصره التردد أو التحسر . ولأن هدفه محدد واضح فهو يمضي اليـــه على سجيتـــه وعلى بصيرته ، ولا يسمح لأى شيء أن يعرقله أو يعترض طريقه ، وما من شيء يمكن ان يلهيه أو يسترعى التفاته بحيث يخرجه من استغراقه فى الطب علما وفنا

وقد سمعت هذا الرجل مرارا فى ساعة الضحى يسرد علي مجموعة من الاطباء بعض تجاربه ومشاهداته الأخيرة فى العمل بكل هدوء وأناقة وتريث ، فكأنه ليس أحوج من فى الحجرة الى العجلة ، بل انه كان بالعكس يبدو أبعدهم عن السرعة واللهفة ، ومع ذلك فقد كنت أعلم علم اليقين أن فى جيبه قائمة بأكثر من عشرين مريضا ، يجب أن يمر بهم فى منازلهم ، وهناك أكثر من عشرين أيضا ينتظرون أن يكشف عليهم فى عيادته الخاصة ، ولو أن سواه فى مكانه لكان مثالا للاستعجال ، ولأزعجه أن يفكر فى قلة انفساح الوقت له كى يتناول طعام الغذاء ويستمتع به كما يجب . أما هو فلم يكن شيء من ذلك ليزعجه ، لأنه لم يكن يدور فى رأسه أو يخطر على باله على الاطلاق

ان الوقت ليس له أى معنى فى نظر هذا الرجل ، لأنه لم يجعل لعمله اليومى مدة محددة يجب أن ينتهى بانتهائها . فالعمل فى عيادته يمكن أن ينتهى فى التاسعة أو العاشرة او الحادية عشرة أو فى نصف الليل ، سيان !

أتسأل عن موعد العشاء فى بيته ؟

اعلم يا صاحبى ان زوجته قد نفضت يدها منذ سنوات من محاولة انتظاره ، بل ومن محاولة اعادة تسخينه له على أمل حضوره بعد خمس دقائق أو ربع ساعة ، واذا تأخر كثيرا فى العيادة فانه يأكل فى الخارج أى شيء . أما اذا كان التأخير معقولا ، اى لا يتجاوز ساعتين أو ثلاثا ، فقد تعود أن يأكل العشاء المتروك له على المائدة باردا بغير حاجة الى تسخين ، فهو لايلتفت الى الفرق بين الساخن والبارد

اتسأل عن حفلات العشاء والرقص والمسارح ؟

هون عليك يا صاحبى ، فان زوجته تقبل هذه الدعوات ، أما هو فيترك لظروفه ، فأحيانا يدرك الطبق الاخير أو تقديم الحلوى ، وأحيانا يدرك سلام الختام فى المسرح أو فى الحفلة الراقصة . وانه لسعيد الحظ اذا وصـــل مرة قرب نهاية الفصل الثانى

والذين لايعرفون هذا الطبيب معرفة جيدة يعجبون فى انفسهم من مبلغ شقائه ، وكيف يصبر ويتحمل هذه الحياة الشقية ، أما من يعرفونه حق معرفته فيرون فيه رجلا يعيش (على راحته) لايبدو عليه أى أثر للعجلة أو الارتباك، راضيا كل الرضى عن حياته ، مشرق الوجه بنشوة السعادة

وانه لصحيح ان ذلك الطبيب رجل ذو وجه واحد أو ذو جانب واحد ، فهو ليس متعدد نواحى الحياة وغير واسع الأفق ، ولكنه ولا شك نموذج الرجل السعيد بعمله سعادة تامة ، الرجل الذى وجد فى مهنته الفردوس المفقود مجسما على الارض .

وننتقل الى طائفة أكبر من الطائفة التى ينتمى اليها هذا الطبيب ، وهى طائفة الكادحين فى سبيل العيش ، غير شغوفين بعملهم ولا متقززين منه ، ولكنهم يحتملونه على أنه شر لا بد منه ، يتنفسون الصعداء بارتياح متى انتهى موعده ، ويقومون به فى الساعات المعينة بروح طيبة كما يتحمل الانسان عاهة خفيفة بغير تذمر ، لأنه يعلم أن التذمر لا جدوى منه . فالعمل عندهم مجرد وسيلة لا غاية ، والساعات التى يقضونها فى العمل ساعات مطروحة من حياتهم ، ومقدار رضاهم عنه بمقدار كفاية أجره لحاجاتهم وحاجات أسرهم ، فالعمل بالنسبة لهؤلاء ليس محور سعادتهم ولا محور شقائهم

أما الفريق الباقى ، فهو فريق من يكرهون عملهم . وهؤلاء لايمكن تحديد عددهم بالضبط . لأنه يغلب على من يكره عمله ألا يعترف بذلك ، ومنهم من لايدرون ولايشعرون أنهم يكرهون عملهم ، وانما هم يحسون بسأم ، وبشعور غامض بالهزيمة وعدم الارتياح والتعاسة ، ولا يدرون لذلك كله سببا

والواقع ان السبب الخفى وراء تلك الحالة السوداوية هو التنافر القائم بين الشعور واللاشعور . فالشعور يحتم القيام بالعمل للحصول على أسباب المعاش ، واللاشعور يكره ذلك العمل ولا يطيق المضى فيه

واذا لم تكتشف هذه الحقيقة فى الوقت المناسب ، استمر هذا الصراع الخفى المضنى قائما فى أعماقهم كل يوم ، وذلك بمثابة قتلهم أنفسهم تدريجا

فحياة هؤلاء الناس اليومية خالية من الارتياح والاكتفاء الذى يشعر به الانسان حين ينتهى من القيام بعمله على وجه التمام . فهم محرومون من لذة الاحساس اللطيف

باسداء خدمة للمجتمع عن طريق العمل ، وبالمساهمة فى الصالح العام

ولا يوجد ترياق لذلك السم البطىء المستمر الا عقـــار واحد : تغيير العمل

وقد جربت ذلك شخصيا مع أشخاص كثيرين ، فكانت النتيجة مدهشة ، لأن الشخص يتبدل تبدلا تاما حتى كأنه انسان آخر ، بمجرد تغييره العمل الذى يكرهه وقيامه بعمل يجد فيه لذة

وأنصح من هذه حالتهم الا يتباطأوا حتى تسنح لهم فرصة عمل على المرام . فان الشخص كثيرا ما يظل غير مدرك تماما ما هو العمل الذى تهفو اليه نفسه بالضبط . فاذا كنت كارها لعملك فاتركه الى آخر أيا كان ، ولا تخجل من تغيير ذلك العمل الآخر والقفز من مهنة الى أخرى ، حتى تجد بالتجربة العمل الذى تطمئن اليه نفسك . وتذكر أن الانسان يقضى معظم وقت يقظته فى العمل ، فاذا كنت تكره عملك فانت أكثر من نصـــف ميت ، وذلك شىء يجب أن تتحاشاه مهما كان الثمن

فلا تتردد فى التغيير والمجازفة ، فتلك هى الطريقـــة الوحيدة للحياة حياة مليئة ، وللهرب من الموت البطىء



الحسد والحقد

الحسد والحقد والغيرة أشبه بساحرة لها ثلاثة رؤوس . فأينما وجدت واحداً من هذه الثلاثة وجدت شقيقيه . وأحيانا تكون أعراض الاصابة بهذه الآفات واحدة ومعروفة، وفى احيان أخرى لا يدرى بها أحد ، حتى ولا الشخص الذى تكمن فى صدره

والحسد هو واسطة العقد ، فمتى وجد فى نفس شخص أفسح المكان هناك للحقد والغيرة . وأينما اكتشفت فى انسان الحقد والغيرة ، فاعلم أن الحسد موجود فيه ، متواريا ، ولكنه ثابت الجذور

ولا يمكن أن يعيش انسان حياة سعيدة اذا كان حسوداً . فالحسد يسمم مجارى الحياة ويقتل بمثابرة واصرار ساعات كثيرة من نهارك وليلك

وكيف يعشش الحسد وينمو فى صدر انسان ؟

يجب أولا أن تكون لديه التربة الصالحة ، ويجب بعد ذلك أن يتعهد بذرة الحسد فى تلك التربة بالسقاية والرعاية

وما من انسان الا ويمكن أن يكون حسودا ، فكل واحد منا يمر به فى حياته ولا شك أشخاص يصلحون مادة للحسد لسبب أو لآخر . ولكنك لا تحسدهم بارادتك أحيانا ، وليس معنى ذلك أنك تستطيع تغيير تربة نفسك ، بل معناه أنك ترفض العكوف على البذرة وتعهدها بالرى والتسميد !

والحسد لا يعرف الفروق بين الطبقات ، فانى أعرف

شخصيا حلاقا كان يعمل أجيرا فى صالون كبير . وكان هذا الحلاق يكاد ينشق غيظا وحسدا سنوات طويلة لأنه صاحب الكرسى رقم ثلاثة بالمحل . فهو يطمع فى الكرسى رقم اثنين التالى لصاحب المحل مباشرة . وكان يعتقد أنه أولى بذلك الكرسى من صاحبه . وذات يوم مات صاحب المحل ، وانتقل الى الكرسى رقم واحد ، وترقى صاحبنا رقم ثلاثة الى رقم اثنين

فهل ارتاح قلبه بعد تعب السنين وقد وصل الى ما يريد ؟

كلا . بل انه الآن أعظم شقاء من ذى قبل . . فلما دققت عليه فى الامر انتهى بأن قال لى :

ـ الحقيقة يا دكتور اننى كنت أريد منذ زمن أن استشيرك فى حالتى . فقد خيل الى هذه السنوات العشر اننى كنت أتطلع الى ذلك المركز ومميزاته . ولكن الحقيقة تكشفت لى الآن بالتجربة بعد أن تحقق لى ما كنت أظن اننى أصبو اليه . ويظهر أننى ما زلت كما كنت فى صغرى غلاما حسودا . فقد كنت وانا صغير أشتهى دائما لعب الاطفال الآخرين لا لانها خير من لعبى ، بل لانها فى يد الآخرين . كذلك هذا الكرسى لم يكن هو مطمعى فى حد ذاته ، بل مطمعى ما فى يد الآخرين . فأنا الآن غير مغتبط مطلقا بهذا الكرسي الذى طالما خيل الى أننى أشتهيه ، فقد انتقل موضوع اشتهائى الى رقم واحد

وبالكشف على هذا الحلاق اتضح لى انه قد نشأت لديه قرحة فى المعدة بسبب الحمضيات والنار المشتعلة فى جوفه وأعصابه بفعل الحسد

واعترف لى أيضا أن ليالى كثيرة كانت تنقضى الى مشرق الشمس فى الصباح التالى وهو جالس مؤرق الجفن يأكل قلبه الحسد لحظوظ فلان هذا أو فلان ذاك ، ولو كانت

لا تربطه بهم رابطة تدعو الى المنافسة أو المقارنة

وعن طريق التحليل والتفهيم وجد ذلك المريض طريق الشفاء ، وأصبح الآن ينظر الى الحيـاة والى زملائه نظرة تختلف عن نظرته النارية السابقة

وليس هـذا الحلاق بالمثل النادر فى جميع الطبقـات والمهن . وثق أن معظم الامراض فى الدورة الدموية وبالقرحة ناتج عن الحسد ومضاعفاته . ولا سيما قرحة المعدة فأينما وجدتها فتش وراءها عن حسد دفين

□

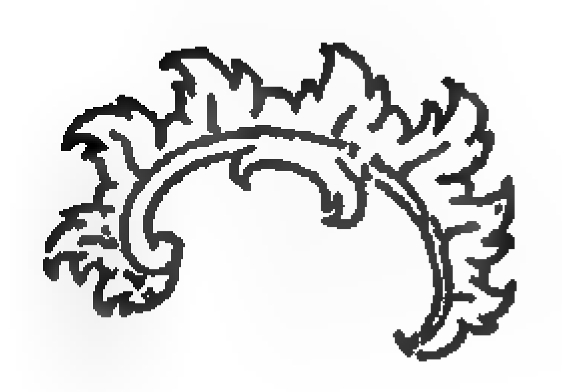
والنساء ؟ الا يعرفن الغيرة والحسد ؟

ما أكثر اللواتى يحولن حياة أزواجهن الى جحيم من أجل فراء كالذى اشترته فلانة ، أو اشتراك فى النـادى الذى تختلف اليه فلانة ، أو عقد كالذى تزهو به فلانة ، أو سيارة كالتى تتخايل بقيادتهـا فلانة ، وهى تعلم أن الفاضـل المحترم زوجها لا يقدر على شىء من ذلك ، ولكنها تعـذبه وتعذب نفسها حتى وهى واثقـة من استحـالة تحقيق مطالبها ، لان قوة أكبر منها ومن ارادتهـا وعقلهـا تنهش قلبها ، وتلك هى الغيرة والحسد

ماذا أقول ؟ بل كم من امرأة من أسرة طيبة ، ذات نشأة فاضلة وتربية قويمة ، انحدرت الى الرذيلة لا بدافع من عواطفها الغرامية أو رغباتها الجسدية ، بل لتحصـل على ما لا يستطيع زوجها أن يوفره لها لتكون مثل فلانة الثرية المترفة فى زينتها وملابسها

ماذا أقول ؟ بل كم من زوجة فاضلة سليلة أسرة فاضلة انحدرت الى أحضان رجل ، لا لأنه يعجبها ، بل لتنتزعه

من امرأة أخرى تشعر نحوها بالحسد وتريد أن تنال ما فى يدها ، لا لقيمته ، بل لأنه فى حوزة « الاخرى » . والحق أن الحسد والغيرة لا يوجدان الا ومعهما الحقد والروح الشريرة . فانزعوا الحسد من قلوبكم تشرق لكم الحياة وتنقشع عنها أقبح غشاواتها



الطاقة المهدرة

الشعور بالتعب والاعياء هو أشيع أنواع الشكوى التى سمعها الطبيب فى عيـــادته ، وأكثر الناس ضجة بتلك الشكوى ومعاناة لأسبابها هى المرأة

وأسباب التعب لها مائة اسم ، ولكن السبب الأكبر من بينها هو « الطاقة المهدرة » التى تبذلها المرأة عبثـا أثناء قيامها بتدبير المنزل

وانى لأذكر هنا كلمة لطيفة للدكتور ألفاريز :

ــ المرأة مخلوق عجيب يسبب لحيـــاته الارتبـــاك والاضطراب ، فهى تنفق من طاقتها الحيوية عبثا ما مقداره عشر ريالات على ما قيمته عشرون مليما من المشكلات !

والمرأة صـنفان : الصنف الاول يمضى قدما فى طـريق قتل نفسه بحثا عن ذرات الغبار ومطاردة لها . والصنف الآخر هو الذى يدرك أن الصحة والرضى أهم بكثـير من « أرضية المطبخ التى يلعق الانسان من فوقها الطعام دون أن يتقزز لفرط نظافتها » . أو « التى يهفو اليها العصفور ليشرب منها ، فهو يحسبها لنظافتها وشفافيتها غدير ماء أو صفحة بلور لامعة »

والفريق الاول هو الفريق الأحمق الذى يتكون منـــه العنصر الاساسى من زبائن عياداتنا . فهو فريق النســاء التائهات الضائعات ، لا يتذوقن طعم الحياة ، فهن يشعرن ولا عجب لكثرة ما يبذلن من جهود لا لزوم لها ، بالتعب

والاعياء ، ولا يستبعد أن يحسسن بأوجاع فى العضلات وفى المفاصل

هل انتهى العمل والتنظيف فى حجرة الجلوس وقاعة الطعام ؟ يحسن اعادة كنسها للاستيثاق من نظافتها التامة، فاذا انتهت من ذلك فهناك حجرة للاطفال ، يجب قلبها رأسا على عقب .واخراج أثاثها وغسلها ، ثم اعادة ترتيبها . فاذا تم ذلك كله فهناك المطبخ . هل انتهى المطبخ ؟ اذن هناك تلميع الفضيات . ثم هناك أيضا المرور على قطع الأثاث بأطراف الاصابع ، ولا محالة أن الغبار يكون قد تسلل شيء منه الى هذا المقعد أو ذاك الدولاب فى الساعتين أو الثلاث ساعات التى انقضت على تلميعه . واذا فرضنا أن ذلك كله قد انتهت منه ربة البيت النشيطة ، فأمامها مخزن الكرار والصندرة

ويغلب على هذه السيدة الفاضلة أن تهتم بتغيير ترتيب الأثاث كل اسبوعين مرة ، حتى يصبح من المألوف جدا أن يرجع الزوج من عمله طول النهار ليدور فى الشقة كالأبله باحثا عن مقعده المفضل الذى يستلقى فوقه ليقرأ الجريدة ويدخن الغليون وكأنه يلعب معه لعبة الاستخفاء أو العساكر واللصوص

وأريد منك أن تسأل أى رجل هذا السؤال :

— هل تفضل أن تكون لك زوجة هادئة مرحة مستريحة الجسد والأعصاب فى بيت ليس دائما على استعداد للدخول فى مباراة تعقدها مجلة للمنزل المثالى ، أو أن تكون لك زوجة مشغولة دائما بالبيت فاذا دخلت آخر النهار وجدته فى أحسن حالاته ، ووجدتها فى أسوأ حالاتها ، محطمة الأعصاب ، أعياها المجهود ، فتستلقى الى جواره فى الفراش كالخرقة البالية ؟

اراهنك بأى مبلغ تشاء أن الرجل الذى تسأله لن يتردد فى اختيار الزوجة الاولى

وانه لمن المذهل حقا أن نتخيل أمامنا الصورة المسلية التى تتمثل فى زوجة تصرف نهارها كله فى الدوران كالنحلة بحثا ، لا عن الذهب استغفر الله ، بل عن التراب ! انها امرأة تبحث عن التعب ، وهى لا تتمتع بضالتها وحدها ، بل تفرضها أيضا على الفاضل زوجها

▭

وهناك فريق من النساء شبيه بالباحثات عن التراب ، هو فريق عابدات التليفون ، فالواحدة منهن تتكلم فى تلك الآلة بالساعات ، دون أن تحس بمرور الوقت . وفجأة يرن جرس الباب ويدخل الاولاد من المدرسة ، أو يدخل الزوج ، ويكون عليها أن تحرق أعصابها وعضلاتها لتنجز فى نصف ساعة ما كان أمامها لانجازه طول النهار

وعن طريق هذه المنافذ يتسلل الى المرأة الشعور بالتعاسة ، وأنها فى دوامة . والمسئول عن ذلك هو عقلها المغرم بالتراب ، أو بالثرثرة

ومن آفات البشرية فى العصر الحديث التى ابتليت بها أخيرا عدا التليفون ، النوادى النسائية أو المختلطة ، فالثرثرة خطيئة محببة جدا الى المرأة ، وأينما وجدت امرأة عضوا فى ناد ، فالنادى يأتى لديها أولا وثانيا وثالثا ، أما الاسرة فتأتى رابعا ، اذا قدر لها أن تأتى !

ونصيحتى الى أى سيدة تقدر سعادتها أن تنفض يدها من هذه النوادى ، ومن اللجان المسماة بلجان الخدمة الاجتماعية ، وما هى فى الغالب الا أنواع من الحياقة والتظاهر والوجاهة . فتلك كلها طاقة مهدرة تؤثر على أعصاب المرأة ، وتسلبها الشعور بالسعادة لأنها تحس كأنها

تعيش فى دوامة . وعدم الاستقرار هو عدو سعادة المرأة رقم واحد

□

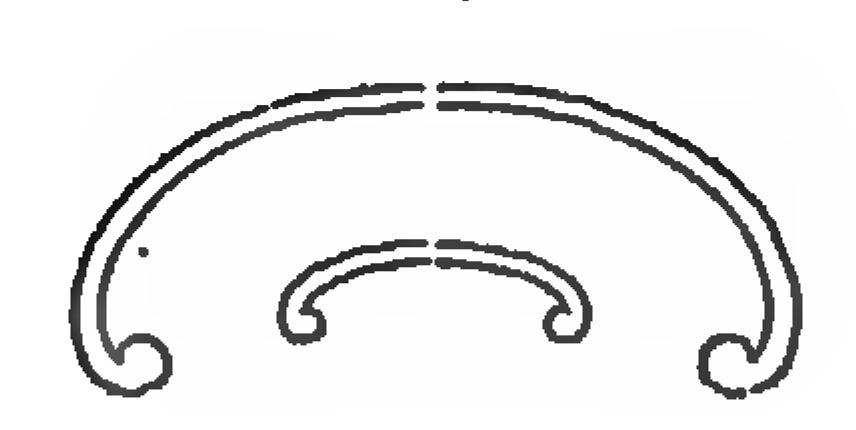
وهناك أيضا نوع من النســـاء تضطره ظروفه الى شيء من بعثرة الطاقة الحيوية ، وهو فريق النســاء الموظفات أو العاملات المتزوجات الأمهات ، فانى أقدر أنه ما من عمل اشد اتعابا واستنفادا للجهد من تدبير المنزل والقيام بكل لوازمه ، فعمل ربة البيت كاف جدا للمرأة . فــكل عمل يضاف اليه لا شك أنه سيجور على حقوق البيت . وانى أعذر المرأة التى تضطر الى العمل تحت ضغط الظروف الاقتصادية ، مثل مرض الزوج أو عدم كفــاية الموارد . ولكن هناك امرأة تريد أن تكون ذات عمـــل ، لأنها تعتز بكونها صاحبة مهنة ، ولا سيما اذا كانت ناجحة موفقة ، ولهذا فهى ترفض الاخلاد الى الحياة البيتية الهادئة ، فتقوم بالمهمتين ، ويترتب على ذلك أن تنــوء بالعبء البـــدنى والعصبى ، وتشعر بالضغط والارهاق وعــدم الاستمتاع بالحياة

وسبب عدم الاســتمتاع ليس هــو التعب الجســمانى والعصبى فقط ، بل سببه أيضا عدم راحة البال والضمير . فان الله لم يخلق لأحد قلبين فى جوفه ، فلا يمكن للمرأة أن تكون عاملة نموذجية وربة بيت نموذجية فهى مشتتة الفكر باستمرار ، فاذا كانت فى المطبخ فعقلهــا مشغول بالعمــل ، واذا كانت فى العمـــل فعقلها مشغول بالمطبخ والأولاد

ولهذا فانى أنصح المرأة التى لا تضطرها ظروفها المالية للعمل وهى زوجة وأم ، أن تقنع بدورها الطبيعى ومهمتها

الحقيقية ، لتجد السعادة وتستمتع بحياتها ، لأن الرضى هو أساس السعادة . وقد عرفت جداتنا ذلك حين كان كل اعتزاز المرأة بقلعتها التى هى ملكتها ، والتى يمثل فيها الملك زوجها ، والامراء والأميرات أولادها وبناتها . فليكن نصيبنا من السعادة كنصيب أمهاتنا

وأذكر المرأة مرة أخرى أن ثلاثة أرباع متاعبها سببه أنها تبدد طاقتها الحيوية فى أمور لا تساوى فى الحقيقة واحدا على مائة من تلك الجهود



الجزء السابع

محظورات

- الانتحار الاجتماعى
- التـــدخين
- المنومات والمنبهات
- الراحة المعكوسة

الانتحار الاجتماعى

هنـــاك أشخاص يقـــدمون على الانتحار الاجتماعى باختيارهم ، وأشخاص آخرون يقيمون جدارا حائلا بينهم وبين المجتمع دون أن يشعروا ودون أن يقصدوا الى ذلك

ولننظر فى الفريق الاول ، فهم نفر من الناس يتنازلون آسفين عن الاختلاط بالناس وعن المتع الاجتماعية والسمر الجميل مع الاصدقاء ، والصحبة المرحة ، لأن لديهم دافعا داخليا قويا لاتمام عمل معين يقتضى منهم التفرغ والانقطاع

فهذا مثلا محام ناجح يخصص أوقات فراغه للرسم . وهذا طبيب يخصص أوقات فراغه من الفحص الطبى لكتابة تقارير عن الحالات الطزيفة لمجلة طبية أو ليضمنها دفتى كتاب ، وهذا قسيس يخصص أوقات فراغه وهى الجزء الاكبر من ساعات اليوم الاربع والعشرين لتفقد شعبه ولرعاية اليتامى والارامل وعيادة المرضى

. كل هؤلاء قد اختاروا بمحض ارادتهم العزلة عن المجتمع أو الانتحار الاجتماعى ، لا كراهية للمجتمع ، فانهم قد يلذ لهم ما يهيئه المجتمع من متعة ، بل ايثارا لغاية هى عندهم أقدس من تلك المتعة

ولكن هناك فريقا آخر لا يتنازل باختياره عن الصلات الاجتماعية ، بل يفعل ذلك عن غير قصـــد ، لأن المجتمع بعبارة أصح هو الذى ينفصـــل عنهم أو يقصيهم عنه . فهؤلاء فى الغالب من لا تطيب للناس عشرتهم لغلظة فيهم ، أو لانهم لايطيقون البقاء فى البيوت ، بل يفضلون على ذلك

التشرد فى الطرقات والتسكع بين الحانات

وطبيعى ان الرجل الداجن الذى يحب قضاء كل اوقات فراغه فى البيت ، فلا يخرج للزيارة ولا يزار ، حرى أن ينظر متعجبا الى ذلك الذى لايطيق البقاء فى البيت ، ويقول فى نفسه :

ـ ما الذى يجعله يهرب هكذا من البيت ؟.. أهو الهرب من اسرته ؟.. أو من نفسه ؟.. يا لها من حياة سمجة حقيرة تلك التى تدفع صاحبها الى العودة آخر الليل بعد ساعات من الثرثرة الجوفاء والمقابلات الفارغة . لعله فى الغالب السأم والملل ، فهو يحاول تضييع طعمهما بالضجة والتهريج

والواقع ان شوبنهاور الفيلسوف الالمانى قد تنبه الى ذلك حين قال :

ـ ان الملل والسأم هما أساس الحياة الاجتماعية ، لأنهما هما اللذان يدفعان مخلوقات بشرية متباغضة الى التصاحب والتظاهر بالحب والمودة !

أما الرجل حلف المجتمعات الذى لايطيق البقاء فى البيت ، فانه ينظر الى الرجل اللازم لبيته نظرته الى دودة القز التى تقضى حياتها فى نسج شرنقتها حول نفسها ، فهو لا يفهم مطلقا كيف يقضى المسكين وقته فى الساعات الطويلة التى تسبق موعد النوم .

ويغلب على الرجل الداجن اللازم للبيت أن يكون من المستغرقين فى هواية معينة تسليه أكثر من تسليات العالم الخارجى

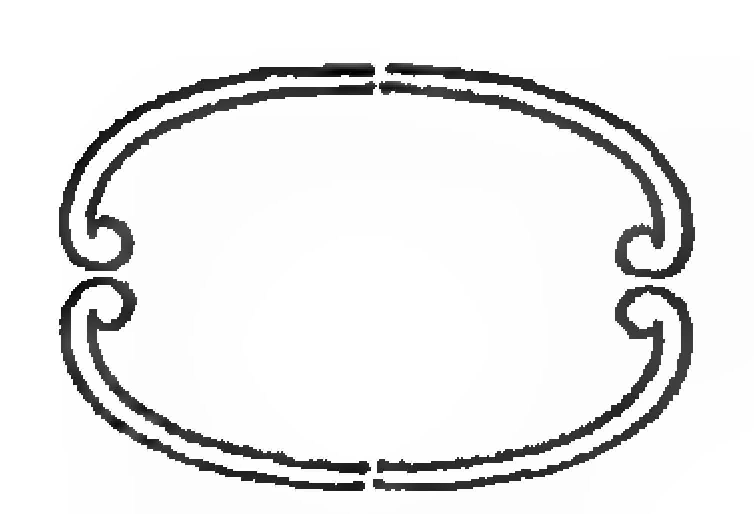
والحقيقة ان زوجة الرجل الذى لا يطيق البقاء فى البيت محرومة منه ساخطة عليه . ولكن زوجة الرجل اللازم للبيت قد لا تقل عنها حرمانا وسخطا ، اذا لم تكن تقاسمه ..

الاستمتاع بهوايته التى تستغرقه ، فانه بعيد عنها وهو تحت نظرها

□

وكلا النقيضين غير طبيعى ، لخلوه من التوازن الذى هو مثال الحياة الاجتماعية السعيدة ، فيجب أن ندرك أننا أعضاء فى مجتمع ، واننا يجب أن نتبادل معه الاخذ والعطاء ، وأن ننشىء معه صلات ودية ، وأن نذكر كذلك ان لنا أسرا وزوجات ، فنعطى كلا نصيبا من وقتنا وعنايتنا ، ولا بأس أن تكون للانسان هواية ، على أن لا تستغرق وقته كله ، فتجور على نصيب الأسرة أو نصيب المجتمع

أفتح نوافذك للشمس والهواء ولا تسجن نفسك بعيدا عن العالم الخارجى ، ولكن لا تكن أفاقا يهدم بيته ليبنى فى مكانه فندقا للنوم



التدخين

هناك نفر قليل من الناس يقتلون انفسهم بالتدخين ، وهم نفر قليل كما قلنا ، فلم يثبت علميا حتى الآن أن الطباق سم قاتل لجميع الناس . ولكن ربما تكشف البحث عن الخبر اليقين فى يوم قريب

ومما لا شك فيه اننا نحن الأطباء نحرمه تحريما باتا فى بعض الحالات ، لأنه بمثابة اداة قتل لمرضى الشرايين التاجية مثلا ، أو قرحة المعدة . فاذا كنت مصابا بمرض من هذا القبيل فمن الحمق أن تقدم على التدخين ، لأن كل نفس تجذبه من السيجارة بمثابة خطوة نحو الهاوية او مسمار جيد فى نعشك

وكلنا نعرف أشخاصا ظلوا يدخنون بعد أن أصيبوا فى شرايينهم التاجية سنوات . ولكن هؤلاء هم الشواذ الذين يثبتون القاعدة . والغالبية منهم يموتون قبل الأوان

وكلنا نعرف أشخاصا أصيبوا بقرحة المعدة وهم من غير المدخنين كما نعرف أشخاصا من مدمنى التدخين غير مصابين بقرحة المعدة . ومع هذا فليس من شك فى أن التدخين بمثابة المروحة التى تجلب الهواء لجمرة القرحة فتزداد اتقادا بدلا من أن تخبو

أما المصابون فى عروق ارجلهم فأمرهم اخطر . ويبدأ ذلك المرض بشىء يشبه التقلصات ، ومع الوقت يجد المصاب صعوبة فى المشى ، وتزداد الآلام حتى ليضطر الى التوقف عن السير بضع لحظات الى أن يزول الألم فيستأنف طريقه .

ومع الوقت تحدث الجلطة التى ينجم عنها قطع احدى الرجلين أو كلتيهما اذا أصر المريض على عدم الاقلاع عن التدخين . وقد عرفت بالتجربة قوما بلغ من تحكم التدخين فيهم أنهم لم يأبهوا بالعاقبة وفضلوا فقد ساقيهم على التخلى عن التدخين

فى هذه الحالات لا شك أن التدخين سم قاتل . والترياق الوحيد أن تقلع عنه وتطرحه من ذهنك مرة واحدة

واياك أن تصدق أن عادة مثل التدخين يمكن الاقلاع عنها بالتدريج . وقد جرت عادتى على أن أصارح المريض بأنه لم يعد أمامه أمل فى امكان العودة الى التدخين ، لأن حالته مهما تحسنت لن تسمح له بذلك . وفى هذه الحالة يريح اليأس أعصاب المريض نسبيا فلا يتعذب بالأمل الكاذب ولايعيش ليعد الأيام والساعات التى ستنقضى حتى يسمح له بمعاودة التدخين . وذلك المجهود العصبى ارهاق فى حد ذاته يجب تلافيه باليأس الذى هو احدى الراحتين

وقد كشفت لى التجربة عن مبلغ ما تدخره ارادتنا فى بعض الاحيان من قوة . فقد أصارح مريضا بذلك وأقول له : أشعل الآن سيجارتك الاخيرة . ويروعنى منه أن يرفض ذلك معتبرا السيجارة التى دخنها قبل أن يدخل عندى آخر سيجارة ، مع أنه يكون من المدمنين الذين يستهلكون أكثر من خمسين سيجارة فى اليوم

وأكرر عليك التحذير اذا اقتضى الأمر أن تقلع عن التدخين : ان التدخين عادة قديمة متسلطة ، والعادات المتسلطة لا سبيل الى قهرها بالمطاولة ، بل بضربة واحدة قاضية ، لأن المطاولة تقوى تلك العادة ، لأنها تذكر دائما بسلطانها المتأصل

المنومات والمنبهات

الشائع عن القهوة أنها منبه قوى ، وأن كل فنجان منها يحوى كذا من وحدات الكافايين ، وأن ادمانها عادة عصبية لا يستغنى عنها كالمخدرات . ويضربون مثلا لذلك أولئك الأشخاص الذين لا يستطيعون فتح عيونهم فى الصباح الا اذا شربوا فنجان القهوة على الريق ،والواقع أن هؤلاء وأمثالهم قد أوحوا الى أنفسهم ذلك الوهم حتى اعتقدوا أنه لا حول لهم ولا طول بغيرها . فاذا كانوا على عجلة من أمرهم لأى سبب ، بحيث لا يتسع الوقت أمامهم لارتشاف قدح القهوة الساخن ، ذهبوا الى غايتهم زائغى العيون مكتئبين وليس لشىء فى الحياة فى نظرهم طعم . فاذا حدثتهم أجابوك بالزمجرة ، واذا ناقشتهم ثارت أعصابهم . حتى اذا شربوا القهوة عادوا ودعاء كالحملان .

والعزاء الوحيد الذى أقدمه لهؤلاء السادة من مدمنى القهوة أن أقول لهم بكل ثقة أنه لا خوف عليهم من الاستمرار فى ادمانهم هذا ولا هم يحزنون ! فلن تكون القهوة سببا فى قتل انسان ، ولن أتهمك بالانتحار المزمن أو البطىء لاكثارك من هذه المتعة التى لاضرر منها على الاطلاق . وقد عرفت أشخاصا فى غاية الصحة يشربون أكثر من عشرة فناجين فى اليوم منذ سنوات طويلة بغير ضرر لحق بهم من أى نوع . فهم ينامون نوما عميقا بعد شرب فنجان كبير منها ، ويسهرون طويلا بغير شربها

وكل ما أنبهك اليه أنه اذا كان لها عليك تأثير خاص بحيث

تأرق اذا شربتها ليلا ، فيجب أن تقلع عن شربها مساء ، لأن النوم نعمة لا تعدلها نعمة . واذا كانت تسبب لك اثارة عصبية أو حرقانا فى المعدة فامتنع عنها . وليست هنـاك قاعدة غير هذه

▭

وننتقل الى المنومات ، وهى حبوب يتعاطاها بعض الناس كل مساء . فاعلم أن هذه المنومات اذا تعاطاها الانسان باستمرار بغير ارشاد الطبيب تقتله . ويموت فى الولايات المتحدة ألف شخص سنويا بهذا السبب

وانى أعرف شخصيا مدمنين لتلك المنومات بمعنى كلمة الادمان ، فلا يستطيعون النوم مطلقا بغيرها ، وتكون حالتهم كحالة مدمن المورفين تماما

وكيف يصل هؤلاء الى حد الادمان ؟

فى الغالب أن الطبيب قد أشار عليهم بتناول هذا المنوم ليلة أو ليلتين فى الاسبوع للضرورة . فيجدون أن نومهم قد صار عميقا منعشا ، فيستمرئون تلك الحبوب ويتعاطونها كل ليلة . وسرعان ما يتعود الجسم هذه الكمية فيبطل سحرها ، فيضطرون الى مضاعفة الجرعة مرة ثم مرتين ثم ثلاثا ثم أربعـا ، حتى أصبحوا عبيـدا مسخرين لتلك المنومات ، بعد أن كانوا هم الذين يستخدمونها ويسخرونها لراحتهم

ولا شك فى أن الادمان الطويل لتلك الحبوب المنومة يؤثر تأثيرا سيئا على أعصاب الدماغ ، فتكون متعة النوم الهادىء ليلا على حساب العذاب فى النهار

▭

وننتقل أخيرا الى المنبهات من عائلة البنزدرين . فالأصل

فى هذه العقاقير أنها عكازة يلجأ اليها الانسان فى حالة طارئة، أو للنحافة تحت اشراف طبيب اشرافا دقيقا . أما اذا استعملتها شهورا متوالية لا لشىء الا لتظل يقظان أو لتزيد قدرتك على العمل وحضور بديهتك ، فانك تجازف بأنك ستجد نفسك يوما ما عاجزا عن استعمال قدميك فى السير وحدهما بغير تلك العكازة

وانى أعرف شخصيا ، كما يحتمل أن تعرف أنت أيضا ، أشخاصا كالتائهين أو السكارى بغير تلك المنبهات ، وكثيرا ما ينتشر هذا الادمان بين الطبقات المثقفة والفنية . فيندر أن يدخل طالب الامتحان الا وتحت لسانه قرص من البنزدرين أو قرصان ، وما أكثر المحامين ورجال الاعمال والممثلين الذين يذهبون الى أعمالهم الهامة أو قضاياهم أو للقيام بأدوارهم أمام الجمهور وتحت السنتهم ذلك القرص الأبيض الملعون

ولا زلت أقول وأكرر أن استعمال البزدرين ومشتقاته لا بأس به لحالات عارضة متفرقة يلزم لها التنبه الكامل ولا سيما بعد مجهود طويل يمكن أن يقلل من التنبه العادى أما استخدامه باستمرار فأمر يجب تحاشيه

ومن أضرار البنزدرين ومشتقاته أنه يعطل الاحساس بالجوع ، ويصطنع حالة من النشاط تجعل الانسان لا يهتم بغذائه حق الاهتمام

وأتعس الناس هم من يجمعون بين الضررين ، فلا بد لهم من أقراص كى يناموا ليلا ومن أقراص كى يتنبهوا نهارا ؛ فكأن أجسادهم أشبه بالحيوانات أو الدواب التى تلهبها السياط كى تسرع فى ذاك الاتجاه وبعد قليل تلهبها سياط أخرى لتسرع فى الاتجاه المضاد . وهى صدمات من أقسى ما يكون على الاعصاب وعلى أجهزة الجسم ، لأنها من قبيل تداول نوبات الحرارة الشديدة والبرودة الشديدة

ولا احب أن أختم هذا الفصل بغير أن أعرج على خلاصة الغدة الدرقية . فقد درج بعض الناس على تعاطيها كما يتعاطون البنزدرين لانقاص وزنهم . وانى أحذر من ذلك آلا بارشاد الطبيب وبعد فحص دقيق لاختبار التغير الكيماوى القاعدى . فتعاطى خلاصة الغدة الدرقية بغير لزوم حرى أن يضر الجسم ضررا شديدا ، لأنه يجعل دقات القلب تسرع بغير موجب ، ومع دقات القلب جميع وظائف الجسم

وانه لمن دواعى الأسف أن الموضة فى السنوات الأخيرة هى تعاطى خلاصة الغدة الدرقية ، وتدخين سيجارة من سيجارة ، وابتلاع البنزدرين ، وتعاطى المنومات . فهى كلها (تقاليع) من أفدح ما يكون ضررا على أجسام هذا الجيل وأعصابهم ، بحيث يندمون فيما بعد عندما يحين وقت دفع ثمن هذه التنبيهات الصناعية المسحوبة على الحساب ، حساب الصحة الجسمية والعقلية



الراحة المعكوسة

الاجازات تخصص للراحة من عناء الاعمال

هذا هو المفروض . ولكن تقاليع التقدم العصرى تعكس الآية فى كثير من الاحيان وتجعل الاجازة ارهاقا مضاعفا للأجسام والاعصاب ، بحيث يحق لنا ان نقول انها وسيلة جديدة من الوسائل التى يقتل بها الانسان العصرى نفسه

ولا تعجب وتعال معى نتأمل هـذا الرجل من رجال الاعمال الذى ذهب ليقضى الاجازة على شاطىء النهر وقد احضر معه أحدث آلات صيد السمك . لقد قيل له أن صيد السمك هواية حديثة لقطع الوقت فى الاجازة ، ورياضة تساعد على الراحة والاستجمام

ويقضى الرجل ساعات النهار أياما متوالية بين الماء والشمس ، ولكنه لا يوفق فى صيد شىء ، فيركبه الكدر والهم ، وتثور أعصابه ، وتقرأ الغيظ على وجهه من هذا السمك الذى يسخر منه ولا يريد أن يرضى كبرياءه

فهل نستطيع أن نقول عن هذا الرجل انه استمتع بأجازته ؟ وهل نستطيع أن نقول عنه انه أراح أعصابه وأراح بدنه ؟

الجواب طبعا لا ، لأن السمكة لم تلتقط طعمه ، أما هو فكان أحمق منها اذ التقط طعمها ، فلم يظفر بالسمكة وظفرت السمكة به صيدا لها ، فتغذت بأعصابه وان لم تسمن على لحمه وعظامه

وأعرف أشخاصا آخرين حساسين جدا من جهة البحر، فيصيبهم الدوار والغثيان طول المدة التى يقضونها فى أى سفينة ، ومع هذا فهم يصرون كل سنة على قضاء أجازاتهم فى « نزهة بحرية » ، كل نصيبهم منها الانحناء فوق سور المركب لافراغ ما فى أمعائهم

ولماذا يفعلون ذلك ؟

لأنهم سمعوا ان هذه هي موضة الاجازات المودرن . وفى ذلك طبعا ارهاق جديد لأعصابهم وأجسامهم وتضييع لفرصة الاستجمام الثمينة ، فيجب أن نتعلم حقا كيف نستمتع بأجازاتنا ، وكيف نستعد لها قبل حلولها على أساس مدروس ، فانه مما يغيظنى أن القى انسانا فى نهاية اجازته فيقول لى :

— انى لم أستمتع باجازتى ، ولكنى تلقيت درسا لن انتفع به للأسف الا فى السنة المقبلة

وفى السنة التالية لا تكون النتيجة خيرا من سابقتها

والمفروض ان الرجل أو المرأة الذى يشتغل بعمل جدى شاق يحتاج الى راحة وترويح عن النفس أسبوعين بعد كل عشرة أسابيع من العمل ، وتلك طبعا أمنية لا تتوفر للجميع ، ولكنها من أحلام البشرية الذهبية ، ومع ذلك فهذا هو الواجب صحيا ونفسانيا

وللأسف نجد أحوج الناس الى الاجازات والاستمتاع بها ، لأنهم اشد الناس شعورا بالارهاق فى العمل ، لا ينالون الا أسبوعا أو أسبوعين فى السنة، كما نجد من تمكنهم ظروفهم من الاجازات ومن التمتع بها والانفاق عليها ، هم أقل الناس حاجة اليها حقا

ولأن الاجازة أقل مما يجب ، نجد الشخص يتورط فى تصرف أحمق ، فهو يريد أن يأخذ فى هذه المدة القصيرة

أكبر كمية من المتعة ، فيثقل على نفسه بالحركة والمجهود ، وفى سرعة كأن وراءه من يلهبه بالســـياط كى لا يلتقط انفاسه ، وذلك طبعا يجعله لا يستمتع بشىء مما يمارس ، ويجعله ينتهى من الاجازة التي للراحة وهو أشد تعبا مما لو قضاها فى العمل العادى

فاياك والعجلة ، واجعل لأجازتك تصميما غير مفصل ، وغير مزدحم على الخصوص . فتلهو حين تجد فى نفسك ميلا الى اللهو ، وتغفو حين تميل الى النوم ، وتستلقى على الرمل مسترخيا خلى البال لتقرأ أو لا تقرأ كما يحلو لك فبذلك وذلك وحده تحصل على الراحة المطلوبة لا على الراحة المقلوبة



الجزء الثامن

عش واستمتع

- الحلم الذهبى
- خداع التقويم
- حياتك بين يديك

الحلم الذهبى

يقول أنطون تشيخوف :

ـ أعتقد أنه لا سعادة حقيقية للانسان بدون الكسل !

وقد يبدو هـــذا القول تهكما ، ولكن ما أكثر ما فيه من الحقيقة . فان الرجل ـ أو المرأة طبعا ـ الذى يقضى حياته فى عمل متواصـــل ، فلا يتوقف عن ذلك الا ريثما يزدرد لقيمات تقيم أوده ، أو لأن سلطان النعاس غلبه على أمره ، لايمكن أن يكون انسانا ســـعيدا فى حقيقة الأمر ، وان كان لا يشعر بالتعاسة ، فلأنه لم يتسع له الوقت ليسأل نفسه، أو ليعرف طعم الحياة

وصدقنى أنه اذا لم يتسع أمامك الوقت جملة ساعات كل يوم تشعر فيها انك غير مطالب بشىء على الاطلاق ، فتستطيع أن تستلقى ، او تتمطى ، او تتمشى ، أو تقرأ ، أو تذهب الى دار الســينما ـ اذا لم يتســع لك الوقت ساعات كل يوم لتفعل ذلك كما تشاء ، فأنت انسان غير سعيد !

ولكن من ســوء طالع الانســـان أن الفترة الاولى من حياته ـ منذ صدر شبابه بمعنى أصح ـ لا تسمح له بذلك كمـــا ينبغى ، فان مطـــالب العيش ، والطموح الى بناء المستقبل ، لا تترك للانسان وقتا للكسل . واذا تركت له بعض الوقت ، فان دماء الشباب الفوارة تجعله يشـــغله بما لا يقل اجهادا عن العمل .. فاذا انسلخ عهد الشباب ،

كنا أرباب أسر وآباء أطفال ، وكان علينا أن نفكر فى تأمين شيخوختنا ، وتأمين أولادنا اذا حدث لنا أمر الله المحتوم ، ولذلك ننهمك فى العمل ولا نسمح لأنفسنا بذلك الكسل اللذيذ ، ونضطر — آسفين — الى تأجيل هذه المتعة الكبرى — التى هى شرط السعادة الضرورى — لأوان الشيخوخة

فالشيخوخة ، أو بمعنى أصح سن التقاعد ، هو الحلم الذهبى الذى يحلم به كل انسان ، كى ينعم بالكسل الجميل ، ويستطيع التصرف فى حياته كما يشتهى . فأنت لا تملك وقتك الا اذا كان فارغا من المسئوليات والمطالب . اما وأنت مسئول ، فوقتك مشغول ، فأنت ملك لوقتك وليس وقتك ملك لك ..

وليس هناك فى الواقع حد معين تستطيع أن تقول عنده للتاجر أو المحامى أو الطبيب أو المزارع أو رجل الأعمال :

— الآن يا صاحبى يجب أن تتقاعد ، فقد بلغت الخامسة والستين ، وهى سن التقاعد اللائقة ..

وذلك لسبب بسيط جدا ، وهو أن الأشخاص يختلفون كثيرا فى تكوين أجسامهم ، وظروفهم المالية والعائلية ، بحيث يجب أن يترك للشخص نفسه تحديد سن تقاعده

والواقع ان كلا منا يتطلع بلهفة وشوق الى ذلك اليوم الذى يغدو فيه حرا طليقا من المسئوليات والمشاغل كرياح الصحراء . ولكن معظمنا يجهلون الوقت المناسب لذلك ، اما تحت ضغط العمل ، واما لتعلقهم بعادة العمل ، واما لأن التقاعد يقترن فى ذهنهم بالشيخوخة وقرب النهاية .

فمتى يجب أن نبدأ فى التفكير فى التقاعد ؟

الجواب الصحيح عندى لا شك سيدهشك ، فاننى أرى أن الانسان العاقل يجب أن يبدأ التفكير فى التقاعد وهو دون سن العشرين !

فمنذ تلك السن يجب أن تفكر وتستعد ، حتى تكون متأهبا للتقاعد فى أقرب وقت ممكن ، فلا يكون تقاعدك لأنك لم تعد تستطيع العمل ، بل لأنك قادر على وقف العمل كى تتفرغ لمزاجك . وليس لأنك لم تعد تصلح الا لانتظار الموت ، بل لأنك تريد أن تبدأ الحياة الحقيقية ، وما زلت صالحا لها ..

فيا حبذا لو كانت مادة التقاعد من مواد الدراسة فى المدارس الثانوية والعالية ، حتى لا تفسد حياتنا ، ونخسر أجمل ما فيها ، وهو وقت الحلم الذهبى ، أى الكسل والاستمتاع بالحرية

فاذا كنت تستطيع التقاعد فى سن الخامسة والاربعين ، فلا تجعلها خمسين ! واياك أن تضع خطتك منذ البداية على أنك ستتقاعد فى سن الخامسة والستين ، لأنك غالبا سوف لا تتمتع بالعهد الذهبى الا خمس سنوات ، كما أنه يحتمل كثيرا أن تكون قد صرت مهدما فتقضى تلك السنوات مقعداً منغصا لا تستطيع التلذذ بطعم حريتك ، كما أنه يحتمل أيضا الا تبلغ سن الخامسة والستين على الاطلاق !

وثمة شيء آخر : عليك منذ حداثتك أن « تضع عينك » على هواية تستمتع بها بعد التقاعد ، فلا يخطرن ببالك أنك ستسعد فى تقاعدك بقضاء السنوات فى لف أحد ابهاميك حول الآخر ، أو فى عد حبات المسبحة ، وأنت تحملق فى السماء أو فى الماء

ومن الهوايات الجميلة القراءة ، والموسيقى ، وصنع السجاد ، والرسم ، وجمع طوابع البريد ، وعلم الحشرات ، والنجارة الخفيفة (الآركت)

وهناك خطأ شائع جدا : أن التقاعد يقصر العمر ، ويذكرون مثلا لذلك حالات رجال كانوا بأتم صحة وهم يعملون ، فلما تقاعدوا لم يمهلوا طويلا حتى ماتوا ..

وتعليل ذلك عندى يسير : فان طول مدة العمل تضعف المقاومة ، فاذا توقف الانسان مرة واحدة عن العمل ولم يكن عنده ما يشغله اطلاقا ـ كالهوايات التى ذكرت آنفا ـ كان ذلك أشبه بنزول الشخص من القطار وهو يجرى باقصى سرعته . ذلك أن أجهزته كلها متعودة على روتين مجهود معين بسرعة معينة ، فايقافه فجأة يحدث هزة شديدة ، هى التى تسبب ذلك الانطفاء السريع بالوفاة ، او بالعته والشرود

ويرى اخصائيون محترمون فى هذا الموضوع ـ منهم الدكتور تشارلس بيرلنجيم ـ أنه يجدر فى مثل تلك الحالات ، ولا سيما اذا كان عمل الشخص يركز فيه مسئوليات كبيرة ، أن يكون تقاعده تدريجا ، بتخفيف المسئوليات عنه ، وتخفيف المجهود أيضا فى السنتين السابقتين للتقاعد ، فلا يكون لتقاعده ذلك التأثير الحاطم ..

□

تذكر انك ـ مهما كانت سنك صغيرة ـ أيها القارىء ، فانها ليست سنا مبكرة للتفكير فى اعداد تقاعدك . واعلم أن سن الستين سن متأخرة جدا للتقاعد ، وكلما قربت من الاربعين ، كان ذلك أحسن لصحتك ، وأمتع لحياتك ، وتذكر أيضا أنك ستعيش مرة واحدة فقط ..

خداع التقويم

ان انس لا انسي ذلك الرجل الضئيـــل الذى مال فوق مكتبى كأنه يريد أن يسر الى شيئا ، وقال لى :

ــ ارجوك فىمكرمة يادكتور : لاتبح بسنى الحقيقية لأحد فقد أتيت الى هذه البلاد حدثا يافعا ، وها قد بلغت الآن السابعة والثمانين ، ولكن الجميع يظنوننى لم أبلغ السبعين بعد . فلماذا أقول لهم اننى عجوز وأنا لا أشعر أننى كذلك ؟ فان ذهنى صاف ، والنـــاس يحترموننى لرجاحة تفكيرى لا لعلو سنى ، ولا يأنف من هم أصغر منى سنا منمصاحبتى مصاحبة الند للند ظنا منهم أننى فى عمرهم . وتصور أننى اذا صارحتهم بحقيقة سنى ، فانىموقنأنهم سيقابلونآرائى بعدئذ بالسخرية ظنا منهم انها خرف الشيخوخة ، كلما تحدثت بصراحة عن رأيى فى الحالة الدولية أو فى السياسة المحلية ، أو فى الحرب الباردة .. ثم اننى الاحظ أنه متى اعترف الانسان انه شاخ ، فكأنه نصف ميت فعلا ، بل ان الناس يعتقدونه ميتا حقا ، مع وقف الدفن !

ووافقته على رأيه ، معجبا بحصافته ، والحق أن عينيه كانتا صافيتين لامعتين ، وكان عقله شابا ، وحركاته ومزاجه مزاج وحركات من يصغرونه بربع قرن على الأقل . ولذلك ربت على كتفه وقلت له :

ــ معك حق . انت شاب ما دمت تشعر انك كذلك . واطمئن ، فانك لا تكذب حين تزعم انك فى السبعين ، ما دام

شعورك بنفسـك لا يتجاوز هـذه السن ، وانما التقويم يا صديقى هو الذى يكذب حين يدل على أنك أسن من ذلك.

□

والحقيقة أن التقويم يقتل أشخاصا كثيرين ، لأنه يوهمهم أنهم شاخوا ، ولولاه لما التفتوا الى ذلك ، ولظلوا يشعرون على سجيتهم بالانطلاق وحيوية الشباب

بل انى أعرف أشخاصا كانوا مرحين الى ان احتفلوا بعيد ميلادهم الأربعين ، فاذا هذا الاحتفال التقويمى يحملهم دون ان يشعروا على الوقار ، والتصلب فى الحركات ، والكآبة السمجة ، والبطء فى المشى .. وسائر ما يوافق «كبرالسن»

عمرك يا صديقى فى الحقيقة غير منوط بالتقويم أو مفكرة الجيب الحسابية . بل هو عمر احساسك ، وحيويتك ، وخلاياك ، وعضلاتك .. وأما الباقى فمن خداع الأوهام ، فلا تلتفت اليه

ولست أرى داعيا مطلقـا لأن يتمسك الشيوخ بالوجوم والوقار باعتباره من مستلزمات السن . وأسخف من ذلك طبعا أن ينعى الشيوخ على الشـبان مرحهم وابتسامهم وانطلاقهم ، لأنهم هم فقدوا القدرة على كل ذلك بحكم الزمن ، أو بحكم ضيق عقولهم . وأوصى هؤلاء السادة أن يذكروا مدة حداثتهم ، وكيف كانوا يضيقون بحجر الآباء عليهم وزجرهم لهم اذا صخبوا وانطلقوا على سجية حيويتهم الدافقة

ولست أتهم بالجمود كل مسن ، فالتاريخ يحفظ لنا سيرة فريق من الشـيوخ كانوا من النوع « الدائم الخضرة » ، فالدكتور ليليـان مارتن تعلم الآلة الكاتبـة وهو فى سن الخامسة والستين ، وطاف وحده حول العالم وهو فى سن

الخامسة والسبعين ، وتعلم قيادة السيارات فى سن السابعة والسبعين !

وجيته الشاعر العظيم أتم « فاوست » فى سن الثالثة والثمانين ، ووقع فى غرام عنيف لفتاة دون العشرين وهو فى تلك السن ونظم فيها أبدع قصائده

وستراديفاريوس ظل يصنع القيثارات الى أن بلغ الثالثة والتسعين من عمره !

وكليمنصو فرض معاهدة فرساى وهو فى سن الثامنة والسبعين . وأما فرانكلين فكان فى السادسة والسبعين حين وضع أسس الاستقلال الأمريكى

واديسون المخترع العظيم ، وفورد ، ظلا يعملان بنشاط الى ما بعد الثمانين ، وكذلك توسكانينى قائد الفرق الموسيقية الاعظم فى العصر الحديث

وهؤلاء جميعا كانوا يعملون كثيرا جدا ، حتى أن كثيرين منهم كانوا ينسون الطعام والنوم .. ولكن شباب العقل حفظ عليهم شباب الجسم

من شباب عقلك ، تعش شابا طول حياتك .. فلا تصدق التقويم ، وابتسم ، واستقبل الحياة



حياتك بين يديك

والآن لست أدرى على وجه التحقيق كيف تودع هذا الكتاب ، بعد أن فرغت من قراءته من البداية الى النهاية . ولن يدهشنى أن تلقيه من يدك وقد تنازعتك عوامل القلق، وتناهبتك أسباب التساؤل . فانى لم أقتصد فى ألفاظ الفناء والاعدام والانتحار . ولهذا أجد لزاما على أن أختم كتابى ببضع ملاحظات أخيرة أوجزها فيما يلى :

هل للانسان المتزن المتكامل وجود ؟ وهل يسعى الانسان حقا الى ما فيه اختلاله وضرره ؟ وهل أصبح فى مرحلة الاعداد لانهاء وجوده ، وانه الآن يتدرب على تلك النهاية فى جد ومثابرة ؟

واعتقادى شخصيا ان الجواب على السؤال الاول هو « نعم » . أما الجواب على سائر الاسئلة فهو « لا » . فانى متفائل على طول الخط ، ولأننى متفائل فأنا أميل الى التحذير والانذار لأن التحذير والانذار يكفلان لنا فرصة تجنب الاخطاء وتحسين المستقبل غاية التحسين. أما محاولة اغماض العينين لكى لا نرى الواقع فلا نتيجة لها سوى التردى فى المحظور

واذا كنت أومن بوجود قوة الفناء فى أعماقنا الى جوار قوة البقاء ، فاننى أومن أيضا ان قوة الفناء ليس لها نفوذ يعتد به الا على نسبة قليلة جدا من الناس ، أما الغالبية العظمى فالقوة السائدة فى أعماقهم هى قوة البقاء ، وما زلت أعتقد انه سيأتى زمن تمتنع فيه الحروب ، ويمتنع الجنس

البشري عن اهلاك نفسه بالجملة ، وذلك رهين بحسن التربية على أساس نفساني علمي في المستقبل وبارتفاع مستوى الاتزان العصبي في مجموع الانسانية

وانى لأتطلع الى أن تحسن الافادة من هذه الصفحات ، فتقبل على الحياة بثقة وعزيمة واستبشار ، وأن تجتهد فى اعتصار أقصى ما تستطيع من رحيق متاعها ، برعاية عقلك وجسدك وحسن الموازنة بينهما

وانى لوطيد الأمل أن تحسن التعرف الى أسرار جسمك وسريرتك ، وأن تكون واقعيا فى معرفتك بهما ، وأن تستمتع عما قريب بثمرات كشوف العلم ، فيتاح لك كما تمتعت بعلاج للسكر ، أن تتمتع بعلاج يقضى على ضغط الدم العالى ، ويشفى السرطان ، ويمنع تصلب الشرايين

ولست طبعا أطمع فى أن يتقلص ظل الموت عن هذا الكوكب ، ولكن سلطان الحياة سيكون أقوى ، وباب الأمل فى تقهقر الموت الى سن طيبة سيتسع

ولعلنا نكون دائبين الآن دون أن ندرى على قتل أنفسنا على نحو من الانحاء التى بينتها فى هذا الكتاب . ولكن ازدياد معرفتنا بمواضع قوتنا ومواضع ضعفنا سيجعل قوة الفناء فينا أضعف سلطانا وأوهن نفوذا وأثرا

فلنبدأ فى تلك الخطة ، لا غدا ولا بعد غد ، بل فى هذه اللحظة ، فان التسويف فيما يمس الحياة هو كبيرة الكبائر

والآن أستودعك الله ، متمنيا لك أطيب الصحة وأرغد العيش وأطول العمر ، بعد أن بينت لك جهد البيان أن مصير حياتك بين يديك

فهرس

الكتاب القــادم

عصاميون عظماء

من الشرق والغرب

لنخبة من رجال الفكر
في الشرق والغرب

وكلاء مجلات دار الهلال

سوريا ولبنان :	شركة فرج الله للمطبوعات ـ مركزها الرئيسى بطريق الملكى المتفرع من شارع بيكو فى بيروت (تليفون ٧٨ ـ ١٧) صندوق بريد ١٠١٢ ـ أو باحدى وكالاتها فى الجهات الأخرى . (الأعداد ترسل بالطائرة للشركة وهى تتولى تسليمها لحضرات المشتركين)
العـــراق :	السيد محمود حلمي ـ صاحب المكتبة العصرية ـ ببغداد
اللاذقيـــة :	السيد نخلة سكاف
مكة المكرمة :	السيد هاشم بن على نحاس ـ ص . ب ٩٧
البحرين والخليج الفارسى :	السيد مؤيد احمد المؤيد ـ مكتبة المؤيد ـ البحرين
برقـــة :	السيد محمد على بو قعيقيص ـ بنغازى ـ ص . ب ١٠٤
البـــرازيل :	Snr. Jorge Suleiman Yazigi, Rua Varnhagem 30, Caixa Postal 3766, Sao Paulo, Brazil.
ساحل الذهب :	The Queensway Stores, P.O. Box 400. Accra, Gold Coast, B.W.A.
نيجـــريا :	Mr. M.S. Mansour, 110, Victoria Street, P.O. Box 652, Lagos, Nigeria, W.C.A.
انجـــلترا :	مكتب توزيع المطبوعات العربية Arabic Publications Distribution Bureau 15 Queensthorpe Road, London, S.E. 26.

هذا الكتاب

مؤلف هذا الكتاب من علماء النفس والأطباء البشريين . كافح الموت فى علاجه للجسم البشرى خمسا وعشرين سنة فهدته التجارب الطويلة الى ان هناك ميدانا آخر فى مكافحة الموت لعله أهم من ذلك الميدان وهو ميدان النفس

وقد اقتنع أن فى كل انسان دوافع لافناء ذاته تكمن فى نفسه ، وتعمل لهلاكه دون ان يدرى ، وانه كما يحب الحياة ويحرص عليها كذلك يحب الفناء ويميل اليه ميلا غريزيا — اى ان فى الانسان غريزتين : غريزة حفظ الذات ، وغريزة قتل الذات

ولعلك تدهش لذلك . ولكنك سترى فى هذا الكتاب ما يجعلك تؤمن بما فيه ، وتشعر بأن عليك واجبا أن تحارب فى نفسك غريزة الميل الى الموت وتقضي على أوكاره وجراثيمه التى تبثها تلك الغريزة

ان فصول هذا الكتاب ليست ارشادات صحية ، ولكنها دراسات نفسية تكشف لك الكثير مما تجهله ، وما يجب عليك أن تتنبه اليه لتحتفظ بحياة هانئة سعيدة

كتاب الهلال

عصاميون عظماء من الشرق والغرب

بأقلام

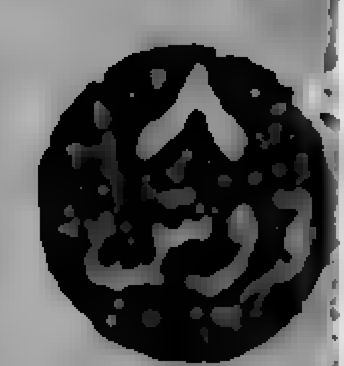
نخبة من كبار الكتاب

أشرف عليه

محمد فريد ابو حديد



سلسلة شهرية
تصدر عن دار الهلال



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »
شركة مساهمة مصرية

رئيس التحرير : طاهر الطناحى

العدد ٣٥ – جمادى الأولى ١٣٧٣ – فبراير ١٩٥٤

No. 35 — February 1954

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب
(المبتديان سابقا) القاهرة

المكاتبات

كتاب الهلال – بوستة مصر العمومية – مصر
التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشـــتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) – مصر والسودان ٨٥ قرشا صاغا – سوريا ولبنان ١٠٧٥ قرشا سوريا أو لبنانيا – الحجاز والعراق والأردن ١١٠ قروش صاغ – فى الامريكتين ٥ دولارات – فى سائر انحاء العالم ١٥٠ قرشا صاغا أو ٣٠/٩ شلنا

كتاب الهلال



سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

عصاميون عظماء
من الشرق والغرب

بأقلام

نخبة من كبار الكتاب

أشرف عليه

محمد فريد أبو حديد

ترجم الجزء الثانى من هذا الكتاب عن كتاب

Lives Of Poor Boys Who Became Famous

تأليف : ساره بولتون

SARAH K. BOLTON



بقلم الاستاذ محمد فريد أبو حديد

الحياة منذ الأبد فسيحة للذين يبصرون آفاقها ، والارض منذ القدم غنية للذين يستطيعون أن يستخرجوا خيراتها ، ولم يأت جيل من البشر الى هذه الدنيا الا ليجد فرصة تنتظره فى ميادين النشاط التى لا يمكن أن تخمد ما بقيت الحياة الانسانية

والحياة على قدمها تتجدد دائما لكل جيل من الأجيال المتعاقبة ، والآفاق المشرقة تتجلى دائما لكل من يريد أن يرتاد مطالعها ، ما دامت نفوس الناس وطبائعهم تحتفظ بالجذوة التى وهبها الله للجديرين بالحياة

وقد كانت الحياة من ناحية أخرى تضيق منذ الأزل بالذين لم يستطيعوا أن يبصروا ، وكانت تضن بخيراتها ونعمها المادية والمعنوية على الذين لم يستطيعوا ان يؤدوا ادوارهم كما يؤديها الجديرون بالحياة . كانت الحياة دائما مجدبة خاوية أمام الأجيال التى لم ترسم لنفسها غاية تحرص على الحياة من أجلها

فالنجاح والخذلان والمقدرة والعجز تسير جنبا الى جنب منذ بدء الحياة ، والفرق بين حالى السمو والاسفاف ينشأ من قلوب الناس أنفسهم ، لأنهم هم الذين يصنعون

مصائرهم بأيديهم عندما يختارون طريقهم فى الحياة ويحددون لأنفسهم غايتها ووسائلها

الحياة الانسانية مغامرة متجددة فى كل عصر ، لأنها تعرض على الأحياء فى كل جيل انماطا شتى من الآمال والدوافع والفرص ، وتدع الناس يختارون لأنفسهم ما يشاءون منها ، ويتحملون عواقب اختيارهم بغير هوادة أو تسامح . ولهذا لم تخل العصور المختلفة من وجود النوابغ النابهين ووجود الهمل الخاملين ، كما انها لم تخل من وجود الأمم الحية القوية والأمم الضعيفة المنحلة

الحياة تجدد مناظرها امام كل جيل ، وتلون لهم الدوافع والأهداف بألوان مبتكرة فى كل مرة وتنوع لهم صور العقبات التى تلقيها فى سبيلهم ، حتى يخيل اليهم أن الأجيال السابقة لم تجرب شيئا من هذه التجارب التى يمرون بها ، ولكن الحقائق الأبدية دائما واحدة وان تغيرت مناظرها والوانها ، والمغامرة الانسانية دائما واحدة وان تجددت مواقعها وميادينها . فنحن جميعا سواء كنا من الأفراد أو الأمم ، نحن البشر الذين ينتشرون فى أركان هذه الارض الفسيحة من مشارقها الى مغاربها ، نشترك فى مغامرة بغير أن نفطن الى هذه المشاركة ، وهذه المغامرة التى نشترك فيها فى عصرنا هذا حلقة من سلسلة طويلة مرت منها حلقات كثيرة وما تزال منها حلقات كثيرة أخرى فى طى الخفاء وراء حجب الغيب ، والحلقات المختلفة من هذه المغامرة الانسانية الأبدية هى السر الاكبر فى كل ما أحرزته الانسانية من التقدم فى الحضارة والعلوم والافكار والمبادىء. كل جيل يخلف وراءه تراثا من ثمار تجاربه ونشاطه لكى يبدأ الجيل التالى من حيث انتهى الجيل الذى سبقه

ولكن الأمم والشعوب المتشاركة فى هذه المغامرة العامة ليست سواء فى نصيبها من المغامرة. كل منها يختار لنفسه

آماله ودوافعه وفرصه ويتحمل عواقب اختياره ، فمنها أمم وشعوب تسمو وتسود ، ومنهـا أمم وشعوب تلهو عن السمو والسيادة اذا ضللتها قلوبها وعقولها عن الغاية الجديرة بالحياة الانسانية

ومن الأمم والشعوب من ينحرف عن جادة الحياة عندما يخرج عن جادة العدالة . فهى تنصرف الى مغامرة تافهة تتعلق فيها بالسفاسف وتنحدر فيها مع الميول والأوهام السخيفة فلا تستطيع أن تتبين الغاية الكبرى التى اعدت للبشر . ومثل هذه الأمم والشعوب تهوى مع ميولها وأوهامها الى مصـــيرها المحتوم الذى يسيطر فيه الطغيان والفساد والخمول . عند ذلك تتحول مغامرتها الى مسخرة تنطوى على النفاق والحرص والجبن والأنانية

ولقد مضى علينا دهر نحن معاشر الشعوب العربيـــة ، كنا فيه ويا للأسف نخبط فى حياة مزيفة . كان ميـــدان الحياة عندنا مسرحا للميول التافهة والأوهام السخيفـة . وكانت عوامل الطغيـــان والفساد والخمول تسيطر علينـا وتجرفنا عن جادة العدالة . وكان نظام مجتمعنا نتيجة لهذه الحياة المزيفة قائما على حدود ظالمة ، وامتياز طبقة من الأمة على ما سواها ، فبعدت كل احوالنا عن العدالة . كان البعض منا يستند الى سيطرة الطبقة التى ينتمى اليهـا فى حدود النظام الجائر الفاسد ، على حين كان البعض الآخر يحرم من فرص الحيـاة وتوضع فى أقدامه القيـود الثقيـلة حتى لا يستطيع النهوض . وكانت شرعة الطغيـان تجعل كل خداع مباحا وكل غش ممكنا وكل تزييف مقبولا . ولهذا صـارت السيادة وقفا على البعض دون البعض حتى آلت آخر الامر الى سيادة من لا يستحقون أن يكونوا سادة

وكان من أكبر ما يثـير قلوب المفكـرين وطلاب الحق والعدالة أن هذه الحال قد أدت الى خذلان الشعوب العربية

وهم ورثة أمة استطاعت فى يوم من الأيام أن تكون فى ذروة المجد الانسانى فى شتى ميادين النشاط وأن تخلف للبشر جميعا تراثا نفيسا فى العلم والفن والادب والمثل العليا . كانت الأمة العربية فى وقت من الأوقات هى أمينة الجنس البشرى على الحضارة وهى رائدة التقدم فى كل ميادين الروح والعقل والفن . فما كان أشد على النفوس من أن تنحدر هذه الشعوب الي مهاوى الضعف والانحلال وتلقى مصير الشعوب اللاهية فى أهوائها وأوهامها

ولكنا بحمد الله قد نجونا من الهوة التى كان ذلك العهد المظلم يسوقنا اليها ، وأخذنا فى سبيل تحطيم الطغيان والفساد ، وعقدنا العزم على أن نفتح ميدان الحياة على مصراعيه ، ونبيحه لكل من يريد أن يجول فيه

هكذا تصير مغامرة الحياة جديرة بالشعب الذى ورث عن أجداده تقاليد المجد الرفيع وهكذا يستطيع الجميع أن يقفوا وجها لوجه أمام ظروف الحياة وأمام الطبيعة التى لا تعرف المحاباة ولا التزييف ، ولا العوامل المصطنعة او الحدود الجائرة

لقد آن لنا أن نستقبل الحياة بكل ما فينا من قوة الارادة والعقل والروح لنعيش كما عاش أجدادنا من قبل ، وكما تعيش الأجيال الحية المجاهدة التى تستحق نعمة الحياة . هذا عهد جديد يطلب من أهل هذا الجيل من أبناء الشعوب العربية ان يقوموا بأداء واجباتهم التى فرضها ميراثهم العظيم من أجيال الآباء ، ذلك التراث الذى تعاون على تكوينه كل الأسلاف الذين حملوا أمانة التقدم الانسانى مدى قرون كثيرة . وعلينا نحن أن نضيف الى هذا التراث العظيم نصيبا من ابتكارنا ومن نشاطنا ومن تفكيرنا . فهذا هو سبيلنا الوحيد لتحطيم بقية القيود التى خلفتها لنا عصور الانحراف والظلام . وعلى شباب هذا الجيل خاصة أن

يسارع الى معرفة نفسه حق المعرفة وأن يتغلغل فى أعماقها ليعرف ما يستطيع وما لا يستطيع ويرسم لحياته غاية يحرص عليها ويحب أن يحيا من أجلها ويبذل لها كل مقدرته وكل ارادته وكل عاطفته بل يودع فيها روحه ليكون تحقيقها تحقيقا لوجوده . لكل منا جانب خاص يمكن ان يكون موردا عزيزا للخير والبركة اذا عرفه وأخلص فى الاستفادة منه . وكل من يقدر على التفوق فى ناحية من النشاط الانسانى يمكن أن يصبح من رواد الانسانية اذا اتجه بقلبه الى الانتفاع بهذه الميزة . قد يكون العامل الصغير رائدا للانسانية اذا عرف من نفسه ناحية يتميز بها ويعمل على استغلالها كما قد يكون الزارع والطبيب والمعلم والأديب والفنان . كل منا يكون من رواد الانسانية اذا عرف ناحيته التى يبرز فيها وركز كل نشاطه فى خدمتها . ونحن فى هذه الفترة من حياتنا نعيش فى عهد انتقال من عهد العبودية والطغيان الى عهد التحرر والعدالة، وهذه الفترة من اخطر الفترات التى تمر بها الأمم فى أول عهود نهضتها . ذلك لأن الشعب المطحون اذا خرج من تحت النير الثقيل لا يتأتى له ان يثب مرة واحدة فى الفضاء الطلق . وعندما تتحرر النظم وتزول الحدود والعقبات القديمة تبقى آثار الماضى فى داخل النفوس والضمائر تعمل عملها فى خفاء . فالمستعبدون يحتفظون بكثير من آثار الطغيان حتى بعد ان تفك قيودهم ، وعليهم اذا ارادوا التحرر حقيقة أن يجاهدوا أنفسهم وضمائرهم أولا

هذا هو الجهاد الأكبر . هذا هو الجهاد الذى يحتاج الى كل عزائمنا وكل اخلاصنا وكل صراحتنا . والترياق المضمون الكفيل بتطهير الأنفس والضمائر من آثار الطغيان هو نفس الدواء الذى يعد الشعوب للثورات على الطغيان ،

هو تحويل الأفكار بالعلم والبحث وتحريك القلوب بالفنون والآداب

ان هـذه النهضة الحديثة التى عمت الشعوب العربية ومهدت لها السبيل الى الوعى بحقوقها وبوجودها ، انما هى وليدة للتراث العلمى والفنى والأدبى الذى خلفه لنا العلماء والفنانون والأدباء فى عشرات السنين الأخيرة ، مضافا الى التراث القديم الذى خلفته الأجيال المجيدة الأولى . فاذا كنا نريد حقا أن نطهر نفوسنا من آثار الماضى المظلم وأن نزيل كل ما علق بها من سمومه وأدرانه ، واذا أردنا أن نداوى العقد الفكرية والنفسية التى خلفتها لها أعوام طويلة من الفساد والاسفاف ، واذا أردنا أن نوجه بصائرنا وأبصارنا الى آفاق جديدة وغايات سامية فى حياتنا . اذا أردنا ذلك كله كان لابد لنا من حركة علمية جديدة وحركة فنية أدبية تدفعنا الى الأمام وتنير لنا طريقنا الذى بدأنا السير فيه

ان من أشد الأخطار علينا أن ننسى أو نتجاهل قيمة الفكر والفن والأدب أو أن نضعها فى غير المكان اللائق بها فى مقاييس القيم التى نقيس بها شؤون حياتنا . ان الفكر والفن والأدب تنمى ثروتنا الانسانية ولا أظن ان أحدا يجادل فى ان الثروة الانسانية لها المحل الأول بين أنواع الثروة . قد نستطيع أن نبنى وأن نعمر وأن ننشىء المصانع والخزانات وأن نمد الطرق ونختط المدن والقرى وأن نتم كل ذلك على أحسن الوجوه وأبرعها ولكن هذه الاصلاحات تذهب كلها هدرا اذا لم تدعمها تنمية الثروة الانسانية . المستشفى بغير الطبيب الانسان الشاعر بمسئوليته المتحرر من آثار العبوذية والفساد لا تزيد على بناء خاو خرب ، والمدرسة بغير المدرس الانسان الشاعر بجلال وظيفته والمخلص فى الايمان بحريته والعامل على تحرير تلاميذه لاتكون سوى مجموعة من حجرات فيها مقاعد جلوس

للأطفال ، بل قد تكون أسوأ من ذلك وأقل قدرا . وهكذا كل المنشئات وكل المرافق المادية لا تساوى شيئا اذا لم يملأها العنصر الانسانى السامى

فكل حركة تؤدى الى تقوية الفكر والفن والأدب تخدم مستقبل هذه الشعوب العربية الطامحة الى العلا والحرية والعدالة ، وكل عامل على زيادة هذه الحركة يؤدى خدمة جليلة لاخوانه من ابناء هذه الشعوب العربية

▭

وقد كنت منذ حين احاول القيام بشىء من واجبى فى هذا الميدان الذى اظن انى اســــتطيع ان اجول فيه بقدر طاقتى ، لأشارك فى التوجه مع قومى من ابنـــاء الشعوب العربية الى الآفاق الجديدة التى بدات تطلع علينا . هذا واجب أحسست دفعه فى أعماق قلبى ولم أملك الا أن أطيع دفعه بقدر ما أتيح لى من جهد ومقدرة

وقدعرضت على فى الشهورالأخيرة فكرة جديدة وجدتها تلائم وجهتى وفكرتى . وذلك ان مؤسسة فرنكلين المساهمة الأمريكية طلبت الى أن أشرف على اخراج كتاب فى اللغة العربية ينفع الشباب بما فيه من امثلة على الكفاح فى الحياة والتفانى فى تحقيق غاية نبيلة لها . واقترحت على ترجمة كتاب « حياة أولاد فقراء صاروا من المشاهير » وهو من الكتب المعدودة التى لقيت نجاحا عظيما فى أمريكا وسائر أقطار الأرض ولا سيما بين قراء الشباب . وقد وجدت فيه سيرا عدة للمشاهير من رجال العلم والعمل والفكر . وهى نماذج بشرية تظهر كيف يستطيـــع الفرد ان يشق طريقه الى المجد بقوة نفسه وصدق عزمه ومتانة خلقه . فما كدت أطلع عليه حتى اهتز قلبى أملا وابتهاجا لأن تلك

السير تصف كيف جاهد هؤلاء العظماء منذ أيام صباهم وكيف عانوا المشقة من الضيق والفقر والحرمان ، ثم كيف وقفوا وجها لوجه أمام الظروف الشديدة التى أحاطت بهم حتى أخضعوها لارادتهم وجدهم واستطاعوا أن يسيروا خطوة خطوة نحو الغاية التى رسموها لأنفسهم فما زالوا حتى تسنموا المجد وخلقوا من ورائهم قصة تراث نفيس فى العلم أو الفن أو الفكر أو الخدمة الانسانية

فحياة هؤلاء الأبطال أكبر مثال يمكن ان يوضع أمام الشباب فى هذا الجيل ليروا فيه صور أنفسهم كما ينبغى أن تكون صور أنفسهم اذا تحللوا من قيود الماضى ودخلوا الى ميدان المغامرة الانسانية العادلة ، وكافحوا بكل ما فيهم من قوة الذكاء والعزيمة والخلق المتين

لقد كان شبابنا دائما يقنع بالمطالبة ، ويحلق مع احلام اليقظة ويتعلق بالأمانى ، ثم ينظر حوله الى المعين الذى يأخذ بيده لأن الحياة كانت لا تفتح أبوابها الا لمن كان له سند من أهل السلطان الذين استأثروا بالسيادة . ولكن هذا العهد عهد المغامرة الحرة أو ينبغى أن يكون هكذا . وشبابنا مطالب بأن يدع المطالبة والتعلق بالمنى وأحلام اليقظة وأن يستعيض عن ذلك كله بالمبادأة . هذه الحياة أمامه فليضرب فيها بذكائه وقوة عزيمته ومتانة خلقه . وهذه أمثلة لصغار كانت تحيط بهم الأشواك ثم بنوا لأنفسهم ذكرا خالدا

وقد رأيت أن أزيد الكتاب قدرا بأن أضيف اليه مجموعة من سير بعض مشاهير العرب الذين بنوا لأنفسهم ذكرا خالدا فى ميادين الحياة المختلفة ، وقد نشأوا فقراء كأمثالهم فى البلاد الأخرى تحيط بهم الأشواك . وكان نصيبى فى هذا الكتاب أن ترجمت بعض فصوله وراجعت بعض فصول أخرى ترجمها شاب أديب له قصة طريفة أود أن أسجلها هنا .

عرفت الأستاذ سعد الغزالى خريج كلية الآداب عندما كان يعمل فى الصحافة . ورأيت أن يقوم بترجمة فصول من هذا الكتاب لما عرفت فيه من قوة النفس ومتانة الخلق وبلاغة القلم والمقدرة الممتازة فى معرفة اللسان الانجليزى . ولكنه ما كاد يبدأ فى الترجمة حتى دعى للانخراط فى سلك الجندية تأدية لواجبه الوطنى . فكان من أكبر ما يدعو الى سعادتى أن يزورنى فى زيه العسكرى لنتذاكر فيما ترجم ونقرأه معا ونعيد فيه النظر معا . فكنا نمثل جيلين من أبناء مصر يتعاونان على خدمة اللغة العربية الشريفة والشعوب العربية الشقيقة . هذه آية تبشر بأن اجيال مصر تتعاون فى خدمة الوطن والعروبة . وكانت أكبر مكافاة لنا أن نحس اننا قدمنا الى اخواننا شيئا يختلط بقلبينا ونرجو أن يصل الى قلوبهم أيضا

واما السير التى اضيفت الى الكتاب فلم يكن لى فيها الا فصل واحد وهو ترجمة الأستاذ العظيم على مبارك معلم مصر الأول . وكان من حسن الحظ ان استجاب الى النداء نخبة من كبار الأدباء ورجال الفكر ورجال الأعمال فكان لهم الفضل فى أن الكتاب أصبح شاملا لأروع المثل فى العالمين الغربى والشرقى . ولست استطيع أن اوفى حق هؤلاء الفضلاء من الشكر وحسبهم انهم ارضوا انفسهم بالمشاركة فى خدمة الثقافة العربية . فقد كتب الأستاذ الجليل عباس محمود العقاد سيرة للزعيم العظيم سعد زغلول وكتب الدكتور سعيد عبده ترجمة للجراح الأكبر على ابراهيم .. وتفضل الأديب الكبير طاهر الطناحى فكتب فصولا ثلاثة عن جرجى زيدان المؤرخ ، وسليم تقلا الصحافى الأديب ، وشاعر النيل حافظ ابراهيم .. كما تفضل الشاعر المبدع والكاتب البارع عادل الغضبان فكتب فصلين احدهما عن رجل جمع بين ميادين العمل ، وميادين الانسانية وهو

سمعان صيدناوى وعن نابغة آخر جمع بين الابداع فى الفن والابداع فى الأدب وهو جبران خليل جبران

وما كان يمكن أن يصدر كتاب عن سير عباقرة العصاميين بغير ان يكون فى مقدمتهم رائد الاقتصاد المصرى الأول طلعت حرب وكان صاحب الفضل فى ترجمة حياته السيد محمد رشدى عضو مجلس الادارة المنتدب لبنك مصر. وقد تفضل عالم الموسيقى الدكتور محمود الحفنى فكتب سيرة حياة فنان مصر الأول فى الموسيقى عبده الحامولى

وقد رأيت أن ادخل شيئا من التعديل على عنوان الكتاب فجعلته « عصاميون عظماء » وهو لا يختلف فى معناه عن عنوان الكتاب الأصلى الذى ترجمنا أهم فصوله

وكتاب « أطفال فقراء صاروا من المشاهير » واحد من عدة كتب ألفتها سيدة أمريكية بارعة ، هى سارة بولتون التى قضت حياة حافلة بالتأليف والتعليم والخدمة الاجتماعية فى أواخر القرن الماضى ، اذ كان ميلادها فى عام ١٨٤١ وانتهت حياتها العريضة فى عام ١٩١٧ ففيما بين هذين التاريخين ألفت عدة كتب قيمة منها مجموعة من كتب السير توفرت فيها على ترجمة حياة العظماء الذين نشأوا فى صفوف الفقراء وجاهدوا حتى بلغوا أوج العظمة . وكتاب « أولاد فقراء صاروا من المشاهير » واحد من أحب هذه الكتب الى القراء ، اذ طبع لأول مرة فى عام ١٨٨٥ وأعيد نشره فى عام ١٩٤٧ بعد أن نقح وروجع . ومما يجدر بى ذكره انه قد وزع منه اكثر من ٨٥٠٫٠٠٠ نسخة وما يزال يتدفق الى القراء الى اليوم والذى أرجوه من هذا العمل الذى توفر عليه هذا العدد من كبار المفكرين والكتاب والأدباء من أجيال شتى بين الشباب والشيخوخة أن يدخل شيئا من الرضى الى قلوب نريد لها أن ترضى وأن يزدهر أملها . وأن يخرج كل من يقرأ هذه الفصول مستبشرا ، فان الحياة فسيحة لكل عامل مجاهد

محمد فريد أبو حديد

الجزء الأول

عصاميون من الشرق

سعد زغلول



سعد زغلول

« كان عصاميا وهو طالب ، وعصاميا وهو موظف ، وعصاميا وهو محام ، وعصاميا وهو قاض ، وعصاميا وهو وزير ، وعصاميا وهو نائب ، وعصاميا وهو زعيم »

عظيم كل حياته عصامية

بقلم الاستاذ عباس محمود العقاد

ما هى العصامية ؟

عند كثير من الناس ان العصامية هى مجرد الانتقال من حالة الخمول والفقر الى حالة الجاه والثروة

ولكن المرء قد ينتقل من الخمول والفقر الى الجاه العريض والثروة الوافرة ولا يحسب من العصاميين ، لأنه لم ينتقل هذه النقلة بعمله وجده بل كان الفضـــل فى غناه ونفوذه للمصادفة ولا يندر أن تجيئه المصادفة بغير حسبان وعلى الرغم منه ، ومن هذا القبيل اننى أعرف تاجرا كان يتبرم بما عنده من البضائع الكاسدة ومنها الصبغة المعروفة باسم « التفتة » والكبريت ، ثم انقطعت هذه الاصناف بعد اعلان الحرب العالمية الاولى فتضاعف ثمنها واصـــبح الرجل من الاغنياء ذوى النفوذ ، ولو انه نجح فى بيع بضائعه قبل ذلك ببضعة أشهر لأبقاه النجاح حيث كان من الخمول والكساد

وعلى نقيض هـــذا قد يولد المرء فى بيئة الجاه واليسار ويبلغ الذروة من العصامية ، لأنه بلغها منفردا بين أمثاله من أبناء الوجهاء والاغنياء

فالعصامى هو الذى ينجح فى تكوين نفسه سواء نشأ فى مهاد الفاقة أو مهاد اليسار

والكلمة العربية مأخوذة من اسم عصام الذى سود نفسه ولم يكن لأحد غيره فضل فى تسويده

نفس عصام سودت عصاما
وعلمتـــه الـكر والاقـــداما

والكلمة الانجليزية التى تقابلها معناها « صانع نفسه » Self made وتقرب منهـا الـكلمة الفرنسية التى تقول عن العصامى أنه ابن عمله Fils de ses œuvres

وبهذا المعنى يحسب سعد زغلول من العصاميين ، بل يحسب عصاميا عدة مرات لا مرة واحدة ، لأنه صنع نفسه فى كل مرحلة من مراحل حياته على نحو لا يستطيعه امثاله فى بيئته

كان عصاميا وهوطالب ، وعصاميا وهوموظف ، وعصاميا وهو محام ، وعصاميا وهو قاض ، وعصاميا وهو وزير ، وعصاميا وهو نائب ، وعصاميا وهو زعيم

الطالب العصامى

ينتمي من جهة أبيه وجهة أمه الى أعلى طبقة من طبقات الريف فى بلده ، وكان قصاراه أن يتعلم القراءة والـكتابة والحساب كما يتعلمها امثاله ، ثم يرشح نفسه للعمدية أو المشيخة ، أو يقنع بموورده من زراعة الارض وبيع محصولها، كما يصنع المئات من أوساط الفلاحين .. ولكنه أتم التعليم ولم يقنع بالقسط الذى يناله الصبى المتعلم فىمكتب القرية ، ولم يقنع بتعليم البندر والبلدة القريبة كمطوبس ورشيد ، فأرسله أهله الى القاهرة ليتم تعليمه بالجامع الازهر ، وهو يومئذ جامعة القطر كله يتبرك الآباء والابناء بطلب العلم فيه

قال لى من عاصر سعدا فى مكتب قريته ان التلاميذ كانوا يطالبون باعادة ربع من القرآن الكريم أو ربعين على الاكثر بمراجعة المعلم ، فكان سعد لايقنع بأقل من ثلاثة أرباع ولا يفعل ذلك لارضاء معلمه لأن معلمه كان يضيق بهذا الاجتهاد الذى يرهقه بمزيد من المراجعة لو سار التلاميذ كلهم على

منهج سعد فى الاعادة ، ولكنه كان يعيد ما يعيده ليفعل شيئا يزيد به على النظراء

وسمعت سعدا يقول غير مرة عن فضل التعليم الأزهرى يومذاك انه كان تعليما حرا بأفضـــل معانى الحرية ، لأن الطالب كان يختار معلمه ويمتحن معلميه قبل أن يمتحنوه

وكان هذا حقا هو النظام المتبع يومئذ فى الجامعة الأزهرية ، فكان كل شيخ يجلس الى حلقته ليلقى درسه فى موعده ، وكان يتفق فى الوقت الواحد أن يلقى درس النحو او الفقه أو البلاغة ثلاثة أو أربعة من العلماء ذوى الاجازات ، فيستمع الطالب الى كل منهم ويختار من يرتضيه بعد سماعه ، ولا اكراه عليه لو اختار ثم عدل عن اختياره بعد حين

وينجح سعد أكبر نجاح فى ذلك الامتحان : نريد امتحانه هو لأساتذته ولا نريد امتحان الأساتذة اياه . فانه اختار أستاذا لا نظير له بين علماء عصره ، واختاره بعد أن وازن بينه وبين جميع الأساتذة لانه كان يلقى دروسه حيث يقيم خارج الجامع ، ولم يؤذن له يومئذ بالقاء دروسه فيه

ذلك هو مصلح الشرق العظيم جمال الدين

ونحن نقول اليوم مصلح الشرق العظيم ويقولها معنـــا الشرق الاسلامى كله ، ولكنه لم يكن فى ذلك العصر عند الاكثرين الا الزنديق جمال الدين ، والملحد جمال الدين ، ومنهم من كان يستكثر عليه اسمه فيذكره باسم ضلال الدين أو الافغانى الافاق ، ووصفته حكومة ذلك العصر حين طردته من مصر فقالت انها « أبعدت ذلك الشخص المفسد من الديار المصرية ، بأمر ديوان الداخلية ، ووجهته من طريق السويس الى الاقطار الحجازية ، لازالة هذا الفساد ، من هذه البلاد ، عبرة للمعتبرين ، ولن يتجاسر على مثل هذا من المفسدين ، البادى من افعالهم الظاهرة ، انهم لا خلاق لهم فى الدنيا والآخرة !.. »

فلا ريب انها كانت عصامية نادرة تلك التى الهمت سعدا أن يختار أستاذه على صعوبة الاختيـار بين هذه الاقاويل وهذه الاباطيل ، ولا ريب انها كانت عصامية أندر منها تلك التى أفردته بين شبان المصريين الذين حضروا على جمال الدين بما بلغ من عظمة الزعامة بعد ذلك ، فلم يكن منهم أحد قاد أمته كما قادها هو بعد جيل

الموظف العصامى

وخرج الشاب المقدام من الطلب الى وظائف الحكومة فعمل كاتبا فى « الوقائع المصرية » ، فكان عصاميا فى هذا العمل ، لأنه نهج بالكتابة منهجا لم يسبقه اليه الكتاب

ففى عصره كان التزام السجع شائعا بين الكتاب المعدودين من أهل البلاغة ، ومنهم أساتذته الذين يقتدى بهم نظراؤه ولعل القارىء قد لاحظ من بيان الحكومة عن نفى جمال الدين ان السجع ملتزم حتى فى أمثال هـذه الاوامر الرسمية ، وكأنما أراد كاتب البيان أن يلقى فى روع القراء انه يتكلم عن جمال الدين وهو كفوٌ للكلام عنه ببلاغته وعلمه ، فصاغ بيانه على ذلك الاسلوب ..!

فلما أخذ سعد فى الكتابة شق طريقه فى الاساليب على سنة العصامية التى لا تمتاز بشىء كما تمتاز بقدرتها على شق طريقها لنفسها ، وأطلق قلمه من قيود السجع المتكلف الا ما كان فى تعبيره عن المعنى أصح من أسلوب الكلام المرسل، وكتب بلغة كلغة العلم الحديث فى تقرير المعاني واجتناب الحشو والفضول ، كقوله من فصل عن الشورى : « .. ومن البديهى الواضح ان نصوص الشريعة لا تقيد الحاكم بنفسها ، فانها ليست الا عبارة عن معانى أحكام مرسومة فى أذهان أرباب الشريعة وعلمائها ، أو مدلولا عليها بنقوش مرقومة فى الكتب ، ولا يكفى فى تقيد الحاكم بها مجرد علمه بأصولها بل لابد فى ذلك من وجود أناس يتخلقون بأخلاقها ويظهرون

بمظاهرها ، فيقومونه عند انحرافه عنها ويحضونه على ملازمتها ويحثونه على السير فى طريقها ، ومن أجل ذلك دعا سيدنا عمر رضى الله عنه الناس فى خطبته الى تقويم ما عساه يكون فيه من الاعوجاج فى تنفيذ أحكام الشرع الشريف ، وقال تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » اذ لا يخفى ان هذه الآية الشريفة عامة فى دعوة الملوك وغيرهم الى الخير وتأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر ، ليقوم بها الدين ولا يخرج أحد عن حده حاكما كان أو محكوما . وليس الأمر هنا للندب كما فهم بعضهم ، بل للوجوب والفرض كما صرح به العلماء .. »

هذا مقال كتب قبل نيف وسبعين سنة ، ولو كتب اليوم لما ميزه القارىء من أحدث الأساليب فى القصد وصحة الأداء

واستفاد سعد من عمله فى « الوقائع المصرية » مالا يستفيده كل عامل فى تحريرها ، اذ كان من موضوعات « الوقائع » أن تنشر نقدا متواليا لأحكام المجالس الملغاة ، فعكف على دراسة المسائل القانونية واستعان على فهمها بما يعلمه من فقه الشريعة ، ولم يلبث أن رشحه علمه بالشريعة والقانون لوظيفة شبيهة بوظائف القضاء ، فوقع عليه الاختيار لوظيفة ناظر قلم القضايا بمديرية الجيزة ، وكان من اختصاصها اصدار الاحكام فى كثير من المواد الجزئية

المحامى العصامى

وترك وظائف الحكومة بعد الثورة العرابية ليشتغل بالمحاماة ، فاسبغ على هذه الصناعة كرامة لم تكن معهودة لها بين أهلها ولا بين جمهرة الأمة فى ذلك الحين ، وحسبنا من الدلالة على هوان شأنها يومئذ انه كما قال فى خطابه للمحتفلين بتوليته القضاء قد لجأ اليها « والخجل يستر وجهه لسقوط اعتبار من كانوا يتعاطونها » . وخطب فى

ذلك الحفل زميله حسن الشمسى فقال : « ان فى القضاة من تغالى فى حب الاستقامة حتى ارتاب أن يكون فى طائفتها مستقيم .. »

وهذه هى الصناعة التى أعطاها كعادته ما لم يكن لها قبل اشتغاله بها ، وما لم تأخذه قط من مشـــتغل بها قبله : أعطاها المكانة التى ترشح واحدا من أبنائها لمركز القاضى بمحكمة الاستئناف ، وكان أول محام أسند اليه منصب قاض فى تلك المحكمة (سنة ١٨٩٢)

القاضى العصامى

وأصبح المحامى العصامى صانع نفسه ، قاضيا عصاميا صانعا لنفسه كذلك ، فتعلم اللغة الفرنسية وتقدم لامتحان الحقوق فى باريس ، فنال اجازتها بدرجة متفوقة ، وجعل اسمه علما من أعلام القضاء المصرى يفخر به قضاة مصر وطلاب القانون فيها حتى اليوم

وما شأن قاض والتعليم وهو فى محكمته بين قضاياه ؟.. لاشأن له به ولا لوم عليه اذا اكتفى بعمله وليس هو بالعمل اليسير ، ولكنه اذا كان قاضيا كسعد فرض على نفسه فى كل صناعة ما لم يكن مفروضا عليه ولاعلى أحد من أبنائها ، فمن منزله صدر المنشور بانشاء الجامعة المصرية سنة ١٩٠٦ ، وبارشاده وتدبيره نشأت الجامعة وكتب لها البقاء

وكانت معونته على كل عمل من أعمال التربية القومية مشجعا للقائمين بها على اختلاف هـذه الاعمال ، فساعد الشيخ على يوسف صاحب المؤيد ومصطفى كامل صاحب اللواء على احياء الصحافة المصرية ، وساعد قاسم أمين على الدعوة الى تحرير المرأة ، فلم يجد قاسم من يهدى اليه كتابه غير سعد زغلول

وتكررت فى القضاء تلك الخصلة التى لازمته فى كل مرحلة من مراحل حياته ، فكان القــــاضى الاول الذى انتقل من

القضاء الى الوزارة حين أريد تجديد التبعـــات الوزارية ، وندع التقدير هنا للغرباء لأن أفضل الفضل ما شهد به الغريب

قال المسيو دى هولتز الذى خطب فى الاحتفال بتوديعه القضاء لأنه كان أكبر المستشارين سنا : « ربما خطر ببالك عندما تركت المحاماة الى القضاء ان ذلك كان شرفا لك ، نعم انه كان شرفا ولكنه شرف لنا معشر القضاة ، شعرنا به عقب وجودك بيننا اذ تمكنا من ان ننظر عن كثب الى أخلاقك ومعارفك فنقدرك قدرك »

وقال المركيز زتلاند فى ترجمته للورد كرومر : « ان كرومر نفسه قد خطا فى سبيل صبغ الحكومة بالصبغة الشعبية المحبوبة خطوة الى الامام قبيل رحيله من مصر حين أوصى بتعيين مصرى معروف بنزعته الوطنية وزيرا للمعارف ، ونعنى به سعد زغلول .. »

وكان لورد كرومر يلقب فى مصر بقيصر قصر الدوبارة ، ويقول شاعر الامير فى تشييعه بعد اعتزاله :

أو حاكما فى أرض مصر بامره
لا سائلا أبدا ولا مسئولا

فتمام التقدير الذى رأيناه من دى هولتز وزتلاند أن نسمع قيصر قصر الدوبارة يقول عن سعد انه علمنى كيف أحترمه .. ولم يقلها كرومر قط عن أحد سواه

الوزير العصامى

كان أول وزير مستقل بارادته مع المستشار الانجليزى على ما كان معلوما يومئذ من الزام الوزير أن يستمع الى المستشار ، وفقا لبرقية اللورد جرانفيل

ولم يكن مستقلا عن المستشـــار وحسب ، بل بلغ من استقلاله انه حافظ عليه امام الخديو واللوردكتشنر مجتمعين متفقين ، فطلب عزل الوصى على دائرة الاميرة صالحة وهو

معين من قبل الخديو وصديق شخصى لكتشنر يصاحبه على الدوام فى رحلات الصيد والرياضة ، ولما حيل بينه وبين محاسبة الرجل استقال من وزارة الحقانية وعاد الى المحاماة

وتبدو كلمة « عاد الى المحاماة » بسيطة سهلة فى هذا السياق ، لأننا عرفنا فى الايام الاخيرة وزراء كثيرين خرجوا من الوزارة وقيدوا أسماءهم بجدول المحامين

أما قبل أربعين سنة فلم تكن بسيطة ولا سهلة ، بل كانت دهشة الناس لها كدهشتهم لخوارق العادات ، فلم يحدث ان وزيرا خرج من الوزارة فاشتغل بعمل آخر كائنا ماكان ، لاعتقادهم ان الوزارة أرفع شأنا من كل عمل فلا يحسن بمن ارتفع اليها أن ينزل الى ما دونها ، والا فهو يهين نفسه ويبتذل اسمه بالعمل كما يعمل خلائق الله !

النائب العصامى

ولحقت بهذه الدهشة دهشة أخرى اكبر منها وأبعد منها عن خواطر ولاة الامور وسائر المصريين

فلم يخطر للخديو ولا للوزارة ولا للعميد البريطانى عند التفكير فى انشاء الجمعية التشريعية ان سعدا سينزل الى ميدان الانتخاب ليطلب أصوات الناخبين ويزاحم المرشحين ، ولعلهم لو خطر لهم هذا الخاطر لاتخذوا له من الحيطة مايريحهم من عواقبه المعروفة والمجهولة . . الا ان العصامية لاتكون جديرة باسمها ان فعلت مايتوقع منها ولم تزد عليه. فنزل سعد الى الميدان على خلاف ما قدروه ، ونجح فى دائرتين لا فى دائرة واحدة ، وتغلب على المزاحمة القوية ومن ورائها سلطان الوزارة وسلطان القصر وسلطان الوكالة البريطانية ، وظفر فى داخل الجمعية بكثرة الاصوات عند الترشيح لمنصب الوكيل المنتخب . أما الرئيس والوكيل

الآخر ، فقد كان دستور الجمعية ينص على اختيـــارهما بالتعيين

الزعيم العصامى

ثم برزت العصاميـــــة الكبرى فى أعقاب الحرب العالمية الاولى ، فنهض وكيل الجمعية التشريعية بزعامة الامة كلها ، وذهب على اثر اعلان الهدنة الى دارالحماية البريطانية يطالب باستقلال البلاد ، وكانت دهشـة لم يتوقعها عميد دار الحماية فقال متعجبا مستوثقا : « كأنكم تطلبون الاستقلال ؟ ! »

قال سعد : « نعم .. ونحن له أهل »

ولحسن الحظ دائما ان العصامية تأتى بغير المتوقع ، فلو ان رجال الحماية البريطانية توقعوا هذه المطالبة لما اعياهم ان يحولوا بين سعد وبين دعوى الوكالة عن الامة . انهم كانوا لايستطيعون ان يخيفوه ولا ان يثنوه عن عزيمتـــه ، ولكنهم كانوا يستطيعون ان يمنعوا كتابة التوكيلات له فى طول البلاد وعرضها ، فلا يظهر صـــوت الراى العام على حقيقته كما ظهر من تلك التوكيلات التى وقعها المصريون بعشرات الالوف

ثم كانت زعامة ولا كل الزعامة

كان فى مصر زعماء يقول الخصم عنهم انهم يتكلمون باسم طبقة الباشوات ولا يتكلمون على هذا باسمها جماء

وكان فى مصر زعماء يقول الخصم عنهم انهم شـــبان طائشون يتبعهم طائفة من الطلبة والتلاميذ

وكان فيها زعماء يقال عنهم أنهم لايمثلون أصحاب المصالح الحقيقية ولا يجمعون حولهم من لهم حق الانتخاب

وكان فيها زعماء يقـــال عنهم انهم ينكرون الحماية البريطانية ويرضون بالسيادة التركية ، أو يقال عنهم انهم متعصبون لايؤتمنون على مخالفيهم فى الدين ، أو يقال عنهم انهم غير مصريين وليس لهم من الوطنية الصحيحة نصيب

كان فى مصر زعماء ، ولم يكن فيها زعيم

فلما نهض سـعد بأمانة الزعامة اذا بالامة كلها تدين بزعامته ، واذا بها أول زعامة مصرية يتبعها الاغنياء والفقراء والشيوخ والشبان ، والرجال والنساء ، والمسلمون والمسيحيون ، ولم تسبقها فى الزمن الحديث زعامة وطنية الى توحيد وطنى كهذا التوحيد العجيب

وكل هذا بدع فى العصامية لايتكرر فى سيرة كل عصامى خالق لمجده ، ولكنه فيما نرى قد ترك فى سيرة هذا الرجل الفذ محلا لمزية عصامية أعسر على طلابها من جميع هذه المزايا ، وهى المزية التى تتخطى حواجز العصبية القومية وفوارق المعيشة البيتية ، فقد كانت تقاليد البيت « الارستقراطى » فى مصر تأبى على أهلها أشد الاباء أن يتزوجوا من أبناء الفلاحين أو بنات الفلاحين ، لأن الطبقة الارستقراطية كانت تتربى على المعيشة التركية وتتكلم التركية فى بيوتها بدلا من العربية ، ولم يتفق فيما نعلم ان أحدا ممن عاشوا هذه المعيشة رضى بمصاهرة فلاح من الريف على الخصوص ، وكان سـعد من صميم الفلاحين الريفيين فتقبلته هذه البيئة أحسن قبول ، ثم كان أعجاب قرينته به وبأدبه فى بيته مثلا نادرا بين الازواج من بيئة واحدة بل من أسرة واحدة ، فكادت اقامة زوجته فى ضريحه أن تغلب على مقامها بدارها ، وكانت تقضى معظم نهارها فى الضريح ثم تختار للجلوس فى دارها الحجرة التى تطل عليه

وتوفى سعد وهو رئيس لمجلس النواب ، فمن تحصيل الحاصل بعد ما تقدم أن يقال انه كان كعادته فى هذه المرحلة الاخيرة من عمره : رئيسا ولا كل رئيس

واذا كانت للعصامية طبقات فهذه هى طبقتها العليا ، أو هذه هى العصامية بين العصاميين

طلعت حرب



طلعت حرب

« ما كان يمكن أن يصدر كتاب عن سير عباقرة العصاميين بغير أن يكون في مقدمتهم رائد الاقتصاد المصري الاول طلعت حرب »

زعيم الاقتصاد المصرى

بقلم الأستاذ محمد رشدى

عضو مجلس الادارة المنتدب لبنك مصر (١)

حينما طلب مني ان اكتب عن طلعت حرب ـ ولي به رباط خاص ـ تملكتني حيرة بالغة ، واكتنفني حياء احسست عجزا عن دفعهما . وفيما انا على هذه الحال ، اذا بناحية كريمة تقطع على طريقى .. تلك هى ان طلعت حرب لم يخلق لأسرته وحدها ، بل اتخذ من امته اسرة ، وجعل من نفسه لنا جميعا أبا رحيما طوال حياته . والكتابة عنه فيها نفع كبير للمجتمع . ومن واجبى أن ابادر ، فأكتب وفاء لفضله ، وعرفانا بجميله

بدأ طلعت حرب حياته العملية ، كأى شاب مثقف فى عصره ، فما كاد يتم دراسته ويحصل على اجازة الحقوق حتى التحق باحدى الوظائف الحكومية . غير ان نفسه الكبيرة الوثابة ابت عليه أن يخلد الى عمله الرتيب وأن يكتفى من العلم والمعرفة بما حصله من قبل ، فأخذ يستغل أوقات فراغه فى استيعاب ما تضمنته أهم الكتب التى أخرجها كبار العلماء والأدباء والفلاسفة والساسة فى الشرق والغرب ، من السلف والمعاصرين . وحرص على غشيان

---

(١) الاستاذ محمد رشدى من الدعائم الكبرى لبنك مصر وشركاته ومن كبار الاقتصاديين ورجال القانون المصريين وهو زوج كريمة المرحوم محمد طلعت حرب

المجالس والمنتديات الخاصة والعامة للانتفاع بما يتردد فيها من أفكار وآراء وبما يدور حولها من نقاش وتمحيص . وما لبث قليلا حتي كانت لديه مكتبة زاخرة بأنفس المؤلفات القديمة والحديثة ، وامست داره منتدى يؤمه نخبة من رجالات العلم والأدب والاجتماع والسياسة . فكان لهذا كله أثر كبير فى نفسه غير مجرى حياته ، اذ لم يطق صبرا على قيود الوظيفة واغلالها ، وسرعان ما تحلل منها ، وأخذ طريقه الى العمل الحر

□

وفى ذلك الحين ، كان مثل هذا الاتجاه يعد مجازفة أو مغامرة غير مأمونة العاقبة ، ولم يكن طلعت حرب الشاب المقدام الجسور بالذى يخفى عليه ذلك ، ولكنه أقدم عليه بعد طول تفكير وتقدير وتدبير ، ووضع نصب عينيه أن عليه رسالة يجب أن يؤديها لبلاده ، وهذه الرسالة تقوم على أن مصر يجب أن تبنى نفسها بنفسها ، لكى تسترد عزتها وكرامتها ومجدها ، ومكانتها التى أهلتها لبلوغها عراقة حضارتها ومدنيتها ، وخصوبة تربتها ، وكثرة الأيدى العاملة المخلصة فيها ، وموقعها التجارى والصناعى الممتاز . وهكذا مضى فى سبيله الذى رسمه لنفسه ، مكافحا ذلك الجمود الذى جثم على صدور أبناء الوادى فأفقدهم ثقتهم بأنفسهم وأقعدهم عن استثمار أموالهم فى غير الزراعة على أوضاعها الموروثة ، واخذ على عاتقه أن يواصل هذا الكفاح بكل ما أوتى من قوة وصبر وايمان ، الى أن يبدد ما يساور مواطنيه من الوهم وخشية مباشرة الأعمال التجارية والصناعية ، ويصلح ما أفسده الاستعمار والاستهتار فى ميادين الاقتصاد القومى ، مما أدى الى تغلغل المصارف

المالية والبيوت التجارية الأجنبية فى جميع انحاء البلاد ، والى تسرب أموال المواطنين الىخارج ديارهم حيث تستثمر لنفع غيرهم . وكانت هذه الأموال قد جاوز مجموعها مائة وخمسين مليون جنيه ، كما هو ثابت فى تقرير المستشار المالى سنة ١٩١٩

وسيلته فى تحقيق الرسالة

استهل طلعت حرب أداء رسالته فى مكافحة صدوف المصريين عن الأعمال التجارية بأن اقترح على صديق له كريم المحتد مرموق فى وسطه ، هو المرحوم فؤاد سليم الحجازى ، أن يفتتحا محلا لتجارة البقالة والألبان ، لكى يضربا لاخوانهما المثل الصالح فى ميدان يعود على طائفة كبيرة منهم بالخير والبركات ، وكان صديقه هذا عند حسن ظنه به ، فافتتحا ذلك المحل ، وسارا فى عملهما لا يلقيان بالا الى ما يوجه اليهما من نقد مر ، ونظرات مملوءة بالسخرية والاشفاق ، بل تحدوهما عزيمة صادقة وايمان وثيق بأن العمل لصالح المجموع يسقط فى سبيله كل اعتبار ، ولا تؤثر فى نفس القائم به المظاهر الباطلة ، ثم قاما بدعاية واسعة لفتت أنظار مختلف الطبقات وقضت على كبرياء وانفة باطلتين ، وما هى الا فترة قصيرة حتى تفتحت عيون الكثيرين على ما فى التجارة من خير فاقبلوا عليها فى شتى أنواعها ، وبذلك تحققت الفكرة التى عمل لها ، فنزل وزميله عن محلهما لبعض المصريين

وبعد عامين ، أصدر طلعت حرب فى سنة ١٩٠٧ كتابا كشف فيه عن حاجة البلاد الى بنك وطنى ينشأ بمال المصريين ، وتعمل فيه أيد مصرية ، وتستخدم فيه اللغة العربية . وقد نبه فيه الأذهان الى الأموال الوفيرة العاطلة التى يستثمرها الأجانب فى غير صالح مصر والمصريين ،

وناداهم الى واجب وطني مقدس هو استثمار مالهم ، والأموال الفائضة فى صالح الاقتصاد القومى ، وأبان لهم أثر المال فى حياة الأمم واستقلالها ، وشوقهم الى أن يعتمـــدوا على أنفسهم فى جميع حاجاتهم ، وما زال ينشر الدعوة ويجددها فى كل مناســـبة ، حتى كانت الثورة المصرية ، فألقى فى أحضانها بذور هذه الدعوة المباركة ، وهو على يقين انها ستنبت نباتا حسنا باذن ربها . وكان هذا فى ٧ مايو سنة ١٩٢٠ ، حينما افتتح البنك وقدر له الوجود

دستوره فى البنك

وقد وقف طلعت حرب فى ذلك اليوم التاريخى يخطب المؤسسين المكتتبين وعلية الأمة ، فصارحهم بأن البنك لم يقم فى مصر الا ليسد النقص الظاهر فى مرافق البـــلاد الاقتصادية ما استطاع الى ذلك سبيلا ، ولينير الطريق أمام المواطنين ، وسيعمل على تنظيم الحالة التجارية ، وعلى الاكثار من التاجر الذى يعرف قيمة الورقة التجارية والذى يحرص كل الحرص على الوفاء حرصـــه على الإعتبـــار والشرف ، وليقيم بناء الصناعات شامخا فى ناحيتها النباتية والمعدنية . ثم أوضح فى جلاء ان العملية المصرفية البحت لم تكن غايته وحدها ، وان صالح المساهمين لن يقوم حائلا بين البنك وبين صالح المجتمع والوطن ، وانه سيعتمد فى احياء الصناعات على ثقة المصريين فى البنك ، وستتجلى هذه الثقة فيما يودع فيه من مالهم الفائض . وعلى هذا بدأ هو وزملاؤه خطواتهم معتمدين بعد الله على عطف الأمة وتشجيعها

وهناك حقيقة ظلت مطوية طوال السنوات التى مضت منذ انشاء البنك ، وهى تبرز ناحية من السمو الروحى والاكتفاء الذاتى لطلعت حرب ، تلك هى انه ظـــل طول

السنوات الخمس التالية لاقامة البنك وانشاء عشر شركات تابعة له لا يتقاضى اى اجر عن عمله المتواصل العظيم !.. ولولا ان حملة الأسهم فزعوا اليه يرجونه فى الحاف أن تكون له مكافاة عن عمله لقاء جهده المضنى ، ولولا انهم أعلنوه ان كرامتهم تأبى عليهم تسخيره وطالبوه بأن يجاهرهم بالقبول مشكورا ، لما أجابهم الى طلبهم ، على انه اشترط ألا يكون للقرار اثر عن الأعوام الفائتة

ان فى ذلك لعبرة ، وان فيه لمثلا صالحا للرجل الذى يتصدى للأعمال العامة . فيقينى ان الرجل العام يجب أن ينسى نفع نفسه ، ويجب الا يكون أنانيا تنفر منه الجماعة . ويجب أن يكون التواضع شعاره . وهذه صفات لمسها كل من أسعده الحظ فعمل تحت لواء طلعت حرب . فالحق ان النفع الخاص لم يكن مبتغاه وانما كان يهدف الى احياء الصناعات فى مصر ، واقامتها مصرية صميمة لحما ودما ، يفتح بها ميادين أعمال مختلفة للمصريين ، ويحارب بها أزمة المتعطلين من المصريين

وقد وفق فى تحقيق هدفه ، ورأى بعينيه ان مشروعاته تدر على الشباب المثقف والعمال من اجور ومرتبات ما يقرب من أربعة ملايين من الجنيهات سنويا

وهذه القيمة الكبيرة لم يكن لها وجود من قبل . وقد ظل الشعب المصرى محروما منهـــا قرونا عدة . وكان العبء كله على الزراعة والعمل فيها على نظم بدائية . وهذا الرقم الضخم يقوم الى جانبه أرقام مجهولة . فان اليد العاملة فى الزراعة نقصت نقصا ظاهرا . فكان لهذا أثره فى ارتفاع أجور العمال الزراعيين . ذلك ان الصناعات التى انشـــأها طلعت حرب قد امتصت عددا كبيرا من عمال الزراعة ، ورفعت من مستوى معيشتهم حتى وصلت الى أربعة أضعاف ما كانوا يتقاضونه وهم عمال زراعيون . وفى

امتصاص الصناعة لهؤلاء العمال تقليل لعددهم أفاد بطريقة غير مباشرة فى رفع أجور الباقين منهم وتحسين مستوى معيشتهم . هذا الى الانخفاض المحسوس الذى أصاب أسعار السلع التى تم صنع نظيراتها فى مصر ، حتى ان الباحث المدقق ليقدر ما أفاد البلاد من جراء الصناعات التى أقيمت عن طريق بنك مصر بأضعاف ما عرف عنها فى الأجور والمرتبات

وهناك ناحية كريمة سهر على تحقيقها طلعت حرب وهى حماية الثروة الزراعية والعقارية الأهلية من الانهيار . وبقدر ما كان عليه من حزم وحرص شديد على مال المساهمين ، فقد وقف فى أزمة سنة ١٩٣٠ الى جانب كثير من البيوت المصرية ، فوقاها العثار وأمنها الشر ، بأن مد فى الآجال ، وخفف الأعباء ، وأحجم عن التصفية ، ولم يقبض يده حيث وجب البذل ، وأزاح عن الكثيرين غاشية الكرب . وكان فى هذا كله مخرج كريم لأسر من أعز الأسر

جهاده فى تأسيس الشركات الكبرى .

وهكذا نجح البنك ، واقبل المصريون عليه فى ثقة وطمأنينة فأودعوه أموالهم من نقد وأقطان وحبوب ، وما أحس طلعت حرب بالأموال تختزن فى البنك حتى أخذ فى تنفيذ برنامجه الذى رسمه فى خطبة افتتاح البنك من اقامة الصناعات واحيائها فى مصر . فأنشأ مطبعة تزود البنك بالسجلات والمطبوعات والأسهم والسندات ، وهى تعد الآن أكبر دار للطباعة فى الشرق وأحدثها عددا وآلات . وأقام شركة لحلج الأقطان بدأت عملها فى مغاغة بوابور حليج واحد ، وهى الآن تدير تسعة وابورات فى مختلف المدن التجارية فى البلاد

وأحس بعد ذلك حاجة البلاد الى نقل الأقطان بأجور

معتدلة لا ترهق التاجر المصرى ، فأقام شركة مصر للنقل والملاحة . وحين كملت هذه الحلقة تطلع طلعت حرب الى غاية طالما تاق الى تحقيقها للبلاد ، وهى بحق فى المرتبة الثانية بعد الغذاء ، وقد توافرت مادتها فى البـــلاد وكانت مرتعا خصبا للدول الأخرى .. هــذه الغــاية هى غزل القطن ونسجه واخراجه كساء للشعب بأسعار لا ترهقــه ، ومن مادة نقية متينة ، الى غير ذلك من الاعتبارات التى تحول بين اموال المصريين وتسربها الى الخارج ، فأقام شركة مصر للغزل والنسيج بالمحلة الكبرى ، وانها لمفخرة المصريين الآن . وقد روعى فى اقامتها ما فات اعرق الأمم فى الصناعات ، فمن مصنع للغزل ، الى مصـــنع للنسيج ، الى مطبعة للصباغة والتلوين ، الى الاخراج سلعة تباع . كل هذا فى صعيد واحد يشغل رقعة من الارض تبلغ ٢٢٥ فدانا

كفاحه لنجاح الشركات

ومن الخير ان اشير الى حادث خطير عنى به طلعت حرب وشغل باله ، فان مصانع لانكشير وبرادفورد فزعت حين ترامت اليها اخبار هذه الشركة من حسن استعدادها وما ستكون عليه من انتاج لسد حاجة مصر وجانب كبير من الدول الشرقية ، فأعدوا العدة للقضاء عليها ، وكان أن اتحدت مصانع القطن فى انجلترا واتفقت على اقامة شركة لها فى مصر تناهض شركتنا العزيزة وهى ما تزال تحبو ، فلما أحس طلعت انهم بدأوا تنفيذ مؤامراتهم اوحت اليه خبرته ونفاذ بصيرته بالسفر الى انجلترا ، وبعد دراسة وبحث تم الاتفاق بينه وبين هذه الشركات على قصر عمل الشركة الانجليزية على الطباعة والصــباغة للغزل والنسيج الرفيع من القطن المصرى ، وعلى أن تقام الى جانبها شركة

مصرية جديدة لغزل ونسج هذا الصنف من الخامات .
وفعلا أنشئت شركة صباغى البيضا ، وشركة كفر الدوار ، وبهذا هدأت نفس طلعت حرب

ولما تمت هذه الجولة الكريمة رأى طلعت حرب أن القطن فى البلاد يفيض كثيراً عن حاجة المصانع فأقام شركة لتصدير هذا الفائض

وفى العام نفسه الذى أقام فيه شركة لغزل القطن ونسجه بالمحلة ، أقام شركتين لصناعتى الكتان والحرير ، وبهذا تمت حلقة من الشركات تحقق للبلاد الفائدة المرجوة من محصولاتها الرئيسية وتضمن للشعب كساءه بأسعار غاية فى الاعتدال

ولما أحس طلعت حرب أن سلع شركات القطن والحرير والكتان تواجه حربا خفية فى داخل البلاد ، اذ أحجم الكثير من التجار عن شرائها ، أقام شركة لبيع مصنوعات شركاته ، فتحقق لها النجاح بفضل الله ، وكان أثرها عظيما ابان الحرب الاخيرة

ثم اتجه طلعت حرب الى نواح مختلفة من الاقتصاد القومى ، فاقام شركة لصيد الأسماك وصناعة الأزرار ، وشركة لاستخراج الرخام والجرانيت والبترول والكروم والمنجانيز . كما أقام شركة للطيران كان منها عامل عظيم فى توثيق الرباط بين مصر وفلسطين والشام والعراق ، وكذلك أقام شركة مصر للتأمين ، وقد أصبحت تسد فراغا كبيرا وتقوم بالتأمين لصالح شركات البنك والمصريين عامة ، وآخر شركاته شركة مصر لصناعة وتجارة الزيوت

لقد أساء بعض الناس فهم رسالة طلعت حرب ، ورموه بالتعصب لمصريته ، واصراره على احياء الصناعة فى مصر بأيد مصرية ومال مصرى ، كما رموه بأنه يكره الأجانب لذاتهم ولا يرغب فى التعاون معهم . والحقيقة ان طلعت حرب كثيراً ما نادى بأنه يرحب بالتعاون مع الخبراء الأجانب ، وقد استخدمهم فى مختلف النواحى التى لايحسنها المصرى ، لكنه كان تعاونا موقوتا زال حين توافر لديه المصريون فسدوا الفراغ الذى كانوا يشغلونه . وتحقيقا لهذه الغاية أوفد الى الخارج بعثات فى مختلف الصناعات ، وفى مقدمتها الغزل والنسج وادارة وخدمة الفنادق والسينما ، ثم هو علاوة على استعانته بالخبراء الأجانب أشرك الأجانب معه فى كثير من الشركات ، كشركة الطيران ، وشركة التأمين ، وشركة الغزل والنسج الرفيع ، وشركة تصدير الأقطان

عنايته بالمسرح والسينما

كان من يرى طلعت حرب ، وهو رجل العمل والكفاح والجد ، يظنه رجلا عبوسا لاتستهويه الفنون والموسيقى ، ولا يطربه الغناء والصوت الجميل ، لكن تاريخ هذا الرجل على النقيض من النظرة العابرة ، فانه وهو القائم على هذه الأعمال الجبارة ، والمنشىء لهذه المشروعات الضخمة ، لم تفته ناحية الفنون وما لها من اثر فى حياة الشعوب ورقيها ، فقد اعتز بالفنانين وحباهم بعطفه وأمدهم بماله . وحين راى انهيار المسرح المصرى أقام شركة مصر لترقية التمثيل العربى ، ولما طغت السينما بلغاتها الأجنبية على التمثيل انشأ فى سنة ١٩٢٥ شركة مصر للتمثيل والسينما ، وجهزها بأحدث الآلات حتى ضارعت أمهات الشركات فى أوربا وامريكا

وقد ابت عليه نفسه الا أن تكون الروايات والقصص أداة

طيبة للثقافة والأدب الرفيع .. فأحدثت هذه الشركة فتحا لطبقة الممثلين وغيرهم من الفنانين ، حتى أصبحنا نرى بين المصريين عددا من الممثلين والفنانين يبلغ دخله من الفيلم الواحد آلاف الجنيهات ، بل لقد تجمعت لبعضهم ثروات كبيرة ، وكان من أثر قيام هذه الشركة أن انشئت دور أخرى لصناعة السينما ، وهى وان كانت قد توخت الناحية المالية ، فان هذه الأموال كلها من المصريين واليهم ، وقد حقق وجود هذه الشركة فوائد كثيرة فى نواح عدة

البنك الصناعى

ولطالما نادى طلعت حرب بأن للبشر طاقة ، وأنه وجماعته وانصاره لايستطيعون النهوض باحياء جميع الصناعات على اختلاف انواعها ، وقد اهاب بالحكومة إن تخطو الخطوة الأولى لتنمية الصناعات الأهلية وحمايتها ، وذلك باقامة البنك الصناعى ، ووضع كتابا فى ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٩ يقع فى ٢٢٥ صحيفة أسهب فيه هو وجماعة بنك مصر فى شرح النظم المعمول بها والمتبعة فى أمهات دول الغرب ، وكشف فيه عما يجب أن تكون عليه علاقة الحكومة بالصناعات ، محددا نصيبها ونصيب الشعب منها ، وانتهى الكتاب الى الضرورة الملحة لانشاء بنك صناعى لتمويل الصناعات التى لم تبعث بعد ، ولتنمية الصناعات القائمة حينذاك ، كما عاهد الحكومة على معاونة بنك مصر للبنك الصناعى الى أن ينهض على قدميه ، فيصبح أخا وفيا لبنك مصر ، ويرتفع مستوى المعيشة ، وترقى حياة الأسرة ، ويحس الأفراد والجماعات بالسعة فى الرزق ويعم الرخاء أرجاء البلاد

طلعت حرب السياسى

وكان طلعت حرب سياسيا من طراز خاص ، فهو وان

كرس حياته كلها للعمل فى ناحية هى بحق أساس الاستقلال وعماد الكرامة والعزة القومية ، كان ينادي بضرورة اتحاد أمم الشرق وتكتله حتي يسترد مكانته ، وقد بدأ عمله لتحقيق هذه الفكرة بانشاء « بنك مصر سوريا ولبنان » ليكون منه السفير الصالح للرباط الذى يرجوه ، ثم أقام شركة مصر للملاحة البحرية تربط بين مصر والمملكة السعودية ، فضلا عما أنشأته من صلات بين مصر وأوربا . وقام برحلات الى الحجاز جعلت منه أخا محبوبا لدى أهلها ، وبذلك قرب بين البلدين وقضى على ما كان بينهما من جفاء

كذلك قام طلعت حرب بزيارات عدة لكل دول الشرق ، عاملا على التوحيد بينها والألفة بين أبنائها . وهذا النوع من السياسة نوع عملي ناجح أفادت منه البلاد ، وامتد اثره حتي كانت الجامعة العربية .. وكان اتحاد دول الشرق

□

ولم يقف نشاطه السياسى عند هذا الحد ، بل امتد الى الغرب ، اذ رأى ان بلاده فى حاجة الى الدعاية الدائمة . ولن يكون هذا فى خطاب يلقى أو مقال ينشر ، بل بعمل مادي ملموس وأثر ظاهر محسوس ، فأنشأ فى باريس « بنك مصر فرنسا » فكان منه الدعاية الناطقة بأن مصر غيرها بالأمس ، علاوة على الخدمات الكثيرة التى اداها للمصريين فى الخارج

وكان طلعت حرب الى ذلك كله حريصا على الا يخلط بين السياسة والعمل ، فصرح غير مرة بانه يجب أن تكون التجارة والصناعة فى هذا البلد فى منأى عن السياسة الحزبية

ولا يفوتني أن أسجل لطلعت حرب موقفا كريما جديرا

بالتقدير ، قمينا بأن يتخذ مثلا صالحا لمن يعمل فى مقدمة الصفوف منكرا لذاته ، مؤثرا عليها العمل النافع ، فحينما اعترضت البنك تلك الأزمة المعروفة فى سنة ١٩٣٩ عقب قيام الحرب الأخيرة ، ولحقت به مفتريات ما أنزل الله بها من سلطان ، وحينما أساء الى طلعت حرب نفسه بعض الحساد والحاقدين ، بقى هو قوى الايمان بنفسه وبمتانة مركز البنك ، كبير الثقة بأن الحقيقة سيكشف عنها الناس . ذلك انه لم يفكر فى شخصه عند هذه الكارثة ، ومع الالحاح الكبير من مريديه عليه فى ان يتكلم ، ابى الا ان يلزم الصمت وكان يكرر دائما : « ان الفناء مصير كل حى ، وما اريد الا الحياة للبنك وشركاته ، وسيعلم الذين ظلموا اى منقلب ينقلبون »

وما هى الا فترة قصيرة بعد تنحيته عن البنـــك حتى ذهب الزبد جفاء ، وأمن البنك والشركات ماحيك لها من دسائس ، فخرج مع شركاته منتصرا ظافرا ، ترد جميعا بحيويتها الكامنة على هذه المفتريات ، وتدل على أن هـذه المؤسسات كانت متينة البنيان ، قوية الأســـاس ، وان المهيمنين عليها كانوا من خيرة الرجال



علی مبارک



علي مبارك

« هو الطفل الفلاح الذى كافح فى طريق من الأشواك حتى عرف آخر الأمر أنه خلق ليكون معلمـــا لأبناء وطنه ، فاتجه بكل قلبه وكل عزيمته وكل اخلاصه الى التعليم »

المعلم المصرى الأول

بقلم الأستاذ محمد فريد ابو حديد

كان العصر لايعرف الاستقرار، وكانت اسرة الطفل «على» لا تعرف الاستقرار كذلك . كان ابوه الشيخ مبارك من اسرة متواضعة تعرف باسم « المشايخ » فى قرية برنبال بمديرية الدقهلية . واضطر الاب ان يهاجر من قريته عندما ضاقت به الحال فيها ونزل فى قرية أخرى بمديرية الشرقية وكان ولده على طفلا فى السادسة من عمره . ولكن قرية الحماديين التى حل بها لم تكن أوسع رزقا من قريته الاولى فحمل أهله مرة اخرى وارتحل فى الارض حتى نزل فى نجع من نجوع قبيلة (السماعنة) واتخذ لنفسه ولأسرته خيمة يعيشون فيها كما يفعل اهل القبيلة . ومن حسن حظه أن (السماعنة) كانوا فى حاجة الى فقيه يعلمهم الدين فوجد الشيخ الطيب لأول مرة فى حياته مكانا يستقر فيه ، واصبح بعد قليل موضع حب القبيلة واكرامها

وكان الطفل على يمرح فى الحقول مع اطفال النجع ولايحب الذهاب الى المكتب بالرغم من نصائح والده وبكاء امه لأنه كان لايجد فى المكتب الا العصا والجمود الممل والحرمان من الضوء وخضرة المروج . واجتمـــع حوله ذات ليلة أبواه واخواته البنات السبع واخذوا ينصحونه ويبينون له فائدة التعليم وهو يصر على الاباء ولا يبالى بالتهديد ولا بالدموع . وساله ابوه آخر الامر عما يريد أن يصنع بنفسه فاجاب فى

بساطة : « لا احب ان اكون فقيها ، واذا كان ولا بد من التعلم فانى اريد أن أكون كاتبا نظيفا »

ونزل أبوه على ارادته فأرسله الى كاتب فى القرية المجاورة ليعده للمستقبل الذى يريده . وأقام الطفل فى بيت ذلك الكاتب بين عياله الكثيرين من زوجاته الثلاث ، فكانت حياته الجديدة أقسى عليه من الذهاب الى المكتب . كان يبيت فى كثير من الاحيان يتضور جوعا ثم يخرج فى الصباح الباكر مع الكاتب ليتمرن على اعماله فيقضى كل وقته فى خدمة الرجل ولا ينال منه شيئا من التعليم

وحدث يوما ان سأله الكاتب امام ناظر القسم عن حاصل ضرب الواحد فى الواحد فأجابه انه : « اثنان » ، فما كان من الرجل الا أن قذفه بقلاة بن كانت امامه فشج رأسه وسالت دماؤه . فانتهز على المسكين فرصة خروج الناس الى مولد السيد البدوى ، واندس بينهم خارجا من القرية وسار فى الطريق يسأل الناس عن قرية المطرية التى تقيم فيها خالته . ولم يقو جسم الطفل الصغير على تحمل مشقة السير وقضاء الليالى فى العراء ، فمرض فى الطريق مرضا شديدا فى قرية (صا الحجر) وأشفق عليه رجل من أهل القرية فآواه عنده حتى شفى بعد أربعين يوما . ثم بلغه ان والده جاء الى القرية ليبحث عنه فتحامل على نفسه وهرب ذاهبا الى الطريق مرة أخرى حتى عاد الى قريته الاولى (برنبال) حيث كان يقيم أخ له من أبيه

وعرف أهله بمكانه بعد حين فذهبوا اليه والتفوا حوله مرة أخرى ليتشاوروا فيما يعملون من أجله واستقر رأيهم على أن يدخلوه فى خدمة كاتب المساحة ليتعلم منه صناعته

وارتاح على فى أول الأمر مع ذلك الكاتب ، وكان يفرح بالنقود القليلة التى كان الرجل يهبها له من الرشاوى التى يجمعها من الناس . ولكنه كان طفلا صغيرا لايعرف ان

المرتشى لايحب أن يتحدث الناس عن اسراره ، فكان يثرثر مسرورا عن النقود التى تصل الى جيبه مما يجمعه الكاتب من أهل القرى . فما كاد الرجل يسمع بما يقوله الطفل حتى طرده من خدمته. فعاد على الى قريته حائرا لايعرف لنفسه وجهة حتى سعى له ابوه مرة أخرى فألحقه بخدمة كاتب آخر فى مامورية (أبى كبير)

وكان فى هذه الفترة قد اتقن الكتابة ، فعينه الكاتب مساعدا ليبيض له دفاتره بمرتب خمسين قرشا فى الشهر ، وجعله يقيم معه فى بيته . ولكن مضت أشهر ثلاثة ولم يعطه الكاتب مرتبه محتجا بأنه يطعمه فى بيته . فغضب على وعزم على أن يأخذ حقه بيـــده وأخذ من الأموال التى حصلها الكاتب أجر الشهور الثلاثة ، وكتب بها ايصالا جعله فى كيس التحصيل وبعث بذلك الى الرجل . فما كان من الكاتب الا أن دبر له مكيدة لينتقم منه ، فسعى عند حاكم المدينة لادخاله فى الجندية . وفى اليوم التالى قبض الحاكم عليه وألقى به فى السجن وتركه هناك مدة عشرين يوما ذاق فيها مرارة الظلم الرخيص والجوع والأذى ، ولم يجد من أحد رحمة الا من السجان الذى رق له لصغر سنه فسعى فى الافراج عنه وساعده على الاتصال بخادم مامور زراعة القطن فى (أبى كبير) وفى نظير قطعة من الذهب قيمتها عشرون قرشا سعى ذلك الخادم حتى أوصله الى مامور الزراعة

وكان مامور الزراعة رجلا حبشى الأصـــل اسمه عنبر افندى يمتاز بالوداعة وطيبة القلب ، فرتب للصبى خمسة وسبعين قرشا فى الشهر كما رتب له جراية من الطعام كل يوم وأدخله فى خدمته . ولأول مرة فى حياته وجد على

شيئا من الاطمئنان والراحه وبعض النقود فى جيبه

ولكن المخاوف والآلام التى قاســاها فى السجن كانت تجعله دائم الخوف من غضب سيده اذا بدا له أن يغضب عليه فى يوم من الايام . وسمع يوما وهو فى مجلس عنبر افندى أن هنــاك مدرسة فتحها الوالى اسمها مدرســة «قصر العينى» لتعليم الاولاد الخط والحساب واللغة التركية لكى يصيروا موظفين فى الحكومة بعد تخرجهم . فسأل فى سذاجة : « أهذه المدرسة تقبل أبناء الفلاحين ؟ »

ولما عرف ان ذلك ممكن لمن يساعده الحظ خفق قلبه أملا وأخذ يجمع كل مايستطيع جمعه من اخبار تلك المدرسة ويسأل عن طريق الوصول اليها والمسافة التى يجب عليه أن يقطعها حتى يصل اليها واسماء البلاد التى فى الطريق ، حتى اطمأن الى انه عرف مايكفي

وفى ذات يوم استأذن عنبر أفندى فى زيارة أهله عازما على أن يبدأ فى تحقيق أمنيته

ولكن أهله لم يوافقوه وأخذت امه تبكى وتستعطفه حتى لايفارقها ، واضطر الى البقاء فى النجع يرعى قطيعا من الغنم

وبقيت صورة المدرسة تعاوده فى ساعات ليله ونهاره حتى انتهز فرصة نوم النجع فى ليلة من الليالى وخرج من بين الخيام متسللا وهو خائف يترقب ، وكان هذا آخر عهده بالاقامة مع أبويه

وانتهى به السير فى الطريق الى قرية (منية العز) وكان فيها مكتب يعد الأولاد للدخول فى مدرسة القصر العينى فسارع اليها وما زال حتى التحق بها ، واقبل على الدراسة بحماسة المجاهد فى سبيل تحقيق غاية كبرى

ولقى فى مدة الدراسة بهذه المدرسة عقبات اخرى كان يواجهها واحدة بعد واحــدة ويتخطاها منتصرا ، وكانت

العقبة الاخيرة منها يوم جاء مفتش التعليم ليختار التلاميذ اللائقين للالتحاق بمدرسة قصر العينى ، وواتاه حسن الحظ ففاز آخر الأمر بأمنيته واصبح تلميذا فى المدرسة التى تعلق قلبه بها . وكانت سنه عند ذلك لا تزيد على اثنى عشر عاما .

ولكن مفاجأة قاسية كانت تنتظره بمدرسة قصر العينى . ما كاد يدخل هذه المدرسة المأمولة حتى دبت الخيبة الى قلبه وكادت تحطم أمله . كانت لا تزيد على معسكر يتعلم فيه الأولاد السير العسكرى ، وكان المعلمون يضربون التلاميذ ويوجهون اليهم أنواع الاهانة والسب بغير حساب . وكان الفراش الذى ينامون عليه من حصير الحلفاء ، والطعام الذى يقدم لهم تافها كريه الطعم ، ولم يجد الصبى مع هذا كله شيئا مما كان يطمح اليه من التعليم . فلم يلبث ان مرض مرضا شديدا كاد يودى بحياته ، واجتمع عليه ضعف المرض وخيبة الامل والم الندم على ترك أهله بغير فائدة . ففكر فى الهرب مرة أخرى ولكن الى أين ؟ وماذا تكون نتيجة هربه من المدرسة ؟ كانت عقوبة الذين يحاولون الهرب كافية لجعله يرجع عن اية محاولة من هذا النوع لأن أهل التلميذ الهارب كانوا يساقون الى السجون ويتعرضون لألوان شتى من الاهانة والعذاب

وقد جاء أبوه ذات يوم لزيارته وعرض عليه ان يساعده على النجاة من تلك المدرسة ، وكاد يمهد له سبيل الهرب بالاتفاق مع بعض خدم المدرسة . ولكن على ابى أن يطيعه خوفا عليه من عواقب هذه المحاولة . ثم جاءت اللحظة الحاسمة فى حياة على مبارك عندما نقلت المدرسة من قصر العينى لتجعل فى مكانها مدرسة الطب الجديدة التى ماتزال الى اليوم هناك . واختير للمدرسة الاولى مكان آخر فى (أبى زعبل) بعيدا عن القاهرة فخيل الى الصبى ان كل

شيء قد انتهى الى الخيبة الكاملة . ولكن المقادير ساقت له هنا رجلا كان له الفضل فى توجيه حيـــاته وجهة أخرى وحددت له طريقه فى الحياة تجديدا شاملا . كان الناظر الجديد الذى اختير لمدرسة (أبى زعبل) رجلا له ضمير انسان وقلب مؤمن بالوطن وهو ابراهيم بك رافت. ولاشك ان اعجاب الصبى بناظره الجديد ترك فى نفسه أثرا عميقا جعله يتجه بكل قلبه الى تقديس وظيفة المعلم المخلص

□

كان ابراهيم رافت يجمع المتأخرين من التلاميذ ويتطوع بالتدريس لهم فى فرقة خاصة ، وكان من بينهم على مبارك. ومن الدرس الاول بدأ الصبى يتغير وينظر الى مدرســته نظرة اخرى كلها أمل وكلها حماسة . وبعد قليل تحول على مبارك من تلميذ متخلف بائس الى تلميذ آخر نشيط مبتهج ولم ينس فيما بعد انه مدين لعطف ذلك الاستاذ الجليل واخلاصه فى أداء واجبه فكان يبذل جهده عندما صار معلما أن يهب كل عطفه وكل نشاطه لتلاميذه

وبعد أربع سنوات تخرج على مبارك فى مدرسته ودخل فى مدرسة (المهندسخانة) ببولاق مخلفـــا وراءه الطريق المملوء بالاشواك . وفى خمس سنوات أخرى أتم دراســـته العليا ، وكان فى طليعة المبرزين من نجباء خريجى مدرسة الهندسة ، فأوفد فى بعثة علمية الى فرنسا

ولكن الشاب ابن العشرين كان أكثر من شـــاب طموح يشق طريقه فى الصخر والشوك ، لأنه لم ينس عند سفره الى فرنسا أن يوصى بقسمة مرتبه الى نصـــفين احدهما لوالده الشيخ والثانى لنفقته الخاصة فى بلاد فرنسا ، وكان كل مرتبه مائتين وخمسين قرشا كل شهر

وامتدت دراسة الشاب الى ست سنوات فى فرنسا ، وكانت سنوات عريضة غزيرة ، مليئة بالدرس والملاحظة والنمو . ولما عاد الى وطنه بعد ذلك عين مدرسا فى مدرسة (طرة) وذلك فى أيام الخديو عباس الاول

وكان الخديو عباس الاول غريب الأطوار يجمع بين ضيق الافق والغطرسة ، وكان من أول ما بدا له أن يغلق معاهد التعليم التى أنشأها جده محمد على . فأمر بأن (يفرز) تلاميذ المدارس جميعا ليختار منهم عددا محددا يجمعهم فى مدرسة واحدة ويغلق أبواب المدارس الاخرى

واختار هذه المدرسة الوحيدة فى (ابى زعبل) وسماها المدرسة (المفروزة) . وكان حزن على مبارك عظيما عندما راى تلاميذه يفرزون وترسل منهم مجموعة الى (المفروزة) ولم يبق له (فى مدرسة طرة) الا عدد قليل من كبار السن المتخلفين (تحت التصفية) . فكادت عزيمته تنهار من هذه الصدمة لولا انه وطد العزم على ان يبذل كل ما يملك من قوة وارادة فى تعليم ابناء وطنه أيا كانوا

وهزه عند ذلك الحنين الى وطنه ، ولم يكن راى أمه منذ فارقها من سنين طويلة فعزم على الذهاب الى قريته ليلم بأهله حينا . وكانت زيارته تشبه المواقف الخيالية فى الاساطير القديمة ، فقد طرق الباب وسمع صوت أمه تنادى من وراء الباب : « من أنت ؟ » ، فأجابها : « أنا على ! » وفتح الباب الضخم ووقفت الأم امامه تنظر اليه ولا تصدق عينيها . كان الشاب فى لباسه الأنيق والسيف مدلى الى جانبه وقد أصبح طويلا ممشوق القوام يلمع وجهه بالقوة والابتهاج . ففتحت له الأم ذراعيها وعانقته عناقا حارا وهى تبكى ثم وقعت مغشيا عليها

ولما أفاقت جعلت تبكى حينا وتضحك حينا ثم أخذت تزغرد وتتكلم وهى تحسب انها فى حلم سعيد . وأقبل

أهل البيت على صوتها واجتمع الجيران من كل جانب حتى امتلأ بهم البيت ولم ينصرفوا حتى طلع عليهم الصباح . كانت تلك أول مرة ترى فيها القرية ولدا من أبنائها يعود اليها وهو يلبس لباس السادة الحكام !

وارادت الأم أن تطيع سعادتها وتولم وليمة عظيمة لجيرانها احتفالا بعودة وحيدها على هذه العودة التى لم يحلم احد من أهل القرية بمثلها . ولكنها لم تجد معها شيئا تعد به الوليمة وظهرت الحيرة فى وجهها وفى حركتها المضطربة ، ولاحظ الشاب حيرة أمه فاخرج لها عشر قطع من جنيهات الذهب لتحقق بها رغبتها

▭

وعاد على مبارك الى ميدان العمل فأسندت اليه وظيفة بعد أخرى ، ولكنه كان لايرتاح الا الى عمل واحد وهو التدريس . وكان سروره عظيما عندما أسندت اليه نظارة المدرسة (المفروزة) وهو يقول فى ذلك :

« وفى مدة نظارتى للمدرسة كنت أباشر تأليف كتب المدارس بنفسى مع بعض المعلمين ، وجعلت بها مطبعة حروف ومطبعة حجر طبع فيها نحو ستين الف نسخة من كتب منوعة » . . وقال أيضا : « ولكن ذلك لم يشغلنى عن التفاتى للتلاميذ فى مأكلهم ومشربهم وملبسهم وتعليمهم وغير ذلك ، وكنت أباشر ذلك بنفسى حتى أعلم التلميذ كيف يلبس وكيف يقرأ وكيف يكتب ، والاحظ المعلم كيف يلقى الدروس وكيف يؤدب التلاميذ ولا يمضى يوم الا وادخل عند كل فرقة واتفقد أحوالها . . »

ولكن جزاء الشاب على هذا الاخلاص فى اداء عمله كان تجربة مرة قذفت به بعيدا عن ميدان التعليم وذلك ان

الخديوغضبعليه فجأة على اثر وشاية دنيئة ، فأمر بارساله مع الجيوش المحاربة الى الدولة العثمانية للاشتراك فى حربها مع روسيا . وكان عند ذلك لم يتجاوز الحادية والثلاثين من عمره . وكان فى وداع تلاميذه له عند مفارقته لهم عزاء كاف له . وقفوا جميعا على شاطىء النهر ليشيعوه الى السفينة التى ستنقله الى الاسكندرية . ولم يملك التلاميذ أعينهم من البكاء ولم يستطع على مبارك أن يقاوم شعوره فانحدرت الدموع على وجهه كذلك . وسافر فى رحلته الطويلة بنفس ثابتة راضية لأنه سيرى بلادا لم يرها من قبل وسيقف فى مواقف جديدة لم يقفها من قبل وسيجرب تجارب أخرى تزيده معرفة وخبرة.

وانتهز فرصة وجوده باستانبول مدة اربعة اشهر فتعلم اللغة التركية ، وأقام فى بلاد (القرم) مع الجيوش المحاربة عشرة أشهر انتقل بعدها الى بلاد الاناضول فأقام فى اقليم وعر جبلى شديد البرد وكان ذلك فى فصل الشتاء . فكثرت اصابات المجندين بالامراض الناشئة عن البرد الشديد ، واخذ على مبارك على نفسه أن يتعهد أمور المرضى بنفسه لأنه لم يجد هناك أحدا آخر يتعهدهم . فأخذ يجمع الاموال تبرعا من الناس ، ولما لم يجد أحدا من الاطباء يساعده فى عمله الانسانى اختار رجلا ممن لهم خبرة بالعلاج على طريقة اهل الاقليم وشاركه بنفسه فى خدمة المرضى . وكانت عنايته واخلاصه فى هذه الخدمة كافية للتعويض عن جهله وجهل شريكه بفنون العلاج . فأثمر المستشفى ثمرة طيبة جعلت اهل الاقليم يكتبون له وثيقة يسجلون فيها اعترافهم بحسن صنيعه . ولكنه عاد الى مصر بعد هذا الجهاد الطويل ليستقبله مازق شديد كان له اثر عميق فى نفسه الحساسة . ولكى نعرف سر ذلك المازق لا نجد مفرا من التحدث قليلا عن حياته الخاصة

كان على مبارك قد تزوج عقب عودته من بعثته فى أوربا بابنة أحد مدرسيه فى المدرسة الثانوية ، عندما توفى عنها أبوها ولم يكن لها فى الحياة من يعولها . وكانت زوجة طيبة وفية بذلت له جزاءه من السعادة فى حياتهما المشتركة ، ولسوء الحظ ما لبثت حتى عاجلها الاجل بعد قليل . وحزن عليها حزنا شـديدا جعله يعزف عن الزواج حينا طويلا ، ولكنه تزوج مرة ثانية من احدى بنات الاعيان وكانت وارثة تملك ثروة كبيرة ، فوق ما كانت عليه من الجمال . وحاول الشاب جهده أن يكون زوجا شهما فأحسـن معاشرتها وتعفف عن اموالها ولكنها كانت تعامله مثل طفلة مدللة . وكان اهل الزوجة لاينسون انه من أسرة قروية وانه فلاح وابن فلاح برغم ما كان عليه من النبوغ فى العلم وما امتاز به من كريم الخصال . وبدات الاحاديث السامة تفسـد العلاقة بين الزوجة الصغيرة الغريرة وزوجها الشاعر بكرامته وخلا الجو لأهلها فى مدة غيابه فى بلاد تركيا فأوغروا صدر المراة على زوجها ، حتى اذا ما عاد من سفره الطويل وجد نفسه هدفا لمكيدة دنيئة واسعة النطاق لم تلبث أن انتهت بالفراق . ولم يقنع أصحاب المكيدة بذلك بل سعوا عند الخديو لفصله من خدمة الحكومة وتم لهم ما ارادوا . ويقول على مبارك عن نفسه فى هذا الموقف : « كانت حالتى بعد سبع سنين من عودتى من اوربا مثل حالتى عند أول عودتى منها وذهب كل ما كسبت من الاموال وضاع كل ما شغلت من المناصب ولم يبق بالخاطر الا ما فعل الناس معى من خير وشر وما اكسبنى الزمان من صدماته وغرائب تقلباته»

وعزم على الذهاب الى الريف ليحيا هنـاك بين أهله ويرتزق من كده وعمله كما يرتزقون . ولكنه لم يلبث أن طلب لخدمة الحكومة مرة اخرى فتقلب فى وظائف مختلفة لم يشعر فى واحدة منها بالاطمئنان او الرضى . ثم هيأت له

الظروف أن يعود الى الوظيفة التى يحبها من اعماق قلبه وذلك عندماكان مسافرا مع الخديو سعيد فى مريوط ، واخذ الخديو يتحدث الى من حوله عن تعليم الضباط وصف الضباط ، واخذ يسألهم عمن يريد منهم أن يتطوع لتعليمهم . وكانت دهشة الجميع عظيمة عندما تقدم على مبارك متطوعا ليكون هو معلمهم . وهو يقول فى هذا عن نفسه : « كيف لا أرغب فى انتهاز فرصة تعليم أبناء الوطن وبث فوائد العلوم فيهم ؟ » واتخذ مدرسة فى خيام متنقلة مستخدما كل ما يتهيأ له من الوسائل للنجاح فى تعليمه . ولم يقتصر فى مدرسته المتنقلة على تعليم القراءة والكتابة والحساب بل علم تلاميذه الهندسة والفنون العسكرية والاستحكامات وسوق الجيوش وطرق الحرب

ولكن عصر سعيد المضطرب قذف به بعد قليل الى الخارج فوجد نفسه عاطلا من الوظيفة واضطر الى أن يرتزق بالاشتغال بالتجارة . ونجح فى هذه المرة نجاحا عظيما حتى انه فكر فى انشاء شركة تجارية لانشاء المنازل وبيعها

ثم تولى الخديو اسماعيل بعد موت سعيد ، وكان من أول أعماله اعادة على مبارك الى خدمة الحكومة وعهد اليه بنظارة القناطر الخيرية ، وكان يكل اليه من الاعمال ما يحتاج الى البراعة فى فنون الهندسة . وبعد ست سنوات من أعمال هندسية مختلفة أضاف اليه اسماعيل ادارة ديوان المدارس وكانت سنه عند ذلك ستة وأربعين عاما . فوثب الرجل الى فرصته بحماسة تدعو الى العجب والاعجاب معا . كانت وثبته تلك هى نقطة التحول فى حركة التعليم بمصر ومن تلك اللحظة وضع الاساس الاول للتعليم الذى نعرفه اليوم . وهو يحكى عن نفسه قائلا : « كانت كثرة أشغالى لاتشغلنى عن الالتفات الى ما يتعلق بأحوال التلاميذ والمعلمين فكنت كل يوم ادخل عندهم بكرة وعشيا عند غدوى من البيت

ورواحى اليه واعملت فكرى فيما يحصل به نشر المعارف وحسن التربية »

ثم قال ايضا : « وقد تاسس هذا المشروع وثبت وسرت فيه الى ان انفصلت عن المدارس وحصلت منه على نتائج حسنة »

وانشأ مطبعتين لطبع الكتب المدرسية كما انشأ دارالكتب المصرية الاولى ليرجع اليها المعلمون ، وجمع فيها الكتب القديمة الثمينة المتفرقة فى المساجد وغيرها . ومما يسترعى النظر انه انشأ لأول مرة فى مصر معملا للعلوم جمع فيه آلات العلوم الطبيعية والرياضية ليكون عونا للمعلمين على جعل الدراسة عملية قائمة على التجربة

وقد اهتم ببناء المدارس واصلاح ما يحتاج منها الى الاصلاح ، وكان بذلك رائدا للعصرالحديث فى التعليم ، ولعل اكبر مآثره فى التعليم انشاؤه لدار العلوم حتى يعد للمدارس من تحتاج اليهم من المعلمين الصالحين تمهيدا للجهاد فى نشر المدارس فى ربوع البلاد لأنه كان معلما أصيلا يعرف ان كل محاولة فى نشر التعليم بغير اعداد المعلم الصالح لا تجدى البلاد شيئا

وقد شجع الشبان من خريجى المدارس العالية على الاشتراك فى التعليم، فكان يختارخريجى مدارس المهندسخانة والمحاسبة والادارة ليكونوا مساعدين للمدرسين حتى يستطيعوا أن يشتغلوا بالتدريس بعد أن يكتسبوا المران الكافى . وكان فى الوقت الذى يجاهد فيه هذا الجهاد لنشر التعليم وارساء اساسه يبذل جهدا آخر كبيرا فى الاعمال الهندسية ، فله الفضل فى تجميل القاهرة وميادينها . وكان هو الذى يقوم بالاتفاق مع الشركات الاجنبية التى ادخلت النور والماء لأول مرة الى بيوت المدينة

فى هذه الاثناء كان الشاب على مبارك قد صـــار كهلا تجاوزت سنه الرابعة والخمسين ، وبدأ يحس عبء السنين وأثر الجهاد المضنى وتجمعت عند الافق فى الوقت نفســه سحائب سود فيها برق ورعد تنذر بهبوب عاصفة هوجاء . وذلك ان الازمة المالية المشئومة كانت قد بدأت تهز قواعد حكم اسماعيل ولم تلبث أن عصفت به بعد قليل . ومع انه أصبح ناظرا لديوان المعارف فى الوزارة التى انشأها اسماعيل عندما اشتدت الازمة فانه كان يحس ان جهاده الحقيقى قد انتهى . حقا انه أنشأ فى مدة وزارته بعض مدارس ممتازة لتكون نمـــاذج للمدارس الجديدة مثل مدرســتى طنطا والمنصورة ، وحقا انه بذل جهده فى نشر التعليم الحديث فى المدن والقرى ، ولكن اضطراب أمور الحكم كان يفرض عليه قيودا لا طاقة له بها . واخيرا قامت الثورة العرابية ثم اعقبها الاحتلال البريطانى فوقفت حركة اصلاح التعليم ثم بدأ الاحتلال الانجليزى يفرض سياسة أخرى غير السياسة التى وضع أساسها على مبارك ، وكانت تختلف كل الاختلاف عما كان يقصده معلم مصر الحديثة الاول

وقد اراد الشيخ وهو فى سن السادســـة والستين أن يعتزل الوظائف ويعود الى قريته ليقضى ما بقى من عمره بين حقول الريف الخضراء التى أحبها منذ كان طفلا وتحت أشعة الشمس اللامعة التى كان فى صباه يمرح فى فيضها مع لداته من أبناء الفلاحين الذين لم ينس يوما انه واحد منهم وان أعظم واجب عليه هو أن يعلمهم ويسمو بهم الى مرتبة البشرية العليا . ولكنه لم يتمكن من هذه الراحة التى يستحقها ، فقد دعاه توفيق ليكون ناظرا لديوان المعارف فى عهد الاحتلال ، وما كان أمر عودته الى ذلك الديوان فى ظلال الاحتلال . ولم يستطع أن يتخلف عن الدعوة ولكن كلماته التى سجلها بقلمه تنم عما كان فى نفسه من الحسرة

والألم والخيبة . فقد قال : « تركت القرية عندما طلبت لهذه الخدمة واخذت فى تأدية ما فرض على قيـــاما بحق وطنى .. وها انا الآن قائم بهذا الأمر على حسب الطاقة بقدر الامكان والله المستعان ! »

فكان مثاله كالجندى الذى لايدع العلم يهوى من يده حتى يخر وهو لايزال فى يده .. وأدركه الأجل بعد أربع سنوات مخلفا وراءه اسما خالدا كأول معلم مصرى خالص جاهد من أجل رفعة مصر عن الطريق الطبيعى لرفعتها ـ التعليم . ولكنه خلف وراءه كذلك معنى خالدا آخر لأنه هو الطفل الفلاح الذى كافح فى طريق من الاشواك حتى عرف آخر الامر انه خلق ليكون معلما لأبناء وطنه . ومنذ تلك اللحظة التى عرف فيها رسالته اتجه بكل قلبه وكل عزيمته وكل اخلاصه الى التعليم حتى مات وقلبه خافق من أجل تعليم أبناء وطنه



جرجي زيدان



جرجى زيدان

هذا هو العصامى جرجى زيدان نشأ فقيرا ، فلم يحل الفقر ولا تحالف الشدائد دون ما يريد ، ووثب من بيروتى صغير الى عالم نابغة كبير

العصامى الموهوب

بقلم الاستاذ طاهر الطناحى

اذا ذكر العصاميون الذين بنوا انفسهم ، وشادوا للانسانية صروحا عالية فى مختلف الميادين بأعمالهم المجيدة ، وجهودهم الممتازة ، فان جرجى زيدان فى المقدمة بين هؤلاء العصاميين الأفذاذ ، فقد بلغ بالعصامية ارفع مكان فى ميادين العلوم والآداب والثقافة الحرة . وكانت حياته ابلغ درس للشباب المكافح ، واعظم عبرة للذين يقفون يائسين على الشاطىء ، لاتحركهم همة ، ولا تبعثهم ارادة على اجتياز الامواج ليصلوا الى ما يريدون من رقى ونجاح

لم يقف جرجى زيدان على شاطىء الحياة المدلهمة وهو فتى صغير يائسا من النور ، لان والده امى لايعرف فضل العلم ، أو لانه فقير لايملك نفقات التعليم ، أو لان ظروف العيش مزدحمة بالمتاعب ، بل نظر بعقل الصبى النابغ ، فوجد ان الرغبة الصادقة تحطم اقوى العقبات ، وان الارادة النافذة تحقق المستحيلات ، وانه كما قال ابن الوردى :

لا تقل أصلى وفصلى ابدا
انما اصل الفتى ما قد حصل

نعم ، لم يقل جرجى زيدان أصلى وفصلى حتى تثبط همته وييأس من النجاح ، بل اندفع الى تحصيل العلوم .والآداب ،

وشق طريقه بنفسه الى المجد والرفعة ، واتخذ من فضل العلم خير أصل ، ومن جمال الأدب أحسن نسب !

حادث أليم

نشأ جرجي زيدان فى عائلة متوسطة الحال ، ولكن الايام تنكرت لها ، فذاقت متاعب الفقر ، فقد كان جده زيدان مطر وكيلا على أملاك السيدة حبوس والدة الامير مصطفى ارسلان ، وكان وقتئذ فى سعة من العيش ، اذ كانت هذه السيدة تحكم « عين عنوب » وما يليها فى لبنان فى أوائل القرن الماضي . فلما حمل ابراهيم باشا على سورية وفتح عكا وأراد الاستيلاء على لبنان خافت السيدة حبوس بطشه وسطوته ، فعزمت على الفرار من وجهــــه ، وطلبت من زيدان مطر أن يرافقها ، فاعتذر بمن عنده من أولاد وأهل ، فتركته وقد حقدت عليه . فلما ضعف شأن ابراهيم باشا عادت الى « عين عنوب » وصادرت أملاك زيدان وأمواله ، وتعمدت الحط من شأنه ، فشق ذلك عليه ، وأثر فى صحته ، ومات قبل أوانه ، وقد خلف وراءه زوجة وابنين وابنتين اكبرهم حبيب والد جرجي زيدان

ولما كانت هذه الزوجة الارمل لا تستطيع البقاء بأولادها فى هذه الحال بعين عنوب ، فقد نزحت بهم الى بيروت ــ وهى يومئذ مدينة صغيرة لا مرتزق فيها غير الاتجار وصنع ضروريات الحياة كالاطعمة والملابس ونحوها ، أو خدمة الحكومة فى الكتابة والجندية

اسرة كادحة

وكان حبيب فى العاشرة حين نزل مع اسرته الى بيروت ، فلم يتسع له الوقت للتعليم ، فعاش اميا ، وانصرف لتحصيل الرزق واعانة أسرته ، ولم يزد عمله على مطعم صغير فى سوق ساحة البرج ببيروت . وكان هو وزوجته

ـ على الرغم من ضيق الرزق ـ مثال النشاط والجد فى العمل ، حتى قال عنهما جرجى زيدان فى مذكراته الخاصة :

« نشأت فى صباى وانا أرى والدى يخرج الى دكانه فى الفجر ، ولا يعود الا فى نحو منتصف الليل أو قبيله ، وأرى والدتى لا تهدأ لحظة من الصباح الى المساء . لا تعرف الزيارات ، ولا تغشى الاحتفالات ولا المجتمعات حتى الدينية ، فانها لم تكن تذهب للصلاة بالكنيسة الا نادرا ، وانما همها تدبير بيتها ، وتربية أولادها .. وقد شببت على ذلك وألفته ، فغرس فى ذهنى : ان الانسان خلق ليشتغل وان الجلوس بلا عمل عيب كبير .. بخلاف الابناء الذين يفتحون أعينهم على والدين يقضون معظم أيامهم فى اللهو وشم الهواء . ولا يهمهم الا ماذا يأكلون ، وماذا يشربون . واذا فرغوا من الطعام عمدوا الى اللعب بالورق أو غيره . ولا يقدمون على العمل الا مكرهين . يحسبون العمل عيبا أو تعبا . ولو عولوا عليه لكفاهم مؤونة المرض والضعف

« فالابناء الذين يربون بين أولئك الآباء ينشأون كسالى ، ويميلون الى الملاهى والرذائل ... »

فى هذه البيئة النشيطة ـ بيئة العمل المتواصل والجد والعصامية ـ نشأ جرجى زيدان .. ولقد كان والده كما قلنا أميا ، ولكنه شعر بالحاجة الى الكتابة والقراءة ليدون حساب مطعمه ، فاستخدم كاتبا لذلك . ودعته هذه الحاجة الى أن يرسل ابنه جرجى وهو فى الخامسة من عمره الى مدرسة حرة يديرها قسيس يدعى المعلم الياس شفيق . وكانت فى قبو وضيع ، يجلس التلاميذ فيه على حصير مبسوط على الارض . وقد أمضى فى هذه المدرسة سنتين لم يتعلم فيهما شيئا غير فك الخط ، ثم نقله والده الى مدرسة تدعى مدرسة الشوام ، فتلقى فيها مبادىء الحساب

والنحو والصرف والخط واللغة الفرنسية ، وبقى فيها نحو عامين ، ثم أغلقت. فانتقل الى مدرسة المعلم طاهر خير الله ، فمكث بها عامين آخرين

فى مطعم ابيه

أصبح فى الحادية عشرة ، وذاق لذة العلم والتعليم وتفتحت نفسه بالامل الى المستقبل ، غير أن والده ما لبث أن دعاه الى مساعدته بالمطعم ليقيــد أسماء الزبائن وحســـاباتهم ويلاحظ الحال ريثما يجد مساعدا غير المساعد الذى تركه وقد قال له :

« تعال يا جرجى لمساعدتى سبعة أيام أو ثمانية ريثما اجد من يقوم مقامك .. » فأطاع والده وهو يعلل النفس بالرجوع الى المدرسة ، ولكن هذه الايام السبعة امتدت الى سبعة اعوام حتى خشيت والدته على مستقبله ... وقد قال فى مذكراته :

« ولما مضى على اشتغالى فى ذلك المطعم عام وبعض العام ، خافت والدتى ان يطول مقامى ويضيع مستقبلى . وكانت تكره المطاعم ، وكانت منذ طلبنى والدى لمساعدته تلح عليه الا يطول مقامى ، وهو يعدها .. فلما مضت السنة الاولى الحت عليه أن يخرجنى ، ويعيدنى الى المدرسة ، فقال لها : « انه قد أتم دروسه ، ولا فائدة من كثرة الدرس ، الا اذا كنت تنوين أن تجعليه كاتبا أو معلما . فضلا عن ان كثرة التعليم تجعله متفرنجا متأنقا لا يأكل الا بالشوكة والسكين ، وربما حدثته نفسه أن يلبس اللباس الافرنجى — وكان هذا اللباس قليلا ، وكان الاكل بالشوكة والسكين لايزال معدودا من عادات المتفرنجين

« ولم يقل والدى ذلك فى نفور من المدنية ، ولكنه كان محبا للمحافظة على العادات الشرقية . وكان يكره التصنع

والتظاهر بمظاهر الافرنج ، فاقتنعت والدتي بهذا الجواب ، ولكنها ما زالت تكره أن أبقى فى تلك الصناعة ، وقالت لأبى : أدخله فى صناعة أخرى ، فانى أكره هذه الصناعة ورائحة الزفر والانحباس فى الدكان ليل نهار ــ لا عيد . . ولا أحد ــ فاذعن لاعتراضها . . وبعد النظر قر رأيهما على أن أتعلم صناعة الاحذية الافرنجية »

وقدكانت صناعة الاحذية الافرنجية وقتئذ حديثة العهد فى بيروت ، وحجتهم فى اختيارها له وهو فى الثانية عشرة من عمره ان بعض البيروتيين مارسوها فأثروا منها وصار لهم أموال وأملاك ، وقد مكث فى هذه الصناعة سنتين تعلم فيهما أكثرها . ولكنه ما لبث بعد ذلك أن تركها لانها لم توافق صحته واصابه ضعف فى معدته من الجلوس الطويل على الكرسى للعمل ، وخاف والداه عليه ، فقررا اعادته الى المطعم مؤقتا ريثما يفكران فى صناعة أخرى لمستقبله !

صبر جميل

تذرع الصبى جرجى زيدان بالصبر ، فلم يكن أمامه فى ظلام الحياة ، ومحاربة الايام غير الصبر والأمل . . ولكن أين الأمل ؟ . . فليس حوله الا السدود والعقبات ، والا ما يبعث على اليأس ، ولكن نفسه الكبيرة لم تعرف اليأس . . لذلك تذرع بالصبر وحده . والصبر محمود ، ولا سيما فى هذه الحال التى لاحيلة فيها غيرالصبر ، كما قال ابن‌الرومى :

أرى الصبر محمودا وفيه مذاهب
فكيف اذا ما لم يكن عنه مذهب
هو المهرب المنجى لمن أحدقت به
مكاره دهر ليس عنهن مهرب

صبر جرجى زيدان ، وعاد الى مطعم أبيه ــ لا عودة الجبان المستسلم لقسوة الايام ، ولا الضعيف اليائس الذى

سدت فى وجهه الآمال ، وانهزم فى معركة الحياة ، فسئم جهاده ، وقعد كئيبا يندب حظه ، ويأسى على نفسه ، أو يتعزى بغيره ممن هزمهم الدهر ، فاستسلموا للهزيمة ، وأضاعوا أعمارهم سدى دون أن يكون لهم فى الحياة العليا سهم أو نصيب .. كلا ، بل عاد الى مطعم أبيه كما يعود القائد الشجاع من الميدان ليتزود بالتفكير وانتهاز الفرص ، ويضع الخطط الجديدة ليواصل جهاده ، ويفوز بما قدر لهذا الجهاد الصادق من نصر فائق ومستقبل عظيم

بارقة امل

وكانت بيروت وقتئذ حافلة بأهل اللهو والبطالة ، وكان منهم من يترددون على هذا المطعم ، وكان الصبى جرجي يرى فى هذا الظلام ضياء الله ، ويلمح بالسريرة ما هيىء له فى المستقبل من مجد علمى وأدبى ، فلم يلتفت الى ما حوله من فساد وجهل ولم ينزع الى ريبة ، ولم ينزلق فى مأثمة ثم ظهرت طبقة متعلمة تخرجت من مدارس الارساليات الدينية المسيحية من امريكية والمانية وانجليزية . وكانت هذه المدارس قد أنشئت على أثر مذابح عام ١٨٦٠ لنشر العلم والادب على نهج التمدن الحديث ، وعلمت طائفة من الشبان الذين تكونت منهم الطبقة المتعلمة التى كان عليها المعول فى تغيير الآداب الاجتماعية فى بيروت . وكان جرجي زيدان ينظر الى هذه الطبقة وقتئذ وهو يشعر بتقصيره فى مجاراتهم فى التربية والتهذيب ، فكان يتقد غيرة ورغبة فى أن يأخذ مثلهم بنصيبه من العلم والتعليم

يتعلم الانجليزية فى المطعم

واتفق ذات يوم أن زار المطعم المعلم مسعود الطويل — احد المعلمين فى بيروت — فذكر انه فتح مدرسة يعلم

فيها الشبان اللغة الانجليزية ساعة قبل الغروب ، فرغب جرجى زيدان فى تعلم هذه اللغة لقاء ما يتناوله المعلم مسعود من طعامه فى المطعم ، وكانت سنه لا تزيد على خمسة عشر عاما ، فصار يتردد عليه فى بيته مع ١٤ تلميذا ، ومكث هناك خمسة أشهر ، قال له المعلم مسعود فى نهايتها انه تعلم الانجليزية جيدا ، فجرب قوته فى مطالعة كتاب « رحلة كوك فى جزائر المحيط » فرأى نفسه أقل كثيرا مما كان يظن ، فأخذ فى الدرس لنفسه حتى كان لا ينام الليل فى كثير من الايام

ولما شعر بأنه على نصيب وافر من هذه اللغة لمعت فى نفسه ملكة التأليف التى ظهرت فيما بعد قوية عارمة ، فأخذ فى وضع قاموس انجليزى عربى فى ذلك الحين . وقد وصل فى تأليف هذا القاموس الى حرف (E) ولم يكن قد ظهر مثل هذا القاموس ، ثم مل هذا العمل لقلة وسائله .. على ان ذلك لم يثن عزمه عن العناية بتقوية نفسه فى اللغتين العربية والانجليزية ، فأخذ يطالع فيهما كتب اللغة والأدب

كتاب مجمع البحرين

وكان أول كتاب عنى به فى اللغة العربية واحب اقتناءه ، كتاب « مجمع البحرين » للمرحوم الشيخ ناصف اليازجى . وهو كتاب أدبى وضعه مؤلفه فى ستين مقامة على طراز مقامات الحريرى . وكان قد ابتاعه من أحد باعة الكتب المتجولين . ولهذا الكتاب قصة طريفة يرويها جرجى زيدان فى مذكراته ، فيقول :

« كنت اسمع بكتاب مجمع البحرين ، واحب اقتناءه . لكنى كنت استغليه ، لأن ثمنه على ما أظن كان أربعة فرنكات أو خمسة ، ففى ذات يوم كنت جالسا بالمطعم ، فمر غلام وبيده هذا الكتاب مستعملا ، وهو يعرضه للبيع ، فاشتريته

منه بتسعة قروش بيروتية أي أقل من نصف ثمنه ، وفرحت به كثيرا . ولما رجع والدى سألنى عنه ، فأخبرته انى اشتريته بتسعة قروش ، فزعل ، وقال : « أتدفع فى هذا الكتاب تسعة قروش ، وتبدل الدراهم بورق » !

« فزعلت ولم أجبه ، ولما انصرفنا للبيت فى المساء ، وكانت الوالدة قد أعدت لنا العشاء ، أظهرت انى لا اريد الطعام ، وذهبت للنوم ، وانا أتوقع أن يدعوانى ، ولا يتركانى انام جائعا . وسمعت والدتى تعنف والدى لاغضابى حتى نمت بلا اكل ، ولكنه أصر على رايه .. واتفق أن جاء أمين فياض احد أصدقاء والدى للسهرة عنده فى تلك الليلة ، وكان يتودد الى ، فسأل عنى ، فقيل له انى نمت . واغتنمت والدتى هذه الفرصة ، وشكت اليه عناد والدى ، فسأله عن سبب غضبه ، فقال : « انه يصرف الدراهم فى شراء الورق بلا فائدة » !.. فأجابه : « أشكر الله يا أبا جرجى أن ابنك ينفق الدراهم فى شراء الكتب ، وليس فى السكر ونحوه . انها نعمة يجب أن تشكر الله عليها »

« وسمعت كلمات هذا الصديق وانا أتظاهر بالنوم . وللحال اشتد ساعد والدتى ، وقامت فأيقظتنى ، وأجلستنى الى المائدة ، وطيبت خاطرى ، وكذلك والدى .. ولا تزال هذه الحادثة نصب عينى .. »

غرام بالعلم وهمة وارادة

وقد دفعه غرامه بالعلم والتعليم الى مطالعة كتب الطبيعة والجغرافيا واستعان ببعض المتعلمين ممن يترددون على مطعم والده . وكان الى ذلك الحين لايعرف النواميس الطبيعية كدوران الارض والكواكب ، وخسوف الشمس والقمر وأسباب السحاب والمطر وغيرها . وقد اطلع فى احدى المجلات على مقالة فى سبب الخسوف والكسوف ،

بعثت في نفسه الرغبة فى مطالعة هذه الكتب ، فاقبل عليها حتى استوعبها بهمة وارادة قوية . وكان وقتئذ يلبس السروال البيروتى ويعتقد ان لابسى البنطلونات أرقى عقلا واوسع معرفة وأصح حكما من لابسى السراويل ، لأن أكثرهم من المتعلمين ، فلما استنار بنور العلم ضعف عنده هذا الاعتقاد ، وشعر انه انسان له شخصية وارادة ، وصار لايستبعد مجاراة اهل السراويل لأهل البنطلونات !

وقد كان به جنوح غريزى الى العلم والادب ، وكانت والدته كلما رأت منه ذلك ساعدته عليه ، غير ان العقبة فى اخراجه من محل أبيه أن يجد عملا آخر يستغنى به عن عمله ، ففكر فى تعلم حساب مسك الدفاتر ليكون كاتبا فى احد المخازن ، فوافقه والده على ذلك . وكأنه رأى فى هذا العمل منجاة ومهربا من المطعم ريثما تتاح له الفرصة ليواصل جهاده فى سبيل العلم والادب ، لا فى سبيل المادة ، ولا فى سبيل الارقام الصامتة التى يجمعها ويحسبها فى هذه المحنة النفسية التى يعانيها فى ذلك الحين ..

يقضى على المرء فى أيام محنته
حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن

امنية حققتها الايام

تعلم مسك الدفاتر على معلم معروف فى بيروت حتى اتقن هذا الفن فى نحو شهرين ، ثم وظف فى أحد مخازن القماش ، ولكنه لم يرتح الى هذه الوظيفة التى لم يلبث فيها غير نصف نهار عاد فى مسائه الى مطعم أبيه . وكان هذا المطعم قد أصبح مقصدا ومرادا للطبقة المتعلمة فى بيروت ، وكان يزوره بين حين وآخر بعض العلماء والادباء والصحفيين كالشيخ ابراهيم اليازجى والمعلم عبد الله البستانى ، فكان يجتمع بهم ويستفيد منهم ، وكان يميل الى مباحثة الطلبة

الذين يترددون عليه وخاصة طلبـــة الطب فى « المدرســة الكلية » التى أصبحت فيما بعد الجامعة الامريكية ببيروت. وكانوا يرون فيه استعدادا عجيبا ، وقد يدخل معهم فى بحث علمي ، فيسمعون منه اقوالا لا يعهدونها فى أمثاله ، فأحبوا صحبته ، واخذوا يدعونه الى الاحتفـالات التى تجرى فى المدرسة على اثر الامتحانات ، فيسمع الخطب ، ويشاهد التلاميذ الناجحين ، فيتقد قلبه غيرة وحمية ، ويود لو أتيح له يوما أن يكون بين هؤلاء الناجحين . وكان كلما حضر احتفالا فكر فى نفسه ، وما يعترضه من العقبات فى سبيل تحقيق امنيته ، فيخرج منقبض الصدر ، ويلاحظ عليه أصدقاؤه ذلك ، فيسالونه ، فلا يبوح لهم بما فى سره وما تنطوى عليه جوانحه من الآلام . وذات يوم صارح احد اصدقائه قائلا :

ــ الا ياتى يوم اقف به موقف أولئك المتعلمين ؟

ثم سكت صابرا ، واخذ يفكر فيما يوصله الى ما يريد

سر النجاح

من الاقوال الحكيمة التى ما زالت من دروس الحياة ، وهى نتيجة التجارب قول البحترى :

لا يلبث الممنوع تطلبـــه
حتى يثوب اليك ممتنعه

وكذلك كان جرجى زيدان يتعشق التعليم ويغرم بالعلم ويلح فى طلبه حتى ثاب اليه ما منع عنه واسلس قياده . وقد ضاعف همته ، واثار بواعث نشاطه ما قرأه من سير الرجال الذين نالوا المجد والعظمة بجدهم واجتهـادهم ، واعتمادهم على انفسهم ، وفيهم من كان حلاقا ، أو حدادا ، أو نجارا ، أو عاملا من العمال ، وقد أتيح له وقتئذ ان يقرا كتاب « سر النجاح » الذى نقله الى العربية الدكتور يعقوب

صروف ، فاطمأنت نفسه ، وشعر بحافز قوى الى المضى فى عزمه على تعلم الطب

وكان قد انتظم فى عضـوية « جمعيـة شمس البر » ببيروت . وهى جمعية أدبية أكثر أعضـائها من تلاميـذ المدرسة الكلية ببيروت ، فأفضى بعزمه الى بعض أصدقائه ، فدهشوا لأن طالب الطب ينبغى أن يمتحن عند دخوله هذه المدرسة فى الهندسة والحساب والجبر وعلوم الطبيعة ، ولم يكن جرجى زيدان قد ألم بها الماما يساعده على النجاح فى الامتحان ــ هــذا عدا الامتحان فى اللغتـين الانجليزية والعربية ــ ولم يكن أمامه الا عطلة الصيف ، وهى نحوأربعة أشهر . . وقد حق لأصدقائه أن يدهشوا لو أن جرجى زيدان كان طالبا عاديا ، ولم تكن الاقدار قد زودته بهمة عالية ونبوغ فائق . ولهذا لم تثنه هذه الدهشة أو هـذا التثبيط عن تحقيق أمنيته ، فأقبل على هذه العلوم يدرسها ويذاكرها ليل نهار ، وتقدم لامتحانالقبول بمدرسة الطب ، وكانت دهشة أصدقائه لنجاحه أشبه باعترافهم بنبوغه . وكانت وثبة من « سـوق الطويلة » ببيروت الى سـاحة « المدرسة الكلية الامريكية » جعلته يشعر بمواهبه وانه لايقل عن لابسى البنطلونات مقدرة وذكاء . .!

ثورته الحرية الفكرية

انتظم فىدراسةالطبفىالمدرسةالكليةعام ١٨٨١، وكانمثال الاجتهاد والتفوق على قرنائه . ونال فى الامتحان السنوى درجات الامتياز ، وقد حضر الاحتفال هذه المرة ، لا زائرا ولا متفرجا كما كان فى الاحتفـالات الاخرى ، بل ناجحا ممتازا يشار اليه بالبنان ، وحققت له الارادة القوية ما كان يتمنى فوقف « موقف أولئك المتعلمين » . بل وقف بينهم موقف الممتازين

وكانت السـنة الثانيـة للطب ، فانتظم مع اخوانه فى الدراسة ، ولكن لم يمض غير شهرين حتى وقعت حادثة الحرية الفكرية فى المدرسة الكلية ، وكان جرجى زيدان من أكثر المتحمسين لها ، بل كان أكثرهم تحمسا . وقد انجلت عن خروجه مع معظم تلامذتها ، غير انه ثابر على دراسة علوم الصيدلة بعد خروجه ، وأدى امتحانا فى هذه العلوم أمام لجنة حرة تألفت فى بيروت من أشهر اطباء سورية ولبنان تحت رئاسة الكولونيل مراد بك حكيمباشى المعسكر ، ومن أعضائها الدكتور فانديك ، والدكتور لويس ، والدكتور رابوطاجى ، وغيرهم . ونال شهادة الصيدلة فى العلوم الآتية : اللغة اللاتينية ، والطبيعيـات ، والحيوان ، والنبـات ، والجيولوجيا ، والكيمياء العضوية والمعدنية ، والتحليـل الكيميائى ، والمواد الطبية ، والاقرباذين العلمى والعملى

هجرته الى مصر

وبعد أن حصل على هذه الشهادة من هذه اللجنة الطبية الحرة اعتزم أن يتم دراسة الطب البشرى فى مدرسة قصر العينى بمصر ، وكان ناظرها وقتئذ الدكتور عيسى باشـا حمدى ، ولم يكن عنده ما يتزود به من النفقة فى الايام الاولى من الرحلة الى البلاد المصرية ، ولقد غامر بمستقبله فى سبيل الحرية الفكرية التى ثار لها هو وزملاؤه فى المدرسة الكلية ، وكانت أول ثورة واضراب للطلبة فى الشرق ، اذ كان يتعلم الطب ليعيش ، وكان يتزود من التعليم ليحقق آماله فى العلم ، فلما خرج من هذه المدرسة شعر كأنما انقطع حبل آماله ، وان جهاده ذهب سدى ، ولكن ما لبثت عزيمته أن استردت قوتها ، وما عتمت ارادته أن تغلبت على ضعف نفسه ، وكان له جار ببيروت يعلم حاله وما آل اليه ، فاقرضه ستة جنيهات ضمها الى ما كان معه من قليـل النفقة ، وسافر الى مصر ، ولم ينس أريحية هذا الجار

فرد له الجنيهات الستة بعد عام حينما مارس العمل لأول مرة فى مصر

اشتغاله بالصحافة

وكانت سنه حينما هاجر الى البلاد المصرية ، لا تزيد عن اثنتين وعشرين سنة ـ اذ ولد فى ١٤ ديسمبرعام ١٨٦١ ـ فركب احدى البواخر التجارية . وهى أول مرة يركب فيها البحر، ووصلت به الباخرة صباحا الىالاسكندرية فى أكتوبر عام ١٨٨٣ . وكان ذلك عقب الثورة العرابية ، فشاهد هذه المدينة فى حالة يرثى لها على أثر الحريق وحوادث التدمير التى حلت بها من العدوان البريطاني . وكان لذلك أثره فيما بعد حين دون حوادث هذه الثورة فى كتابه « تاريخ مصر الحديث »

وبعد أن استراح بالاسكندرية قليلا شخص الى القاهرة ، وتقدم لمدرسة الطب . غير ان طول المدة لنيل شهادتها ، حولعزمه عن صناعة الطب الى صناعة القلم ، فتولى تحرير «جريدة الزمان». وكانت حينئذ الجريدة اليومية الوحيدة بالقاهرة . وقد مكث فى تحرير هذه الجريدة عاما أو يزيد. ثم استقال منها ليعمل فى الحملة النيلية الى السودان

الفلسفة اللغوية

سافر الى السودان مترجما فى الحملة النيليــة لانقــاذ غوردون باشا فقضى فيه عشرة أشهر شهد فى أثنائها أعظم الوقائع الحربية مثل واقعة ابى طليح والمتمة وغيرها . وقد قاسي فى هذه الرحلة الوانا من المشقات ، ولكنها كانت فرصة له لاستطلاع أحوال هذا القطر ، ولما عاد الى مصر نال ثلاثة أوسمة مكافأة له على جهوده . . غير انه لم يستقر فى مصر بعد عودته من الحملة ، بل سافر الى بيروت عام ١٨٨٥ ، فانتدبه المجمع العلمى الشرقى ليكون عضوا عاملا فيه فمكث

فى بيروت عشرة اشهر يطالع اللغات الشرقيــة ، فدرس العبرانية والسريانية . ووضع على أثر ذلك أول كتاب له ، بل اول كتاب من نوعه فى الشرق ، وهو كتاب « الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية» ولم تكن سنه قد تجاوزت الخامسة والعشرين ..!

وفى هذه الاثناء الف احد أصدقائه رواية سماها « رواية البطلين » جعل جرجى زيدان أول بطليها ، وجعل غوردون باشا البطل الثانى . وقد وصف المؤلف فيها عصاميــة جرجى زيدان وانتصــاره فى معركة الحياة ، وبطولته فى التغلب على العقبات حتى وصل الى ما يريد مع المحافظة على الفضائل والآداب الراقية

عمله فى « المقتطف »

كانت مجلة « المقتطف » فى ذلك الحين هى أرقى المجلات العلمية وأشهرها فى الشرق العربى ، وكانت تجتذب أقلام العلماء والادباء ، وقد راسلها جرجى زيدان ببعض مقالاته الادبية وبحوثه العلمية ، فقدرت جهوده فى صناعة الفكر والقلم . وكان قد سافر فى صيف عام ١٨٨٦ الى عاصمة الانجليز ، وترددعلىأندية العلم فيها وزار المتحف البريطانى ثم عاد فى الشتاء الى مصر ، فاختير مديرا عاما لادارة مجلة « المقتطف » فقبل ، ومكث فى هذه الوظيفة حتى عام ١٨٨٨ وكان يقوم بجميع شؤونها الادارية ويســاهم فى التحرير ببحوثه القيمة

ولعلمن الطريف أن نذكر انجرجى زيدان فى أول نشأته وهو فى بيروت بعث بمقالة الى هذه المجلة ينتقد فيها الآباء الذين لايعلمون أولادهم ، وكانت أول مقالة كتبها فىحياته ، فلم تنشرها المجلة وصادف أن جاءه مديرها فى الصيف ، وتناول طعامه فى مطعم أبيه ، فسأله عنها ، فأجابه : « انه يرجو أن تكون المقالة الثانية خيرا من الأولى ..! » وأراد الله

ان يكون جرجي زيدان مديرا للمقتطف بعـــد نحو عشر سنوات من هذه الحادثة

انصرافه للتاليف

مكث جرجي زيدان عامين مديرا للمقتطف ، وكان مرتبه فى تلك الوظيفة ثمانية جنيهات فى الشهر . ولعل القارىء يظن ان هذا المبلغ فى ذلك الزمان يعد مبلغا ضخما اذا قيس بقيمة العملة فى عصرنا الحاضر ، وهـذا صحيح اذا كان جرجى زيدان تناوله لقـاء أعمال ادارية فقط أو أعمال تحريرية فقط ، أو اعمال خاصة بالمطبعة وشؤون الورق والحبر والبريد والمشتركين والعمال فقط ، بل كان يتناوله لقاء هذه الاعمال كلها ، فقام بها خير قيام ، ثم رأى وقته قد ضاق عما يغرم به من متابعة البحوث والتـأليف ، فاستقال من المقتطف ، وانصرف لوضع نفائس المؤلفات ، فالف كتاب تاريخ مصر الحديث فى جزءين وعانى فى تاليفه صعوبات جمة ، وفى عام ١٨٨٩ الف تاريخ الماسونية العام . وهو أول كتاب من نوعه كتب فى العربية ، ثم كتاب التاريخ العام وهو مختصر تاريخ آسيا وافريقيا القديمة والحديثة

وفى أواخر تلك السنة انتدبته المدرسة العبيدية الكبرى لطائفة الروم الارثوذكس بمصر ليتولى أدارة التدريس العربى فيها ، فتولاها سنتين . وفى أثناء هذه المدة ألف رواية : «المملوك الشارد» . وهى أولى رواياته التاريخية ، فصادفت اقبالا كبيرا حتى طبعت عدة طبعات . وكانت سنه لا تزيد عن ثمانية وعشرين عاما !..

تاسيسه للهلال

اغرم جرجى زيدان بتحصيل العلوم والآداب ، فدرس كثيرا ، وقرأ طويلا ، وكان جهده هوأستاذه الاكبر، واعتماده على نفسه هو رائده الاعظم . وكما وهب نبوغا فى دراسة

العلم والتاريخ وتحصيل الأدب ، وهب ملكة ممتازة ، ونبوغا فائقا فى البحث والتأليف ، وصبرا عجيبا على مشاقهما . . وقد عرف فى التاريخ نوابغ كانوا نادرة الزمان فى ذكائهم وعلمهم ، ولكنهم لم يخلفوا وراءهم آثارا ، أو لم يخلفوا كثيرا من الآثار النافعة تتناسب وما اشتهروا به من نبوغ وعبقرية

ولكن جرجى زيدان النابغة بعد أن درس واطلع واصبح على حظ وافر من العلم اراد أن يكون نافعا للناس وللغة العربية وللعرب والاسلام بوجه خاص ، وكان من هؤلاء النوابغ القلائل فى تاريخ الشرق ، بل فى تاريخ العالم الذين اضافوا الى تراث العقل الانسانى ثروة جديدة

ولما كانت الطباعة أهم ما يعتمد عليه فى أداء رسالته ، فقد عني بأن تكون له مطبعة ، واستحضر فى ذلك الحين بعض الادوات المطبعية ، وتنحى عن التدريس وادارته فى المدرسة العبيدية . واخذ يستعد لتأسيس مجلة يحقق بها هذه الرسالة الى جانب ما يضعه من مؤلفات

وفى اول سبتمبر عام ١٨٩٢ أصدر العدد الاول من هذه المجلة . وقد صدره بمقدمة قال فيها :

« لابد للمرء فيما يشرع فيه من فاتحة يستهل بها ، وخطة يسير عليها ، وغاية يرمي اليها . أما فاتحتنا فحمدا لله على ما أسبغ من نعمه ، وأفاض من كرمه . والتوسل اليه أن يلهمنا الصواب وفصل الخطاب . وأما خطتنا فالاخلاص فى غايتنا ، والصدق فى لهجتنا ، والاجتهاد فى وفاء حق خدمتنا . ولا غنى لنا فى ذلك عن معاضدة أصحاب الاقلام من كتبة هذا العصر فى كل صقع ومصر

« اما الغاية التى نرجو الوصول اليها ، فاقبال السواد على مطالعة ما نكتبه ، ورضاؤهم بما نحتسبه وأغضاؤهم عما نرتكبه ، فاذا أتيح لنا ذلك كنا قد استوفينا أجورنا ،

فننشط لما هو أقرب الى الواجب علينا .. » . وبعد أن تحدث عن أبواب المجلة قال : « وقد دعونا مجلتنا هـذه الهلال لثلاثة أسباب : أولا ـ تبركا بالهلال العثمانى الرفيع الشان .. ثانيا ـ اشارة لظهور هذه المجلة مرة فى كل شهر . ثالثا ـ تفاؤلا بنموها مع الزمن حتى تتـدرج فى مدارج الكمال . فاذا لاقت قبولا واقبـالا اصبحت بدرا كاملا باذن الله »

خدماته للعرب والاسلام

وكان فى النشـأة الاولى لهذه المجلة يتولى كل أمورها بنفسه من تحرير وادارة ومكاتبات مما لايسـتطيعه الا جماعة من الرجال ، ولكنه كان يواصل العمل بلا ملل . ولما اتسعت شؤونهما عهد بادارتها الى شقيقه ، واستخدم معه آخرين وعكف هو على التحرير والتأليف . وقد وضع بعد تأسيس الهلال روايات تاريخ الاسـلام ، وكتاب التمدن الاسلامى فى خمسة أجزاء وكتاب العرب قبل الاسـلام ، وعلم الفراسة الحديث ، ومشـاهير الشرق فى جزءين ، وتاريخ آداب اللغة العربية فى اربعة أجزاء ، وأنساب العرب القدماء ، وطبقات الأمم ، وعجائب الخلق والجزء الأول من تاريخ انجلترا ..

وقد صدر من روايات تاريخ الاسلام ثمانى عشرة رواية عدا اربع روايات خارجة عن هذه السلسلة ، وهى : المملوك الشارد ، وأسير المتمهدى ، واستبداد المماليك ، وجهاد المحبين . وقد نقلت معظم مؤلفاته الى كثير من اللغات

والذى يطلع على آثار هذا العصامى النابغة من بحوث ومؤلفات يدهش كيف استطاع أن يقوم بها مع أعماله فى الهلال خلال اثنين وعشرين عاما فقط ، ولكنه النبوغ الذى لايقف عند حد ولايعرف للزمن حسابا ، والجهود المضنية ،

والنفس العظيمة التى يتعب الجسم فى تحقيق مرادها حتى يذوب ويفنى . ولقد ذابت روح زيدان وفنى جسمه قبل الأوان ، وهو لم يتجاوز من عمره الثالثة والخمسين

لم يعرف جرجى زيدان التعب طول حياته ، وقد انتفع ونفع بكل ساعة من وقته ، فكانت حياته على رغم قصرها مباركة ، وكانت جهوده على رغم صعوباته مثمرة . ولقد جاءه يوما مستشرق يزوره ، فلما رآه سأله مستغربا : « أانت جرجى زيدان ؟ » فأجابه : «نعم» فقال المستشرق : « كنت انتظر ان أرى شيخا ذا لحية بيضاء ، لأن من يطلع على مؤلفاتك لا يقدر عمرك بأقل من ثمانين سنة » !

هذا هو العصامى جرجى زيدان : نشأ فقيرا سدت أمامه ابواب المعارف ، فلم يحل الفقر ولا تحالف الشدائد والعقبات دون ما يريد ، ووثب من الصناعة والعمل الى عبقرية الفكر ومجد العلم والأدب ، ومن ساحة البرج ببيروت ، الى ميادين الثقافة العليا ، ومن بيروتى صغير لابس السروال ، الى عالم كبير ونابغة جليل يفخر به الشرق أجمع ، ومن فتى مجهول يكافح فى سبيل العيش وفى سبيل التعليم ، الى كهل عظيم يضع أنفس المؤلفات فى تاريخ الشرق وتاريخ الاسلام وآداب اللغة العربية ويبتكر من المؤلفات ما لم يسبقه اليه أحد ؟ ويخطب وده العلماء والادباء ومعاهد العلم الكبرى ، وتنتدبه الجامعة المصرية القديمة ليدرس لطلبتها تاريخ الاسلام ، ثم تحتفظ بما وضعه لها من دروس حين وقف فى سبيل انتدابه الجامدون !

هذا هو العصامى جرجى زيدان الذى سجل تاريخ الشرق اسمه بين العلماء الخالدين والعصاميين البارزين ، والذى صح فيه قول القائل :

ان الفتى من يقول هاأنذا
ليس الفتى من يقول كان أبى

علی ابراهیم



علی ابراهیم

« كان فى بداية حيـاته طبيبا فقيرا ، وكان نفوذ الطب الاجنبى يكاد يخنق الطب المصرى ، فانتصر على هـذه الظـروف وعاش حتى طب لمـلوك وامراء ووزراء وزعمـاء »

زعيم النهضة الطبية الحديثة

بقلم الدكتور سعيد عبده

وضـئيل من اســاة الحى لم
يعن باللحم وبالشحم اختزانا
ضــامر فى سـمرة تحسـبه
نضو صحراء ارتدى الشمس دهانا
او طبيبـا آيبـا من طيبـة
لم تزل تنـدى يداه زعفـرانا
تنكر الأرض عليـه جسـمه
واسـمه اعظم منهـا دورانا

شوقى

توفى على ابراهيم فى سـنة ١٩٤٧ ، عن سـبعة وستين عاما ــ او هكذا قيل ــ وعن ولدين وبنت ، وبيت فى جاردن سيتى وخمسة عشر فدانا ، و ١٠٠٠ سهم فى بنك مصر ، ومجموعة قيمة معدومة النظير من التحف والسجاجيد ، وبحر من دموع تلاميذه ومرضاه ، وكلية طب مصرية مائة فى المائة من غرس يديه ، وسـجل حافل بمئـات من آيات المجـد العصامى ، كتبه بهمة نفسه ، وأنامل راحتيه ، وعرق جبينه ، فى حوالى نصف قرن من الزمان

كان على ابراهيم يقول انه ولد فى سنة ١٨٨٠ ، وعلى هذا الحساب بلغ الستين فى سنة ١٩٤٠ ، ولكنى لا أدرى كيف أوفق بين هذا المولد وبين ما كان يروى عنه من وعيه وعى

الصبى لضرب الاسكندرية فى سنة ١٨٨٢ ! !

ولا ادرى كيف أوفق بين هـــذا المولد وحصوله على الشهادة الابتدائية سنة ١٨٩٢ ــ أى فى الثانية عشرة من عمره ــ فى وقت كان التلميذ لا يدخل المدرسـة فيـه الا والصقر يقف على عذبات شاربيه ! !

ولا ادرى كيف أوفق بين هذا المولد وحساسيته المرهفة فى أواخر أيامه من ناحية عمره ، ولقائه اياى وانصرافه عنى بوجه متجهم ، عندما قلت له مداعبـا فى الاحتفـال بعيد ميلاده الستين :

« ستين سنة ازاى يا الفة فصل امحوتب ؟ ؟
يا مداوى توت عنخ م الحصوة وذو القرنين ! !
ستين سنة ازاى ؟.. دنا قربت ع الخمسين
ون كنت خمسين انا «معاليك» تكون كام ؟ سن
فين جدول الضرب ؟ فين مسك الدفاتر فين
داسـجل مجـدك لوحـــده ينقرا قراية
فى اثنين وسبعين سنة وبلاش اقول ثمانين !!»

أكبر ظنى أن الابدال والاعلال جـرى عمدا على تاريخ ميلاده ، فقلب السبعة ثمانية ، وجعل التاريخ ١٨٨٠ بدلا من ١٨٧٠ ، التى يمكن أن تستقيم بها الامور ، كما يمكن ان نفسر بها كيف أن هذا الجسد الضامر النحيل لا يعيش غير سبعة وستين عاما ، وهو متحدر من اصلاب أبوين مات احدهما عن ٨٢ سنة ، ومات الآخر عن ٩٢ سنة

لقد رايت فى صباى على ابراهيم يقف على فراش مريض، يشبهه فى الجسد سمرة وضمورا وقلة ، وكان مصابا بخراج فى الكبد فى وقت كان هذا الخراج فيه بابا من أبواب الآخرة لا يؤوب منه الذاهبون ، وكان الأطباء قد نصحوه أن يسافر الى بلده ليقضى نحبه هناك ، فيقول له ضاحكا من عينه التى كانت تقطر عذوبة لمرضاه : « لا تبتئس بابنى ولا تسمع

لما يقولون ... ان مثلك ومثلي لا يموتون الا شيوخا أو بضرب الرصاص ! » وقد صدقت نبوءته فى هذا المريض كما كانت تصدق على الدوام ، فانفجر الخراج فى الرئة ، ونفذ قيحه الى الفم ، على وعثاء الطريق ، وعاش المريض حتى بكى على قبر على ابراهيم !

كان على ابراهيم فى بداية حياته الطبية سنة ١٩٠١ طبيبا مصريا فقيرا من مدرسة طبية منحلة ، اضطر أن يعيد دراسته وهو طبيب حتى يقوى على طراد عصر ، كانت نفس المواهب المصرية فيه توأد عمدا ، وكان نفوذ الطب الأجنبى يطغى فيه على الطب المصرى حتى يخنقه أو يكاد ... وانتصر على هذه الظروف جميعا ، وعاش حتى طب للملوك وأمراء ووزراء وزعماء ، واحصى ما اجراه من جراحات فى عياداته الخاصة بما يزيد على ٣٥٫٠٠٠ جراحة غير ما أجراه منها فى المستشفيات الحكومية ، وهو يفوق أضعاف هذه الآلاف ، واستطاع أن يحظى بثلاثة عشر وساما من بلاد أجنبية متعددة ، وأن ينال — دون تقدم لامتحان — أرقى ثلاثة مؤهلات فخرية من كبرى الدوائر الطبية فى مصر والعالم ، وأن يرقى سلالم المجد بمواهبه الشخصية ، وبعصا مصرية صميمة ، وبخطوات عبقرية جبارة — من طبيب أوبئة ، الى مدير مستشفى اقليمى ، الى رئيس للبعثة الطبية المصرية فى حرب البلقان ، الى مساعد جراح بمستشفى قصر العينى ، الى جراح به ، الى استاذ للجراحة فيه ، الى مدير له ، الى عميد لكلية الطب الى رئيس او عضو عامل فى حوالى عشرين جمعية أو معهد تسهم كلها فى ايقاظ الوعى القومى او الطبى أو الاقتصادى فى البلاد ، الى صديق شخصى لمئات من أكابر الجراحين فى العالم ، الى وزير للصحة ، الى مدير للجامعة التى خرج من أرحامها سنة ١٩٠١ بأجازة علمية تافهة ، طالما قادت فى ذلك العهد كثيرا من زملاء على ابراهيم الى القبر فى الكفن الرخيص

نعم ان الحظ طالما سطع نجمه فى حياة على ابراهيم ، وطالما اضاء له السفح فصعد على هداه .. لقد خدمته النهضة المصرية فى سنة ١٩١٩ ، والجهود التى بذلتها لتقويض دعائم النفوذ الأجنبى ، كما خدمه انتحار ناظر مدرســة الطب الانجليزى فى سنة ١٩٢٩ ، كما تلقى خدمات كثيرة من هذا النوع من نجمه المشرق اللماع ، سنرى بعض آثارها هنا وهناك فى تاريخه الطويل ... ولكن ما أكثر الذين يلمع الحظ فى حياتهم من الضعفاء ، فيعشيهم ضوءه لا يقودهم ، ويتركهم وراءه حيث كانوا يتساقطون حيرة وحسرة

الانسان الطبيب

ركب على ابراهيم فى مستهل حياته الطبية الحمار والقارب وغاص فى وحول الريف ، ومشى على قدميه تحت شمس الصعيد وعطش وجاع ، وخاض وباء الكوليرا سنة ١٩٠٢ وانتدب فى سنة ١٩٠٤ وهو مدير لمستشفى بنى سويف ليكافح وباء الحمى الفحمية فى طوخ . وبين مشاهد البؤس فى عياداته الخاصة يوم كان دخله منها لا يتجاوز ثمانين قرشا فى الشهر ، ومشاهد النعيم فيها يوم جاوز دخله آلاف الجنيهات ، ادرك على ابراهيم كنه الآلام البشرية ولم تكن غريبة عليه ، وقدر مرارة الثمار التى يزرعها المرض فى بيوت الفقراء ، فكان ـ قبل ان يكون طبيبا يتكسب ـ انسانا على الدوام

ففى الوقت الذى تقاضى فيه من السلطان حسين كامل الفا من الجنيهات الذهبية عن جراحة اجراها له ، لم يتقاض شيئا من موظف ارسل له خمسة جنيهات فى خطاب ، وقال له ان ابنته ووحيدته مريضة ، وانها فى حاجة الى جراحة ليس لها الا هو ، وانه غير قادر على أن يأجره بأكثر من هذا المبلغ التافه ، فان قبله فبها ، والا فليرده مشكورا ، ولكل مريض رب لا ينساه ... وقد رده اليه فعلا على ابراهيم ،

ولكن بعد أن أجرى الجراحة المطلوبة للفتاة ، وتكفل لهـا بأجر المستشفى وثمن الدواء

واكتظ المستشفى الاسرائيلى الذى كان على ابراهيم جراحه يوما ما ، بقصاده ، وتجاور فى غرفة واحدة منـه ثرى من أسرة الشواربى المعروفة ، وقاض من قضاة المحاكم المصرية ، واستأصل على ابراهيم فى نفس الوقت لكل منهما كلية مريضة ، وعندما برئا وأوشكا على الخروج ، طلب من الشواربى خمسمائة جنيه ، وطلب من القاضى الذى بدا عليه الذعر من فداحة الاتعاب ، أن يمر به فى عيـادته ، فاستعد القاضى لهذا اللقاء بمائتى جنيه معظمها قروض ، وبسط يده بما فيها قائلا : « هذا كل ما استطعت جمعه والأمر لك »

وسأله على ابراهيم : « كم مرتبك » ؟

فقال : « خمسة وأربعون جنيها ... »

قال : « اذن تدفع خمسة وأربعين ، وتعيش هذا الشهر محتميا ، فالحمية لمثلك من ذوى البدانة تفيد !! »

□

ان حياة على ابراهيم الطبيب والانسان والادارى كانت مسرحا لكثير من أمثال هذه المفارقات

وعندما قال شوقى فى تكريمه :

«يد ابراهيم لو جئت لها   بذبيح الطير عاد الطيرانا»
«لم تخط للناس يوما كفنا   انما خاطت بقـاء وكيانا»

ضحك على ابراهيم ضحكته الخرساء وقال : آه لو عرف شوقى أن قتلاى فى القطر كان يمكن أن يملؤوا مقـابر المجاورين !!

وقلت لشوقى ذلك فاختلجت عينـه كما كانت تختلج عندما يمرح وقال :

ـ لقد نسى أن يقول لك : لو اجتمع من احياهم فى صعيد واحد لكان منهم عاصمة جديدة للنيل ! !

ولما توسلت اليه يوما أن يجرى لى جراحة فى المخ تنقذنى من عذاب كافر طويل قال لى ببساطة ... اننى لم أجر هذه الجراحة فى حياتى قط ، ولا أريد أن تكون أول قتلاى فى هذا المجال !

فخره بأبيه الفلاح

وفى الوقت الذى بلغ فيه التفاخر بالأنساب والأحساب اشده وزراعة النخل الطويل على قبور الآباء المغمورين ، كان على ابراهيم لا يفتأ يفخر بأصـــله المتواضع ... بأبيـــه الحاج ابراهيم عطا الفلاح ، وبامه السيدة مبروكة خفاجى الاسكندرانية ، وباخواته من أمه ، واخوته من أبيه ، وكلهم فلاح وابن فلاح ، لا يضيق يوما بواحد منهم ، ولا يتنكر لواحد ، ولا يحاول وهو واقف على ربوة المجد أن يتحلل من فضل البرقع المقصب عليه ، وفضل الزعبوط الفضفاض ..

كانت صورة أمه تعلو مكتبه لآخر أيام حياته ، وكانت المرة الوحيدة التى ابتذل فيها دموعه يوم وفاتها ، وقـــد جعل مستشفاه الخاص فى شارع الصنافيرى ، بعد أن انتقل منه الى المستشفى الاسرائيلى ، مضيفة لاستقبال من يفد عليه من اقاربه هؤلاء ، واوصى أولاده على سرير الموت ألا يأخذوا مليما من غلة الأرض التى تركها لهم فى الريف ..

وقال لى الاستاذ الدكتور عبد الله الكاتب ـ الخليفة الحالى لعلى ابراهيم على عمادة الطب ـ ان هذه الناحية من حيـــاة على ابراهيم كانت تفضح أكثر من أى شىء عصاميته الفذة وشخصيته القوية ، وأنه ما أحترمه قط أكثر مما احترمه يوم أرسل له ـ وهو يعمل نائبا له فى قسم الجراحة بقصر العينى ـ فلاحا ومعه هذه الرسالة : « هذا زوج أختى فليكن له من رعايتك نصيب »

وكان على ابراهيم فى ادارته يرق احيانا حتى يستحيل الى اب ، ويقسو أحيانا حتى يستحيل الى طاغية ، ويقدم حتى يظن اقدامه حماقة ، وما هو الا ايمان الواثق من ثبات الأرض تحت قدميه . . . ويحجم حتى يخال احجامه جبنا ، واكثره انحناء للعاصفة حتى تمر وتفوت ، وكل هـــذه التصرفات المتناقضة كانت تترجم من معاصريه ومرءوسيه بطرق متعددة ، تختلف باختلاف عقليات وأهواء المترجمين ؛ ولكن ما من شك أن الوازع الاكبر لها كان ضخامة آماله للطب المصرى والأطباء المصريين ، وحرصه على الوصول الى أهدافه من أيسر طريق مهما تعرج وطال ، ولو تكلف لهـا شراسة النمر أحيانا ، أو نعومة الثعبان

دروس من المحن

ان المحن التى مرت عليه طوال حياته علمته الكثير

ونبوغه نفسه أعتقد أن قسطا كبيرا منــه كان تعويض النفس الكبيرة عن طفولة لم يكن نصــيبها من الســعادة بالنصيب الكبير

لقد عاش على ابراهيم وهو طفل مع والدته بالاسكندرية، وكانت على غير وفاق مع أبيه منذ حملت به ، ومع جدته لأمه وكانت كفيفة البصر . وكان لديها « زلعة » تختزن فيها ما كانت تدخر من ذهب ، فكانت الأم اذا احتاجت الى مال تآمرت مع الصبى على أن يأخذا من الزلعة مقدارا من القطع الذهبية ، ويضعان فى مكانها بعددها وحجمها قطعا فضية ؛ حتى لا ينفضح الأمر بالعد والاحصاء ، فاذا تيسر الحــال استبدلا من الفضة الذهب ، وكان الذى كان ما كان !

وعندما نال الابتدائية فى سنة ١٨٩٢ ، وكانت من أكبر المؤهلات لوظائف الحكومة فى تلك الايام، أراد أبوه أن يستحوذ عليه ، وأن يلحقه بوظيفة فى البريد ، وجاء ليأخذه من أمه

قسرا ، فحمل على ابراهيم ملابسه ، ومقدارا من المـال من أمه ـ ولعله من الزلعة ! ـ وقفز من سطح البيت الى أسطح الجيران فرارا من ابيه . وفى القاهرة دخل المدرسـة الخديوية بوساطة بعض اصحاب الجاه من زملاء المدرسـة الابتدائية فى راس التين

واراد كتشنر ـ سردار الجيش المصرى يومئذ ـ أن يختار ضباطا للجيش فى حملة السودان من تلاميذ المدارس الثانوية فى القاهرة ، فمر بها واحدة واحدة ، وعرض طلابها جميعا ، ليختار اقواهم جسدا ، وافرعهم طولا ، واشدهم قدرة على الكفاح ... فلما عرض طلاب الخديوية اخذ على ابراهيم يشب على امشاط قدميه ، ليلفت اليه نظر السردار ، الذى ضحك ضحكة العارف بما وراء هذا الطول المصطنع ، وهذا الجسد الضامر النحيل !!

لقد عاصر على ابراهيم وهو طفل ثورة عرابى على طغيان الدخلاء ، وضرب الاسطول الانجليزى للثغر الأعزل بالقنابل، وهاجر مع أمه من الاسكندرية فى جنح الليل هربا من النيران الماحقة ، والقذائف المدمرة ، والفوضى التى اجتاحت المدينة الثائرة من هذا الزلزال السياسى القاصم العنيف

وعاصر وهو شاب لؤم الاحتلال الانجليزى وهو يقتلع نبت الحرية من ضفاف النيل ، ويصبغ باللون الأحمر كل معالم الحضارة المصرية الخضراء كما عاصر جهاد مصطفى كامل ومحمد فريد ضد السرطان المتغلغل بقسوة فى أحشاء البلاد

وراى فى تلك الأيام وهو يعمل مديرا لمستشفى بنى سويف فى سنة ١٩٠٤ تحت اشراف مفتش الصحة الانجليزى ... رأى مسرح الجراحة بالمستشفى يستعمل طريقا مفتوحا لموردى اللحوم والخضراوات ... فثار على هذا الوضع ، وسد الباب الموصل الى المطبخ ، وهيأ لموردى الطعام طريقا مستقلا اليه ، ينقذ مسرح العمليات من الاوساخ والأقذار . فعد المفتش الانجليزى هذا الاجراء اعتداء على سلطانه ،

وعنف كل منهما على صاحبه ، ودفع على ابراهيم ثمن هذا العنف نفيا الى مستشفى أسوان ! !

وعاصر وهو كهل تمرد مصر على أغلالها الحديدية سنة ١٩١٩ ، كما عاصر محن السياسة الحزبية واعاصيرها على مصر فيما تلا ذلك من السنين حتى مات ، وكاد يحرق أصابعه على جمرها عندما رشح نفسه حزبيا لمجلس النواب الاول فى سنة ١٩٢٤ نائبا عن دائرة عابدين ، لولا أن الجمر لسعه فى الوقت المناسب ، فأجفل ، وابتعد فى الحال

وفى هذه المدرسة ذات الموج المتلاطم تعلم على ابراهيم أن السباحة مع التماسيح تغرير ، وأن الاحتيال على الأمور خليق أن ينيله من غاياته ما لا ينيله العنف وضرب الرءوس فى الجدران ... تعلم كيف ينحنى للعواصف ، وكيف يحاور ويداور ، وكيف يقدم ويحجم ، وكيف يظهر على المسرح عندما يثمر الظهور ، وكيف يختفى عندما يحس بوادر السخط على وجوه المتفرجين ...

عندما اراد أن يسافر الى السودان ليعالج الزعيم الدينى الكبير السيد على الميرغنى ، وكان كبار الاطباء الانجليز فى السودان قد اشفقوا من مغبة هذا العلاج ، تعلق به أولاده وهم صغار ليسافروا معه الى السودان ... فلم يعنفهم وقال لهم ببساطة : هلموا معى الى السودان !.. وصحبهم الى جروبى ، وملأ أفواههم حلوى ، وقال هـذا هو السودان !! ثم اعادهم الى البيت فرحين ، وتركهم نياما يحلمون بحلاوة السودان ، وذهب فاستقل القطار !!

وكانت هذه طريقته فى مواجهة المشاكل ...

مستشفى المنيل

ولما عجز اسلافه مديرو مستشفى القصر العينى الانجليز أكثر من مرة عن اغراء السلطات بانشاء مستشفى المنيل

الجديد (فؤاد الأول الجامعى سابقا) ووضع هذا المشروع على الرف ، وقيل يومئذ أن الملك السابق فؤاد كان يطمع فى أرض المستشفى ليقيم عليها قصرا لولى عهده فاروق ، لم يكد على ابراهيم يتولى عمادة الطب سنة ١٩٢٩ حتى راح يجاهد جهاده الخفى ، ويحتـــال ويجامل ، ويحرك الأحجار بلطف ، حتى أتيح له أن يحصل على الاعتمادات اللازمة لبناء المستشفى ، واصلاح الكلية كذلك ، جزءا جزءا ، واعتمادا وراء اعتماد ، وكلما فرغ من بناء ، بدأ فى آخر ووضع السلطات امام الأمر الواقع ، ولم تســتطع حتى ازمة ســنة ١٩٣٠ الطاحنــة أن تحول بينــه وبين الحصول على أكثر من مليــون من الجنيهات لانشاء الفى سرير فى هذا المستشفى الجديد

لقد كان يقضى حاجة كل وزير صاحب نفوذ فى الكلية بأسرع من البرق ، ولكن بعد أن يكون قد نال منه للكلية مزية أو حصل لها على اعتماد

ومن المتفق عليه ان عبقرية على ابراهيم ونجمه المتلألىء على الدوام ، وانفه الذى كان يشم العواصف والنسمات بحساسية البارومتر الدقيق ، يعود اليها أكثر الفضل فى تقويض نفوذ الطب الأجنبى الذى ســيطر بعد الاحتلال الانجليزى على هذه البلاد ، وانتشــال الطب المصرى من وهدة الذل والهوان التى كان يتردى فيها على أيدى اطباء غرباء ، من كل بقاع الارض ، لا يعلم الا الله من أين جاءوا ، ولا كيف تعلموا ، ولا بأى كفاية جمعوا ما جمعوا من كنوز

منافسته للأطباء الأجانب

عندما نقل على ابراهيم مديرا لمستشفى اسيوط سنة ١٩٠٤ وجد الأطباء الاجانب يحتلون مسقط الضــــوء ، ويحتكرون الطب فى اسيوط ، لهم وحدهم علاج السادة ،

وللاطبـــاء المصريين علاج الخدم ، لهم على المائدة ما لذ وطاب ، ولزملائهم المصريين النفاية والفتات .. ولبث على ابراهيم فترة يرقب الموقف ، ويكسب من عيادته ثمانين قرشا فلا يتململ ، حتى اذا سافر هؤلاء الأطباء فى الصيف انتهز الفرصة السانحة وشمر عن ساعديه ، ولكن أحـدا من كبار المرضى لم يأت، فاذا أتى فانما ليستشير ، ويؤجل الجراحة المطلوبة حتى يعود فلان أو علان ، وكان اليأس خليقا أن يجرفه ولكنه صمد ، وكانت هناك يومئذ بعثة اجنبية تبحث عن الآثار فى اسيوط ، فمرض رئيســـها بالتيفود ، فتطوع على ابراهيم لعلاجه حتى شفاه ، وبدأ البندول يتحرك نحوه ببطء ، وأخذت الظروف تواتيه ، فلم يلبث غير قليل حتى نافس الأطباء الأجانب على ثقة المرضى المصريين ، ثم بزهم ، ولم يترك أسيوط فى ســنة ١٩١١ ، الا وهو يكيل لهم بنفس مكيالهم القديم : يأكل ، ويلقى اليهم بالفتات !!

وتكررت المأساة بالقاهرة بعد أن نقل اليها مساعد جراح بمستشفى قصر العينى ، وكان قبوله لهذا النقل مجازفة يقامر فيها بدخل وصل الى ٥٠٠ جنيه شهريا فى أسيوط على مستقبل فى القاهرة غامض مجهول ...

ولكن أية مجازفة لم يكن يقدم عليها على ابراهيم ؟

لقد كان خوف الأطباء المصريين من الأطباء الاجانب فى القاهرة آخذا بالنواصى والرقاب ، وظل سنتين فملا يمص ابهامه فى عيادته الاولى بباب الشعرية ويعـــد الطير فى السماء ، ولكن سرعان ما واتته الظروف والتمع نجمه ، فأعلنت الحرب الأولى ، ونزح الى بلادهم كثير من الأطباء الانجليز ، فخلا له الجو ، وراح يصعد السلم على عصـاه المصرية ، بخطوات الفرعون الثاوى فى جسده النحيل .. ولم يصعد وحده فقد جر معه الى القمـــة سمعة الطب المصرى ، وكثيرا من أساطينه الحاضرين ...

وما هو الا قليل حتى كانت الثورة المصرية تقطف جنـاها الأول فى سنة ١٩٢٤ ، فتمكن لبلابل الدوح مكانا على أغصانه بين البوم والغربان ، ويصبح على ابراهيم أستاذا للجراحة فى كلية الطب بعد ان كان كرسى الاستاذية وقفا على الاجانب، مستحيل المنال على المصريين . ومنذ ذلك اليوم أخذ الدم المصرى يملأ شرايين كلية الطب على يد على ابراهيم

مصرى صميم

فى قامة على ابراهيم القصيرة ، وجسده الضامر ، ولونه الأسفع، وجبينه المريض، وعيونه الواسعة وشفاهه الفلاظ ، شيء ما كان يجعل الناظر اليه – دون أن يكون شاعرا – يتوهمه كما توهمه شوقى : طبيبا آيبا من طيبة ، يداه لا تزالان نديتين بالزعفران

ولكن أشد ما كان يوحى بانحداره رأسا من أصلاب الكهان فى طيبة ومنفيس تلك الأنامل العبقرية التى كانت ترفو الحياة بمهارة فنان ، وهذه الشخصية المبهمة الجبارة التى قهرت الأعاصير والزوابع بخبرة ملاح من ملاحى الأساطير

لقد حطمت هذه الأعاصير ما حطمت، واغرقت ما أغرقت، ثم انداحت فى النهاية عن مصر المتحررة من أسارها الطويل ، ومجموعة من العصاميين المصريين طفوا فوق العباب المتلاطم، بقوة السواعد وعمق الوطنية ، ونور الالهام ... وكان من أبرزهم دون شك الدكتور على ابراهيم

جبران خليل جبران



جبران خليل جبران

« كم عصر قلبه انكباب اخته على الوشي والتطريز لتستطيع أن تقوم باودها واوده . فكل شكة ابرة منها انما كانت تشك فى صدره وتخزه بوخزات الأسى والألم . . »

الفنان الخالد والأديب المبدع

بقلم الاستاذ عادل الغضبان

من الأودية العظيمة في شمال لبنان واد مهيب رائع عميق الغور بعيد القرار يسمى « قاديشا » أى الوادى المقدس ، قامت على جانبيه جبال عالية ضخمة تنوع أديمها بين الحجر الصلد المسنون الاطراف والريود وبين التربة الخصبة المكسوة بالغابات والكروم والخمائل تسقيها العيون المتفجرة من بطون الهضاب أو شلالات الماء المنحدرة من رؤوس الجبال الى ذلك الوادى المقدس فى دوى يأخذ بالمسامع والالباب ورشاش يتطاير فى الفضاء على أجنحة من ألوان الضياء

وعلى كتف من أكتاف الجبل الناهض فوق عدوة الوادى الغربية تناثر فى ثنايا الاشجار والمراعى عدد من البيوت المتواضعة وقد ألبست سطوحها بالآجر الاحمر وبدت لعين الرائى فى حلتها القرمزية حبات رمان متناثرة بين زبرجد الشجر وسندس الاعشاب

تلك المجموعة من المنازل تتألف منها قرية صغيرة من قرى لبنان الشمالى تدعى «بشرى» وفى تلك القريةالوديعة الغافية عند سفح غابات الأرز الخالد والمطلة على الوادى

---

* المراجع : « جبران خليل جبران » لميخائيل نعيمة • « رسالة المنبر الى الشرق العربى » لفلكس فارس • « رسائل جبران » تقديم جميل جبر• « كلمات جبران » جمع أنطونيوس بشير

المقدس تجثم عند أقدامها مواكب السحاب وتتوج فرعها نجوم السماء ولد جبران خليل جبران فى السادس من شهر ديسمبر سنة ١٨٨٣ ، فكان مولده فى قريته المتواضعة ميلاد لؤلؤة فى صدفة لن تلبث يد الزمن حتى تشق عنها الغلاف فيبهر حسنها البصائر والابصار

فى مدارج الجمال

نشأ الصبى جبران فى تلك البقعة الجميلة فوقعت عينه منها على مفاتن من الجمال واخذ من السحر ، تملت نفسه منها وافعم بها ذهنه الصغير وخاطره ، فكانت أول احتكاك بزناد العبقرية الكامن وراء نفس قدر الله لها أن تحلق يوما فى أجواء الفن والنبوغ

وترعرع الصبى جبران فى كنف اسرة لاتتميز بسبب من اسباب العلم والرقى والحضارة ولا تنعم بشيء من متع الغنى والثراء ، فانما هى اسرة فقيرة يتلمس فيها الأب رزقه ورزق عياله من التزام عد الغنم فى مدارج الجبال ومن تفتيت الصخور واستنباتها بعض الخضر والثمار . وكان من الطبيعى أن ينشأ الفتى مضطلعا بشؤون الغنم والماعز على غرار أبيه بل كان لابد له أن يحترف تلك المهنة التى نوى أبوه أن يدربه عليها ليستقل بها يوما ويكسب منها رزقه لولا أن الأقدار تداخلت فى مصير الفتى وأعدته لغير ذلك من المهن والحرف

كان الفقر مخيما على اسرة خليل جبران ، ولكنه الفقر الذى لا يتطاول الى الكرامة والوقار ولا يرقى الى الاستقامة ومكارم الاخلاق ، فلئن التقط رب الأسرة رزقه من شقوق الصخور وطيات الثرى ولمه من تحت اظلاف الأغنام والمعيز فانه كان يقدر نفسه حق قدرها وينزلها المنزلة الكريمة بين الاقارب والجيران ، فمهما ضاقت الدنيا فى وجهه ومهما نات به الحياة عن مباهجها ومهما تناول هو وأفراد أسرته الطعام

على خوان من الحصير المجدول ، فما بخل على طفله بالعلم يتلقاه فى مدرسة القرية

جبران الصبى

اختلف الصبى جبران الى مدرسة القرية حتى الحادية عشرة من عمره ، واستطاع فى خلال سنوات الحداثة ان يظفر بنصيب ضئيل من اللغتين العربيه والسريانية . وما من شك فى أن اختلافه الى المدرسة وتعلمه القراءة والكتابة وتفتح ذهنه الصغير لاستيعاب العلم كل هذا قد عمل على ابراز المواهب اللدنية فيه فنراه منذ نعومة أظفاره يميل الى الرسم والتصوير ، وانه لحدث عظيم عجيب فى قرية نائية عن العمران لم ينبغ فيها رسام ولا مصور بل لم يعرف بنوها ولا المدرسون فيها هذا الفن الجميل

وبرزت بوادر هذا الفن فى جبران الصغير يوم قدر له أن يكون موضع القصاص والعقاب لانه لم يحسن قراءة مثالية السريانية ، فيغضب قس المدرسة عليه ويحبسه فى قاعة الدرس ويفرض عليه أن يكتب المثالية عشر مرات تأديبا له وعقابا ولشد ما أسقط فى يد القس وأثار فى نفسه سورة من الغضب والرضى معا عندما وقعت عينه على دفتر جبران فرأى فيه أن الطفل لم يكتب القصاص المفروض عليه بل استعاض عنه برسم «شبه حمار نائم وعلى رأسه قلنسوة سوداء وفى أذنه الواحدة قد علق كتاب وفى الاخرى مخلاة»

لم يكن هذا الرسم هو اول ما رسم الصبى جبران ، فقد سبق له أن اعتمد على قطع من الفحم رسم بها على جدران المنزل أشكالا وصورا ثارت لها ثائرة أبيه فانهال على الطفل توبيخا وتقريعا ، غير اننا نستطيع ان نعد رسم الحمار المقدس الشرارة الاولى التى انطلقت من جذوة الفن الكامنة فى جوانحه وضلوعه فدلت على موهبة الله ، ولعل علماء النفس الذين يغوصون فى أعماق النفس البشرية ويصلون كبائر

الرجولة والكهولة بصغائر الطفولة والحداثة يرون فى ذلك الرسم البادرة الاولى التى حفزت جبران فى مستقبل الايام الى معاداة القسيسين وشن الحملات عليهم فى بعض مؤلفاته. ولعل علماء النفس اذا علموا أيضا أن الطفل جبران خرج وهو فى السادسة من عمره الى البرية يوم الجمعة الحزينة ليتعذب مع المسيح على حد قوله ثم عاد منها فى المساء بباقات الازهار والرياحين ليزين بها قبر السيد المسيح • اذا علموا هذا وعرفوا أن فكرة الألم والعذاب كانت مغروسة فى نفس جبران منذ طفولته سهل عليهم الكشف عن أغوار نفسه وتفسير صيحات الألم التى جأر بها طول حياته ..

مغامرة فى سبيل الرزق

ما أضيق الرزق ينقب عنه المرء فى طبق الارض وجلامد الصخور ، وما أشقى العزائم الكبيرة اذا حصرها القدر فى نطاق ضيق من ميادين الحياة ولقد أثر عن اللبنانيين أنهم قوم ذوو عزائم وهمم كبار تقسو الحياة عليهم فلا تلين قناتهم ولايدركهم فى قسوة الحياة ضعف ولا خور ، أثر عنهم كذلك وهم حفدة الفينيقيين حبهم لركوب البحر ومعاقرة الاسفار وعرفوا مع هذا وذاك بنفوس أبية تقدس الحرية ولا تستنيم للذل والهوان • ويشاء القدر أن يضيق الرزق بلبنان فى عهد المترجم له وأن توأد فيه الحرية وتنشر أعلام الظلم والاستبداد ، فهب فريق كبير منهم يركب غارب البحر سعيا وراء الرزق أو نشدانا للحرية

وحذت أسرة جبران حذو الالوف من الأسر فحزمت أمرها وشدت الرحال الى أمريكا وكانت الاسرة تتالف من جبران وأخيه الأكبر وشقيقتيه الصغيرتين وأمهم جميعا .. أما الوالد فبقى فى القرية يدبر شئون رزقه القليل

اختارت الأسرة مدينة « بسطن » فألقت فيها عصا التسيار ، وكان الأمل الباسم يضيء جوانح الأم فقد انقذت

بكرها وكان فى الثامنة عشرة من عمره من عمل يتصل برعى الغنم وحراثة الارض وأنقذت أخاه الصغير جبران، وكان فى الثانية عشرة من عمره ، من مصير لا يختلف عن هذا المصير ورجت أن يكون لهما ولشقيقتيهما متى بلغتا أشدهما مجال رحب فى العمل الكريم والحياة الهانئة• وقضى الفقر وضيق ذات اليد أن تحل الأسرة فى حى وضيع من أحيـاء بسطن فكان حى الصينيين

جهاد فى سبيل العلم

وينتظم الفتى جبران فى سلك احدى المدارس ويقبل على الارتشاف من مناهل العلم بنهم لا مزيد عليه، فتفتح له اللغة الانجليزية آفاقا جديدة من التفكير لا عهد له بها قبل ذلك الحين • وكان فى خلال الدراسة لا يفتأ يجيل قلمه راسما مصورا فيلقى من مدرس الرسم ضروبا من التشـــجيع والاعجاب ويقدمه الى رسام من كبار الرسامين فيعجب به ويلمح فى هذا الفتى الشرقى عبقرية متوارية لابد أن تنجلى يوما مشرقة وضاءة

ويعود الفتى جبران الى بيروت ليستكمل دراسته العربية ويقضى فى وطنه أربع سنوات ثم يرجـع بعدها الى بسطن وهو فى الربيع العشرين ليبدأ حياة الجهاد والكفاح وليتلقى ضربات الدهر واحدة تلو أخرى

لم تنقطع أمه «كاملة» ولا انقطع «بطرس» أخوه الاكبر عن العمل ليل نهار ليمكنا جبران من أسباب العلم وها هى ذى شقيقته الكبرى «مريانا» وشقيقته الصغرى «سلطانة» تنضمان الى العاملين وتقفان ابرتهما على انتزاع الرزق من أشداق القدر القاسى فى ذلك المزدحم الذى يمشى فيه القوى على هام الضــعفاء • فكم من مرة ناجت الأم ربها قائلة : « سبحانك اللهم أنترك قريتنا الهادئة الوادعة الى هــذا المصطخب المدوى بعزيف الجن ؟ أنهجر أهلنا وجيراننا وبنى

جلدتنا الى قوم غرباء عنا فى الجنس واللغة والعاطفة ؟ أندع بيتنا الجميل المتلألىء بأشعة الشمس تحف به الغابات والخمائل الى هذا الكهف المظلم المتداعى وهذه الأزقة الملتوية؟ فأى مغنم كان لنا من هجرتنا ؟ فنحن لا نزال فريسة الفقر وشظف العيش ، بل زادنا الزمن شقاء وبؤسا بهذا العمل المتواصل الذى يستنزف نور العين ودم الفؤاد وبهذه الادواء التى بدأت تنشب أظفارها فينا فرحماك ربى رحماك ... »

ثلاث كوارث !

رجع جبران الى بسطن فاذا داء السل قد اختطف شقيقته الصغرى منذ أيام فترنح من هول الفجيعة ، ولكنه تماسك وتمالك نفسه رحمة بأمه واشفاقا عليها ثم ما عتم القدر أن فجعه بعد زمن قصير بأمه وشقيقه الاكبر ذهبا ضحية ذلك الداء الوبيل فتقطعت نفسه حسرات واظلمت الدنيا فى عينيه وهاله أن يجر أثقال الحياة أسير الحزن والفقر، غير أنه سرعان ما ألم بنفسه المتضعضعة وسرعان ما أهابت به عزيمته الجبارة الى الجلاد والكفاح ومواجهة أحداث الزمان بالصبر الجميل والعمل المتواصل . وكان له فى شقيقته « مريانا » الأسوة الحسنة فقد أصبحت عائله الوحيد يتلقى رزقه من ثقب ابرتها الضيق ، فكم عصر قلبه انكبابها على الوشي والتطريز آناء الليل وأطراف النهار لتستطيع أن تقوم بأودها وأوده فكل شكة ابرة منها انما كانت تشك فى صدره وتخزه بوخزات الأسى والألم

فى ميدان الجهاد

كان الشاب جبران قد بدأ ينشر نفثاته فى الصحف العربية بعنوان « دمعة وابتسامة » فتلقى الرضى والاعجاب وتبقى عند حد الرضى والاعجاب لا توفر له ولشقيقته صبابة

من قوت . وكان في أثناء ذلك قد وطن النفس على التماس الرزق من نتاج ريشته فانصب يرسم ليل نهار على أمل أن يعرض رسومه في معرض عام لعله يبيع منها شيئا يدفع بثمنه عنه غائلة الفقر

عز على الاقدار أن ترأف بالشاب النشيط العامل وان تبدله من يأسه أملا ومن عسره يسرا ، فقد أخفق المعرض اخفاقا ذريعا واضمحلت معه الآمال الجسام ومر الزوار بالرسوم والالواح فما استرعت انتباههم ولا وجدوا في فنها ما يحملهم على شرائها وربما كانت مسحة الكآبة المتجلية فيها ورموزها الخفية سببا في اعراض القوم عنها

لا عجب أن يستوحي جبران الألم ويصوره في ألواحه فهل كانت حياته حتى ذلك اليوم الا كأسا من الآلام شربها حتى الثمالة . ان فجيعته بشقيقته الصغرى أولا أوحت اليه برسم لوح جعل عنوانه : « عودة الروح » وفجيعته بأمه وأخيه الأكبر ألهمته برسم لوح سماه «فوارة الألم» واضطرابه في محيط الحياة بلا سند ولا عون وتخبطه في اتجاهاتها تخبط الغريق أوحى اليه بصورة « رقصة الافكار » وقد جلا كل هذه المعاني في فن جديد يعتمد على الرمز ولا يحفل بالبيان والوضوح فكان علة الاخفاق

قد تكون الجدة في صور جبران علة اخفاقه فالناس أعداء لما جهلوا ، وقد تكون العلة اعتماد جبران على موهبته الاصيلة التي لم تصقل بالدرس والتهذيب وكأنما قد رق القدر لحال الفتى بعد اذ شهد عذابه وجهاده الطويل ورآه لم يبع صورة واحدة من صوره ، فدفع اليه في أخريات أيام المعرض بسيدة أمريكية تدعى « ماري هسكل » رئيسة مدرسة « مس هسكل » وصاحبتها وكانت على شيء من الدراية بالفن فأعجبت بفن جبران كل الاعجاب وابتاعت من ألواحه « عودة الروح » و « فوارة الألم » وازداد اعجابها بفنه لما شرح لها من معاني الرموز ودقائقها وحاضرها في الفن وروحه

ومراميه بلهجة فصيحة قوية مستمدة من قوى نفس تعتقد ما تقول وتعرب عنه أجمل اعراب ، فنعمت السيدة بكلامه ورفرفت روحها فى أجواء من الفن والروحانيـــة ودت لو أطالت فيها التدويم والتحليق فكانت زيارة هـذه السيدة للمعرض البسمة الاولى من فجر النجاح ...

جبران فى باريس

توثقت عرى الصداقة بين جبران ومارى هسكل فعرض الواحه في مدرستها وكان الفن محور الحديث بينهما يفيض جبران في وصف آياته وخوافيه وتنصت مارى هسكل اليه تعب من ذلك الينبوع المتدفق وتروى منه روحهــا الظامئة حتي اقترحت عليه يوما أن يسافر الى باريس ويتصل بزعماء الفن فى مدينة النور ويأخذ عنهم طرائقهم وخوافى فنونهم ويعود بعد ذلك مصقول الملكة وضاء العبقرية، فتبسم جبران ابتسامة حزينة فأنى له تحقيق تلك الأمنية الغالية وهو فقير معدم لا يكاد يكسب قوت يومه، ففهمت السيدة الامريكية معنى ابتسامتــه وهز الفن والخير أريحيتها فأغرته بالسفر ووعدته بأن تبعث اليه فى مطلع كل شهر بخمسة وسبعين دولارا يستعين بها على مواجهة الحياة بباريس ، فشكر لها يدها البيضاء وأنساه معروفها نكبة جـديدة حلت به وهي احتراق رسومه وألواحه كأنما قدر لهذا الشاب التعس أن يكون دائما أبدا حليف الرزايا والنكبـــات وأن لا يذوق جرعة من هناءة الا ممزوجة بصاب البؤس والشقاء.

وما هى الا أيام قلائل حتى كان جبران أحد سكان الحى اللاتينى بباريس وتلميذا من تلامذة معهد الفنون الجميلة ينهل من معين الفن ولا يرتوى

قضى جبران بباريس ثلاث سنوات لم ينقطع فى خلالها عن الدرس والتحصيل والوقوف على أسرار الفنون واستيعاب مذاهب الجهابذة الاعلام ممن طار لهم صيت جميل فى أجواء

الفنون ولم يكتف بما فى باريس من متاحف يقضى فيهـا الساعات الطوال من بياض نهاره فاحصا دارسا متأملا بل أراد أن يلم بروائع العواصم الاوربية فزار روما وبروكسل ولندن ووقف في متاحفها وقفة العابد المتخشع يتملى مما تقع عليه عينه من آيات يلألىء فيها وحى العبقرية فى سـماء الادهان والالوان أو فى تجاليد الصم الصلاب من الانصاب والتماثيل

ولم تكن حياة جبران بباريس وقفا على دراسة الفن بل كان للادب فيها نصيب كبير فطالما قضى سواد ليله منكبا على الكتابة والتاليف يسكب فى كؤوس الحروف روحه التى يسكبها مع طلاء صوره وألواحه

بين التصوير والادب

وكان جبران حتى ذلك العهد قد أصدر عدة كتب منهـا « الموسيقى » و « عرائس المروج » و « الارواح المتمردة » فضلا عن الفصول والمقالات التى كان ينشرها فى مختلف الصحف العربية فى الوطن العربى والمهجر ٠ وطالما رجع الى نفسه وفكر فى شأنه وتساءل أيطلب رزقه من شق القلم أم من لمة المنقاش ٠ لقد زاول الكتابة فما درت عليه بشىء وزاول التصـوير فما فتح له أبواب الرزق ٠ انه يهـوى التصوير مثلما يهوى الكتابة، أفحتم عليه أن يتخصص بأحد هذين الفنين ويهجر الآخر ؟ ترى أتسـعفه القريحة لو زاولهما معا أم تذهب بددا فلا يصيب فيهمـا الا نجـاحا ضئيلا ؟ كانت مثل هذه الاسئلة تراود فكره فلا يستطيع عنها جوابا فكلا الفنين حبيب الى نفسـه وكلا الفنين يغريه بمتع الوصال وكلا الفنين أوحى اليه بآثار جميلة فأيهما يهجر وأيهما يؤثر وهو الذى يقول فى رسالة بعث بها الى ابن عمه : « ٠٠٠ أنا أصرف حياتى بين الكتابة والتصوير

ولذتي في هذين الفنين تفوق كل لذة ...» على أن تفكيره في الانقطاع الى أحد الفنين لم يطل فقد صمم أن يخلص للحبيبين وأن يعيش لهما ويتخذهما أداة للتعبير عما يجيش في صدره من عاطفة متقدة ، فان كانت الالوان والاصباغ قد وفرت له أسلوب التعبير فالحبر والورق يهيبان به أيضا الى أن يجعلهما رسول الفكر الى العقول والقلوب . وفي ذلك يقول لابن عمه في نفس الرسالة التي أشرنا اليها : « ... ان هذه الشعلة التي تغذي عواطفي تريد أن تتخذ لها ثوبا من الحبر والورق»

ب

بقي جبران زمنا مشغول الفكر مقسم الفؤاد بين التصوير والكتـــابة حتى قدر له أن يزور يوما هو ونفر من زملائه المثال العظيم « رودان » أقبلوا عليه في مرسمه ومنحتـــه يسالونه ويأخذون عنه، فاستفاض الرجل يحدثهم عن الفن وأهله وعن أسراره وعباقرته وتطرق به الحديث الى الكلام عن « وليم بلايك » ذلك المتفنن العظيم والمصور الشاعر الذى اتخذ التصوير والشعر أداة يعرب بهما عن خلجات فكره ونبضات قلبه فكان في كليهما الامام المبرز

خرج جبران من لدن « رودان » والدنيا لا تسعه من شدة الفرح فقد نزل كلام الاستاذ بردا وســلاما على فؤاده فلا حيرة بعد اليوم ولا تردد، فلسوف يظل يكتب ويصور ولسوف يكون له من « وليم بلايك » القدوة الحسنة والمثال الجميل

ولكن سرعان ما شاب هذه الفرحة حزن جديد ، كأنما الفرح أمر محرم على هذا الفتى الا اذا تحلب بعصارة البؤس والألم ، فما أن يشعر بانطلاق أجنحته في عالم الفن مصورا وكاتبا ، حتى يفاجئه القـــدر القاسي بنعي والده فيشرب لوعته وينثني على قلبه الدامي المفجوع بأمه وأخيه وشقيقته الصغرى ، فاذا هو في غشاء من نبال ــ كما يقول المتنبي ــ

واذا نصل الفجيعة بأبيه يتكسر فى فؤاده على النصال السابقات

عزيمة تتغلب على النكبات

قفل جبران عائدا الى بسطن بعد أن تزود بخير زاد من الفنون الاوربية وآدابها ومكث فى هذه المدينة نحوا من اثنى عشر شهرا فريسة البرم والتأفف وضيق الحال ، وكانت الذكريات السود ماثلة لعينيه وفؤاده كلما أجال طرفه فى ذلك المنزل التاعس وذكر أحبابه الذين صرعهم فيه داء السل،فخرجوا منه الى سكنى المقابر والاجداث.وكان يزيد نفسه ألما وعذابا أنه لا يزال وهو فى الثامنة والعشرين من عمره عالة على شقيقته وعلى المحسنة الامريكية ماري هسكل فيثور فى وجه القدر ثورة دفينة تقطع نياط قلبه يأسا وتعذيبا ويهتف بنفسه قائلا : « شربت كأس البؤس حتى الثمالة وفجعنى الدهر بأعز الناس الى وذقت مرارة الغربة ورضيت بالاحسان أنهله من كف شقيقتى العاملة ويد السيدة الامريكية الخيرة،ونذرت نفسي للفن وبلغت فيه مقاما أغبط عليه وعملت منذ صباى ليل نهار ولما أظفر بفتات من موائد الفوز ، فحتام هذه الحرب أيها الدهر الغليظ الكبد »

على أن المصائب والنكبات ماكانت لتفت في عضده وانما كانت تشحذ عزمه وتزيده قوة وجلدا على الجهاد والكفاح وفى هذا يفتح صدره لابن عمه ويقول له فى احدى رسائله:

« تأمل قليلا يا نخلة بحياة جبران ترها نوعا من الجهاد والنزاع بل هي شبيهة بسلسلة مصائب آخذة حلقاتها بعضها برقاب البعض . أقول هذا وأنا صابر متجلد ، بل فرح بوجود المصاعب فى حياتى لاننى أرجو وأريد أن أتغلب عليها اذ لولا المصاعب لما وجد الجهاد والعمل ولكانت الحياة قفراء باردة مملة »

ومهما أوتى الانسان من قوة الصبر والعزيمة وقوة

النضال والجهاد فقد يضعف أحيانا ازاء النكبات المتواليـة ويدفعه الاخفاق فى الحياة الى تلمس مواضع علل الاخفاق الذى منى به فى صدر حياته فبدت له فى قسوة الغربة عن وطنه الارضى ووطنه الروحانى. وأعرب عن تلك الغربة فى احدى كلماته فقال :

« أنا غريب وفي الغربة وحدة قاسية ووحشة موجعة غير أنها تجعلنى أفكر أبدا بوطن سحرى لا أعرفه وتملأ أحلامى بأشباح أرض قصية ما رأتها عينى

أنا غريب عن نفسى فاذا ما سمعت لسانى متكلما تستغرب أذني صوتى

أنا غريب عن جسدى وكلما وقفت أمام المرآة أرى فى وجهى ما لا تشعر به نفسى وأجد فى عينى ما لا تكنه أعماقى

أنا غريب وليس فى الوجود من يعرف لغة نفسى

أنا شاعر أنظم ما تنثره الحياة وأنثر ما تنظمه ولهذا انا غريب وسأبقى غريبا حتى تخطفنى المنـــايا وتحملنى الى وطنى »

رأى جبران أن مدينة بسطن تقسو عليه بذكرياتها الاليمة وتضيق فى وجهه مجال المعاش فهجرها الى نيويورك لعله يجد فى مجاليها الفساح تحقيق ما يصبو اليه من الآمال

كان الرجل صاحب آمال وأحلام وهو القائل فى احـدى كلماته : « أفضل أن أكون أحقر الناس ولى أحلام أرغب فى تحقيقها من أن أكون أعظمهم ولكن بدون أحلام ولا رغبة »

ضرب فى نيويورك مع الضاربين فى مناكب الرزق وعاش فيها نحوا من تسعة عشر عاما يقدس العمـــل ولا شيء غير العمل . وتلك خلة اثرت عن الامريكيين فالوقت عندهم أثمن شيء فى الحياة كما أن العمل هو أقدس مقدسـاتها ولقيت تلك الخلة من فؤاد جبران هوى حبيبا فأقبل على العمـــل لا تأخذه فيه ونية ولا هوادة

وفلسفة جبران فى حب العمل وتقديسه بارزة فى متنوع

آثاره فلنجتزىء منها بأثرين اثنين ، أولهما فقرة من رسالة كتبها الى ابن عمه بلبنان يقول فيها :

« أنا أحب العمل يا نخلة ولا أدع دقيقة من وقتى تمر بلا عمل . أما الايام التى تكون فيها نفسى راقدة وفكرتى خاملة فهى أمر عندى من العلقم وأشد قساوة من نياب الذئاب »

وثانيهما قوله عن العمل :

« ان العمل هو الصورة الظاهرة للمحبة الكاملة فاذا لم تقدر أن تشتغل بمحبة وكنت متضجرا ملولا فالاجدر بك أن تترك عملك وتجلس على درجات الهيكل تلتمس صدقة من العملة المشتغلين بفرح وطمأنينة لانك اذا خبزت خبزا وأنت لا تجد لك لذة فى عملك فانما أنت تخبز خبزا علقما لا يشبع سوى نصف مجاعة الانسان وان أنت أنشدت أناشيد الملائكة ولم تحب أن تكون منشدا فانما أنت تصم آذان الناس عن الاصغاء الى أناشيد الليل وأناشيد النهار »

ذلك رأى من يحب العمل ويقدسه فاذا حالت دونه يوما عقبة من العقبات أو علة من العلل ملأ الاسف صدره وصاح مثل هذه الصيحة التى بثها جبران صديقه الحميم ميخائيل نعيمة فى احدى رسائله اليه قائلا :

« أنا فى هذه الايام بين ألف عمل وعمل مثل نحلة مريضة فى حديقة أزهار . ما أكثر العسل وما أجمل أشعة الشمس على الازهار . ولكن النحلة مريضة مشوشة . صل من أجلى واكتسب أجرى ... »

انتصار ونجاح

عمل جبران وكافح وطالع الناس بأفكاره الجديدة مبثوثة فى كتبه ومقالاته وبفنه الجديد متألقا فى ألواح صوره حتى قهر الزمن وفرض نفسه على عصره وجيله فطارت له شهرة فى التصوير فأقبلت عليه الدنيا وذاع له صيت فى الفلسفة والادب فلفت اليه الانظار والقلوب

وكان صـاحب رسالة بثها الناس بصوره فاستوعبتها الخاصة من أهل الشرق والغرب على السواء فلغة التصوير لغة عالمية لا تستعصى على فهم الحاذقين من عشاق هذا الفن وعارفيه مهما اختلفوا مواطن وبلادا ، وقام كذلك يبث الناس رسالته فى أدب جديد أطلع على الشرق العربى فجرا جديدا زاهر الاشعة واللآلاء وكان قوام ذلك الادب الجديد الغوص فى اعماق النفس وتطويع اللفظ للفـكرة المثمرة والعاطفة المتقدة ، ثم شاء جبران ان يكون رسول الشرق الى الغرب يحمل اليه كنوز الحكمة الشرقيـــة وذخائر الفكر العربى فكتب باللغة الانجليزية عدة كتب منها «المجنون» و «السابق» و « النبى » و « رمل وزبد » و « آلهة الارض » فغزا نفوس اهل الغـــرب وحملهم على ان يتطلعوا الى الشرق ويكبروا شان عباقرته. وكثيرا ما زين جبران كتبه برسومه فاجتمع فيها قلم الاديب وريشة المصور فدرت عليه تلك الكتب مالا وافرا استطاع به وبما كان يكسبه من الواح صوره أن يطأ بقدميه الفقر وينعم هو وشقيقته بحياة هانئة ميســـورة وتصل ثروته الى نحو من مئة الف دولار وهى ثروة ما حلم بها فى عهده ولا بعد عهده كاتب ولا مصور من كتاب هـذا الشرق او مصوريه وانها لثمرة الجهد والعمل وجزاء المثابرة

ذلك الصبى القروى المولود فى قرية متواضعة من قرى لبنان يصبح بجده واجتهاده وعمله المتواصل وصبره على مقارعة الاحداث علما من اعـلام الفن والادب يلهج بذكره. المشرق والمغرب وينزلانه فى الذروة من مساحب النجوم

وليست هذه العجالة دراسة لفنه وأدبه حتى نمضى فيهما باحثين متقصين معللين وانما هى ضربة منقاش تحـاول أن تصور لنا العصامية كيف تكون والعمـــل كيف يقـدس والعزيمة الجبارة كيف تاكل نيرانها وقود المصاعب والمصائب فى هذه الحياة

واذا نحن تجاوزنا عن الدراسة المستفيضة نعرض بهـا

أدب جبران وفنه في عالمى الادب والتصوير ، فلا اقل من أن نحلى هذه الترجمة ببعض أقوال العظماء فيه

قال الكاتب الامريكى الكبير « برزباين » وهو من هو :

« لو كنت من المؤمنين برجوع المسيح الى الارض مرة اخرى لأيقنت أنه عاد بشخص جبران خليل جبران »

وقال الزعيم الدينى « فرنكل » عن كتاب « النبى » :

« أعترف أنه لم يسبق لى قط أن تحركت نفسى من أعماقها كما تحركت بعد أن تلوت كتاب النبى مرات كثيرة »

ولئن كان للنحات الفرنسى العظيم « روادان » فضل القضاء على تردد جبران يوم حاضره عن « وليم بلايك » انه نظر بعين الفاحص الخبير الى هذا العبقرى الشرقى فقال عنه :

« يجب أن يتوقع العالم شيئا كبيرا من جبران شاعر لبنان ونابغته فهو وليم بلايك القرن العشرين »

ومع هذا كله فجبران فيما رسم ونثر ونظم وفيما جاء به من بدائع وروائع لم يكن راضيا عن نفسه لانه رأى أعماله دون الكمال الذى سعت اليه نفسه الكبيرة ، وهكذا العظماء يأتون بالنفائس بل بالمعجزات ويرونها مع ذلك أبعد ماتكون عن الكمال الذى ينشدونه وتتطلع اليه نفوسهم · وجبران واحد من هؤلاء العظماء المغرمين بالمثال الأعلى فقد عرض لآثار قلمه وريشته في عددها وروعتها فوجدها ضئيلة صغيرة لا تصور الشعلة المقدسة التى تضطرم بها جوانحه وفى هذا يقول فى رسالة بعث بها الى الآنسة مى :

« أنا يا مى بركان صغير سدت فوهته ، فلو تمكنت اليوم من كتابة شىء كبير أو جميل لشفيت تماما ··· لا تقولى لى : أنشدت كثيرا ، وما أنشدته كان حسنا ، لا تذكرى أعمالى الماضية لان ذكرها يؤلمنى لان تفاهتها تحول دمى الى نار محرقة ··· لقد ولدت وعشت لأضع كتابا ــ كتابا واحدا صغيرا ــ لا أكثر ولا أقل ، قد ولدت وعشت وتالمت لأقول كلمة واحدة مجنحة ، ولكننى لم أصبر ، لم أبق صامتا حتى

تلفظ الحياة تلك الكلمة بشفتى . لم أفعل ذلك بل كنت ثرثارا فيا للأسف ويا للخجل وبقيت ثرثارا حتى أنهكت الثرثرة قواى . وعندما صرت قادرا على لفظ أول حرف من كلمتى وجدتنى ملقى على ظهرى وفى فمى حجر صلد ...»

ذاك تقدير نفسه الكبيرة الظامئة الى ينابيع الكمال فى الفردوس السرمدى..على أن للعبقرية تقديرا اخر كله رضى وانصاف واعجاب فقد كتبته فى سفر الخلود وقالت فيه ان جبران قال كلمته وأدى الرسالة ...

وفى ليل اليوم العاشر من شهر أبريل سنة ١٩٣١ استرد الله وديعته فى مستشفى القديس منصور بنيويورك وسكنت حركة النسر بعد طول التدويم والتحليق وعادوا به بعد أشهر قلائل الى لبنان الذى طالما حن اليه فاستقبلت بيروت جثمانه استقبالا ما عرفه الغزاة الفاتحون وسارت وراء نعشه الى مسقط رأسه أرتال من السيارات سدت الطرق والشعاب بين العاصمة وبشرى ، وأودع دير مار سركيس المطل على الوادى المقدس ...

واحتفل القوم بعودة النسر احتفالا امتزجت فيه عبرات الحزن ودموع الفخر ، فمن يزر تلك البقعة اليوم يهده أهلها الى متحف جبران وقد زخر بآثاره الفنية والادوات التى كان يستعملها فى الكتابة والتصوير الى المنضدة التى كان يجلس اليها والمقعد الذى يقيل فيه ثم يسيرون به الى ضريح جبران فى خشوع ووقار ولقد حملهم الزهو والخيلاء الى أن يكتبوا على الضريح يوم أقاموه : « هنا يرقد نبينا جبران » فعدلوا بعد ذلك عن الغلو فى الفخر الى الغلو فى المحبة ونقشوا على الضريح :

« هنا يرقد بيننا جبران ١٩٣١ »

سليم تقلا



سليم تقلا

الصحافي العصامي الذي عانى المتاعب والاهوال وواجه الكساد والاضطهاد بعزيمة صادقة وايمان ، حتى تحقق ما كان ينشده من نجاح وبلغ ما كان يسعى اليه من اهداف

الصحافى العصامى

هو عصامى فى الصحافة المصرية ، اسس جريدة الاهرام فى وقت لا يعرف سواد الجمهور من الجرائد اليومية الا اسمها ، ولا تسمح الحكومة بالاذن بنشرها الا بعد تردد طويل ، فمكث عاما كاملا يسعى فى الحصول على امتياز الجريدة حتى سمحت الحكومة المصرية بامتياز جريدة الاهرام سنة ١٨٧٥

وليس جهاده فى ذلك الحين للحصول على امتياز الاهرام هو الجانب الوحيد من متاعبه وعصاميته ، بل لقد لاقى فى سبيل الوصول الى غايته من انشاء جريدة ناجحة صعوبات جمة

ولقد عانى الكساد والاضطهاد والأزمات المالية ، وسهر الليالى الطوال ، بل تحمل السنوات العجاف التى لا تدر ربحا فى الاعمال الصحافية ، ولا تثمر غير الخسائر المادية ، ولم يكن عنده من الوسائل ما يخفف عنه من تلك الصعاب ، ولم يكن له من معين غير شقيقه بشارة تقلا الذى كان يتولى اعمالها الادارية . ومع ذلك فقد كان سليم تقلا يعمل أعمال عدد من الموظفين والعمال فى الشؤون التحريرية والادارية

ولقد هوى الصحافة منذ نزل مصر ، ولم يكن من قبل صحافيا ، بل كان مدرسا رقيق الحال ، تعلم فى مدارس لبنان ، وكان لا يجد نفقات التعليم ، فاخذ يستعين عليها بما كان يقوم به من أعمال فى ساعات الفراغ

فى كفر شيما

ولد سليم تقلا فى أواسط سنة ١٨٤٩ بقرية فى سفح لبنان تدعى « كفر شيما » نبغ فيهـا جماعة من العلماء والادباء فى الشرق العربى ، منهم المرحوم الشيـخ ناصيف اليـازجى ، والشيـخ ابراهيم اليازجى والشيـخ خليـل اليازجى ، والمرحوم أمين شميل وشقيقه الدكتور شبلى شميل وغيرهم من الأدباء والعلماء والأطباء والشعراء

وقد تلقى سليم تقلا مبـادىء العلوم فى مدرسـة تلك القرية ، ثم انتقل منها الى مدرسة عبية بلبنان ، ولـكن هذه المدرسة لم تكن تقبل فى صفوفها من كان دون الخامسة عشرة من عمره ، فاستنجـد والده الدكتـور فان ديك ، فأنجده وتوسط فى ادخاله ، فقبلته المدرسة وتجاوزت عن صغر سنه لما توسمته من نجابته ، وحسن استعداده ، فأقام فى هذه المدرسة يتلقى علومهـا ومعارفها ، وأعجب أساتذته بتوقد ذهنه ، وجمال اخلاقه ، وحسن سـيرته وعظم نشاطه فى الاهتمام بدروسه ، ومنافسته لأقرانه

ولقد بقى مثابرا فى مدرسة عبية على اجتهاده ونشاطه حتى وقعت ثورة سنة ١٨٦٠ فى ربوع الشام ضد استبداد الأتراك بالحكم واضطهادهم للأحرار ، فاتصل لهيبها بعبية وما جاورها ، فبرح سليم المدرسة ، وهاجر الى بيروت ، ودخل « المدرسة الوطنية » وسنه وقتئذ أحد عشر عاما

وكانت المدرسـة الوطنيـة قد انشأها المرحوم بطرس البستانى الأديب اللبنانى الكبير ، فعكف فيها على الدرس والتعليم حتى أتم دروسه ، وكان اثناء وجوده بها يشتغل فى ساعات فراغه ليستعين بذلك على نفقات التعليم

مدرس فى مدرسة

وبعد ان حصل على اجازة هذه المدرسة عين استاذا فى

المدرسة البطريركية ببيروت . وقد كان فى هـذه المدرسة يعلم ما أتقنه ، ويتقن ما فاته من العلوم خصوصـا العلوم العربية ، التى كان يتلقاها على الشيخ ناصيف اليازجى ، الذى كان من أساتذة تلك المدرسة . ولقد كان يعتمد عليه الشيخ ناصيف كثيرا فى شرح بعض الدروس على طلبتـه دلالة على ثقته به ، واعجابا بذكائه وسمو مداركه

ولم تمض مدة طويلة على تدريسه فى المدرسة البطريركية حتى صار وكيل أعمالها ، ومدير شؤونها . وقد الف فى اثناء ذلك كتابا فى النحو والصرف على اسلوب مبتكر طبع ونشر . وكان الاعتماد عليـه فيما بعد فى تدريس هذين العلمين فى المدرسة البطريركية

وكان سليم تقلا طموحا ميالا الى الرقى والتقدم ، فلما وجد نفسه قد وصل الى غايته فى مهنة التدريس ، تاقت نفسـه الى الاشتغال بالـكتابة والأدب ، ورغب فى انشاء صحيفة ادبية وسياسية لتروى ميوله الخاصة

الاهرام الاسبوعية

وكانت مصر فى أواخر القرن التاسع عشر قد نشطت فيها حركة أدبية ، وانشئت بها عدة مجلات محدودة كان البعض منها حكوميا ، والبعض الآخر تشجعه الحـكومة ، فلاح له أن يرحل الى مصر ، فنزلها سنة ١٨٧٤ واتصل برجال حكومتها واهل الفضل والأدب والعلم فيها . واعتزم أن ينشىء جريدة عربية . وكانت الجرائد كما قلنا لا يعرف سواد الجمهور منها الا اسمهـا ، وليست من المشروعات المربحة ، ولكنه على الرغم من ذلك اخذ يسعى ويتردد بين مصر والاسكندرية سنة كاملة للحصول على امتياز جريدة حتى سمحت له الحكومة بامتياز جريدة الاهرام ، فأصدرها أسبوعية بمدينة الاسكندرية ، ولم يستطع اصدارها يومية الا بعد سنوات !

اصدر سليم تقلا الاهرام اسبوعية ، ولم يكن لديه من معدات التحرير والتحبير والنشر والطبع الا ما فطر عليه من الثبات وحسن التصرف والاستقامة ، وما اكتسبه من العلم والاختبار مع شيء يسير من المعدات المادية ، فقاسى فى سبيل نشر الاهرام مشقات كبيرة ، ولكنه ذلل كل تلك الصعاب بالصبر والمثابرة ، فضلا عما كان يلاقيه أصحاب الجرائد فى ذلك الحين من استهجان الناس للصحافة وقلة عنايتهم بالقراءة والاقبال على تثقيف أنفسهم وذويهم ، واهمالهم لتتبع الحوادث وما ينبغى ان يعرفه الانسان من تاريخ حياته اليومية ، وما يجب عليه من تثقيف مداركه ومسايرته للتطور الحديث. ولقد قال سليم تقلا مرة لأحد اصدقائه :

« انشأت الاهرام وانا عالم بما يحول دون نشرها من المصاعب ، فكنت أقضى النهار والليل عاملا بدنا وعقلا ، وكنت احررها واديرها ، والاحظ عمالها ، واتولى معظم اعمالها مما يقوم به الآن عشرة من الموظفين »

الاهرام اليومية

بقيت جريدة الاهرام فى الاسكندرية تصدر اسبوعية ، ثم رأى مؤسسها ان يصدر جريدة يومية سماها صدى الاهرام ، فلاقى من المتاعب فى اصدار هذه الجريدة اضعاف ما لاقى فى اصدار جريدة الاهرام . ومما يحكى عنه انه لما اصدر صدى الاهرام اليومية طبع من عددها الاول اربعة آلاف نسخة ، وزعها على نخبة من اهل القطر واعيانه وشخصياته كجارى العادة فى الجرائد فى ذلك الحين عند اول صدورها ، فرجعت اليه الا عشرات منها . على أن ذلك لم يثن من عزمه ، بل واظب على اصدارها ، حتى وقع الخلاف بينه وبين الخديو اسماعيل ، واستاء هذا الخديو من أخبار نشرها عن سياسته ، فأمر بوقف جريدته وسجنه ومصادرة مطبعته ، ثم شفع له بعض ذوى النفوذ عند الخديو ، فعفى

عنه وعن صحيفتيه ، فعاود اصدار صحيفة ثالثة سماها « الوقت ». ولكنها لم تعش طويلا ، فاكتفى بالاهرام اليومية

وما زال سليم تقلا يصدر جريدته الاهرام بالاسكندرية حتى كانت الحوادث العرابية سنة ١٨٨٢ فاضطر الى المهاجرة الى سورية كما فعل غيره من النزلاء غير المصريين . فلما احرقت الاسكندرية أصابت النيران مطبعة الاهرام بالمنشية فاحرقت كثيرا من اعماله وكتاباته ومؤلفاته . ولما انقشعت غياهب الثورة عاد الى الاسكندرية واعاد نشر الاهرام

وفى سنة ١٨٩١ سافر الى فرنسا فزار عاصمتها ، وكثيرا من مدنها وكان يكاتب الاهرام منها ، وفى السنة التالية سنة ١٨٩٢ اصيب بألم فى القلب ، فأشار عليه الأطباء بالسفر الى لبنان لتغيير الهواء فسافر إليه ، ولكنه لم يلبث أن توفى ولم يخلف ذرية

الصحافى الأديب

وكان رحمه الله كاتبا مخلصا وأديبا مسالما ، وديع النفس ، كريم الاخلاق . وقد استكتب فى جريدته كبار العلماء والأدباء المشهورين من امثال الشيخ محمد عبده وغيره

وكان رائع التنظيم لصحيفته حتى امتازت على الصحف اليومية الاخرى بحسن تنظيمها وعنايتها بالبرقيات الخارجية ، والاخبار الداخلية ، وكان ينتخب البرقيات الهامة ، فيجعل لها الصدارة

ولما اصدر الاهرام يومية سنة ١٨٨١ اذاع سليم تقلا مبادئها وخطتها وهي تتلخص فى انه سيرفع منها ألقاب التمجيد والتقريظ مثل : « الوطني النزيه » ، و « الهمام النبيه » و « الشريف الوجيه » وما الى ذلك من الالفاظ . وسيكتفى بالرتب الرسمية

وقد قرر أن يلحق بذيل الصحيفة ترجمة طيبة لناحية

من نواحى الأدب الرفيع فى التراجم والقصص ، ثم مضى يعيد نشر هذا فى كتب تصدر عن الاهرام ، وتباع للناس ، فساهم بتعريبه الكتب ونشرها فى اذاعة لون من الوان الثقافة العامة كانت مصر وسائر بلاد الشرق فى أشد الحاجة اليه . وخصص يوما من ايام الاهرام لمراجعة النشاط الاقتصادى فى مصر ومعالجة الامور المالية معالجة قدمت محررها فى هذه الناحية على جميع محررى عصره . وأفرد فى الاهرام جزءا لنشر انباء الشرق الأدنى وشرح مختلف نشاطه العلمى والأدبى والسياسى

ولم يكن سليم تقلا صحافيا أو سياسيا فحسب ، بل اديبا وشاعرا ايضا . وهو القائل فى الأساطيل الحربية :

تلك الأساطيل فوق الغمر سابحة
والغمر منها كسهل ، وهى كالقلل

دانت لهيبتها الأنواء خاضعة
فحيثما قصدت حلت بلا مهل

وله فى الدعابة شعر لطيف ، قال فى التدخين :

عذل التدخين قوم قد رأوا
بيدى سيكارة أعشقها

قال دعها ، فهى سم ناقع
قلت لا والله لا اعتقها

ان تكن سما فانى محرق
شرها بالنار اذ أحرقها

وعليه فاعذلوا أو فاعذروا
فعلى الحالين لا أطلقها

(ط ١٠)

حافظ ابراهیم



حافظ ابراهيم

شاء القدر ان يبدأ « شاعر النيل » مواجهة الاحداث ومقارعة الخطوب
وهو لم يتجاوز العام الرابع من عمره ، فقد ذاق فى طفولته وشبابه ما ذاق
من بؤس وصعوبات وتشريد

شاعر النيل

نشأ حافظ ابراهيم فى بيئة شعبية يتيما فقيرا ، وذاق فى طفولته وشبابه ما ذاق من بؤس وصعوبات وتشريد

كان ابوه ابراهيم فهمى أحد المهندسين الموظفين بالحكومة المصرية ، وهو مصرى صميم ، ذو دخل محدود . وكانت امه السيدة هانم احمد البورصه لى من أسرة تركية تسكن المغربلين ، وهو حى شعبى بالقـاهرة . وتعرف بأسرة الصروان ، اذ كان والده امين الصرة فى الحج ، فلقب بالصروان اى (القيم على الصرة) . ولقبت الأسرة به

ومع أن الدم التركى كان يجرى فى عروق حافظ ابراهيم كالدم المصرى الا انه لم يمدح الأتراك كما مدح مصر والعرب. وكان أبوه وقت ولادته مشرفا على بناء قناطر ديروط ، وقد انتقل اليها هو وزوجته . وهناك سفينة راسية على شاطىء النيل فى أقصى الصعيد ولد شاعر النيل ، وتفتحت عينـاه أول ما تفتحت على صفحـاته الخمرية الجارية . واستنشق النسـمات الاولى من نسـماته العاطرة التى تتهادى على ضفتيه ، وثمر بين مروجه الخضراء ، ورياضة المخضلة الحسناء

طفولة بائسة

وشاء القدر ان يبدأ حافظ ابراهيم مواجهة الأحداث ، ومقارعة الخطوب ، وهو لم يجاوز العام الرابع من عمره ، فقد توفى أبوه فى ديروط ، ولم يخلف له مالا ولا جاها ، ولم

يترك له الا اليتم والعــدم المريرين وهو فى هــذه السن الغضة ، فاضطرت امه الى الانتقال به الى القاهرة ، حيث التجأت الى أخيها « محمد نيازى » وعاشت هى وولدها اليتيم المسكين فى كنفــه . ولا شك فى أن مؤونتهما كانت واجبا اثقله اداؤه ، اذ كان هو الآخر موظفا صغيرا ، يعمل مهندسا للتنظيم

وكان على خاله هذا أن يعلمه حين بلغ السن التى تؤهله لبدء الدراسة ، فلم يسعه الا أن الحقه بمكتب لتعليم القراءة والـكتابة وشيء من العربية والحساب كان فى حي القلعة بالقاهرة حينذاك ، ويعرف باسم « المدرسة الخيرية »

ومن هــذا المــكتب ، أو « الكتاب » الاولى المتواضع البسيط ، انتقل حافظ الى «مدرسة القربية الابتدائية» . وكانت فى ذلك الحين تعـلم تلاميــذها ما يتعلمه تلاميــذ « الـكتاتيب » ولكن بطريقة اقرب الى النظام الحديث فى التعليم

ثم انتقل حافظ الى مدرسة « المبتديان » . كما التحق بعدها « بالمدرسة الخديوية » . ولــكنه لم يلبث فى هــذه المدرسة الاخيرة الا فترة قصيرة ، ثم تركها وغادر القاهرة كلها الى مدينة طنطا ، ليعيش هناك مع أسرة خاله الذى نقل اليها فى ذلك الحين

وفى خلال هذه السنين العشر او نحوها ، التى قضاها حافظ متنقلا بين « الكتاتيب » والمدارس الابتدائيــة فى القاهرة ، تاصلت الشعبية فى نفسه ، وامتلأ ذهنه وقلبه بمختلف الصور الصادقة الناطقة عن الحياة القاتمة لطبقات الشعب الكادحة الفقيرة . ولا شك فى أن تجاربه الخاصة فى هذه السن المبكرة كان لها اكبر الأثر فى حياته ، وكانت هى المنبع الغزير لما ردده فى شعره من شــكوى وعتاب ورثاء لليتامى والمساكين

ولعله كان يصف طفولته البائسة المشردة ويتمه الأليم فى المحاورة التى جرت بينه وبين صديقه وزميله المرحوم خليل مطران شاعر القطرين فى حفل أقامته جمعية رعاية الأطفال بالأوبرا سنة ١٩١٣ ، اذ قال فيها :

هــــــذا صبى هائم   تحت الظـلام هيام حائر
ابلى الشــقاء جـديده   وتقلمت منـــــه الأظافر
فانظـــر الى اســماله   لم يبق منهـا ما يظاهر
هو لا يريد فراقهـــــا   خوف القوارس والهواجر
لـكنهـا قد فارقتـــــه   فراق معـــذور وعاذر

ولعل تلك الصورة لنفســه فى ذلك الحين كانت نصب عينيه حين نظم قصيدته التى انشدها فى حفلة الجمعيــة الخيرية سنة ١٩١٦ ، وفيها يقول على لسان يتيم بائس ممن كفلتهم هذه الجمعية :

قضيت عهــد حداثتى   ما بين ذل واغتـــــراب
لم يغن عنى بين مشــرقهـا ومغربها اضــطراب
صفرت يدى فخوى لهـا   راسى وجوفى والوطــاب
وانا ابن عشر ليس فى   طوقى مكافحـة الصعاب

بل أكبر الظن أن حياة حافظ التلميذ اليتيم الصغير ، وما اشتملت عليه من آلام وآمال فى البيت والمدرسة ، كانت فيها مشابه من حياة الطفلة التى وصفها فى احدى قصائده قائلا على لسانها :

اخشــى مربيتى اذا   طلع النهـار وافزع
واظل بين صـواحبى   لعقـــابها أتوقع
لا الدمع يشفع لى ولا   طول التضرع ينفـــع
وأخاف والدتى اذا   جن الظـلام وأجزع
وأبيت ارتقب الجـــزا   ء واعينى لا تهجـع
ما ضرنى لو كنت أســتمع الـكلام وأخضـع

ما ضرنی لو صنت اثـــوابی فلا تتقطـــع
وحفظت أوراقی بحـــفظتی فلا تتـــوزع

ذلك لأن توقع العقاب فى المدرسة يبدو طبيعيا من تلميذ مثل حافظ ، عرف بين أترابه « بالشقاوة » والانصراف الى المطالعات الادبية التى تشبع ميله الخاص ، كما أن توقعه العقاب فى البيت على تقطيع ثيـابه وتوزيع أوراقه ليس بالشىء الغريب او المستبعد فى الوقت الذى كان يعيش فيه هو وامه ضيفين على خاله الموظف الصغير !

ومما يؤيد هذا ، انه هو نفسه قد شعر بثقل مؤونته على خاله ، بعد انتقالهما الى طنطا ، وتركه الحياة الدراسية الى غير عمل يتكسب منه ، مكتفيا بالمطالعات الادبيـة ، والاجتماع بهواة الأدب من شبان المدينـة مثـل الاستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار الذى كان طالبا وقتئذ بالمعهد الأحمـدى هنـاك ، للمذاكرة فى نوادر الأدب ، والمطارحة للشعر . وقد سجل حافظ شعوره هذا فى بيتين خاطب فيهما خاله فقال :

ثقلت عليـك مؤونتی انی اراها واهيـــه
فافرح ، فانی ذاهب متوجه فى داهيـــه

كرامة نفسه

كان حافظ فى السادسة عشرة من عمره حين أبت عليه نفسه أن يعيش عالة على خاله ، وكان عليه ان يجد لنفسه عملا يعيش منه بكده وجهده ، ولما كان لم يحصـل على شهادة دراسـية تؤهله للالتحاق بعمل حكومى ، وكانت مطالعاته الكثيرة ومحفوظاته من جيـد الشعر ومختـاره ؛ لا تغنى غناء الشهادات فى هذا الشأن ، فقد اتجه الى ميدان الاعمال الحرة ، والتحق بمكتب لأحد المحامين فى طنطا هو الشيخ محمـد الشيمى ، على امل أن يصبح محاميا ناجحا

مثله ، ولا سيما انه كان يحس فى نفسه أنه على حظ عظيم من طلاقة اللسان ، والخبرة بفنون الكلام . وكانت المحاماة فى ذلك العهد مهنة مفتحة الأبواب لكل من أراد ممارستها . وقد لقى فيها حافظ أول الامر حظا مبشرا بالنجاح ، وترافع فى قضايا كثيرة بالمحاكم الجزئية القريبة من عاصمة الغربية فظفر بالحكم لصالح موكليه ، أو موكلى المحامى الذى عمل فى مكتبه . غير أنه ما لبث قليلا حتى اختلف معه ، فترك مكتبه الى مكتب محام آخر فى طنطا هو المرحوم محمد أبو شادى ، بعد أن ترك له بيتين ضمنهما « استقالته المسببة » من العمل فى مكتبه هما :

جراب حظى قد أفرغته طمعا
ببـاب أستاذنا الشيمى ولا عجبا

فعاد لى وهو مملوء ، فقلت له :
مما .. فقال من الحسرات واحربا

ولقد وجد حافظ فى صاحبه الجديد أديبا يقدره حق قدره ، فيطارحه بالشعر ، ويناده بالأدب ، ولكن نفسه الشاعرية الملول سرعان ما سولت له مغادرة هذا المكتب أيضا ، وان لم ينس ما لقيه عند صاحبه من مودة واكرام ، فقال فى الاحتفال بذكرى وفاته سنة ١٩٢٥ :

عجبت ان جعلوا يوما لذكراكا
كأننا قد نسينا يوم منعاكا

اذا سلت يا أبا شادى مطوقة
ذكر الهديل فثق أنا سلوناكا

قد عشت فينا نميرا طاب مورده
أسمى سجايا الفتى أدنى سجاياكا

فما كأولاك فى بر وفى كرم
أولى كريم ، ولا عقبى كعقباكا

الضابط الشاعر

وانتقل حافظ بعد ذلك الى مكتب محام آخر هو المرحوم عبد الكريم فهيم ، غير انه سرعان ما ترك العمل فى المحاماة كلها ، ثم عاد للقاهرة حيث التحق بالمدرسة الحربية ، وواصل الدراسة فى هذه المرة الى أن تخرج فيها برتبة الملازم سنة ١٨٩١ وهو يومئذ فى حوالى العشرين من عمره

عين حافظ بعد تخرجه فى المدرسة الحربية ضابطا بالجيش ، فأمضى فيه نحو ثلاث سنوات ، ثم نقل الى وزارة الداخلية وعين ملاحظا للبوليس فى مركز بنى سويف ثم فى مركز الابراهيمية . ولم تكن مدرسة البوليس قد أنشئت بعد فكان ضباط البوليس يؤخذون من بين المتخرجين فى المدرسة الحربية . واعيد بعد ذلك الى وزارة الحربية

والى هنا ، كان حافظ الضابط الشاعر ، ما زال يداعبه الأمل فى أن يبلغ ما بلغه الضابط الشاعر الذى اتخذه مثلا وقدوة ، وهو المرحوم محمود سامى البارودى . وكان حافظ على حق فى هذا الأمل ، فهو فى ميدان القلم والشعر كان قد صار شيئا مذكورا فى الأوساط الادبية ، وهو فى ميدان السيف والحرب كان قد بلغ رتبة الملازم الاول !

على أن صرح آماله بدأ ينهار فجاة ، اذ احيل الى الاستيداع منذ اعادته الى وزارة الحربية ، فعاوده بؤسه القديم منذ ذلك الحين ، لأن مرتبه فى الاستيداع لم يكن يزيد على اربعة جنيهات فى الشهر !

سفره الى السودان

ولبث كذلك خمسة اشهر او نحوها ، ثم كللت مساعيه

فى سبيل الخروج من أزمته النفسية والمادية بالنجاح ، فعين بادارة التعيينات ، واضطر خلال عمله فيها الى السفر الى السودان فى الحملة الاخيرة بقيادة لورد كتشنر . وهناك قضى فى السودان الشرقى حوالى سنتين ، عانى فيهما الأمرين . وكتب خلالهما الى صديقه المرحوم محمد بيرم يصف حاله ويشكو مآله ، قال :

نزحت عن الديار أروم رزقى
واضرب فى المهـــامه والتخوم
وما غادرت فى السودان قفـرا
ولم أصـــبغ بتربتـــه أديمى
وها انا بين أنياب المنـــــايا
وتحت براثن الخطب الجسـيم

كما كتب من هناك الى بعض أصدقائه يقول :

من واجـد منفر المنـــام
طـــريد دهـر جائر الأحكام
مشتت الشـمل على الدوام
ملازم للهـــم والســـقام
يا ليت شعرى بعد هذا العام
اليكمـــو ترمى بى المرامى
أم ينتوينى رائد الحمـــام
فأنطـــوى فى هـــذه الآكام
وتولم الضـبع على عظـامى
ولائما للوحش فى الاظـلام

وزاد فى شقائه خلال عمله فى السودان ، أنه كان مغضوبا عليه من كتشنر نفسه ، ذلك الجبار العنيد كما وصفه هو فى كتاب أرسله الى الاستاذ الامام قال فيه : « وقعدت همة النجمين ، وقصرت يد الجديدين ، عن ازالة ما فى نفس ذلك الجبـار العنيد ، فقـد نما ضب ضغنه على ، وبدت بوادر

السوء منه الى ، فاصبحت كما سر العدو ، وساء الحميم »
وفى الوقت نفسه ، كان رئيس فرقتــه حاقدا عليــه ، لا يفتأ يذكره بالسوء فى تقاريره الرسمية ، وذلك لأن حافظا لم يكن يطيق غطرسته ، وكثيرا ما نظم فى ذمه اراجيز ينشدها زملاءه الضباط ، وفى احداها قال فيه :

تراه اذ ينفخ فى المزمار   تحسبه فى رتبة السردار
يجتنب العاقل والنبيهـا   ويعشق الجاهل والسفيها

هـذا الى قسوة القيظ فى السودان ، وحرمان حافظ هناك من اصحاب سمره ومجالس أنسه فى القـاهرة ، مما دعاه الى ان يواصل الكتابة الى الاستاذ الامام وغيره ممن يؤمل فى توسطهم لاعادته الى العاصمة ، فكتب الى بعض أصدقائه يشكو تلك الحال :

رميت بها على هذا التباب
وما أوردتهـا غير السراب
وما حملتهـا الا شـقاء
تقاضينى به يوم الحسـاب
وما اعذرت حتى كان نعلى
دما ، ووسادتى وجه التراب
وحتى صيرتنى الشمس عبدا
صبيغا بعدما دبغت اهابى
وحتى قلم الاملاق ظفـرى
وحتى حطم المقـــدار نابى

احالة الى الاستيداع

واخيرا عاد حافظ الى القاهرة ، ولكنه عاد محالا مرة اخرى الىالاستيداع بعد أن حوكم وسبعة عشر ضابطا من زملائه بتهمة العصيان ، وهكذا تبخرت آماله وتبددت فى أن يكون رب السيف والقلم مثل محمود سامى البارودى ، وتراءى

لعينيه ما ينتظره من عيش ضنك بالجنيهات الشهرية الاربعة التى هى مرتب الاستيداع ، فكتب بعد سنتين واربعة أشهر الى الجهات المختصة طالبا احالته الى المعاش ، ذاكرا فى طلبه هذا « انه مكث بخدمة الجيش ١٢ سنة ، ولم يحصل فيها على غير رتبة ملازم أول ، ومضى عليه أربع سنوات وهو فى الاستيداع ، وأنه فقد الأقدمية ، ويلتمس احالتـه على المعاش ليتمكن من وجود شغل له يقوم بنفقته ونفقة عائلته الكبيرة التى لا يقوم مرتب الاستيداع بلوازمها » . وقبل طلبه فأحيل الى المعاش فى اول نوفمبر سنة ١٩٠٣

حيرته وفقره

لبث حافظ بعد عودته من السودان يواصل السعى فى سبيل الحصول على عمل ملائم يعيش منه . ولكنه فشل فى سعيه هـذا أكثر من عشر سـنين ، لم يدع خلالها بابا الا طرقه ، ولا وسيلة الا اتخذها . وكان حاله فيها كحاله حين كان صبيا يعانى اليتم والبؤس ، وكحاله وهو يقاسى الوحشة والاضطهاد وفراق الأخدان والأخلاء فى السودان ، وفيهـا يقول :

سعيت الى ان كدت انتعل الدما
وعدت وما اعقبت الا التندما

لحا الله عهد القاسطين الذى به
تهـــدم من بنياننا ما تهـدما

اذا شئت ان تلقى السعادة بينهم
فلا تك مصريا ، ولا تك مسلما !

وكقوله عند تهنئته للمرحوم عبد الحليم عاصم أمير الحج سنة ١٨٩٥ :

يا لقومى اننى رجــــل   حرت فى أمرى وفى زمنى
أجفـــاء أشـتكى وشقا   ان هـــذا منتهى المحن

وقد صقلت هذه الأعوام نفس حافظ ومواهبه الشعرية، بما أتيح له فيها من تجارب ودراسات فى صميم الحيـاة ، وتوفر على صوغ الشعر وتجويده لاتخاذه وسيلة الى بلوغ الغاية التى يريدها ، وكانت غايته أول الامر أن يحظى بمنصب فى القصر ، فأخذ يزجى الى الخديو عباس الثانى مدحة بعد مدحة فى مختلف المناسبات

تشجيع الاستاذ الامام

على انه وقد يئس من نيل متمناه عند الخديو وشاعره ، ظل يلقى عند الاستاذ الامام محمد عبده صدرا رحبا وعطفا كريما وتشجيعا عظيما . وقد سجل حافظ ما لهذا المصلح الكبير عليه من مآثر فى كثير من القصائد والرسائل . كقوله من قصيدة طويلة :

لى كل حول لبيت الجاه منتجع
كمـا تشـد لبيت الله أرحال

وزهرة غضـة ألقى الامام بهـا
لها على أختها فى الروض إدلال

يا من تيمنت الفتيـا بطلعتـه
أدرك فتاك فقد ضاقت به الحال

وبفضل تشجيع الاستاذ الامام محمد عبده استطاع حافظ أن يزداد تألقا ولمعانا بين نجوم الشعر فى ذلك الحين ، كما استطاع أن يتألق بين نجوم النثر باخراجه « كتاب البؤساء » للشاعر الفرنسى فيكتور هوجو فى حلة عربية فاخرة كانت ولا تزال موضع الاعجاب لدى الأدباء والمتأدبين

ولم يكن عجبـا أن يكون حافظ أشد أصحـاب الاستاذ الامام وتلاميذه حزنا وفجيعة ولوعة عنـد موته فى سـنة ١٩٠٥ فقد ضاعت بفقده بقيـة ما كان للشاعر العصامى البائس من أمل فى الحيـاة ، كما عبر هو نفسه عن ذلك فى رثائه للمرحوم قاسم أمين بعد ذلك بعامين فقال :

واها على دار مررت بهـــــا
قفرا ، وكانت ملتقى السبل
ســـاءلتها عن قاسم ، فأبت
رد الجواب فرحت فى خبـــل
متعثرا ، ينتـــــابنى وهن
مترنحا كالشــــــارب الثمل
متــــــذكرا يوم الامام به
يوم انتويت بذلك البطـــــل
يوم احتسبت ، وكنت ذا أمل
تحت التراب بقيـــــــة الأمل

وقد حرص حافظ على أن يسجل ذلك فى رثائه للأستاذ الامام فى الحفلة الأولى التى أقيمت لذلك فقال :

فيا منزلا فى « عين شمس » أظلنى
وأرغم حســـادى وغم عداتى
دعائمه التقوى ، وآساسه الهدى
وفيه الأيادى موضـــع اللبنات
لقد كنت مقصـــود الجوانب آهلا
تطوف بك الآمال مبتـــهلات
مثابة أرزاق ، ومهبط حكمة
ومطلع أنوار ، وكنز عظـــات

حافظ فى دار الكتب

ومهما يكن من أمر تلك السنين العجاف فى حياة حافظ المادية ، فلا شك فى أنهـــا كانت خيرا وبركة على حيـــاته الادبية والاجتماعيـــة ، ففى خلالهـــا انشأ كثيرا من غرر قصائده فىالسياسة والوطنية والاخلاق والعادات والتقاليد ، وأخرج كتابه الثانى « ليالى سطيح » . كمـــا اشترك مع صديقه شاعر القطرين خليل مطران فى ترجمة كتاب فى

« الاقتصاد » . هذا الى ان اتصالاته من طريق أدبه وشعره بكثيرين من الكبراء داخل الحكم وخارجه ، انتهت أخيرا بأن عينه المرحوم أحمد حشمت ناظر المعارف رئيسا للقسم الادبى فى دار الكتب فى سنة ١٩١١ بمرتب شهرى قدره ثلاثون جنيها ، ثم ثبت فى هذا المنصب بعد عام وانعم عليه برتبة البكوية ، وفى ذلك قال من قصيدته فى الحفل الذى أقيم لتكريمه فى هذه السنة الاخيرة :

وما كنت أحلم لولا الوزير بهذا الهناء ، وهذا اللقب
على أياد له جمة وفضل قديم شريف السبب
فأنا أقال به عثرتى واورى زنادى ، وآنا وهب
تفيأت منه ظلال النعيم وأصبحت أعرف لبس القصب

حافظ الكريم

وكانما شاء القدر الا ان يبقى حافظ الشاعر العصامى طول حياته شاعرا بما يشعر به البائسون والمعدمون ، لكى يبقى لهم نعم النصير ، وليختصهم من شعره الذائع بالشىء الكثير .. ومن هنا عاش حافظ بعد ذلك ما عاش وهو ينفق باليمين ما يكتسبه باليسار ، وقد يسخو بكل ما يملك من مال على صديق أو زميل بائس ، وفى الوقت نفسه كانت عزة نفسه تابى عليه ان يذل لغير الله

عبده الحمولي



عبده الحامولى

« اذا استطاع انسان أن يحلق فى جو الابداع والابتكار فى مثل البيئة التى عاش بها الناس فى خاتمة عصر المماليك ، كان هو المعجزة حقا .. وكان هو عبده الحامولى »

زعيم الغناء فى الشرق

بقلم الدكتور محمود احمد الحفنى

لا تكون العصامية جديرة بالتخليـد حتى تبدأ نفسها بنفسها مستغنية بعنصر القوة فيها عن العلل والاسباب جميعا ، وان كانت سير العظماء خاضعة فى كثير من شأنها لمقدمات من البيئة والظروف المحيطة والأوضاع الاجتماعية والنظـم السياسية والمستوى الثقـافى والفنى . بيـد أن الشخصية تسمو على الأسباب والعلل ، يختفى تأثرها بها ، وكأنها خلقت من لا شىء لتكون شيئا جديدا باهرا لعصرها الحاضر وللعصور الآتية

لم يكن القرن التاسع عشر ليسمح للعبقرية المصرية أن ترتفع هامتها ، فالأفق قاتم والظلام مخيم . وهب أن ألوانا من العبقريات شقت الطريق لنفسها ، فما كان للموسيقى يومئذ طريق تشقه ولا جو تتنفس فيه الصعداء . ولا يعلم أحـــد الا الله ما يعانيـــه رجال الموسـيقى من الجفوة والاستبعاد عن كل ندوة عالية ووسط رفيع . وقد يتيسر الطريق أمام جاهل فينال فى العلم مكان العظمة ، أو أمام فقير بائس ملتصـــق بالتراب فيجتمع له الثراء من كل مكان ، ويدخل هذا فى زمرة أقطاب المعرفة وينخرط ذاك فى سلك اقطاب الثراء . ومهما يكن من أمر فقد كانت العظمة على اى حال غير مستحيلة على المكافحين المجدين . ولكنها بالنسبة لرجل الموسيقى تتطلب الكفاح مضاعفا والجهـاد متواصلا

والصبر مريرا طويلا للوصول الى الخطـوة الاولى فى طريق بناء الشخصية ، ولا سيما فى مثل البيئة التى عاش بهـا النــاس فى خاتمة عصر المماليك وبداية حكم يكرر نفســه بصورة اخرى . فاذا استطاع انسان أن يبنى شخصيته بين تلك القيود والأغلال ، وأن يطلق العنان لروحه الوثابة ليحلق فى جو الابداع والابتكار كان هو المعجزة حقا ، وكان هو « عبده الحمولى »

نهضة فنية

منذ بداية القرن التاسع عشر كانت مصر قد بدات تراجع حسابها مع التاريخ وتتطلع الى التخلص من كابوس الظلام الجاثم على صدرها ، وتلتمس لنفسها منفذا من المظالم ومن الوان التدهور الذى أصيب به الشرق والعالم الاسـلامى معـه . آن لمصر الا تصبر على التخلف عن الأمم وهى أم المدنيات ومؤسسة الحضارات . وكان من الحوافز لها الى النهوض تلك الجولات والاتصالات الحربية والعلميــة بينها وبين دول الغرب ، فكل شيء يأخـذ سبيله الى التطـور ويمضى فى طريقـه الى التجـــدد والاختراع والابتكار . وسرعان ما وثبت مصر تنفض عنها الغبار بقوة من سواعد أبنائها ومن مواهب العبقريين فيهـا . وكانت الفنـون فى مقـدمة ما اتجهت اليه المشاعر فى هـذه النهضة القومية الحديثة. والموسيقى من النهضة فى الصميم والصدارة ، ومن الفن فى الذروة والقمة ، لأنها المعبرة بلغتها عن لغة الحيـاة ولأنها هى التى تصحب القافلة فى طريقهـا الى المجـد . فما لبثت مصر أن ظهرت بها مدرسة فنية التقى فيها رئيس الملحنين محمد القبانى وكبيرة المطربات سكينة وغيرهما . والى جانب هؤلاء أشرق الوعى الأدبى الذى يغذى الموسيقى بتراث الشعر القديم ويعيـد الى الغنـاء العربى مجموعة

صالحة من ثروته المشتتة. فصنف فى تلك الآونة السيد محمد شهاب الدين ، وكان شاعرا مجيدا وموسيقيا ماهرا ، كتابه « السفينة » وقد جمع فى مصنفه هـذا عددا عظيما من الموشحات العربية كانت عاملا قويا على انماش الفن القومى

نشأته بطنطا

فى هذه الفترة من بداية اليقظة بعد سبات عميق ، وفى هذه الظروف التى لا تزال حالكة قاتمة الا قليلا من بصيص النور الآخذ فى الازدياد ، شب « عبده الحمولى » وترعرع بمدينة طنطا حيث كان مولده بها فى نحو عام ١٨٤٣ . وقد ولدت معه موهبة النبوغ الصوتى التى تنمو بنماء جسم الصبى الفنان رويدا رويدا ، حتى تسامع به من حوله ، وبدأ الناس يتحدثون عن صوت جديد لا عهد لهم به من قبل

ولا شك أن الصبى الفنان قد اتخذ لصوته حللا لفظية من الأهازيج الشعبية والأغنيات الريفية والمواليا الوطنية. انها ثروة الريف والطبيعة الساكنة فى هذه المدينة المحوطة بالمياه والأشجار ، المليئة بالمساجد والمشاهد والموالد التى استمع فيها وفى حلقات الذكر الى اصوات المنشدين وترتيل القارئين . كان للقصائد النبوية والتواشيح الدينية بتلك الحلقات أثرها السحرى الفعال فى تلك الفطـرة الناشـئة فما اعظم ما حبته به الطبيعة فى تلك الرقعة التى جمعت بين سكون القرية وحضارة المدينـة

هروبه من وجه أبيه

ما كاد ابوه المشتغل بتجارة البن يلمس الاتجاه الجديد فى حياة نجله الصبى حتى ثارت ثورته وضاق ذرعا بهـذا العار الفنى الذى سيلحق به وبأسرته فيسىء الى السمعة ويصيب الكرامة فى الصميم . وما لبث تاجر البن أن انهال على ولده بالتنكيل والتنكيد والايذاء المستمر والمعاملة النابية

القاسية. وادركت رحمة الله ذلك المسكين بأخ شقيق يكبره كان له خير معوان فى محنته وخير مواس على احتمال شدته. فاتفقا معا ، وسرعان ما نفـذا تعهدهما ، على أن يغادرا الوالد ويتركاه للبن يساوم فيه وللسمعة الطيبة يحتفظ بها ويصونها من خطر الموسيقى الداهم . واذا سمعت بأن أخوين شقيقين قد أجمعا على الرحيل والانفصال من احب الأمكنة اليهما ، ومن ظل الأبوة التى كان مفروضا أن تكون ابر الظلال بهما .. اذا سمعت بذلك فثق أن وراء الأخوين هموما لم يطيقا الصبر عليها ففرا من وجهها الى المصير المجهول . وهنا تتجلى العصامية على حقيقتها . فلو قد رأيتهما لهالك منظر فتيين يضربان فى الارض ، فلا ثياب ولا طعام ، يحمل كبيرهما صغيرهما اذا عجزت القدم وكلت الهمة عن مواصلة السير ، فى أرض موحشة وليال مظلمة ، بين قطاع طريق ومخاطر مختلفة ، فى غربة وفاقة ودموع... كل ذلك كان سبيل العصامية الى الظهور بعد كفاح مرير

مع الأستاذ شعبان

انتهى المطاف بعبده الحمولى الى « شعبان » فمن هو هذا ؟.. انه مهاجر من طنطا كذلك ، وهو يحترف الغناء والعزف كيفما كان . وتستطيع أن تقول انه كان مدرسة للاستقبال والتعليم والتوجيه والتخريج ، والاستغلال قبل كل شىء . فما كاد يتعرف مواهب « عبده » حتى التقطه وقبض عليه بيد قوية . فقد استطلع بفراسته الفنية ماوراء تلك الموهبة من ثروة يمكن أن يستنزفهـا اذا استخدم هذا الفنان بعد تدريبه والتعريف به والاعلان عنه . وكذلك صنع به . فقـد مكنه من الالمام بالفن بالقدر الذى يمكن معه اقامة أفراح وحفلات واشتراك فى سهرات . وكأن شعبان هذا قد خشى أن يفلت من يده هذا الصيد السمين ، ولعله لمح وجوه منافسين جدد يحاولون أن يختطفوا

الفريسة من بين يديه ، فأسرع الى تقييد « عبده » بالزواج من ابنته ليغلق بتلك المصاهرة باب المنافسة ويأمن على الصيد أن يطير . وفاته أن العبقرية أقوى من أن تكبل بمثل هذا الزواج المغرض المصطنع

مع الفنان محمد المقدم

وقد ذاع أمر « الحمولى » بين الجمهور وبحكم طموحه الفنى كان لا بد أن يلتمس المزيد من رسالته . فمن هو هذا المعلم الذى يقصد اليه ويستزيد من منهله ؟ ان ذلك المعلم هو « محمد المقدم » ذلك النجم اللامع فى سماء القاهرة غناء وأداء ، ولقد اعجب بعبده وشجعه لا على الفن وحده بل وعلى التخلص من المصاهرة المستغلة المتحكمة فى كسبه وحياته . فوقعت الفرقة بين الزوج والضحية وتحرر الفنان والتحق بتخت « المقدم » وأجاد ما لم يكن يحسنه من الفن المألوف فى عصره . وكان لا بد له من تلك الفترة ، يستكمل فيها خبرته ويستوعب الموجود فى زمنه

ولكن ما لبث « المقدم » استاذه الجديد أن أعاد فى استغلال مواهب الفنان الفتى سيرة سلفه . الا أن ذلك الاستغلال لم يدم له طويلا ، فقد استيقظ وعى الموسيقار الصغير ، وبدأ يتنبه لاستقلال شخصيته والثقة بمقدرته . ولم يمض عليه كبير وقت حتى أصبح له تخته الخاص بآلاته ومنشديه

بزوغ نجمه

بدأ نجم « الحمولى » يسطع وأخذ صيته ينتشر ويأخذ سبيله الى الأوساط الثرية وقصور الأعيان وذوى المنزلة ، حتى اختصه اسماعيل بمجلسه وصحبته وضمه الى من حوله . والذى يعنينا من هذه الصحبة هو ذلك الوسط الموسيقى الراقى من الفن التركى الذى تمكن « الحمولى » من الاتصال به سواء فى القاهرة أو فى الاستانة . لقد كان

زعماء الموسيقى التركية وقتذاك يوجهون الموسيقى الشرقية كلها بما كان لهم من انتاج ومقدرة ومهارة . وقد ساعدت الزعامة الاسلامية والسيطرة السياسية على التمكين لهذه الموسيقى فى كل بلاد الشرق . وكانت مصر أقرب الممالك الشرقيـــة استعدادا لقبول ذلك الانتـــاج الفنى . وكانت موهبة « الحمولى » خير مرآة اعدت لقبول جميع الصور الفنية من الموسيقى التركية وغيرها من موسيقات الأقطار العربية الاخرى . ولم تكن عملية هــذه الموهبة تقليـــدا ومحاكاة ، بل كان الامر أعظم من ذلك شأنا . فان ما كان لعبده من سمو الذوق وسلامة الفطرة وقوة الابتكار وقدرة الارتجال ، مع حنجرة مواتية وصوت بارع مطاوع ... كل ذلك ساعده على الحفظ ثم الهضم ثم الخلق والابداع

وكما استطاعت « جميلة » فى صدر عهــد بنى أمية أن تحفظ الألحان الفارسية من سائب خاثر ثم تعربها ، وأن تضعها أوضاعا عربيـــة سليمة تجعلها صاحبـــة مدرسة ومذهب جــديد ، فكذلك كان صــنيع « الحمولى » مما استوعبه من الغناء الشرقى عامة والتركى خاصة ، حيث اخذ بعد الحفظ يجدد ويمصر الموسيقى والغناء بما اظهر هذا الفن فى طابع جديد اخرجه من النواح والبكاء والتخاذل والضعف الى القوة والرجولة والطرب المشرق الباسم الذى يخلق جوا من المرح والحبور . وقام بتهذيب الحان التواشيح والقصائد وقدم الحانا هى مزاج من أذواق متقابلة متلاقية دون اخلال بالطابع العربى والذوق المصرى

رسالته الفنية

كانت ثروة النغمات فى مصر محدودة ، وكانت الاصوات تجرى فى مجال ضيق من المقامات لا تتعــداه ، ويبقى سير اللحن على وتيرة واحــدة لوقت طويل فى حال تدعو الى

السآمة والملل . فأخـذ « الحمولى » يسلك فى تلحينـه وغنائه سبيل التلوين والتنويع ، وراح يتنقل من مقام الى مقام ومن نغمة الى أخرى فى سير اللحن . فخرج من جمود الترديد والاطالة الى فسحة التجديد والانتقال والتغيير فى توافق وانسجام وبراعة تستأثر بالسمع وتملك على النفس المشاعر وعلى القلوب مواطن الاعجاب

لم يكن الغناء المصرى يصور المعانى او يقدر الارتباط بين الشعر والموسيقى كمـا ينبغى ، فقام « الحمولى » بهـذه الرسالة ولعب الدور الهام فى ايجاد تفسير وشرح لمعـانى الألفاظ باسلوب اغانيـه وحمل النغم مسئوليـة التعبير والايضاح . وشعر المستمع بأن عليه أن يتابع المعانى فى الأداء الفنى بما لا تستطيع الأداة المجردة اداءه ، بل تجاوز ذلك الى التمثيل فكانت معالمه وملامحه وحركاته تساعد الغنـاء وتفسر الأداء . وكان ذلك تطلعا الى الموسيقى المسرحيـة التى كان له الفضـل فى توجيه صديقـه الشيـخ سلامة حجازى اليها

قلما عرف احد فى تلك الآونة منطقـة صوتية رحيبـة الجنبات كالتى تمتع بها « الحمولى » بين المغنين . وما أشبه تلاعبه فى حنجرته القادرة بأصابع « بجانينى » فى حركاتها على الكمان تلك الحركات التى أعجزت عصره وجعلته الفرد المثالى بين أنداده . لشدما كان يكافح العازفون على تخت « عبده » فى ملاحقته صعودا وهبوطا ، والسير معـه فى تعاريج النغمات والتواء المقامات ، وهو يتسرب من بعضها الى البعض الآخر فى مهارة ودقة وتفوق طالما أعجز الآلات فى منطقتها الصوتية المحدودة عن ملاحقته والتجاوب معه

ان تفرد « عبده » فى مكانته الموسيقية أتاح له فرصة الانتاج المركز المتواصل من ابتكار وتصرف وبديهة حاضرة

لها مقـدرة الارتجـــال والتصرف المفـاجىء الذى يفوق الاستمداد والتحضير

ومن طرائف ما يروى فى ارتجاله حادثة اشبه بالقصص الخيالى منها بالوقائع . جهز سرادق فخم لبعض حفلات الزفاف واعدت لذلك بطاقات الدعوة تحديدا للعدد وتفاديا من الزحام . وكان ثمة حاجب لا يسمح بالدخول لمن لايحمل بطاقة . وحدث ان دخل رجال التخت واستعدوا للحفل ، وحضر « عبده » متأخرا عنهم فطالبه الحاجب ببطاقة الدعوة وهو لايعرفه ونشأ بينهما اخذ ورد أحس به الجمهور ومعهم صاحب العرس . فحملوا الفنـان الـكبير وأجلسوه مع أصحابه فى صدر السرادق . فما اسرع ما ارتجل « موالا » لمس فيه الموضوع ، واستغل الحادثة فأضفى عليهـا من براعة فنه ما يجعلها صالحة للغناء ، وخلق منهـا موضوعا وجدانيا جميلا جديرا بالتقدير والتحليل ، فقال :

ليه حاجب الظرف يمنعنى وانا مدعى
لرى روض المحـاسن من دما دمعى
كم افتكر فى احتجابك واشتكى وانعى
سلمت بالروح ورضيت بالملام والنوح
قول لى بحق المحبة ما سبب منعى

عبده والمظ

ولم يكن أحد من المعاصرين يساميه فى المنزلة الفنيـة سوى الفنـانة البارعة « المظ » . كانت تجـرى معـه فى منهاجه ، وتعزف الصـوت على قيثارته ، وان كان لهـا مدرستها واسلوبها النسوى فى الغناء ، وقد بدأت المنافسة بينهمـا ردحا من الزمن قليـلا . وسرعان ما هدأت تلك المنافسة لأن باعثها الفن الجميل ، ولا يمكن أن يكون الفن مثار حقد او كراهية ، كما قد يحدث فى بعض الأحيان من صغار النفوس . بل استحالت المنافسة الى تجاوب قلبى

استخدم فيه الغناء على أن يكون مطارحة غرامية أفاد منها الفن والمستمعون اليه . كانت هـذه المطارحات فى ليالى الأفراح الساهرة التى يلتقيان بها ، وبينهما حجاب مسدول ان منع الرؤيا والمشاهدة فلن يمنع الاستماع الى الأصوات. كان هو يغنى للرجال بينما تختص هى ببنات جنسها . ويتبادلان معا أدوار الغنـاء على التعاقب ، ولـكل منهما « المطيباتى » الخاص به . وكم كانت هذه المنافسة مجال تسابق وارتجـال ، وخلق وابداع ، ثم تشـوق وتعلق . وما أسرع ما أصبح المغنيـان شاعرين مبدعين يناجى كل منهما الآخر فى غنائه بشعر لا يقل فى روعته عما كان يصنعه لهما اسماعيل صبرى والشيخ على الليثى والسيد محمـد الدرويش وغيرهم من أقطاب الشعر

وقد سمعها « عبـده » فى احدى تلك الليالى الساهرة وهى تغنى :

يا سـيدى انا احبك لله وربنـا عالم شاهد
لاصبر على أحكام الله لما يبان لى معاك شاهد
خبط الهوى ع الباب ، قلت الحليوه أهو جالى
أتارى الهوى كداب يضـحك على القلب الخالى

فما كان منه الا أن غناها ارتجالا الدور الآتى :

روحى وروحك حبـنايب من قبـل دى العالم والله
واهــــل الموده قرايب الخ ... الخ ... الخ ...

وبعـد أن كانت تضمهمـا أفراح المتزوجين ، ضمهما فرحهما وحفل زواجهما . وكانت طليعتـه ليلة فخمـة عظيمة اجتمع لها أقطاب الفن احتفاء بأكبر علمين من أعلام الغناء المصرى يلتقيان فى قران سعيد . واذا قيل « عبده » و « المظ » فالنجوم لهما تبع والفن لاسميهما نشيد . فهذا هو أحمد الليثى كبير العازفين بالعود وابراهيم سهلون أمير الكمان ومحمد خطاب شيخ الآلاتية وغيرهم من أساطين الفن

يحتشدون فى ليلة الزفاف . وهذا هو « عبده » نفسه يغنى لنفسه ويطرب المدعوين ويحييهم ويشركهم فى ليلته التى جاد عليه بها الزمن الضنين

الا أن زواجهما هذا كان خسارة على الفن فقد سكنت البلبلة الفريدة واحتجبت بزواجها عن قبول اقامة حفلات العرس . اما هو فقد اصبح تاجرا يبيع الاقمشة الى أجل ويغنى متبرعا بغير اجر . ثم لا تمضى سنتان حتى تذهب تجارته وتفدحه الديون فيعود الى المهنة يسترحمها ويستجدى كفها السمح المعطاء ، فتعوض على ابنها البار كثيرا مما خسر

ولم تشأ الأقدار لتلك السعادة الزوجية أن تدوم فتوفيت سكينة المشهورة بالمظ زوج عبده الحمولى ، قرينته الوفية المضحية . وكانت لوفاتها كما كان لعرسها ضجة أدبية اشتركت فيها الموسيقى والشعر . وبدا لنا ان الزوج كان وفيا وان سعادته بها لم تكن قاصرة على الايام الاولى ، بل كانت عشرة هنيئة قدرها هو وحزن عليها ، فبدأ يغنى بعد وفاتها :

شربت الصبر من بعد التصافى
ومر الحال ماعرفتش أصافى
يغيب النوم وافكارى توافى
عدمت الوصل يا قلبى على

دور

على عينى بعاد الحلو ساعه
ولكن للقضا سمعا وطاعه
لأن الروح فى الدنيا وداعه
عدمت الوصل يا قلبى على

مصائب الفنان

ولم يكن « عبده الحمولى » بمعزل عما أصاب النابغين فى كل عصور التاريخ من نكبات وآلام . ولكى يكون واحدا من هؤلاء الأفذاذ لا محيص له من تجرع الكأس المريرة التى ذاقوا بها الهموم والأكدار . وقد فاز « الحمولى » بنصيب الأسد من ذلك ... طارده أبوه صغيرا ، واستغله المعلم شعبان صبيا ، واحتكره المقدم فتى ، وحاربه زملاؤه بعد ذلك رجلا وفنانا ، ثم قسى عليه القدر فأفقده « المظ » . ثم امعن القدر فى قسوته فسلبه فلذة كبده من زوجة ثالثة وهو فى ملابس العرس وافراح الزفاف . فخلقت تلك الجراح القاتلة من المغنى شاعرا يصور الكارثة افدح تصوير لمأساته فى ولده محمود فيغنى مرتجلا :

ليه يا عين ليه ليه يا عين يا حليوه يا نور العين
كبدى يا ولدى يا جميل يا جميل
لما رأيت البدن داب منى ودمع عينى بعد ان نشف منى
كبدى يا ولدى آه يا جميل يا جميل

ومما غناه فى مصابه ايضا :

زاهي جمالك فتنى لما بدا نور جبينك
ونبل الحاظك تجرح من سهم قوس حاجبينك
كبدى يا ولدى

احسانه الى الفقراء

وكانت تلك الآلام الفادحة الأستاذ الاول للعصامى الفنان فجعلت منه رجلا تقيا متعبدا يقيم الصلوات لأوقاتها . فيا لها من موسيقية تذكرنا بما كان فى عهد بنى العباس ـ حيث العصر الذهبى للغناء العربى ـ من قيام طائفة من الموسيقيين الممتازين الورعين الأخيار الأبرار . الا ان «عبده» امتاز بغناء ليس فيه حرص « الموصلى » . فقد كان

« الحمولى » ذا كرم وسماحة ومروءة وايثار ، حتى بلغ الحديث عنه ما يشبه النوادر . ولا ريب أنه فى ذلك انبل واشرف من أرباب الثروات الذين ينفقون ما لا يخشــون خسارة فيه . أما هو فقد كان ينفق من كسبه اليومى ، ويعطى كل ما فى يده للفقراء ولمن افتقروا بعد غنى . جاد مرة لمدين بخاتم من زمرد فى قيمة الف جنيه حين لم يجد من المال عنده ما يسد حاجة المدين حين التجأ اليه . كما ترك اقامة حفل لغنى بخيل وذهب فغنى فى فرح رجل فقير قدم له الغناء وانفق تكاليف العرس على حسابه الخاص . ولم تكن هذه وحدها بل لقــد أقام عشرات وعشرات من حفلات غنى بها وجمع فيها النقود لأصحابها ، فأغاث فقيرا بائسا ، او اعان صديقا مال به الدهر ، حتى لقد جلس الى جانب بائعة بائسة فى الطريق المؤدى الى شارع شبرا الآن ونادى بسلعتها فى صوته الرخيم حتى امتلأ الطريق بعربات الأعيان وتدفق المال سيلا على البائعة البائسة ، وعادت الى منزلها وهى من اصحاب الثراء

ومن خير ما يؤثر عنه ارتفــاعه بنفسه وبالموسيقيين ودابه المتواصل على اعلاء نظرتهم الى فنهم ونظرة الناس الى اشخاصهم . من ذلك أن السراة والأعيان كان من عادتهم ان يقذفوا بالذهب والجواهر فى حفلات الزفاف والأعراس فيسرع الحاضرون الى التقاطهــا . وهنــا تتجلى نزاهــة « الحمولى » وعفته وتساميه فيطلب الى رجال تخته وتابعيه الا ينحدروا الى مثل ما يصنعه غيرهم من التقاط شيء مهما غلا ثمنه لأن الفن عنده أغلى من كل شيء

ابداعه

ولقد ابدع « عبــده » ثروة فنيــة من ادوار ومواليا وتواشيح وقصائد اخذت منه وحفظت عنه ، ثم أصبحت بعد ذلك تراثا يخلد اسمه ويعلى ذكراه

ومن أشهر أدواره غير ما قدمناه :

دور مطلعه :

الله يصون دولة حسنك على الدوام من الزوال
ويصون فؤادى من نبلك ماضي الحسام من غير قتال

وآخر مطلعه :

مليك الحسن فى دولة جماله
ملك عقلى وأفكارى وروحى
ومن تيهــه أسر قلبى دلاله
وزاد فى محبته وجدى ونوحى

وآخر مطلعه :

يا منيــــة الأرواح جـد لى بوصلك يوم
العقــــل منى راح وهجر عيونى النــوم
والمدامع مطــــر يا شقيق القمــــر
والقلب انفطــــر وازداد عـذولى لوم

وآخر مطلعه :

متع حيــاتك بالأحبــاب انســـك ظهــــر
شأن الطرب يشفى الأوصاب للى حضــــر
وكيـــد زمانك واتهنــا وافرح وطيـــب
وانفى همـــومك بالأكواب ســــعدك أمر

وآخر مطلعه :

شربت الراح فى روض الأنس صافى
على زهر الغصـــون وردى وصافى
وهنـــانى الزمان والوقت صـافى
ســـمح بالوصـــل محبـــوبى الى

المطر يبكى لحالى ، والقمر يطلع يكيدنى ، وعذولى ما رثى لى

أما المقامات التى كان يجرى فيها غناؤه لهـذه الأدوار وأمثالها فقد كانت فى الأهم : الحجاز كار والعجم والنهاوند

والراست والبياتى والعراق والسيكاه والعشاق والجهاركاه

ولقد سمعت الآذان المصرية من « عبده » جمال تصفية هذه المقامات وروعة نغماتها ورقة الحانها فى صوت سحرى وألفاظ عربية وروح مصرية واعجاز بلغ به الغناء غايتـه والفن الشرقى منتهى مداه

وسافر « عبـده الحمولى » سنة ١٨٩٦ الى الاستانة عاصمة الشرق يومئذ ، فنالت مصر به سمعة عالية حملت الأوساط المختلفة على الاعتراف لها فى شخص فنانها الكبير بما هى جـديرة به من مكانة . وعاد « الحمولى » مزودا بالهدايا ، وبما فوق الهدايا من تشريف وتقدير

غروب نجمه

امما وقد بلغ هذا النجم نهاية أوجه ، فقد آن له أن يحول رويدا رويدا الى الغروب والاحتجاب ، وهكذا بدأت الأمراض تفعل به فعلها . وداهم مرض السل صدر ذلك العبقرى فنصح له الأطباء بمغادرة القاهرة والاقامة بأعالى الصعيد ، حتى اذا سنحت بوادر الشفاء عاد الى حلوان . وبها كانت نهايته فى فجر اليوم الثانى عشر من شهر مايو سنة ١٩٠١ عن ستين عاما ، مثل فيها دور العصامى المؤمن بشخصيته وفنه ، الباذل من صحته وعبقريته ما يسجل بمداد ذهبى بين ذوى المروءات . ولن تنسى الخدمات الاجتماعيـة فى تاريخها ما تبرع به « الحمولى » من احياء ليال وحفلات لخدمة الهيئات الخيرية

وانتهت حياته بنهاية القرن التاسع عشر ، وتوارى عن الأنظار فى بداية القرن العشرين لتكون تركته مدرسة كان تلاميذه فيها كل من جاء بعده ، وقفى على اثره من امثال محمد السبع واحمد حسنين والشيخ ابو العلا محمد وكثيرين غيرهم ، وسوف تبقى ميراثا للجيل وتراثا للأجيال القادمة

سمعان صيدناوي



سمعان صيدناوى

« بنى بيديه صرح مجده وغنـاه لبنة لبنة حتى سمق وعلا وكان من الصـروح المردة المنيفة التى يزهو بهـا الشـرق العربى ويبـاهى »

المغامر الشريف

رجل عصامي من الطراز الاول بنى بيـديه صرح مجده وغناه لبنة لبنة حتى سمق وعلا وكان من الصروح المردة المنيفة التى يدل بها الشرق العربى ويزهى ويباهى

لم يكن سمعان صيدناوى فى الرواد الـكاشفين الذين يركبـون الأخطـار ويضربون فى مجاهل الارض مجازفين مغامرين ليعثروا على مناجم الذهب ويعودوا منها ممتلئى الحقائب والوطاب ولا كان من المضاربين فى أسواق المال والاوراق ممن يلتمس الغنى والثراء فى طرفة عين أو بين عشـية وضحاها معتمدا على حسن الجد والطالع ليختصر الطريق الى قمم الفوز والنجاح . كذلك لم يكن فى العلماء المخترعين الذين يوفقهم الله الى اختراع نافع تتبناه الصناعة وتجعله فى متناول الناس أجمعين وتدر على صاحبه أخلاف الرزق والثراء العريض . ولا هو عثر على حجر الفلاسفة فتمكن به من تحويل المعادن الى ذهب وهاج

ما كان سمعان صيدناوى واحدا من هؤلاء ولكنه كان جميع هؤلاء فالعمل هو الذى كشف له منـاجم الذهب ، فاغترف منها ، والاستقامة هى التى ضارب بها فى أسواق التجارة الشريفة الحرة ، فغمرته بدفعات الكسب الحلال . أما الذكاء فكان وسيلته الى التفنن فى الاختراع والابتكار ففتح له مختلف أبواب الرزق وأما الاحسـان فكان حجر الفلاسفة الذى قلب النحاس فى يديه نضارا فكلما أمعن فى

الاحسان زاده الله نعما وحول آماله وامانيـه الى حقائق ملموسة تتألق على جنباتها أشعة الظفر والفلاح

نشأته

ولد المترجم له بمدينـة دمشق سنة ١٨٥٦ من اسرة طيبـة معروفة بحسن السيرة وصفاء السريرة كانت قد نزحت منذ زمن طويل من قرية « صيدنايا » الى العاصمة وتلقى الصبي سمعان العلم فى مدرسة من مدارس دمشق حتى اذا بلغ اشده كان قد الم بما كان يلم به لداته فى ذلك العهد من أطراف العلوم والآداب واللغات

ها هو ذا فتى فى ريعان الشباب قد تزود للحياة بأفضل زاد العصر مكنه منه ذووه غير وانين عن تضحية فى هـذا السبيل ليعدوه اعدادا حسنا للجهاد والـكفاح فى الحيـاة وليكون لهم السند القوى والعماد المرتجى

وتضاربت الآراء فى نوع العمل الذى يزاوله وطال بحث ذويه وتقصيهم وتملكت الفتى حيرة تتملك كل فتى يترك مقاعد الدراسة الى مدرسة الدهر فهو بين نار الحماسـة المتقدة فى صدره ونار التلهف الى عمل يضطلع به ويسير فيه الى ابعد الغايات

وتسوق الأقدار الفتى سمعـان الى تاجر من تجـار العاصمة واسع الرزق والعمل والتجارة فيجعله فى عداد موظفيه ويعهد اليه فى عمل كتـابى ينهض به على احسن وجه ثم ينيط به بعد ذلك مختلف الأعباء والاعمال فيتوفر عليها بهمة ونشاط وذكاء وامانة فلا تنقضى سنوات خمس حتى يكون على حداثة سنه مستشار الرجل وامين سره وصاحب المنزلة الأثيرة لديه يعتمد عليه فى شؤون تجارته وضبط اعماله والسهر على مصالحه

وبلغ من اعجاب الرجل بالشاب سمعان ومحبته له وايثاره اياه أن هم بتزويجه من ابنته على اختلافهما فى الدين فخشى اهل الفتى الفتنة ، فأوعزوا الى عم الفتى بالقاهرة أن يدعوه اليه ففعل ولبى سمعان الدعوة وشد رحاله الى القاهرة تحدوه اليها الأمانى الجسام

الهجرة الى مصر

مصر .. ما أعذب هذا الاسم فى أفواه العرب ، وما أجمل الآفاق التى تتطلع اليها النفوس كلما رف على الأسماع ذكر مصر أو جال بالخواطر . مصر هى بلد الآمال والأحلام للعربى الذى ينبو به وطنه فيضرب فى فجاج الارض . كانت مصر فى عهد المترجم له قبلة الأنظار وكعبة الرواد وكانت الهجرة الى مصر قد جد جدها فقصدها رجال القلم هربا من الظلم والاستبداد وسعى اليها المكافحون المجتهدون طلبا للرزق من مناهل نيلها الفياض وكان من الطبيعى أن يدور ذكر مصر على الألسنة فى بلاد الشام بعد اذ استوطنها نفر غير قليل من الشاميين نعموا فيها بالأمن والدعة والحرية ولقوا فيها ميدانا واسع المسالك والشعاب لجدهم ونشاطهم فتواترت على الوطن الاول أنباء أبنائه المهاجرين وكلها أنباء حلوة طيبة سارة فما عتمت مصر أن أصبحت الجنة التى يحلم بها الشباب فالسعيد منهم من حقق الدهر له حلمه الجميل وساعده على النزول بواديها الأمين الخصيب

بمثل هذه الفرحة الشاملة التى تخف لها احلام الرجال استقبل الشاب سمعان دعوة عمه فما هى الا أسابيع قليلة حتى كان مشدوها بعظمة مصر وجمال القاهرة ...

نزل سمعان بالقاهرة فى سنة ١٨٧٨ وكان عمه نقولا صيدناوى تاجر أصواف فى حى الحمزاوى فألحقه بالعمل عنده ولم يفكر ولا فكر الفتى فى السعى الى الالتحاق بوظيفة كتابية فى دائرة من دوائر الحكومة او فى شركة من

الشركات الكبرى . ولعل البيئة التجارية التي عاش فيها بدمشق وانتقل اليها فى كنف عمه بالقاهرة قد حصرت تفكيره فى التجارة وضروب اعمالها وما من شك أيضا فى أن التجارة فن من الفنون لا بد له من استعداد خاص وموهبة خاصة والا كان صاحبه كالقابض على الماء فالعمل الذى لا يعدنا الله له ولا يهبنا ملكته ولا نزاوله بحب وشوق وشغف هيهات أن ننجح فيه ولو بذلنا له وافر القوى وارسيناه على أضخم القواعد والأركان

ولا جدال فى أن سمعان صيدناوى كان الله قد وهبه ملكة التجارة ويسر له العمل والحياة فى بيئة تجارية وحباه نفسا جادة نشيطة مجتهدة تحب العمل الذى وقفت عليه فكأن الله قد منحه بذلك أول مقومات النجاح

مائة جنيه

مكث سمعان يعاون عمه فى عمله مدة ثلاثة أشهر وأظهر من ضروب النشاط والحذق ما حمل عمه على العناية بمستقبله ، فمثل هذه الطاقة من النشاط يجدر بها أن تستغل فى عمل مستقل يستفيد منه الفتى ويشيد به صرح مستقبله فنفح ابن أخيه براس مال صغير أضيف الى المبلغ الضئيل الذى كان سمعان قد ادخره من عمله بدمشق ولعل هذا وذاك لم يبلغا مائة جنيه فكانت هذه المائة من الجنيهات راس مال حانوت صغير فى الحمزاوى لا تزيد مساحته عن مترين فى مترين استقل به سمعان وتعاطى فيه تجارة ما نسميه بمصر ب « الخردوات » وهى مجموعة من السلع الصغيرة كبكر الخيط والمناديل والقمصان الداخلية والأزرار والشرائط والجوارب والأقمشة الرفيعة المخرمة وما لى ذلك

وسار الفتى على بركة الله يدير محله الصغير بنشاط لا يعرف الملل وهمة تفتك بالصعاب ومقدرة فذة راضيا

بالربح القليل مقتصدا فى النفقات حتى بدأت بواكير النجاح تبتسم له ابتسامة الخيط الرفيع من النور قبل انبلاج الفجر

وترامت اخبار سمعان الى أهله بدمشق فقرت أعينهم وحببت الى سليم اخيه الأكبر أن يولى وجهه شطر مصر شطر جنة الله فى أرضه ليجنى منهـا ثمرة كده وفلاحـه فها هو ذا شقيقه سمعان لم يحل عليه الحول بمصر حتى استقامت له تجارة ولو صغيرة يكسب منها رزقه فى جو مشبع بالحرية والاستقلال

الاخوان بالحمزاوى

هبط سليم القاهرة فاخذ كما اخذ شقيقه سمعان من قبل بمعالمها العظيمة ومجال العمل الواسع فيها فطاب له أن يزاول بها الصناعة التى كان يزاولها بدمشق وهى خيـاطة الملابس. فاشترك هو وصديق له يدعى مترى صالحانى وفتحا دكانا لخياطة الملابس فقد كان سليم حاذقا فى هذه الصناعه غير أن القدر بعد أن بسم للشريكين قليلا فجعهما باحتراق الدكان وذهاب ما فيها طعمة للنار . فطيب سمعان خاطر أخيه ونصحه بهجر صناعة الخياطة واقترح عليه مشاركته فى حانوته فرضى بالاقتراح واضاف الى رأس مال الحانوت ما كان قد ادخره من نقـود وهكذا أسس محـل « سليم وسمعان صيدناوى » فى ذلك الحانوت الصغير بحى الحمزاوى

انقطع الشقيقان الى عملهما لا تأخذهما فيـه ونيـة ولا هوادة وافرغا عليه من نشاطهما وجهدهما ما انتزعا به من يد الدهر قصب السبق والفلاح ، فالعمـل ولا شىء غير العمل هو شغلهما الشاغل وهو الأنس والبهجة والمراح ، فما عرفا طريقا الى مقهى يقطعان فيه الوقت بمدى الكسل والتراخى ، وانما عرفا طريقا واحدة يذرعانها كل يوم بين حانوتهما الصغير وغرفتهما المتواضعة التى يسكنانها فى حى « درب الجنينة » . فكانا اذا أقبل المساء وانقطعت السابلة

سهرا فى دكانهما حتى الساعة العاشرة أو الحادية عشرة ليلا يدبران أمورها وينظمان شؤونها ، ويرتبان رفوفها وعلبها ويصفان صررها وبقجها ليستقبلا العملاء فى صباح اليوم التالى على خير وجه من الاستعداد والنظـام والترتيب . وكانا اذا أويا الى غرفتهمـا دارت أحاديثهمـا على البيع والشراء وعلى حركة الأخـذ والعطـاء يتفننان فى ابتكار الوسائل التى تقودهما فى معارج النجاح

مثابرة وجهاد

ولئن كان الأخ الأكبر لم يعمر طويلا فان سمعـان قد عمر حتى بلغ الثمانين فما خبا له نشاط حتى فى شيخوخته فكان يقبل على العمل فى الصباح مع مستخدميه أو قبلهم وينصرف فى المساء بعدهم فرجل هذا شأنه وهذا تقديسه للعمل وانقطاعه اليه ناجح لا محالة فى الحياة فالنجاح طائر يقتنص بشرك العمل ولنا بسيرة سمعان صيدناوى الأسوة الحسنة والمثال الحى

مشى الأخوان بحانوتهما الصغير من نجـاح الى نجـاح وكافأهما الدهر على همتهما القعساء وجهادهما المتواصل ولكن العمل لم يكن وحده السهم الذى ضربا به كبد الفلاح والنجاح فهناك عامل آخر كان له نصيب كبير فى نجاحهما وهو الاستقامة والصدق فى المعاملة والتزام الكسب الحلال ليس الا ... وفى حياة سمعان صيدناوى الطويلة أمثلة كثيرة للاستقامة التى كانت عاملا من عوامل نجاحه واليك مثلا واحدا منها :

كانت نساء البيوتات فى عهـده لا ينزلن الى الأسواق مشتريات . وانما كن ينلن ما يبتغين بوساطة الدلالات وهن نسوة كن يطفن بالدكاكين وينتقين منها الأقمشة والسلع ويعرضنها على ربات البيوت المخـدرات فيشترين منهن ما يروق فى أعينهن ويحلو

وفى صباح يوم من الايام بينما كان سمعان فى دكانه الصغير قد استعد لاستقبال العملاء وافته احدى الدلالات واشترت منه عشرين مترا من الشبيك المخرم (الدنتلة) ونقدته الثمن وانصرفت وراجع سمعان مبلغ النقود بعد انصرافها فاذا هو ضعف ما يقتضى ففطن الى أن الدلالة حسبت السعر « بالقرش الصاغ » فى حين طلب هوالسعر «بالقرش التعريفة» (*) فركض خلفها ليفهمها انها غلطت فى الحساب ، وليرد اليها فرق الثمن فأدركها على مسافة بعيدة وصاح فيها وهو يلهث :

ــ حسابك مغلوط يا سيدتى

ــ لا . لا . لا غلط . دفعت الحساب تاما كاملا

واصمت أذنيها عن سماع أى شرح وتفسير كان وهمت بمتابعة السير الى غايتها فاستوقفها وقال :

ــ دفعت زيادة عن المطلوب . دفعت ضعف الثمن

فأصاخت اليه وعادت معه أدراجها الى دكانه ، وبين لها مصدر الغلط ونقدها الفرق فتهلل وجهها وشكرته على استقامته وأمانته واستودعته الله وانصرفت تنقل الخبر الى سيدات « الدائرة » من عميلاتها وتروى لهن أمانة « الجدع الشامى الحليوة » وكان سمعان على ما وصفت الدلالة وسامة وقسامة حباه الله جمال الخلق والخلق ، فتطاير الخبر من دائرة الى دائرة ومن بيت الى بيت ، وأصبحت سيدات القصور والبيوتات يوصين الدلالات بابتياع حاجاتهن من دكان الشاب الشامى الوسيم الأمين ...

شهرة ونجاح

اتسعت أعمال الأخوين وكثر عملاؤهما وازدادا همة

(*) من العادات بمصر اطلاق لفظ القرش الصاغ على القرش الواحد الصحيح ولفظ القرش التعريفة على نصف القرش

ونشاطا وتدفق عليهما الرزق وأصبح لهما فى المصرف رصيد يعتد به جمعاه بالجد والاجتهاد والمثابرة ففكرا فى الانتقال بتجارتهما الى مكان أوسع فاشتريا فى حى «الموسكى» منزلا قديما هدماه ثم شيداه تشييدا جديدا يفى بالغرض الذى توخياه وافتتحاه فى عام ١٨٩٦ وكان أكبر محل للبيع بالقاهرة فى ذلك العهد ، وهو الذى كان معروفا بمحل « بلاتشى » فى حى « الموسكى » فنظماه صفوفا وأجنحة وخصصا كل جناح بضرب من السلع ففتح الله عليهما أبواب الرزق وصارت امنية كل شار ان يزور اولا محل سمعان ويبتاع منه ما يهوى ويشتهى

وطارت شهرة المحل وأصبح لا يعرف الا بمحل سمعان لأن سمعان كان فيه الركن الركين لا يغيب عنه لحظة واحدة من لحظات النهار ذلك بأن الأخوين كانا قد اقتسما العمل فيما بينهما فاختص سليم وكان اداريا حازما بمهمة الادارة والشراء وتزويد المحل بالسلع اللازمة يسافر من اجلها الى اوربا ويشتريها من مواردها الأصيلة ، واختص سمعان وكان لسنا لبقا ظريفا بمهمة استقبال العملاء والاشراف على صفقات البيع وارضاء كل عميل فلا يخرج من محله الا وهو شاكر راض . فكان من حسن ادارة سليم ان سار محلهما سيرا قويما منظما . وكان من بعد نظره ان وظف الفائض من اموالهما بشراء الأرضين التى يتوسم لها مستقبلا زاهرا ، فاشترى كثيرا من العقار والارض الفضاء فى حى الخازندار وحى ابراهيم باشا وكان من قبل يعرف بحى نوبار باشا ، فارتفعت قيمة الارض والعقار على توالى السنين ، وجنى الأخوان من ذلك الربح الحلال . وكان من اضطلاع سمعان بشؤون البيع والسهر على رضى العملاء ان نمت تجارتهما نموا مطردا ودارت كلمة « سمعان » على كل لسان حتى ان النساء المحصنات ما كن يرضين ببضاعة

تزجيها اليهن الدلالات ان لم تكن ملفوفة بورق يحمل اسم سمعان .

وازداد الاقبال على محل سمعان فأصبحت رقعة المحل على كبرها واتساعها لا تفى بازدياد حركة البيع وازدحام العملاء فاشترى الأخوان محلا حديدا ازاء محلهما الكبير يقع على شارع الخليج المصرى وخصصاه ببيع « المفروشات » فدرت عليهما الاستقامة ودر عليهما العمل الحثيث الجزاء الأوفى يهطل عليهما من شآبيب محلهما الكبير ومحلهما الجديد ومحلهما الصغير الاول فى حى الحمزاوى

وينتقل سليم الأخ الأكبر فجاة الى رحمة الله فى سنة ١٩٠٨ فيجزع عليه سمعان جزعا شديدا ويفقد فيه شقيقا غاليا ونصيرا ومعاونا ويأبى أن يستقل بالعمل وحده من بعده فيشرك معه ورثة أخيه

محلات صيدناوى بالخازندار

وينهض سمعان بالعبء العظيم وتزداد أعمـاله اتساعا ويزداد هو جلدا على الجهاد والكفاح والعمل المتواصل ويرى أن ثقة الناس به تضطره الى التوسع فيقرر توحيد محاله الثلاثة فى محل واحد كبير واسع ولم يجد خيرا من العقار الذى يملـكه فى حى الخازندار وكان مجمـوعة من الدكاكين والمقاهى فبدأ يهدمها فى سنة ١٩١١ ويبنى على انقاضها محله العتيد الكبير حتى فرغ من البناء فى سنة١٩١٣ واحتفل بافتتاح « محلات سليم وسمعان صيدناوى » فى اليوم الثانى من شهر نوفمبر من عام ١٩١٣

وكان نجلاه يوسف وجورج ونجـل شقيقه الياس قد بلغوا فى ذلك العهد طور الشباب والرجولة فعهد اليهم فى ادارة هذا المحل الكبير وبقى هو حتى آخر لحظة فى حياته يضطلع بالعمـل كأى فرد من الأفراد حتى توفاه الله عن شيخوخة صالحة فى سنة ١٩٣٦ بعد اذ اكتحلت عينه برؤية

حانوته الصغير فى حى الحمزاوى ينمو وينمو وينمو حتى ينقلب الى ذلك البناء الواسع الفخم فى حى الخازندار وحتى يكون له فروع بالاسكندرية والمنصورة وطنطا والفيوم واسيوط وبور سعيد وباريس ومنشستر ، ويضطلع اليوم بادارة هذا العمل الواسع انجاله واحفاده يتزعمهم نجلاه يوسف وجورج ونجل شقيقه الياس ناهجين جميعا نهج الأبوين فى العمل والاستقامة والذكاء والاحسان

عناصر النجاح

يعزى نجاح سمعان صيدناوى الى العمل والاستقامة وهما عنصران رئيسيان من عناصر النجاح ويعزى نجاحه كذلك الى الذكاء الفطرى الذى توجهه الملكة التجارية فالعمل المضنى والاستقامة اذا اجتمع اليهما الذكاء تألف منهما ثالوث كفيل بأن ترسى عليه قواعد النجاح . ولقد كشفنا فى نفس سمعان صيدناوى اقنومين من ذلك الثالوث فلنجتزىء فى الكشف عن الأقنوم الثالث فى نفسه بسرد الواقعتين التاليتين ففيهما الدليل المقنع على الذكاء المنبعث من الملكة التجارية فيه :

كان سمعان ذات صباح واقفا على باب محله فى حى الموسكى يشيع بابتسامته الحلوة وتحيته الرقيقة العملاء الخارجين من محله بعدما ابتاعوا منه حاجاتهم فلمح وراءهم سيدة صفر اليدين قد جمعت ملاءتها وهمت بالخروج فاقبل عليها كعادته يسالها لماذا لم تشتر مطلوبها ، فقالت له ان الأثمان عندكم غالية ، فبكرة الخيط تباع بتسعة مليمات وانتم تبيعونها بعشرة ، فطيب خاطرها وعاد بها الى جناح بكرة الخيط وقال :

— كم بكرة تريدين يا سيدتى ؟

— اربع وعشرون

فأمر البائع بحسبان سعر البكرة الواحدة بتسعة مليمات فافترت أسارير المرأة وعلت وجهها قسمات الرضى. وكانت احدى الدلالات جاءت تبتاع جهاز عروس فابتدأت ببكر الخيط . وكان الجناح الخاص به فى مقدمة المحل ثم ما لبثت أن ابتاعت كل ما تريد فبلغت قائمة الحساب ١٢٠ جنيها ذهبا نقدته اياها راضية مسرورة ، فلولا ذلك المليم الذى نزل عنه لفاته الربح الذى جناه من بيع تلك الصفقة ، ولكنها النظرة السديدة وذكاء المهنة ...

والواقعة الثانية تتلخص فى أن سمعان كان فى سنة ١٩٠٨ يصطاف بلبنان فانتهى اليه أن الشيخ سلامة حجازى قد وفد الى بيروت على رأس جوقه الشهير فخف سمعان هو ونفر من أصدقائه المصريين الى بيروت لسماع الشيخ سلامة ، ولكن الشيخ عز عليه أن لا يزيد عدد النظارة على عدد أصابع اليدين فألغى الحفل وادعى المرض فذهب اليه سمعان وصحابه يعودونه ويستفسرون عن صحته فأخبرهم بخيبة أمله ، وبأنه صحيح معافى ولكن يشق عليه بعد النفقات الطائلة التى تجشمها أن يغنى ويمثل فى حضرة أفراد قلائل لا يملأون مقاعد صف واحد من صفوف القاعة فأخذ رفاق سمعان يواسون الشيخ سلامة ويمنونه بالاقبال فى الليالى المقبلات فيجيب الشيخ على هذه الأمانى ببسمة صفراء تشتمل كل معانى اليأس والقنوط . وعلى حين فجأة ينتفض سمعان ويقترب من الشيخ وهو يقول :

ــ يا عزيزى الشيخ

ــ لبيك يا أخى سمعان

ــ ان الشعب اللبنانى مرح طروب يقدر الغناء ويعشق الصوت الجميل ولكنه لا يتحرك الا عن ثقة واقتناع وهذه هى المرة الاولى التى تزور فيها بيروت فاعذره اذا هو لم يعرف من هو الشيخ سلامة حجازى

فلم يخرج الشيخ عن بسمته الصفراء فاستأنف سمعان حديثه وقال :

ــ ألم تكن يا عزيزى الشيخ ترتل القرآن وتعلو المآذن قبل أن تعلو المسارح

ــ بلى ...

ــ اذن تذهب غدا وهو يوم جمعة الى مسجد بيروت وتؤذن الظهر بصوتك الرخيم فينساءل عنك الناس حتى يعرفوك ولسوف يقبلون على مسرحك فى المساء وانا كفيل بأنه لن يكون فيه موضع لقدم .

وكان ما قدره سمعان ..

ليس الذكاء علما بالغيب وانما هو تقدير صحيح للأمور ونتائجها فمن وهب ملكة من الملكات ساعده الذكاء المنبثق منها على جلاء الغوامض وتدارك العواقب . فالملكة التجارية هى التى أوحت الى سمعان بذلك الاقتراح فنعم الشيخ سلامة بنتيجته الحسنة . ونحن ان عرفنا عن سمعان صيدناوى هاتين الحادثتين وحكمنا له استنادا اليهما بالذكاء فما من شك أن هناك كثيرا من مثيلاتهما عرضت له فى الحياة ووجهه فيها الذكاء وبقيت سرا مكتوما توشح بها سر النجاح

الجزء الثانى

عصاميون من الغرب

توماس اديسون



توماس اديسون

العصامي الذى يسر سبل الحياة ووهب للناس من آيات العلم ومنتجات آثاره ما رفه عنهم وغمرهم بالخيرات والبركات

العالم العصامى

كان فى السابعة من عمره حين دخل المدرسة لاول مرة ، فى بلدة « بورت هورون » بولاية « متشيجان » الامريكية ، بعد أن انتقل اليها مع والديه : « صمويل اديسون » و « نانسي اليوت » من قرية « مويلان » الصغيرة بولاية « أوهيو » حيث رزقا به فى ١١ من فبراير سنة ١٨٤٧ .

ولم تزد فترة التحاقه بهذه المدرسة على ثلاثة أشهر، ثم لم يدخل بعدها اية مدرسة ، فقد صرح معلموه فيها بانه من الغباء والبلادة بحيث لا يصلح للتعليم ، ولم يكن راى والده فيه خيرا من راى معلميه !

على أن والدته وكانت مدرسة سابقة ، عز عليها أن يخيب املها فى وحيدها العزيز « توماس » فأخذت على عاتقها مهمة تعليمه فى المنزل ، وواصلت القيام بهذه المهمة زهاء ثلاث سنوات ، اتقن الصبى خلالها القراءة والكتابة ، والم بمبادىء بعض من العلوم والفنون . وقرا باشرافها طائفة من الكتب المفيدة اهمها : « دائرة المعارف الصغرى » و « قاموس العلوم » للاستاذ « بور » و « تاريخ انجلترا » للاستاذ « هيوم » وكتاب « اضمحلال الدولة الرومانية وزوالها » للمؤرخ « جيبون » . وحاول قراءة كتاب « نيوتن » لكنه لم يطق المضى فيه ، وكره الرياضيات كلها من ذلك الحين !

وكان هذا نجاحا عظيما لتوماس الصغير ووالدته ؛ غير أن ظروف الأسرة المعيشية ، قضت بأن يقف الصبى عند

هذا الحد من الدراسة المنزلية ، وبأن يعمل بائعا للصحف ، سعيا وراء القوت !

وبعد قليل ، انتقل الصبى من بيع الصحف فى الشوارع ، الى بيعهـا فى قطـارات السكة الحديدية فيما بين « بورت هورن » ومدينة « ديترويت ». واتسع نطاق تجارته فصار يبيع للمسافرين ـ علاوة على الصحف ـ بعض الكتب ، واكياس الحلوى والفول السودانى وما اليها !

ورغم قلق والدته الدائم وخشيتها على حياته من اخطار الحوادث فى عمله اليـومى الشاق ، كانت حريصـة على تشجيعه ، وتقوية روحه المعنوية ، مع العناية بنظافتـه ونظافة ملابسـه . ولكنه لم يكن يعبأ كثيرا بمظهره ، فيكتفى فى اكثر الأحيان بنظافة وجهه ويديه واقمصته ، أما بذلته فلم يكن يبدلها الا حينما تبلى ، واما حذاؤه فلم يكن تنظيفه يعنيه فى قليل ولا كثير

يصدر مجلة

مضى توماس اديسون فى عمله المضنى المتواصل ، راضيا به ، باذلا من النشـاط ما لا يطيقه الا اولو العزم من الشباب الأقوياء ، مع انه لم يكن قد جاوز الثالثة عشرة من عمره !..

وما كاد يمضى فيه سنتين حتى تاقت نفسـه الطموح الى المزيد من النجاح ، وهداه ذكاؤه الى اصدار مجلة صغيرة سماها « ويكلى هيرالد » طولها شبران ، وعرضها شبر ونصـف شبر ، وثمن النسخـة منها سـتة مليمـات ، واشتراكهـا الشهرى ستة عشر مليمـا . فاشترى لذلك بعض الحروف القـديمة من مطبعـة « ديترويت الحرة » . كمـا اشترى آلة طبـاعة صـغيرة كانت تسـتعمل لطبع الحسابات فى احد الفنـادق ، ثم اخـذ يحرر المجلة ويجمع حروفها ويطبعها ويوزعها فى القطار . وظهر العدد الأول منها فى ٣ من فبراير سنة ١٨٦٢ وسرعان ما اجتـذبت

اخبارها الطريفة اعجاب المسافرين ، فبلغ ما كان يوزعه من كل عدد منها ۲۰۰ نسخة ، ولم تتم المجلة سنتها الاولى حتى جاوز عدد المشتركين فيها خمسمائة . وبذلك تضاعف ايراد الصبى المجد المبتكر ، اذ بلغ ربحه من مجلته وحدها ٤٥ دولارا فى الشهر ، وكان بارا بوالديه فخصص هذا الربح كله لمساعدتهما !

لم يكن الكلل أو الملل يعرف سبيله الى نفس الصبى توماس ، وقد شجعه نجاح مجلتـه على مضاعفـة جهوده الشاقة لبلوغ غايات ابعد ، فانشأ بجانب مطبعته فى القطار معملا صغيرا جمع فيـه بعض آلات التلغراف والأسلاك المختلفة وزجاجات بها بعض المواد الكيمياوية ، واخذ يمضى اوقات فراغه من العمـل فى اجراء التجارب لاختراع آلة تلغرافية من نوع جديد

على أن الحظ بدأ يقلب للصبى المجتهد ظهرالمجن ، فحدث يوما وهو منهمك فى تجاربه أن اشتد اهتزاز القطار أثنـاء اجتيازه طريقا وعرا ، فانقلبت زجاجة الفوسفور وانسكب ما فيها على أرض العربة فاشتعلت النار فيها . ومع انه سارع الى اطفاء الحريق ونجح فى ذلك بعد جهد جهيد ، لم يسع سائق القطار فى شدة غضبه وحنقه الا أن ينزل به أشد العقاب ، فقذف به وبمطبعته وكل أدواته وأمتعتـه من القطار فى أول محطة وقف بها بعد اطفاء الحريق . ولم يكفه ذلك فأهوى بيده الغليظـة على وجهه بضربة قوية أليمة ، بقى الصبى يعانى آثارها طيلة عمره ، اذ أدت الى فقـد اذنه اليسرى قوة السـمع ، وذهبت كل محاولاته لعلاجها مع الريح !

مصاعب وعقبات

ولم يفت ذلك الحادث فى عضد الصبى فاستأنف اصدار مجلته وتجاربه الكيميائية فى غرفة خصصها له والداه بأعلى

المنزل . واستطاع ان يحافظ على ما بلغته المجلة من رواج كما وصل فى تجاربه التلغرافية الى ما يبشر بالنجاح ، فمد بين غرفتــه وبين مساكن بعض زملائه من صبية المدينــة أسلاكا كالتى تســتعمل فى المواقد ، مستعينــا على ذلك بالأشجــار القائمة فى الطــريق ، واستعمل أعنــاق بعض الزجاجات لتقوم مقام الآلات العازلة . ولكنه قبل ان يتم ذلك المشروع فوجىء بحادث لم يكن فى الحسبان ، اذ اتفق ان نفرت بقرة لأحد الجيران ذات ليلة ، فحطمت احــدى الشجرات التى ربط بها أسلاكه ، ثم اخذت تحاول التخلص من الأسلاك التى التفت حولها ، وتطلق فى خلال ذلك خوارا عاليا أزعج الجيران جميعا ، فهبوا من مراقدهم ساخطين ، وكانت النتيجة أن أتلفوا كل تلك الأسلاك والادوات التى أعدها لمشروعه الخطير !

وابى سوء الحظ الا أن يمتد الى العمــل الصحفى الذى نجح فيه توماس . فقد أشار عليه صديق له أن يصدر صحيفة جديدة باسم « بول براى » بدلا من مجلته الاولى ، ولم تض على ذلك أســابيع حتى نشر خبرا خاصــا فى صحيفته الجديدة أسخط عليه احد رجال المدينة ، وما كاد يلقاه بعد ذلك حتى انتقم منه شر انتقام اذ قذف به فى نهر « سان كلير » . ولم ينج الصــحفى الصبى من الغرق الا بأعجوبة . وكان هذا الحادث بداية النهاية لذلك المشروع الصحفى ، فاحتجبت « بول براى » فجأة بعد قليــل ، وعاد توماس يبحث لنفسه عن عمل جديد

عامل تلغراف

وفق توماس بعــد أشهر الى الالتحاق بوظيفة عامل تلغراف ليــلى فى محطــة « بورت هورون » بمرتب قدره خمسة وعشرون دولارا فى الشهر . وكان الفضل فى التحاقه بهذه الوظيفة للمستر ماكنزى ناظر محطة « مونت كليمان »

وهى المحطة التى قذف اليها سائق القطار بصاحبنا توماس وأدوات معمله منذ أربع سنوات . فقد تطوع ذلك الناظر لتدريب الصبى على استعمال آلة التلغراف حتى حذقه ، ثم ساعده فى الحصول على تلك الوظيفة . وكان فى عطفه عليه واعجابه بجده وطموحه يرد له جميلا صنعه معه ، اذ خاطر بحياته يوما لينقذ طفله الحبيب من موت محقق تحت عجلات القطار !

وما كاد توماس يطمئن فى وظيفته حتى عاوده حنينه الى تجاربه العلمية ، فأعاد انشاء معمله فى مسكنه ، وأخذ يمضى أكثر أوقاته عاكفا على تلك التجارب . وكانت نتيجة هذا الجد أنه فقد عمله الليلى فى المحطة ، لأن النوم كان يغلبه وهو يؤديه !

والتحق بعد ذلك بوظيفة مماثلة فى مدينة « سارينا » . لكنه فقدها أيضا بسبب انشغاله بتجاربه ، فضلا عن أن ذلك كاد يؤدى الى كارثة اصطدام قطارين !

وفى سنة ١٨٦٤ ، عين توماس اديسون عاملا للتلغراف بمدينة « انديانا بوليس » وبلغ مرتبه خمسة وسبعين دولارا فى الشهر ، فكان يبعث الى أسرته بأكثر مرتبه ، ويخصص الجانب الأكبر من بقيته لشراء الكتب العلمية والأدوات التى يستعملها فى اجراء تجاربه

عنايته بالتجارب العلمية

وتنقل فى وظيفته هذه بين مدن أخرى أهمها سنسناتى ، وممفيس ، ولويستيل . وعرف فى هذه المدن كلها بانه أسرع عامل فى ارسال البرقيات . ولكن رؤساءه كانوا يضيقون بانكبابه على المطالعة والتجارب العلمية التى يعدونها عبثا لا فائدة فيه .. وهكذا كان لا يكاد يستقر فى عمل حتى يضطر الى تركه والبحث عن عمل آخر فى مدينة أخرى . وكثيرا ما اضطر الى السفر ماشيا وهو يحمل كتبه

وادواته وآثار الفاقة ظاهرة فى بذلته وحذائه الباليين . ثم لا يكاد يستريح من عناء رحلته الشاقة ويجد العمل المناسب لكفاءته حتى يعود سيرته الاولى !

وحدث يوما وهو فى « سنسناتى » أن كاد يقتله احد رجال البوليس ، اذ ارتاب فى أمره وحسبه لصاً ، نظرا الى هيئته الرثة ولسيره فى ساعة مبكرة حاملا رزمة ثقيلة من أعداد مجلة قديمة كان قد اشتراها فى مزاد عام . ولما صاح به آمرا اياه بالوقوف ، لم يسمع توماس صيحته بسبب أذنه الصماء وواصل سيره . فأطلق الجندى عليه رصاصة من بندقيته كادت تطيح بأذنه الاخرى وبحياته كلها !

وأخيرا انتهى به المطاف الى أن اضطر الى العودة لمدينة بورت هورون ، حيث لازم فراش المرض بمنزل والديه ، وبقى ثمانية عشر شهرا يعانى ضعف صحته بجانب آلامه النفسية بسبب فصله من عمله برغم تفوقه فيه ، وامتناع مكاتب التلغراف عن استخدامه ، لا لذنب غير اشتهاره بحب المطالعة واجراء التجارب الكيميائية أملا فى الوصول الى اختراع جديد مفيد !

ما كاد توماس اديسون يسترد صحته ، حتى اعتزم السفر الى « بوسطن » لاستكمال ابحاثه الجديدة فى الكهرباء هناك . وقد منحته شركة السكة الحديدية « جراند ترنك » تذكرة سفر مجانية ، مكافأة له على اقتراح قدمه لها أمكنها بتنفيذه استخدام سلك مائى واحد لاحداث دورتين كهربائيتين فعاد ذلك عليها بربح كبير نتيجة لقلة التكاليف !

اول اختراع له

ووجد عملا ليليا فى مكتب تلغراف لشركة « وسترن يونيون » . وقسم أوقات فراغه بين مطالعة المؤلفات ..ن

الكهرباء وبين اجراء تجاربه فيها بالمعمل الصغير الذى أنشأه فى مسكنه . وكان زملاؤه مع اعترافهم ببراعتـه فى عمله لا يكتمون سخريتهم منه لقلة عنايته بمظهره ، ولأن اشتغاله بتلك التجارب والمطالعات كان فى رأيهم جهدا ضائعا لا خير فيه !.. لكنهم لم يجدوا بدا من العدول عن هذا الرأى حين علموا بتسجيله أول اختراع كبير له فى سنة ١٨٦٩ ، وهو يومئذ فى الثانية والعشرين من عمره ، وكان ذلك الاختراع آلة كهربائية لتسجيل أصوات الناخبين !

على أن هذا الاختراع لم يفده شيئا ، اذ رفضت الهيئة التشريعية فى الولاية استخدامه

وحــدث فى ذلك الحين أن دعى الى القــاء محاضرة عن التلغراف باحدى المدارس ، وشغلته تجاربه عن تذكر موعد المحاضرة ، الى أن نبهه اليه صديقه «ادامز» فى آخر لحظة ، واصطحبه الى المدرسة وهو ما زال يرتدى ثوب المعمل ، وشــــدما كان حرجه حين فوجىء بأن أكثر من فى قاعة المحاضرات من السيدات والآنسات المتأنقات ، لا من الطلبة كما توقع هو وصديقه !

ولم يطق البقاء طويلا بعد ذلك فى بوسطن ، ولاسيما أن ديونه أخذت تزداد حتى بلغت نحو ثلاثمائة دولار ، فترك عمله فيها ، وسافر الى نيويورك حيث أمضى ثلاثة أسابيع متعطلا لا يكاد يجد القوت الضرورى لبقائه على قيد الحياة !

وفى ذات صباح ، توجه الى مكتب المالى المعروف مستر « لو » صــاحب شركة « ريبورتنج » للذهب ، ليطلب عملا يعيش منه ، واتفق أن أغمى فى المكتب على الموظف المختص بكتابة اســعار الأسهم ، وأدى ذلك الى تعطــل الاعمــال فى نحو ستمائة بيت من بيوت الاوراق الماليــة المتعاملة مع المكتب . فانتهز توماس اديسون هذه الفرصة ،

وقدم لصاحب الشركة اقتراحا عمليا لتلافى مثل ذلك التعطيل فى المستقبل ، فاعجب هذا باقتراحه ، وعينه مديرا لادارة المكتب بمرتب شهرى قدره ثلاثمائة دولار !

٤٠ الف دولار

اتصل اديسون بعد قليل بالجنرال مارشال مدير شركة « جولد ستوك تلغراف » واخترع للشركة آلات مختلفة لكتابة أسعار الأسهم وغيرها ، وقد وصف هو فيما بعد ما شعر به حين عرض عليه ٤٠ الف دولار ثمنا لأحد اختراعاته ، فقال : « لم أصدق سمعى أول الأمر ، فلما تحققت ذلك كدت اقع مغشيا على من شدة المفاجاة ! »

وما كاد هذا المبلغ يصل الى يده حتى انشأ به مصنعا لنفسه فى « نيو آرك » بمدينة « نيوجرسى » . استخدم فيه نحو ثلاثمائة عامل . ثم توالت مخترعاته التلغرافية ، وفى مقدمتها : آلة مزدوجة ترسل بواسطتها على سلك واحد فى وقت واحد ، رسالتان الى جهتين مختلفتين . وآلة رباعية ترسل بها فى وقت واحد اربع رسائل كل اثنتين منها الى جهة ، وقد اشترتهما منه شركة « وسترن يونيون » بثلاثين الف دولار ، انفقها كلها فى سبيل اختراع آلة سداسية ، اشترتها منه الشركة نفسها ، فوفرت باستعمالها ملايين الدولارات

وفى سنة ١٨٧٣ تزوج توماس اديسون من احدى العاملات فى مصنعه ، فأنجبت له ابنته مارى استل ، وولديه توماس الفا ، ووليام لسلى . وبرغم حبه لزوجته واولاده كان يبذل الجانب الأكبر من وقته وجهده وماله فى سبيل تجاربه العلمية ، واعلن انه بسبيل اختراع آلة تلغرافية تعمل بنفسها ، فكان ذلك مدعاة لتهكم الصحف عليه والسخرية منه ، على انه لم يعبأ بشىء من ذلك ، ومضى فى سبيله حتى حقق تلك المعجزة الكبرى !

ثم اخترع آلة تسجل مائتى كلمة فى الدقيقة وترسلها على سلك واحد طوله ٢٥٠ ميلا ، وادخل على هـذه الآلة تحسينات عدة فصارت تسجل فى الدقيقة الواحدة ٣٢٠٠ كلمة !

وفى سبيل تحقيق هذه المعجزة ، اضطر العالم المخترع الشاب الى قراءة أكداس من كتب الكيمياء ، جلبهـا من لندن وباريس ونيويورك ، وبقى ستة أسابيع لا يغادر معمله ليل نهار أجرى خلالها اكثر من الفى تجـربة ، وملأ مجلدا ضخما بملخصات الـكتب التى قراها ، وكان يأكل أثناء قراءته ، وينام على الكرسى الذى يجلس عليه !

اختراع المصباح الكهربائى والفونغراف والسينما

وفى سنة ١٨٧٨ عكف اديسون على اختراع مصباح كهربائى صغير الحجم محتمل الضوء يمكن استخدامه بدلا من مصابيح الغاز ، وقضى فى تجاربه المتواصلة ثلاثة عشر شهرا ، انفق فى خلالها ما يزيد على مائة الف ريال ، ولـكن جهوده كللت بالنجـاح فسجل اختراعه لذلك المصـباح فى يناير سنة ١٨٨٠ ، واشرف على انشاء مصنع فى « منلوبارك » لصناعة الزجاجات المفرغة من الهواء ، ثم توفر على انشاء محطة لتوليد الكهرباء فى نيويورك لمن يريد استعمال ذلك المصباح !

وقبل ذلك بسنتين سجل اديسون اختراعه آلة لتسجيل الصوت « الفونغراف » ، وكانت آلة « الكينمتوسكوب » التى اخترعها بعدئذ تمهيدا لطريق اختراع السينما !. ثم اخترع آلة للسينما الناطقة لم يقـدر لها الرواج لـكثرة تكاليفها . كما أخرج عشرات من المخترعات من بينهـا : « التاسيمتر لقياس حرارة النجوم ، و « الميجافون » لحمل الصوت مسافات شاسعة ، و « الايروفون » لتكبير الصوت الى مائتى ضعف ، و « الميميوجراف » لطبع المذكرات وما اليها ، وآلة مغناطيسية لتحليل المعادن . كما سجل عشرين

ابتكاراً لتحسين البطارية المشحونة بالكهرباء ، فمهد السبيل الى ابتكار العربات التى تسير الآن بالكهرباء فوق الارض وتحتها !

زواج اديسون

وفى ذلك العام نفسه تزوج من الآنسة « مينا ميلر » وهى ابنة أحد أرباب الصناعة ، ثم اشترى ضيعة على مقربة من معمله ، مساحتها ثلاثة عشر فدانا من حدائق وبساتين ، وفيها بيت أنيق مبنى بالآجر والخشب . وهناك ولد له أبناؤه الثلاثة «مدلين» و «شارلز» و « تيودور » وتوافدت عليه الهدايا فى بيته الجديد تبعث اليه من أطراف الارض ؛ فتماثيل من الرخام المجزع أهداها اليه قيصر روسيا ، وأوانى يابانية ثمينة أهدتها اليه جمعية المهندسين باليابان ، ومحبرة عجيبة أهدتها اليه مصانع كروب الالمانية فى صورة مدافع وقنابل مصغرة . وكان من بين هذه الهدايا وسام « البرنس البرت » الذهبى قدمته اليه جمعية الفنون فى لندن عام ١٨٩٢ ، كما أهدت اليه فرنسا الطبقات الثلاث من أوسمة « اللجيون دونور » . وبعثت اليه جمعية التصوير الشمسى بفرنسا وسامها البرونزى ، كما بعثت اليه ايطاليا وسام « التاج الايطالى » . هذا الى أوسمة شتى جاءت اليه من المعاهد الامريكية فى بوسطن ونيويورك ومن المعارض التى أقيمت فى استراليا والنمسا وانجلترا وفرنسا وامريكا

وفاة اديسون

وتوالت السنوات على اديسون وفترت عنه قوة الشباب ، وبلغ من حياته ما لم يبلغه غيره من مخترعات ثم انطفأت الشعلة آخر الأمر وخمد نشاطه الدائب فى يوم وفاته فى الثامن عشر من اكتوبر سنة ١٩٣١ ، وكان قد بلغ الرابعة والثمانين من العمر

شارل دیکنز



تشارلز ديكنز

عجزت اسرته عن الحاقه بالمدرسة ، فبقى حتى التاسعة من عمره لايعرف القراءة والكتابة ، ومع ذلك فانه لم يكد يبلغ الرابعة والعشرين حتى كان الناشرون يتسابقون الى التعاقد معه لامدادهم بقصصه

عبقرى صنعه الفقر

فى كوخ بسيط متواضع بقرية « بورتسى » فى ضواحى ميناء « بورتسماوث » الانجليزى ، ولد تشارلز جون هستام ديكنز » فى ٧ فبراير سنة ١٨١٢ . وما أتم العام الاول من عمره حتى نقل ابوه الكاتب فى البحرية الى لندن ، فاقام بها وأسرته اشهرا معدودات ، ثم نقل مرة أخرى الى ميناء « تشاتم » . وهناك فى كوخ بسيط متواضع ايضا استقرت الاسرة المؤلفة من الزوجين وولديهما،وكان تشارلز أصغرهما ثم أخذ عدد أفراد الاسرة فى التكاثر ، بينما بقى دخلها الضئيل على ما كان عليه ، فأخذت حالتها تبعا لذلك تنتقل من سيىء الى اسوأ ، ولا سيما أن عميدها كان بفطرته مسرفا يميل الى التانق والحياة المرحة اللاهية ، كما ان ربة الاسرة كانت ساذجة لا تحسن التدبير !

دراسته وشقاء اسرته

وبقى تشارلز حتى بلغ التاسعة من عمره لا يعرف القراءة والكتابة ، اذ عجزت أسرته عن ادخاله المدرسة . على أن والده كان يختصه بكثير من رعايته وعنايته ، ويصطحبه فى رحلاته القصيرة الريفية حيث يزوده بطرائف المعلومات والمشاهدات ، ويروى له الكثير من القصص والحكايات المسلية ، كما يقوم امامه احيانا بتمثيل الأدوار الهزلية التى برع فى ادائها . . ثم أتيح للصبى أن يبدأ دراسته فى مكتب أولى يشرف عليه الأب جيلز قسيس طائفة المعمدين بالقرية، فمكث فى هذا المكتب نحو سنتين تعلم فيهما القراءة والكتابة،

وامتلأ خياله بعشرات من الصور الرائعة عن الشخصيات التى قرأ منها فى مجموعة الكتب والصحف القديمة التى كانت مكدسة فى غرفة على سطح ذلك المكتب

ثم انتقل الصبي مع أسرته الى لندن للمرة الثانية ، اذ نزح اليها عميدها بعد أن أثقلته الديون ، راجيا أن يجد فيهـا مخرجا من الضائقة التى استحكمت حلقاتها ، لضآلة مرتبه وكثرة أولاده !

على أن الشقاء الذى لقيته الاسرة فى لنـدن كان أشـد وأقسى ، فقد حول عميدها مرتبه الى دائنيه ، وحاولت ربة الاسرة ايجاد حل لازمتها الطاحنة ، فانتقلت بها الى مسكن جديد اعتزمت أن تجعل منه مدرسة للفتيات ، وارسلت ابنها تشارلز الى المنازل القريبة ليوزع الاعلانات التى ضمنتها برامج الدراسة ، ولكن الفشل الذريع كان نصيب كل هذه المحـاولات ، وسرعان ما تبخرت آمال الزوجين ، فأوقع الدائنون الحجز على أثاث مسكن الاسرة ، وسيق عميدها الى سجن « المارشالسى » المخصص للمدينين المماطلين . وانتهى الأمر بتشارلز المسكين الى ان اضطر وهو فى الحادية عشرة من عمره الى ان يخلد الى اليأس من استطاعته مواصلة الدراسة ، وأن يتناسى آماله التى طالما راودت خيـاله وفى مقدمتها ان يصبح مالكا لقصر « تل كاد » التاريخى الفخم ، الذى كان يسترعى انتباهه ويثير خواطره واحلامه كلما مر عليه فى جولاته الريفية مع ابيه بالقرب من قرية تشاتم !..

وهكذا وجد الصبي نفسه فى هذه السن الغضة ، يرزح تحت أعباء ثقيلة من الأعمال المنزلية المختلفة ، ومن التردد الى السوق ، ورعاية الصغار من اخوته واخواته ، ومحاسبة الدائنين ، وزيارة ابيه فى السجن من حين الى حين !

عمله فى مصنع

وقدر للصبي البائس أن يجد عملا أكثر استقرارا واعظم

اجرا ، وان لم يكن فيه ما يتفق وأحلامه وأمانيه فى مواصلة التعليم . وكان عمله الجديد هذا فى مصنع متواضع مظلم لانتاج نوع من الدهان الاسود ، كان يملكه قريب لوالدته . فصار يمضى أكثر ساعات النهار فى تعبئة ذلك الدهان فى الزجاجات المعدة لذلك ، ثم يضع كلا منها فى ورق خاص يلفه حولها باحكام ، بعد أن يلصق بها بطاقة باسم المصنع وعنوانه ونوع الدهان . وقد استطاع تشارلز أن يحذق عمله ويتقنه ، برغم انه يختلف عن ميوله كل الاختلاف ، وبرغم شعوره بالمرارة فضلا عن التعب لاضطراره الى ترك الدراسة واحتراف عمل يدوى حقير ، يزامله فيه رفاق غلاظ القلوب والطباع ، لاحظ لهم من المعرفة او حسن الذوق ، وفيهم مع ذلك من يتناول ضعف أجره الذى لم يكن يزيد على ستة شلنات فى الأسبوع !

ولم تستطع السيدة ديكنز أن تصمد طويلا للقيام وحدها بحمل أعباء الأسرة المدينة البائسة ، وكان مصرحا لأهل المدينين المسجونين أن يعيشوا معهم فى السجن على أن يدفعوا أجر سكنهم فيه ، فانتقلت الى هناك بأولادها جميعا — ما عدا تشارلز — اذ اتخذ لنفسه مسكنا خاصا بالقرب من المصنع الذى يعمل فيه ، مكتفيا بتمضية يوم الاحد من كل اسبوع مع أسرته فى السجن !.. ثم انتقل الى مسكن آخر أقرب الى السجن ، وبذلك صار فى استطاعته أن يفطر مع الاسرة فى ساعة مبكرة من الصباح ، وأن يمضى معها فترة أخرى فى المساء بعد فراغه من عمله الى أن يحين موعد انصراف الزائرين وغلق أبواب السجن على من فيه !

شعاع من الأمل

وفى ظلام البؤس واليأس الذى ساد حياة أسرة ديكنز ، انبثق فجأة شعاع من الأمل ، مصدره ميراث صغير هبط على عميدها من حيث لا يحتسب ، فاستطاع أن يسدد

الديون التى ادت به واسرته الى الاقامة بالسجن ، ولكن تشارلز لم يستطع الاستغناء عن عمله فى المصنع ليواصل تعليمه الا بعد أشهر طويلة حين وقع خلاف بين والده وبين صاحب المصنع قريب زوجته . وكانت المدرسة التى أقنع الصبى والده بأن يلحقه بها هى « أكاديمية ولنجتن هاوس » والدراسة فيها تسير طبقـا للطرائق التربوية العتيقـة ، والمدرس الأول فيها هو ناظرها مستر « جونز » الطاغية الفظ الغليظ القلب ، الذى كان لا يكتفى بتوجيـه الشتائم المنكرة الى التلاميذ ، بل يكيل لهم اللكمات أحيانا ، ويهوى على ظهورهم احيانا بعصا غليظة خاصة اتخذها على هيئة السيف !

وأيا ما كان الأمر فقد عد « تشارلز » دخوله هذه المدرسة وهو فى الرابعة عشرة من عمره أكبر حادث سعيد صادفه فى ذلك الحين ، واظهر فيها تفوقا ملحوظا فى التمثيل وتأليف المسرحيات الفكهة ، كما اصدر صحيفة مدرسية ، كان يحررها ويوزعها بنفسه ، بعد ان يكتب نسخها المعدودة على أوراق ينتزعها من كراساته !

ولكن سعادة الصبى لم تلبث الا قليلا ، ثم وجد نفسه مرة اخـرى مضطرا الى ترك الدراسـة للبحث عن عمل يعيش منه ، لأن اسرته عادت فقيرة كما بدأت ، بعـد أن نفدت البقية الباقية من الميراث القليل الذى آل الى أبيه !

كاتب فى مكتب محام

وانف تشارلز من العودة الى الاعمال اليـدوية المهينة لكرامته ، وكان قد اتقن القراءة والكتابة والم بشيء من اللغة اللاتينية ، فاستطاع ان يجد لنفسه وظيفة كاتب فى مكتب محام بنسيط ، بمرتب قدره ثلاثة عشر شلنا وستة بنسات فى الاسبوع ، ثم رفع مرتبه الاسبوعى الى خمسة عشر شلنا، مكافأة له على ما اظهر فى عمله من نشاط واخلاص !

وكان أبوه قد بدأ حياة جديدة بعد نفاد المال من يده ، فتعلم فن الاختزال ، والتحق بوظيفة كاتب للمحاضر فى مجلس النواب .. فأعجب تشارلز بهذه الخطة الحازمة الحكيمة التى اختطها أبوه لنفسه ، واعتزم اقتفاء أثره فى ذلك وسرعان ما اقتنى كتابا قديما فى فن الاختزال ، دفع ثمنا له كل ما ادخره من مرتبه حتى ذلك الحين ، ثم عكف على دراسة هذا الفن فى جد ورغبة صادقة حتى بلغ فى اتقانه مرتبة لم يبلغها احد قبله فى لندن كلها ، وبذلك استطاع الحصول على وظيفة مختزل فى دار قاضي القضاة ، ثم عمل محررا برلمانيا فى بعض الصحف الصغيرة ، ولم يمض عليه فى هذا العمل بضع سنوات حتى عين محررا خاصا فى صحيفة « مورنينج كرونيكل » الكبيرة سنة ١٨٣٤ وهو فى الثانية والعشرين اذ ذاك ، وبلغ مرتبه الاسبوعى خمسة جنيهات !

فشله فى الحب

عرف تشارلز الحب ، وذاق حلوه ومره ، منذ كان فى الثامنة عشرة من عمره . ففى ذلك الحين ، ولم يكن بعد قد حصل على وظيفته فى البرلمان ، تعرف الى فتاة تدعى « ماريا بيدنل » كان أبوها صاحب مصرف متوسط فى لندن . وبادلته الفتاة الاعجاب والحب والتعاهد على الزواج، ولكن أسرتها برغم عطفها عليه لم ترض لابنتها زوجا فى مثل الحالة التى كان عليها هو من الفقر وضآلة التعليم ، وما لبثت قليلا حتى أرسلتها الى الخارج فى بعثة لاتمام دراستها العالية ، فلما عادت بعد ذلك ، كان استقبالها أياه فاترا بل باردا ، ولم تجده شيئا محاولاته المتكررة لاستعادة مودتها . ثم تزوجت بعد قليل رجل أعمال اسمه « هنرى ونتر » فانقطع بذلك آخر خيط من خيوط الآمال التى تعلق بها العاشق البائس المسكين !

اشتغاله بالقصص

وكان تشارلز قبيل التحاقه بصحيفة «مورننج كرونيكل» قد عالج كتابة قصص صغيرة عن الحياة فى لندن والريف ، ونشر سلسلة منها فى احدى المجلات الشهرية بعد أن شجعه على ذلك نشرها أول قصة بعث بها اليها بتوقيع مستعار . فاتفق مع أصحاب الصحيفة الجديدة على نقل هذه السلسلة اليها ، فى مقابل اجر اضافى قدره جنيهان فى الاسبوع ، وبذلك بلغ مرتبه الاسبوعى سبعة جنيهات . وكان اقبال القراء على هذه القصص كبيرا جدا ، مما عزز مركز الكاتب الشاب ، وما كاد يطبع المجموعة الاولى منها فى كتاب مستقل ، حتى لقى رواجا منقطع النظير ، جعله يقرر التفرغ للتاليف ، وكان ذلك سنة ١٨٣٦ وهو فى الرابعة والعشرين من عمره !

اخذ الناشرون يتسابقون الى التعاقد مع المؤلف الناجح الشاب « تشارلز ديكنز . واتفقت معه « هيئة شابمان وهول للنشر فى لندن » على اخراج سلسلة من القصص الرياضية الفكهة ، وظهر العدد الأول منها بعنوان « مذكرات بكويك » مزينا برسوم ايضاحية للفنان « سيمور » . ولكن ذلك العدد لم يلق النجاح المنشود ، ثم حدث أن انتحر الفنان سيمور ، فحل محله فى اعداد الرسوم للأعداد التالية فنان آخر اقرب اسلوبا الى روح ديكنز ، هو الفنان « هوبلت براون » . فاخذ الاقبال يزداد على هذه الأعداد حتى بلغ ما نشر منها ست حلقات . ثم قدم ديكنز لقرائه شخصية « سام ولر » التى ابتكرها فضاعف ذلك من اقبالهم على قصصه،وقفز عدد النسخ المطبوعة من الحلقة الخامسة عشرة الى أربعين الف نسخة ، بيعت كلها قبل طبعها ، فى حين أن ما طبع من الحلقة الأولى لم يزد على أربعمائة نسخة ، لم يبع الا حوالى نصفها !

شقاؤه الزوجى

وفى خلال نشر هـــذه السلسلة ، تزوج تشارلز ديكنز بكاترين هوجارت الابنة الكبرى لأحـد أصحاب صحيفة « مورننج كرونيكل » . وكانت يومئذ شابة جميلة مثقفة ، وجد فى حبها له ما لم يجد من ماريا بيدنل التى أحبها لأول مرة قبل ذلك ببضع سنين . وتم هـذا الزواج فى ابريل سنة ١٨٣٦،ولكن تشارلز ما لبث قليلا حتى ضاق بما تبينه فى زوجته من ضعف العزيمة وجمود العاطفة ، وان وجد بعض العزاء فى شقيقتها « مارى » التى كانت مقيمة معها . غير ان القدر لم يسعده طويلا بهذا العزاء ، اذ توفيت مارى اثر مرض مفاجىء فى مايو من السنة التالية . وكان ذلك عقب عودة الأسرة من سهرة ممتعة فى احد المسارح !

وبلغ من فرط الحزن الذى شعر به ديكنز لفقد شقيقة زوجته ، أنه مكث شهرا كاملا لا يستطيع مزاولة عمله ، فلم تصــدر الحلقة المعتــادة من سلسلة « مذكرات بكويك » فى ذلك الشهر !

وازدادت الجفوة بين الزوجين بعــد ذلك ، برغم كثرة أولادهما ، وكان للفتاة « جيورجيتا » الشقيقة الصـغرى للزوجة ، فضل كبير فى تخفيف حدة تلك الجفوة بينهما ، وكانت قد انتقلت الى منزلهما بعد وفاة مارى ، وخلفتها فى القيام بمهام تدبير المنزل ورعاية الأولاد

طريقه الى النجاح

وفى سنة ١٨٣٨ بدأ نشر السلسلة الثانية من قصص ديكنز ، وهى قصة « أوليفر تويست » فرسخت شهرته الأدبيــة . ثم توالى نشـــر سلاسل قصصه فى الصحف ، وفى كتب مستقلة ، فأخرج خمس روايات مطولة رائعة ، ومجموعات من القصص القصيرة ، وكتابا عن « الثورة على البـابوية بسنة ١٧٨٠ » . ثم سلسلة من الاحاديث عرفت باسم

« ساعة السيد همفرى » . لكنه قطع هذه السلسلة وعاد لكتابة القصص المطولة ذات الموضوع الواحد ، فأخرج قصة « دكان التحف القديمة » التى كانت سببا لذيوع شهرته فى امريكا ايضا ، وبلغ من اثر الاقبال على حلقاتها هناك ان كانت جموع القراء تقف ساعات فى انتظار وصول السفينة التى تحمل الحلقة الجديدة الى الميناء !

وتلقى ديكنز على اثر ذلك دعوات الى زيارة امريكا ، وقام برحلته الاولى اليها فى سنة ١٨٤٢ حيث استقبل بأعظم الحفاوة والترحيب ، ولكنه لم يجد فى مشاهداته هناك ما يطابق الصورة التي تخيلها عن الحياة فى العالم الجديد ، وصدم شعوره على الأخص ما لاحظه من تفشى الرق هناك ، كما سخط على الأساليب التى يتخذها الأمريكيون فى حياتهم الخاصة ، وكان سخطه أشد على الناشرين هناك لأساليبهم الملتوية وحيلهم العجيبة لسرقة حقوق المؤلفين الانجليز

وفى الوقت نفسه نقم عليه الأمريكيون انتقاده الصريح اللاذع لأخلاقهم وعاداتهم ، وأنكر عليه المتزمتون منهم ظهوره فى حفل رقص بمدينة بوسطن وهو يرتدى صديريا من القطيفة الخضراء الزاهية ، ورباط عنق قرمزى ، وسروالا احمر ضاربا الى الزرقة ، ويضع على صدره مجموعة من الأزهار المختلفة الألوان

ومهما يكن الأمر ، فقد اتم رحلته فى امريكا وبلغ مدينة « سان لويس » فى اقصاها غربا ، وبعد أن عاد لانجلترا اخرج كتابا عن هذه الرحلة سماه « اللمحات الأمريكية » وضمنه كثيرا من الانتقادات اللاذعة للامريكيين . لكنه برغم ذلك لم يتردد فى الرحلة الى أمريكا مرة ثانية بعد سنوات

وقد كان لمواطنيه الانجليز انفسهم نصيب كبير من انتقاداته ، فقد اخرج فى سنة ١٨٤٤ قصته « مارتن شوزلويت » وضمنها حملة شديدة على بعض العيوب المتأصلة فى الانجليز ، وفى مقدمتها الأثرة والنفاق . ولم تلق

هذه القصة مثل الرواج الذى لقيتــه مؤلفــاته السابقة ، اما لعنف الحملة الانتقادية التي تضمنتها ، واما لأن حوادثها كانت تنطوى على كثير من التعقيد !

وضاقت به الحياة فى انجلترا بعد ذلك ، أو ضاق هو بها ، فقام برحلة فى أوربا مصطحبا أسرته ، وكان ذلك عقب نشر كتابه « أغنية عيد ميلاد » فى سنة ١٨٤٣ . فزار ايطاليا وفرنسا ، وأنتج خلال ذلك كتبا وروايات عدة ، آخرها كتاب « دومبى وابنه » الذى نشره عقب عودته الى لندن ، فجدد ثقة الجمهور فيه واعجابه بأسلوبه الخاص !

مسرحيــاته

اتجه ديكنز بعد عودته من رحلته الأوربية الطويلة الى اشباع هوايته القديمة الأصيلة للمسرح ، فتوفر على اعداد مسرحية « بن جونسون » وأشرف على اخراجها وعرضها واشترك فى تمثيلها مع نخبة من أصدقائه اختارهم لذلك . وبذل فى ذلك كله جهدا مضنيا حطم صحته ، ولا سيما بعد توالى عرض تلك التمثيلية فى العاصمة والريف

وفى سنة ١٨٥٠ تولى تحرير صحيفة « ديلى نيوز » وبذل برغم سوء صحته نشاطا كبيرا فى سبيل العمل بالشعار الذى اتخــذه لنفسه وهو « مكافحة الشر والعمل لخير الفقراء وسعادة المجموع » . على أنه زهد فى عمله الجديد بعد بضعة اشهر فاعتزله وتفرغ لاصدار مجلة اسبوعية خاصــة به سماها «الكلمات المنزلية» واستمر فى اصدارها ثمانى سنين بنجاح كبير ، ثم أعاد تنظيمها سنة ١٨٥٩ واختار لها اسما جديدا هو « على مدار العام » . ولم يغفل خلال اصداره مجلته هذه فى عهديها الاول والثانى عن انتاج مؤلفاته الاخرى من الكتب والروايات ، فأخرج قصة دافيد كوبر فيلد » ، ثم قصة « المنزل الموحش » . فقصة « أوقات عصيبة » ؛ وكان فى هذه المؤلفات كلها يصور مختلف الوان الحياة التى

درسها وخبرها بنفسه منذ طفولته ، كما يصور مختلف الشخصيات التى عرفها وكان لها فى حياته أثر ملحوظ ، فضلا عن تصوير حياته الخاصة وتحليل ما يختلج فى نفسه من مشاعر وأحاسيس .

حياته الأخيرة

وفى سنة ١٨٥٨ ، تم الاتفاق بينه وبين زوجته على ان يفترقا ، وذهب ابنهما الأكبر ليعيش مع والدته ، بينما عاش بقية الاولاد مع أبيهم وخالتهم جورجينا ، ولم يمض قليل حتى انتقلوا الى الاقامة معه بقصر « تل كاد » الذى اشتراه ليحقق حلمه القديم الذى طالما راوده فى طفولته البائسة حين كان يسكن مع ابيه وامه كوخا متواضعا بالقرب من ذلك القصر التاريخى العظيم !

وبدا اول الأمر ان ديكنز اخلد الى حياته الجديدة فى هذا القصر ، حيث اخذ يكثر من اقامة الحفلات لأصدقائه ومعارفه ، ولكنه ما لبث قليلا حتى عاوده حنينه القديم الى التمثيل ، فقام بجولات فى انحاء انجلترا واسكتلندا ، كان خلالها يظهر على المسارح لقراءة فصول من رواياته ، فيلقى من الجمهور اشد الاقبال والاعجاب

وفى خلال هذه الجولات ، اخرج رواياته الأخيرة : « قصة مدينتين » و « الآمال العريضة » و « صديقنا المشترك » . ثم زار أمريكا للمرة الثانية سنة ١٨٦٧

وبعد عودته الى لندن فى سنة ١٨٧٠ بدا تأليف روايته فى تلك السنة بوعكة مفاجئة بعد أن قضى يومه عاكفا على الكتابة فى ركنه المختار بحديقة قصر تل كاد ، واغمى عليه وهو على المائدة ، فنقل الى فراشه ، ودعى الأطباء الى اسعافه وعلاجه . ولكنه بقى فى غيبوبة حتى أعلنت وفاته فى اليوم التالى . فكان لنعيه صدى اليم فى انجلترا وفى مختلف انحاء أوربا وأمريكا

الشقيقان رايت



الشقيقان رايت

حققا لاول مرة معجزة الطيران الآلى .. ولكنهما قوبلا بالجحود ، فلم يثبط ذلك من عزمهما وانصرفا الى تحسين الآلة الطائرة التى اخترعاها حتى قطعا بها اكثر من ٢٤ ميلا »

عاملان حققا معجزة الطيران

فى خريف عام ١٩٠٣ ظهر مقال لعالم شهير يثبت اثباتا قاطعا أنه يستحيل على البشر أن يحلقوا فى الجو . وكان البشر منذ قرون تراودهم الأحلام أن يقلدوا الطير فى طيرانه. وحاول كثير من اصحاب العقول الراجحة أن يحلوا هذه المشكلة ولكنهم لم يستطيعوا

وانه لمن أعجب الأمور الا تمضى اشهر ثلاثة بعد ظهور مقالة ذلك العالم حتى يتحقق الحلم الذى كان الناس يرونه مستحيلا . وكان الفضل فى تحقيق معجزة الطيران راجعا الى اثنين من صانعى الدراجات ، هما الشقيقان رايت

عائلة دينية

شهدت ولاية أوهيو مولد « ولبر واورفيل » رايت . وكان والدهما قسيسا يدعى «ملتن رايت» وأمهما « سوزان كويرنر رايت » . وقد ولد ولبر فى السادس عشر من ابريل عام ١٨٦٧ فى مزرعة غرب ميلفيل ، واما شقيقه أورفيل ، فقد ولد فى التاسع عشر من اغسطس عام ١٨٧١ فى مدينة دايتون .. وكان أبوهما الطيب القلب احد رجال كنيسة الاخوان المتحدين ، مارس التعليم حينا فى كلية هارتسفيلد ، ثم قام فى عام ١٨٦٩ على تحرير جريدة دينية تنشرها هذه الهيئة الدينية فى دايتون . ثم اضطرت اسرة رايت الى الانتقال من موطنها وحلت فى مدينة سيدار رابيدز ، ثم فى رتشمند وهناك كان مهد طفولة الشقيقين ولبر ، ، وأورفيل،

فقد نشأ هنـــاك فى رفقة اخويهما الكبيرين « ريشلين » و « لورين » واختهما الصغرى « كاترين » ..

وفى شهر يونيــه من عام ١٨٨٤ عاد الأب ملتــون مع اسرته الى دايتون واستقروا مرة أخرى فى منزلهم الأول وكان لا يزيد على كوخ خشبى به غرف سبع. **وهناك واصل ولبر دراسته** مستقلا بنفسه ، بعد أن انتهى من دراسته فى رتشموند ، وهناك كذلك استمر أورفيل فى دراسته الثانوية.

ولم تمض على هذه الاسرة الوادعة فى مسكنها المتواضع الا بضع ســـنوات حتى تفرق شملها بموت الأم العزيزة سوزان رايت،ثم ما هو الا قليل حتى تزوج لورين وريشلين، ونزحا ليؤسس كل منهما لنفسه اسرة . ولكن عرى المودة بين آل رايت زادت توثقا وتماسكا

ميكانيكية الحيوان

وكانت لهم فى الطابق الأسفل من المنزل مكتبة **وكان ولبر ، وارفيل ،** يعكفان فيها على الدرس ، اذ كانت تحوى ــ فيما حوت كتاب التراجم لبلوتارخ وطائفة من القصص والأساطير، وكتاب جيبون عن انحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها ، ثم تواريخ فرنســا وانجلترا . وقــد جذب انتباههم أكثر ما جذب كتاب **ماريه عن ميكانيكية الحيوان** . ثم الموضوعات العلمية فى دائرة المعارف البريطانية ودائرة معارف «شامبر» التى احتوتها المكتبة ايضــا . وكم من مرة قلب الصــبيان صفحات هذه الكتب منذ طفولتهم الاولى

وكان اورفيل رايت خلال سنى مراهقتــه يهتم اهتماما بالغا بالطباعة . فاعد لنفسه مطبعة صغيرة وكان يقوم باعمال شتى فى الطباعة والنشر بمساعدة شقيقه ولبر

يشتغلان بتجارة الدراجات

وفى سنة ١٨٨٨ ، شرع « اورفيل » فى استغلال خبرته

بالطباعة ، فأصدر مجلة اسبوعية صغيرة سماها « اخبار الجانب الغربى » واستأجر لها مكتبا خاصا ، ثم شجعه رواجها فى عامها الأول ، فحولها الى جريدة يومية باسم «خبر المساء» ولكن هذه الطفرة ما لبثت أن قضت عليها بعد قليل !

ومضت بعد ذلك سنوات ، أمضاها الشقيقان فى انتاج بعض المطبوعات ، ثم حولا نشاطهما المشترك الى تجارة الدراجات التى بلغ الاقبال عليها ذروته فى ذلك الحين ، فأسسا «شركة رايت» لصنعها وبيعها فبدأت أعمالها فى أواخر سنة ١٨٩٢ ، وانتقلت من نجاح الى نجاح سنة بعد أخرى . ولم تمض ثلاث سنوات حتى كان لها مبنى فسيح خاص ، وغمرت الأسواق بمئات من مختلف انواع الدراجات ، ومن بينها دراجة شعبية تحمل الشعار الخاص بالشركة، ولا يزيد ثمنها على ١٨ دولارا ، وهو يومئذ ثمن زهيد كفل لها الانتشار فى جميع الانحاء !

دراستهما للطيران

لم يكتف الشقيقان : « ولبر » و « أورفيل » بنجاحهما الباهر فى « شركة رايت للدراجات . فانشآ فروعا لها لانتاج الاطارات والجرارات والآلات الكاتبة والحاسبة وغيرها ، وقد لازمهما التوفيق والنجاح فى كل هذه الأعمال !

على انهما كانا مولعين بدراسة الطيران ، وبدأ ذلك منذ حداثتهما حين أهدى اليهما والدهما لعبة هى نموذج صغير لطائرة ، صنعه فرنسى يدعى « بينو » من الخيزران والورق والفلين وخيوط من المطاط . وفى سنة ١٨٩٥ ، حدث أن اطلعا فى احدى المجلات على مقال عن « طيران الانزلاق » كتبه المانى يدعى «أوتو ليلنتال» . فكان له أكبر الأثر فى نفسيهما، وفى تغيير مجرى حياتهما ، اذ عاودهما الحنين الى هوايتهما المفضلة الاولى . ثم اشتد هذا الحنين حينما علما بعد قليل بمصرع « ليلنتال » المذكور اثناء تجربته طائرة صنعها بنفسه

محاولا الطيران بها . وسرعان ما قررا التفرغ لدراسة الطيران وما طرا عليه من تحسينات

واتصل الشـقيقان بالدكتور « لانجلى » مدير معهـد « سمبثون » فى وشنطن ليدلهما على المراجع التى تفيدهما فى دراساتهما وابحاثهما الجديدة ، فكتب اليهما فى يونيـة من سنة ١٨٩٩ يوصيهما بالاطلاع على كثير من الكتب والتقارير

وعكف الشقيقان « رايت » على دراسة كل هذه المراجع وغيرها ، ومنـاقشة ما تضمنته من بيـانات وملاحظات ومقترحات ، فتبين لهما ان مشكلة الطيران الكبرى تتمثل فى ضرورة الوصول الى طريقة لحفظ توازن الطائرة فى الجو ، ووجها كل عنايتهما واهتمامهما الى البحث والدرس واجراء مختلف التجارب لايجاد هذه الطريقة . وفيما كان «أورفيل» يقلب بين يديه صندوقا من الورق المقوى لاستخدامه فى بعض التجارب ، لاحت له فجاة فكرة لايجاد الطريقة المنشودة . وما شرح هذه الفكرة لشقيقة « ولبر » حتى أقرها ، ثم شرعا من فورهما فى تنفيذها ، فصنعا طائرة طولها خمس أقدام ، ووصلا جناحيها بخيوط يمكن بها تحريكهما وتغيير وضعهما بما يتفق مع درجة الضغط الجوى ، كما زودا هذه الطائرة بذيل فى مؤخرها ليعاون على ارتفاعها . وقد كللت بالنجاح تجربة الطائرة الجديدة باطلاقها فى الجو خارج مدينة دايتون وأمكن حفظ توازنها بتحريك جناحيها بواسطة تلك الخيوط !

اول تجربة للطيران

وفى سنة ١٩٠٠ ، اتصل « ولبر » بالمهندس « أوكتاف شانوت » صاحب كتاب « تاريخ الطيران الآلى » وكان يعيش فى شيكاغو حينذاك ، واجرى تجـارب عدة فى طيران الانزلاق . وكانت نتيجة هذا الاتصال أن وضع الشقيقان تصميما لطائرة زلاقة جـديدة ، واختارا لتجربتهـا منطقة « كيتى هوك » على ساحل كارولينا الشمالية ، مسترشدين

بآراء « شانوت » فى هذا الشأن ، وبما انتهت اليه دراستهما لسرعة الرياح وتقلبات الجو . وهناك فى هذه البقعة النائية ، الخالية الا من محطتين للانقاذ والأرصاد الجوية وبضعة أكواخ متناثرة للصيادين ، بنى الشقيقان معسكرا متواضعا ، نقلا اليه كل ما يحتاجان اليه لصنع طائرتهما الجديدة ، وشرعا فى صنعها فى سبتمبر من تلك السنة ، فجعلا هيكلها اطارا كالأضلاع صنعاه من خشب الحور ، وغطياه بالتيل الفرنسي الأبيض ، وزوداها بجناحين طول كل منهما ١٧٫٥ قدما قابلين للتحرك طبقا لنظريتهما السابقة ، كما زوداها بدفة متصلة بمقدمها ، وجعلا لها زلاقات فى موضع العجلات لتنزلق بها على رمال الشاطىء

وأسفرت تجربة الطائرة عن نجاح طريقتهما المبتكرة لحفظ توازن الطائرة فى الجو . وفى صيف سنة ١٩٠١ عادا الى « كيتي هوك » ومعهما زلاقة جديدة طول كل من جناحيها ٢٢ قدما ، ووزنها ٩٨ رطلا ، وهى أكبر حجما من زلاقة السنة السابقة ومساحة الرفع بها أوسع . وزارهما « شانوت » مشجعا ، ونجحت تجاربهما فى هذا العام نجاحا عظيما كان الأول من نوعه فى طيران الانزلاق . وقد تبين لهما من هذه التجارب أن طريقتهما المبتكرة لحفظ التوازن يجب أن يؤيدها ذيل عمودى للطائرة ، كما تبين لهما وجوب اعادة النظر فيما اعتمدا عليه من نظرية أساطين العلماء المختصين فى تصميم الطائرة . وعلى هذا قاما باعداد جهاز هوائى بأعلى مبنى شركتهما ، هو صندوق خشبى مربع طول ضلعه قدم ونصف ، سلطا عليه من تحته مروحة آلية ، ثم أمضيا الشهرين الأخيرين من تلك السنة فى اختبار ما يزيد على مائتين من الأجنحة المختلفة الأشكال والأحجام والأوزان للوقوف على حقيقة مدى تأثر أسطحها المنحنية بضغط الهواء . وكانت النتيجة أن كشفا عن أخطاء عدة فى التصميمات السابقة ، ووضعا بدلا منها بيانات دقيقة كل

الدقة ما زال العمل يجرى على اساسها حتى الآن !

وفى خلال السنتين التاليتين ، أجـرى الشـقيقان رايت ما يزيد على الف تجربة فى طيران الانزلاق ، زادا خلالها طول جناح الطائرة عشر أقدام واضافا الى دفتها ذيلا عموديا طبقا للحقائق الجديدة التى انتهيا اليها .. ثم حولا هذا الذيل الى دفة متحركة وسجلا نموذجا جديدا على هـذا الأساس ، فاصبح بذلك سر اتزان الطائرة حقا محفوظا لهما

▭

بدأ الشقيقان بعدئذ خطوة مهمة اخـرى هى بناء طائرة تستطيع الارتفـاع فوق الأرض والتحليق فى الجو ، وقام مسبك دايتون باعداد هذه الطائرة طبقا للتصميم الدقيق الذى اعداه بمساعدة « شـارل تيلور » . وكانت زنتهـا حوالى مائتى رطل ، وقوتها نحو اثنى عشر حصانا ، وقـد وفقا الى تزويدها بمروحة خاصة من ابتكارهما ، وبلغ عرض جناحيها أربعين قدما ، ولكل منها طرف متحرك ، ومجموع زنتها براكبها نحو ٧٥٠ رطلا .. ثم عادا الى « كيتى هوك » لتجربتها هناك، فتمت التجربة فى ١٤ من ديسمبر سنة١٩٠٣ فتحركت الطائرة وفيها « ولبر » وجرت على خط حديدى اعد لذلك بأعلى تلال « كل ديفيل » ثم ارتفعت به فى الهواء وحلقت فترة قصيرة لم تزد على ثلاث ثوان ونصف ثانية ؛ ثم هبطت الى الأرض . وفى اليوم السابع عشر من ذلك الشهر، اعيـدت تجربتهـا ، وركبها فى هذه المرة الشقيق الثانى « أورفيل » فبقى بهـا فى الجو ١٢ ثانية ، برغم سرعة الريح حينذاك اذ كانت لاتقل عن ٢٧ ميلا فى الساعة . وفى التجربة الثالثة استمر تحليق الطائرة ٥٤ ثانية، وعند هبوطها اصيبت بصدع حال دون طيرانها حتى آخر ذلك العام

وهكذا حقق الشقيقان لأول مرة معجزة الطيران الآلى ،

فصار حقيقة واقعة ، بعد أن ظل قرونا وهو لا يزيد على حلم يراود خيال الانسانية !.. ولكن هذه المعجزة الخالدة لم تجد يومئذ ما تستحقه من الايمـان والتنويه بها ، فلم يصدقها أكثر الناس ، وأهملت الصحف شأنهـا فيما عدا صحيفة واحدة لم تسلم الأنباء التي نشرتها عنها من التحريف!

ولم يثبط ذلك الجحود من عزم الشقيقين العبقريين ، وضنا بوقتهما على اضاعته في مجادلة المكذبين والساخرين ، وانصرفا الى تهذيب الآلة الطائرة التي اخترعاها وادخال مختلف التحسينات على صنعها بحيث تصبح سهلة القيادة ويتسع نطاق الانتفاع بها . وما مضت سنه على ذلك حتى انتهت أبحاثهما وتجاربهما المتواصلة الى نصر باهر آخر ، فاستطاعا أن يحلقا بطائرتهما في الهواء خمس دقائق كاملات، مع التحكم في اتجاهها . ورآها الناس وهي ترتفع في الجو من الأبراج العالية التي أعداها لذلك ، ولم يستطيعوا أن يكتموا عجبهم واعجابهم حين شاهدوها تدور عدة دورات في الفضاء ثم تهبط الى ميدان التجربة بسلام !

وفي السنة التالية ، أدخل الشقيقان على آلتهما تحسينات عدة أخـرى ، شملت الدفة والمروحة والجنـاحين ، والآلة نفسها .. وكان عجب النظارة واعجابهم أشد حينما حلقت الطائرة في هذه المرة أكثر من نصف ساعة ، وقطعت خلال ذلك أكثر من ٢٤ ميلا ! .. ولم يسع الصحف بعد ذلك الا العدول عن سخريتها بالشقيقين المخترعين ، وكانت صحف أوربا ونواديها أكثر احتفالا وتكريما لهذا الاختراع الجديد المفيد ، ولكن لم تعره الصحف الأمريكية اهتماما جديا الا بعد ظهوره في أمريكا نفسها بثلاث سنوات !

أول تجربة رسمية في أمريكا

أجريت التجربة الرسمية الاولى لطائرة الشقيقين «رايت» في أمريكا ، بمدينة « فورت مير » في ولاية فرجينيا ، وركب

الطائرة « أورفيل » على مشهد من الجموع الحاشدة التى حرصت على مشاهدة التجربة

وتوالت تجارب طيران الشقيقين ، لحساب الجيش الأمريكى ، وكان الحد الأقصى لسرعة الطائرة ، طبقا للاتفاق ، أربعين ميلا فى الساعة ، ولكنهما وفقا الى تسجيل زيادة على ذلك الحد ، مقدارها ثلاثة اميال !

وفى اكتوبر سنة ١٩٠٩ ، انشئت فى أمريكا شركة لانتاج الطائرات جعلت مقرها فى نيويورك،واختارت لاقامة مصانعها مدينة « دأيتون » حيث نشأ الشقيقان المخترعان

وفى الوقت نفسه بدأت الدول الاخرى تزيد فى عنايتها بهذه الصناعة الجديدة ، فانشئت شركة مماثلة فى فرنسا والمانيا .. ثم فى غيرهما من البلاد !



جورج کارفر



جورج كارفر

زنجي خرج الى الحياة محروما من كل شيء . ولكنه استطاع بالرغم من ذلك
أن يخلد اسمه فى سجل العلماء العاملين الذين قدموا للبشرية اجل الخدمات

الزنجى النابغ

كان مولده فى أمريكا خلال الأيام السوداء للحرب الأهلية التى اجتاحتها فى منتصف القرن الماضى ، وكان هو نفسه زنجيا أسود ، وبدا حظه يومئذ أشــد سوادا من لونه ومن الظروف التى ولد فيها . فقد خرج الى الحيــاة محروما من كل شىء .. حتى من اسم الأسرة التى ينتمى اليها ، فأبوه غير معروف ، وأمه « مارى » جارية زنجية مملوكة لصاحب مزرعة صغيرة فى قرية « دياموند جريف » فى ولاية « ميسورى » يدعى « موسى كارفر » .. وهكذا لم يكن هناك بد من الاكتفاء باختيار اسم « جورج » لكى يعرف به بين من ضم اليهم من العبيــد القليلين المملوكين لصاحب المزرعة !

وقبل أن يجاوز مرحلة الطفولة ، وقع فى أيدى جماعة من تجار الرقيق المنتشرين فى تلك الأصقاع حينذاك،وكادوا يذهبون به الى حيث يبيعونه فى مكان آخر ، ولكن صاحب المزرعة وزوجته رق قلباهما له ، فأنقذاه فى آخر لحظة من ذلك المصير المجهول الرهيب .. ولم يكلفهما ذلك أكثر من حصان افتدياه به من النخاسين الذين اختطفوه !

ومنذ ذلك الحين ، صار الزنجى الطفل « جورج » موضع عطف خاص لدى سيديه ، وما كاد يشب عن الطوق ويبلغ السن التى تؤهله للعمل فى المزرعة مساعدا لزملائه العبيد الكبار،حتى ضن به سيداه الطيبان على العمل المرهق،واكتفيا بأن عهدا اليه فى أعمال يسيرة أخرى ، كالاشتراك فى اطعام

الدواجن ، وتنقية حديقة المنزل من الحشائش الطفيلية .
وعرف زملاؤه موضعه عند صاحبى المزرعة ودالته عليهما ، فتركوه وشأنه ، يلهو ويلعب ويمرح فى الحديقة المجاورة للمزرعة . وعرف بينهم بهوايته المفضلة حينذاك ، وهى التجول فى الغابة ، والتامل فى اشجارها واعشابها وصخورها، ثم العكوف بعد عودته على فحص ما جمعه من غرائب الحجارة والنبات ، واطلقوا عليه من أجل ذلك لقب « طبيب الغابة »

ولم يمض قليل حتى اعلن سيداه انهما اعتقاه ، وبذلك تحققت حريته من الوجهة الرسمية . ثم استمرا فى اغداق عطفهما عليه ، وعاملاه كانه ولدهما ، واخذت السيدة « كارفر » فى تعليمه القراءة والكتابة ، مستعينة على ذلك بكتاب قديم فى الهجاء وجدته فى المنزل ، وكان اقباله شديدا على التعلم ، فما لبث قليلا حتى وعى ذهنه كل ما فى ذلك الكتاب من دروس !

والح الزنجى الصبى فى ان يواصل الدرس ، وتردد سيداه القديمان فى أول الأمر ، اذ لم تكن هناك مدرسة يستطيع الالتحاق بها الا مدرسة مدينة « نيوشو » وهى تبعد اميالا من المزرعة ، ثم لم يسعهما ازاء الحاحه المستمر الا اجابة رغبته فسمحا له بالتوجه الى تلك المدينة كى يلتحق بمدرستها . وقد سافر اليها وحده ، وبات ليلة فى طريقه اليها ، مفترشا كومة من العشب . على انه سرعان ما نسى كل ما لقيه من تعب وعناء ، حينما وصل الى المدرسة فى اليوم التالى ، وقدر له ان يقبل وهو الزنجى الأسود فى عداد تلاميذها البيض !

□

لم يكن لونه وحده ما اعترض طريق تعلمه ، فقد كان عليه ان يدبر امر معيشته فى خلال ذلك ، لكنه عرف بهمته وطموحه وصبره الجميل كيف يذلل جميع العقبات .

وقضى سنة فى تلك المدرسة الصغيرة استوعب خلالها كل ما كانت تمنحه لتلاميذها من الدروس ، ولم يحل دون احرازه هذا التقدم والتفوق على أقرانه البيض فيها ، أنه كان يقضى جانبا كبيرا من وقته فى العمل لكسب رزقه !

وكان فى أول الأمر يقوم بأعمال مضنية تافهة فى الوقت نفسه ، كالخدمة فى المنازل ومساعدة الطباخين والغسالين ، ثم بدأ يختار لنفسه أعمالا تتفق ورغبته فى الاستزادة من العلم ، فكان يعمل فى مساعدة الخياطين والنساجين وصانعى السجاد والقائمين بالتطريز والحفر ، ومن اليهم . وبذلك أتقن كثيرا من الصناعات الفنية ، بجانب الحصول على نفقات دراسته الاخرى ومعيشته

وبقى هذا شأنه فى البلاد الكثيرة التى رحل اليها وعاش فيها ملتحقا بمدارسها الابتدائية والثانوية،الى أن تركز عمله أخيرا فى انشاء مغسل خاص به فى البلد الذى يقيم به . واستطاع بحسن سياسته واتقانه عمله أن يجتذب الى مغسله كثيرين من العملاء ، مما زاد فى دخله ، وجعل فى استطاعته أن يعيش فى سعة من الرزق ، اذا هو اتخذ من هذا العمل حرفة له

غير أن همته العالية أبت عليه أن يقف عند هذا الحد ، وآنس من نفسه استعدادا للدراسة العليا ، فأرسل الى « جامعة هايلاند » طالبا الالتحاق بها ، ولم يتردد لحظة فى بيع مغسله ليحصل على أجر السفر اليها حين جاءه الرد بقبول طلبه !

وهناك فى مكتب المسجل بهذه الجامعة ، فوجىء الطالب الزنجى بانهيار كل ما شاده من صروح الآمال ، اذ تبين أن الجامعة قبلت طلبه من غير أن تفطن الى أنه زنجى ، فى حين أنها لا تقبل فى كلياتها غير الطلبة البيض !

وكانت هذه الصدمة القاسية جديرة بأن تبعث اليأس الى قلب الطالب الزنجى الشاب ، ولكنه لم يكن يعرف اليأس ،

فتلقى الصدمة بروح قوية عالية ، بل حــرص على انقاذ مسجل الجامعة من مازقه الحرج ، فسحب طلب التحاقه المقبول بها ، ثم انصرف بعد أن حياه مبتسما شاكرا ، مع أنه لم يكن يملك حتى قوت يومه ، اذ انفق كل ما حصل عليه من بيع مغسله فى اجر سفره على أمل الالتحاق بالجامعة !

وفى السنة التالية ، ســنة ١٨٩٠ أتيح للطالب الزنجى الشاب أن يحقق امنيته الكبرى ، فقبل طلب التحاقه بجامعة « سمبسون » الحرة فى ولاية « ايووا » . ولم يقف توفيقه عند حد قبوله بها برغم زنجيته واضطراب دراسته السابقة، بل شفع له ذكاؤه وحرصه الشديد على التعلم ، فسجل اسمه فى كلية الآداب ، وسمح له فى الوقت نفسه بأن يدرس البرامج التى تتفق مع ميوله ومؤهلاته فى كلية العلوم !

وفى قسم الفنون بكلية الآداب ، وجد جورج كارفر معونة صادقة كبيرة من الآنسة أتابد Etta Budd رئيسة القسم ، فأمضى السنوات الثلاث التى لبثها بالجامعة ملازما حلقات دروسها الفنية ، حيث اهله استعداده للتقدم يوما بعد يوم فى ميدان الفن . واستطاع فى سنة ١٨٩٣ عرض مجموعة من لوحاته فى معرض شيكاغو الدولى فكانت محل التقــدير والتكريم !

وكتب جورج كارفر الى بعض خلصائه من أهل قريته واصفا شعوره بالغبطة والفخر لهذا النجاح الذى أحرزه ، كما اثنى على استاذته الآنسة اتابد اجمل الثناء ، وقال عن ايامه الاولى بالجامعة : « انها كانت مليئة بالتعب والشقاء ، وقد كدت أهلك جوعا لعدم الاقبال على المغسل الذى انشاته لأعيش منه ، اذ انصرف عنى الناس لغير سبب سوى لونى الأسود ، ولكنى لم أيأس ، ومضيت فى سبيلى صابرا مثابرا حتى تبدلت الحال ، فاقبل العملاء على مغسلى ، وصار الجميع يلقوننى بالبشر والترحاب فى الجامعة ونادى الموسيقى وملاعب الكرة وغيرها من المنتديات العامة »

وسألته الآنسة أتابد عما يعتزم عمله بعد أن أتم دراسته الفنية ، فلم يجد أول الأمر ما يجيب به عن هذا السؤال ؛ ثم ما لبث قليلا حتى وجد الجواب ، وعجب من نفسه كيف غفل عنه فى حين أنه كان يفكر فيه ليل نهار .. ولم يكن العمل الذى اعتزم القيام به بعد اتمامه دراساته الفنية الا دراسة العلوم الزراعية والميكانيكية ، لكى يستطيع أن يقدم خدمات نافعة لقومه السود !

وهكذا التحق جورج كارفر بكلية الزراعة فى جامعة أيووا، وكان من حسن طالعه ان توثقت صلاته فيها بالأستاذ جيمس ولسن مدير المحطة الزراعية، والاستاذ هنرى كانتول والاس ، أستاذ الزراعة بالكلية ، فلقى منهما كل عون وتشجيع وتقدير ، وبقيت صلته الوثيقة بهما اكثر من ثلاثين عاما بعد تخرجه فى الكلية وتعيينه مدرسا بها سنة ١٨٩٤

□

لبث جورج كارفر حوالى سنتين مدرسا فى الكلية التى تخرج منها ، وقد كان خلالهما موضع الثناء المستطاب من ادارة الجامعة وأساتذتها وطلبتها ، لما لمسوه جميعا من اخلاصه فى عمله ، وحسن معاملته لهم . وفى خلال السنة الثانية تحققت أمنيته الكبرى اذ كتب اليه معهد توسكيجى Tuskegee يعرض عليه رياسة قسم الزراعة الذى أنشىء فيه . فقبل هذا العرض فورا . وكان هذا المعهد قد أنشىء حديثا ليكون مركزا لتدريب الشبان المثقفين الزنوج واعدادهم لتعليم ابناء جلدتهم وتثقيفهم

ولو ان رجلا آخر غير كارفر عين رئيسا لذلك القسم ، لما رضى ولما استطاع البقاء فيه شهرا واحدا ، ذلك لأن مجموع الطلاب الذين تيسر الحاقهم بالقسم المذكور لم يكن يزيد على ثلاثة عشر طالبا ، لا يجمع بينهم سوى اللون والرغبة فى

الدراسة . وهم بعد ذلك مختلفون كل الاختلاف من حيث الاستعداد !

ولكنه كان فيما بينه وبين نفسه قد اقتنع بانه وضع قدمه فى أول الطريق الصحيح الى الغاية التى وهب حياته للعمل على بلوغها . ولم يكن غير الموت شىء يستطيع أن يثنيه عن المضى قدما فى هذا الطريق

وسرعان ما أعد كارفر برنامجا مرنا للدراسة يلائم طلبة القسم جميعا ، ولم تقف ضآلة الميزانية حائلا بينه وبين تزويد القسم بعمل بديع مفيد ، فلم تمض اسابيع حتى انشأ هذا المعمل ، مستعينا بما وجده من الأشياء المهملة فى مخازن المعهد والمناطق المجاورة له من قطع السلك والحبال ، والواح الصفيح ، والزجاجات القديمة المكسورة والجرائد المهملة وما اليها ، ومجموعات من الحشرات المنتشرة فى تلك الأصقاع

وكان يعامل تلاميذه كانهم اخوته الصغار ، فيشعر كل واحد منهم بانه يختصه بكل رعايته وعطفه ، ولا يدخر جهدا فى سبيل تدريبهم على تطبيق ما يزودهم به من علم غزير ، أو فى سبيل الترفيه عنهم لتجديد نشاطهم وتحبيب العمل اليهم . وبذلك كله اخذ عدد الطلاب فى القسم يزداد عاما بعد عام ، كما اخذ المعمل فى الوقت نفسه ينتقل من حسن الى أحسن ، بفضل جهوده المتواصلة ليل نهار !

□

وبعد سنوات ، راى كارفر ان عمله فى المعهد وحده لا يكفى لبلوغ الغاية التى ينشدها ، فاخذ يطوف من حين الى حين بمناطق الجنوب ، حيث يحضر اجتماعات الفلاحين فى قراهم النائية واسواقهم وحقولهم ، وهناك يتبسط معهم فى الحديث ، ويزودهم بارشاداته ونصائحه الزراعية المفيدة،

ويدعوهم الى زيارة مركز الأبحاث الزراعية الذى انشأه فى المعهد ، لكى يقفوا على مزيد من المعلومات النافعة لهم

وفى هذه الرحلات والزيارات المتعددة ، اخذ كارفر يدعو الفلاحين الى زراعة محصولات أخرى كالبطاطا والفول بدلا من الاكتفاء بزراعة القطن ، مؤكدا لهم أن تعدد المحصولات المزروعة مما يعود عليهم بفائدة أكبر ، وانه فى الوقت ذاته ضرورى لضمان التربة وجودتها وقدرتها على الانتاج

وكانت دعايته هذه لا تجد قبولا من الفلاحين الذين يستمعون اليها ، لخروجها على ما ألفوه ، ولخشيتهم عواقب الاقدام على التجديد . ثم شاء القدر أن استجاب له بعضهم ، فزرعوا مساحات صغيرة من أرضهم فولا بدلا من القطن ، فكان ربحهم من ذلك كبيرا .. وشجعهم هذا كما شجع غيرهم فزادت المساحة المزروعة فولا فى السنة التالية الى حد كبير ، بحيث ضاقت الأسواق عن تصريف محصوله الكثير ، وضاعت بذلك جهود زارعيه واصيبوا بخسارة فادحة بدلت اعجابهم بكارفر سخطا ونقمة عليه !

وفى سنة ١٩٢١ الفت فى وشنطن لجنة لبحث الوسائل الكفيلة بحماية المحصولات الزراعية ، ودعى كارفر الى اجتماعاتها ، حيث قوبل بفتور ، ولم يخف اكثر الأعضاء سخريتهم من الزنجى الكهل الطويل الذى دخل عليهم مثقلا بأحمال من الحقائب والغرارات ، وحينما طلب الكلام ليدلل على صحة الفكرة التى يدعو اليها،لم يسمح له بأكثر من عشر دقائق ، حتى لا يضيع وقت أعضاء اللجنة الثمين

ولم يزد كارفر على أن ابتسم شاكرا للجنة ، ثم فتح حقائبه وغراراته ، واخذ يخرج منها نماذج عدة مختلفة مما استخرجه فى معمل المعهد من مشتقات الفول والبطاطا . وقد بلغ عددها ١٤٥ بين دقيق وقهوة ولبن وجبن وطلاء للوجه ومخللات ودهان للشعر ، وحبر ، وطلاء للبيوت ، وغيرها

وهكذا اضطر اعضاء اللجنة الى الاصغاء بكل جوارحهم الى الشرح الذى القاه عليهم العالم الزنجى الكهل الطويل ، عن كل مستخرج من هذه المشتقات . وامتد حديثه لا عشر دقائق كما قرروا اول الامر ، بل حوالى ساعتين !

ولم تعد المشكلة بعد ذلك مشكلة ايجاد اسواق للمحصولات الجديدة التى اشار كارفر بزراعتها الى جوار القطن ، بل صارت منذ تلك الساعة هى مشكلة العمل على مضاعفة تلك المحصولات للانتفاع بتلك المشتقات !

واستطاع كارفر بعد ذلك أن يكتشف فى معمله كثيرا من الخواص والمنافع التى كانت مجهولة للمحصولات الزراعية المختلفة ، فاستخرج من القطن كتلا للرصف ، ومن قشور البنجر والأعشاب أدوية كثيرة نافعة ، كما استخرج المطاط من القمامة ، ومن التربة الطينية فى ولاية الباما صنوفا من الأصباغ ومواد التلوين التى كان لها اكبر الأثر فى قيام مصانع كبيرة للطلاء ، جمعت ثروة طائلة بفضل ذلك الكشف العظيم!

▭

استمر كارفر خمسين سنة ، يواصل جهوده العلمية المثمرة التى عادت على أمريكا كلها بأكبر الفوائد الزراعية والصناعية

وفى سنة ١٩٤٣ توفى جورج كارفر ، بعد ان خلد اسمه فى سجل العلماء العاملين الذين قدموا للبشرية أجل الخدمات . وهناك فى رحاب معهد توسكيجى الذى قضى حياته عاملا فيه يقوم متحف صغير يحمل اسمه العظيم ، ويضم مئات المنتجات النافعة التى اكتشف استخراجها من مواد مهملة تافهة ، كما يضم امثلة للصناعات اليدوية الدقيقة التى كان مولعا بها . وفى ناحية من المتحف عرضت لوحاته الفنية التى ابدعها وصور فيها أحلامه وأمانيه لخير بلاده وخير البشرية جمعاء . وقد شاء القدر فتحققت فى حياته اكثر تلك الأحلام!

ابراهام لنکولن



ابراهام لنكولن

الفلاح الذى امتحنته الاقدار ـ وهو ما يزال فى صباه ـ بالوان مختلفة من الشقاء والحرمان ولكنه استطاع ان يشق طريقه بين الاشواك وان يصبح رئيسا للولايات المتحدة

الفلاح الذى رأس الولايات المتحدة !

فى سنة ١٨١٦ م ، وصلت الى محلة « جنتز فيل » فى اقليم « أنديانا » شمال غربى أمريكا ـ أسرة صغيرة مؤلفة من اربعة أفراد ، هم : « توماس لنكولن » عميدها الفلاح الأمى الأجير ، وزوجته الضعيفة البنية الشاحبة الوجه « نانسى هانكس » وابنهما « ابراهام » الذى لم يجاوز السابعة من عمره،وابنتهما «سارة» التى تصغره بسنتين أو ثلاث سنوات

وكان واضحا ان هذه الأسرة المهاجرة من اقليم «كونتكى» البعيدة تعانى بجانب فقرها المدقع أثقالا أخرى من الجهد والقلق والأعباء ، فقد طال سفرها فى القفر الموحش المترامى المخيف الذى قطعته ، ولم يكن لها من طعام خلال ذلك السفر الطويل الشاق سوى ما يوفق عميدها الى صيده من طير او حيوان !.. على انها برغم ذلك كان عليها أن تواجه الوانا أخرى من التعب والعناء ، قبل أن تستقر فى كوخها الجديد ، الذى أقامته لنفسها ، فى اليوم الأول لوصولها ، من جذوع الأشجار وفروعها ، متخذة من ورقها الجاف فراشا ، ومن بقايا الجذوع والغصون وسائد ومقاعد ومناضد !.. ثم بدأ عميد الأسرة منذ اليوم التالى جهاده الجديد فى الزراعة وما اليها ، ليكفل لهـا القوت .. والاستقرار المنشود فى الوطن الجديد !

والدته تعلمه القراءة والكتابة

وهناك فى جانب من الكوخ البدائى البسيط ، وضع الوالدان كيسا من التبن لينام فوقه ابنهما الحبيب «ابراهام»

او « آب » كما كانا يدعوانه من قبيل التدليل . ولم يكن فى طاقتهما أن يزوداه عدا ذلك بغير الضرورى من الغـذاء ، أما الغطاء والكساء والحذاء وما اليها ، فكان حسبه منهـا سراويل من جلد الغزال ، لا تفـارق بدنه ليل نهـار .
وأما تزويده بالتعليم ، فلم يكن هناك مكتب يمكن ارساله اليه كالمكتب الأولى المجانى الذى أمضى فيه شهرين فى « كونتكى» قبـل ان تغـادرها الأسرة ، ولكن امه كانت تعرف القراءة والكتابة ، فعز عليها أن يشب أميا كأبيه ، واخذت على عاتقها ان تعلمه فى أوقات فراغها بقدر ما تستطيع !

ولم يكن لدى الأم أى كتاب غير نسخة قديمة من الانجيل، فاستعانت بها على أداء تلك المهمة ، وكان لذكاء «آب» ورغبته القوية فى التعلم ، فضلا عن فرط تعلقه بوالدته ، أكبر الأثر فى تيسير مهمتها ، فسرعان ما أتقن القراءة والكتابة ، ثم اخذ فى حفظ ما تيسر من الانجيل عن ظهر قلب، فما مضت سنتان وأوشك أن يتم العاشرة حتى كان قـد حفظ الكثير من آياته، ووعى معانيها واهدافها، واصبح لهذا مرموقا بالاعجاب والتقدير من والديه وجميع عارفيه!

عامل فى مزرعة

ابت الأقدار الا أن تمتحن الصبى الصغير الفقير ، بلون جديد من الشقاء والحرمان ، فما اتم العاشرة من عمره حتى فجع بوفاة والدته الحبيبة الحنون

ومنذ الشهور التالية ، بدأ «آب» جهاده فى سبيل العيش، عاملا فى المزارع المجاورة لكوخ الأسرة ، لقاء أجر زهيد ، ولكن شغفه بالقراءة لم يزايله ، واتيح له ان استعار كتاب « طواف الحاج » للمؤلف الانجليزى « بانيان » فقراه مثنى وثلاث ورباع حتى علق بذاكرته اكثر ما فيـه ، ثم اسـتعار كتبا اخـرى وقراها على هـذا النحو ، وفى مقدمتها « خرافات أيسوب» . و « روبنسون كروزو »

ووقع فى أثناء ذلك حادث كان له أكبر الأثر فى تشجيع الصبى على الاستزادة من العلم والمعرفة ، فقد تزوج والده ، وجاءت الزوجة الجديدة الى الكوخ ، ومعها أطفالها الثلاثة من زوجها الأول ، وقطع مختلفة من الأثاث ، وشىء غير قليل من الفراش والأدوات المنزلية . وهكذا أتيح له ـ لأول مرة فى حياته ـ أن ينام فى فراش مريح . ووجد من عطف ربة الكوخ الجديد عليه وعلى شقيقته ما الهج لسانه بالثناء عليها والتحدث بفضلها حتى آخر حياته !

نبوءة عجيبة

ووقعت فى يده بعد ذلك نسخة من كتاب «حياة وشنطن» زعيم الثورة الأمريكية ، فاستأثرت باعجابه قصة تلك الثورة وما قام به ذلك الزعيم العظيم من اعمال خالدة ، وبدأت الأمانى الكبار والأحلام الذهبية بالمستقبل المجيد تثير خيـاله ، وتملك عليه تفكيره . وحدث يوما أن عنفته جارة للأسرة على أثر مشاجرة بينه وبين ولدها ، فقالت له ساخرة :

ـ ماذا تظن أن ستكون فى المستقبل ؟

فما كان جوابه الا أن قال لهـا على الفور : « اظن أنى ساكون رئيسا للولايات المتحدة ! »

وقد اكسبته أعماله اليـدوية قوة بدنية كبيرة ، ولكنه لم يكتف بذلك فكان يخصص جانبا من أوقات فراغه القليلة لممارسـة الألعاب الرياضـية ، حتى صار من البـارعين المعدودين فى القفز والمصارعة وغيرهما !

دراسته للقانون

وحينما بلغ الثامنة عشرة من عمره سنة ١٨٢٧ ، وجـد لنفسه عملا آخر ، بدا له فى أول الأمر أسهل وأحسن ، وكان هذا العمل الجديد هو القيام بمهمة البيع فى متجر بالقرب من القرية ، ولكنه ما لبث قليلا حتى ضاق به فتركه غير آسف

عليه . على أن الفترة التى أمضاها فى ذلك العمل أفادته من جهة أخرى ، اذ قرأ خلالهــا كتاب « القوانين المعدلة لولاية أنديانا» فاتجه منذ ذلك الحين الى دراسة القانون،وحرص فى الأشهر التالية على قضاء الأيام التى يخلو فيها من العمل فى التوجه الى المحكمة التى كانت تعقد على مسافة خمسة عشر ميلا من القرية. فكان يقضى هناك أكثر النهار فى تتبع القضايا المعروضة،والاستماع لما يدور فيها من المرافعات والمناقشات!

ومن طريف ما يذكر ، انه استمع هناك يوما لمرافعة بليغة من المحامى « جون بريكنردج » فأعجب بأسلوبه ، وما كاد الحكم يصدر ببراءة موكله المتهم بالقتل ، حتى اندفع من بين جموع النظارة ومد اليه يده يريد مصافحته وتهنئته ، ولكن ذلك المحامى المشهور لم يلتفت اليه ، وانصرف غير عابىء بالفتى الريفى الفقير المتحمس له !

وفى السنة التالية ، أتيح للفتى وقد بلغ التاسعة عشرة من عمره أن يغادر قريته لأول مرة الى مدينة « أورليان » اذ استأجره صاحب سفينة ذاهبة اليها لحراسة ما بها من بضاعة ، فى مقابل دولارين فى الاسبوع عدا الطعام . وقد كان لهذه الرحلة أعمق الأثر فى نفس « ابراهام لنكولن » الفلاح الأجير الفقير الطموح ، ففى خلالها وقف بنفسه على ألوان الحياة التى يحياها كبراء المدن وأثرياؤها ، وشاهد للمرة الاولى أسواق الرقيق حيث يساق بعض الناس فى السلاسل والأغلال ، وينتقلون بالبيع والشراء من سيد الى سيد ، يفعل بهم ما يشاء،دون أن يكون لهم أى حق فى الرفض أو المعارضة وهكذا نبتت فى ذهنه فكرته السامية الخالدة التى وقف حياته على الدعاية لها وتنفيذها .. فكرة تحرير العبيد !

عودته أجيرا بالمزارع والمتاجر

لم تطل بعدئذ اقامة أسرة لنكولن بمحلة « جنتزفيل » أكثر من سنتين ، فقد رأى « ابراهام » أن ينتقل بالأسرة

الى ولاية « الينوى » . وحملتهم جميعا الى هناك عربة ريفية كبيرة يجرها اربعة ثيران ! قضت أياما وليالى فى سفر شاق رهيب !

وما حطت الأسرة رحالها فى موطنها الجديد حتى اخذ « ابراهام » فى اقامة كوخ لها من جذوع الشجر ، ومن هذه الجذوع نفسها اقام سياجا حول قطعة من الأرض البكر ، ثم بدأ يستصلحها للزراعة ، ويلقن اخوته من أبيه خير الوسائل لبلوغ هذه الغاية . ولما اطمأن الى قيامهم بزراعة الأرض استأنف العمل أجيرا فى المزارع المجاورة ، مخصصا الجانب الأكبر من أجره لمساعدة الأسرة ، بل كثيرا ما كان يختصها بكل ما يحصل عليه من اجر عمله اليومى العادى ، ثم يقوم بأعمال اضافية مجهدة لكى يحصل على ما ينفقه فى شئونه الخاصة كشراء الملابس والكتب وما اليها . وقد اضطر لكى يحصل على سراويل جديدة فى تلك الأيام الى أن يقوم فى أوقات فراغه بقطع ما يزيد على الف غصن من اغصان الأشجار !

وعلى هذا النحو، قضى أكثر من عام ، ثم اتفق معه صاحب مطحن بالمنطقة على ان يتولى انشاء سفينة نقل لحسابه ، ثم الاشراف على أول رحلة لها الى مدينة « اورليان » . فقام « ابراهام » بهاتين المهمتين خير قيام ، وبلغ من اعجاب صاحب المطحن بخبرته ونشاطه وأمانته أن عينه مديرا لمتجر يملكه فى « نيوسالم »

زواجه واشتغاله بالمحاماة

فى ذلك الحين ، كانت ثورة الهنود الحمر قد بلغت أشدها بزعامة « الصقر الأسود » رئيس قبائل « الساكس » . ولم يجد حاكم الولاية بدا من اعلان الحرب على أولئك الثائرين وفتح باب التطوع للاشتراك فيها . فأجمع المتطوعون من أهل « نيو سالم » على اختيار « ابراهام » قائدا وزعيما

ومرشدا لهم. وكان هو عند حسن الظن بهمن أولئك المواطنين المتطوعين ، فقاد كتيبتهم من نصر الى نصر ، وكانت خططه الحكيمة موضع تقدير الجميع . فلما انتهت الحملة وعادوا لبلدتهم ، ثم بدات الانتخابات العامة للمجلس التشريعى ، أبوا الا ان يرشحوه لعضوية المجلس ، وكان عدد الناخبين منهم ٢٨٠ فانتخبه من بينهم ٢٧٧

وكان رئيس المساحة بالمنطقة فى حاجة الى مساعد فعرض هذه الوظيفة على « ابراهام » واعطاه كتابا فى المساحة ليدرسه ، فحفظه عن ظهر قلب فى ستة اسابيع !

على انه كان قد وطد عزمه على الاشتغال بالمحاماة، فعكف على دراسة كل ما تصل اليه يده من كتب القوانين، واتفق فى ذلك الحين ان انقطعت أخبار خطيب الآنسة « آن » ابنة المستر « رتلج » صديقه الذى أسكنه بمنزله ، وكان هذا الخطيب قد سافر الى « نيويورك » لقضاء مصلحة له فيها بعد ان حدد موعد الزفاف ، ثم ارسل من هناك خطابين ؛ ضمن احدهما نبأ مرض ابيه ، ونعاه فى الخطاب الثانى ؛ ثم لم يعد احد يعرف عنه شيئا بعد ذلك ، الى أن فات موعد الزفاف . وقد شعر « ابراهام » بالعطف على الفتاة الحسناء ابنة صديقه ، وما لبث هذا العطف ان تحول الى حب قوى ، جعله يطلب يدها لنفسه ، فرحب والدها بذلك . ولم تكن « آن » اقل رغبة فى قبول الخطيب الجديد ، ولكنها تمنعت أول الأمر محتجة بان خطيبها الأول قد يعود فجاة بعد قليل فلما انقضى عام على انقطاع اخباره ، لم تجد بدا من اعلان موافقتها على الزواج بابراهام ، ثم كانت له نعم الخطيبة الوفية الملهمة. وسرعان ما اتم دراسة القانون واستوعب كل المؤلفات فيه ، ثم أسعده الحظ فى الانتخابات النيابية التالية ، فانتخب عضوا فى المجلس التشريعى عن الولاية

مكافحته لتجارة الرقيق

شهدت سنة ١٨٤٦ نصرا جديدا لابراهام لنكولن المحامى القدير ، فقد فاز فى انتخابات « الكونجرس » فوزا منقطع النظير ، وطارت شهرته فى السنين الأربع التاليات بوصفه نائبا جريئا عقد له لواء الزعامة فى معارضة اعلان الحرب على المكسيك ، وفى مكافحة تجارة الرقيق

ولكن جهاده وانتصاره فى سبيل تحرير العبيد لم يلق ما يستحقه من النجاح الكامل المنشـود ، فانتهى الأمر فى سنة ١٨٥٠ بموافقة المجلس على تسوية غير كاملة ، وذلك بالغاء الرق فى كاليفورنيا وكولومبيا ، مع ابقاء الحق لصاحب العبد الآبق فى اعتقاله واعادته للرق والعبودية عنده حتى اذا كان فى ولاية تحرم تجارة الرقيق !

انتخابه رئيسا للولايات

وفى مايو سنة ١٨٦٠ دعى الى مؤتمر الحزب الجمهورى فى «سبرنجفيلد» وكانت الحماسة فى استقباله بحيث لم يستطع بلوغ المنصة الا بشق النفس ، ثم لم تمض على ذلك عشرة أيام حتى أعلن فوزه فى ترشيحات المؤتمر الوطنى بشيكاغو ضد « وليام سيوارد » ممثل نيويورك فى ذلك الحين . وترقب الجميع نتيجة المعركة القادمة لانتخابات رياسة الجمهورية بين « لنكولن » و « دوجلاس » بصبر نافد ، وما أعلن فوز « لنكولن » على خصمه العتيد حتى عمت البلاد موجة من الاضطرابات انتهت باعلان العصيان فى الولايات الجنوبية

وقد حرص « لنكولن » عند رحيله من « سبرنجفيلد » الى « وشنطن » على ابقاء أسمه على لوحة مكتب المحاماة . وكان أشد ما يكربه أن الخزانة العامة خاوية ، وأن الحرب الأهلية توشك أن تشب بسبب تمرد الولايات الجنوبية ، فأعلن فى خطبة افتتاح المجلس النيابى أن الحكومة لن تهاجم

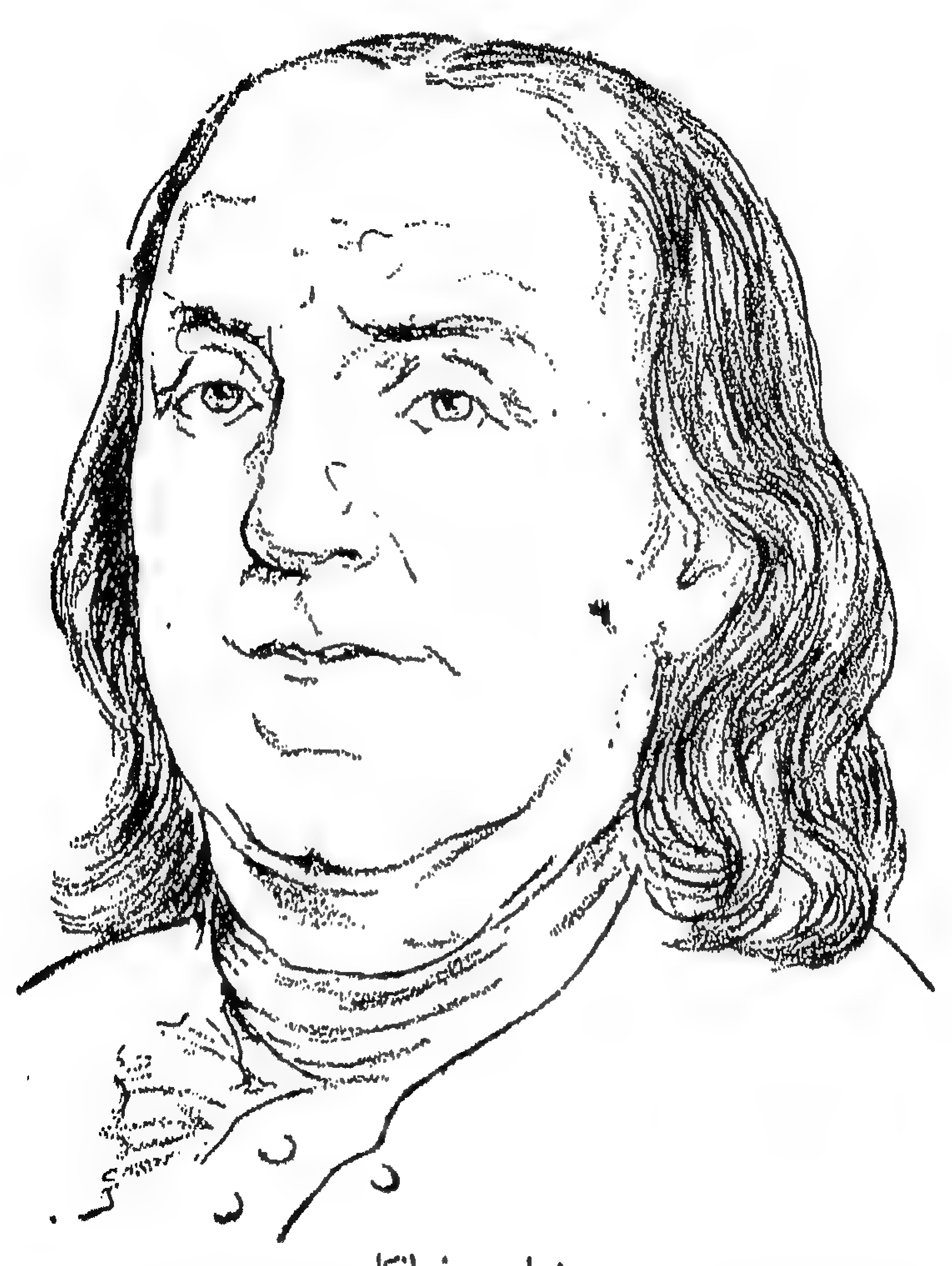
المتمردين فى الجنوب الا اذا بداوا مهاجمتها ، ثم أخذ يكرر الدعوة الى الاتحاد . ولكن الولايات الجنوبية لم تلبث ان هاجمت قلعة « فورت سومتر » فى ابريل سنة ١٨٦١ فبدأ القتال بين الفريقين من ذلك الحين ، وبقى الصراع يشتد ، وتزداد الخسائر ، فى الأرواح والأموال . وكانت انجلترا تساعد الجنوبيين ضد الحكومة فى الشمال حرصا منها على مصالحها الخاصة عندهم . وكان « ويلى » ابن الرئيس لنكولن احد الضحايا العديدين فى تلك الحرب الضروس ، فكانت فجيعته فيه عظيمة ، لكنه بقى بعدها يعلن عطفه الشديد على المقاتلين جميعا من الشماليين والجنوبيين على السواء ، لأن هؤلاء وهؤلاء مواطنوه !

وفى سبتمبر سنة ١٨٦٢ ، أصدر « لنكولن » بيانه الخالد الذى ضمنه قرار تحرير اربعة ملايين من الرقيق ، وما اقبل العام التالى حتى اشتد أوار القتال بين الفريقين ، ووقف « لنكولن » يخطب الناس قائلا : « ان هذه الأمة ستشهد مولدا جديدا لحريتها ، وستكون حكومتها حكومة الشعب ؛ وستبقى خالدة أبد الدهر »

وفى العام التالى،احرزت جيوش الشمال انتصارات كبيرة، واعيد انتخاب « لنكولن » رئيسا للجمهورية ، فاعلن فى خطبة افتتاح البرلمان ان الحرب الأهلية يجب ان تنتهى عاجلا ، لكى تبدا البلاد عهدا جديدا سعيدا من السلام والعدل والرخاء وحسن العلاقات بالشعوب الاخرى

وفى التاسع من ابريل سنة ١٨٦٥ تحققت آمال لنكولن العظيم ، فانتهت تلك الحرب ، وعادت الى الأمة الأمريكية وحدتها ، وزالت معرة الرق عن جبينها

بنيامين فرانكلين



بنيامين فرانكلن

اتخذ لنفسه منذ صباه شعارا هو « ان يعمل ويتعلم » وكثيرا ما آثر ان يبيت طاويا ليشترى كتابا جديدا يقرؤه بدلا من طعام العشاء

الناشر العبقرى

ولد فى ٢٧ يناير سنة ١٧٠٦ بمدينة « بوسطن » . وكان الابن الخامس عشر من سبعة عشر ولدا رزق بهم أبوه « يوشيا فرانكلين » العامل فى صناعة الشمع والصابون ، فكان طبيعيا حين بلغ العاشرة من عمره أن اكتفى والده بتعليمه القراءة والكتابة وألحقه بأحد المصانع ليتدرب فيه على عمل يعيش منه . ولكن الصبى بنيامين كان أكثر طموحا وأملا فى المستقبل فلم يرض لنفسه أن يكون نجارا أو حدادا أو بناء أو صانع أحذية كما أراد له والده ، واقترحت أمه اعداده ليكون قسيسا ، فرضى بذلك حينا ، ثم عزف عن دراسة الدين

عامل فى مطبعة

وحاول أبوه أن يدربه على العمل معه فى صنع الشمع ، ولكن هذه المحاولة لم تنجح أيضا ، وسرعان ما شعر الوالد بأن ابنه الصغير يحاول الهرب من المنزل كما صنع اخوته من قبل ، فأعفاه من العمل معه ، وأجابه الى رغبته فى تعلم فن الطباعة . وكان ابنه الاكبر « جيمس » قد سبق الى تعلم هذا الفن الجديد وأنشأ لنفسه مطبعة صغيرة . فألحقه بالعمل فيها ، وتعهد «جيمس» بأن يجعل من أخيه طابعا ممتازا فى خلال تسع سنين !

وكان هذا العمل الجديد شاقا مضنيا للصبى الصغير ، وزاد فى مشقته أن « جيمس » كان حاد الطبع ، شديد

الوطأة ، لا يكتفى بتدريبه على صف الحروف وادارة آلة الطباعة ، وتفهيمه دقائق الصناعة وأسرارها ، بل يكلفه فوق ذلك كله كثيرا من الاعمال المرهقة داخل المطبعة وخارجها ، ولا يتورع عن ضربه بقسوة اذا لاحظ عليه أى اهمال أو ملال · على أن « بنيامين » لم يبد برغم ذلك تأففا أو تبرما ، بل مضى قدما فى الطريق التى اختارها لنفسه ، ولم يكتف بما لقى من ترقية جزاء مثابرته ودقته وخبرته ، فصار يقضى امسياته فى المطالعة للتزود بما يحتاج اليه من مختلف العلوم والفنون والآداب· وساعده ذكاؤه وطموحه، فلم يمض الا قليل حتى أحس فى نفسه قدرة على الكتابةفى الموضوعات التى كانت تنشر فى الصحف الثلاث التىكانت تصدر فى أمريكا حينذاك ، وفى مقدمتها صحيفة « بريد انجلترا » التى يصدرها ويشرف على تحريرها أخوه · على أنه خشى ألا يشجعه أخوه على المضى فى هذا الطريق خشية أن يلهيه عن الطباعة ، فكتب اول مقال له ولم يوقع عليه ، ثم وضعه خفية فى مكتب أخيه ، فلما قرأه هذا أعجب به ونشره فى صحيفته وهو يحسب أنه لكاتب كبير !

رحلات لطلب الرزق

ولم تقف همة الطابع الشاب عند حد اجادة الكتابة النثرية ، فحاول قرض الشعر أيضا ، وأصاب فى ذلك نجاحا غير قليل · ثم اتفق أن علم أبوه باتجاهه الى الكتابة، فسارع اليه غاضبا ناصحا له بالعدول عن هذا الاتجاه · وفى الوقت نفسهأخذ أخوه يزداد شدة فى معاملته له ، فلم يجد بدا من النجاة بنفسه من العناء الذى يقاسيه ، وغادر المطبعة فى ذات ليلة الى غير رجعة ، اذ ترك المدينة كلها وتوجه الى « نيويورك » ليبحث عن عمل يعيش منه هناك !

لم تطل اقامة « بنيامين » فى نيويورك ، فقد رفضت مطبعتها الوحيدةالحاقه بعمل فيها فواصل رحلته قاصدا الى

« فيلادلفيا » ‥ وكان عليه أن يقطع أكثر الطريق اليها ماشيا ، اذ فرغ ما كان معه من مال قليل ٠ وهكذا لقي من المشقة والعناء ما لا طاقة به لصبي في مثل سنه ، وقبض عليه غير مرة في الطريق باعتباره خادما هاربا ، واجتمعت عليه آلام التعب والجوع وخيبة الرجاء ‥ ثم أتيح له أخيرا أن يجد سفينة صغيرة متجهة الى فيلادلفيا ، ورضي بحارتها باصطحابه معهم في مقابل قيامه بالعمل فيها بقية الرحلة!

جوع ‥ وجمال

وفي فيلادلفيا ، كانت الصعاب والعقبات التي لقيها الصبي الهارب أدهى وأمر ، وقد بقي يذكر يومه الاول فيها حتى آخر حياته ٠ فقد دخلها وحيدا شريدا مهلهل الثياب ، لا يكاد يقوى على المشي من فرط التعب والجوع ، ولم يكن يملك أكثر من ثلاثة بنسات ، فاشترى بها ثلاثة أرغفة من أول خباز صادفه ، ثم سار على غير هدى في طرقات المدينة وهو يقضم في شراهة أحد الارغفة الثلاثة بينما الرغيفان الآخران تحت ابطه ‥ وهناك على باب أحد المنازل التي مر عليها يومذاك وقعت عيناه الزائغتان على فتاة حسناء وقفت تبتسم وهي في دهشة من منظره ، فلم يزد على أن ابتسم بدوره ، ثم انطلق في سبيله مواصلا التغلب على جوعه بقضم الرغيف ‥٠ وبعد سبع سنين على ذلك المشهد الطريف ‥ شاءت الاقدار الا أن تجمع بين ذلك الفتى الشريد وبين تلك الفتاة الحسناء « ديبورا رير » فاذا هما زوجان متحابان سعيدان ، يتبادلان التقدير والاخلاص

يعمل ويتعلم

اتخذ بنيامين فرانكلين شعارا لنفسه منذ وصل الى فيلادلفيا ، هو أن يعمل ويتعلم ‥ وكثيرا ما آثر أن يبيت طاويا ، ليشتري كتابا جديدا يقرؤه بدلا من طعام العشاء!

وما بلغ العشرين من عمـــره حتى بدأ الخطوة الاولى فى سبيل نجاحه العظيم ، فصار صـــاحب « مجلة فيلادلفيا » واستطاع أن يجعل لها مكانا بارزا بين الصحف التى كانت تصدر بأمريكا فى ذلك الحين ، بما أدخل على تحريرها من تحسينات ومبتكرات.وسرعان ما اشتد اقبال القراء عليها، لما وجدوا فيها من مقالات بليغة تعالج الموضوعات التى تتصل بحياتهم ، وتنشر من الانباء ما يثير اهتمامهم ، بجـــانب ما ابتدعته من نشر الاعلانات المختلفة مما عد حدثا جـديدا

وشجع هذا صاحب المجلة الشاب ، فأخذ يستغل خبرته بالطباعة والصحافة فى اخراج نشرات وكراسات مطبوعة كانت النواة الاولى للكتب المطبوعة فيما بعد .. وفى تلك النشرات والكراسات كان عشاق الحرية من الامريكيين فى عصر الاستعمار يجـدون ما يشفى غليلهم ويشبع رغبتهم ويقوى آمالهم من المقالات الجامعة المعـالجة لمختلف الشئون السياسية والاجتماعية .. وكانوا الى ذلك يحصلون عـلى هذه النشرات بثمن مقبول

وما كاد يطمئن الى نجـــاح مشروعاته فى دار الطبـــع والصحـــافة والنشر ، حتى ترك الاشراف الادارى عليها لشريك يثق به ، واكتفى هو بالادارة الفنيـــة ، لكى يقوم بجانب عمله فيها باشباع رغبته فى البحث والدرس وابتكار ما ينفع المواطنين

نواة المكتبات العامة

واستطاع أن يعلم نفسه اللغة الفرنسية ثم الايطاليـــة والاسبانية واللاتينية .. وقرأ روائع الأدب العالمى ، وألم بجميع العلوم المعروفة فى عصره ، كما أتقن العزف عـــلى الكمنجة وغيرها من الآلات الوترية ، وبرع فى لعبة الشطرنج .. وصار من أساطين المحدثين

وبدأ مبتكراته العامة لخدمة مواطنيه،فأنشأ مع بعض زملائه

ناديا يتبادلون فيه الكتب والآراء ، اسمه « نادى الجنتو » أو « الفوطة البيضاء » · وكان المبدأ الذى وضعه لتبادل الكتب بين الاعضاء نواة لانشاء المكتبات العامة التى كانت ولا تزال من أهم الوسائل لتثقيف الشعوب !

نظام حديث للبوليس

وأنشأ بعد ذلك اتحادا أهليا لمكافحة الحريق ، وشركة للتأمين ضده ، واقترح على المسئولين عن حفظ الامن نظاما جديدا كان نواة النظام الحديث للبوليس · ثم أنشأ جمعية لدراسة العلوم ، ودعا الى انشاء مدرسة عالية هى التى صارت فيما بعد « جامعة بنسلفانيا » · كما كانت له اليد الطولى فى انشاء المستشفيات العامة لاول مرة فى العالم

وفى سنة ١٧٣٧ تولى فرانكلين ادارة البريد فى فيلادلفيا، ثم عين مديرا عاما للبريد فى جميع المستعمرات التى كانت تتألف منها أمريكا ، فنقل هذا المرفق الهام من الحالة البدائية التى كان عليها الى العمل طبقا لنظام دقيق جعله أسرع وأنفع ، وفى الوقت نفسه ابتدع فكرة طوابع البريد، ثم نفذها فغطى ايرادها جميع نفقات البريد !

فى الزراعة والصناعة

ويعد فرانكلين فى أوائل رواد البحث العلمى فى الزراعة والصناعة ، وقد نجح بالوسائل العلمية التى استحدثها فى اصلاح قطعة كان يملكها من الارض البور فصارت تنتج أجود الحاصلات ، ووضع بحثا عن حياة النحل ضمنه كثيرا من الملاحظات الدقيقة والبيانات الوافية ، واستطاع أن يستنبط الكهرباء بوسيلة علمية بسيطة لم تزد على طائرة حريرية وحبل من قنب ومفتاح من حديد

في ميدان السياسة

وكان طبيعيا أن تتجه همة فرانكلين الى ميدان الاصلاح السياسي ، واليه يعزى الفضـل الاول فى وضع أول خطة مشتركة لتوحيد صفوف الامريكيين وضمهم فى اتحاد عام، وحينما اشتد الخلاف بينهم وبين انجلترا حـول رغبتهم فى التخلص من استعمارها،لم يجدوا من هو أصلح منه للتحدث باسمهم والدفاع عن مطالبهم ، فأوفدوه الى انجلترا لهـذا الغرض ، حيث مكث فيها عشر سنين ، واصل خلالها العمل لانجاز مهمته،ثم عاد الى فيلادلفيا،ليشترك مع قومه فى الجهاد استخلاصها بالحجج والبراهين ، وعلى أثر عودته عين عضوا فى المؤتمر الوطنى الثانى ، وأسندت اليه مهمة المعاونة على تنظيم الجيش والبحرية وتدبير المـال اللازم لبدء الجهاد . وكان يومئذ قد بلغ التاسعة والستين من عمره ، لكنه تقبل هذه المهمة الشاقة بارتياح ، وأبدى فى سبيل انجازها همة عالية يحسده عليها أقوى الشبان ، وكان له أكبر الفضـل فى حمل جماعة الكويكر على الاكتتاب فى الجهاد !

ولا شك فى أن الاعبـاء التي ألقيت على كاهله فى تلك السن المتقدمة والظروف المصيبة قد خفت كثيرا بعد أن عين « جورج وشنطون » صديقه الحميم قائدا للجيش ، وكان هذا يصغره بستة وعشرين عاما ، وكل منهما مؤمن بصاحبه ، ويضع كل ثقته فيه

وحينما ألفت لجنة اعداد الوثيقة الخاصة باعلان الاستقلال، اختير فرانكلين لعضويتها ، وكان له نصيب كبير فى تحرير هذه الوثيقة التاريخية الخطيرة ، ووقع عليها معه : توماس جيفرسون ، وجون ادامز ، وروجر شـيرمان ، وروبرت لبفنجستون . ثم عرضت على نواب الأمة فوقعوا عليهـا جميعا ، بعد أن ألهب فرانكلين حماستهم بقوله لهم :

ـ اسمعوا أيها السادة .. يجب أن يتعلق بعضنا ببعض حتى لا يعلق كل منا على حدة فى حبال المشنقة !

الشقيقان مايو



الاخوان مايو

كان لنجاحهما الباهر فى كثير من الجراحات المبتكرة المعقدة صدى عميق فى
نفوس كثيرين ، حتى لقد راجت عن نجاحهما حكايات كثيرة اشبه بالاساطير

أبو الطب الأمريكى

فى سنة ١٨٤٥ ، هبط أمريكا مهاجر شـاب ، يختلف كثيرا من حيث الثقافة والهدف عن المهاجرين الذين كانوا يتدفقون عليها من جميع الانحاء فى ذلك الحين ، سعيا وراء العمل والثراء

كان هذا الفتى ـ واسمه « ويليام دبرال مايو » ـ طبيبا انجليزيا ، أتم دراسته ومرانه فى أكبر المستشفيات بلندن وجلاسجو ومانشستر ، واكتسب خبرة ممتازة فى الكيمياء من عمله سنوات مع الكيميائىالكبير « جون والتون » • فلم تكن هجرته الى العالم الجديد للبحث عن عمل ، كما أنها لم تكن عن طمع فى الغنى أو الشهرة ، اذ دلتاريخ حياته فيما بعد على أنه من أشد الناس زهدا فيهما ، وانما هاجر من انجلترا ضيقا وتبرما بازدحامهـــا الذى لا يتفق مع ما فى فطرته من حب العزلة والهدوء ، وسخطا على ماكان يسودها من استعلاء بعض الطبقات على بعض ، الامر الذى لم يكن ينسجم مع تواضعه الجم ورقة طبعه ودماثة خلقه وبغضـه الشديد للكبرياء والمتكبرين !

وشاءالقدر أن يستقر المقام بالطبيب الشاب فىالولايات الغربية ، وهى يومئذ لا تعرف من الاطباء غير جماعات من الدجالين الذين لا علم لهم ولا خبرة ، وانما كل همهم أن يغرروا بجماهير المرضى البســطاء لكى يبتزوا أموالهم ، ويمتصوا دماءهم ، معتمدين على ما يقومون به لانفسهم من دعايات كاذبة جوفاء !• وعلى هذا لم يرض لنفسه أن يكون

زميلا لأمثال هؤلاء الدجالين ، وآثر أن يترك لهم ميدان الطب حرصا على كرامته التى يعتز بها ، وضنا بالمهنة التى يجلها ويقدسها على الهبوط بها الى الدرك الاسفل الذى يعملون فيه • وقضى زهاء ثلاث سنوات متنقلا بين أعمال أخرى فى مدن تلك الولايات وقراها ، ثم انتهى به المطاف الى مدينة « لافييت » بولاية « انديانا » •• حيث أنشأ مصنعا لحياكة الملابس ، واستطاع أن يحرز نجاحا كبيرا !

ومضت خمس سنوات،غلبه الحنين الى الطب فى نهايتها، فاذا به يضحى بمصنعه الناجح ، لكى يدخل جامعة « ميسورى » فى سنة ١٨٥٣ حيث حصل منها على درجة طبية جديدة ، ثم يرحل ومعه زوجته الى مقاطعة «مينسوتا» فى الجانب الاقصى من الحدود الامريكية ، وهناك قضى بضعة أشهر فى الطواف بالقرى البدائية المنعزلة والقفار المحيطة بها ، لتفقد أحوال القبائل الهندية القاطنة هناك ، ودراسة عاداتها وتقاليدها وكل شىء فى حياتها

وحينما نشبت الحرب الاهلية بعد ذلك ، عين الدكتور مايو جراحا فى الجيش الاتحادى ، وكان من نصيبه أن أقام طول فترة هذه الحرب بمدينة « روشستر » الصغيرة ، ثم حببت اليه الحياة بها بعد انتهاء الحرب ، فاعتزم الاقامة الدائمة بها ، وأنشأ لنفسه عيادة فى منزل صغير بالشارع الثالث فيها ، كما سكن وزوجته فى المنزل نفسه ، وجعل من احدى غرف المنزل معملا يجرى فيه ما يعن له من تجارب وأبحاث

نجح الدكتور مايو نجاحا عظيما فى عيادته الخاصة ، وكان لمعرفته السابقة بأهل المنطقة وحسن معاملته اياهم أثر كبير فى هذا النجاح • على أن الجانب الاكبر من نجاحه يرجع ولا شك الى عاملين مهمين آخرين : احدهما اخلاصه وتفانيه فى حب مهنته ، والآخر حبه لأهل تلك المنطقة

ورغبته الصادقة القوية فى خدمتهم بخاصة وخدمة الامريكيين مواطنيه الجدد بعامة !

وهكذا قسم الطبيب الشاب وقته بين العمل فى عيادته ومعمله وبين المشاركة فى النشاط الاجتماعى والسياسى فى المنطقة والولاية كلها ، ولم يكف مع هذا كله عن الاستزادة من معلوماته ، بالمطالعة المنظمة، والقيام برحلات استطلاعية فى المناطق المجاورة ، وفى الولايات الشرقية للمدارسة والمباحثة مع كبار الاطباء فيها

ولم يمض قليل حتى لمع اسمه وبرزت شخصيته وصار موضع الحب والاجلال من الجميع ، ولاسيما بعد أن تعددت الخدمات العامة التى قدمها للأهلين ، كابتكاره نظاما للصحة العامة فى المدينة ، وسعيه فى سبيل انشاء مكتبة عامة بها ، وفى سبيل توسيع مدرستها، فضلا عن دعوته كثيرين من العلماء والاطباء الذين عرفهم فى الولايات الشرقية وغيرها الى زيارة المدينة والقاء محاضرات عامة بها

وقد رزق بولدين : أولهما « وليم » الذى ولد فى سنة ١٨٦١ ، والثانى « شارلى » الذى ولد فى سنة ١٨٦٥ ، وكان طبيعيا أن نشأ ولداه على حب مهنة الطب ، والرغبة فى أن يكونا طبيبين مثله ٠ ولم يدخر هو جهدا فى تقوية هذه الرغبة وتنميتها ، فكان يصطحبهما منذ طفولتهما الى عيادته ، والى جولاته فى المزارع القريبة حيث يشاهدان فى اغتباط ما يقوم به من الفحص والعلاج ٠ وما كادا يشبان عن الطوق حتى كان كل منهما يعرف الكثير من أسرار المهنة، ويعرف جميع الاجهزة والادوات التى يستعملها أبوه فى العيادة والمعمل ٠ لكثرة ما شاهداها ، وساعدا والدهما فى استعماله اياها !

وواصل الطبيب العالم جهوده الطيبة فى سبيل اعداد ولديه ومعاونتهما على التفوق فى دراساتهما الجامعية والشخصية ، وما تخرجا فى سنة ١٨٨٣ حتى عادا الى

« روشستر » حيث استأنفا العمل مع والدهما، لا مساعدين في هـذه المرة بل طبيبين أصيلين ، وسرعان ما أحرزا ثقة الأهلين

كانت سنة ١٨٨٣ بداية تحول في تاريخ آل مايو ، ففى هذه السنة التى بدأ فيها العمل المشترك للاطباء الثلاثة ، الوالد وولديه ، هبت عاصفة شـــديدة في اليوم الحـادى والعشرين من شهر أغسطس ، أتت فى دقائق معـدودات على جانب كبير من المدينة الصغيرة التى يعملون فيها ، وكان ضحايا هذه الكارثة كثيرين جداً ، فشمر الاطباء الثلاثة عن سواعدهم وأخذوا يواصلون العمل لاسعاف الجرحى وعلاجهم في مستشفى مؤقت اتخذوه لذلك في قاعة للرقص بأحـد المنازل التى تشملها كارثة العاصـفة الهوجاء . وواجهتهم مشكلة كبرى هى مشـــكلة تمريض ذلك العدد الكبير من المصـابين . ولكنهم سرعان ما تغلبوا على هذه المشـكلة اذ استطاعوا اقناع رئيسة دير القديس فرنسيس ، القائم على مقربة من المدينة ، بأن تمدهم بطائفة من راهبات الدير ، ليقمن بمهمة التمريض !

ومضت أشهر ، والعمل يجرى بنجاح فى المســـتشفى المؤقت الذى أقامه آل مايو، ولم يكن اعجاب الناس بالتضامن التام بين الاطباء الثلاثة البروتستانيين وبين أولئك المرضات من الراهبات الكاثوليكيات بأقل من اعجابهم بالهمة الصادقة التى بذلت فى المستشفى وكان لها كل الفضل فى تخفيف آثار النكبة الفادحـــة التى نزلت بالمنطقة ، من جراء تلك العاصفة القاصفة !

وعرضت رئيسة الدير على آل مايو استعدادها للاشتراك معهم فى انشاء مستشفى دائم فى المدينة باسم القديســة مارى ، ليعالجوا فيه المرضى والجرحى من أهل المنطقة جميعاً، بلا تفريق بين أديانهم وألوانهم وحالاتهم المالية، وتم الاتفاق على ذلك أخيرا ، واستغرق اعداد المستشفى الجديد سنوات،

تناوب الاطباء الثلاثة خلالها القيـام برحلات لزيارة المعاهد والمستشفيات الكبيرة في الولايات الشرقية، للبحث والدرس واقتباس أحدث النظم وأحسنها

وبدأ العمل في مستشفى القديسة مارى سنة ١٨٨٩ ، وأقبل المرضى عليه من أنحاء المنطقة وما يجاورها، ولم تمض سنتان حتى كان اسم « مايو » يتردد في جميع أنحاء أمريكا مشفوعا بأكبر الاجلال والاعجاب ، وبدأ الاطباء أنفسهم في الولايات الاخرى يبعثون الى المستشفى بالمرضى الذين يحارون في تشخيص أمراضهم وعلاجها ، وهناك يجد هؤلاء المرضى من العناية والرعاية ، ما يلهج ألسنتهم بالدعاية الضخمة للمستشفى والقائمين بالعمل فيه !

▭

وأخيرا .. رأى الدكتور وليام مايو أن ولديه النجيبين الشابين صارا جديرين بأن يستقلا بادارة المستشفى الناجح الكبير ، فتركه لهما ، وتفرغ للمهام السياسية والاجتماعية التى اضطلع بها بوصفه عضوا في مجلس الشيوخ بالولاية، وبقى كذلك حتى اعتزل العمـل فى المجلس فى الرابعة والسبعين من عمره

وكان أول ما صنعه الطبيبان الشقيقان بعد استقلالهما بادارة المستشفى ، أن قررا تزويده بكل ما من شـأنه أن يدعمه ويوسـع نطاق الخدمات التى يؤديها ، وعلى هـذا الاساس المتين أخذا يضمان اليه كل نابه كفء من العلماء والاطباء والكيميائيين ، ويزودانه بكل مستحدث من الاجهزة والآلات والادوات !

وحرصا في الوقت نفسه على معاملة جميع المعاونين لهما أحسن المعاملة ، بل حرصا على أن يكون عمـل هؤلاء فى المستشفى على أساس أنهم شركاء . وكان الدكتـور هنرى

بالمر فى مقدمة العلماء الاكفاء الذين انضموا الى المستشفى، فما لبث قليلا حتى جعل من معامله أكبر مؤسسات علمية من نوعها ، وصار فى استطاعتها أن تقدم مساعدات فنية لا يمكن تقدير قيمتها لعدد كبير من الاطباء والباحثين، وعلى مر الوقت تحول المستشفى من بضع غرف فى الطابق الثانى من بناء المعهد الماسونى بالمدينة ، الى بناء مجمع ضخم يشغل مساحة كبيرة جدا ، والى جواره عشرات من الملحقات المنشاة على أحدث طراز، بين مصحات لايواء المرضى ، وأخرى للعناية بالناقهين ، ومؤسسات للاستشفاء ، وفنادق مختلفة لاقامة من شاء من النزلاء

لم يكن النجاح العظيم الذى أحرزه الشقيقان مايو ليقعد بهما عن مواصلة الدرس والبحث،وقد زودهما ذلك بأصدقاء كثيرين من العلماء والاطباء فى مختلف أنحاء أمريكا ، كما بقيت صلاتهما وثيقة بكبار الاطباء الذين عرفوهما بالولايات الشرقية فى مستهل حياتهما العملية ، كالدكتور برايس فى فيلادلفيا،والدكتور هلستيد طبيب مؤسسة جون هوبكنس، وغيرهما من كبار الاطباء فى نيويورك وبوسطن

وكان لنجاحهما الباهر فى كثير من الجراحات المبتكرة المعقدة صدى عميق فى نفوس الامريكيين جميعا ، حتى لقد راجت عن نجاحهما هذا حكايات كثيرة أشبه بالاساطير ، وحدث يوما أن أرسل الدكتور « ول » الى صحيفة طبية فى احدى الولايات الشرقية بحثا ضمنه طريقة ابتكرها لعلاج المرارة بالجراحة ، وكانت هذه الجراحة من التعقيد بحيث لم يصدق نجاحها رئيس تحرير الصحيفة ، فلم ينشر البحث الخاص بها ، وأعاده الى صاحبه بالبريد !

جیمس وات



جيمس وات

واصل جهاده صابرا على التعب والمرض والفقر حتى اصبح لعظمتـه
وعبقريته العلمية العالمية يعد اعجب رجل انجبتـــه انجلترا ...

مخترع أول آلة بخارية

هناك فى مدينة « جرينوك » الصغيرة باسكتلندة ، ولد « جيمس وات » فى ١٩ يناير سنة ١٧٣٦ ، وكان والداه الفقيران يختصانه بمزيد من حنانهما وعطفهما ، لأنه اضعف أولادهما جسما ، وأرقهم طبعا ، واوفرهم ذكاء . وحينما حال ضعف صحته دون الحاقه بالمدرسة كاخوته ، تكفلت والدته بتعليمه فى المنزل،فتلقى عليها مبادىء القراءة والكتابة والحساب ، ووجد منها خير تشجيع على ممارسة هوايتيه المفضلتين وهما : الرسم ، وأصلاح الآلات والأدوات المنزلية !

ومنذ السادسة من عمره،بدا شغفه الشديد بكل ما يتصل بالعلم والمعرفة ، فكان يمضى الساعات الطوال كل يوم فى تأمل الأشكال الهندسية المختلفة ، محاولا رسمها بالطباشير الملون على جدار الموقد بالمنزل ،او تكوينها بواسطة القطع الخشبية الصغيرة . كما كان يطيل التأمل فى « غلاية الشاى » ومراقبة أثر البخار المتصاعد منها فى غطائها ، أو فى ملعقة أو نحوها ، يقربها من ذلك البخار . وفى الوقت نفسه كان ولوعا بقراءة القصص الخيالية والاستماع لها ، وروايتها لاخوته وأترابه بطريقة مشوقة جذابة ، تدل على موهبة ممتازة فى سعة الخيال وقوة الذاكرة وعذوبة الحديث !

طالب ممتاز

ولم يكن عجيبا أن يبرز تفوقه على اقرانه الذين يتعلمون فى المدرسة،وما بلغ الرابعة عشرة من عمره حتى كانت ذاكرته العجيبة قد وعت ما قراه فى عشرات من الكتب العلمية

المختلفة ، وفى مقدمتها كتاب فى فلسفة الطبيعة لم يكن يحسن فهمه من الكبار الا قليلون !.. وكان حريصا على تطبيق ما يتعلمه ، فأخذ لنفسه مصنعا خاصا بالمنزل، فصنع بعض ادواته وآلاته بنفسه ، ومن بينها آلة كهربائية كان يحلو له ان يداعب أصدقاءه الصغار بصدماتها، كما صنع آلات عديدة لرفع الأثقال ، ومضخات ، واصلح كثيرا من الآلات والأدوات المستعملة فى السفن ، وحصل على معلومات فلكية قيمة

يعمل ليعيش

رأى « جيمس وات » حين بلغ الثامنة عشرة من عمره ان رقة حال اسرته توجب عليه الا يجشمها عناء اعالته ، فسافر الى «جلاسجو» ليتعلم هناك صناعة الآلات الرياضية، ووصل الى تلك المدينة وهو لا يملك غير ملابسه التى عليه ، وبعض أدوات النجارة التى حملها معه . وكان اغتباطه شديدا حين اتيح له الحصول على عمل يقوم بأوده ، فى مصنع صغير لاصلاح شباك الصيد والقيثارات والصفارات وما اليها !

وبعد ايام ، لقيه فى جلاسجو قائد بحرى سابق ، كان صديقا لأبويه ، فأشار عليه بالسفر الى لندن للبحث عن عمل اليق به واكبر اجرا ، فسارع الى العمل بهذه المشهورة . ومكث فى العاصمة البريطانية أياما شقية بائسة ، ثم وفق أخيرا الى الالتحاق بورشة ميكانيكية يواصل الكدح فيها منذ الصباح حتى العشاء

وما انتهت تلك السنة حتى كان « جيمس وات » قد حذق الميكانيكا وبرع فيها ، فعاد الى جلاسجو معتزما انشاء مصنع لنفسه بها، ولكن نقابة الصناع فى المدينة لم ترخص له فى انشاء المصنع المطلوب ، بحجة أنه لم يمض المدة المقررة للتعلم والتدرب !.. فكاد اليأس يستولى عليه ، ثم رق له قلب أستاذ فى الجامعة فأفرد له حجرة بها يمارس فيها

صناعته المحببة ، ويجرى تجاربه لحسابه الخاص !

وصنع « جيمس وات » آلات كثيرة ، لها مزايا لا يستهان بها ، غير أن الاقبال عليها لم يكن كبيرا ، فاضطر لكى يعيش الى التحول عن صنع تلك الآلات الميكانيكية الى صنع الآلات الموسيقية واصلاحها،وفى سبيل ذلك درس نظريات الموسيقا وصناعة آلاتها المختلفة حتى اتقنها بعد أشهر معدودة ، ووفق الى صنع أرغن مبتكر نال كل الاعجاب ممن شاهدوه وجربوه !

دراسته لقوة البخار ..

وفى الثامنة والعشرين من عمره عرض عليه معمل الجامعة أن يقوم باصلاح مضخة بخارية لامتصاص المياه من مناجم الفحم ، هى نوع من الآلة الهوائية التى اخترعها « توماس نيوكومن » . فأتيحت له بذلك فرصة ثمينة لدراسة علمية عملية دقيقة ، وبدأ يفكر فى اختراع آلة تدور بقوة البخار !. وفى هذه السنة نفسها تزوج بالآنسة « مرجريت ميللر » فوجد من اخلاصها له واعجابها بعبقريته خير مشجع له على المضى فى تنفيذ ذلك الاختراع !

قضى « جيمس وات » بضعة اشهر يواصل العمل ليل نهار فى سبيل اختراع تلك الآلة الجديدة

وكانت العقبات التى تعترض سبيله كثيرة ، وفى مقدمتها فقره وقلة ما لديه من وسائل وأدوات لازمة لاجراء تجاربه المتعددة . وبرغم ذلك كله لم يجد اليأس الى نفسه سبيلا ، واخذ يستخدم الزجاجات العادية لحفظ البخار ، ويستخدم لنقله أنابيب القصب وما اليها ، ثم استأجر حجرة أخرى وشرع فى صنع الآلة المنشودة طبقا للنموذج الذى ابتكره

وفيما هو منهمك فى العمل ، فوجىء بعقبة جديدة ، هى موت مساعده الاول ، فى وقت شدة الحاجة اليه . وكانت الذيون قد تراكمت عليه لانعدام كل انتاج آخر فى مصنعه ؛

وساءت حال اسرته الى حد كبير .. على انه تحامل على نفســـه وواصل العمل بهمة لا تعرف الكلل حتى انتهى من صنع الآلة .. ولكنه ما كاد يشرع فى تجربتها حتى انهــارت صروح آماله كلها ، واســــفرت التجربة عن فشل تام ، لا لنقص فى الفكرة التى بنى عليها اختراعه الخطير ، ولكن لضعف الالات والأدوات التى استعملها فى اخراجه مضطرا

كاد الياس يقعده

وكاد الياس يغلبه ازاء تلك الصدمة القاسية،ولكن زوجته الوفية عرفت كيف تعيده سيرته الاولى من الهمة والطموح والأمل ، ولم يمض قليل حتى قبل الدكتور «جون رويبك» مؤسس مصانع حديد «كارون» أن يمد يد المساعدة للمخترع الشــاب الفقير ، فتولى تسـديد ديونه ، وكانت قد بلغت خمسة آلاف دولار ، واشار عليه بالسفر الى لندن للحصول على براءة بحق اختراع الآلة الجديدة ، فحصل على هذه البراءة بعد جهد جهيد ، ثم عاد الى جلاسجو حيث شرع فى صنع الآلة من جديد

ومضت سنتان ، بذل خلالهما « جيمس وات » كل ما فى وسعه من قوة وحيلة لانجاز اختراعه ، وكانت العقبات التى اعترضت طريقه فى هذه المرة اشد وانكى ، فالمستر رويبك غرق فى الديون فلم يستطع الاستمرار فى مساعدته،وزوجته الحبيبة الوفية توفيت فجاة تاركة له ثلاثة أولاد لا معين لهم سواه ، لكنه مع هذا استمر فى جهاده ، صابرا على التعب والمرض والفقر ، الى ان انتهى من صنع الآلة سنة ١٧٧١ .. ثم كانت الصدمة الكبرى حين أسفرت تجربتها عن الفشل ايضا ، نتيجة لرداءة اسطواناتها ، ولأن القطع التى استطاع الحصول عليها لصنعها كان ينفذ منها الهواء والبخار ، ولم يفد فى علاجها سد خروقها بالفلين والخرق المشبعة بالزيت وكان احيانا لا يجد حتى هذه الخرق فيضطر الى سد تلك

الخروق بقطع ينتزعها من قبعته !

وكانت النتيجة لهذا الفشل الجديد ان عاد جيمس وات وهو فى الخامسة والثلاثين من عمره الى البحث عن عمل آخر يعول به نفسه وأسرته ، فعمل مهندسا مدنيا

نجاحه فى اختراع الآلة البخارية

كان مستر « روبك » ـ شريك « وات » السابق ـ قد حدث عنه صديقا له من كبار أقطاب الصناعة فى برمنجهام ، هو المستر « متى بولتن motea Boulton » صاحب احدى المؤسسات الكبرى لصناعة الساعات والأدوات المعدنية والزهريات المقلدة . وكان هذا بدوره يدرس آلات البخار ويؤمن بمستقبلها الباهر ، فأخذ يفاوض « وات » للاتفاق معه على تنفيذ مشروعه فى مؤسسته ، على أن يعطيه ثلث ما يغله صنعها وبيعها من الأرباح

وكان طبيعيا أن وافق « وات » على هذا العرض ، ولكن مستر « بولتن » بقى ثلاث سنوات بعد ذلك مترددا فى التنفيذ ، فعاش « وات » خلال هذه السنوات معلقا بين اليأس والرجاء ! ولقى من المتاعب ما كان له أكبر الأثر فى ازدياد ضعف صحته ، على أنه سرعان ما تناسى ذلك كله حين بدأ تنفيذ الاتفاق ، وتم صنع الآلة الجديدة واسفرت تجربتها فى هذه المرة عن نجاح باهر ؟ ثم بدات الطلبات تنهال على المؤسسة من جميع الأنحاء لشراء الآلة البخارية الجديدة !

وفى ذلك الحين ، تزوج « وات » للمرة الثانية ، وكانت زوجته الجديدة « أنا ماك جريجور » ربة بيت ممتازة ، فاستطاعت أن تكفل له ولأولاده عيشة راضية

وازداد مستر « بولتن » تقديرا لشريكه مخترع الآلة البخارية الاولى واعجابا بعبقريته وخلقه ، حين رفض «وات» ما عرضته عليه الحكومة الروسية أن يعمل لحسابها، فى مقابل خمسة آلاف دولار ، وكان مثل هذا المبلغ يعد ثروة

كبيرة فى ذلك الحين !

بيد ان كثيرا من المؤسسات والمصانع بدات تنتج آلات بخارية رخيصة ، تغمر بها الأسواق ، مقلدة آلتهما المبتكرة . وعبثا حاول الشريكان منع ذلك التقليد !

وفى خلال هذه المتاعب والمضايقات ، كان « وات » يقضى الساعات الطوال كل يوم فى معمله بالمؤسسة عاكفا على تجاربه وابحاثه لاخراج مخترعات جديدة أخرى . وقد وفق فى ذلك الوقت الى صنع آلة للطباعة ولكن الاقبال عليها لم يكن كبيرا، لما شاع يومئذ من ان استعمالها قد يؤدى الى انتشار التزويرا

آلة لطحن الدقيق

وفى ذلك الوقت ايضا ، اخذ « بولتن » يلح عليه فى صنع آلة بخارية لطحن الدقيق ، وقد تم صنع هذه الآلة على يد « وليام ماردوك » رئيس عمال المؤسسة ، وكان مخترعا ذا مواهب عظيمة ، نشر فوائد الاضاءة بالغاز ، وصنع أول نموذج للقاطرة ، وابتكر استعمال جلد السمك لصنع الفراء بدلا من الباغة . وقد حصل الشريكان « بولتن » و «وات» على حق انتاج هذه الآلة الجديدة ، وكلفهما صنعها ما يزيد على مائتى الف دولار ، وكان رواجها عظيما بعد ان جاهدا فى سبيل ذلك اعظم الجهاد لتذليل العقبات

وبعد ذلك بقليل ، اخرج « وات » اختراعين جديدين كان لهما أكبر الأثر فى تقدم الصناعات وهما : جهاز الحركة المتوازية « Parallel motion » وجهاز التحكم فى سرعة الآلة

وفى سنة ١٨٠٠ ، اعتزل « وات » عمله فى المؤسسة ، وحول اسهمه فيها الى ولديه: « جريجورى » . و «جيمس» ثم اقام بمنزل شاده فى « هينفيلد » على مقربة من برمنجهام

وفى سنة ١٨١٩ ، توفى « جيمس وات » مخترع اول آلة بخارية عن ثلاثة وثمانين عاما قضاها فى جهاد متواصل لخدمة العلم والعالم

میشیل فاردای



ميشيل فاراداى

اضطر بعد عامين من التحاقه بالمدرسة الى مغادرتها للبحث عن عمل يكسب منه ما يقتات به ، ولكن ذلك لم يحل دون ان يصبح من كبار العلماء

موزع الصحف الذى صار أعظم عالم !

كان مولده مبعث حزن وشقاء ويأس لأسرته كلها ، ففى ذلك الحين ، سنة ١٧٩١ ، لم تكن حرفة الحدادة التى يكد ابوه طول يومه فى ممارستها تدر عليه ما يكفىالأسرة حاجاتها الضرورية ، حتى أنها اضطرت الى مغادرة مسكنها المتواضع لعجزها عن دفع أجره الزهيد ، واستقرت فى « حظيرة » مهجورة بجانب أحد الاسطبلات !

وكثيرا ما تعرض واخوته للموتتأثرا بالبرد القارسالذى ليس لديهم ما يدفعونه به ، بل كثيرا ما تعرضوا للموت جوعا ، لعودة والدهم من عمله خالي الوفاض ، أو برغيف واحد من الخبز اليابس الرخيص ، يقسم على أفراد الأسرة

ولما بلغ السادسة من عمره ، الحقه والده بمدرسة أولية مجانية تعلم تلاميذها مبادىء القراءة والكتابة والحساب ، وقد أظهر الصبى ميلا شديدا الى التعلم ، واستطاع أن يظل متفوقا على أقرانه فى خلال السنتين اللتين قضاهما بتلك المدرسة ، ولكنه اضطر بعدهما الى ترك الدراسة والاكتفاء بتحصيل ذلك القدر الضئيل من المعرفة ، لكى يبحث لنفسه عن عمل يكسب منه ما يقتات به

موزع للصحف

وكان العمل الأول الذى وفق الصبى اليه أن عمل لدى بائع للكتب والصحف فى لندن ، فينهض مع فجر كل يوم ليحمل على كاهله الواهن حزمة ثقيلة من الصحف والكتب ،

ثم يمضي بها من شارع الى شارع وسط ضباب لا يكاد يتبين طريقه فيه ، لكي يطوف بالمنازل تاركا صحيفة فى احد المساكن وكتابا فى مسكن آخر . . وهكذا الى أن يتم توزيع كل حمله الثقيل فى نحو ساعتين ، ثم يعود فيجمع ما وزعه صحيفة صحيفة ، وكتابا كتابا ، مع تحصيل الأجر المقرر لقراءتها ، وهو بنس واحد عن كل نسخة ، واخيرا ينتهى به الطواف الى المكتب الذي يعمل فيه ، فيسلم صاحبه صحفه وكتبه والبنسات التى قرئت بها ، ويسلمه هذا اجره الزهيد

تجلد كتب

امضى ميشيل عاما كاملا فى ذلك العمل المرهق الذى لا يطيقه صبى مثله لم يبلغ العاشرة من عمره

واعجب صاحب العمل بهمة موظفه الصغير وصبره الجميل ، وبما تبين له من امانته ووداعته وذكائه ، فاعفاه من ذلك العمل المجهد الذى لا يلائم سنه وطبعه ، واخذ على عاتقه تعليمه صنعة تجليد الكتب ، ليتيح له باحترافها بعد ذلك عملا أقل اجهادا واوفر اجرا

وفى اسابيع معدودة ، الم الصبى الذكى بدقائق حرفته الجديدة ، واخذ فى ممارستها بنشاط وخبرة وحرص على السرعة والاتقان . وكان لزيادة اجره اثر محمود فى تحسن صحته وحالة اسرته ، مما ادخل السرور على قلبه . ولكن سروره كان اشد ، لان عمله الجديد هيأ له فرصة ثمينة طالما راودت خياله وتراءت له فى احلامه ، وتلك انه اصبح يجد متسعا من الوقت لكى يقرأ ما يحلو له من الكتب والصحف ، ويرضى بذلك نزعته وميله الفطرى الى الاطلاع

كانت علوم الطبيعة ، وما يتعلق منها بالكهرباء خاصة ، اشد ما استهوى قلب الصبى المحب للمعرفة واجتذب مشاعره وآماله . وبدأ ولوعه بهذا النوع من العلم يشتد بعد أن قرأ كتاب « مناقشات العلوم » للأستاذ « مارست

Marcet » وأطلع على بحث شامل عن الكهرباء فى دائرة المعارف البريطانية . وفيما هو راجع الى مسكنه بعد يوم حافل بالعمل الشاق ، لفت نظره أعلان عن مجموعة من المحاضرات فى التاريخ الطبيعى يلقيها الاستاذ « فتمان » . وحز فى نفسه أن الاستماع لكل من هذه المحاضرات حدد له رسم قدره نصف جنيه،وافضى بهذا الأمر الذىأهمه واحزنه الىشقيقه « روبرت » الذى يكبره بثلاث سنوات ويعمل حدادا كأبيه ، فرثى هذا لحالته ، ولم يسعه الا بمعاونته على تحقيق هذه الرغبة ، كما سمح له صاحب المحل الذى يعمل فيه بالتغيب عنه فى مواعيدها ، وتطوع أحد زملائه لاعطائه دروسا فى الرسم لكى يستطيع أن يوضح بالرسوم ما يسجله من مذكرات عن تلك المحاضرات !

وبعد قليل ، التقى به فى محل تجليد الكتب العالم المشهور « سير همفرى » الاستاذ بالمعهد الملكى ، فاعجب به الى حد كبير ، وسهل له دخول المعهد للاستماع لمحاضراتأربع القاها هناك . وما كاد ينتهى منالقائها حتى تلقى من « ميشيل » رسالة رقيقة يشكر له فيها فضل تيسير استماعه لتلك المحاضرات،ويشيد فى تفصيل دقيق بما تضمنته من نظريات وملاحظات،ثم يرجو انيجد من عطفالعالمالكبير ما يساعده على الالتحاق بأى عمل فى المعهد ، ليسهل عليه التزود بما يحتاج اليه من الدروس !

وكان « سير همفرى » من العصاميين الذين شقوا طريقهم فى الحياة بأنفسهم ، فرق قلبه للصبى الفقير الطموح ، وكتب اليه يعده بأنه سيعمل على أجابة طلبه بعد عودته من رحلة اعتزم القيام بها ، وينصح له بمواصلة الدرس والبحث ،

شعاع من الأمل ..

كان الخطاب الذى تلقاه « ميشيل » من سير « همفرى » خير مشجع له على المضى فى الطريق العلمى الذى اختطه

لنفسه ، فبـدا يخصص الجانب الأكبر من وقتـه للبحث والاطلاع وإجراء تجارب أولية فى الكهرباء . على أن الظروف التى تلت ذلك كانت من القسوة بحيث قوضت كل ما شيده لقد مات أبوه فى تلك الفترة ، فصار عليه أن يخلفه فى اعالة والدته واخوته الصغار ، وانتقل الى العمل فى محل لتجليد الكتب يملكه فرنسى مريض الأعصاب ، اخذ يثقل عليه علاوة على العمل بألوان سخيفة من التعليمات والملاحظات ، ويشتد فى لومه وتعنيفه لأتفه الأسباب

وفى ذات يوم ، فوجىء الصبى بشعاع من الأمل شق ظلمة اليأس المحيطة به ، ولم يكن ذلك الشعاع سوى بطاقة من سير همفرى يدعوه فيها الى موافاته فى صباح اليوم التـالى بمكتبه فى المعهد . وامضى ليلته لم يغمض له جفن ، وكانت نتيجة المقابلة فوق كل ما تصور ، فقد بشره العالم الكبير بأنه سيعينه « مساعد محضر » فى المعمل التابع للمعهد !

ولم يكن « سـير همفرى » فى حاجـة الى وقت طويل لكشف ما للمساعد الصـغير من مواهب ومزايا ، وهكذا سرعان ما أولاه ثقته ، واخذ يعهد اليه فى اجراء بعض التجارب الدقيقة التى يقوم هو بها فى المعمل

رحلة علمية

وما هى الا شهور معدودة ، حتى اتيحت لميشيل فاراداى فرصة ثمينة لم يكن يحلم بها، وكان لها اكبر الأثر فى مستقبله وذلك ان سير همفرى اصطحبه فى رحلته التالية الى مختلف انحاء أوربا ، وكانت رحلة طويلة استغرقت زهاء سنة ونصف سنة، طاف خلالها مع استاذه الكبير بمختلف المعاهد والمعامل والمؤسسات العلمية بالقارة ، وشهد مئات من التجـارب واستطاع ان يقوم فى المعمل بتجارب خاصة بأبحاثه المستقلة، كما اتيح له ان يلقى سلسلة من المحاضرات عن اكتشافاته الخاصة ، استمع لها كثيرون من المثقفين

أول بحوثه العلمية

وفى السنة نفسها نشرت له مجلة « كوارترلى جورنال » العلمية أول أبحاثه عن « الجير الكاوى » ثم ستة أبحاث لخص فيها تجاربه فى الغازات والمعادن . كما ألقى سلسلة أخرى من المحاضرات ، عن اكتشافاته العلمية فى معمل المعهد ولم تكتمل السنة التالية حتى كان قد نشر سبعة وثلاثين بحثا جديدا ، واخرج كتابا عن « خلط الصلب » . وقدم للمعهد بحثا خطيرا عن مركبين جديدين

دخلت حياة « ميشيل فاراداى » فى طور آخر بعد تلك الفترة التى توالت فيها مظاهر نجاحه العلمى ، وكان قد بلغ الثامنة عشرة من عمره أو نحوها ، وتعرف الى فتاة مهذبة جميلة بادلها الاعجاب والحب ، وكادت تجعل منه شاعرا يدبج قصائد الغزل والتشبيب ، لولا أن كلل ذلك الحب العنيف العميق المتبادل بالزواج العاجل السعيد ، فعاد الزوج الشاب الى تجاربه وابحاثه العلمية

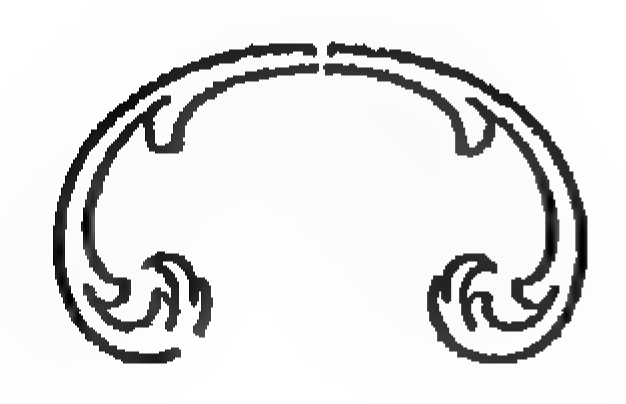
وفى خلال السنين العشرين التى تلت ذلك ،اصبح « ميشيل فارادى » الذى بدأ حياته عاملا فقيرا لدى بائع صحف أعظم عالم فى عصره ، اذ انتخب زميلا فى الجمعية الملكية ، ودعاه معهد لندن الى القاء اثنتى عشرة محاضرة عن اكتشافاته فى الكيمياء ، كما انه ألقى ست محاضرات فى الجمعية الملكية عن « الفلسفة الكيميائية » ونشر ستة أبحاث عن «المغناطيسية» ثم بدأ تنظيم محاضرات علمية مبسطة يلقيها بأسلوب جذاب على الأطفال ، وصار الجميع يحرصون على الاستمتاع بالإستماع لهذه المحاضرات ، من اكبر رجال البلاط الملكى ، الى أفقر العمال فى الأحياء الشعبية

الكشف الخالد ..

وأنتج فى أثناء ذلك ١٥٨ بحثا علميا ، وثلاثين مجموعة من التجارب الدقيقة الجديدة فى الكهرباء . ثم بدأ ابحاثه فى

« المغنــاطيسية الكهربائية » الى ان وفق اخيرا الى ذلك الكشف العظيم الخالد الذى اثبت به ان المغناطيسية تنتج الكهرباء ، فكان ذلك ايذانا بمولد عصر الآلات الكهربائية . ثم قدم بعد سنوات كشفين آخرين جليلين : أولهما الخاص بسريان الكهرباء وهو الذى على أساسه بنى نظام التليفون الحديث ، والآخر هو الخاص باثبات اختلاف أنواع الكهرباء

وفى التاسعة والأربعين من عمره ، شعر بتضعضع قواه بعد تلك الجهود الجبارة التى بذلها ، فغادر لندن ومعه زوجته الى رحلة فى الخارج للراحة والإستجمام . وطالت هذه الرحلة الى خمس سنوات ، وقضى أكثرها فى الريف ، سعيدا بمشاركة اهله البسطاء حياتهم . وما كاد يعود للندن بعد ذلك حتى استأنف جهاده العلمى فى معمله الحبيب ، فبدأ يبحث علاقة الكهرباء بالضوء ، واجرى فى ذلك تجارب عديدة لا تحصى ، كللت بنجاحه الخالد فى اكتشاف طريقته لحفظ شعاع من الضوء ، وعلى هدى هذه الطريقة العظيمة قدر للعالم أن ينتفع بالمصباح الكهربائى المتوهج ، بعد سنوات على يد توماس أديسون !



جوسیلی غاریبالدی



جوسيبى غاريبالدى

نشا فقيرا فقد كان ابوه صيادا ايطاليا فقيرا يعول اسرة كبيرة ، ولكنه ما ان بلغ اواسط العمر حتى كان الشعب الايطالى باسره يهتف باسمه ويمجده

الصياد الذى حرر ايطاليا !

كانت أمواج البحر الثائرة أول ما تفتحت عليه عيناه من صور الحياة ، فلا عجب ان كان البحر والثـــورة هما أبرز الخطوط الرئيسية فى لوحة حياته الخالدة ، التى امتـــدت ثلاثة أرباع قرن من الزمان ، منذ مولده فى «نيس» بجنوب فرنسا سنة ١٨٠٧ ، حتى أسلم روحه فيها سنة ١٨٨٢ ، وكانت تلك الامواج الثائرة نفسها آخر ما رأته عيناه !

وما أبعـــد الفرق بين حال « جوسيبى غاريبالدى » فى أخريات أيامه ، حيث كان يتطلع الى تلك الامواج من نافذة منزله الجميل ذى الحديقة المزدهرة الغنـــاء ، وبين حاله فى مطلع حيـــاته وهو يتطلع الى الامواج فى المنطقة نفسها من نافذة الكوخ الوضيع الذى نشأ فيه هو وأخوته مع والدهم الصياد الايطالى الفقير !

هناك فى ذلك الكوخ ، كان الطفل « جوسيبى » كثيرا ما يشعر بالألم الممض من عضات البرد والجوع ورهبة الخوف من المستقبل المظلم المجهول ، ومن الظـــلام الموحش الذى يمتد فيما وراء الأفق ، وتلك الصخور والممرات الجبليـــة المحيطة بالكوخ !

ميله للمغامرات

وقد طالما حلق خياله حينذاك فى جو القصص العجيبـــة والمغـــامرات المثيرة التى كان البحارة يروونها عن رحلاتهم البعيدة الخطيرة ، وود لو يتاح له أن يكون من أبطـــال تلك

الرحلات ، وأن تروي عن مغامراته أمثـــال تلك القصص والاساطير • ولكن هذه الأمنية كانت أكبر من أن تحققها له ظروفه التعسة التى لازمت نشأته ، فبقى حتى بلغ الثامنة عشرة من عمره ، دون أن يستطيع القيام برحلة خاصة به ، يمضى فيها حيث يشاء ، ويغامر كما يشاء • على أن رحلته الخاصة الاولى لم تكن على شيء من التوفيق ، وتحول بعدها الى قراءة الكتب العلمية والرياضية ، والى الاســـتزادة من المعرفة باللغات المختلفة التى يعرفها قدماء البحارة ، ثم لم تمض على ذلك ثلاث سنوات حتى خرج من تلك العزلة ليبدأ أولى رحلاته البحرية الحقيقية، بوصفه قائدا مساعدا للسفينة « كورتيزى » التى كانت تتاهب للقيام برحلة تجـارية الى موانيء البحر الاسود !

كان « جوسيبى غاريبالدى » قد شـــاهد « روما » فى احدى الرحلات التى صحب والده فيها • وقد راعتـه آثار المدينة القديمة الخالدة فى العاصمة الايطاليـــة حينذاك ، واستطاع ـ وهو الصبى الصغير الفقير ـ أن يلمس الفارق العظيم بين حياة الايطاليين القوية الغنية فى ذلك المـــاضى البعيد السعيد ، وبين حياتهم الراهنة الذليلة البائسة، تحت نير الاستعمار والطغيان !

خطر القراصنة

وشاء القدر ان تتعرض السفينة « كورتيزى فى رحلتها لخطر القراصنة الذين كانوا منتشرين فى تلك المناطق البحرية حينذاك وقد أبلى «جوسيبى» وبحارة السفينة أحسن البلاء فى الدفاع عن أنفسهم وعما تحمله سفينتهم من بضائع ومؤن، ولكن القراصنة عاودوا الهجوم عليها ثلاث مرات فى عرض البحر ، وتمكنوا فى المرة الثالثة من التغلب على المدافعين عنها بعد أن قتلوا وجرحوا كثيرين منهم ، وهكذا نهبوا كل ما كان فيها حتى قلاعها وآلاتها، وتركوا الباقين من بحارتها

على ظهرها ، مجردين من كل سلاح ، بل مجردين من أى طعام أو شراب أو كساء !

وكان الفتى « جوسيبى غاريبالدى » من هؤلاء المساكين الذين تركوا ليهلكهم البرد والظمأ والجوع ، أو لتبتلعهم الامواج مع سفينتهم المخربة المنهوبة • ولم يكن هناك أى بصيص من الأمل فى نجاتهم من ذلك المصير الرهيب ، لكنهم مع ذلك استمروا يكافحون فى سبيل الحياة ، وكتب لهم أخيرا أن يصلوا بسفينتهم المحطمة الى القسطنطينية حيث أسعفوا بالماء والغذاء والكساء ، ورثى لهم بعض زملائهم من بحارة السفن الراسية بالميناء ، فالحقوهم بالعمل معهم فى تلك السفن ، الى أن تحين الفرصة لعودتهم الى وطنهم سالمين !

على أن « غاريبالدى » لم يستطع مشاركة زملائه فى ذلك الحل لمشكلتهم ، فقد وقع فريسة لمرض شديد ، اضطره الى التخلف فى القسطنطينية ، حيث آواه بعض المهاجرين الايطاليين ، وسهروا على تمريضه وعلاجه ، حتى كتبت له النجاة من ذلك المرض والتحق بالعمل فى سفينة تابعة لملك سردينيا !

ايطاليا الفتاة

أمضى « جوسيبى غاريبالدى » فى عمله البحرى الجديد زهاء خمس سنين ، طاف خلالها بكثير من بقاع العالم ، وواجه كثيرا من العواصف والاخطار • ولكن حب الحياة البحرية بقى مسيطرا على قلبه ، وفى الوقت نفسه كان عقله دائم التفكير فى حال وطنه وما آل اليه من فقر وهوان ، وفيما يمكن أن ينقذ هذا الوطن ويحرره من نير الظلم والطغيان !

وعقد فى ذلك الحين « مؤتمر فينا » • وأخذ المؤتمرون المنتصرون يمعنون فى تقطيع أوصال الوطن الايطالى المغلوب على أمره ، ويقتسمون مناطقه فيما بينهم ، فكانت « لومباردى »

و « فينيسيا » من نصيب النمســـا ، وكانت « بارما » و « لوكا » من نصيب مارى لويز ، وضمت صقلية بقسميها الى فرديناند الثانى

وعز على « غاريبالدى » أن يقف مكتوف اليدين ازاء هذه المظالم الفادحة التى نزلت بوطنــه الحبيب ، وكان على يقين من أن الموت أو السجن هما نصيب كل ايطالى تحدثه نفسه بالوقوف فى وجوه الطغاة الاقوياء المنتصرين ، أو المجاهرة بمعارضة ذلك التقسيم الذى قرروه فى مؤتمرهم المذكور. لكنه رأى الموت والسجن أحب اليـــه من التســليم بذلك التقسيم المهين. ثم هداه بحثه هذا الامر الى المبادرة بالسفر الى «جنوا» حيث اشترك فى العمل مع محام شاب من أهلها هو «جوسيبى مازينى» كان قد أنشأ جمعية باسم « ايطاليا الفتاة » للعمل على انقاذ البلاد وجعلها جمهورية حرة مستقلة

وفيما كان القائدان الشابان يستعدان لبدء التنفيـذ ، وشى بهما خائن من أعضـاء الجمعية الى السلطات المحتلة ، فتمكنت من احباط تلك المؤامرة ، واعتقلت كل من كانت لهم صلة بها ثم أرسلتهم الى المشنقة .. ولكن «غاريبالدى» تمكن من النجاة بروحه ، وفر متنكرا فى ثياب ريفيــة عبر ممرات الجبال السويسرية ، ثم تمكن من السفر على احدى السفن الى جنوب أمريكا ، حيث انضم الى مواطنيه المهاجرين فى « ريو دى جانيرو » . ولقى من تقديرهم ومساعدتهم له ما مكنه من شراء سفينة صغيرة أخذ يستغلها فى التجـارة على طول الساحل هناك !

الثورة من أجل الحرية

لم يكن « غاريبالدى » لتشغله غربته عن أهله ومواطنيه الغرباء فى ديارهم، وقد تأصل فى نفسه حب الحرية والثورة فى سبيلها ، حتى لو كانت هـــذه الحرية لشخص آخر أو لوطن غير وطنه. وعلى هذا ماكادت جمهورية «ريو جراندى»

تثور على البرازيل لاسترداد حريتها ، حتى اندفع الى التطوع للاشتراك في هذه الثورة ، وأعد سفينة حربية صغيرة لهذا الغرض ، أطلق عليها اسم « مازيني » زميله في الجهاد ، ودرب على العمل معه فيها نخبة من الثوار المجاهدين . وكللت مغامراتهم الاولى بنصر باهر ، اذ تمكنوا من أسر سفينة معادية كبيرة واستولوا على حمولتها الثمينة من النحاس، ولكن مغامرتهم التالية لم يقدر لها النجاح، وانتهت بوقوعه ورجاله جميعا في الأسر ، بعد اصابته في المعركة بجرح بليغ !

وطال أسره شهورا عديدة ، قاسى فيها ألوانا من العذاب الشديد ، لكنه ما كاد يظفر بحريته بفضل مساعي احدى السيدات حتى خف الى « ريو جراندى » ليواصل كفاحه المجيد مع أبنائها الثائرين الاحرار !

وهناك في تلك المدينة التي اتخذها وطنا ثانيا ، وجد الزوجة التي تليق بمجاهد ثائر حر مثله ، وهي مجاهدة جميلة قوية الشخصية من أسرة عريقة ، كما وجدت فيه هي فارس أحلامها المنشود ، وهكذا كان « غاريبالدى » وزوجته « أنيتا » مثلا أعلى للشريكين الوفيين المتعاونين في الحياة الزوجية ، وفي ميدان الكفاح ضد الطغيان والاستبداد

في ميدان التحرير

رأى غاريبالدى بعد ذلك أن من حق أسرته الصغيرة عليه أن يتيح لها شيئا من الراحة والهدوء ، فانتقل بها الى مدينة «مونتفيديو» حيث اشترى منزلا بسيطا هناك ، وأخذ يعمل في التدريس . على أنه لم يقطع صلته باخوانه المجاهدين الاحرار أفراد الفرقة الايطالية التي اشتهرت بمغامراتها الجريئة وأعمالها المجيدة في كفاح التحرير بجنوب أمريكا

ولم يمض على ذلك قليل حتى كانت هذه الفرقة بقيادته قد برزت الى القتال في ميدان جديد ، هو ميدان النضال

لتحرير جمهورية أورجواى • وسرت أنبـاء الفرقة مسرى الكهرباء حتى سمع العالم كله بأمرها وأعجب بها،وما كادت الحرب تنتهى بانتصار جمهوريةأورجواى حتى سارع شعبها الى تكريم غاريبالدى وفرقته ، وقرر منحه رتبـة جنرال ، ومنح فرقته قطعة كبيرة من الارض•ولكن غاريبالدى رفض في شمم وأباء أن يأخذ أىأجر أو مكافاة لقاء جهاده وفرقته، وقال لمن ألحوا عليه في قبول تلك الهدية :

ـ ان قبولها يتنافى مع أول مبادئنا وهو الجهاد فىسبيل الحرية ، ولا شيء غير الحرية !

في ذلك الحين ، كان غاريبالدى قد بلغ الحادية والاربعين من عمره ، ومضت احدى عشرة سنة على مغادرته وطنــه الاول ايطاليا هربا من المشنقة !

وترامت الى سمعه أنباء طريفة سارة ، عن اســتعداد « شارل البرت » ملك سردينيا لمنح شعبه حرية دسـتورية تساعده على التحرر من النير النمســوى الثقيل • فآمن الثائر الطريد أن قد حانت ساعة عودته لوطنه البعيـد كي يستأنف العمل لتحريره ، واختار من أفراد فرقته ســتة وخمسين رجلا ، أبحر بهم وبأسرته الى « نيس » على سفينة أعدها لهذا الغرض وأطلق عليها اسم « الاسبيرانزا » •• أى الأمل ! وكان يرفرف فوق ساريتها علم سردينى صنعته زوجته من ملاءة بيضاء وقميص أحمر وحلة قديمة خضراء !

على أن « شارل ألبرت » ملك سردينيا ، خشى على عرشه من غاريبالدى ذى الميول الجمهورية المتطرفة ، فرفض تطوعه للجهاد بفرقته في الكفاح مع شعبه ضد النمسويين

وكانت الصدمة عنيفة قاسية ، ولكن غاريبالدى ورجاله ما لبثوا قليلا حتى وجدوا أمامهم ميدانا أرحب وأكرم لابراز مواهبهم ومزاياهم ، ففى ٢٨ من ابريل سنة ١٨٤٩،أعلنت الجمهورية فى روما نفسها ، وهب شعبها يدافع عن استقلاله وحريته ، فسارع غاريبالدى الى هناك ، وانضم وفرقتــه

المشهورة الى القوات الشعبية ، للدفاع ضد الجيوش الجرارة التى أرسلها لويس نابليون من فرنسا وامبراطور النمسا لتأييد البابا بيوس التاسع واخماد ثورة الايطاليين

واستمرت الحرب ثلاثة أشهر ، ثبت فيها غاريبالدى وفرقته فى النضال مع شعب روما ثبات الجبال ، وانتقل القتال من شارع الى شارع ، ومن منزل الى منزل ، ولكن المجاهدين الاحرار كانوا أقل عددا وعدة ، وهكذا لم تستطع قوات الجمهورية الشعبية أن تواصل الصمود أمام الجيوش الفرنسية والنمسوية ، فاستسلمت فى النهاية ، ودخل البابا روما مرة أخرى ليستأنف حكم شعبها بقوة الحديد والنار . ولكن غاريبالدى أبى وحده أن يذعن لهذه النهاية الذليلة ، فقرر الانتقال بفرقته وأسرته الى البندقية « فينيسيا » ليستأنف كفاحه فى سبيل تحرير الشعب

وما أقبلت سنة ١٨٥٩ حتى حانت الفرصة التى طالما تمناها « غاريبالدى » .. اذ أعلن نابليون الثالث الحرب على النمسا ، وهب الشعب الايطالى بقيادة السياسى العظيم « كافور » لتحرير نفسه من النير النمسوى الثقيل . وسرعان ما دعاه « كافور » وعينه قائدا للقوات الايطالية الشعبية فى جبال الالب

وحمى وطيس المعارك بين الايطاليين والنمسويين ، ولمع اسم « غاريبالدى » فى جميع الميادين بفضل ما أبداه من ضروب الجرأة والبسالة والخبرة بفنون القتال

ولم تجد النمسا مناصا من الجلاء عن « لومباردى » التى قاد غاريبالدى صفوف المقاتلين من أبنائها الاحرار ، وعلى أثر ذلك سارع على رأس فرقته الى صقلية لتحريرها من حكم الطاغية فرنسيس بن فرديناند الثانى ، وسارع الصقليون جميعا الى الانضواء تحت راية محررهم المحبوب، وكلل جهاده بالفوز المبين . وأصبح الشعب الايطالى كله

يهتف باسمه ويمجده مشيدا ببطولته • ولو أنه شاء في ذلك الحين أن يكون دكتاتورا لايطاليا لبايعه الشعب على ذلك بالاجماع ، ولكنه آثر أن يعود الى حياته البسيطة الهادئة في جزيرة « كابريرا » بعد أن حرر صقلية وأسلمها الى رعاية « فيكتور عمانوئيل » ملك ايطاليا في ذلك الحين !

انتصار الحرية

بقي « غاريبالدي » فترة غير قصيرة يترقب أمر الملك بالزحف على روما واعلانها عاصمة للبلاد ، ونفد صبره أخيرا ، فتولى هو نفسه أمر ذلك الزحف ، على رأس ثلاثة آلاف من جنود فرقته المشهورة • وشد ما كانت غضبة الشعب حين تصدى الملك لوقف ذلك الزحف خشية اغضاب فرنسا ، وأرسل قواته الملكية فأحاطت بالفرقة الزاحفة وأسرت قائدها ، بل قائد جهاد التحرير ، ولم يسع الملك ازاء ثورة الشعب الا أن يطلق سراح غاريبالدي من السجن الذي وضع فيه ، فعاد الى حياته بالجزيرة ، ثم زار انجلترا في سنة ١٨٦٤ فقوبل فيها بأبلغ الحفاوة والترحيب • وما كاد يعود من رحلته حتى عاودته فكرة الزحف على روما ، وما لبث أن حاول تنفيذها للمرة الثانية في سنة ١٨٦٧ ، ولكن الحظ خانه في هذه المرة أيضا ، وانتهى الامر بأسره والزج به في السجن من جديد !

وأخيرا ، قدر لأحلام غاريبالدي أن تتحقق فجأة ، فحاقت الهزيمة بجيوش نابليون الثالث في « سيدان » وانسحبت الفرقة الفرنسية من روما ، فدخلها الملك فيكتور عمانوئيل ، دون أية مقاومة ، وأعلنها عاصمة لايطاليا !

وكلاء مجلات دار الهلال

سوريا ولبنان	:	شركة فرج الله للمطبوعات ـ مركزها الرئيسى بطريق الملكى المتفرع من شارع بيكو فى بيروت (تليفون ٧٨ ـ ١٧) صندوق بريد١٠١٢ ـ أو باحدى وكالاتها فى الجهات الأخرى . (الأعداد ترسل بالطائرة للشركة وهى تتولى تسليمها لحضرات المشتركين)
العـــراق	:	السيد محمود حلمى ـ صاحب المكتبة العصرية ـ ببغداد
اللاذقيـــة	:	السيد نخلة سكاف
مكة المكرمة	:	السيد هاشم بن على نحاس ـ ص.ب٩٧
البحرين والخليج الفارسى	:	السيد مؤيد احمد المؤيد ـ مكتبة المؤيد ـ البحرين
برقـــة	:	السيد محمد على بوقعيقيص ـ بنغازى ـ ص . ب ١٠٤
البـــرازيل	:	Snr. Jorge Suleiman Yazigi, Rua Varnhagem 30, Caixa Postal 3766, Sao Paulo, Brazil.
ساحل الذهب	:	The Queensway Stores, P.O. Box 400. Accra, Gold Coast, B.W.A.
نيجـــريا	:	Mr. M.S. Mansour, 110, Victoria Street, P.O. Box 652, Lagos, Nigeria, W.C.A.
انجـــلترا	:	مكتب توزيع المطبوعات العربية Arabic Publications Distribution Bureau 15 Queensthorpe Road, London, S E 26.

هذا الكتاب

سئل أديب كبير : « أى انواع القراءة احب اليك ؟ » . فأجاب : « قراءة تراجم العظماء » وقد صدق هذا الأديب ، فان لكل عظيم حياة تمتاز بالتجارب النافعة ، والمثل العليا ، ويجد فيها القارىء أصدق العبر ، وأبلغ الدروس

وقد سبق لكتاب الهلال أن أصدر كتبا عن طائفة من العظماء ، ولـكنه فى هذه المرة يقدم بمعاونة مؤسسة فرانكلين «القاهرة ــ نيويورك» كتابا من نوع جديد يختص بالعصاميين العظماء

وقد احتوى هذا الكتاب على عشرين حياة عظيمة : عشرة من الشرق ، وعشرة من الغرب لـكل من أصحابها لون خاص من العصامية الأصيلة التى حطمت العقبات . وقد كتب الجزء الاول نخبة من نوابغ الـكتاب ، وترجم الجزء الثانى عن « كتاب أولاد فقراء صاروا مشاهير » للسيدة سارة بولتون ، وهى كاتبة أميركية نابغة اختصت بالكتابة عن المشاهير .

واشرف على وضع هذا الكتاب الأديب الكبير والمربى الجليل الأستاذ محمد فريد ابو حديد ، فكان جديرا بموضوعه ، ممتازا باخراجه

